مجموعة اللفحات

في النقد الأدبي

علي محمد العُمير



من منشورات نادي جازان الأدبي







ح مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة ، ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمير، علي محمد

مجموعة اللفحات في النقد الأدبي / علي محمد العمير - جازان، ١٤٢٣هـ

٨١٦ ص ـ ١٧×٢٤سم

ردمك : ٤-٦١-٦٢٢-٩٩٦٠

١ ـ الأدب ـ نقد ٢ ـ الأدب العربي ـ نقد أ. العنوان

ديوي ٨٠٩ ١٤٢٣/٦٥٥٠

رقم الإيداع : ١٤٢٣/٦٥٥٠

ردمك : ٤-٦١-٦٢٢-٩٩٦٠



١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م

مقـــدمــة

هذه مجموعة كتب متوسطة الحجم سبق طبعها، ونشرها، ونفادها ما بين عامي ١٤٠٢هـ، ١٤٠٦هـ وجميعها ذات محور واحد هو (النقد الأدبي).

وقد مضى على نفاد آخر كتاب منها أكثر من (١٦ عامًا) ولم يكن نشري لها أصلاً إلا على سبيل التجربة.. أو الاختبار لمدى رواجها.. أو مدى تقبلها حيث لم يسبق لي نشر أي كتاب قبلها.

وكنت أخشى كثيرًا من فشلها، ولكن اتضح لي - من خلال التجربة - نجاحًا كبيرًا.. لم أكن أتوقعه بأي حال من الأحوال رغم أني قد طبعت خمسة آلاف نسخة من كل منها.. بل أعدت طباعة بعضها مرة ثانية بالكمية نفسها لكل كتاب رغم معرفتي الأكيدة بأن العادة عند كثير مَن أصحاب الكتب بما فيهم الكبار جدًّا هي عدم طبع أكثر من ثلاثة آلاف نسخة.

ومعظم دارات النشر لا تطبع أكثر من ذلك إلا نادرًا كما علمت شخصيًّا من كثير منهم.. علمت أيضًا أنه لا يمكن إعادة الطبع في خلال أربع سنوات كما فعلت.

فلم أشك أن ذلك كان من توفيق الله، وعونه.. فحمدت، وشكرت.. ثم دفعني ذلك إلى طبع مزيد من كتبي.. فلاقت النجاح نفسه.. بل أعيد طبع بعضها أيضًا بعد فترات قصيرة.. وكنت دائمًا أطبع الكمية نفسها (خمسة آلاف نسخة من كل كتاب) سواء في الطبعة الأولى أو الثانية.

* * *

وعندما كنت في غمرة فرحي، حدثت لي بعض الظروف التي حالت بيني وبين أي نشاط.. أو حتى وظيفة لاستحالة التزاماتي..

فتوقفت مرغمًا عن أي نشاط سواء في الكتب أو غيرها.

وكانت فكرتي في عدم طبع هذه المجموعة في كتاب كبير واحد منذ البداية هو خوفي من الفشل فخطر لي أن أطبعها في كتب متوسطة الحجم، واحدًا بعد آخر لمجرد التجربة كما أسلفت.

***

وأما الآن، وبعد مضي (١٦ عامًا).. فقد رأيت جمعها في مجلد واحد، ولكن أسبابي المشار إليها ما زالت مستمرة (أسأل الله سبحانه وتعالى إزالتها عني) حتى لقد توقف أيضًا بسببها نشاط (دار العمير للثقافة والنشر) لكونها تعتمد - بعد الله - على شخصي بما له من بعض خبرة، وعلاقات، وما إلى ذلك.

وهي التي كنت أطبع كتبي من خلالها، وضمن مطبوعاتها التي وصلت إلى مايقارب المائة كتاب غير كتبي (١٨) كتابًا.

. فلم أجد - مع كل ذلك - غير الاستعانة بإخواني، وأحبابي في (نادي جازان الأدبي) حيث دفعت لهم بهذه المجموعة من الكتب الخاصة بجهدي في مجال (النقد الأدبي) حتى عام (١٤٠٥هـ) ليقوموا بتولي إجراءات طبعها على حساب النادي على شكل (مجموعة كاملة) وكان المفروض أن أكون قد طبعتها منذ البداية لولا ما سلفت الإشارة إليه.

***

وبعد كل ما قلته إلى الآن أعرف ما جرت العادة عليه في مقدمات الكتب، وهو - على أدنى تقدير - ذكر ما لا بد من ذكره من قبل المؤلف عن موضوع الكتاب، وبعض التفاصيل عن دافعه لتأليف كتابه.. والحديث عن بعض محتوياته، وقبل

ذلك ذكر منهجه، ونحو ذلك مما يعرفه الجميع.

والمفروض أن أفعل ذلك أو بعضه في هذه المقدمة، ولكن هناك ضمن موضوعات كل كتاب مقدمته الأصلية.

وهي مجموعة مقدمات مسهبة، وأكثر من كافية لغاية التقديم.. بل فيها جميعها ما هو أكثر من كونها مجرد مقدمات حيث اشتملت على الكثير من آرائي المتواضعة عن أحوال النقد الأدبي عندنا، قوة.. أو ضعفًا.. أو مسارًا.. أو نحو ذلك.

بل هناك أيضًا في المقدمات المذكورة لذعات حارقة عن سوء تقبل النقد الأدبي عند أدبائنا، وما يثير ذلك من (معارك أدبية) حامية الوطيس.. لا تكاد تُبقي، ولا تذر!!

***

وقد احتوى هذا الكتاب على بعض النماذج من المعارك الأدبية الواسعة، والبالغة العنف، وتبادل التقريع.. وزيادة على ذلك - من جهتي - استخدام السخرية الشديدة - رغم ما تثيره من بسمات، وضحكات، واستخدامي أيضًا للتنكيت، والتبكيت.

وبالطبع يقابلني خصومي بأشد، وأقسى ما عندهم.. وكل ذلك.. بل بعضه يؤدي إلى الخصومات، والحزازات، وغير ذلك.

***

ولكن يوجد في هذا الكتاب (محاورات) محترمة جدًّا.. ومنها.. بل أهمها - على سبيل المثال - محاورتي المطولة عن (الحداثة) مع صديقي الرائع (الدكتور عبدالله الغذامي).

وذلك لأنه هو.. وأنا أيضًا ليست لدينا أدنى حساسية نحو النقد.. أو اختلاف الرأي.. وليس عند أي منا أي (تضخم ذاتي) ولا أقرب شيء منه.

ولذلك تبادلنا الآراء، واختلفنا فيها، وطال بنا ذلك فلم يؤد - كما هي العادة - إلى

معركة، ولا خصومة، ولا حزازات.. بل أدى بنا ذلك ـ وهذا ما يندر تمامًا ـ إلى توطيد صداقتنا، وتضاعف المحبة بيننا إلى الآن.. فهل سمعتم بشيء من مثل هذه الروعة في نتائج المحاورات، واختلاف الآراء.. ذلك نادر للغاية كما أسلفت!!

***

ولذلك كله.. أو حتى بعضه لا يجعل هذا الكتاب في حاجة إلى مقدمة ضافية أو غير ضافية حيث فيه ذاته عدة مقدمات وافية كافية.

أما طلب المقدمات من الغير، وخاصة من كبار المشاهير فأنا أحتقر ذلك احتقارًا.. بل أراه تسولاً ذليلاً مهينًا.. لا يليق بكرامة مؤلف يحترم نفسه، وتأليفه.. ولست بحاجة إلى تسول الثناء من الكبار أو الصغار فيما يسمونه مقدمات، وليس هو غير إهانات لا يمكن أن أطيقها، ولا أفكر فيها.. والله المستعان.

السخرية والقسوة في النقد الأدبي

يأخذ عَلَيَّ بعض الزملاء، والقراء ما أمارسه ـ أحيانًا ـ في كتاباتي المتواضعة من سخرية شديدة أو بعض قسوة، وخاصة في النقد الأدبي، والاجتماعي أيضًا!!

وذلك رغم علم معظمهم برقتي، وبساطتي، ومصداقيتي سواء في التعامل.. أو في كتاباتي الكثيرة التي فيها من اللين، والنعومة أكثر مما يجب!!

ويعجبون من هذا الذي يبدو لهم تناقضًا عندي، وهو ليس كذلك.. بل الحقيقة التي يعرفها عني الزملاء، والقراء أنني أبعد ما أكون عن التناقض ـ سواء في الكتابة أو غيرها!!

***

وكل ما في الأمر أن نوعية الموضوع الذي أتناوله .. أو أكتب عنه هو الذي يستوجب السخرية، أو الشدة، أو اللين، أو البساطة، أو الثناء أيضًا، وذلك ما تثبته كتاباتي وكتبي، وهي دائمًا ـ منذ أكثر من أربعة عقود ـ تحت أنظار القراء والزملاء.. ولكنهم ـ كما هو الحال في أشياء كثيرة ـ ينسون جانب اللين، وهو الأكثر.. ولا يذكرون غير السخرية .. أو ما يعتبرونه (قسوة شديدة) !!، ولست أنكر ذلك حيث بعض موضوعاتي مثيرة للحنق، أو الغيظ، أو الغضب فتكون سخريتي أو قسوتي!!

ولكن هناك موضوعات كثيرة ليس فيها ما يوجب ذلك فأكتبها بكل تواضع، ورفق، ولين، وشفافية قد تجعلني في موضع تهمة (المجاملة) وخاصة بالنسبة للثناء مثلاً مهما كان على حق!!

***

وهكذا أقع بين تهمتين، أو كمّاشتين.. بَيْدَ أني لا أبالي بشيء من التهم، أو القيل والقال؛ حيث لا أكتب شيئًا بغير قناعة، وثقة، ومصداقية، وذلك هو اتفاقي مع نفسي منذ بدأت الكتابة إلى الآن.. ولا أبالي مع ذلك بأي ردود فعل مهما كانت!!

***

والواقع أن الكتابة ـ مثلها مثل كثير من شؤون الحياة، تخضع لدوافع متعددة.. أهمها طبيعة، أو سجية الكاتب نفسه، وروافده الثقافية، وتأثره بنوع معين من الكتابة والقولبة معه، واتخاذه الأسلوب الخاص به.. إلخ.

وعندما يصل الكاتب إلى التمكن من كل ذلك إلى درجة فوق العادية فإنه يشتهر بذلك، ويثبت في أذهان القراء الذين يتسع لديهم المجال لقبول هذا، ورفض ذاك، أو بعض قبوله فذلك هو حال الكاتب في كل زمان، ومكان.. مهما ارتفع أو تواضع، ولكن لكل ساقطة لاقطة!!

***

ولست غير واحد من الكُتّاب ـ سواء في شدتي، أو ليني ـ فلا بد من اختلاف وجهات النظر حول ما أكتبه، وهذا ما يحدث ـ بطبيعة الحال ـ مع أكابر الكتاب وأشهرهم، بل إنه كلما برز الكاتب وارتفع مستواه، وصار في عداد الكبار يكون عرضة أكثر من غيره للأخذ والرد.

وقد قيل في الأمثال: (لا يرجم إلا مثمر الشجر)!!

ولا يمكن اشتهار كاتب، وثباته، واستمراريته إلا بمدى إرضائه لثقافات أكبر عدد من القراء، وميولهم، وأذواقهم مع استعداد لقبول الرأي الآخر، بل ترحيبه الكامل به حيث ربما يفيده ذلك أكثر من الاتفاق معه دائمًا أو أحيانًا!!

***

أما قسوة الكاتب، أو شدة سخريته فهناك الكثير من القراء الأذكياء الذين يعرفون مدى ضرورتهما في موضوعات معينة.. فلا ينكرونهما.. بل يرونهما في المكان المناسب لهما!!

وليست قسوة الأسلوب بدعًا في الكتابة - منذ أقدم القدم إلى الآن - بل هي موجودة مبثوثة في كتب الأدب العربي، شعره، ونثره، ونقده، قديمه وحديثه.

وكلنا نعرف ما يوجد من ذلك في أمهات الكتب التراثية الأدبية، وغيرها من كتب السابقين، واللاحقين من أئمة الأدب أو قممه الشامخة.

وقد اشتهر بها الكثير من فطاحل الشعراء، وبعض نقادهم.. أو (شراح) دواوينهم، والروايات المتداولة عنهم، بل حتى الخلفاء الذين كان بعضهم على جانب كبير من دقة النظر في الشعر بخاصة مثل (عبدالملك بن مروان)، أو (معاوية بن أبي سفيان)، أو غيرهما سواء من الخلفاء أنفسهم.. أو من الأكابر - كانوا يقسون بشدة في نقدهم.. أو ملاحظاتهم الغاية في الدقة، وفي القسوة أيضًا!!

ولا ننسى أن (الهجاء) في الشعر العربي أشد، وأفحش بكثير جدًا من أية قسوة في النقد الأدبي أو غيره من الموضوعات، ورغم ذلك نعجب به أو بمعظمه، وهو مسألة مستقلة في الشعر العربي.

***

ولست أعني بذلك موافقتي على هتك أعراض الناس.. أو شدة تحقيرهم.. أو الحط من أقدارهم.. بل أقصد بما أشرت إليه من الإعجاب بشعر الهجاء الناحية الفنية، والشاعرية.. وليس غير ذلك!! حيث لكل إنسان حرمته التي لا يجوز تجاوزها إلا إذا كان ذلك في حدود معقولة.. ولا ننسى - بالمناسبة - أن (عمر بن الخطاب) - رضي الله عنه - كان يشتري أعراض الناس من فُحَشَاء الهجّائين الشعراء.

ولكن ليس من ذلك.. ما يحصل من (قسوة) فيما يكتبه الكُتّاب، وبخاصة في النقد الأدبي، أو غيره من الموضوعات، أو الشطحات الغبية، أو الجهل الفاحش، أو الموضوعات التي لا تعالج إلا بقدر من الشدة، أو القسوة.. سواء بالسخرية اللاذعة.. أو بالتنديد الشديد.. أو بالإنكار والاستهجان؛ لكي يعلم أصحاب هذه الموضوعات أن (الحبل ليس مفلوتًا على الغارب).

وأن الشعر.. أو الأدب لا يعدم من الغيرة عليه من قبل نقاد.. أو كُتّاب يعرفون جيدًا مدى قدره، ومكانته، وما يمثله بالنسبة للأمة - بل للأمم - من عزة وفخار، حيث هو من صميم فكرها، وثقافتها، ومعارفها، وصواب آرائها، وحكمتها إلى غير ذلك.

ومن ثَم لا يمكن السماح لجاهل، أو غافل، أو حتى (مثقف) بتناول شيء من ذلك حيث - عندئذ - لا بد من القسوة معه بما يستوجب وقفه عند حده بما قسا من أسلوب.. أو لذع من سخرية.. أو اشتد من تناول، حيث أمثال هؤلاء لا صواب في ملاينتهم.. أو تركهم يعمهون، ويعبثون!!

***

وعلى ذكر السخرية أو القسوة نجد بعضهم يصفها بكلمة (التجريح) أو نحوها، وهم يتوسعون جدًّا في البعد بها عن معناها الحقيقي إلى أن أصبحنا - غالبًا - ما نجدها في غير مكانها مطلقًا في كثير مما نقرأ، ونسمع.. بل حتى كلمة (القسوة) - رغم وضوح معناها وضوحًا لا مزيد عليه - نجدهم يذهبون بها كل مذهب ويستخدمونها - مع كلمة التجريح - كل واحد منهم حسب هواه وغرضه، وموقفه الشخصي بالنسبة لكاتب.. أو لآخر.. ولكن لا يستخدمونها مع كُتّاب يتمتعون برضاهم، ومحاباتهم!!

وأكثر الكُتّاب عرضة لكلمتي (تجريح) و(قسوة) هم النقاد رغم أن النقد - كما قال أحد كبار النقاد القدامى - ما معناه أن النقد مثل المسن يشحذ، ولا يقطع!!

ونحن نعرف جميعًا أن (شحذ المسن) شديد العنف، ودَعْكَ من كونه لا يقطع.. والقسوة في النقد تؤلم.. أو توجع، ولكنها لا تقطع مفصلاً.. ولا يدًا.

أما النقد الحريري الناعم فلا يأبه به المنقود نفسه.. فضلاً عن القراء حيث لا يمكن لهذا النوع من النقد أدنى تأثير.. أو فائدة حيث لا بد لصاحبه من المجاملة، أو التزلف، أو النفاق فيترك الكثير من المآخذ الفاضحة، والملاحظات القوية، أو أقل ما يمكن أن يزعج المنقود.. وهذا كعدمه تمامًا!!

وأخيرًا لست أنكر نهائيًا ما يأخذه عَلَيَّ بعضهم من سخرية أو شدة في بعض كتاباتي، ولكني على يقين بأنني أكتب حسب سجيتي بكل عفوية، ومصداقية.. وبتفاعل كامل مع الموضوع حسب أنواع نصوصه.. فأشتد.. أو ألين.. أو حتى أثني!!

(٢)

وأزيد على ما قلته في الحلقة السابقة أن ولعي بالسخرية أو القسوة في النقد الأدبي، وغيره.. لا حد له - وذلك منذ زمن بعيد - حيث قرأت الكثير جدًا لأساطين الأدباء الساخرين، والقساة من النقاد الكبار.. وأكاد أعرفهم جميعًا تقريبًا منذ (الجاحظ) إلى أحدث الساخرين في عصرنا - من عرب، وغير عرب - ولعل الأكثر قسوة الأستاذ (مصطفى صادق الرافعي) وخاصة في كتابه (على السِّفُّود) أو كتابه (تحت راية القرآن)، أما أكثرهم سخرية شديدة فهو - على ما أذكر الآن - الأستاذ الكبير أيضًا (مارون عبود) في جميع كتبه.. وغيرهما.. وغيرهما!!

ومن ثم كان من الطبيعي أن أتأثر بذلك خلال (٤٥ عامًا) من قراءاتي.. وكانت نتيجة تأثري وولعي أن أتعاطى كتابة الأدب، أو النقد الساخر القاسي منذ بداياتي في الكتابة.

وقد أكثرت من ذلك - ولا أزال - حتى اشتهرت به، كما خضت معارك أدبية كثيرة شديدة مشحونة - في معظمها - بالسخرية اللاذعة.. بل الحارقة أحيانًا حسب نوعية المعركة، وخاصة إذا قوبلت بجهل فاضح.. أو مغالطات مكشوفة.. أو تجهيلي في حقائق ثابتة لا تقبل الجدل.. أو ما إلى ذلك من تعال.. أو تعالم غير صحيح.. أو نحو ذلك من خروج عن الموضوع....إلخ.

***

ولستُ أذكر كيف نشأ هذا الميل عندي إلى السخرية منذ بداياتي، وحتى قبل أن أقرأ عن ذلك شيئًا يذكر.

وكل ما أعرفه أنني بطبيعتي أميل إلى السخرية حتى في أحاديثي العادية، وغير العادية منذ نشأتي.

ومن عجب أن أول مقال لي كان نقدًا ساخرًا شديدًا لبيتين من الشعر لأمير الشعراء (أحمد شوقي) نفسه!!

وقد نشر المقال بعناية واضحة في مجلة (المنهل) التي لا يمكن أن تنشر نقدًا باطلاً.. أو غير دقيق وخاصة لمثل (شوقي)، وخاصة أيضًا أن أستاذنا الجليل الشيخ (عبدالقدوس الأنصاري) يقرأ بنفسه جميع موضوعات المجلة، ولا يمكن أن يجيز نشر أي موضوع لا يليق بمكانته الكبيرة.. أو مكانة مجلته المحسوبة عليه.

***

ولذلك كانت فرحتي لا حد لها حيث نشر المقال دون أدنى تعديل.. أو حذف حرف منه..

وقد شجعني ذلك كثيرًا.. فواصلت الكتابة دون وجل.. حيث فتح لي أستاذانا (عبدالفتاح أبو مدين) صدر مجلته (الرائد) أنشر فيها ما أشاء.. وكان ذلك أخذًا قويًا بيدي، وبخاصة تبنّيه لسخريتي الشديدة، وعنف هجماتي.. لم يكن يحذف حرفًا واحدًا دون مبالاة بتعريض نفسه لعتب أو غضب من أهاجمهم، وأسخر منهم بشدة، وكلهم من كبار أدبائنا، ومنهم أو معظمهم من أصدقائه.. بل بعضهم من أعز أصدقائه.. ولكنه كان مشهورًا بشجاعته في النشر؛ لا يبالي، ولا يلوي على شيء!! ودون اعتبار لصغر سني.. أو كوني ما زلت ناشئًا!!

***

وقد قمت ـ مع قلة من زملائي الشباب ـ بمعركة ضارية واسعة النطاق ضد ما

أسميناه (أدب الشيوخ) ونقصد التقليد البحت، والنمطية وعدم التطلع إلى الجديد الذي كان متدفقًا، وبخاص في مصر حيث برزت نهضة أدبية عارمة.. متعددة التيارات التجديدية المستمرة المتلاحقة، والمتلائمة مع روح العصر.

وكنت - دون فخر - أكثر زملائي إمعانًا في ذلك وإسرافًا فيه مع شدة سخرية وصلت إلى وصفي لمكانة كبار الأدباء الشيوخ عندنا بـ (الوثنية) و(الصنمية) وما إلى ذلك من صفات شديدة القسوة، دون مراعاة السن حيث لا أرى وجوبها في النقد الأدبي بالذات!!

***

وكان آخر مقال مطول شديد العنف في هذه المعركة الطويلة الساخنة هو مقالي عن أدب الأستاذ (عبدالسلام الساسي) - رحمه الله - وكان يمثل - في رأيي - خلاصة لمفاهيم الأدباء الشيوخ بكل ما فيه من انغلاق، ورفض لأي جديد فجاءت فجأة صدفة مناسبة (لا اذكرها الآن) دفعتني لكتابة مقال مطول هجمت فيه على الأستاذ الساسي هجمة شديدة مصحوبة بسخرية مريرة.

وكان الأستاذ (عبدالفتاح أبو مدين) غائبًا غيبة دامت عدة أشهر.. وقد أناب عنه في (الرائد) أخي الدكتور (عبدالله مناع) فلما وصله مقالي عن الساسي اعتذر عن نشره لعنفه.. ولكن أبقاه ضمن مواد المجلة.

وقد مضت عدة أشهر.. نسيت خلالها المقال.

ولكن ما إن عاد الأستاذ (أبو مدين) حتى فوجئت بالمقال منشورًا بكامله دون أدنى حذف أو تعديل وهنا قامت قيامة الساسي؛ حيث غضب كثيرًا فهاجمني بشدة، ولكن لم أُبَالِ به.. ولا رددت عليه حيث كان ما كتبه غير ذي موضوع.. بل مجرد هذيان غاضب!!

***

وبعد ذلك برزت سخريتي بما فيها من عنف، وقسوة عند اللزوم، وتمكنت منها، واشتهرت بها إلى الآن!! وإن كنت قد خففت من ذلك مؤخرًا.

وقد ساعدني في ذلك إدراكي المبكر لكون القراءة المكثفة هي ينبوع الكتابة، فأمعنت، وتوغلت كثيرًا في قراءات واسعة، متنوعة جدًا إلى أن أصبحت القراءة حتى الآن هي أهم متعة عندي حتى لا أنسى نفسي ولا أشعر بشيء من حولي أثناء القراءة.. وكذلك الكتابة.

وقد دفعتني ميولي الشديدة للنقد الأدبي الساخر.. أو للسخرية في حد ذاتها.. وليس - بالضرورة - في النقد الأدبي وحده غير أنه الأوسع مجالاً لها.

ولذلك كانت قراءاتي عن السخرية في الأدب وغير الأدب هي أمتع قراءة خاصة عندي - تضاف إلى متعة القراءة العامة كما أسلفت - أشعر معها بنشوة تدفعني للمزيد، والمزيد.. ولا أبالي معها بأي مشاغل.. أو وقت.. أو موعد نوم.. أو أي شيء من هذا القبيل!! ولا أظنه قد فاتني شيئًا مُهمًّا من ذلك!!

وقد عرف ذلك عني بعض أصدقائي فيلفتون نظري لكل جديد في ذلك.. سواء كانت كتبًا، أو مقالات، أو قصصًا، أو شعرًا رغم أنني - أحيانًا - أكون قد قرأته!!

وهناك الكثير من المقالات المهمة - من هذا النوع - التي أعجب بها فأنتزعها وأحفظها في ملفات خاصة للرجوع إليها متى لزم ذلك!!

ولي بعض أصدقائي في مصر، ولبنان يتكرمون بإهدائي الكثير من الكتب الجديدة في مجال النقد.. أو السخرية بصفة خاصة.. سواء كانت الكتب عربية.. أو غربية مترجمة!!

وهكذا ثقفت - بعون الله - ما أمكنني في هذا المجال وغيره.

***

وقد ترتب على كل ذلك - بطبيعة الحال - استمراري في ممارسة السخرية بتمكن

خاص سواء في النقد الأدبي.. أو في كثير من كتاباتي الأدبية.. بل الاجتماعية أيضًا من نوع ما أكتبه في زاويتي اليومية الطويلة العمر!!

(٣)

ومن العجيب حقًّا أن الذي دفعني إلى ممارسة السخرية.. أو القسوة هو سذاجتي، وسهولة التصديق عندي حيث كنت منذ بدأت قراءة الصحف، والمجلات كثيرًا ما كنت أجد ما يقال ـ بتأكيد لا يقبل الشك ـ أن الأدباء من أكثر الناس سعة صدور، وتقبلهم للنقد.. بل الترحيب به، وحفاوتهم، واحترامهم للنقد الأدبي.. أو الرأي الآخر.. مهما اشتد، أو قسا، أو سخر... إلخ.

وكنت ما أزال غِرًّا أُقيم في قرية صغيرة نائية.. لا أعرف الأدباء، ولا المجتمعات المتمدنة التي تكثر فيها المزاعم غير الصحيحة، ولا يوجد مثل ذلك في المجتمعات القروية إلا نادرًا، أو شاذًّا.

بل إن القروي المسكين سريع التصديق، نادر الشك.. أو سوء الظن.

***

ومن باب أولى أمثالي من الصبية الأغرار، خاصة وأن ما عرفته عن الأدباء، وسعة صدورهم.. قد قرأته في الصحف والمجلات التي كنت على يقين ـ حينئذ ـ أنها لا تكذب أبدًا، وأن كل ما فيها هو الصدق كل الصدق!! وأظرف من ذلك أنه لم يكن يخطر على بالي أدنى شك.. أو تكذيب لأي شيء مطبوع!!

وهكذا ركنت إلى ذلك، واندفعت منذ بداياتي الكتابية إلى استخدام السخرية.. بل القسوة في نقداتي، وغير قليل من كتاباتي، وأنا على ثقة بأنني سأكون موضع ترحيب الأدباء، وسعة صدورهم، وحفاوتهم أيضًا!!

***

ولكن عندما انتقلت إلى المدن - بعد ذلك بمدة قصيرة - وخالطت مجتمعاتهم عرفت بدقة مدى غبائي القروي في كثير من الأشياء، وخاصة مدى سعة صدور الأدباء التي تأكدت أنها أكذوبة كبرى!!

ولكن ذلك - رغم صدمته لي - لم يغير من أمري شيئًا.. بل دفعني إلى ما يشبه التحدي.. لا.. بل هو التحدي نفسه بشحمه، ولحمه!!

ومن ثم زدت كثيرًا من سخريتي، وعنفي دون أدنى مبالاة، ودون أقل اعتماد على مسألة (سعة الصدر) أو غيرها.. بل بجرأة جامحة!!.

ولكنني - رغم كل ذلك - تجنبت - بإصرار أخلاقي شديد - أن أسخر أو أشتد بدافع غرض، أو هوى، أو مسائل شخصية.. بل إن الكثير جدًا ممن نقدتهم، وسخرت من آرائهم، أو أفكارهم، أو مواقفهم لم أكن على أدنى معرفة بهم، أو علاقة معهم، وإن كنت قد عرفت أكثرهم فيما بعد.. بيد أن المعرفة أو عدمها لا علاقة لها بما أكتبه إطلاقًا إلى الآن، وإلى ما يشاء الله.

***

أما حكاية (سعة صدور الأدباء) فعدم صحتها أصلاً هو الذي كان - وما زال - أكبر عائق لسخريتي، ونقدي حيث ضيق صدور أدبائنا - كبارهم وصغارهم - بأدنى نقد.. فضلاً عن السخرية يجعلهم يبرمون بها كثيرًا، ولا يطيقونها أصلاً في قليل أو كثير!!

ولذلك تكاثرت خصوماتي، وخاصة مع الكبار، غير أني لم أبال بذلك.. بل لم أهتم به من أساسه، وما زلت أكتب ما أريد.. وقد خضت الكثير من المعارك الأدبية بضراوة، وقسوة، وخاصة مع بعض أكابر الأدباء الذين ألقمتهم الكثير من الأحجار!!

***

وقد أفهم.. أو أتفهم ضيق صدور أدبائنا بالسخرية وخاصة كونها لاذعة.. أو حادة.. ولكني لا أعرف ضيقهم الشديد بها حتى ولو كانت هادئة ناعمة، رغم كونهم يعرفون حق المعرفة أن السخرية من الأنواع الأدبية، أو الأسلوبية الراسخة المعترف بها في أدبنا منذ عهد موغل في القدم، فضلاً عن كونها ممتعة للقراء متعة كبيرة.

وهي - أي السخرية - ليست في أدبنا.. بل يوجد الشديد منها في آداب الكثير من الأمم.. وخاصة في الأدب الغربي، وما قد يشابهه من آداب أمم أخرى!!

وقد قرأت غير قليل من الكتب والموضوعات المترجمة عن الأدب الغربي.. فوجدت في كثير من ذلك ما هو أقسى، وأشد مما عندنا.. أو من كتاباتي شخصيًا.

وقد علمت يقينًا أن رجال الأدب، والفكر هناك يتقبلون السخرية - مهما كانت - بروح عالية مع صدور متسعة، وأفق رحب: (قال تشرشل (البدين) لصديقه (برنارد شو) النحيل جدًا: من يراك يا (شو) يظن أن في بريطانيا (مجاعة)، فقال له (شو): ومن يراك يعرف سببها).

***

بل ما لنا نذهب بعيدًا، وعندنا الكثير من إخواننا كبار أدباء مصر، ولبنان - على سبيل المثال - يتقبلون السخرية بصفة عادية جدًا، دون حساسيات أو نحوها مما عندنا!.. بل إنهم عندنا لا يتقبلون النقد نفسه مهما كان حقًا، أو منصفًا، أو ناعم الأسلوب حيث - ربما - يعتبرون أنفسهم أعلى وأكبر من النقد.. ولا يرون في إنتاجهم غير الصواب كل الصواب.. وليس من صواب غيره، حيث لا يعترفون بالرأي الآخر.. مهما كان صوابه.. فهم عند أنفسهم فوق كل شيء.. وأكبر من أي كان، ورأيهم هو الأعلى، ولا يقبل الجدل.. أو المنازعة.. وكأنهم لا يعرفون شيئًا اسمه (النقد) أو (الرأي الآخر)!!

بل يرون في أي شيء من ذلك تطاولاً على مقاماتهم الأدبية رغم كون مقاماتهم نفسها من صنعهم بالذات.. ومن غرورهم وأوهامهم، وصنميّاتهم!!

ولا أقصد بذلك جميعهم.. بل (معظمهم) فحسب!!

***

ولا شك عندي أن ذلك هو السبب الأهم لضعف النقد عندنا حيث ليس كل ناقد على استعداد للمجازفة بعلاقاته.. أو دخوله في مخاصمات تسيء إلى مكانته.. أو سمعته.. أو نحو ذلك مع وجود كل هذا الضيق الشديد بالنقد!!

وهذا استطراد سحبني إليه السياق - كما هي عادتي - فنعود إلى صلتي بالسخرية، أو القسوة حيث أذكر أنني لا أبالي في نقدي، أو بعض كتاباتي الأخرى بغير أسبابي، ودوافعي، وعدم السكوت على الباطل.. أو (الخبص) إلى غير ذلك من الأسباب، والدوافع التي ليس لها من باعث عندي غير الإخلاص للحق، والأدب.. وليس غيره!!

ثم معرفتي الأكيدة بأنه لا يمكن أن يستوي شأن الأدب، أو الثقافة عندنا إلا بالنقد، ولو قسا عند اللزوم.. عند من لا ينفع معه الرفق.. أو اللين، وليس ذلك دائمًا بالطبع!!

أما الرأي الآخر - وإن اشتد - فهو ضرورة حتمية في كل مجال.. ومن باب أولى مجال الأدب.. لا يقول بغير ذلك سوى الجاهل.. أو الغافل!!

***

وأذكر هنا أن أحد نقادنا، ولا ضرورة لذكر اسمه.. أصدر كتابه الأول، وهو عبارة عن مجموعة مقالاته النقدية.. فلما قرأته وجدت الكثير من خطل الآراء التي يصل بعضها إلى النقيض.. أو العكس تمامًا.. فذهلت حقًا من المؤلف، وهو يعرض جهله، وسخف آرائه على الناس في كتاب منشور!!

فكان لا بد أن أكتب، وأبدي رأيي عما في الكتاب من جهل، وخطل.. وكنت مطمئنًّا إلى أن المؤلف ما دام محسوبًا على النقد الأدبي بدرجة أو بأخرى.. فلا شك في تقبله للنقد.. واحتفائه بالرأي الآخر!!

ولكن ما إن نشر مقالي عن كتابه حتى أقام الدنيا ولكن على مستوى المجالس فحسب، وما أكثر المجالس التي يغشاها يوميًّا فاتخذ منها مجالاً لتسفيهي، والتنديد بي، والافتراء عليّ بالأكاذيب.. إلخ.

وذلك لأنه لم يستطع الرد على مستوى النشر خوفًا وجبنًا، وهلعًا من أن أكشف المزيد مما لم أكشفه حيث اكتفيت في مقالي بمجرد ضرب أمثلة.. ولم أقل كل شيء!!

أفليس ذلك من ضيق الصدور، ورفض الرأي الآخر؟!

(٤)

وقد قلت إنني هاجمت (شيوخ الأدب) عندنا هجومًا ساخرًا عنيفًا.. وكان معي بعض زملائي الشباب.. وكنا نسمي كتابات الشباب الحديثة.. أو المتطورة - ولو إلى حد ما فحسب - كنا نسميها (أدب الشباب) ونقصد بذلك انفتاح بعض الشباب على التيارات الأدبية الحديثة المتطورة حينذاك!!

وأرجو أن يتذكر القراء أن كل ذلك كان قبل (٤٠ عامًا) تغيرت خلالها الكثير جدًّا من الظروف، وتطور بنا الزمن في قفزات متلاحقة، متواصلة في مجالات متعددة، ومنها مجال الأدب.

***

وبطبيعة الحال تطور أدبنا أيضًا، ولكن دون قفزات وأصبح ما كنا نسميه (أدب الشباب) حقيقة ماثلة ثابتة رغم كونها ما تزال تعاني من عنت المنغلقين.. وما إلى ذلك من عوائق!!

ومن الغريب أن انفتاحنا الأدبي الآن هو من شأن الشباب فهو (أدب شباب) أيضًا.. وكأن تسميتنا القديمة ما تزال قائمة مستمرة!!

وكذلك تسمية (أدب الشيوخ) وكان المقصود بها التقليد الكامل، والانغلاق، ورفض الجديد.. وذلك ما زال موجودًا مستمرًا.. بل زاد أنه لم يعد ـ كما كان ـ عند الشيوخ فحسب؛ بل ورثه منهم الكثير جدًا من الأجيال بعدهم إلى الآن!!

***

وهكذا كانت معركة (أدب الشيوخ، وأدب الشباب) أول معركة خُضتُها بقوة، واستخدمتُ فيها السخرية بكل عنفوان الشباب، وتوسعت فيها كثيرًا مع الاستمرار الطويل المتواصل.

وكانت أول أسباب شهرتي المتواضعة حيث عرفني غير قليل من الأدباء، والقراء فبدأ وجودي الأدبي يثبت بقوة خلال زمن قصير.

***

واستمرت ـ بعد ذلك ـ صلتي القوية بالنقد الأدبي الساخر، فكان ذلك من أهم أسباب دخولي في معارك أدبية عديدة من كبار الأدباء، والأكاديميين في الداخل والخارج استخدمت فيها السخرية إلى أقصى مدى!!

ولكن ليس معنى ذلك أنني استخدمت السخرية في كل ما تناولته، وكتبته من نقد أدبي أو غيره حيث السخرية لها مجالها الذي يستدعيها بالضرورة!!

بل هناك موضوعات كثيرة لا مكان فيها للسخرية.. لذلك كتبت كثيرًا دون سخرية ـ حتى في النقد ـ رغم أنني كنت ـ وما أزال ـ أعاني من اعتبار كتاباتي غير الساخرة غير كافية لجذب القراء الذي لا يتوقعون مني غير الكتابة الساخرة!! بل يطالبون بها دائمًا.. بل إذا مضى بعض الوقت دون استخدامي للسخرية في كتاباتي يكون ذلك موضع استغراب شديد!!

***

وكنت قد ذكرت الأكاديميين.. فتذكرت معركة لي مع بعض أول دفعة من الأكاديميين.

وكان سببها من أغرب الأسباب، وأبعدها عن التوقع.. وما زلت على استغراب كبير من ذلك السبب العجيب؛ فقد حدث أن قام الصديق الأستاذ (علي النعمي) بكتابة مقال في اليمامة هاجم فيه الدكاترة من ناحية عدم اندماجهم مع الحركة الثقافية التي تنتظر منهم الكثير، وبخاصة من ناحية عدم مساهمتهم بالكتابة في الصحف والمجلات مما اعتبره سلبية ثقافية.

وكان معظم ما جاء في مقاله صحيحًا، غير أنه قسا عليهم قسوة شديدة غير مبررة.

فما كان مني غير أن كتبت ـ بسرعة ـ مقالاً أعتب فيه على الصديق (النعمي).. وأندد بقسوته التي أثارتني، والتي كانت غير مناسبة، ولا لزوم لها!!

فما أذهلني إلا وأنا أقرأ مقالاً في اليمامة بتوقيع الدكتور (أحمد الضبيب) يرد فيه على مقال (النعمي) ويهاجمه بعنف شديد، ويتعالى على جميع كُتّابنا (لم يكتب إلى الآن شيئًا يبرر تعاليه حينذاك)!!

ولكن المدهش جدًّا أنه أشركني معه بهجوم على شخصي بدلاً من شكري على دفاعي عنه وعن زملائه، فغضبت كثيرًا من هذا الظلم الفادح القائم على أساس خاطئ تمامًا.

***

وهنا كان لا بد من استلال قلمي من غمده، وشحذ سخريتي.. أو استثارتها.. وهجمت عليه بشراسه، وضراوة جعلت بعض زملائه يفزعون معه في الدفاع عنه، وعن أنفسهم.

وهكذا دارت بيني وبينهم معركة شديدة، حامية الوطيس.. سمَّيتُها ـ فيما بعد ـ

(معركة الدكاترة) التي كان يمكن أن تستمر طويلاً لولا تدخل أستاذنا الدكتور (عبدالعزيز الخويطر) الذي أنهاها بصورة ودية، وكان - حينئذ - وكيل (جامعة الرياض) التي كانت - حينذاك - ما تزال في بداياتها.

وقد اشتهرت هذه المعركة كثيرًا لأسباب شتى أدناها حب الناس للفرجة!!

***

ومن أطرف أسباب معاركي الأدبية تلك المعركة الكبيرة الصارمة التي خُضتُها مع أستاذنا الناقد الكبير الدكتور (بدوي طبانة) الذي كانت تجمعني معه ندوة أستاذنا الرفاعي - رحمه الله.

وكنت قد كتبت - ذات مرة - مقالاً موثقًا بشدة عن (الزبير بن بكار) بأمر من شيخي الجاسر - رحمه الله - كما ذكرت في المقدمة.. وقد نشر المقال بعناية خاصة في مجلة (الفيصل).

وعندما كنت - بعد أيام قليلة من نشر البحث - في الندوة الرفاعية - وفيها أيضًا (طبانة) مع غيرنا من رواد الندوة فوجئت بأستاذنا الرفاعي يخاطبني قائلاً:

لقد أعجبت كثيرًا ببحثك عن (الزبير بن بكار) وأعجبني بخاصة توثيقك الشديد مما يدل على أنك بذلت جهدًا واضحًا موفقًا.

فلم أكد أشكره على ذلك حتى فوجئت بالدكتور طبانة يقول لي بتعال مفرط:

وهل تعرف أنه - أي الزبير - قد مات، ودفن في مصر؟!

فغضبت من السؤال حيث أنا صاحب البحث الدقيق عن الزبير.. والمفروض أنه لا يمكن أن يفوتني متى مات، وفي أي مكان.. بل وأين دفن؟!

وقد أكدت في بحثي أنه مات، وهو على قضاء مكة المكرمة.. ودفن في مقبرة (المعلاة)، وأضفت: لكن (طبانة) لا يعرف ذلك!! ولا يعرف الزبير نفسه!!

فضج الجميع بالضحك واحمرّ وجهه خجلاً، حيث أدنى مثقف يعرف الزبير.. فما

بـالك بـأسـتـاذ كبير مثل (طبـانـة).

ولا شك أن مـا قـالـه لم يكن عن علم.. بل لمجرد التعـالي.. وفرض الأستـاذيـة.. وقد اشتهر بذلك، ولكنى أضحكت عليه كل من في المجلس.

ثم دارت ـ بعد ذلك مبـاشرة ـ معركة سـاخنة شديدة عن (ابن النديم).. والزبير معًا حيث سبق لطبـانـة أن استفزني ـ جهلاً ـ بشأنه.. فـانقلَبَ عليه استفزازه لي، وتجهيلي كمـا هو الشـأن مع الزبير.. الأمر الذي جعلني أسخر منه كثيرًا.. وأقسو عليه بشدة حتى جعلته (أضحوكة) للجميع!!

(٥)

فـاتني في بداية هذه الحلقات، وخـاصة عندمـا ذكرت الأسـتـاذ (عبدالفتـاح أبو مدين) وتشجيعه لي، وأخذه بيدي، وفتحه صدر (الرائد) لكتـابـاتي العنيفة، وبـالذات في معركة (أدب الشيوخ.. وأدب الشبـاب) على مـا فيهـا من سخرية لاذعة، وقسوة شديدة.

فـاتني أن أشير إلى أنني هـاجمت الأسـتـاذ (عبدالفتـاح أبو مدين) نفسه ـ في مقـال مطول ـ هـجومًا شديدًا مُتّهمًا إياه بـالتعـاطف مع شيوخ الأدب، وانحيـازه لهم بعض الشئ... إلخ.

ولكني ذكرت بإنصـاف أن تهمتي لم تنعكس على سير المعركة.. ولا على مـا ينشر في (الرائد) من الفريقين.

***

وكـان أسـاس تـهمتي تلك الهجمة الشديدة للغـاية في العنف، والقسوة.. ومـا لا مزيد عليه من هذا القبيل، والتي خصني بـهـا أسـتـاذنـا الشيخ (محمود عـارف) ـ رحمـه الله ـ وقد كـان والد الجميع، سواء بـالنسبة لأُسرة (الرائد) أو كُتّـابـهـا.. فضلاً عن تشجيعه الصـادق للشبـاب.

ولكنه، وهو الرجل الوقور الهادئ خرج عن صوابه عندما غضب غضبًا شديدًا من عنفي، وقلة أدبي!! فأصلاني بمقال جهنمي.. لا أزال - إلى الآن - أشعر بحرقته!!

ورغم ذلك لم تسعفني جرأتي بمجرد التفكير في الرد عليه بيد أني - بعد ذلك ببعض وقت - فكرت في الهجوم على أستاذنا (أبو مدين) شخصيًا - وأعترف الآن أنني لم أكن منصفًا في هجمتي الساخرة القاسية عليه.. فقد كانت هجمتي - في الحقيقة - تعتبر ردًّا غير مباشر على هجمة والدنا، الشيخ (محمود عارف).

***

ولا تستغربوا قيام أستاذنا (أبو مدين) بنشر هجومي عليه دون أدنى حذف أو تعديل - كما هي عادته دائمًا - فقد كانت شجاعته في النشر لا يوجد ما يدانيها.

وذلك ما يعرفه جميع كُتّاب (الرائد) وغيرهم.. وقد كان أيضًا - بالمناسبة - ناقدًا، لاذعًا، قاسيًا، عنيفًا.. لا يبالي بكبير أو صغير.

ولا يمكن أن أنسى - كمثال على ذلك - نقده الشديد لبعض شعر الشيخ الجليل (أحمد بن إبراهيم الغزاوي) - رحمه الله - وهو الذي كان لا يتجرا إطلاقًا أي ناقد على مجرد الاقتراب أو التفكير في نقد شعره لمكانته الكبيرة جدًا، وفحولته في شعره، وكونه (شاعر الملك) وهذه وحدها مكانة مهيبة جدًّا.

ورغم كل ذلك نقده (أبو مدين) كما لو كان أي شاعر آخر.. لا خشية، ولا رهبة.. ولا أي شيء من هذا القبيل.. بل كان لا يرى في نقده غير واجب النقد نفسه.. لا أكثر، ولا أقل!!

وأعترف الآن أنني أخذت منه (أبو مدين) الكثير من ذلك، وبخاصة من خلال نشره لكتاباتي مهما كان فيها من سخرية.. فضلاً عن اقتدائي المباشر بما يكتبه شخصيًا.

***

وقد فاتني أيضًا أن أشير إلى أسباب.. أو قصة معركتي الشهيرة مع (سعد الحميدين) وسببها من أعجب أسباب المعارك الأدبية، وبخاصة أسباب معاركي، وجميعها عجيبة غريبة فعلاً، ولكن ليس إلى الحد في هذه المعركة!!

وذلك من حيث كونها قامت على مجرد سوء ظن من قِبَلِه.. سوء ظن لا أساس له.. بل هو عبارة عن بلاهة كاملة.. لا أدري كيف وقع فيها (الحميدين)، ولا كيف خانه الذكاء - إن كان عنده ذكاء - عندما فوجئت بهجوم شديد منه.. لم أفهم من خلاله غير كونه مجرد رغبة منه للتحرش بي، وزجّه باسمي في خصام شديد كان المفروض أنه مع غيري.. لا معي!!

وذلك حيث أصدرت مجلة اليمامة العدد الأول من ملف ثقافي كبير.. فلما وصلني فرحت به كثيرًا، واعتبرته ريادة ثقافية من مجلة اليمامة.

وكنتُ، وغيري نتطلع كثيرًا إلى مثله.. أو بالأصح إلى وجود مجلات أدبية ثقافية، وكان صدور الملف اليمامي قبل وجود المجلات التي نشأت بعد ذلك مثل (المجلة العربية)، ومجلة (الفيصل) والكثير من الدوريات التي صدرت عن الأندية الأدبية، وعن بعض كليات الآداب في جامعاتنا إلى غير ذلك.

ومن هنا كان سروري بالملف سرورًا عظيمًا، وكنت - حينذاك - أشرف على القسم الثقافي ضمن عملي الصحفي في جريدة (البلاد) فشعرت بواجبي نحو إبراز الملف، والتنويه عنه، والإشادة به.

***

ومن حسن الحظ أن صديقنا الشاعر الشهير، والناقد المتمكن الأستاذ (راضي صدوق) كان يتعاون معنا تعاونًا وثيقًا.. كان مكسبًا كبيرًا لأسرة (البلاد).

ومن ثم كان هو الجدير باستعراض الملف، وإبداء ملاحظاته.. ونقداته فطلبت ذلك منه.. فرحب، وكتب مقالاً مطولاً نزيهًا.. وكانت في الملف قصيدة أو شبه

قصيدة للحميدين [1] فأبدى عليها ـ ضمن مقاله ـ ملاحظات موضوعية هو أعلم بها، وبنحوها من غيره.

فما إن نشر المقال حتى قامت قيامة الحميدين دون التفات أو شكر منه على حفاوتي الشخصية بالملف.. ولا أدنى تقدير للأستاذ (راضي صدوق) على جهده واهتمامه، ونزاهته.

لم يهتم بشيء من ذلك.. بل اهتم بالملاحظات القليلة على قصيدته فحسب، وكأنها الملف بكامله.

ورغم تواضع شأنه الذي يعرفه هو نفسه قبل غيره اعتبر الملاحظات على قصيدته تطاولاً عليه، وهو ليس من ذلك في شيء.. فكتب مقالاً طويلاً صب فيه جام غضبه، وغليانه على شخصي الضعيف معتبرًا أنني المحرض على ذلك، وأنني بِنَشْرِي لمقال (راضي صدوق) ـ بما فيه من ملاحظاته على قصيدته ـ إنما هي ملاحظاتي شخصيًّا، وأنني أمليتها على الكاتب، وهذا أعجب من العجب نفسه حيث يعلم الحميدين أنني أكتب ما أشاء بنفسي دون أدنى حاجة إلى الإملاء.

***

وبالطبع لم يكن ذلك معقولاً بأي حال من الأحوال، وهو نفسه ـ حسب يقيني ـ يعلم أنني أكبر من أمثال هذه الألاعيب الصبيانية!! أو (السفالات) المنحطة.. ورغم ذلك هاجمني بشدة في مقاله الآنف الذكر.. فذهلت، وذهل معي الزملاء.. والأدهى أنني لم أجد أدنى مبرر لذلك أو بعضه.. أو أقله!!

وهكذا كانت النتيجة هجمة شديدة للغاية من قِبَلِي.. مشحونة بالسخرية الحارقة، والقسوة، والعنف بما لا مزيد عليه، وفعلت ذلك أكثر من مرة.. لم أُبْقِ ولم أَذَرْ.. بل خَسفتُ به خسفًا، وهو أصلاً ضعيف الشخصية فزاده ذلك ضعفًا، وخزيًا،

---

(١) كان في الحقيقة شعرورًا.. وليس شاعرًا.. وإنما يشخبط.

وجعله مضغة في أفواه الناس[1].

ولكني أعترف أنني ـ من حيث لم أقصد ـ قد أشهرته، وهو المغمور، ولعل ذلك هو ما أراده من هجومه على شخصي دون أدنى سبب أو ذنب.. ولكن ما حصل له من ذكر اسمه، ومعرفة القراء به.. كان محفوفًا بالإحباط، والدونية... إلخ.

***

أما الأستاذ (راضي صدوق) وهو صاحب الشأن في الموضوع كله.. فلم يتعرض من الحميدين لشيء غير وصفه بكونه (غير سعودي) مع غمزة سخيفة عن أصله رغم كونه من خيرة الأصول العربية.. ولكنه الخذلان الذي انتاب الحميدين بصفة عامة.. بل هو المخذول أصلاً.

وهكذا وجدت أن ما لحق (راضي صدوق) من سفه، وشطط.. كنت أنا سببه ـ بحسن نية كما أسلفت ـ فلا بد من دفاعي عنه..

وقد فعلت ذلك بأكثر مما لو فعله أخي (راضي صدوق) دون عجز منه.. وقد نددت تنديدًا شديدًا بتعريضات الحميدين التي نرفضها، وقد رفضها الجميع فعلاً لكونها جاهلية جهلاء.. ولا يمكن أن تصدر من أي سعودي مهما كانت (غشامته)!!

وهكذا وجدت عندي سعة كبيرة لكثير من القول، والسخرية الشديدة، والقسوة الممعنة.

ومن ثم كانت هذه المعركة فريدة من نوعها في كل شيء!![2]

(٦)

أشرت في فقرة من موضوعي السابق عن معركتي مع (سعد الحميدين) إلى ما

---

(١) كانت المعركة ما بين تاريخ ١٤/٦/١٣٩٤هـ إلى تاريخ ٥/٧/١٣٩٤هـ أي منذ ثلث قرن.

(٢) نشرت في كتابي (مناوشات أدبية).

تعرض له الصديق الأستاذ (راضي صدوق) من (الحميدين) حيث قلت ما نصه:

أما الأستاذ (راضي صدوق) وهو صاحب الشأن في الموضوع كله.. فلم يتعرض من الحميدين لشيء غير وصفه بكونه (غير سعودي) مع غمزة سخيفة عن أصله رغم كونه من خيرة الأصول العربية.. ولكنه الخذلان الذي انتاب الحميدين بصفة عامة.. بل هو المخذول أصلاً.

وهكذا وجدت أن ما لحق (راضي صدوق) من سفه، وشطط.. كنت أنا سببه - بحسن نية كما أسلفت - فلا بد من دفاعي عنه..

وقد فعلت ذلك بأكثر مما لو فعله أخي (راضي صدوق) دون عجز منه.. وقد نددت تنديدًا شديدًا بتعريضات الحميدين التي نرفضها، وقد رفضها الجميع فعلاً لكونها جاهلية جهلاء.. ولا يمكن أن تصدر من أي سعودي مهما كانت (غشامته)!!.

***

وقد تأثر الأستاذ (راضي صدوق) كثيرًا، سواء من عفانة ما قاله عنه الحميدين.. أو من دفاعي الشديد عنه لكوني السبب فيما لحقه من أذى، ولكونه رفض الرد.. فكتب لي - بعد نشر دفاعي عنه - رسالة رائعة تعتبر جزءًا لا يتجزأ من تلك المعركة.. بل فيها أيضًا إضاءات مهمة.

ولذلك أنشرها هنا - مع رجائي صرف النظر عن الثناء فيها على شخصي المتواضع - وفيما يلي النص:

(أخي الكريم الأستاذ علي العمير - حفظه الله

تحياتي وتمنياتي بالصحة والتوفيق

أشعر أن من واجبي أن أكتب لك، بعد هذا الذي قرأته من أصداء لما كتبته، لدعوة كريمة منك، حول (ملف اليمامة الثقافي).. لكني أرجوك بإصرار أن تعتبر هذه الرسالة شخصية وأن لا تشير إليها من بعيد أو قريب، حتى لا يكون فيها ما يصلح لإثارة ما لا أرضاه

وترضاه، انسجامًا مع منهجي في الصمت عن كل ما أراه بعيدًا عن رصانة الكلمة، ومسؤولية الفكرة، وموضوعية الغرض، وهو ما تؤمن به أنت أيضًا.

عندما استجبت لدعوتك، وتناولت ملف اليمامة الثقافي بالعرض والدراسة - بالمقدار الذي أسعفتني ظروفي وأذن لي وقتي - لم يكن ليخطر في خلدي قط، أن وجهة نظر مخلصة غير مجاملة يمكن أن تكون سببًا في التعريض بك وبي على مستوى شخصي خالص لا علاقة له بمنهجية الفكر، وسلوكية الأديب، ولعله من سوء حظّك وحظّي معًا أن لا تجد غيرتك وحرصك على الحفاوة بملف اليمامة الثقافي، واهتمامك به سوى التجريح الساذج الذي لا يمكن أن يصدر عن روح شاعرة وقلب ينبض بالإلهام الأدبي.. وإلا كيف يمكن أن يجيز (شاعر) لنفسه أن يشهر سيف الإقليمية الصدئ في وجه إنسان فلسطيني يرى أن كل الأرض العربية وطن له، لا لشيء إلا لأنه يحرص على أن يلتزم بصدق الكلمة ومسؤولية الفكرة، ثم يجد هذا المحارب بسيف الإقليمية (بعد أن أعوزته أسلحة المنطق الأدبي) من يقف إلى جانبه باطلاً.. لاحقًا، في جبهة واحدة متراصة، ضد هذا (الغريب) الذي يرفض أن يترخص ويتبذل وينافق على حساب الكلمة وشرف الأمانة!

عشرون عامًا وأنا أكتب في الدوريات والمجلات العربية، من المحيط إلى الخليج، شاعرًا، ودارسًا، وناقدًا، ولم أسمع مرة واحدة، أخًا عربيًّا يشهر في وجهي سيف الإقليمية، ولم أسمع من يقول لي إنني (من بعض النكرات) وإنني (أهدف إلى الإعلان عن وجود باهت).. ثم يخرج علَيَّ أخ كريم آخر، يقول (وراضي صدوق ولكونه من (هناك) لا يعني أنه أفهم منا (هنا))!

وأنا أشهد الله، لم أدّع ذات يوم بأنني شاعر أو أديب، بل إنني أتهرب في مجالسي الخاصة من الحديث في الشعر والأدب، وأتذرع بضعف الذاكرة، حتى لا يقع في ظن أحد أنني أعرف أكثر مما يعرف، وأفهم أكثر مما يفهم.

وأنا أصارحك يا أخ عَلِيّ أنني أشعر بالاشمئزاز من العزف على نغمة (هنا) و(هناك) هذه، فهي بالإضافة إلى كونها تتنافى مع روح الإسلام الذي اتسع لنا جميعًا، ولا تنسجم مع التقاليد العربية الأصيلة ـ نغمة ترفضها روح الأدب، ويترفع عنها الفكر الأصيل.. ولئن رضي أدباء بعض الأقطار العربية لأنفسهم ولبلادهم أن يعزفوا على وتر الإقليمية، فلا يمكن أن ترضى أنت وكل المخلصين من حملة أمانة الكلمة أن ترتفع هذه النغمة الناشزة في بلد هو موئل العروبة ومهد الإسلام الحنيف.

أما مسألة (النكرة) و(الوجود الباهت) فتلك مسألة شخصية خالصة لا أقحم نفسي في الحديث عنها، ولست ممن تضيرهم كلمة لا تصدر عن قلب لم تنضج فيه سماحة الأدب ورحابة الفكر.

ولقد كان يمكن أن (أقول كلمة) فيما قرأته من كلام كثير قيل عني، لو أني لمحت فيه ظلاً من معرفة وقبسًا من ثقافة، وومضة من موضوعية.. بل إني أنكرت عليك أنت شخصيًّا أن تنزل عن مكانتك فتتصدى بالرد على كلام كثير لا جدوى منه ولا خير للناس فيه.. ولقد كنت أرجو لك أن تشيح بفكرك وقلمك عن كل هذا الهراء الذي لا يتصل بقضية الفكر والأدب في هذا البلد المبارك الذي كان ـ وسيظل بروح الأدب العربي النظيف ـ ومهد الرسالة التي تنزلت لتطهر النفوس من أدران الضعف، وهوان الابتذال.

إنني أضنّ بك أن تحرك قلمك في غير ما ينفع الناس ويخدم الأدب.. ولعلك تأذن لي بأن أرجوك بأن لا تكلف نفسك أي عناء من أجلي، فأنت لست ملتزمًا نحوي بغير عاطفة الأخوة الخالصة من كل غرض، ولعلك تستجيب لرجائي فتتوقف عن الخوض فيما لا أرضاه لك ولا لنفسي، فإن الشجي يبعث الشجي، والحديث ذو شجون، وأنا أخشى أن تصبح المسألة لعبة لمن لا قضية له، فتندفع الأقلام الفجة في مهاوي السقوط الذي يسيء إلى الأدب والحقيقة والذوق العام.

سائلاً الله أن يحفظك، وأن يجنبنا جميعًا صَغَارَ النفس، وهوان الغرض، والجنوح عن طريق الحق، مؤكدًا لك أيها الأخ الكريم النبيل، أنني سأظل أذكر لك وقفة الرجل الشريف الذي يلتزم بكلمة الحق، ويحفظ في نفسه كرامة المبدأ، تلك الوقفة التي تجلت في رَدِّك النابع من قلب تعمره سجايا العربي المسلم الذي يرتفع عن ضيق الإقليمية البغيضة.

حفظك الله ورعاك، مع تحياتي

المخلص راضي صدوق

١٣٩٤/٧/٢

(٧)

وكانت آخر معركة لي.. كبيرة، شديدة، ساخرة، قاسية هي معركتي الطويلة جدًّا مع (الحداثة) وبعض منظّريها من أمثال (يوسف الخال)، و(أدونيس)، وبقية العصبة المؤتفكة التي اتخذت من (بيروت) مقرًّا لها.

ونشرت بعض أنصارها، ومع بعض المتطوعين (المهابيل) في بعض أرجاء الوطن العربي وكنت أتابعهم منذ بداياتهم، وأقرأ لهم، وعنهم، وبخاصة في مجال التنظير الحداثي الذي يعتبر أهمها كتاب (الثابت والمتحول) لأدونيس، وهو أضخم كتاب في مجاله (ثلاثة مجلدات).. استخدم فيها أدونيس كل ما يملكه من قدرة هائلة على المغالطات، واللَّف والدوران بذكاء شديد جدًّا:

***

ولكن للإنصاف ليس كل الكتاب كذلك.. بل فيه ثقافة راقية استفدت منها.. بل

استفدت أكثر من فهمه العميق لماهية التراث العربي ولكنه ـ رغم عمق فهمه لذلك ـ يتعمد أحيانًا حجب بعض ما يترتب عليه فهمه ذاك.

بل هو لم يأت بفهمه للتراث إلاّ من أجل الوصول إلى تنظيره الحداثي، وتبريره بالحق أو بالباطل.. بل هو بالباطل أكثر منه التصاقًا، ولكنه ـ أي الكتاب ـ رغم كل شيء ـ قد أثار ـ وما زال ضجة كبرى جدًّا لدى المثقفين العرب معه.. أو ضده.. أو معه، وضده معًا، وفي آن واحد.

وعفوًا لهذا الاستطراد المعتاد في كتاباتي.. وأعود إلى ذكر متابعاتي المستمرة لما يكتبه أعضاء العصابة إياها بزعامة (يوسف الخال) وهو ـ كما يعلم الجميع ـ من أشد أعداء العروبة، والإسلام.. يجهر بذلك.. بل يعتز به، ويواصله باستمرار في شعره المشحون بالكذب، والتلفيق، لا يتوارى.. أو يداري في خيانته وإنكاره الشديد لعروبته.. بل إعلان خجله منها!!

ولا يهتم بشيء ـ عدا ذلك ـ بغير تمجيد (الفينيقية) وفخره بالانتساب إليها.

ولا أستطيع اتهام مثله بالجهل، بل أؤكد علمه أن (الفينيقية) قد ذابت.. أو انصهرت نهائيًّا في العروبة، ولم يعد لها ـ منذ أكثر من ألف قرن ـ أدنى وجود.. بل هي أصلاً في الحقائق التاريخية غير بعيدة عن (العروبة) قبل صهرها عربيًّا.

ومن عجيب أن (يوسف الخال) لم يكتف بالتعلق بها.. بل بذل كل جهده في الدعوة إليها جنبًا إلى جنب مع حقده، ودعوته المستمرة للحقد الشديد على العرب!!

***

ومن هنا وغير هنا كان موقفي من (الحداثة) ودعاتها حيث من الواضح الذي لا شك فيه أن الهدف الأساسي هو محاربة العرب، وعظيم تراثهم، وتاريخهم، وأمجادهم، والعمل بأقصى جهد لطمس كل ذلك طمسًا!!

ولكن هيهات، فهم أتفه وأحقر من شأن عظيم كهذا.

وخلافي الشديد مع (الحداثة) يأتي من هنا، وليس من كونها محاولة فنية تجديدية في الشعر، حيث لا يمكن لمثلي أن يقف ضد محاولة تجديدية في أي فرع من فروع أدبنا، وثقافاتنا، وشعرنا بخاصة.

ولكن أي محاولة صادقة مخلصة، منزهة.. لا بد أن تجد من يهتم بها.. بل يشارك فيها.

وهذا ما حدث فعلاً في الأقطار العربية، ولكنه في معظمه بعيدًا كل البعد عن الأهداف الخبيثة الخسيسة.. بل كل أو معظم ما قيل من شعر (حداثي) في كل مكان إنما هو محض شعر جديد من وجهة نظر قائليه.. يخضع لما يخضع له غيره من قبول.. أو رفض.

وليس هناك لأي شيء.. القبول الكامل.. أو الرفض الكامل، وإلا ما كانت هناك حاجة قط إلى (النقد الأدبي).

ومن هنا تعرضت (الحداثة) - كما يتعرض كل جديد بالضرورة - لسيل جارف من النقاد معها، وضدها.. وذلك هو الطبيعي بصرف النظر عن سفالة النية من إيجادها عربيًّا!!

* * *

بل أذكر أن أحد كبار النقاد القدامى (نسيت اسمه الآن) قال ما نصه: (سوء معتقد الشاعر لا يفسد شعره) وهو يقصد الناحية الفنية فحسب.. وليس هذا من قبيل ما ذكرناه عن (العصابة) المؤسسة للحداثة ففسادهم ليس في معتقدهم الديني كما يقصد الناقد القديم.. بل فسادهم حقدًا، وعدوانًا، وخذلانًا، وليس ذلك، ولا أقله في شيء قط مما قصده الناقد القديم!!

ومن المؤسف حقًّا أن إخواني من شعراء (الحداثة) وأنصارهم في بلادنا قد فهموا من قسوة معركتي مع دعاة الحداثة.. أو بعض المريبين عندنا أنني ضد (الحداثة) في حد ذاتها.. أو في ناحيتها الفنية، وهذا غير صحيح إطلاقًا.

بل أنكره أشد إنكار حيث لا يليق بي عند نفسي.

أما بعض نقدي لقصائد حداثية فليس عليه أدنى غبار حيث هو من حقي المشروع مثل ما هو من حقي نقد أي قصيدة غير حداثية.. وذلك هو ما فعلته كثيرًا على امتداد أربعة عقود من الزمن.

ولست هنا أتسول رضا الحداثيين الذين يعتبرونني ضدهم على خط مستقيم.. فهم وشعرهم أقل شأنًا من تسول رضاهم، وخاصة مني بالذات حيث يعرفون تمامًا أنني لا أهتم بغضب المنقود.. أو رضاه.. لا أبالي بذلك، ولا يخطر على بالي!!

***

وما دمت قد جئت على ذكر شعراء الحداثة عندنا.. فلا بد من الإشارة إلى مسألة مهمة جدًّا، وهو اقتحامها ـ أي الحداثة ـ من قبل جهلة، وأغرار، ورسّاب مدارس ـ وحياة أيضًا ـ وطلاب شهرة باطلة.. ظنوا أنها مسألة سهلة جدًّا.. مجرد بعثرة كلمات، وكثرة نقط.. فأوغلوا في ذلك إلى حد بعيد.. وهم كثرة كاثرة.. لا يمكن أن تتسع لنشر هذيانهم أضعاف صفحات صحفنا، ومجلاتنا.

ولكن لم يعدم بعضهم من وسيلة، أو حيل لنشر بعض ما عندهم فملأوا ـ بما أمكنهم فحسب ـ أعمدة الصحف، والمجلات.. ولم يتركوا للمجيدين غير أدنى فرص النشر، وإن كان بعض المجيدين قد عرفوا كيف يتكتلون، ويفرضون أنفسهم على النشر.. بل أصبح منهم من يملك وسيلة النشر في كثير صحفنا.

ولكنهم ـ رغم كل ذلك ـ أصبحوا قلة قليلة بين طوفان من الواغلين، والمهلوسين، وأصحاب الغثاثة، والرثاثة ممن يتاح لهم النشر بمختلف الوسائل كما أسلفنا!!

***

وبذلك أساءوا كثيرًا لـ (الحداثة) نفسها.. بل شوهوها أشنع تشويه رغم كونها أصلاً في حاجة كبيرة للتجميل، والتلميع.. بل هي في حاجة شديدة للتأصيل ذاته، وهو أهم مطلب لها.

ولذلك أتوقع (تقديرًا تقريبيًّا) فشلها، وانقراضها حتى ولو طال بها الزمن حيث الواعين لها قلة لا تستطيع حمايتها.. أو النهوض بها.. فقد تخلى عنها حتى أهم نقادها.. وتلك هي بداية كارثتها إضافة إلى عبث العابثين بها، وكثرة عدم الفاهمين لها.. بل والرافضين لها أصلاً حتى الآن!!

إنها تفقد الكثير من رصيدها يومًا بعد يوم على نحو ما أشرنا، وما لم نشر إليه.. ولكنها - حتمًا - ستأخذ قدرها إيجابًا، أو سلبًا!!

***

وتلك هي سُنّة الحياة حيث الجديد - غالبًا وهم يذهب مع مهب الرياح - ما لم تتوفر له عناصر البقاء، وهي - على ما أعتقد - ضعيفة بالنسبة للحداثة حيث أوشكت على الاندثار عند أهلها في الغرب الذين أسسوها كتجربة جديدة مجردة عن أي هوى أو غرض أو عداء لأحد.. ولا حتى ضد أي مذهب!!

فكيف بـ (الحداثة العربية) التي قامت على أهواء، وبغضاء، وعداوة شديدة - كما أسلفت - حيث اتخذت كسلاح لضرب أهداف كثيرة، رغم أنها تخلصت من ذلك إلى حد بعيد - رغم أنف دعاتها - وبقيت عند قليل من أصحابها مجرد تجربة جديدة كما هي عند أهلها!!

ومن ثم فهي - كأي جديد - عرضة للبقاء، وعدمه.. ولا أظنها تبقى!!

لفح اللهب
في النقد والأدب

مقـــدمـــة

تسيل أنهار الصحف والمجلات في بلادنا وسائر البلاد العربية بالحوار والنقاش، وبالجدل والخصام أيضًا حول (الأصالة والمعاصرة) أو حول (التراث والحداثة) والكل - من الأدباء طبعًا - قد أدلى بدلوه حول هذا الموضوع تحيزًا للتراث أو انتصارًا للحداثة.. ولكن لم يقارب الإنصاف منهم غير قلة قليلة حيث ينتصر كل فريق لفريقه بانحياز أو تعصب ظاهر.

وكتابي هذا هو عبارة عن بعض مساهماتي المتواضعة التي نشرت في أوقات مختلفة وفي صحف ومجلات متعددة، وهو - أي هذا الكتاب - يمثل رأيي البسيط الصريح من غير مداجاة ولا مواربة.

وأرجو أن لا يستغرب القارئ الكريم حين يلقاني - في هذا الكتاب - وأنا أشدد الهجوم على التراثيين الذين يريدون الوقوف بالحركة الأدبية عند كل ما هو قديم.. كما أشدد في الهجوم أيضًا على الحداثيين الذين يريدون أن يبنوا (حداثتهم) على أنقاض التراث أي أنهم لا يرون في التراث غير كونه إعاقة عن أي انطلاق.

وهجومي على هؤلاء وأولئك في وقت واحد يعني أنني أقف في الوسط بين الفريقين، وإن كنت أتحامل أكثر على المتنكرين للتراث لأنني أرى في ذلك خطرًا على هويتنا الثقافية، وأسس شخصيتنا القومية والدينية أيضًا، فأنا أتعصب للتراث حين يراد التنكر له.. أو حين يتعرض هو وأهله للسب والشتم والانتقاص.

أما حين تكون "الحداثة" هي التواصل مع الموروث والانطلاق من أرضيته.. أي حين يكون التحديث بهدف إثراء أدبنا، وتحريك سكونه، والانطلاق به نحو

آفاق جديدة من غير أي انقطاع عن الصلة بهويتنا الثقافية المميزة والموروثة عبر القرون.

حين يكون الأمر كذلك فأنا - حتمًا - مع التحديث والتجديد لأنني - حينئذ - أرى فيه تطلّعًا وطموحًا وبارقة أمل وتفاؤلاً بالمستقبل المشرق.

وخلاصة القول هو أنني أنطلق في آرائي المتواضعة من منطلق أدبنا القومي، وهويتنا الثقافية، وتطلعنا إلى التفاعل مع الحضارات والثقافات الحديثة لنضيف جديدًا إلى موروثنا.. ولا نكتفي بالقول الممقوت "كان أبي" بل أطالب بأن نقول "ها نحن"!! مع "كان أبي"!!

ولذلك أرى في المنغلقين أو المتزمتين أكبر خطر على أدبنا حين يريدون الوقوف به حيث هو.. كما أنني - في الوقت نفسه - أرى الخطر الكبير جدًا في "الحداثة" التي تريد الانطلاق من الصفر مشايعة منها لدعاة التجديد في بعض أنحاء الوطن العربي.. وهم دعاة ثبتت عمالة بعضهم للغرب - ومحاولاته لتحطيم التراث العربي - بما فيه من دين وأدب، وتحوم الشكوك القوية حول البعض الآخر - كما هو معروف لدى الجميع.

هنا تجدني أهاجم دون هوادة، ولذلك ظن البعض من شبابنا أنني أقاوم "الحداثة" من حيث هي، وأن اتهاماتي بالعمالة وما إليها تعنيهم أيضًا، وهذا غير صحيح على الإطلاق.. فأنا أعلم أن شبابنا لم ينطلق من تلك المنطلقات المشبوهة، وأنهم - أي شبابنا - أكثر اعتزازًا وتمسكًا بتراثهم من أن يسمحوا بالتفريط فيه أو المساس به، ولكن كونهم قد سلكوا الطريق نفسه الذي سلكه بعض أولئك المشبوهين من دعاة "الحداثة" جعلهم - أي شبابنا - في موقف لا يحسدون عليه من هذه الناحية.

وقد سعدت كثيرًا بتأكيد بعض شباب الحداثة في بلادنا بأن "حداثتهم" غير تلك الحداثة المشبوهة، وإن اتفقت معها في الشكل فحسب.. لا في المضمون!!

وذلك هو بالضبط ما كنت ـ ولا أزال ـ أعتقده، ولذلك فإنني عندما أهاجم "الحداثة" إنما أهاجم تلك الحداثة المشبوهة، ولم يحدث قط أن اتهمت أي شاب من شبابنا بالانحراف عن دينه مثلاً ـ كما يفعل غيري ـ ولم يحدث قط أن استعديت السلطات على أحد من شبابنا ـ كما يفعل غيري أيضًا.

لا أقول ذلك تقربًا إلى الشباب، وإن كنت أسعد بمثل هذا القرب.. كما أنني لا أقول هذا لأخذل من هم على شاكلتي في الرأي القائل بضرورة الحفاظ على تراثنا.. وتشجيع التقدم والتجديد في الوقت نفسه!!

ولذلك ونحوه جعلت عنوان كتابي هذا عنوانًا مسجوعًا على الطريقة التراثية، بينما مادته غير تراثية لكي أؤكد التزامي الدقيق بضرورة الحفاظ على تراثنا عند أية انطلاقة نحو أفق جديد!!

وسيلمس قراء هذا الكتاب تأكيدي المستمر على ذلك، وعلى أنني أقصد بالحداثة التي أهاجمها تلك الحداثة المشبوهة.. ومن هنا كان ذكر"اللهب" في عنوان كتابي هذا.. فالعنوان إذن غير موجه لحداثة شبابنا، وخاصة أولئك الذين لا غبار على منطلقاتهم وتوجهاتهم..

وعلى كل فالكتاب يعبر عن آرائي المتواضعة، ولا أزعم ـ بالطبع ـ أن آرائي هذه هي الصواب بعينه، بل أزعم أنني تلمست الصواب قدر جهدي فإذا جاءت هذه الآراء كلها أو بعضها مخالفة لرأي غيري فأرجو أن يذكر هذا الغير أن رأيه أيضًا سيخالف رأي غيره، ولا ضير في ذلك بالطبع ما دام صاحب الرأي يتلمس الإنصاف والصواب قدر جهده.. ذلك أن الأدب بالذات من أوسع المجالات التي تختلف فيها الآراء وتتضارب.. بيد أن المهم ـ في النهاية ـ هو حسن القصد، وصلاح النية.. والله حسبنا ونعم الوكيل.

الأدب العـربي إلى أين؟!

منذ أواخر القرن الماضي شهدت مصر على يد محمود سامي البارودي وأمثاله يقظة أدبية عربية خالصة.. وكانت هذه اليقظة هي العودة إلى الجزالة في اللغة والأسلوب، وخاصة بعد أن تفشّت العُجمة، وساد التتريك - نسبة إلى الأتراك - في اللغة وغيرها.

ومن هنا هب البارودي يدعو إلى التجديد، وكان البارودي، يدرك تمام الإدراك.. أن أية يقظة أدبية صحيحة لا بد أن تعود أصلاً إلى المنبع الأساسي، الأصول التراثية. فبغير ذلك لا تستقيم لغة، ولا يمكن القضاء على عُجمة.

ثم إن العودة إلى التراث من شأنها استدرار تعاطف الجماهير، خاصة وأن الأصول التراثية، واللغوية منها - بصفة خاصة - مرتبطة أشد الارتباط بالقرآن الكريم.. فدعوة البارودي تلامس إذن عواطف الجماهير من ناحية تراثها الديني، وتراثها الأدبي واللغوي أيضًا.

ولست أشك أنه كان يدرك تمام الإدراك أنه في عصر النهضة الأوروبية "اتجهت الآداب الأوروبية وجهة الآداب القديمة من يونانية، ولاتينية.. وكان للعرب فضل توجيه الأنظار إلى قيمة النصوص اليونانية بما قاموا به من ترجمات الفلاسفة اليونان، وبخاصة أرسطو، فحاول رجال النهضة الرجوع إلى تلك النصوص في لغاتها الأصلية، ثم أخذوا في طبع النصوص اليونانية وترجمتها والتعليق عليها. وكانت الدعوة إلى الرجوع لآداب اليونان والرومان ومحاكاتهما بمثابة ثورة فكرية في ذلك العصر" (محمد غنيمي هلال، "الأدب المقارن" ص ٢٣).

وهذه العودة إلى القديم التي كانت بمثابة ثورة فكرية.. هي نفسها التي ترسّمها محمود سامي البارودي ودعا إليها ونهج هو نفسه على غرارها.. الأمر الذي يدل أنه كان على وعي كبير جدًّا بتاريخ آداب الأمم.

وليست مختاراته الشعرية التي بلغت أربعة مجلدات غير دعوة للشعراء لاحتذائها والاقتداء بها.. كما أن شعره نفسه كان مثالاً حيًّا لما يدعو إليه.

وهكذا بدأت اليقظة العربية الحديثة.. ثم جاء - بعد ذلك - من قام بتعميق هذه اليقظة وترسيخها في النفوس، مثل أحمد شوقي، وحافظ، ومطران، والرصافي إلى آخر القائمة.

وقد انبهر الأدباء العرب في شتى الأقطار العربية بهذه الجزالة وتلك الأناقة في اختيار الألفاظ الفخمة، وتلك المحتويات الرائعة.. فأصبح هؤلاء الشعراء كالمشاعل، يستضيء بها سائر شعراء العروبة من الأمير عبدالقادر الجزائري إلى أحمد بن إبراهيم الغزاوي في المملكة العربية السعودية إلى غير هذين من سائر شعراء العروبة.

الأمر الذي أحدث بالفعل صحوة شعرية رائعة، رغم قلة وسائل النشر حينذاك.

وقد صاحب هذا التيار الشعري، تيار نثري مَثّلته على خير وجه مجلة "الرسالة".. بل ومثّله أيضًا صاحب "الرسالة" الأستاذ أحمد حسن الزيات بأسلوبه الجزل الفخم.. وكذلك مصطفى صادق الرافعي بنصاعة بيانه، وإشراقة أسلوبه، ومعانيه القرآنية والتراثية.

وقد حفلت "الرسالة" بعدد من الكُتّاب من هذا الطراز نفسه.. فأصبحت "الرسالة" بذلك منارة فكرية في شتى أنحاء العالم العربي.. حيث كان يتخاطفها الناس للقراءة.

وما يزال كل من أدركها من الأدباء، يفخر بأنه تتلمذ عليها!!

وكانت هناك بعض الصحف والمجلات المصرية الأخرى تسهم في نشر هذه

الحركة الأدبية المباركة إلى حد أن "الأهرام" كانت تنشر قصائد شوقي في الصفحة الأولى مع غير قليل من العناية بإخراجها.. ولكم أن تتصوروا مدى تأثير ذلك وأمثاله على نفوس الجماهير.

مدرسة الديوان

كانت العناية بشعر شوقي وبعض زملائه، ومدى تأثير هذا الشعر في نفوس الناس في معظم الأقطار العربية، وليس في مصر وحدها.. كان ذلك قد أثار حفيظة بعض الأدباء فهاج غيظهم وحنقهم، وتعاظمت نقمتهم على شوقي وأضرابه.. بل كانت النقمة منصبّة على شوقي بصفة خاصة لحظوته في القصر، ومكانته الاجتماعية الرفيعة.. ثم تأثير شعره في الناس بصورة غير معقولة.

ومن هنا نقموا على شوقي، وأعلنوا نقمتهم عليه وخاصة جماعة الديوان.. ثم جماعة أبوللو.. فأما جماعة الديوان، وعلى رأسهم عباس العقاد الذي كان يقول شعرًا ركيكًا بالغ السماجة، تغلب عليه روح الفلسفة والتأملية.. فلم يجد لشعره أذنًا صاغية، ولا قلبًا واعيًا حتى يومنا هذا، وقد مات قبل أن يموت هو.. بينما خلد شعر شوقي إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله.

هاج العقاد وصحبه فرموا أحمد شوقي بكل مهلكة وزعموا أنهم يدعون إلى تحرير القصيدة العربية من براثن التقليد، ومن سطوة الجزالة التراثية.. بل من محاكاة التراث وتقليده، وزعموا من أجل ذلك مزاعم شتى ضمنوها كتاب "الديوان" الذي مات هو الآخر، ولم يقدر له البقاء لأنه كان سباحة ضد التيار.

جماعة أبوللو

وأما هذه الجماعة (جماعة أبوللو) فالذي يبدو - في الظاهر على الأقل - أنهم لم يستهدفوا أحمد شوقي أو غيره بتكوين جماعتهم، وعلى رأسهم أحمد زكي أبو شادي، بل هم جماعة حصلوا على نصيب من الآداب الأوروبية التي كان يسودها

حينذاك المذهب الرومانتيكي.. فلعلهم رأوا أن التجديد الصحيح في الشعر والأدب ليس هو نهج البارودي وشوقي أو من على شاكلتهما ممن يرون في العودة إلى التراث يقظة فكرية، وصحوة لغوية.. بل كانوا أي (جماعة أبوللو) يرون اليقظة الصحيحة، والصحوة الحقيقية في اجتذاء أدب الغرب، وبالذات في نقل المذهب الرومانتيكي إلى الأدب العربي.

وقد استطاعت هذه الجماعة أن تحدث تأثيرًا بالفعل على مستوى العالم العربي حيث تلقف مذهبهم كل صاحب نزعة تجديدية من الأدباء العرب، وقد ساعد على انتشار مذهبهم، وجود جماعة من الشعراء العرب في المهاجر الأمريكية والأوروبية ينهجون النهج نفسه!!

وقد تأثر هؤلاء الشعراء العرب في مهاجرهم الغربية بمذاهب شتى من الآداب الغربية، ساعدهم في ذلك إجادة اللغة والإقامة بين القوم في الغرب.. فكان تأثرهم مباشرًا، ومحاكاتهم للآداب الغربية عن كثب!!

وقد وصل شعرهم إلى الوطن العربي، وإذا هو يحمل نكهة جديدة من أثر الآداب الغربية فكان لذلك صدى واسع في النفوس العربية المتعطشة إلى كل رافد جديد من روافد الثقافة، وقد ابتعد الأدب المهجري عن الروح التي بدأتها اليقظة العربية، وبخاصة من حيث استلهام التراث، أو من حيث اللغة.. ذلك لأن لغة أدباء المهجر كانت - في معظمها - لغة ركيكة، ولكنها تحمل الكثير من المعاني الجديدة على الأدب العربي.. فكان لذلك فعل السحر لدى القراء العرب.

وقد ساعد كل ذلك على انتكاسة شديدة لأصالة اليقظة العربية، وبخاصة بعد موت شوقي وحافظ ومطران.. إلخ.. بل إن الانتكاسة - في الواقع - حدثت وما زال بعضهم، على قيد الحياة، ولكنهم قد أصبحوا أضعف من مقاومة أي تيار جديد، وخاصة تيار المهجريين الذي وجد أرضًا خصبة، وقابلية كبيرة.

ومنذ امتداد هذا التأثير.. أصبحنا نسمع تصنيفات عديدة للشعراء العرب.. فهذا (تقليدي) وذاك (مجدد) وهذا (رومانسي) وذاك (واقعي) إلخ..إلخ.

الانقلابات والثورات

وفي هذه الأثناء سادت العالم العربي موجة من القلاقل والفتن وعدم الاستقرار، سواء بسبب الاحتلال الاستعماري.. أو بسبب وجود بعض الثورات والانقلابات العسكرية التي هزت النفوس، وأضعفت روح الأدب، وجعلت كل أديب لا يدري ماذا يقول.. فلم يبق غير كتاب القصة، والقصة نفسها أدب طارئ على الأدب العربي إلى حد ما!!

أما الشعر أو النثر في غير القصة.. فقد وجد الأدباء أنفسهم غير قادرين على التعبير إلا من ركب منهم موجة النفاق والتزلف لكل قادم جديد!

أما الأدباء الذين احترموا أنفسهم وفكرهم.. فقد سكتوا على مضض، وهنا نشأت طبقة جديدة في الصحافة، فبعد أن كانت الصحافة يسيطر عليها الأدباء الكبار.. أصبح يسيطر عليها أنصاف المتعلمين ممن يجيدون اللعب على الحبال، وممن جعلوا أنفسهم أبواقًا للحكام ومعاونيهم.

وعمومًا فقد كانت للثورات والانقلابات العسكرية، والقلاقل التي أحدثها الاستعمار مع وجود الصحوة العربية.. كان لكل ذلك أثره العكسي أو السلبي على الأدب الصحيح.. أضف إلى ذلك خيبة الأمل المريرة القاسية في الحروب مع إسرائيل.

كل ذلك أوجد تململاً أدبيًا وفكريًا عند الأدباء الأصلاَء.. الأمر الذي سمح لفئات طفيلية على الأدب أن تبرز إلى الوجود لا لتنادي بأدب عربي جديد يصل حاضره بماضيه.. بل لتنادي بأدب جديد منقطع الجذور شكلاً ومضمونًا.

جماعة الشعر الحر

وهكذا، وفي غفلة من الأدباء الأصلاَء، نشأت الدعوة إلى الشعر الحر بحجة

صعوبة القافية والوزن.

والواقع أن هذه الدعــوة، وفي بدايتها، بصــفــة خاصة.. كانت معقولة ومقبولة إلى حد ما.

كانت نازك الملائكة من العراق هي رائدة هذا الشعر الحر، وإن كنا قد سمعنا أخيرًا عمن ينازعها الريادة ولكنها الرائدة دون شك فهي ـ على الأقل ـ من حيث كونها أول من أصدر كتابًا بأكمله هو كتاب "قضايا الشعر المعاصر" حاولت فيه أن تقنن الشعر الحر فقالت ما معناه: إنه ـ أي الشعر الحر ـ عبارة عن تفعيلة وقافية منوعة.. أو تفعيلة فحسب دون التقيد بأية قافية.. وأنكرت وجود شعر حر دون التقيد بالتفعيلة.

ولكن ظهر بعض من في نفوسهم مرض تجاه الأدب العربي وأصالته.. فركبوا هذه الموجة شر مركب، وأوجدوا الفتنة والضلال وملأوا صفحات دواوينهم بالكلمات المتقاطعة، وعلامات الاستفهام والتعجب.. ثم لا يختارون مع ذلك غير أشنع الصور، وأقبح الألفاظ.. وأحط المعاني.. يريدون أن يبثوا روح الانحطاط الأدبي حيث إن ما يسمونه شعرًا يستطيع أي صبي أو غلام أن يقلده، وهذا ما حدث بالفعل.. فقد انصرف الغلمان حتى عن قراءة الشعر الصحيح.. وأصبح مثلهم الأعلى هو هذا الهذيان القبيح.

وأصبح كل غلام يستطيع أن يقول مثل ذلك ويسمي نفسه شاعرًا.. بل ساعد الجهل السائد بالأدب الصحيح لدى بعض المسؤولين عن الصحف والمجلات على نشر هذا الغثاء، سواء عن جهل أو بسوء نية.

وهكذا أصبح الشعراء الجدد أكثر من القراء.. بل أصبح الطالب في مدرسة ابتدائية أو متوسطة يستطيع أن يقول ديوانًا بأكمله من هذا النوع من الشعر، ومن عجب أن يجد من يهتف له، ويبارك عبثه الصبياني.

وهكذا أصبح الشعر، وهو قوام الأدب العربي، مجرد مهزلة، ولعب صبيان وأغيلمة!!

أما النثر فليس مصيره بأحسن حالاً من الشعر.. ذلك أنه منذ توسيع انتشار الصحف والمجلات، جاء الحكام العرب بمن يريدون لرئاستها، والذين أرادهم الحكام لا صلة لهم بأدب النثر العربي وأساليبه فظهر ما يسمى بأسلوب الصحافة.. أو لغة الصحافة.

وهي - حسب زعمهم - تعتمد على البساطة والتعبير المباشر، وليس ذلك - في الحقيقة - غير هدم فعلي لما تبقى من مظاهر الأدب العربي الأصيل.. لا نقصد المتقعر لغة، أو المنفر أسلوبًا.. بل نقصد الوسط.. نقصد الإيضاح والبيان بكلمة مركبة تركيبًا صحيحًا، وجملة مستقيمة.. لا أكثر من ذلك ولا أقل!!

الأدب العربي إلى أين؟

وبعد فهذه إلمامة سريعة بمسيرة الأدب العربي منذ يقظته أو صحوته الحديثة.. وقد رأينا كيف بدأ بداية قوية خالصة العروبة.. ثم انتهى أمره إلى تقليد الغرب ثم ميعة المهجريين.. ثم غدا أخيرًا نهب الفتن والانقلابات واختلاف أنظمة الحكم في شتى البلدان العربية.. الأمر الذي أتاح للواغلين المغرضين أن يندسُّوا - باسم الأدب - بين صفوف الأمّة ليفسدوا عليها ذوقها، ويمسخوا أدبها، وقد عرفنا جميعا مدى التبعية والعمالة السافرة لبعض هؤلاء سواء بالنسبة لإسرائيل أو لأسيادهم في الغرب.

وهذا يعني أن عملهم ضد الأدب العربي من المخططات التي يؤجرون أجورًا سخية على تنفيذها مثل (سعيد عقل) وغيره.. كما رأينا كيف أن هذه الدعوة الموبوءة قد لاقت القبول عند صبية العرب وغلمانهم.

ويا ليت هؤلاء المُجافين لتراث أمّتهم قد اكتفوا بتشويه الشعر أو النثر العربي..

بل امتدت جهودهم غير المباركة لتقضي أيضًا على أصول النقد العربي.. فهذا الذي يزعمونه من شعر.. لا يخضع لأي مقياس نقدي عربي.. ولذلك استوردوا له من الغرب قوالب نقدية جاهزة تمامًا.. ومن ثم فصلوها حسبما يريدونه.. وأصبح القراء كذلك الأعرابي الذي حضر حلقة لدراسة النحو.. فسمع الكثير من المصطلحات النحوية الغريبة على فطرته.. فقال: إن هؤلاء يتكلمون بكلامنا عن كلامنا بما ليس في كلامنا!! ولو استمر الحال على هذا المنوال.. فقل: على الأدب العربي السلام.

ولو أمكن لهؤلاء أن يهدموا الأدب العربي.. فإنهم يكونون بذلك قد هدموا اللغة العربية من أساسها، لغة القرآن الكريم، وسنصبح في حاجة إلى ترجمة لكل آية إذا أصبحت لغتنا لغة ميتة.. كما هو الحال مع اللغة اللاتينية.

أفلا يستحق منا كل ذلك أن نقف لنتساءل:

الأدب العربي.. إلى أين؟!!

مجلة "المجلة" عدد ١٨٧ في ١٤٠٣/١٢/٩هـ

الغزو الفكري والثقافي؟!

فرغتُ لِتَوِّي من قراءة كتاب حافل (٥٢٣ صفحة من القطع المتوسط) صدر عن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية تحت عنوان "الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام"، وهو - أي الكتاب - عبارة عن مجموعة من البحوث التي شارك بها عدد من كبار الأساتذة ورجال الفكر في المؤتمر الفقهي الإسلامي الذي عقدته الجامعة المذكورة عام ١٣٩٦هـ.

وليس من المستغرب أن تأتي تلك البحوث على درجة عالية جدًّا من الوعي والإدراك والفهم الدقيق لمختلف جوانب "الغزو الفكري والتيارات المعادية" سواء من حيث تاريخها أو أسباب ووسائل انتشارها وتغلغلها في المجتمعات الإسلامية إلخ...إلخ.

ولكن من الغريب حقًّا أن يجمع أولئك الباحثون على أن وسائل الإعلام، والصحافة بصفة خاصة، هي من أهم وسائل وأسباب نشر الغزو الفكري المنظم.. بالإضافة إلى غيرها من الأسباب والوسائل الأخرى.

ووجه الغرابة هنا هو هذا الإدراك العميق لدور وسائل الإعلام ومدى تأثير الصحافة.. مثلاً، ثم لا نجد من هؤلاء الباحثين أو غيرهم من كبار المفكرين أو العلماء المسلمين أية مشاركة تذكر في وسائل الإعلام هذه، ومنها الصحافة.. اللهم إلا بعض الأحاديث أو الموضوعات التي لا ترقى بأي حال من الأحوال إلى المستوى القادر على مقاومة الغزو الفكري، وصد التيارات المعادية، بل لا تصل إلى مستوى التحذير المقنع من مغبة هذا الغزو.

إننا نعلم أن بعض هؤلاء الكبار يستنكفون عن المشاركة في الوسائل الإعلامية، ومنها الصحافة، بحجة تدني مستواها أو مستوى من يشارك فيها، وترفعهم عن هذا التدني إلى غير ذلك من الحجج المعروفة.

وهذا من التناقضات الواضحة، فنحن نرى أصحاب الغزو الفكري وأتباعهم من المدسوسين على وسائل الإعلام يتدافعون بالمناكب على استخدام كل وسيلة إعلامية لنشر وإذاعة أفكارهم الهدامة، بل يشكلون فيما بينهم عصابات شتى للتسلل والتغلغل في مختلف وسائل الإعلام.. ومن ثم السيطرة عليها بطريقة أو بأخرى.

وذلك ما هو ملموس تمامًا في النواحي الأدبية والثقافية والفكرية، فإن غير قليل من الذين يشرفون على الأقسام الثقافية في كثير من الوسائل الإعلامية هم في الواقع ممن يدعون إلى مذاهب معينة، بصورة علنية أو مقنّعة، ولذلك يقربون منهم من هم على شاكلتهم أو من أتباعهم، ويدعم بعضهم البعض عن طريق التهليل لأفكار بعضهم البعض، وتلميع أنفسهم ونشر فكرهم.. ثم لا يتورعون عن نشر الكثير من الهذيان والسخف باسم الثقافة التقدمية أو الفكر المستنير!

وهذا هو بالذات السبب الأكبر في تدني مستوى ما ينشر أو يذاع باسم الفكر أو الأدب أو الثقافة، أي أن التدني في حد ذاته إنما هو وسيلة قائمة بذاتها من وسائل المسخ الفكري، وليس الغزو الفكري فحسب.

وعندما نبحث في المقابل عن القادرين من علمائنا وأدبائنا، نجدهم في حالة عزوف تام عن استخدام الوسائل الإعلامية بحجة أنهم يربأون بأنفسهم عن المشاركة في هذه الوسائل التي لا تنشر أو تذيع غير الإسفاف.. إلخ.

وتلك هي الحجة المعلنة أو الظاهرة! أما الحجة الحقيقية فهي أن معظم كبار

علمائنا وأدبائنا ومفكرينا يخشون في الحقيقة المجاهرة بآرائهم في الوسائل الإعلامية، لأن كل واحد منهم يعرف سلفًا أنه سيكون عرضة لكثير من السهام التي يطلقها ـ عادة ـ أولئك المندسُّون في الأوكار الإعلامية، وأدنى سهم من سهامهم هو تهمة "الرجعية" أو "التخلف الفكري" أو (السلفية) إضافة إلى سيل من السباب والشتائم باسم الحرية والتقدمية...إلخ.

ولذلك ونحوه، يحجم كبار العلماء والأدباء والمفكرين عن المساهمة في نشر أفكارهم، ويقتصرون على المشاركة في المؤتمرات أو الندوات التي لا يبعد تأثيرها عن محيط مقر المؤتمر نفسه.. اللهم إلا أن بعض بحوثهم القيّمة فعلاً، تنشر أحيانًا في إصدارات جامعية مثل الكتاب الذي أشرنا إليه آنفًا، ولكن المؤسف أن النشر الجامعي، أو نشر الهيئات العلمية لا يتم توزيعه على غير فئة محدودة من المختصين أو من الذين هم ـ في الغالب ـ غير محتاجين إلى زيادة معارفهم عن طريق هذه البحوث!!

أما عامة الناس، أو عامة القراء، فلا تصل إليهم هذه المنشورات أو الكتب التي تصدر عن الجامعات أو الهيئات العلمية حيث ليس في مقدور هذه الجهات أصلاً أن تكون جهة إعلامية.. ومن ثم تظل الفائدة من بحوث المؤتمرات عقيمة تمامًا ما دامت لا تستطيع الوصول إلى أكبر قدر ممكن من الناس!

وهكذا تظل الوسيلة الصحيحة لإيصال الأفكار الناضجة إلى أكبر قدر ممكن من المتلقين، هي أية وسيلة إعلامية، وذلك هو ما يدركه الجميع، ولا يختلف عليه اثنان!

ولكن ما يختلف عليه أكثر من اثنين هو أن للوسائل الإعلامية أساليبها التي تختلف تمامًا عن أساليب البحث، أو الأساليب الأكاديمية، أو الأساليب المغرقة في التقعر اللغوي المنفر، أو الإسهاب الممل أو نحو ذلك

مما لا يمكن قبوله في أية وسيلة إعلامية مجبرة على مسايرة المفهوم الإعلامي الحديث.

ونخلص من كل ذلك إلى أنه لا يكفي أن نندد بالغزو الفكري تحت قبة جامعة أو قاعة مؤتمر فحسب، بل يجب أن نستخدم الوسائل نفسها، التي يستخدمها رجال الغزو الفكري وأتباعهم!! أي الوسائل الإعلامية!!

ونخلص أيضًا إلى أن مشكلتنا الكبرى هي أن أقوالنا وأفعالنا تأتي دائمًا كرد فعل، ولا تأخذ أبدًا زمام المبادرة!!

الشرق الأوسط ـ العدد: ١٧٠٢ ـ ١٧/١٠/١٤٠٣هـ

ملامح العمالة الثقافية العربية!

كلنا نعلم أن أي عميل أو جاسوس في أي مجال كان، لا يستطيع أن يعيش في غير الظلام، وفي غير الرعب والخوف من أن يكتشف فينتهي أمره إلى المشنقة.. فهو - أي العميل - يعيش بين مطرقتين، مطرقة الخوف من أسياده ومطرقة البلد الذي زرعوه فيه.. أو أقحموه في ليله المرعب!

تلك هي باختصار، حالة العملاء في كل زمان ومكان بما في ذلك العالم العربي.

بيد أن هناك ظاهرة تتميز بها بعض أقطار العالم العربي، دون غيرها من سائر أنحاء العالم تقريبًا.

هذه الظاهرة في بعض الأقطار العربية، هي كونها تسمح للعملاء في مجال الثقافة والأدب والفن بأن يمارسوا عملهم في وضح النهار، تسمح لهم بتأسيس المطابع، وإصدار المجلات، والاندماج التام في الحياة العامة.. وذلك رغم التحذيرات الكثيرة، ورغم علم الناس جميعًا بأن ذلك الطراز من الناس الذين يتظاهرون بخدمة الثقافة العربية وتطويرها وتجديدها.. ليسوا في الحقيقة غير عملاء لجهة أو لأخرى!!

ولكن الناس تعودوا إذا لم يجدوا من ينصت لهم.. فلا يبقى بعد ذلك غير قلة قليلة من أدباء العالم العربي يحذرون وينذرون بل ويصرخون أحيانًا، ولكنها صرخات في واد!

وليس منا من لا يعلم أن الثقافة العربية الأصيلة تعتبر في حد ذاتها هدفًا حيويًا من أهداف المستعمرين والأعداء.. وذلك لأن الثقافة العربية تتميز بكونها ذات

ارتباط وثيق العرى بالتعاليم الإسلامية.. بل بالقرآن الكريم نفسه بالدرجة الأولى.

فالأداة الأولى للثقافة العربية الأصيلة هي اللغة العربية الصحيحة الصريحة.. وتلك هي لغة القرآن الكريم، ثم لغة تراثنا الفخم الباذخ في كل مجال.

ومن هنا فإن أية ثلمة يحدثها الأعداء في أي جانب من جوانب ثقافتنا، لا بد أن تمتد إلى البنية الإسلامية نفسها.

ذلك شيء نعرفه نحن، ويعرفه الأعداء جيدًا.. وقد حاولوا منذ بداية الاستشراق، ثم بداية الحروب الصليبية، ثم الاستعمار المباشر، ثم الاستعمار غير المباشر - كما هو الشأن الآن - حاولوا كثيرًا عبر هذه الحقيقة أن ينالوا من الإسلام نفسه فلم يفلحوا بالطبع.

ومن ثم اتجهوا إلى الثقافة العربية وإلى اللغة العربية نفسها بقصد هدمها من جذورها. فأفلحوا في ذلك بعض الشيء، وفي أقطار عربية معينة.

ولكنها - أي تلك الأقطار - وبمجرد تخلصها من الاستعمار أدركت مدى الفظاعة التي مارسها الاستعمار.. فاستعاد أبناؤها لغتهم وعروبتهم وإسلامهم.

وقد أدرك الاستعمار، حتى عندما كان يجثم على بعض الأقطار العربية، أن جميع الوسائل التي استخدمها لهدم الثقافة العربية ممثلة في لغتها لم تفلح تمامًا. فكان أن لجأ إلى أسلوب جديد.

هذا الأسلوب هو شراء الذمم العربية نفسها.. حيث يلجأون إلى بعض الأسماء اللامعة في دنيا الأدب والثقافة العربية ويغرونهم بالمال الوفير، والشهرة العريضة!!

وهكذا انخرط بعض كبار المثقفين العرب في العمل لصالح الأعداء، وتنفيذ كل ما يطلب منهم.. فانطلقت الدعوات من كل جانب، وهي دعوات كان ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.

وهكذا أيضًا لم يخف على المثقفين العرب، ما يراد بهم من وراء تلك الدعوات

المريبة.. فتصدوا لها بقوة وعنف حتى أحبطوها في مهدها، أو كشفوا سترها على أقل تقدير.

كان كل ذلك الذي أشرنا إليه قبل الستينيات تقريبًا فأما بعد الستينيات فقد استطاعت بيروت أن تكون هي عاصمة النشر، وعاصمة الصراع الفكري العربي، وغير العربي.

وباسم الحرية اللبنانية، حدث ما لم يكن يحدث قط في أي بلد عربي، فقد انفلت الزمام، ووجدت الثغرات الكثيرة التي نفذ منها الكثير من أصحاب الدس والتشويه والتخريب!

الشرق الأوسط ٢١/١٢/١٤٠٣هـ

(٢)

وقبل أن نصل بحديثنا الخاطف هذا عن "ملامح العمالة الثقافية العربية" إلى أيام ازدهارها وانتشارها في لبنان، ينبغي أن نشير إلى أن المحاولات الأولى لزرع العملاء ضد اللغة العربية وثقافتها كانت في مصر.. وكانت منذ وقت مبكر من أوائل هذا القرن. فقد حاول الاستعمار إيجاد عملاء له من أبناء العروبة في مصر، ولم يفشل في العثور على العملاء سواء بالأجر الأدبي أو المادي.. أو بالتطوع!!

نعم التطوع!!

فهناك - مع كل أسف - من تطوع وما زال يتطوع - إلى الآن سواء في مصر أو غيرها، وسواء بوعي منه أو بغير وعي.. ذلك أن هناك من يتطوع بغير وعي أيضًا!!

فأما الذي يتطوع لخدمة الأهداف الاستعمارية في هذا المجال بوعي كامل، فهو الذي ينشد الشهرة بأن يقال عنه واسع الأفق، عالمي النظرة.. إلى غير ذلك من الصفات والنعوت التي تجيدها الأبواق!!

وأما الذي يتطوع بغير وعي، فذلك الذي يقوده جهله إلى التأثر ببعض الأفكار المدسوسة فيقوم بتردادها كالببغاء.

وذلك هو ما حدث في أكثر من بلد عربي إلى يومنا هذا.. وخاصة بين صفوف الشباب الذين لم يتحصنوا بعد بثقافة عربية خالصة متينة، ولم يكابدوا ثقل وطأة الاستعمار!!

***

ونعود - بعد هذا الاستطراد - لنشير إلى أن أولئك العملاء الذين زرعهم الاستعمار في مصر كانوا من كبار أبناء مصر وأدبائها، بدأوا مهمتهم - ولكن بحذر شديد - بالهجوم على اللغة العربية، أو بالتشكيك في الإسلام نفسه، أو في الثقافة العربية ذاتها حيث لم يعدموا ما ينبغي أن يقال في مثل هذا الصدد.. أو ما يلقن لهم في هذا الشأن من دعوات ونبرات.

وقد أشرنا في الحلقة الماضية إلى أن بعض هذه الدعوات الجريئة الوقحة قد وصلت إلى مجمع اللغة العربية في القاهرة، ولكن وصلت إلى حيث انبرى لها الأفذاذ من العلماء والأدباء المخلصين الغيورين ففندوها وندوا بها ودحروها تمامًا.

ولكنها - أي تلك الدعوات - قبل أن تدحر في المجمع أو غيره، كانت قد ترددت بعض أصدائها في المجتمع وبدأ الناس يتهامسون بأن اللغة العربية من التعقيد والتقعر بحيث لا تصلح لاستيعاب علوم العصر ومصطلحاته.. إلى غير ذلك مما قيل عن اللغة العربية. ولكن سرعان ما تبدد كل ذلك عندما هب رجال العلم والأدب في مصر نفسها لينشروا على الناس ما يكذّب كل تلك الافتراءات ويرد عليها، ويسفهها، ويكشف مصدرها.. ثم لينشروا على الناس الدفاع المجيد عن اللغة العربية وأصالتها.

ولعل ما خلده لنا الشعر في هذا الجانب بالذات يتمثل خير تمثيل في قصيدة الشاعر الكبير حافظ إبراهيم ـ رحمه الله ـ والتي مطلعها:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي

وناديت قومي فاحتسبت حياتي

رموني بعقم في الشباب وليتني

عقمت فلم أجزع لقول عداتي

ثم يسترسل بعد ذلك ـ رحمه الله ـ فيفند الأباطيل، ويرد اتهامات العملاء وأقاويلهم. فذلك حيث يقول باسم اللغة العربية:

وسعت كتاب الله لفظًا وغاية

وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة

وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر في أحشائه الدر كامن

فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

ويسترسل في مثل هذا النفس العربي العميق إلى أن يصل إلى الهدف الذي نحن بصدده الآن، فذلك حيث يخاطب أبناء العربية باسم اللغة العربية:

أيطربكم من جانب الغرب ناعب

ينادي بوأدي في ربيع حياتي

ولو تزجرون الطير يومًا علمتم

بما تحته من عثرة وشتات

سقى الله في أرض الجزيرة أعظُمًا

يعز عليها أن تلين قناتي

ألا، وليسق الله عظامك أيها الشاعر العظيم فقد خلدت بهذه القصيدة العامرة ليس مفاخرة اللغة العربية فحسب.. بل خلدت حقًّا أول صمود عربي مصري لأكبر هجمة غربية شرسة كانت تستهدف اللغة العربية لتهدمها ومن ثم الثقافة العربية.. بل الإسلام نفسه، وهو الهدف.

* * *

وهكذا كان لصمود المخلصين من أبناء مصر أكبر الأثر في وأد أول حركة استعمارية ذات عملاء من الداخل، وقد صاحب ذلك الصمود غضبة شعبية عاصفة، الأمر الذي اضطر معه العملاء ومعهم أسيادهم إلى التقهقر والانحناء للعاصفة!

* * *

كانت اليقظة العربية ما تزال في إبانها قوية عارمة، فلم يكن هناك من سبيل لإيجاد أية ثغرة للنفاذ منها إلى هذا الهدف.

ولكن مع مرور الوقت، ومع تداعي الفتن، ومع تغلغل الاستعمار وازدياد أعداد الدارسين في الغرب.. أمكن استئناف زرع العملاء من الداخل، ولكن هذه المَرة ليس في مصر وحدها.. بل في لبنان وغيرها أيضًا!!

الشرق الأوسط (١٤٠٣/١٢/٢١هـ ١٤٠٣/١٢/٢٨هـ)

الأدب العربي الحديث
بين الجمود والتطرف

أي متتبع لمسارات الأدب العربي منذ اليقظة العربية إلى الآن.. لا بد أن يلاحظ أنه يسير في خطين متوازيين، لا يلتقيان في أية نقطة.

الخط الأول هو الجمود حيث انتهى المفهوم الأدبي لدى القدامى.. أو كما انتهى إليه هذا المفهوم في كتب التراث، وأصحاب هذا الجمود لا يرون، في ما عدا الأدب القديم، أية فائدة أو أي نفع من أي أصلاًح أو أي تجديد، سواء في الشكل.. أو حتى في المضمون.. نعم في المضمون.. فقد تجد منهم من يشبّه الطائرة النفاثة بالناقة، وخاصة من حيث مدى تحملها للأسفار الطويلة.. فإن شاء أن يكون أكثر إفراطًا في الخروج على مثل هذا التشبيه.. أمكنه أن يشبّه الطائرة (الكونكورد) بالنسر أو الحدأة!!

أما إذا ذكر الحرب مثلاً، فلا غنى عن ذكر السيوف البوارق أو طول الرماح، أو قوائم الخيل.. أو ذكر الكر والفر على غرار قول امرىء القيس:

مكر مفر مقبل مدبر معًا كجلمود صخر حطه السيل من علِ

أو على غرار قول عنترة العبسي:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

والجمود على هذا النحو.. معناه عند هؤلاء شدة الحرص على التمسك بالقديم، وصيانته والحفاظ عليه.

ولذلك قلّ أن نجد هذا النوع من الأدباء، وهم غير قلة في عالمنا العربي، يهتم أدنى اهتمام بأية تيارات أدبية حديثة، ولو من باب العلم، أو حب الاطّلاع، أو حتى واجب المنافحة عن أصالة التراث.

اكتفى الشعراء منهم بالمعلقات وما إليها، واستغنى أصحاب النثر بمقامات الحريري وما إليها أيضًا!!

وهؤلاء المتزمتون في المفاهيم، أخطر - من وجهة نظري - على حياة وازدهار وتقدم الأدب العربي من أولئك المتفرنجين أو الناعقين بالمفاهيم الأدبية الوافدة إلينا من الغرب أو من الشــرق، وهم الذين وصفــناهم - في مطلع هذا المقال - بالمتطرفين!!

ومن غير شك أن التطرف الشديد، هو نقيض الجمود الشديد، وكلاهما - في رأيي - من أهم العقبات التي واجهت مسيرة الأدب العربي.. فكما أن الجامد يشبّه الطائرة بالناقة أو النسر، نجد المتطرف لا يشبهها أساسًا.. بل يغمغم ويجمجم حول المعنى، ذلك لأنه لا يرى للتشبيه أية ضرورة أصلاً.. رغم أن التشبيه من خصائص الأدب العربي من حيث كونه خير معين على تجسيد الصورة الشعرية، أو تكثيف المعنى المنثور!!

ولست أشك أن المأساة الحقيقية التي يعاني منها أدبنا العربي الحديث، هي وقوعه بين هذين الشقين أو الطرفين.. يجذبه كل واحد منهما إلى ناحيته بقوة، وكل طرف يجد الكثير من الأعوان في لعبة شد الحبل هذه.

وإن كانت هناك غلبة واضحة فهي - في ما يبدو - لصالح المتطرفين لأنهم أكثر جراءة، وأكثر احتكاكًا بوسائل النشر والإعلام، ولذلك يجدون الكثير من الأعوان.. من بين أنصاف الأميين الذين يجدون صعوبة شديدة في فهم التراث.. ثم لا يجدون في إنتاج المتطرفين غير الضحالة والعبث.. وما يمكنهم أن يعتقدوا معه أنهم - رغم أميّتهم - قد فهموا هذا النوع من الأدب، وأنهم يستطيعون بالتالي إنتاج مثله. وأفضل منه!!

وقد استطاعوا ذلك بالطبع.. فإنك تجد وسائل النشر مليئة بإنتاج هؤلاء الذين استغنوا عن سيبويه وزهدوا في أوزان الخليل!!

وهذا لا بد أن يجر في النهاية، بل هو قد جر فعلاً إلى انفصام كامل بين الأدب العربي الأصيل بمميزاته وخصائصه كأدب خير أمّة أخرجت للناس، وبين واقع أدبي جديد يرى أن التقدم هو الانسلاخ النهائي من كل ما يمت إلى التراث بصلة، حتى ولو كانت صلة المميزات والخصائص التي لا بد منها في أدب أية أمّة.

أما أسباب هذا التناقض الشديد، فإننا لا نستطيع تفصيلها في هذه المقالة، وإن كنا نستطيع أن نشير - مجرد إشارة - إلى أن كل ذلك إنما هو من مخلفات الاستعمار.. ثم من مخلفات الغزو الفكري الغربي الذي ما زال يزداد كل يوم حدة وشدة.. فيجعل أصحاب القديم يزدادون في حذرهم وحرصهم على مقوماتهم الأدبية الأساسية كنوع من المحافظة على كيانهم واستقلالهم، وهم في - هذا على حق في الظاهر على الأقل.

أما في حقيقة الأمر فإن التمسك الشديد بالقديم.. ثم الجمود عنده.. ليس هو الوسيلة الصحيحة لصد الغزو الفكري.. بل الصحيح هو فهم العصر، وفهم منطلقاته ومتغيراته.. ثم الصمود في وجه الهجمات العصرية بمفاهيم ووسائل عصرية حيث لا يمكن محاربة (إليوت) بالشنفرى!!.. بل بتفهم أفكار (إليوت) وأدواته الهجومية على فكرنا - بصورة مباشرة أو غير مباشرة - ولا يمكن لنا أن نفهمه هو أو غيره بمجرد إغلاق الباب دونه.. فقد أصبحت الأبواب مُشرَعة، والنوافذ مفتوحة، ووسائل الوصول إلينا متاحة عبر الكثير من القنوات!!

أما أولئك المتطرفون الذين انجرفوا مع التيارات الوافدة.. فلا يمكن لهم أيضًا الاحتفاظ بالتوازن المطلوب بمجرد السباحة مع اتجاه التيارات، ولا يمكنهم الانسلاخ عن مقومات أدبهم أو خصائص تراثهم، دون الانسلاخ عن أمّتهم نفسها. وهذا هو ما يحدث بالفعل.

وَدَعْكَ مما يتشدقون به من دعوة للثورة أو التمرد أو التقدمية، فليس كل ذلك غير قشرة لتغطية جلودهم المسلوخة ونفوسهم الملطخة الممسوخة!!

مجلة "المجلة" العدد (١٨٥) في ١٤٠٣/١١/٢٥هـ

الشعر العربي
بين الأصالة والمعاصرة

نريد هنا أن نتسامح إلى أقصى حد ممكن مع دعاة الشعر المتمرد على الوزن والقافية، أو بعبارة أخرى، الشعر المتمرد على أوزان الخليل.. ولمجرد إثبات حسن النية من قِبَلِنا لا بأس من أن نؤكد أن أوزان الخليل ليست قرآنًا مُنزّلاً.. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليست أوزان الخليل غير اجتهاد عالم جليل هو الخليل نفسه، وقد وجد أمامه ثروة ضخمة من الشعر العربي، والذي هو ديوان للعرب.. فنظر فيه.. فهاله تعدد أوزانه، وتنوع قوافيه فحفزه كل ذلك لتجربة نادرة فذة، وهي حصر ما وصل إليه من الشعر العربي القديم في أوزان محددة.. أي أنه لم يأت بجديد من عنده.

وكل ما هنالك أنه وضع الأوزان لشعر وجد قبل أن توجد الأوزان، وإنما وجد بالسليقة المصقولة، والفطرة السليمة.

ويبدو أن الخليل بن أحمد قد رأى بعض الانحراف عند المحدثين أو المعاصرين له في فطرتهم أو سليقتهم.. فأراد بتحديده لأوزان الشعر القديم أن يثبت القديم كما هو على قدمه، فوضع له الأوزان التي ينحصر فيها، وترك الاجتهاد لغيره فيما يجدّ من شعر، ولم يقل أبدًا إن أوزانه تلك ضربة لازب لكل شاعر لا بد أن يقتفي أثرها، ويتقيد بقيودها.. بل قال إن هذه هي أوزان الشعر القديم، وكإنه يقول: لا شأن لي بما يجدّ بعد ذلك.

وقد وجد بالفعل على صعيد الشعر العربي، ما لا يدخل في نطاق أوزان الخليل، ولكنه لم يبعد عن النفس العربي الأصيل الفطرة والسليقة، وكان أن هضمه الأدب

العربي وتقبله، ولم يرفضه لمجرد كونه قد خرج عن أوزان الخليل.

بل إنني أستطيع أن أتزيّد في القول بأن الخليل بن أحمد لم يستطع حصر جميع أوزان الشعر القديم، إما لأن الكثير من الشعر العربي - وبخاصة الشعر اليمني - لم يصله أصلاً.. وإما لأنه لم يستطع هضم بعض الأوزان التي وجدها شاذة، وهي ليست بشاذة.. بل كانت قليلة بالنسبة إلى ما نقله الرواة من أوزان أخرى.

هل يكفيكم هذا يا إخواننا يا دعاة المتمرد على الأوزان.. أم تريدون المزيد من إيضاح موقفنا - نحن الذين تصموننا بالتزمّت - إزاء أوزان الخليل؟

لا بأس.. خذوا عندكم أيضًا!!

إنني شخصيًا أرى رأيًا خاصًا أتحمل مسؤوليته.. ذلك أنني أعتقد أن اجتهاد الخليل في تحديد أوزان الشعر العربي القديم قد أضر بالشعر - بعد ذلك - من حيث أراد أصلاحه أو الحفاظ عليه!!

لقد أوجدت أوزان الخليل طبقات من النظّامين لم يكن لها أي وجود قبل ذلك.

لقد ظن بعض من تعلم أوزان الخليل أنها تكفيه مع القافية لتلفيق أي كلام.. ثم يسميه شعرًا بعد ذلك ما دام متقيدًا بأوزان الخليل!!

ولكن النقاد القدامى تصدوا لهؤلاء النظّامين وقالوا لهم بالفم المليان:

إذا الشعر لم يهزك عند سماعه   فليس جديرًا أن يقال له شعر

بل زاد النقاد فاتفقوا على تسمية هذا النوع من الشعر الملفق الموزون بـ "النَّظْم".

وهكذا أصبح معروفًا ومقبولاً نَظْم الفقهاء - مثلاً - للمتون.. أو غير ذلك من أنواع النَّظْم.. بل أصبح هذا النظم وسيلة تعليمية مهمة جدًا حيث كان التعليم يعتمد على الحفظ بالدرجة الأولى فكانت منظومات المتون تسهيلاً لحفظها أكثر منها مجرد رغبة في قول الشعر أو النظم.

هل نزيدكم أيضًا؟!

لقد أحدث تحديد الأوزان وحصرها من قبل الخليل ما يمكن أن نسميه استهانة بالشعر العربي.. فكل من قال كلامًا ولو عاديًا في أثناء حديثه، وصادف - مجرد مصادفة - أن كان مطابقًا لأحد أوزان الخليل، اعتبر شعرًا.

ومن ذلك مثلاً ما روي عن أبي العتاهية أنه كان يقول:

"لو أردت أن أجعل كلامي كله شعرًا لفعلت".

وهو - لا شك - يقصد أنه يستطيع أن يجعل كلامه متفقًا مع واحد من أوزان الخليل.. ذلك أن المفهوم السائد هو أن من يقول كلامًا يتفق مع أوزان الخليل فهو الشعر!!

وقال أبو العتاهية أيضًا:

"أكثر الناس يتكلمون بالشعر، وهم لا يعلمون، ولو أحسنوا تأليفه كانوا شعراء كلهم".

قال راوي الخبر: فبينما نحن كذلك إذ قال رجل لآخر عليه مسح: "يا صاحب المسح تبيع المسحا" فقال لنا أبو العتاهية:

هذا من ذاك.. ألم تسمعوه يقول: "يا صاحب المسح تبيع المسحا" قد قال شعرًا، وهو لا يعلم.. ثم قال الرجل: "تعال إن كنت تريد الربحا" فقال أبو العتاهية: وقد أجاز المصراع بمصراع آخر، وهو لا يعلم.. قال له: "تعال إن كنت تريد الربحا"[1].

وكل هذا وغيره مما لم نذكر هو - لا شك - من سلبيات الاعتقاد السائد بأن كل من قال كلامًا موزونًا مقفى فقد قال شعرًا.

والواقع أن الشعر ليس كذلك في رأي النقاد، سواء القدامى أو المحدثين.. بل في رأي عامة الناس حينذاك.. حيث كان الجميع تقريبًا يتذوقون الشعر ويعرفون

---

(١) (للمزيد من التفاصيل راجع كتابنا "أدب وأدباء" من ص ١٥ إلى ص ٢٦).

جيده من رديئه.. وحتى قبل الخليل بن أحمد لم يكن هناك من يخونه تذوقه لجيد الشعر فيعرف سليمه من سقيمه بأذن موسيقية مرهفة، وبسليقة سليمة صحيحة تميز أي نوع من أوزان الشعر، دون الاعتماد على العلم بأوزان محددة.. بل الفطرة وحدها كافية لمعرفة الشعر الجيد.

وهكذا فإن الشعر الحديث أو الشعر الحر، لو كان يملك الفطرة السليمة أو السليقة الصحيحة لما قيل عنه إنه خرج عن أوزان الشعر العربي.

مجلة المجلة عدد ٢١٢ في ١٤٠٤/٦/٧هـ

- ٢ -

بعد كل ما قلناه - في الحلقة السابقة - عن سلبيات الشعر العربي الملتزم بأوزان الخليل، وكان ما قلناه مجرد تمهيد أو مدخل لما نريد أن نقوله عن شعر الحداثة والمعاصرة، وسنحرص كل الحرص على تناول هذا الموضوع بكل أناة.. بل بكل رحابة صدر، وسندعم ما نريد قوله بشواهد وبراهين.. نأمل أن تكون كافية ومقنعة.. فلنبدأ:

منذ حوالي أربعين عامًا، شهدت ساحة الشعر العربي محاولة جريئة للخروج بالشعر العربي من دائرة أوزان الخليل، وكانت البداية التي حاولت الشاعرة العراقية (نازك الملائكة) تأصيلها ووضع قواعدها وروابطها من خلال كتابها الشهير (الشعر المعاصر).

كانت هذه البداية الجريئة معقولة إلى حد ما.. ذلك أنها لم تخرج كثيرًا جدًّا عن خصوصية الشعر العربي، وإن اختلفت عنه - بعض الشيء - من ناحية الوزن أو

تنوع القافية، ورغم ذلك قوبلت هذه الحركة التجديدية منذ بدايتها من الحذر والشك والريبة.. بل والرفض المطلق عند المحافظين.. ولكنها - أي الحركة - بدأت فعلاً، واستأثرت باستقطاب النقاد تأييدًا مطلقًا، أو تشجيعًا محاذرًا، أو رفضًا باتًّا.

وكان كل ذلك من أهم عوامل الشهرة المستفيضة التي حظيت بها هذه الحركة، وهي بعد وليدة غضة.

والمتتبع لهذه الحركة الجديدة الجريئة يلاحظ عليها منذ بدايتها إلى الآن التطورات التي سنأتي على ذكرها باختصار شديد، ونرجو أن لا يكون مُخِلاً.

كانت حركة التجديد قد تزعمها منذ البداية، شعراء على جانب كبير من التمكن في الشعر التراثي، وعلى جانب كبير أيضًا من التعمق في دراسة التراث الشعري العربي.. ولم تكن محاولتهم التجديد غير ضرب من ضروب التململ الشعري، أو الترف الفكري، أو المجاراة لروح العصر المتطور في كل شيء.

وهذا يعني أن هذه الحركة التجديدية كانت في بدايتها من منبع عربي خالص، لا تشوبه الشوائب، ولا تحوم حوله الشبهات.

وكان أصحاب هذه الحركة على جانب من المقدرة الشعرية الموروثة بحيث لا يمكن لناقد أن يتهمهم بالعجز عن الوزن والقافية.

بعد ذلك بفترة ازداد عدد الواغلين على الحركة التجديدية من غير أهلها، ومما لا شك فيه أنه قد اندس بين هؤلاء الواغلين على الحركة التجديدية بعض العملاء الذين يعملون لصالح الحاقدين على التراث العربي الباذخ.. كما اندس أيضًا بين هؤلاء الواغلين بعض المتأثرين أو المتعصبين لكل ما هو غربي، فانضم هؤلاء إلى أولئك لينحرفوا بالحركة التجديدية عن مسارها الصحيح، وليستغلوا بعض أوجه التشابه بين حركة التجديد من حيث الوزن، وبين إيقاعات الشعر الغربي.

وأصبح بعض الشعراء الغربيين مثلاً يُحتذى لأولئك الزائفين أو المندسين على

الحركة التجديدية النقية الصافية.. فلم يلبثوا أن عكروها شر تعكير.

يقول الأستاذ (زكريا تامر) في مقال له بمجلة (الدوحة القطرية) في عددها رقم ٩٠ وتاريخ غرة شعبان ١٤٠٣هـ ما نصه:

"... كما أن "التقدم" له أيضًا قيمته و"سيطرته"، وله ممثلوه الصادقون والمزيفون، وهؤلاء المثقفون المزعومون ليسوا إلا ممثلين متخلفين للتقدم، ودورهم في الحياة اليومية أكثر خطرًا من المدافعين عن التخلف بالمخالب والأنياب.. فمن المؤكد أن المتخلف المعتد بتخلفه أقل خطرًا على قضية التقدم من متخلفين يختبئون تحت رايات التقدم مستمدين منها الحماية والحصانة فمتى تطرد الرايات النائمين تحت ظلالها، والذين لا يستيقظون إلا وقت توزيع الأسلاب" انتهى.

وهذا النص يعتبر تلخيصًا موفقًا للموقف برمّته ولا أظننا بحاجة إلى أي تعليق عليه أو أي شرح له.

لم تلبث الحركة التجديدية في الشعر أن أوهمت بعض الأغرار أن الشعر الحديث هو أي كلام متناثر على وجه صفحة من الورق، فكثرت الدواوين البيضاء من غير سوء إلا من كلمتين أو ثلاث في كل سطر.

وبذلك ونحوه كثرت الغوغائية فأفسدت نظرة الإنصاف إلى حركة التجديد، وأصبح من كان يؤيدها أو يشجعها على جانب كبير من الحذر تجاهها.

وقد بحت أصوات الشعراء المجددين بالفعل، وهم يقولون إن هذه الغوغاء ليست من الشعر في شيء.

ومن عجب أن هؤلاء الأغرار قد ظنوا أن التجديد في الشعر هو المعادة التامة لكل ماهو تراثي.. أو لكل ماهو قديم.. وتلك فكرة سامة أوحى بها بعض العملاء المندسين على حركة التجديد.

ولذلك نجد شاعرًا كبيرًا مثل (نزار قباني) يقول في مقابلة له بمجلة الحوادث عدد ١٣٩٤ تاريخ ٢٢ يوليو ١٩٨٣م ما نصه:

"التجديد ليس (أكروباتية).. والمجدد ليس حاويًا يخرج الأرانب من قبعته، والمناديل الملونة من تحت إبطه".

القصيدة الجديدة لا يمكن أن تتكون خارج رحم اللغة، وخارج الأصولية و"الضوابط" وخارج "خصوصية الشعرية العربية".

ومثل ما للشعر الياباني خصوصيته، وللشعر الأفريقي خصوصيته، ولشعر أمريكا اللاتينية خصوصيته.. فإن الشاعر العربي الحديث.. لا يستطيع أن يهرب من سلطة الزمان والمكان عليه، ومن عوامل بيئته العضوية والوراثية والثقافية.. فهو إن لم يكن شاعرًا عربيًّا فهو لن يكون أيضًا شاعرًا يابانيًّا".

إن الطبيعة تتجدد من داخلها، وضمن قوانين علمية دقيقة (...).

إن التجديد يحتاج إلى صبر طويل، ووقت طويل، وشرط التجديد الأول هو "المعرفة".

فالقصيدة الجديدة إذا لم تعرف تاريخها جيدًا فإنها بالتأكيد سوف تكون بغير مستقبل.

"ونحن لا نعترض على الذين يريدون أن يثوروا على القصيدة العربية التقليدية فلهم الحق المطلق أن يفتحوا النوافذ، ويغيروا الهواء، ويجددوا الأثاث.. لكننا نطلب إليهم أن يثوروا من داخل المتنبي، وأبي تمام، وديوان الشعر العربي حتى لا تكون ثورتهم عبثية هوائية" انتهى.

وهذا النص أيضًا من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أي تعليق أو شرح!!

- ٣ -

لم يعد الآن أي شاعر أو ناقد، يستطيع أن ينكر أن حركة التجديد قد تخثرت وفشلت إلى حد بعيد.. بل إلى الحد الذي أصبح معه الشعراء الذين يملكون إمكانية

التجديد، يتذمرون من الوضع أو النهاية المؤسفة التي انتهت إليها الحركة التجديدية.. بل إن بعضهم قد كفر تمامًا بهذه المهزلة العبثية التي تمارس كل يوم من قبل الزائفين أو الواغلين على الحداثة والمعاصرة.

ونحن لا نطلق القول هنا جزافًا.. أو على عواهنه.. بل نؤيد ما نقوله بنصوص مختارة من أقوال أبرز الشعراء أو النقاد.. فهذا مثلاً الأستاذ (جهاد فاضل) ينسب إلى أحد النقاد قوله (الحوادث ١٤٨٣ في ديسمبر ١٩٨٣م) :"إن المشكلة الأساسية في موضوع الحداثة اعتماد الكثير ممن بالغوا في ادعاء الحداثة.. فبعض شعراء الحداثة يقلدون الأجنبي فيما يعتبره هو، أي الأجنبي، حداثته الشعرية، ويطرحون هذا الشيء المقلد (بفتح اللام) في السوق العربي المحلي على أنه الحداثة في حين أن الحداثة تكون غير ذلك.

"إنها بالنسبة للعرب، مسألة تجديد شعر معين هو الشعر العربي، تجديده لا إلغاؤه.. الانطلاق منه لتجديده، تجديده ولكن مع الاحتفاظ بروحه وخصوصيته وملامحه" انتهى.

وهذا النص - كما نلاحظ - يتفق إلى حد بعيد مع النص السابق الذي نقلناه عن نزار قباني، وهو من كبار شعراء الحداثة، ولا يستطيع أن يطعن في حداثته أي شاعر أو ناقد.

وسأنتقل الآن إلى ما هو أهم وأوضح بكثير جدًا مما طرحناه حتى الآن.

سأنقل فيما يلي نصًا مطولاً بعض الشيء، وقد اضطررت إلى نقله الكامل للحفاظ على الأمانة من جهة، ولأنه يمثل رأي شاعر مهم جدًا على ساحة الحداثة.

إنه الشاعر الفلسطيني البارز (محمود درويش) وكان قد تحدث إلى هذه المجلة[1] بالذات منذ عامين تقريبًا وبالتحديد في عددها رقم ١٢٥ الصادر بتاريخ ٨ـ ١٢ رمضان ١٤٠٢هـ وكان حديثه بعنوان: "الحداثة تدمرنا، وأنا متعصب للوزن والقافية".

(١) المقصود مجلة "المجلة".

وفيما يلي النص الكامل، قال محمود درويش:

"أعتقد أن أحد أسباب أزمة الشعر العربي الحديث، هي "الحداثة".. أنا شاعر حديث، ولكنني أعترف أن الحداثة تدمرنا الآن.. الحداثة اختلطت بمفهوم التجريبية، وهي نقيض النضج.

برأيي قد آن الأوان، بعد أربعين سُنّة من تجربة الشعر الحديث، أن يعاد النظر في هذا الشعر.

"أخطر ما في مفهوم الحداثة أن "العدمية" أضحت شرطًا من شروط الحداثة..

إذا كانت هذه هي الحداثة، فأُعلنُ هنا أنني رجعيّ ومحافظ، حاليًّا لا يوجد قانون يربط الشعر الحديث بـ "الحداثة".

بدلاً من أن نشرح مفهوم القصيدة، نعمل على تعقيدها.. هناك فوضى في الشعر الحديث بسبب الحداثة.

الشعر الحديث يقول: إن القافية والوزن لهما قوانين، وماذا في ذلك، أين هو الفن الذي لا تحكمه قوانين؟

من أين تأتي حداثة الشعر؟ في رأيي، حداثة الشعر تجيء وتتولد من "تراث هذا الشعر" ولا تأتي من الغرب.

كمثقف يجب أن أُلِمَّ بأكبر عدد من تيارات الشعر العالمية، لكن في عملي لا أستطيع أن أكتب على غير أرضي، جديدي ينبثق من قديمي، ما يحدث عندنا هو أن أتخلى عن أربعين وزنًا وإيقاعًا، وأستلهم إيقاعين من أوروبا حتى أصل إلى مستوى (سان جون بيرس).. نعم كل الشعر في أوروبا يملك إيقاعين فقط.. ألجأ إليهما، وأترك كل الزخم الموجود لديّ.

ما معنى الحرية الكاملة بلا قيد؟.. هل توجد حرية بلا قيد؟.. لقد وصلوا في بيروت إلى ما يسمى البياض في الشعر.. ما معنى ذلك؟.. معناه أن لا أكتب شيئًا على ورقة بيضاء وأسميها قصيدة!!

تطور الشعر، مرتبط بتطور قانون الشعر، وليس بإلغاء القانون لصعوبته!!

لقد جاءني مرة، أحد الشعراء بقصيدة مطلعها "عيناك حمامتين" وبرر ذلك بأنه قصد تكسير اللغة.. ما معنى ذلك؟ هل نبدأ من جديد في النقاش حول رفع المبتدأ، ونصب الخبر؟!!" انتهى النص.

أشعر بالفعل أنني أطلت في نقل النصوص، وأن بحثي المتواضع هذا لا يتطلب - بالضرورة - كل هذه النصوص، ولكني تعمدت ذلك لأواجه "شعراء الصفوف الخلفية" بما يجب أن يفهموه جيدًا، وقد تعمدت أن لا أنقل أي نص لأي شاعر محافظ أو أي ناقد متزمّت.. بل نقلت عن اثنين من أبرز الشعراء على ساحة الحداثة، وهما نزار قباني ومحمود درويش.

وما نقلته عنهما يكفي لدحض الادعاءات والمزاعم والتشنجات التي نقرأها كل يوم للزائفين من شعراء الحداثة.. أو للأغرار الذين لم يفقهوا بعد أن الحداثة لا تلغي التراث كما يزعمون، وأن الحداثة ليست هي تقليد الغربيين بشكل ببغاوي.

ونستطيع أن نقول الآن: إن خلاصة ما وصلنا إليه هو:

ليس كل كلام يتحلى بالوزن والقافية يمكن أن يكون شعرًا بالضرورة.

إن أوزان الخليل بن أحمد ليست ملزمة لأي شاعر عربي يستطيع أن يأتي بوزن جديد في إطار روح الشعر العربي الخالص، وإن الحركة التجديدية الصحيحة كانت في بدايتها للانطلاق نحو أوزان جديدة متناسبة مع روح العصر، ومحافظة - في الوقت نفسه - على أصالة الشعر العربي، ولكن هذه الحركة التجديدية ضلت طريقها على أيدي العابثين أو الزائفين أو المندسين في الصفوف الخلفية!!

أثبتنا هنا أن اثنين من كبار شعراء الحداثة يتبرآن تمامًا مما يحدث على ساحة "الحداثة" من فوضى.. أو كما يقول نزار قباني في حديثه السالف الذكر:

"شعراء اليوم مع الأسف يتشابهون إلى الحد الذي تشعر معه بأنهم يكتبون

قصيدة واحدة، ويؤلفون حزبًا شعريًّا واحدًا، ويمشون في مظاهرة شعرية واحدة، ويوقعون متكافلين متضامنين تحت قصائد بعضهم"!!

وبعد.. لست أريد هنا غير التذكير بالحقائق الأصيلة، وإن كنت أعرف أن الذكرى لا تنفع غير المؤمنين.

مجلة "المجلة" ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، في ١٤٠٤/٦/٢١هـ

ظاهرة الصعلكة في الجاهلية
هل هي ثورة حقًّا؟!

منذ مدة، وأنا أعثر في قراءتي المتواضعة، على مقالة هنا أو قصيدة هناك، وفي هذه أو تلك نظرة حديثة متطرفة جدًّا إلى ظاهرة الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي!

تقول هذه النظرة الحديثة المتطرفة ما معناه: إن ظاهرة الصعلكة كانت أول (ثورة) في العصر الجاهلي على الظلم والاستبداد والتقاليد العقيمة إلخ.. إلخ.

لقد قرأت ـ مثلاً ـ لأحد الشعراء الناشئين، قصيدة ليست من الشعر في شيء، ومع ذلك فقد أهداها إلى (عروة بن الورد) معتبرًا إياه (زعيم الأحرار!!).

وقرأت ـ كما قلت ـ أكثر من مقال، وأكثر من قصيدة بهذا المعنى أو بهذا الفهم لظاهرة الشعراء الصعاليك، أو بالأصح ظاهرة (الصعلكة) في الجاهلية فليس الشعراء الصعاليك غير نفر من فئة (الصعاليك) في المجتمع الجاهلي.. أو أن هؤلاء الشعراء ليسوا غير الجانب الإعلامي أو اللسان الناطق ـ حسب لغتنا العصرية ـ باسم فئة الصعاليك تلك!!

وقد كنت أعزو هذا النوع من التفسير المتطرف إلى كون أصحابه ـ لا شك ـ تنقصهم الثقافة التراثية الصحيحة.. وأن الأمر لا يعدو كونه مجرد اعتساف لبعض النصوص دون ربطها بالنصوص الأخرى ذات الصلة الوثيقة بها!

وهذا النوع من عسف النصوص كثيرًا ما نجده ـ في الواقع ـ ليس في كتابات أو أشعار الناشئين فحسب، بل نجده في كثير من الدراسات الأدبية لأدباء متمكنين.. بل لكبار الأدباء، والسبب دائمًا هو كثرة النصوص والروايات المتناقضة.

وتلك مسألة ألفناها في مجال الدراسات الأدبية، وألفنا كذلك من كثير من الدارسين محاولاتهم المستمرة لإرجاع بعض النظريات العصرية إلى أصول قديمة في التراث العربي والإسلامي!

وغير بعيد عنا - كمجرد مثال - حكاية دعاة الاشتراكية العلمية مع الصحابي الجليل (أبي ذر الغفاري) - رضي الله عنه.. فقد اجتهد هؤلاء الدعاة للاشتراكية العلمية أن يجدوا لدعوتهم أصلاً تراثيًا إسلاميًّا ليسهل تمرير دعوتهم.. فلم يجدوا غير (أبي ذر الغفاري)!

وتلك حكاية معروفة، وليس هنا مجالها، وإنما أشرنا إليها كمجرد مثال لمحاولات التفسير المتطرف لبعض الأصول التراثية، ومحاولة استخدام هذا التفسير لصالح أية نظرية حديثة.. أو لصالح أي مفهوم حديث، سواء كان في مجال الدين، أو في مجال الشؤون العامة، أو في مجال الأدب!!

وليست حكاية النظرة إلى ظاهرة الصعلكة في الجاهلية على أنها (أول ثورة) أو أول نُشدانٍ للحرية أو نحو ذلك مما نجده في مقالة هنا أو قصيدة هناك، وخاصة عند شعراء الحداثة!!

... ليس ذلك إلا من قبيل ما أشرنا إليه آنفًا.

ولكن الواقع أن ظاهرة الصعلكة في الجاهلية، لا يمكن أن تكون - رغم كونها تمردًا بالفعل - مقياسًا صالحًا يمكن أن يقاس عليه المفهوم الحديث للثورة أو التحرر.. ليس لفارق الزمان والمكان فحسب، رغم أهمية هذا الفارق، بل لأن ظاهرة الصعلكة في الجاهلية مسألة تختلف تمامًا عما يُراد بها من خلال الإشارات المتوالية إليها!

ولعل آخر إشارة، قرأتها - من هذا القبيل - هي قصيدة الشاعر الفلسطيني سميح القاسم ذات العنوان (انتقام الشنفرى)!

ثم ما قرأته في "المجلة" (العدد ١٧٩) بقلم الأستاذ مصطفى زين تحت عنوان (سميح القاسم يبدأ مرحلة شعرية جديدة) حيث قام بشرح قصيدة (انتقام الشنفرى) أو هو حاول - على حد تعبيره - "إيضاح الحركة التي تحكمها".

وقد كان إيضاحه للحركة التي تحكم القصيدة المذكورة على النحو التالي:

- أولاً: قام بتقديم تعريف مضغوط جدًّا عن (الشنفرى) وقد اختار تعريفه المضغوط هذا من جوانب معينة من حياة الشنفرى.. ليست هي كل حياته.. بل ليست غير جزء يسير من جوانب حياته، ولكنه لم يختر غير الجوانب التي أراد أن يؤكد بها أن الشنفرى وجماعته من الشعراء الصعاليك كانوا "على هامش المجتمعات القبلية في الجاهلية" ومن ثم "ثاروا ضد الظلم الذي لحق بهم".

وقال أيضًا: "وفي رأي معظم النقاد (؟؟) إن الشعراء الصعاليك هؤلاء يمثلون قمة التمرد ضد القمع".

- ثانيًا: أراد أن يؤكد أوجه التشابه بين حالة الشنفرى وحالة سميح القاسم بالقدر الذي جعل سميح القاسم يتخذ من الشنفرى رمزًا في قصيدته. "فحالة الشنفرى تشبه في وجوه عدة حالة الشاعر؛ الأول كان يعيش على هامش القبيلة، وعلى هامش قومه، بما يعنيه ذلك من يأس وتمرد ورفض للواقع، والقاسم يعيش على هامش المجتمع الإسرائيلي، وعلى هامش مجتمع قومه. والشنفرى شاعر متمرد عاش في القفار معظم حياته والقاسم شاعر متمرد (؟؟) عاش فترات طويلة في السجن".

تلك هي حركة قصيدة سميح القاسم كما شرحها مصطفى زين. والواقع أن هاهنا براعة نابهة من قبل مصطفى زين في إيضاح حركة القصيدة، ولكن هذه البراعة لا تعنينا بقدر ما يعنينا مدى متانة أساسها.

الجاهلية "ثورة ضد القمع".. أو أن الشعراء الصعاليك "قد ثاروا ضد الظلم الذي

لحق بهم". إن استخدام سميح القاسم لجانب "الانتقام" عند الشنفرى هو في محله تمامًا، ولا غبار عليه من حيث الدقة في اختيار الجانب المناسب من حياة الشنفرى لحركة قصيدته!!

ولكن تفسير مصطفى زين هو موضع النظر، ذلك لأنه لم يكتف ـ كما فعل الشاعر ـ بجانب روح الانتقام وتشابهها لدى الشاعرين.. بل ذهب ـ أي مصطفى زين ـ إلى مدى أبعد بكثير مما أراد الشاعر، ذلك أن أوجه الشبه بين (روح الانتقام) عند الشاعرين شيء، وأوجه الشبه بين دوافع وبواعث وظروف (روح الانتقام) لدى الشاعرين شيء آخر.

وهذا الخلط بين هذا وذاك هو موضع ملاحظتنا الخاصة بالاستخدام الجزافي للظواهر التراثية، وعسفها لكي تكون موضع مقارنة لظواهر حديثة، وإلا فهل يعقل أن يكون هناك أي وجه منطقي للمقارنة بين الثورة أو المقاومة الفلسطينية وبين ظاهرة الصعلكة في المجتمع الجاهلي؟؟

فأما الثورة أو المقاومة الفلسطينية، فهي لا تحتاج إلى إيضاح لمفهومها، ولكن (ظاهرة الصعلكة في الجاهلية) هي التي ـ في ما يبدو ـ تحتاج إلى الكثير من الإيضاح لنرى إلى أي حد تجوز المقارنة أو لا تجوز!

فالمجتمع الجاهلي، هو مجتمع القبيلة ـ كبرت أو صغرت ـ ولكل قبيلة (دستورها) غير المكتوب، والممثل في أعرافها وتقاليدها وطريقة تماسكها من الداخل، وأسلوب تعاملها أو التزاماتها مع القبائل الأخرى، يمثلها في كل ذلك رئيسها الذي يخضع بدوره لمجلس شورى من الأعيان، وله في النهاية الكلمة التي يلتزم بها الجميع، الصغير والكبير، الغني والفقير، الفارس والراجل.. وما كان يمكن لأية قبيلة في الجاهلية أن تكون متماسكة بغير هذا الأسلوب أو نحوه.

ولكن هذا التماسك القبلي المفروض بالدقة والصرامة لا يخلو، ولا يمكن أن يخلو

من فرد أو أفراد تستهويهم الغواية.. أو يقعون في الخطأ.. كأن يقوم أحد الأفراد بمخالفة إجماع القبيلة بأية صورة من الصور، ثم يتكرر منه، ذلك بحيث يستحيل ردعه وتيأس القبيلة من أصلاًحه.

هنا تقوم القبيلة بالإجماع بخلعه.. أي البراءة منه ومما يمكن أن يرتكبه، وتقوم القبيلة بإعلان براءتها منه وبذلك تصبح غير مسؤولة تجاه القبائل الأخرى أو تجاه أي كان مما يمكن أن يرتكبه هذا الشخص المخلوع.

وتبرأ القبيلة مما يمكن أن يحدث لها من مشكلات من جراء رعونة هذا الخليع وفي الوقت نفسه يفقد هذا الخليع حماية أمنه الشخصي الذي كان يتمتع به فيما لو كان مثله مثل أي فرد من سائر قبيلته.. وبفقده للحماية من قبيلته، وبرفضها له، يصبح طريدًا شريدًا لا أهل ولا مال ولا قبيلة ولا أمن على حياته!

وهكذا تصبح المسألة بالنسبة له مسألة حياة أو موت.. والمثل العربي يقول: (إذا لم تكن ذئبًا أَكَلَتْكَ الذئاب).

وقد أصبح هذا الخليع بين الذئاب حقيقة لا مجازًا.. فهو ينتقل من مفازة إلى أخرى ومن قفر إلى آخر، تكتنفه الوحشة، وتضطرم في نفسه نيران (النقمة) على قبيلته!!

وليس أمامه - في مثل هذه الأحوال - غير اللجوء إلى وسيلة القوة والعنف من أجل السلب والنهب وقطع الطرق!

وما يفعله في هذا المجال بمفرده، هو ما تفعله - في الواقع - قبيلته أو أية قبيلة، ولكن بأسلوب جماعي منظم، ووفقًا لاتفاق مسبق، ووفقًا أيضًا لأعراف معينة ومحددة!

وتلك هي أفضل وأجمل صورة من صور (الصعلكة) في الجاهلية!

غير أن هناك صورة أخرى للصعلكة الجاهلية.. أقصد العبيد أو الموالي، وهؤلاء

لا تربطهم أية رابطة بالقبيلة التي يعيشون بين ظهرانيها، ولا مال ولا جاه.. أولا شيء يخشون عليه.. فهم بذلك أسوأ بكثير من وضع (الخليع) فلا غرابة أن ينضم بعض هؤلاء إلى من يتزعمهم من الصعاليك (الخلعاء) أو أي صعلوك آخر يمكن أن يتمتع بروح القيادة والزعامة لهذا النوع من (المرتزقة)!

وبذلك ونحوه تكونت ظاهرة الصعلكة في الجاهلية، وذلك هو وضعها بكل إيجاز، وهو إيجاز غير كاف بأي حال كدراسة أدبية. ولكننا نقدمه هنا كمجرد لمحة كافية الدلالة على ما أردنا التأكيد عليه من أنه لا وجه للمقارنة بين ظاهرة الصعلكة في الجاهلية وبين المفهوم الحديث للثورة أو التحرر أو المقاومة، وإن كان ذلك لا يعفينا من دراسة أدبية أكثر تفصيلاً لظاهرة الصعلكة في الجاهلية، وذلك ما نأمل أن نفعله في حلقة قادمة!

"المجلة" العدد (١٨٣) ٥ - ١٤٠٣/١١/١١هـ

(٢)

ألمحنا في حلقة سابقة إلى ما يذهب إليه بعض الأدباء من فهم أو تفسير لظاهرة "الصعلكة" في الجاهلية، والتي عكسها لنا ما وصل إلينا من شعر بعض المشاهير من الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي.. يذهب هؤلاء الأدباء في فهم أو تفسير هذه الظاهرة على أنها (ثورة) بل هي أول (ثورة عربية) على القيم والمفاهيم والأعراف والتقاليد التي كانت تحكم المجتمعات القبلية في ذلك العهد!

وقد أشرنا - بإيجاز - إلى فساد هذه الرؤية أو ذلك الفهم.. أما الآن فإننا نبسط القول - قدر الإمكان - حول هذه الظاهرة ومفهومها الصحيح.

نلاحظ في هذا الصدد - قبل كل شيء - أن المصادر أو المراجع القديمة أو الحديثة

لا تسعفنا بتحديد بداية تاريخية محددة لنشوء هذه الظاهرة.. حيث لا نجد في أقدم المراجع غير أخبار مبثوثة هنا وهناك عن نفر من هؤلاء الصعاليك، والشعراء منهم فحسب.. ذلك أنه عند بداية التدوين في صدر الإسلام، وعند ازدهار الاهتمام براوية الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وازدهار حركة تفسير القرآن الكريم، وجد القوم في الشعر الجاهلي بصفة عامة خير شاهد أو معين على تفسير الكلمات الواردة في القرآن الكريم.. ثم الحديث النبوي الشريف.. ثم امتد هذا الاهتمام بالشعر الجاهلي عند التوسع في وضع قواعد اللغة أو غيرها من علوم البلاغة والبيان.

ولولا ذلك لاندثر الشعر الجاهلي بأكمله؛ لأن الإسلام قد جَبَّ ما قبله.. ولأن المسلمين قد انشغلوا بدينهم الجديد.. كما انشغلوا بواجب أو فريضة نشره عن طريق الجهاد والفتوحات وما إلى ذلك.. فلم يكن لديهم أي متسع من الوقت للعناية بالشعر الجاهلي.. فضلاً عن شعر الصعاليك من الجاهليين ولكن هذا لم يمنع أنه كانت ما زالت في صدور الرجال كثير من الروايات والأشعار وأيام العرب في الجاهلية فلما دعت الحاجة إلى الشعر الجاهلي للاستعانة به كشاهد لغة، أو تأكيد بيان.. قام رجال التدوين بتسجيل ما تمكنوا من الحصول عليه من صدور الرواة، وكان الأدب حتى ذلك الحين أدب رواية.. فوصل إلينا من ضمن ما وصل من الشعر الجاهلي، شعر بعض الشعراء الصعاليك وبعض أخبارهم أيضًا، وبخاصة بعد ازدهار أدب الرواية والأخبار والأشعار في العهد الأموي.. ثم العهد العباسي بعد ذلك كما هو معروف.

وهكذا حفظت لنا كتب الأدب بعض القصائد والمقطوعات للشعراء الصعاليك.. كما حفظت لنا بعض أخبارهم وطرائفهم ونوادرهم، ولا بد أن أشدد هنا على ناحية الطرائق والنوادر.. فقد أصبحت بعد ازدهار الدولة الإسلامية من أهم أسباب التسلية والمتعة والمؤانسة والمسامرات!

وهذا في حَدٍّ ذاته.. قد جعل الرواية مصدر رزق عند الخلفاء والأمراء والوزراء وسراة القوم.. الأمر الذي دفع بعدد من الرواة إلى التزيُّد والاختلاق في رواياتهم؛ بل دفعهم أيضًا إلى انتحال بعض الأشعار ونسبتها إلى العصر الجاهلي إما لمجرد الارتزاق بذلك.. أو لبعض الأسباب الأخرى مثل العصبية ونحوها.

ولكن مثل هذا الاختلاق في الرواية أو الانتحال في الشعر لم يخف - حينذاك - على النقاد ذوي الإدراك السليم، والبصيرة النافذة حيث حفظت لنا الكتب القديمة تراثًا ضخمًا من الروايات والأخبار والأشعار.. كما حفظت لنا هذه الكتب أيضًا العديد من النقدات والملاحظات على تلك الروايات والأخبار والأشعار بحيث لم يثبت منها في النهاية غير ما هو صحيح إلى حد ما..

وهكذا فإن كتب الأدب عندما حفظت لنا شعر الصعاليك وأخبارهم الطريفة.. لم تهتم أصلاً بتاريخ نشوء ظاهرة الصعلكة في المجتمع الجاهلي، ولم تهتم كذلك بتعليل هذه الظاهرة.. بل اهتمت بأشعار الصعاليك وأخبارهم كجزء من اهتمامها بأشعار وأخبار العصر الجاهلي بصفة عامة.

والواقع أن ظاهرة الصعلكة - كما يتضح لنا من الأخبار والأشعار - لم تكن مسألة غريبة على المجتمع الجاهلي، وخاصة القبائل البدوية.. ذلك أن التركيبة الاجتماعية لهذه القبائل.. لا بد أن تفرز مثل هذه الفئة من الناس، أقصد (فئة الصعاليك) ومن ثم فهي فئة من صميم المجتمع القبلي البدوي، وكل التصرفات التي عرفناها عن الصعاليك مثل الغزو والسلب والنهب هي في الواقع نفس التصرفات التي تفعلها القبائل نفسها!!

وكل ما هنالك أن القبيلة تفعل ما تفعله بشكل جماعي وبانضباط معين.. أما الصعاليك فكانوا يفعلون الأشياء نفسها ولكن بصورة فردية أو على شكل عصابات يتزعمها أحدهم على نحو ما تفعله القبائل.. اللهم إلا أن ما يفعله

الصعاليك.. أو بعض ما يفعلونه يعتبر (لصوصية) لاتّسامه بالطابع الفردي، ولعدم خضوعه لأعراف وتقاليد الغزو لدى القبائل؛ الأخلاق الفروسية!!

أما كيف نشأت ظاهرة الصعلكة، ومن أي طراز من مجتمع القبيلة يكون الصعاليك عادة.. فالجواب على ذلك هو الذي يحدد لنا فهم هذه الظاهرة.

وأعتقد أن خير من تعرض بالدراسة الدقيقة لفئات أو طوائف هؤلاء الصعاليك هو الدكتور (يوسف خليف) في كتابه (الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي) الصادر عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٥٩م، فدعونا ننقل عنه ـ سواء بالنص أو بالاختصار ـ بعض ما يلقي الضوء على هذه الناحية.

إنه يقول:

"والناظر في أخبار الصعاليك، المتتبع لظروف نشأة حياتهم.. يستطيع أن يلاحظ في وضوح ثلاث طوائف مختلفة تتألف منها عصاباتهم: (عصابات لا ثوارًا).

طائفة (الخلعاء والشذاذ) الذين أنكرتهم قبائلهم، وتبرأت منهم وطردتهم من حماها، وقطعت ما بينها وبينهم من صلة.. فأصبحت ـ أي القبائل ـ لا تحتمل لهم جريرة، ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليهم (ص ٥٦).

ولكي يكون هذا النص مفهومًا.. لا بد من نقل نص آخر يوضحه، وهو:

"عرفت القبيلة هذا الإيمان بالوحدة أمرًا مقدسًا، وترتبت عليه ـ أي الإيمان بوحدة القبيلة ـ طائفة من التقاليد الاجتماعية كانت بمثابة "دستور" ينظم سياستها ويحدد ما على أفرادها من واجبات وما لهم من حقوق.

"وينص هذا الدستور فيما يتصل بالسياسة الداخلية للقبيلة على أن أفراد القبيلة جميعًا متضامنون فيما يجنيه أحدهم (...) فجناية كل فرد منهم جناية المجموع (...) فإذا ارتكب فردٌ جُرمًا ترفض القبيلة أن تتحمل نتائجه أو إذا أخطأ في حق قبيلته نفسها، فإنه يطرد منها، ويسمى هذا الطرد خلعًا، ويسمى الطريد خليعا" (ص٩٠).

وهكذا يتضح لنا أن الفئة الأولى من الصعاليك وهي الفئة الأكثر أهمية من غيرها من فئات الصعاليك، تتكون أصلاً من الخلعاء والشذاذ.. أي أنهم أصلاً من صميم القبائل، ولكن كل واحد منهم قد أصبح خليعًا من قبيلته.. أي سحبت جنسيته حسب تعبيرنا الحديث، وذلك لارتكابه جُرمًا في حق قبيلته. وهذا الخليع يصبح لا مفر له من أحد أمرين: إما أن يلتجئ إلى أحد السادة من قبيلة أخرى، فيصبح في جواره أو حماه.. أو لا يجد من يجيره فلا يكون أمامه غير (الصعلكة) أي الغزو والسلب بمفرده، وهو العمل نفسه الذي كان يقوم به أصلاً في قبيلته، ولكن ضمن التزامه بالإجماع.

وهؤلاء الخلعاء لا يتم خلعهم إلا بصورة فردية لكل منهم، ولكنهم يتجمعون بعد ذلك، وغالبًا ما يكون أحدهم هو الزعيم لأية عصابة من الصعاليك.

أما الفئة الثانية من الصعاليك فهم:

"طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا نتيجة الظروف الاقتصادية المختلفة التي كانت تسود المجتمع الجاهلي، ويمثلهم عروة بن الورد ومن كان يلتف حوله من فقراء العرب" (ص٥٦).

وأما الفئة الثالثة فهم "طائفة الأغربة السود الذين سرى إليهم السواد من أُمّهاتهم الإماء.. فلم يعترف بهم آباؤهم العرب، ولم ينسبوهم إليهم (...) مثل تأبّط شَرًّا، والشنفرى، والسليك بن السلكة" (ص ٥٦).

تلك هي أبرز الطوائف التي تتكون منها عصابات الصعاليك ليقوموا بالغزو والسلب لحسابهم دون ضابط أو رابط كما هو الشأن بالنسبة إلى القبائل.

وبمجرد معرفتنا لهذه النوعيات من الناس الذين كونوا ظاهرة (الصعلكة) ندرك تمامًا أن هذه الظاهرة لم تكن (ثورة) على القيم والتقاليد القبلية بالمعنى الذي يصوره بعض الأدباء من الحداثيين، وذلك رغم علمنا بأن بعض هؤلاء

الصعاليك كعروة ابن الورد مثلاً قد حاول الانتقام فعلاً ممن شعر بأنهم ألحقوا به الإهانة، ولكن حتى روح الانتقام هذه التي تفرّد بها - بصورة محدودة - عروة بن الورد.. لا يمكن أن تفسر بأنها (ثورة) فالانتقام في حد ذاته من الأهداف الذاتية بعكس (الثورة) التي تشكل مجموعة أهداف لصالح شعب بكامله أو أمّة بأسرها.

فما بالك - والأمر كذلك - بسائر الصعاليك الذين لم يكن جل همهم غير الحصول على لقمة العيش بأية طريقة كانت.. ولم تكن لديهم أية دوافع، بل لم تكن لديهم أية نزعة ثورية كما يقال.. بل كل ما ينشدونه هو البقاء!!

ومن الثابت في الدراسات الأدبية والتاريخية أن أول من وصف هؤلاء الصعاليك بالثورة على قيم وتقاليد مجتمعهم هم جماعة (المستشرقين) حيث قام هؤلاء المستشرقون بأول تحقيق ودراسة ونشر لتراث الصعاليك، ولا بد أنه قد لفت نظرهم ما وجدوه في شعر هؤلاء الصعاليك من قوة وعنفوان، وتصوير للتشرد والبؤس والفقر، وما إلى ذلك مما لو نظر إليه أي غربي مستشرق فلا بد أن يعتبره (ثورة) على التقاليد البالية في المجتمع القبلي!!

والواقع أن سوء الفهم هذا إنما يعود إلى أن هؤلاء المستشرقين لا يفهمون - حق الفهم - طبيعة المجتمع القبلي، البدوي بصفة خاصة، والذي ما تزال بعض آثاره باقية إلى الآن في بعض أطراف الجزيرة العربية، وظاهرة (الصعلكة) نفسها بمعنى السلب والنهب وقطع الطرق كانت ما تزال موجودة إلى عهد قريب جدًّا.

ومن سوء فهم المستشرقين القدامى لطبيعة المجتمع البدوي القبلي، يرون في نصوص شعر الصعاليك ظاهرة لافتة للنظر، وخاصة شعر ابن الورد أو الشنفرى، ولكن الحقيقة أن ما جاء في شعر ابن الورد مثلاً من دعوة للمكارم والمحامد والعطف على الفقراء إلخ.. إلخ.

كل ذلك في أصله من صميم الأخلاق في المجتمع الأساسي الذي انبثقت منه فئات الصعاليك، وفي الشعر الجاهلي لغير الصعاليك ما يثبت ذلك بصورة أفضل بكثير.

ولكن استغراب المستشرقين لتلك القيم التي يشير إليها شعر الصعاليك جعلهم يتوهمون أن ظاهرة الصعلكة لم توجد أصلاً إلا لتأكيد وترسيخ تلك القيم.. بينما هي في الواقع راسخة بصورة أفضل في المجتمع القبلي.

وناحية ثانية مهمّة هي أن الكثير من دراسات المستشرقين.. كانت معاصرة لروح الثورة الفرنسية - مثلاً - فكأنهم أرادوا أن يثبتوا في داستهم أن (الثورة) من الحقوق المشروعة التي مارستها حتى المجتمعات البدائية.

وهكذا نجد الكثير من الخلط في دراسات المستشرقين، سواء في هذه الناحية أو غيرها، وإن كنا لا ننكر فضلهم في الاهتمام المبكر بالتراث العربي، بصرف النظر عن دوافع هذا الاهتمام، وهذه مسألة أخرى على كل حال!!

والمؤسف حقًّا أن بعض الدارسين العرب قد تابعوا نهج المستشرقين في دراساتهم للأدب العربي.. بل إن الدراسات العربية تعتمد دراسات المستشرقين كمراجع أساسية بما في أولئك الدكتور (يوسف خليف) في دراسته للشعراء الصعاليك حيث أورد صفحة كاملة تضمنت مراجعه الأجنبية فضلاً عن الإحالات الكثيرة الأخرى.

ولو كان الدكتور يوسف خليف من أبناء الجزيرة العربية لما وقع في بعض الأخطاء التي جرّته إليها متابعته للمستشرقين من جهة، وعدم فهمه لطبيعة المجتمع البدوي من جهة أخرى.

وقُل ما شئت عمن هم أقل عِلمًا وإدراكًا من الدكتور خليف..

وهذا جهل فادح. فالواقع أن ظاهرة الصعلكة ليست (ثورة) ولا هي أيضًا (دعوة

تحرر)!! بل هي - في أصلها - لا يجوز أن تكون مصدر استلهام للشعراء الثائرين أو المتحررين، وإن كانت - في مفهومها الحقيقي - تصلح أن تكون مصدر إلهام للجنود المرتزقة في عصرنا هذا أو لعصابات الابتزاز والنهب والسرقة الحديثة المعروفة.. وذلك هو كل ما في الأمر[1]

---

(١) نشر هذا الموضوع على حلقتين في مجلة "المجلة" عدد ١٨٣ و١٨٤.

مع الحداثة وضدها

نعم للحداثة.. لا للحداثة!!

أخي العزيز الدكتور عبدالله الغذامي:

أنت تعلم جيدًا أن أمّتك العربية كانت ـ منذ عهد ما قبل الإسلام وإلى الآن ـ عرضة للكيد والمناوشة واللدد من الحضارات والامبراطوريات المجاورة لها، ولكنها ـ أي الأمّة العربية ـ كانت ـ رغم شتاتها القبلي صامدة في جزيرتها.. بل كانت تصدر الكيد والمناوشات لخصومها، جاعلة من جزيرتها قلعة حصينة منيعة.. بل جعلت منها مقبرة أيضًا لكل من حاول تدنيسها أو النَّيْل منها منذ عهد الفرس قبل الإسلام إلى عهد الأتراك في العصر الإسلامي!!

ولم يكتفوا ـ في العهد الجاهلي أو عهد ما قبل الإسلام ـ أن يجعلوا من جزيرتهم قلعة أو مقبرة.. بل جعلوا منها مهد حضارة استطاعوا أن يصدروها إلى خارج الجزيرة.

عرب اليمن، احتلوا الحبشة، وأثّروا فيها تأثيرًا كبيرًا ما يزال وجوده إلى الآن في لغة الأحباش وفي بعض فنونهم ومعارفهم، وذلك قبل أن يقوم الأحباش بغزو اليمن.. ليدفنوا هناك عن بكرة أبيهم، كما هو معروف!!

ثم صدرت الجزيرة حضارتها إلى الشمال أيضًا، وتلك أشياء لا تخفى على مثلك، وإنما أردت أن أقول لك إن أمتك العربية ـ مهما اعتراها من شتات وخلاف وتمزق ـ وجدت لتبقى مؤثرة لا متأثرة!!

ذلك هو الشأن قبل الإسلام.. ولا شك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يخترها لرسالة الإسلام، ويجعل منها خير أمّة أخرجت للناس إلا وقد هيأها لذلك بإرهاصات عديدة، جعلتها في مستوى تقبل الرسالة الإسلامية.. ثم في مستوى نشرها ـ بعد ذلك إلى أقصى حدود الأرض كما هو معروف أيضًا!!

وهنا كان لا بد أن تزداد الأسباب التي تجعل أمم الأرض تحقد على أمّة العرب، وتدسّ لها، وتكيد بكل السبل والوسائل.. ولكن الإسلام جاء لينصر من ينصر الله، وقد اختار الله سبحانه وتعالى ـ أمّة العرب لنصرة دينه، بل لنشره فوصلت عزتهم بذلك عنان السماء.. ولم تعد الجزيرة العربية، مجرد قلعة حصينة منيعة، أو مجرد مقبرة للأعداء.. بل أصبحت مصدر إشعاع لسائر أمم الأرض. بل مصدر إشعاع للجن والإنس معًا!!

***

وهنا لا بد أن ترفع حاجبك دهشة إذ أذكر لك ما تعرفه جيدًا، ولست في حاجة إلى التذكير به.. ولكني سأزيد فأذكر لك ما لا تجهله أيضًا.. ثم أبرر لك ذلك فيما بعد!!

***

أنت تعلم أنه لما استقر الأمر ـ بعد الفتوحات ـ لم تعد الأمّة العربية محصورة في جزيرتها.. أو في المدى الذي وصلت إليه قبل الإسلام.. بل أصبحت بإسلامها دولة ضخمة، جعلت أحد الخلفاء، وهو هارون الرشيد، العربي القرشي المسلم، يقول لسحابة عابرة:

«امطري حيث شئت فخراجك سيأتيني»!!!

وذلك هو منتهى العزّ ـ كما يعلم الله.. وكما تعلم أنت أيضًا.. وكما يعلم غيرك أيضًا وأيضا!!

وهكذا عندما أصبحت الأمّة العربية المسلمة على هذا القدر من العز.. كان لا بد أن ترنو إلى ما في حضارات الأمم من ثقافة ومعرفة وعلوم لتأتي بها، وتصهرها في الثقافة العربية الإسلامية.. فنشطت الترجمة من سائر العلوم والمعارف غير العربية، ولكن العربي المسلم العزيز لم يأخذ تلك العلوم والمعارف كما نقلت.. بل

صهرها في لغة عربية قبل كل شيء.. ثم أخضعها لفكر عربي إسلامي خالص، وذلك هو شأن المقتدر دائمًا!!

* * *

وشاء الله أن تدول - بعد ذلك - دولة العرب فأصبح شأن المسلمين بما فيهم العرب أنفسهم بِيَدِ أمم أخرى، ما كانت لتصل إلى ما وصلت إليه لولا أنها دانت للإسلام، وحُكِمَت باسمه.. وتلك كانت بداية الهوان العربي.. ثم - في الوقت نفسه - بداية نشاط الأمم غير المسلمة، أولئك الذين كانوا ينقمون على العرب، قبل الإسلام وبعده، فوجدوها فرصة سانحة للتكالب مع الأمم الأخرى للانقضاض على الإسلام الذي هو عز العرب بالانقضاض على العرب أنفسهم!!

وكان ما كان من حروب شعوبية، وصليبية، واستعمارية استمرت أمدًا طويلاً، وما تزال مستمرة إلى الآن، وإلى ما شاء الله، وإلى الحد الذي لم يستطع معه العربي المسلم أن يلتقط أنفاسه أبدًا أبدًا.. حتى اليقظة العربية الحديثة في مطلع هذا القرن قُبِرَت في مهدها، تكالبت عليها الشعوبية، والصليبية، والاستعمارية فكانت لا بد أن تذهب مع الريح!!

ومما هو شديد الإيلام حقًّا أن هوان العرب جاء على أيدي بعض المسلمين أكثر مما جاء عن طريق خصومهم، أولئك الخصوم - وهم الأمم الغربية - الذين وجدوا خليفة الإسلام في تركيا، وقد أصبح رجلاً مريضًا، أنهكته مناوشاته مع العرب من جهة.. كما أنهكه الانغماس في لذائذه من جهة أخرى.. فانقضوا عليه وقضوا على ما تبقى من عزة للإسلام!!

ومن هنا نشأت - وكان لا بد أن تنشأ!! - فكرة القومية العربية، ولكنها جاءت متأخرة جدًّا حيث أصبح لا عز للعرب من غير الإسلام، وحيث أصبح العرب يحذرون من كثير من المسلمين قبل أن يحذروا من أعدائهم وأعداء الإسلام.. فلم

يستطيعوا ـ أي العرب ـ تكوين قوميتهم لأنها ـ بكل بساطة ـ تتنافى مع فكرة «الأخوة الإسلامية»!!

فأصبحت المصيبة العربية مزدوجة، تحاصرها الشعوبية باسم الأخوة الإسلامية، وتحاصرها الصليبية باسم عداء الأديان، ويحاصرها المستعمر طمعا في نهب الثروة والسيطرة على الممرات!!

وهكذا لم يستطع العرب أن يتوحدوا تحت ظل أية فكرة قط!!

فكرة القومية تتنافى مع الأخوة الإسلامية!!

وفكرة الأخوة الإسلامية يشوبها العداء القديم والحديث لكل ما هو عربي!! من قبل أمم دانت للإسلام بطريقة أو بأخرى.. ولكنها لم تقبل يومًا أن تدين للعربي، سواء كان مسلمًا أو قبل أن يكون مسلمًا!!

وبذلك لم يكن أمام العرب غير أن ينقسموا على أنفسهم، كل قبيل يدعي لنفسه شعارًا يخالف به الآخر.. حتى وصلت الأمّة العربية إلى الهوان الذي لا قبله ولا بعده كما هو معروف!!

ولكن العربي، رغم كل التنازلات التي اضطر لتقديمها للأعداء.. لم يتنازل عن أمرين أساسيين:

عروبته

ودينـه

لقد ظل العربي متمسكًا بعروبته ودينه، رغم كل النصال التي مزقت صدره.. أو هتكت ظهره!!

وهذا التمسك بالعروبة والدين أذهل أعداء العرب من كل جنس ولون إذ لم يستطيعوا ـ بمجرد قوة السلاح ـ أن يجردوا العربي من عروبته المتمثلة في جنسه ولغته أو من دينه المتمثل في عقيدته وفي لغته أيضًا.. أي أن اللغة العربية ظلت وستظل قاسمًا مشتركة بين عروبة العربي ودينه!!

وقد أدرك الأعداء ذلك فتيقنوا أن لا سبيل للقضاء النهائي على الإسلام والعروبة بغير القضاء النهائي على اللغة العربية، لغة الإسلام، ولغة القوم العرب قبل ذلك وبعده، وإلى أن تقوم القيامة حيث تكفل الله - سبحانه وتعالى - بحفظ ذكره الذي اختار له اللغة العربية.

ومن هنا وجد الأعداء أن قوة السلاح لا تكفي لفصل العربي عن دينه أو لغته، ووجد الأعداء أيضًا أنه متى ظل العربي متمسكًا بدينه ولغته، يظل مصدر خطر كبير، ولربما عاد - بفضل تمسكه بدينه ولغته - إلى سيادة العالم من جديد!!

* * *

ومن هنا نشأت الحرب الشرسة ضد اللغة العربية التي يتمثل فيها الدين الإسلامي كما تتمثل فيها عزة العربي!!

وقد نشأت الحرب الشرسة ضد اللغة لا بقوة السلاح العادي فذلك ما لم يُجْدِ فيها.. بل نشأت حرب شرسة بوسائل عديدة مختلفة في محاولة مستميتة لغسل الدماغ العربي، وعزله في نهاية الأمر عن لغته ودينه!!

قالوا للعربي إن تراثه هو سبب تخلفه متى ظل متمسكًا به.. وضربوا له الأمثلة بأمم أخرى لم تنل نصيبها من التقدم إلا بعد أن أدارت ظهرها لتراثها!!

ولكن العربي لم يقتنع بذلك.. بل قال إن تراثه ليس كتراث الأمم الأخرى، مجرد فلسفة، ونظريات، وآداب.. بل هو تراث دين ولغة وحضارة، ولذلك فإن العربي - إذا تخلى عن تراثه - يكون قد تخلى عن كل شيء في حقيقة الأمر!!

وقالوا للعربي إن ثقافته أصبحت قديمة بسبب شدة حرصه على تراثه، وإنه لا سبيل لتقدم الأمم من غير ثقافات حديثة.. فقال العربي:

ذلك صحيح، وأنتم تعلمون أن العربي المسلم لم يكن منغلقًا على نفسه قط.. بل كان منفتحًا على ثقافات الأمم بشتى أصولها وفروعها ومختلف مناحيها.. ولكن

العربي كان دائمًا في وضع يؤهله للنظر في ثقافات الأمم فإذا أراد أخذ شيء صار إلى تعريبه أي أنه يقوم بصهره وإخضاعه للغته وفكره كي يصبح عربيًّا خالصًا في نهاية الأمر!!

كان العربي حتى في عهود ما قبل الإسلام، منفتحًا على ما حوله إلى الحد الذي كان معه في العهد الجاهلي يقبل مفردات لغوية من لغات أمم أخرى لا يرى ضيرًا من إدخالها في لغته، ولكن بعد تعريبها؛ أي بعد صقلها حتى تكون عربية خالصة!!

وقالوا للعربي: إن الثقافة الآن لم تعد ثقافة تراث.. بل أصبحت ثقافة حضارات حديثة متغايرة تمامًا مع كل الحضارات والثقافات التي قبلها، ولذلك لا بد لكل أمّة قديمة - بما فيها الأمّة العربية - من الأخذ بالثقافة الحديثة وترك ما سواها إلخ...إلخ... إلخ.

وهنا نشأ الخلاف الشديد بين العربي وأخيه.. أحدهما يقول للآخر:

هذا صحيح - يا أخي - وماذا عساه ينفعنا تراثنا المندثر، وقد غلبنا على أمرنا، وانتهى كل شيء.. فلا أقل من أن نلحق بالركب الغربي الذي وصل إلى القمر.. بل إلى ما هو أعلى من القمر!!!

وقال الآخر لأخيه العربي:

إنني معك من حيث مبدأ وجهة النظر، وأنت تعلم أنني شديد التعطش إلى المعرفة أو الثقافة، ولا أمانع في أخذها من ألد الأعداء.. فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها، والثقافة كذلك.. ولكنك تعلم - يا أخي - أننا نحن العرب - بصفة خاصة - مستهدفون في صميم كياننا، لغتنا، ولغتنا - كما تعلم - هي لغة ديننا فإذا فقدناها، فقدنا عروبتنا وديننا معًا!!

ونحن - يا أخي - أصحاب حضارة، وتراث، وثقافة، والمفروض أن يكون ما

نأخذه من ثقافات الأمم نكون قد أخضعناه لينصهر في تراثنا وثقافتنا ليكون إضافة.. وليس أصلاً من الأصول!!

أما الذي يريده منا هذا الغرب اللعين.. أو الشرق الألعن.. فهو الانسلاخ التام عن كل ما يمت إلى ماضينا بأية صلة، ليسهل عليهم ـ في نهاية الأمر ـ طمسنا وإزالة مواقعنا من خريطة الكرة الأرضية لنصبح في النهاية من «الأوباش» الذين ينعقون للغرب أو للشرق دون أن يكونوا من صميم الجهة الشرقية أو الغربية التي ينعقون لها!! وأنت يا أخي ـ ما زال العربي يخاطب شقيقه ـ لا ترضى أن يكون حُبّنا للثقافة هو سبب ذوباننا لنصبح مجرد ناعقين للشرق أو للغرب.. وإنما نأخذ من الثقافة الغربية أو الشرقية ما يتناسب مع شخصيتنا، وما نستطيع أن نهضمه بلغتنا، وما نجعله يضيف جديدًا إلى قديمنا.

أظنك تفهمني جيدًا.. يا أخي!!

* * *

أخي يا دكتور عبدالله الغذامي

لقد كتبت من هذه الرسالة حتى هذا الحد عشر صفحات بخط يدي، دون أن أوجه إليك ـ بصفة مباشرة ـ أي شيء يدل على أنني أوجه رسالتي لك بالذات.. ولكن مهلاً!!

إنني ـ في الواقع ـ أقصدك بالذات بكل ما في هذه الرسالة، سابقها ولاحقها!!

لقد رأيتك ـ ونحن في قمة السراة، سراة العرب!! ـ وأنت تغضب غضبة مزمجرة لمجرد أن أحدهم قال كلمة عابرة، رأيت فيها أنت مساسًا بعروبتك ودينك.. فلم تهدأ من غضبتك تلك حتى ظننت أنك لا بد وأن تأخذ بتلابيب ذلك المسكين وتضرب به الأرض!!

لقد ساعدتُ شخصيًّا في التخفيف من حدة غضبتك، وساعد أخي علوي

الصافي أيضًا.. ثم بعض الحضور فلما هدأت نفسك.. كنت أنا في هيجان من نشوة وجذل مشاعري نحوك.. فأنا أحبك كثيرًا - كما تعلم - وقد زدت غبطة وجذلاً بحبي لك عندما رأيت منك ذلك الصفاء والنقاء نحو عروبتك ودينك، ولم أكن في شك قط من هذا القبيل، ولكن في نفسي عليك بعض الشيء من حيث اندفاعك الشديد نحو الثقافة الغربية، أو نحو ما يسمى زورًا بـ «الحداثة»!!

كان في نفسي بعض الشيء من أن لا تكون على بينة تامة من أمرك نحو دعوى «الحداثة» وما يحيط بها من شكوك لما نعرفه عن كبار دعاتها.. وأقل ما نعرفه عنهم.. أنهم ليسوا فوق مستوى الشبهات من ناحية عروبتهم ودينهم.. بل منهم من ثبتت عمالته الصريحة الفاضحة كسعيد عقل مثلاً!!

كان في نفسي بعض الشيء منك، ليس لأي شك فيك - والعياذ بالله - بل لأنني كنت - وما أزال - أخاف خوفًا شديدًا من اندفاعك نحو الثقافة الحديثة أو الغربية، وأنت صاحب ثقافة عربية متمكّنة، وصاحب ذهنية متفتحة واعية، وصاحب صفاء ونقاء.. وخوفي الشديد هو أن يستغل البعض أي شيء من ذلك فيقول:

ها هو «الغذامي» الذي لا شك في عروبته، أو دينه، أو ثقافته يؤيد "الحداثة" وهو - في الواقع - لا يقصد «الحداثة» المطلوبة.. بل يقصد تلك التي تحوم حولها الشبهات، وحاشاك!!

من هنا - يا أخي عبدالله - جئت إليك برسالتي هذه.. جئت لأستثير نخوتك العربية، وغيرتك الإسلامية، وطهارتك الثقافية أن لا تجعل لهؤلاء أو أولئك من المشبوهين أي سبيل عليك باسم «الحداثة» أو غيرها، وأن تعلن - دائمًا - للملأ أن «الحداثة» لا تعني التنكر للعروبة أو الدين أو التراث.. وإنما هي مجرد وسيلة

للحصول على إضافة ثقافية حديثة ليس أكثر ولا أقل!!

أريد منك ـ يا أخي ـ أن لا تجعل أي سبيل عليك من هذه الناحية، وبخاصة من قبل أولئك المغرر بهم الذين يظنون أن لا ثقافة قط غير "الحداثة"!! وأن كل من يطالبهم بالحذر ليس غير متزمت متعفن إلخ.. إلخ.. إلخ.

أنا على يقين ـ أنك قد فهمتني حق الفهم.. فَدُمْ واسلم في رعاية الله وحفظه.

عكاظ ٢٧/١٠/١٤٠٥هـ

نعم للتراث.. نعم للحداثة!!

بقلم: الدكتور عبدالله الغذامي

(ليس المؤلِّف المطبوع بحاجة إلى الثناء ولا إلى النقد ولكن بحاجة إلى الألفة والفهم أو هو على الأصح بحاجة إلى المجاوبة والمجاذبة من النفوس التي تفهم طبيعته فهم وفاق أو فهم خلاف)

. عباس محمود العقاد.

(الحداثة لا تعني التنكر للعروبة أو للدين أو للتراث.. وإنما هي مجرد وسيلة للحصول على إضافة ثقافية حديثة ليس أكثر ولا أقل)

. علي محمد العمير.

عدت من القاهرة مساء السبت ٣ ذي القعدة بعد رحلة عمل تتعلق بكتابي (الخطيئة والتكفير)، وكانت وعثاء السفر ترهق جسدي ونفسي حتى إن فتح باب شقتي كان عملاً شاقًا على مسافر عاد تَوًّا وصعد سلالم العمارة مُحمّلاً بحقيبتين فادحتين مما أثقل علي التقاط الجرائد المكومة تحت باب الشقة مما هو حصيلة ثمانية أيام من الجرائد السعودية التي كرم أصحابها وأرسلوها إلى داري مجاملة وتقديرًا، وكنت ألتقط الجرائد من على الأرض لأرفعها إلى مكان يحفظها لأعود إليها بعد أن أعود إلى نفسي، ولكن فجأة سقطت من بين يدي ورقة بيضاء صغيرة بادرت بالإمساك بها وهي تطير هاوية إلى الأرض وقبضت بيدي عليها وذهني يحدثني أنها ورقة من زائر يثبت زيارته لي ويخبرني بعدم وجودي بالبيت ـ كما هي لغة أوراق الزيارات ـ ولكنني وجدت غير ذاك، وكانت ورقة تمثل خطوة كريمة من الأخ الدكتور عبدالجليل طاشكندي فيها يشير عَلَيّ بأن أطّلع على عدد عكاظ الأسبوعي الصادر يوم

الاثنين ٢٧ شوال لأن بها مقالاً للأستاذ علي محمد العمير، ولمحت عكاظ ترمقني على استحياء شاقة طريق بصرها من بين أكوام الصحف، فأخذتها وبدأت أقرأ في صفحتها الخامسة رسالة كانت عيناي تتسابقان في التقاط أسطرها حتى جئت إلى آخرها دون أن أشعر بنفسي وبأنني ما زلت واقفًا على فتحة الباب وحقيبتاي لم تزل مبقاة على (الزلفة) فتحاملت على نفسي وألقيت بحملي على أول كرسي لاقاني في المنزل الخالي، وأمسكت بالجريدة ثانية، وفي هذه المرة تسمر بصري على صورة الأستاذ علي العمير، نظرت فيها حتى لكأني غصت في داخلها، نظرت فيها حتى لكأنها صارت ترتعش وتنبض ناطقة، باسمة متفجرة، وكأنها ترحب بي إذ عدت من سفري، وأحسست عند ذاك بالمحبة تجمعني - مرة أخرى - بهذا الوجه الكريم ونطقت بعد أن كان الصمت هو خيمة الزمان في شفتي، نطقت شاكرًا ومقدرًا لعلي العمير صدقه ونزاهته وغيرته ثم صراحته في البحث عن الحقيقة ومساءلة النفس عنها والمكاشفة فيها، وفي هذه الغمرة تذكرت فجأة أنني لم أُصَلِّ المغرب والعشاء بعد، وكنت قد نويتهما جمع تأخير عند وصولي إلى جدة، فأوشكت أن ألوم أبا فوزي[1] لأنه أنساني واجبًا شرعيا في حين ظن أنه ذكّرني بواجب قومي، ولكن صوابي تداركني لأن ليس لأبي

فوزي يد في ذلك فاستعذت حينئذ بالله واستغفرت لنفسي ولأخي (الكبير) ثم وجهت وجهي لفاطر السماوات والأرض وبعد أن أديت واجبي الشرعي نهضت لأداء واجب آخر ولكنه واجب علمي فقررت أن أكتب هذه الرسالة التي ليست جوابًا على رسالة الأخ الكريم الأستاذ علي العمير ولكنها امتداد لها وتذييل لبعض ما ورد فيها.

العمير .. وبيانه الثقافي

وإني لأبدأ مؤكدًا على بعض جمل تقوم في رسالة الأستاذ العمير مقام البيان

---

(١) (أبو فوزي) هو المؤلف.

الثقافي الذي يجب أن يكون موقفًا مبدئيًّا لكل مثقف عربي في هذا العصر وهذه الجمل هي:

١) يقول أبو فوزي: (تعلمون أن العربي المسلم لم يكن منغلقًا على نفسه قط.. بل كان منفتحًا على ثقافات الأمم بشتى أصولها وفروعها ومختلف مناحيها.. ولكن العربي كان دائمًا في وضع يؤهله للنظر في ثقافات الأمم فإذا أراد أخذ شيء صار إلى تعريبه.. أي أنه يقوم بصهره وإخضاعه للغته وفكره كي يصبح عربيًّا خالصًا في نهاية الأمر).

٢) ويقول أيضًا في صدد تحديد موقفنا من العصر: (نأخذ من الثقافة الغربية أو الشرقية ما يتناسب مع شخصيتنا وما نستطيع أن نهضمه بلغتنا وما نجعله يضيف جديدًا إلى قديمنا).

٣) ويقول أخيرًا مقولة جعلتها فاتحة لمقالتي هذه لأنها تمثل موقفًا لا يمكننا إلا أن نأخذ به وإلا كتبنا على أنفسنا الانتحار الحضاري والقيمي وذلك حين قال:(إن الحداثة لا تعني التنكر للعروبة أو للدين أو للتراث.. وإنما هي مجرد وسيلة للحصول على إضافة ثقافية حديثة ليس أكثر ولا أقل!!)

هذه مقولات ثلاث أسوقها لأنها عناصر أساسية لموقف عربي من العصر ولم أعمد إليها من باب الاجتزاء أو المصادرة، كما لم أتعمد إغفال غيرها مما ورد في الرسالة لأن سائر الرسالة كان بمثابة التحفظ على شطط التفسير لمفهوم الانفتاح أو هو من باب التحذير من الوقوع في الخطأ.. وهو جميعه شيء نستطيع إدراك أسبابه وأسباب حماس أبي فوزي في التأكيد عليه، ولذلك فالرسالة كلها جاءت بمثابة إعلان بيان ثقافي في إشكالية الحداثة، وموقفنا منها، وهذا ما جعل المقولات الثلاث تتميز عما عداها لأنها تضمنت في داخلها رؤية كلية لما هو اليوم معضلة حضارية يجب علينا أن نطرحها

للمناقشة والمساءلة.

والمعضلة تكمن في علاقتنا مع العصر وكيف يجب أن تكون، وهي معضلة أزمنت علينا حتى عقمت فيها عقولنا ومنذ دخول نابليون بسحره الجديد إلى مصر والسؤال القائم أمامنا بِتَحَدٍّ سافر، والإجابات عليه تتنوع حسب تنوع المتصدين للإجابة حول علاقة الأمّة بزمنها الذي سرق من بين يديها فصار زمنًا غريبًا وظللنا نلهث وراء هذا الزمن دون أن نقوى على جعله عربيًّا وما ذاك إلا لأن اجتهادنا كان دائمًا اجتهادًا فرديًّا آحاديًّا ولم يكن قط جماعيًّا (أو مؤسسيًّا) وراحت كل مقولات المصلحين وإجاباتهم عن صفة التواصل مع العصر، راحت سابحة في الريح ودخلت التاريخ للذكرى فقط، في حين أن اليابان جاءت من بعدنا لتسأل نفسها نفس السؤال وتعطيه إجابة مشابهة لإجابات المصلحين الأوائل عندنا، ولكن الفارق هنا أن اليابان حولت الإجابة من مقولة فكرية إلى مسلك تقني فزاوجت بين التراث وبين العصر وتولد عن ذلك غدها المعطاء، حافظت اليابان على كل معطى تراثي لديها من دين ومن سلوك ومن لغة فقويت بذلك جذورها وفتحت صدرها للعصر فأخذت أجمل ما فيه وأنفع ما فيه فأضافت الحركة إلى روحها وانطلق أمسها على صهوة يومها فاخترق الفارس الأصيل بجواده الجديد كل حواجز الركود وعبر إلى المستقبل حيث صار التاريخ حركة وبناء وعطاء ليس مجرد ذكرى يستأنس بها المهموم عن همومه بأن يتذكر ما صنع السالفون ويتأوه على هذا الزمن الفاسد (وما هو بفاسد، والله، ولكن الذي يفسده هم البشر العاجزون).

والأمر في هذه المعضلة يتسع ليشمل كل وجوه حياتنا، ولقد يكون من أوضح تجلياته هو (إشكالية الحداثة)، وكم أنا سعيد في أن تثار هذه القضية بروح مخلصة وصادقة كروح الأستاذ علي العمير، وإن أول طريق العلاج هو

المكاشفة، ولا ريب أن في رسالة أبي فوزي مكاشفة صريحة ومخلصة، وأنا معك - والله - أيها العزيز في كل مخاوفك.. وهي جميعها مخاوف صحيحة وخطيرة.. ولكنني أختلف معك في شيء واحد فقط.. وهو أني لا أسمح للمخاوف أن تبلغ حدًّا يوقفني عن العمل والتفاعل مع الحياة.. وما دمت قد أوكلت أمري إلى الله فليس إذًا للبشر عليّ من سبيل إلا بما أراد الله.. وما يريده الله هو أمر لا مرد له فلماذا أشغل نفسي بأمر هو لله وليس لي.

يكفيني - أيها العزيز - أن نيتي مع الله صادقة ومخلصة والله عالم بمرادي.. أما الناس فإنهم لا يعنوني بحال ولذلك فإنه لا يهمني أبدًا أي تجريح أو إساءة يعمد إليها بعضهم ويسعى حثيثًا نحوها؛ لأن هؤلاء الناس ليسوا في حسابي أبدًا ولم يكونوا هدفًا لعلمي أو مطمحًا لتفكيري.. وسيكونون حتمًا في حساب الله وهذا حسبي وكفى.

أما قضية الحداثة وعلاقتها بالتراث فإن هذه المسألة يرتكز لُبابها على طرفيها ارتكازًا حتميًّا لا يمكن فكّها وإلا فسدت تمامًا ولقد قلت من قبل إن الحداثة والتراث وجهان لعملة واحدة وإن لغتنا بدون التراث جسد لا روح وهذا موت وفناء.. كما أن لغتنا دون الحداثة جسد بلا قدمين وهذا شلل وعجز عن الحركة.. ونقلت في كتابي (الخطيئة والتفكير) مقولة الناقد الفرنسي العظيم رولان بارت من أن (اليوم انبثاق من الأمس) وبنيت على هذه المقولة كثيرًا من مفهوماتي النقدية في هذا الكتاب ومن هنا استطاع الناقد الجديد أن يفسر الناقد القديم، وصار لنا أن نقرأ مقولات ابن جني والقرطاجني وأبي حامد الغزالي بناء على ما وصل إليه (علم الأدب) الجديد بنهجه الألسني الفذ، فنجد في تراثنا كنوزًا غابت عن عيوننا من قبل فلما استعنًّا بأدوات العصر ووسائله الجديدة فهمنا ما كان يقصده أسلافنا الأفذاذ مما عجزنا عن فهمه زمنا حتى

فتح الله على عقولنا بفهم كشف لنا بعضًا عن عبقرية تراثنا ولغتنا العظيمة، ومن هنا يأتي التزواج بين الأمس واليوم ليلد لنا ذلك (غدًا) مشرقًا ترتفع فيه الأمّة وتصحو بعض صحو من كبوتها، ولو تضافرت جهودنا في ذلك لتعددت حالات الصحو ونمت وكثرت حتى تتمخض عن صحوة شاملة يعود مجدنا فيها ساحقًا كما كان من قبل.

وما دمنا قد استخدمنا وسائل العصر لكشف كنوز الأرض التي سخرها لنا بارئ السماوات والأرض فكشفنا عن النفط في جوف الأرض واستخدمناه للنهوض بحياتنا حتى أوصلنا أحد شبابنا إلى الفضاء، فلم إذًا لا نستخدم وسائل العصر لكشف كنوز لغتنا ـ وهي لغة الإعجاز ـ أي أنها تحتاج إلى كد ومعاناة ذهنية راقية لسبر كوامنها واستنباط بدائعها، ومن هنا فإن واجب الأديب اليوم أن يدخل إلى عوالم هذه اللغة المعجزة ليكشف عما هو مخبوء فيها من إمكانات إعجازية وإبداعية دائمة التفتح، وهذا ما يجعلنا دائمًا نرحب بالشباب الذين يسعون جاهدين إلى الدخول في أعماق لغة الضاد ليجلبوا لنا من كنوزها ما لم نره من قبل.. وهذه ظاهرة تنفرد اللغة العربية بها ـ أقصد ظاهرة (الطاقة الإبداعية المستمرة) فعلى الرغم من مرور ألف وسبعمائة سُنّة ـ التي هي عمر التجربة الأدبية المسجلة تاريخيًا ـ إلا أن اللغة العربية مع هذا ظلت دائمًا وأبدًا قادرة على التجدد دون أن يمسها تغيير يقلب حقيقتها وكل ما مر عليها من شعراء وكتاب ودارسين نهلوا منها ما شاءت لهم قرائحهم أن يفعلوا على مدى هذه القرون كلها.. ومع هذا كله يأتي شبابنا اليوم فيستطيعون أن يقولوا في هذه اللغة (العجوز ـ الشابة) شعرًا لم يقله شاعر من قبل من ناحية القيمة اللغوية المتجددة وهذا فيه إثبات للطاقة الإعجازية للغة العربية التي عجزت كل القرون عن إنهاكها وهذا تأكيد لنا على أن الله قد كتب لهذه اللغة الخلود والبقاء لأنه تعالى قد وعدنا بذلك حيث وعد بحفظ

الذكر فشمل ذلك لغتنا وهي نعمة من الله يجب علينا الشكر بها مثلما سخر الله شعراءنا الشباب دون أن يعلموا ليكونوا شهود بيان على قدرة اللغة وطاقتها وشمولها تركيبًا وأساليب وصياغة.

وهذه العلاقة بين الحداثة والتراث مبحث أخذت به نفسي وأنا بصدد إصدار كتاب حول ذلك - يكون عنوانه - إن شاء الله - (الصوت القديم الجديد) فيه أقمت العلاقة بأدلة تاريخية بين الشعر الحديث والموروث التراثي من حيث القيم الموسيقية وهذا يشمل كافة أنواع العلاقات الفنية الأخرى، مما هو قائم يبن التجربتين ولكنه يحتاج فقط إلى بعض وقفات فيها مساءلة ومدارسة من أجل كشف هذه العلاقات.

وربما وجب الآن التوقف قليلاً عند مسألة المخاوف التي تعتور التصدي للقضايا الأدبية الحديثة - وهي مخاوف أراها لا تقوى على النهوض في وجوه الباحثين وذلك لأنها أمور تقع في كل نشاط إنساني؛ إذ يستحيل أن نجد في هذه الدنيا عملاً إلا ويحمل مخاطر تنشأ من حوله حتى في شربنا لكأس من الماء قد نتعرض للشَّرَقِ فهل ترانا نترك شرب الماء لكيلا نشرق به، أو ترانا نمتنع عن ركوب السيارات لنتجنب حوادث المرور؟

طبعًا ستقول لي إن هذا يختلف عن ذاك، وأنت على حق في ذلك.. ولكنك ستوافقني حتمًا على أن لكل شيء مخاطر مهما حاولنا تزكية العمل وتصفيته تمامًا مثل الدواء الذي يأخذه أيّ مريض فإن فيه علاجًا لدائه، ولكن له مع ذلك مضاعفات جانبية تؤثر، لكنها لا تحول دون استخدامنا للدواء.

وفي كل أدبنا العربي نجد الطالح جنبًا إلى جنب مع الصالح، فهذا الشعر الجاهلي وهو نموذجنا الشعري الأول فيه لغة راقية وجزالة وأدب جم نطرب له ونسعد به ولا يفسد ذلك علينا وثنيات شعرائه وغزلهم الفاحش وخمرياتهم

ولا حتى مبادئهم التي تتنافى مع أخلاقنا.

وفي الإسلام بدءًا من عصر بني أمية حتى اليوم شعر كثير وتراث كثير نستحيي حتى من ذكره والتحدث عنه، بعضه يمس الخُلُق، وبعضه يمس العقائد، ومن شعراء عرفوا بأنهم عرب أقحاح وليسوا بشعوبيين، وكلنا يعرف ذلك وليس المعري ولا كتاب الأغاني إلا مثالين عاديين جدًّا في هذا المقام، ولكن هذا يضيع إلى جانب العطاء العظيم الذي تحتفل به لغتنا فصار هذا مثل حالة (الشرَق) بالماء حيث نتمتع بالماء لأن الله جعل فيه الحياة وننسى الشرَق.

وفي أدبنا المعاصر شعر عمودي كثير فيه فساد وانحراف وكلنا نعرف ذلك في شعر المهجر وخمريات الرومانسيين وحتى في شعر شوقي، وللأستاذ العمير موقف من شوقي لهذا السبب، ويكفي أن نتذكر كيف ودع شوقي رمضان لكي نشرق بماء شوقي.

إن هذا جميعه لم يحل بيننا وبين ما هو صالح من ذلك الأدب.. وهذا موقف سليم وقفناه من الموروث وكل ما نحتاج إليه اليوم هو أن نمارس الموقف نفسه مع الحداثة فنأخذ صالحها ونتجنب طالحها، والحق أننا مطالبون بشكل قاطع بأن نمد يدنا للحداثة لأنها هي أدب العصر ووقوفنا معها حماية لها من أن ينفرد بها من يتربص بنا الدوائر، إنّ تَرْكَنَا للساحة يجعل ساحتنا مشرعة لكل عدو حاقد وما دامت الحداثة هي أدب هذا العصر فإن على شبابنا أن يتسنموا صهوتها لكي يمسكوا بزمامها ويوجهوه نحو المسار الصحيح ومن أولى من شباب الجزيرة العربية - والمملكة خاصة - لتحمل هذه المسؤولية، فهم الشباب تتمثل فيهم المقولة: (إن اليوم انبثاق من الأمس) لأنهم أحفاد الرجال من يعرب، وهم ورثة الحضارة العربية الأصيلة فإذا ما دخلوا إلى الشعر الحديث بأصالتهم فهم - إن شاء الله - سالكون به طريق الصواب.. وإننا بنظرة

فاحصة إلى شعر الشباب السعودي نجد أن حداثة شبابنا حداثة عربية صافية فيها استفاد شبابنا من معطيات العصر الحديث وغرسوا أنفسهم بجذور الأجداد فأخذوا صالح العصر وأضافوه إلى صالح التراث وجاء شعرهم - في الغالب - صافيًا كصفاء نواياهم وصادقًا كصدق إيمانهم ووطنيتهم.. وإن تشجيعهم والأخذ بأيديهم لواجب ديني محتم علينا جميعا.. ويكفي أن نسأل أنفسنا هذا السؤال الخطير: إن لم نتولّ نحن تشجيع شبابنا فمن سيتولى ذلك؟

إنك تعرف يا أبا فوزي أن الباب مشرع لكل طارق، فَلْنَحْمِ بابنا ولنشجع شبابنا على النهوض بأدب العربية نهوضًا سليمًا صافيًا لكيلا يتولى ذلك عَنّا من نخاف عقبي ولايته.

وإن تركنا للحداثة في المملكة لن يفعل شيئًا للغة العربية؛ فالحداثة مستشرية في كل أرجاء الوطن العربي، الأصوب هنا هو الدخول في المعمعة وتقديم النموذج الصحيح من خلال التجارب الأدبية الصحيحة لكي نضع أمام مثقفي العرب نموذجًا يمكن أن يكون قدوة تحتذى.. ولو تركنا هذه المهمة لخلا الجو للنماذج الفاسدة لتعيث فسادًا في لغتنا.

وتأكد أن العرب كثيرين يتطلعون إلينا كمنقذين لحضارة الأمّة من التحلل والإنقاذ لا يكون بأن نعيد على أسماع العرب معلقات الجاهليين فهم يعرفونها أحسن منا، وكتب شعراؤهم المعاصرون على منوالها بطرق لا نقوى ولا حتى على محاكاتها ولكن الإنقاذ يأتي بأن نرسم النموذج الناجح وهذا يكون بأن نثبت أننا نعرف العصر ونفهمه وأن فهمنا هذا جاء عن وعي وبصيرة مما يجعلنا نأخذ الصالح لنضمه إلى صالحنا فينتج عن ذلك مولود صالح وهذا هو النموذج الذي نقدمه إلى العرب في هذا العصر ونحن مطالبون بأداء هذا الدور.. وإني لأرى في شبابنا طاقة وإمكانية لأداء هذه المهمة بشرف

وعزيمة.. ولهذا تجدني أشجعهم وأبارك خطاهم.. وأقف معهم.. وذلك بعد أن عقلت أمري وتوكلت على الله، وهو معي أبدًا إلى يوم لقائه ولن يضرني والله شيء ما دام الله معي.

أخي أبا فوزي ألست تراني على بينة من أمري الآن؟.. أنا واثق أنك ستفهمني حتى وإن اختلفت معي.. تمامًا مثلما أنا واثق أنني سأظل أقدرك وأحترمك وأحبك مهما كان اختلاف الآراء بيننا.

ولتسلم لأخيك الصغير يا أشرف الخصوم، وإنه ليكفيني عن كل ما ألقاه من عنت أن أجد رجلاً مثلك يخالفني الرأي ولكن يفهمني ويقدر صدق نيتي (وإنما الأعمال بالنيات).. وما دامت نيتي صادقة فإن عملي صادق حتمًا.. وهذا يريحني ويطمئنني دومًا إلى أن ما أفعله صحيح وسليم.

وإني لأقرر - مجددًا - أنني مع الإبداع أنى كان وحيث ظهر.. والإبداع ليس حكرًا على (الشعر الحديث) وإنما مهارة فنية قابلة للتجلي في أي عمل أدبي أو فني سواء في ذلك العمودي أو الحديث أو فنون الأدب الأخرى بما في ذلك فن المقالة وطبعًا الرواية والقصة.

ولكن الإبداع يظهر مع التحرر أكثر من ظهوره مع الالتزام، وذلك أن الفن من طبعه التميز والتفرد وهذان لا يتحققان إلا بالإضافة الجديدة، والجِدّة لا تأتي عن طريق مواكبة السالفين وإنما تأتي عن طريق محاولة الكشف عن وجوه جديدة في التجربة الأدبية بها ينفرد المبدع ويضيف إلى رصيد لغته، ولهذا يكون الإبداع في الشعر الحديث أكثر لأن الشاعر غير مقيد بأنماط تحكم وتيرة فكره وهذا يجبره على البحث عن نموذج خاص به فيخفق أحيانًا وينجح أحيانًا وإذا ما نجح يكون قد أضاف إلى موروثنا إضافة رائعة لا يسعنا إلا أن نحمدها له، ولو تحقق هذا لدى شاعر عمودي لكنا به أكثر إشادة وإكبارًا وذلك

لأن الإبداع في هذا الشعر اليوم عمل شاق جدًا لأن الشاعر يتواجه في رصيد أدبي جبار، ودائمًا ما ينهار الشاعر المعاصر أمام ذلك الرصيد فيسقط في إساره ويقع تحت هيمنته فيأتي شعره صورة ممسوخة للموروث ونقرأ عندئذ أبياتًا كلها أصداء لشعراء سالفين، وكلنا يرى ذلك لدى معظم شعراء العصر العموديين الذين جاءوا بعد جيل الرومانسيين مما يجعلنا لا نجد شاعرًا مجيدا إلا القليل كالجوهري وأبي ريشة والبردوني، ويندر أن نجد بجانب هؤلاء شعراء يقدرون على مواجهة هيمنة المورث عليهم، ولكن الشعر الحديث يأتي خلال تحرره من نمطية النموذج المحكم فيوجد لنفسه أرضية جديدة تمكنه من الكتابة بعيدًا عن هيمنة السالفين فيتمكن بذلك من التعامل مع اللغة تعاملاً حُرًّا يستطيع معه كشف كنوز جديدة لم ترها عيون أسلافه.. وهذه إضافة للغتنا وأي إضافة ولا شك أن بجانب النجاح إخفاقات كثيرة وهذه نراها ونعرفها ولكنها لا تشغل بالنا لأنها ستزول من ذاكرتنا كما زال أمثالها من قبل، ولكن الذي يهمنا هو التجارب الناجحة وهي ما يملك علينا تقديرنا وعنايتنا.

وإنك لتراني قد أَشَدْتُ بالإبداع دون التقيد بهوية سابقة، ولذلك كان كتابي عن حمزة شحاتة - وهو ليس حداثيًا - وكانت دراستي للشابيّ - وهو ليس بحداثي - وهذا برهان على أن قضيتي هي الإبداع بغض النظر عن شكله ومصدره.

أما عنوانك عن الحداثة بنعم ولا.. فهذا موقف لا أملك إلا أن أشكرك عليه وأمد يدي موافقًا لك عليه.. فالحداثة نقبلها ما دامت عربية الهوى مخلصة النية من الموروث ومن حضارة الأمّة.. نقبلها ما دامت لبناء مستقبلنا على جذور ماضينا ليكون هرمنا عربيًا إسلاميًا صافيًا وليس فيه إلا العنصر الصالح الذي يفيد في بناء الهرم وفي سموه.. ونأخذ من العصر كل ما هو إنساني وحضاري وبنّاء مفيد.. ونمارس بذلك وظيفة حضارية تقوم على (الانتقاء)

والاختيار مستندين على ما لنا من رصيد تراثي أثبت نجاحه عمليًا في صموده أمام التاريخ.. نعم لكل هذا ونعم عندئذ لهذه الحداثة، وهذا معناه نعم للتراث.. لأن ذلك يتضمن فهمًا صحيحًا للتراث.

أما الحداثة التي يشوبها شائب من شعوبية واستعمار أو استلاب فكري.. فلا وألف لا.. ونحن لها واقفون متيقظون لحماية أنفسنا من نارها ومن آثار - إن شاء الله.

وكل من ظن أن الحداثة ضد التراث فهو آيل للفشل والإخفاق ولن يقوى قط على صنع شيء مهما توهم أو سولت له نفسه ذلك.

وكل من ظن أنه غني عن الموروث وأنه غير محتاج إليه وأنه كاف له ما يراه من شعر حديث.. فإن هذا واقع في وهم سيؤدي به إلى فشل محقق وهؤلاء هم الذين يعجزون عن النهوض بشروط الأدب الإبداعي.

كما أن كل ظان أن رصيده من العلم قد كمل بما لقيه من سالفيه فإنه واقع في دائرة مغلقة لن يرى فيها النور حتى وإن توهم ذلك.. وسيأتي شعره مسخًا للأولين لا روح فيه ولا طرافة.

إن المبدع الحق هو من نهل من جذوره حتى استوى عوده ثم فتح عقله لزمنه فأخذ منه وعايشه جسدًا وفكرًا.. إن ذلك هو الفاتح الذي عرف أرضه وراد أرض العالم من حوله.. والشعراء الذين فعلوا ذلك هم الذين جاءوا بتجارب على قدر من العطاء والإبداع وهؤلاء فقط هم الذين يحظون بتقديرنا وحبنا وتشجيعنا.. أما ما عداهم فإنه غثاء يزول أسرع من زوال الجريدة التي تحمل أسماءهم حيث تغرب مع غروب الشمس يومها ولا يبقى في ذاكرتنا منهم ولا حتى أثر للأسماء.

وأخيرا شكرًا لك - أبا فوزي - على حُبّك وعلى صدقك وعلى هذه الفرصة التي منحتها لي لأبين فيها موقفي من مسألة الحداثة.. وهو موقف - كما ترى - لا يختلف عن موقفك في حقيقته وإن تباينت سبله.

عكاظ ١٢/١١/١٤٠٥هـ

تعقيب
نعم للحداثة.. لا للحداثة!

عندما عاد الدكتور طه حسين من رحلته الدراسية الطويلة في فرنسا.. عاد ومعه شهادة الدكتوراه.. وثقافة فرنسية عالية.. وعندما بدأ كتاباته بروح أدبية جديدة، وبخاصة كتاباته تلك التي تعلقت بالشعر الجاهلي حيث أخضع الشعر الجاهلي بأجمعه لمذهب (ديكارت) في الشك، وضج الناس لذلك ضجة كبرى.. انتهى بعض صداها إلى (المحكمة)!!

عندما حدث كل ذلك.. كان الناس قد ظنوا أن طه حسين (تفرنس) والسلام، وأنه لا فائدة منه، ولا خير فيه ، وأن الخطر كل الخطر قد يأتي عن طريقه.. بل وصل الأمر إلى اتهامه في دينه إلخ. إلخ.

عندما كان كل ذلك موضع حديث الناس، طلع الأستاذ (المازني) على القراء بمقالة رائعة خلص فيها إلى القول بما معناه:

إن الناس يظنون أن (طه حسين) قد لبس ثوبًا غير ثوبه.. أو أنه قد (تفرنس) ولبس البذلة الغربية بدلاً من (جُبّة) الأزهر وعمامته.. ولكن الحقيقة أن (طه حسين) لم يتفرنس، ولم يخلع جُبة الأزهر.. وأن كل ما يبدو منه من (فرنسة) أو غير ذلك إنما هو (قشرة) رقيقة لو حككتها بظفرك لطلع لك (طه حسين) الأزهري المجبب المعمم!! كان ذلك هو معنى ما قاله المازني عن (طه حسين).. وقد أثبتت الأيام صحة ما ذهب إليه (المازني) عندما كتب (طه حسين) ـ بعد ذلك ـ عن سيرة رسول الله ﷺ ثم ما كتبه أيضًا من أدب إسلامي صرف.. ثم عودته عن رأيه في الشعر الجاهلي في كتابه (حديث الأربعاء).. ثم دفاعه المخلص المستميت عن

اللغة العربية إلى أن أصبح رئيسًا لمجمع اللغة!! والبقية معروفة!!

لقد تذكرت كل ذلك الآن، حين انتهت لِتَوّي من قراءة الرد الرائع، الصافي النبع الذي كتبه الصديق العزيز الدكتور (عبدالله الغذامي) ردًا على رسالتي المتواضعة الموجهة له حول موضوع «الحداثة»!!

إن الناس يظنون أن الدكتور (عبدالله الغذامي) بحماسته المفرطة للحداثة، قد أدار ظهره لكل ما هو قديم أو تراثي، وليس ذلك إلا لأنه قد رسخ في أذهان الناس أن «الحداثة» تعني التنكر للتراث.. بل لكل الماضي، وقد ساعد على ترسيخ هذه الفكرة بعض الناعقين بالحداثة من غير علم.. أو من غير رويّة.. ولكن الحقيقة أن الدكتور (الغذامي) أشد حرصًا على تراث أمّته ولغتها.. أشد من كثير من أولئك الذين يزعمون لأنفسهم حماية اللغة وتراث الأمّة.. وأن حماسته الشديدة للحداثة لم تنطلق من فراغ روحي أو ثقافي أو تراثي.. وإنما انطلقت من فهمٍ واعٍ للركود الذي رَانَ على أدبنا إلى الحد الذي أصبح معه في حاجة إلى دم جديد.. في حاجة إلى من يهزه ويَخُضُّه من غير رفق!!

وليست «الحداثة» غير محاولة لحقن أدبنا بدم جديد.. أو محاولة لهزّه وخضّه كي يفيق من غفوته.. بل من سُباته الذي دام وطال على أيدي أولئك المرتزقين به.. أولئك الذين يخشون الخطر من أي جديد قد يفسد عليهم مصالحهم، ويفضح جهلهم وانغلاقهم على أنفسهم وعلى مصادر ارتزاقهم، حيث جعلوا من الأدب، ومن الشعر بالذات هيكلاً مُحنَّطًا مُفَرَّغًا من أي محتوى غير محتويات الملق الذليل، والزيف الرخيص!!

بيد أنني ـ بعد كل هذه المقدمة الطويلة ـ أود أن أقف مع أخي الدكتور (الغذامي) بعض وقفات لا بد منها، ليس لأقنعه بشيء ما، يتعلق بالحداثة أو بالتراث.. إذ ليس عندي ما أقنعه به في هذا الصدد، ولكن عندي في رأيي وفي رأي الغذامي ـ أيضًا ـ ما ينبغي طرحه في موضوع «الحداثة» للمساءلة

والمناقشة.. فمن ذلك ونحوه (ينبثق النور) كما قيل.. وإلا فإن الدكتور الغذامي بوضوحه الرائع في رده الكريم لم يبق لي - في الحقيقة - ما أقوله لإقناعه به.. بل لم يكن عندي - أصلاً - ما أريد إقناعه به، وليست رسالتي التي وجهتها له غير تعبير عن مجرد مخاوف، أكّد هو - في ردّه - عدم وجود ما يبررها بالنسبة إليه!!

وبذلك انتهى النقاش فيما يتعلق بشخصي.. أو شخصه.. أو بوجهة نظري ووجهة نظره.. ولم يبق غير ما يجب طرحه كمسائل ثقافية عامة نفتح بها الباب على مصراعيه لكل من أراد مشاركتنا هذا النقاش في مدى الارتباط بين «الحداثة» و(التراث) وذلك بصرف النظر تمامًا عن قول القائلين بأن موضوع «الحداثة» قد حسم منذ نصف قرن.. وأننا نحن فقط الذين ما زلنا نلوكه، وهذا غير صحيح.. بل «الحداثة» ما تزال تجربة على الأقل بالنسبة هنا، وهي لذلك في حاجة إلى المزيد من البلورة، ولا يكون ذلك إلا بتبادل الآراء النزيهة حولها.. الآراء النزيهة الواعية، وليست الآراء الجاهزة المتعصبة.. أو تلك الجاهزة المترمة!!

ما هي مخاوفي .. ولماذا؟!!

لقد قلت - قبل قليل - إن رسالتي للدكتور الغذامي ليست غير تعبير عن مخاوفي.. أو كما قال عنها الدكتور الغذامي بالنص:

«لأن سائر الرسالة كان بمثابة التحفظ على شطط التفسير لمفهوم الانفتاح.. أو هو من باب التحذير من الوقوع في الخطأ».

أجل.. أجل.. إنني أقبل الانفتاح الثقافي.. بل أطالب به.. بل أراه ضرورة ملحة.. وقد قلت في رسالتي:

«نأخذ من الثقافة الغربية أو الشرقية، ما يتناسب مع شخصيتنا، وما نستطيع هضمه بلغتنا، وما نجعله يضيف جديدًا إلى قديمنا» انتهى.

ولكن كيف؟.. ذلك هو السؤال!!!

إن «الحداثة» في الشعر، مغايرة تمامًا لكل موروثنا الضخم في الشكل والمضمون، ومعنى هذا أننا إذا أردناها حركة شعرية مستقلة غير ذات صلة بتراثنا فإننا سنكون بذلك كالمُنْبَتّ لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى!! أو كالغراب الذي حاول تقليد الحمامة في مشيتها فلم يستطع.. وعندما أراد العودة إلى طريقته الأصلية في المشي.. كان قد نسيها!!

ولو حدث ذلك.. فهي الكارثة حتمًا، ونكون قد حققنا بأنفسنا ما لم يستطع العدو تحقيقه بكل الوسائل التي بذلها: الجهد، والمال، والكيد، والدس .. إلخ .. إلخ.

ولا ينكر غير مكابر أننا الآن ـ أكثر من أي وقت مضى ـ عرضة لغزو فكري منظم، تساعده الظروف المحيطة بنا من كل ناحية!!

وكل مخاوفي تأتي من كون «الحداثة» قد انطلقت من دعاة ليسوا فوق مستوى الشبهات من ناحية عروبتهم.. أو دينهم.. وليس بعيدا أن يكون وراء هؤلاء غير قليل من كيد العدو لديننا ولغتنا وتراثنا!! بهدف طمس كل موروثنا وعزلنا عنه!!

ولست أعاني وحدي من هذه المخاوف وأمثالها.. بل يشترك معي غير قليل من الغيورين.. وفي مقدمتهم المثقف الواعي الدكتور (عبدالله الغذامي) حيث يقول: (وأنا معك ـ والله ـ أيها العزيز في كل مخاوفك.. وهي جميعها مخاوف صحيحة وخطيرة).

ولكن يرى (الغذامي) ـ بعد ذلك ـ أنه لا ينبغي لنا أن نسمح للمخاوف أن تعوقنا عن العمل.. إلخ.

وأنا هنا لا يسعني غير موافقة الصديق العزيز على أنه لا ينبغي لنا أن نجعل من مخاوفنا عقبة في طريق تقدمنا في أي مجال كان.. سواء (الشعر) أو غيره!!

ولكن ألا يرى معي الصديق الدكتور أنه يجب علينا أن نحاذر تمامًا من المجهول أو المعلوم الذي يتربص بنا في طريق مسيرتنا؟

إن الشجاعة لا تكون في الاندفاع وحده.. بل في المحاذرة أيضًا.. وأذكر هنا ما يروى عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ من أنه كان يلبس درعًا لا ظهر له.. فقيل له:

أفلا تخشى أن يأتيك العدو من خلفك؟

قال: لا أمكنني الله.. إن مكّنته من ظهري

ومعنى ذلك أن المحاذرة مما يأتي من خلف أو يجبه من أمام هي الشجاعة!!

فما هو مدى محاذرتنا ونحن نندفع مع «الحداثة» القادمة من الخارج؟!

إنني لا أشك.. بل أنا على يقين بأن أصحاب «الحداثة» عندنا، قد انطلقوا من نية صادقة مخلصة غيورة فهي ـ من هنا ـ لا تحمل خطورة (العمالة) مثلاً.. ولكنها ـ مع كل أسف ـ حملت ما هو ألعن من (العمالة) وذلك حين ظن بعض الجهلة أن «الحداثة» حركة مستقلة بذاتها لا شأن لها بالعقيدة ولا بالتراث ولا بأي شيء آخر!! بل هي ضد الموروث الشعري!!

وقد قلت هذا في رسالتي للدكتور (الغذامي) فرد عليَّ بقوله:

(كل من ظن الحداثة ضد التراث فهو آيل للفشل والإخفاق، ولن يقوى على صنع شيء. مهما توهم.. أو سولت له نفسه).

وقال أيضًا:

(وكل من ظن أنه غني عن الموروث، وأنه غير محتاج إليه، وأنه كافٍ له ما يراه من شعر حديث.. فإن هذا واقع في وهم سيؤدي به إلى فشل محقَّق، وهؤلاء هم الذين يعجزون عن النهوض بشروط الأدب الإبداعي).

ولو استطعت أن أطمئن إلى أننا نؤتى من هذا الجانب، جانب الانفصام عن

موروثنا.. لما كان لمخاوفي أي معنى قط!!

ولكن الحقيقة التي لا شك فيها أن مخاوفي صحيحة تمامًا بشقيها: الشق الأول، وهو القادم من الخارج، يحمل رائحة كريهة تزكم الأنوف!!

أما الشق الثاني، وهو متعلق برؤية البعض عندنا للحداثة على أنها الكل في الكل فهو أيضًا صحيح مع كل أسف!!

وها هنا تأتي مسؤولية النقد.. ها هنا تأتي مسؤولية الدكتور (الغذامي) وأمثاله من النقاد المخلصين!!

الوجه الآخر لمشاكلنا الثقافية؟!

تلك هي مخاوفي أو محاذيري فيما يتعلق بالحداثة.. بيد أنني ـ في الوقت نفسه ـ أعاني وغيري من مخاوف ومحاذير أخرى.. سبق أن أشرت إليها في مطلع هذا المقال إشارة عابرة.. كما أشار إليها (الغذامي) في ردّه حيث يقول:

(كما أن كل ظان أن رصيده من العلم قد كمل بما لقيه من سالفيه فإنه واقع في دائرة مغلقة لن يرى فيها النور حتى وإن توهم ذلك.. وسيأتي شعره مسخًا للأولين لا روح فيه ولا طرافة)!!

وذلك هو الوجه الآخر لمشاكلنا الثقافية حيث بيننا أيضًا بقية من الناس، تحسب أن كل من قال كلامًا موزونًا مقفى.. قد قال الشعر الذي يزري بامرئ القيس أو النابغة!!

هذه الفئة، تَنْظِمُ الكلام الفارغ، وتحسب ذلك شعرًا وذلك لمجرد موافقة النظم لبحور الخليل.. أما المحتوى فلا بأس أن يكون لأغراض نفعية حقيرة تافهة!!

إن الخليل بن أحمد ـ من حيث لم يقصد ـ قد أوجد طبقة من النظّامين لم تكن موجودة من قبله، ولو عرف أن ذلك سيكون لأفاق من غشيته وضرب العمود برأسه مرة أخرى ندمًا على أنه قد أسهم ـ من حيث لم يقصد ـ في إفساد الشعر

العربي بفتحه الباب لطبقة النظّامين منذ عصره وإلى الآن!!

إن الخطر من طبقة النظّامين على الشعر العربي الصحيح لهو أكثر بما لا يقاس من أي خطر قد يكون في «الحداثة».. ذلك لأنهم يعطون صورة سيئة رديئة عن حقيقة الشعر الشعبي.. وخطر هؤلاء يكمن في أنه لا يوجد من يحاذر منهم، وقد قيل في الأمثال:

(من مَأْمَنِه يُؤتى الحَذِرُ)!!

إن طبقة النظّامين هي التي نفرت شبابنا من الشعر، وجعلتهم يترامون على أية شبكة تلقى إليهم.. ولذلك علقوا بشباك «الحداثة» دون محاذرة لأن الذين يفرون منه من الشعر المنظوم أشد أذى لأذواقهم من كل ما عساه يأتي من الخارج!!!

التجديد حتمية مطلوبة!

وإذا تخلّصنا من مخاوفنا نحو ما قد تجلبه «الحداثة».. ثم تخلّصنا من متاعبنا مع جوقة النظّامين.. فإننا سنجد أنفسنا ـ حتمًا ـ بحاجة مُلحّة إلى شكل من أشكال التجديد، ليس هو بالضرورة ما يسمى بـ «الحداثة» وإنما هو أي شكل ينقذنا مما نحن فيه من ضيق ومخاوف.. الضيق بالنظّامين، والخوف من الحداثيين!!

ولو أننا قد، أمعنّا النظر في مسيرة الشعر العربي منذ امرئ القيس إلى أحدث حداثي.. لوجدنا أن الحاجة إلى التجديد قد قامت في عصور مختلفة متعددة؛ فَشِعْرُ صدر الإسلام ليس هو الشعر الجاهلي، والشعر العباسي ليس هو الشعر الأموي، والشعر في الأندلس ليس هو الشعر المشرقي.. والشعر في المهجر غيره في الوطن، وشعر شعراء الديوان ليس هو شعر شوقي وهكذا إلى ما لا نهاية.

ومعنى ذلك أن الإنسان العربي الشاعر لم يتوقف يومًا عن الطموح إلى ما هو أفضل.

ولكن حركات التجديد في كل مسيرة الشعر العربي لم تكن قط بالحدة التي هي عليها الآن.. ذلك لأن الخيار المطروح للتجديد وهو ما يسمى بـ «الحداثة» ينعطف انعطافًا حادًا عن المسيرة الشعرية، سواء من حيث الشكل أو المضمون.. ومن هنا يظن بعض الجهلة أن ذلك لن يتم إلا بانفصام الحركة التجديدية عن المسيرة السابقة، وفي رأيي أن حدة المنعطف التجديدي الحالي، هي التي أوجدت بيننا كل هذه المخاوف وبخاصة كون الظروف المحيطة بنا من شأنها تغذية مثل هذه المخاوف.. وإلا فإن محاولات التجديد في ذاتها ليس منها أي خطر!!

وهذا الشعور بحدة المنعطف الشعري ليس عندي وحدي.. بل عند عدد من المتابعين للحركة الحداثية.. وقد كنت قبل ساعات من كتابة هذا المقال أقرأ في مجلة (الدوحة) القطرية (عدد يوليو ١٩٨٥م) وإذا بي تجاه مقال الدكتور (كمال نشأت) تحت عنوان (مدرسة شعرية ولكن) جاء فيه ما نصه:

(إن هذه النقلة الشعرية في مسيرتنا الإبداعية كانت مفاجأة باترة حادة، ولم يكن لها تمهيد على الإطلاق، ولأنها قادمة من بيئة ذات تطور حضاري معين، كانت الهوة عميقة بين الجمهور المتذوق للشعر، وهذا التيار الجديد، وقد ساعد على انصراف الناس عنه النماذج الغربية الشاذة التي اطلّعوا عليها.. ومن هنا كان عدم التعاطف معه على المستوى العام)!!

وقرأت أيضًا في مجلة (العربي) الكويتية (عدد يوليو ١٩٨٥م) مقالاً للأستاذ (شوقي بغدادي) جاء فيه ما نصه:

(وفي الإيقاع اندفع كثيرون أيضًا متأثرين بالترجمات النثرية عن الشعر الغربي، ومتطلبات التعبير المعاصرة المتطرفة، أو بالهبوط المستمر للمناهج التربوية في تدريس اللغة العربية، وعدم العناية بتعليم العَرُوض العربي المدهش بغناه الإيقاعي، والمتميز تميزًا كبيرًا بأصالته وألوانه المتنوعة،

إضافة إلى دوافع أخرى مشبوهة متأثرة ـ بشكل أو بآخر ـ بالمشروع العالمي التدميري لأصالة الشعوب).

وهناك الكثير جدًّا من أمثال هذه النصوص المبثوثة في كتابات المثقفين والنقاد المخلصين.. فنحن هنا أحرى بالقلق من هذه الناحية.. وأجدر بالتمهل تجاه أي اندفاع!!

التجديد الذي نريده

يقول الدكتور (الغذامي) في رده على رسالتي ما نصه:

(وإني لأقرر ـ مجددًا ـ أنني مع الإبداع أنَّى كان، وحيث ظهر.. والإبداع ليس حكرًا على (الشعر الحديث) وإنما مهارة فنية قابلة للتجلي في أي عمل أدبي أو فني سواء في ذلك العمودي أو الحديث).

ويقول أيضًا في نص آخر أنقله ـ رغم طوله بعض الشيء.. يقول: «فالحداثة نقبلها ما دامت عربية الهوى مخلصة النية من الموروث ومن حضارة الأمّة.. نقبلها ما دامت لبناء مستقبلنا على جذور ماضينا ليكون هرمنا طبيعيًّا إسلاميًّا صافيًا، وليس فيه إلا العنصر الصالح الذي يفيد في بناء الهرم، وفي سموه.. ونأخذ من العصر كل ما هو إنساني وحضاري وبنّاء ومفيد.. ونمارس بذلك وظيفة حضارية تقوم على (الانتقاء) والاختيار مستندين على مالنا من رصيد تراثي أثبت نجاحه عمليًّا في صموده أمام التاريخ» انتهى.

هذا ما يقوله الدكتور الغذامي عن التجديد الذي نريده، وهو بكل ما قاله لم يخرج عن قولي في رسالتي الموجهة إليه حيث قلت بالنص:

(نأخذ من الثقافة الغربية أو الشرقية ما يتناسب مع شخصيتنا، وما نستطيع أن نهضمه بلغتنا، وما نجعله يضيف جديدًا إلى قديمنا)

وإذن فالدكتور (الغذامي) وأنا على اتفاق تام من حيث وجهة النظر نحو

التجديد المطلوب ولكن اتفاقنا هذا شيء، والذي يحدث باسم التجديد في بلادنا شيء آخر.

* هناك من لا يرى الإبداع إلا في «الحداثة».
* هناك من لا يرى خيرًا في موروثنا.
* هناك من (الحداثيين) من لا يملك أية خلفية تراثية.
* هناك من لا يعترف بالتراث كقاعدة انطلاق.
* هناك من يرى أن كل من يقول شعرًا عموديًّا مهما كان فيه من إبداع فهو ليس بشيء!!
* هناك من يرى أن الذي يستشهد - مجرد استشهاد - ببيت من الشعر القديم فهو من قائمة الرجعيين!!
* هناك من يرى أن الشعر الحديث لا يحتاج إلى أية ثقافة تراثية.. بل العكس!!

هناك وهناك أشياء كثيرة من هذا القبيل لا تخفى على القراء الكرام.. فأنا أريد من الدكتور (الغذامي) أن يكون عند موقفه المعلن في النصوص السابقة.. فلا يهادن أي مفهوم خاطئ للحداثة.

أما من جهتي فإن عدم مهادنتي لتلك المفاهيم (الحداثية) الخاطئة قد جعلني - بأسف أو بدون أسف - في قائمة الرجعيين المحاربين للتجديد، ولست كذلك - علم الله - بل أنا عند رأيي المعلن هنا أو غير هنا وإن رغمت الأنوف.. ثم الأنوف.. فلترغم.. ثم ترغم.. أو لليدين وللفم.. كما قال الشاعر القديم!!!

في الأدب العربي متسع للجميع ولن يصح في النهاية إلا الصحيح

لقد أشرت في أعطاف مقالي هذا إلى الأدب العربي.. أن الأدب العربي، أو الشعر العربي - على وجه التحديد - قد شهد الكثير جدًّا من محاولات التجديد على طول مسيرته فلم يضق هو، ولا ضاقت لغته العربية الشاعرة بأية محاولة

تجديدية.. بل كان هناك الاستيعاب الدائم لأي جديد، ولكن كان الحكم في النهاية للجمهور المتلقي، يقبل هذا فيكتب له الخلود، ويرفض ذاك فيذهب إلى مزبلة التاريخ.. ولن تكون أية محاولة جديدة للتجديد بأفضل من سوابقها من حيث البقاء.. أو عدمه.. فأما الزبد فيذهب جفاء.. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض!!

وهكذا فإن صدر الشعر العربي سيتسع لطبقات النظّامين كما سيتسع لطبقات المتحررين.. ولكنه سيلفظ - في النهاية - كل غثاء.. ولن يخلد غير الإبداع الشعري الذي يهز الوجدان، ويحرك المشاعر!! وتحية - في الختام - صادقة مخلصة لأخي العزيز (الغذامي)

عكاظ ١٩/١١/١٤٠٥هـ

الأدب العربي الممسوخ؟!

يشهد الله أننا نعرف أنه لا بد من التأثر والتأثير بين آداب الأمم بعضها البعض منذ الأزل إلى الآن. وإلى ما شاء الله.. فذلك من الأمور الطَّبَيْعِية أو الطبعية، وهو ما يسمونه الآن - في مجال الدراسات الأدبية - (الأدب المقارن) أي مقارنة أدب أية أمّة - عند دراسته - بمدى تأثره بآداب أمّة أو أمم أخرى أو بمدى تأثيره فيها!!

ونعرف أيضًا - يشهد الله!! - أن التأثر أو التأثير في أدب أية أمّة لا تقتصر أسبابه على مجرد الذوق أو حب العلم أو الرغبة في الاستطلاع والاستفادة من الآخرين أو نحو ذلك من الأسباب الخالصة من الشوائب غير الأدبية وغير العلمية!!

بل هنالك ما هو أهم وأخطر من كل ذلك، نقصد تأثير الاحتلال أو الاستعمار أو الغزو الفكري المنظم.. أو أية تسمية أخرى مستمدة من سلطان القوة أو قوة السلطان!!

وأدبنا العربي - مثله مثل غيره من آداب الأمم - تعرض على طول مسيرته منذ الجاهلية إلى هذا النوع من التأثر والتأثير.. ولكنه لم يتعرض إلى التأثير فيه بقوة السلطان كما تعرض منذ بدء الحروب الصليبية التي ما تزال قائمة إلى الآن بصورة أو بأخرى، وهذا ما سنعرض له فيما بعد.

أما الآن فلنستعرض - بصورة سريعة - مدى تأثير الأدب العربي بآداب الأمم الأخرى.

في الجاهلية - مثلاً - كان التأثر الأدبي عبارة عن سماع شاعر لكلمة فارسية، وكان العرب على صلة بالفرس معروفة.. فكان الشاعر يستظرف الكلمة فيتظرف - مجرد تظرف - بإدخالها في شعره بعد أن يجردها من التواء نطقها

ويجعلها صالحة لاستقامة النطق العربي، فتسير هذه الكلمة على ألسُنّة القوم بمدلولها الذي فهموه من السياق إلى الحد الذي أصبحت معه تلك الكلمات عربية النجار، رغم أصلها غير العربي.. حتى لقد نزل القرآن الكريم ببعض هذه الكلمات كما هي، مع ما هو معروف من أن القرآن نزل بلسان عربي مبين.

أما في عصر الإسلام، وبعد أن ساد الفتح الإسلامي شتى أنحاء المعمورة، بلغ النفوذ الإسلامي إلى الحد الذي قال معه أحد الخلفاء عندما رأى سحابة عابرة: «أمطري حيث شئت فخراجك سيأتيني»!!

عندما وصل النفوذ الإسلامي إلى هذه الذروة، وكان قد ازدهر عصر تدوين العلوم الإسلامية والآداب العربية.. تطلع القوم إلى علوم وآداب الأمم الأخرى فنقلوا ـ عن طريق الترجمة ـ الشيء الكثير من العلوم والآداب، ولكنهم عند الاستفادة منها لم يتركوها كما هي، بل صهروها في قوالب ومفاهيم عربية إسلامية خالصة، وأضافوا إليها ـ بعد ذلك ـ غير قليل من الفكر الإسلامي المحض إلى الحد الذي أصبحت معه هذه العلوم والآداب، وكأنها غير أصلها... بل أصبحت عربية إسلامية، وما زالت معروفة كذلك إلى الآن باعتراف كل الهيئات العلمية والجامعات الغربية، ورجال الاستشراق!!

ثم بعد ذلك بقرون، دالت دولة الإسلام شيئًا فشيئًا حتى انتهت إلى الانحطاط الكامل، وأصبحت الرقعة الإسلامية الواسعة نهبًا لأطماع الطامعين واحتلال المستعمرين الذين جلبوا معهم لغاتهم وعاداتهم وعلومهم وآدابهم حيث وجدت مرتعًا خصبًا في النفوس الضعيفة، والعزائم الخائرة!!!

وكل ذلك وما يتبعه من الأشياء غير المعروفة لدى القارئ العادي فلا نحتاج إلى إيضاحها!!

ولكننا نريد ـ في هذه العجالة ـ أن نشير مجرد إشارة إلى أنه حتى بعد

انحسار الاحتلال، وزوال معظم الاستعمار المباشر، ظل عندنا الاحتلال الفكري، والاستعمار الأدبي المتعدد الروافد:

الدراسة في الغرب، والانبهار بالحضارة الغربية، والشعور بالتخلف إلى غير ذلك من الأسباب التي جعلت بعض المثقفين من بني العروبة والإسلام، يذوبون ذوبانًا كاملاً في الفكر الغربي والآداب الغربية.. حيث راحوا يحاكونها ويقلدونها بصورة ببغائية مؤسفة.

والأكثر أسفًا على كل ذلك أو من كل ذلك أنهم يريدون إقناع البقية الباقية من المتمسكين بالأصالة الفكرية، والاستقلالية الأدبية.. يريدون إقناعهم بأن ما يفعلونه باسم الأدب والفكر إنما هو من قبيل التأثر الأدبي والفكري الذي يحصل بين سائر الآداب!!

وقصارى غايتنا في هذه الزاوية أن نقول لهؤلاء المتفرنجين أو المتأمركين أو المتفرنسين أو المتمركسين أن التأثر أو التأثير بين آداب الأمم شيء، وما تفعلونه من نقل كامل واندماج كلي شيء آخر يختلف تمامًا، ولا يسمونه تأثرًا وتأثيرًا.. وإنما يسمونه مسخًا وتشويهًا وانسلاخًا، ثم خذلانًا فاضحًا!!!

ونقول لهؤلاء أيضًا وأيضًا، إن التأثر أو التأثير يستوجب وجود تربة وطنية خصبة يضاف إليها أو يؤخذ منها. أما ما أنتم فيه.. فهو التنكر لتربتكم وجذوركم من أساسها.. بل نراكم لا تكتفون بالتنكر لجذوركم حتى ذهبتم إلى السخرية أصلاً من هذه الجذور وأنها ـ عندكم وعند أسيادكم طبعًا ـ سبب كل بلاء وتخلف.. إلخ.. إلخ.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!!

الشرق الأوسط ١٦٧٩ ـ ١٩/٩/١٤٩٣هـ

السمات الأدبية.. تشوبها الشوائب

ضمّني المجلس مع صديق أديب، فكان من الطبيعي أن يكون حديثه عن الأدب والثقافة، وكان من الطبيعي أيضًا أن أجاذبه أطراف الحديث.. وبينما نحن في رفع وخفض.. فاجأني الصديق الأديب بسؤال صاعق:

ألا ترى معي أن أدبنا العربي قد أوشك على أن يفقد أهم سماته التي تميز أصالته من غيره من الآداب الأخرى؟!

أطرقت هنيهة.. ثم أجبته:

لست أشك أن معك الحق كل الحق، وبصفة خاصة إذا كنت تقصد هذا الأدب السريع الشبه إعلامي.. أعني الأدب الذي ينشر في الصحف والمجلات.

أما إذا كنت تقصد التعميم فلا يسعني غير أن أقول لك: مهلاً. هناك مجلات أدبية متخصصة وهي ـ في الواقع ـ على جانب كبير من الحفاظ على الأصالة، وعلى السمات الأدبية العربية الخالصة من غير جمود ولا تزمُّت.. بل مع انفتاح معقول على آداب الأمم الأخرى، وبخاصة الآداب الغربية.

وفي أمثال هذه المجلات (لا ضرورة لذكر الأسماء) تجد التوازن المعقول بين معنى المحافظة على الأصالة، وبين معنى الانفتاح دون أي تفريط.

وفي أمثال هذه المجلات، ما زلنا نجد النَّفَسَ العربي الأصيل كأزكى ما يكون.

وهناك أيضًا الكثير من الكتب التي تردنا من شتى أنحاء العالم العربي، ومنها كتب الدراسات الأدبية والتاريخية، وبعضها عبارة عن دراسات أكاديمية.

هذه الكتب ـ في معظمها ـ تمثل سُنّة التطور وتحافظ على منبت الأصالة، وما

زالت المطابع العربية تدفع إلينا كل يوم المزيد من هذه الدراسات الأدبية والتاريخية ذات المنهج القويم المستقيم، وذات الخصوصية العربية الخالصة.

قال صديقي:

ولكنني لا أعني ذلك.. بل أعني فعلاً ما ينشر في الصحف والمجلات.

قلت له:

أما وأنت تقصد ذلك.. فإنه لا يخفاك - يا عزيزي - أن الصحف والمجلات العربية، كانت - إلى عهد قريب - هي أهم وسيلة لنشر الثقافة والأدب.

كان رؤساء التحرير أنفسهم من كبار الأدباء فهم يملكون التمييز بين الغث والسمين.. فلا يستطيع أي واغل على الأدب.. أو أي مفلس من الثقافة أن يقترب منهم.

ولعلك لم تنس أن جيل طه حسين، والعقاد، والرافعي، والمازني إلى غير ذلك من الأسماء اللامعة في أدبنا العربي.. إنما عرفناهم عن طريق الصحف والمجلات أكثر مما عرفناهم عن طريق كتبهم التي قرأناها فيما بعد.

أما بعد ذلك فقد طرأ على الصحف والمجلات ما أسموه بـ(التطور الصحفي).. ولم يكن هذا التطور غير مزيد من العناية بالخبر والصورة و(الريبورتاج) الصحفي

ولا غبار على ذلك فهو سُنّة التطور، ولكن سُنّة التطور في الصحافة قضت على العناية بالجانب الأدبي والثقافي.. ذلك أن سُنّة التطور الصحفي قد اقضت وجود نوع من التملق لأكبر قاعدة من القراء.

انظر إلى العناية الضخمة بالرياضة تجد أنها مجرد تملق لقاعدة عريضة من الجماهير كمحاولة لرفع نسبة التوزيع، ويسرى ذلك على الأخبار الفنية وما إليها.. فضلاً عن الأخبار السياسية أو الاجتماعية أو نحو ذلك.

أما الجانب الأدبي أو الثقافي فجمهوره، غالبًا ليس بالكثرة التي يُؤْبَهُ لها.. ولذلك لم تبق العناية القليلة من جانب الصحف والمجلات بالأدب والثقافة

غير نوع من الحفاظ على المظهر.. أو هو الحفاظ على بعض التوازن.

ولذلك تجد الجانب الأدبي أو الثقافي.. هو أقل الجوانب شأنًا في أية صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية.

ولذلك دَخَلَ هذا المجالَ من ليس من أهله.. ولذلك تغلغلت دعوات أدبية وثقافية مريبة.. بل صارخة الريبة!!

وتبعًا لذلك.. لم يعد مطلوبًا من رئيس تحرير جريدة يومية.. أو مجلة أسبوعية أن يكون أديبًا مثقفًا.. بل يكفي أن يكون على بعض العلم بألاعيب السياسة.. ثم بعض العلم لاهتمامات الجماهير.. أما الأدب والثقافة فهي آخر ما يشترط في رؤساء تحرير هذه الأيام. وإذن فاقد الشيء لا يعطيه..

أو كما قال الشاعر:

ومكلف الأشياء ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

قال صديقي:

الآن بدأت أفهمك.. وإنه ليخطر على بالي الآن قول الشاعر أيضًا:

إذا كان رب البيت للدف ضاربًا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

أجل..أجل.. ما دام معظم رؤساء التحرير أنفسهم يعتبرون الأدب أو الثقافة مجرد تكميل مظهر.. فمن الطبيعي جدًّا أن يستغل ناحية الثقافة بعض العملاء الثقافيين لينشروا أو ينفثوا سمومهم، وليجمعوا من حولهم بعض الأغرار، ويجندوهم ـ بعلمهم أو بغير علمهم ـ لتشويه الأدب العربي، وتعكير صورته النقية، وطمس أصالته العريقة.

وإنهم ليفعلون كل ذلك وغيره لأنهم لا يجدون رقابة واعية عليهم من قبل معظم رؤساء التحرير.. أو من قبل مسؤول آخر!! ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

الشرق الأوسط ـ العدد (١٩٠٥) ـ ١٤٠٤/٥/١٤هـ

الشعر بين الغموض والوضوح؟!

(الشعر نقيض الوضوح الذي يجعل من القصيدة سطحًا بلا عمق.. الشعر كذلك نقيض الإبهام الذي يجعل من القصيدة كهفًا مغلقا)!!

أدونيس

* * *

(... أما شعراء السفوح فقد انفرطت من أيديهم الفنية شروط توظيف الأسطورة فزادوا الغموض غموضًا، وأصبحت القصيدة ظلمات بعضها فوق بعض)!!

محمد العلي

* * *

قرأت محاضرة الأخ الأستاذ محمد العلي ذات العنوان: (الشعر هو الغموض) المنشورة بنصها في هذه الجريدة[1] بعددها الصادر بتاريخ ٤/١٢/١٤٠٥هـ كما قرأت في نفس العدد المذكور ما دار من حوار أو تعقيبات.

وبادئ ذي بدء.. أؤكد هنا أنني لا أريد أن أكذب فأقول - مثلاً - إنني سعدت بالمحاضرة.. أو استفدت منها.. فالواقع أنني لم أسعد بها رغم تشوقي لقراءتها إثر الإعلان عنها، ولم أستفد منها لا لسعة

علمي.. بل لضيق النطاق الذي حصر المحاضر نفسه فيه فجعله - كنتيجة حتمية - يسبح في شبر من الماء!!

أما (شبر الماء) فهو ذلك العنوان العجيب الغريب: (الشعر هو الغموض) فإذا كان الشعر هو الغموض فماذا عسانا نصنع بكل ذلك الركام الهائل من الشعر

---

(١) عكاظ.

القديم أو الحديث الذي لا غموض فيه.. أو فيه القليل - فحسب - من الغموض؟!

لقد أراد العلي أن يشرح لنا أنه لا ضير من الغموض في الشعر، وأن كل ما يقوله النقاد من الغموض في القصيدة الحديثة إنما هو مسألة طبيعية تمامًا في الشعر قديمه وحديثه!!

أراد أن يقول لنا ذلك فأمعن في الغلو حتى سقط في بؤرة الغموض سقوطًا مريعًا.. تأذى منه هو نفسه حين قال في نهاية محاضرته:

«أخيرا أعتقد أنني زدت الغموض غموضا»

أجل - والله - يا أخي.. لقد زدته كثيرًا.. فانتهيت إلى (تفسير الماء - بعد الجهد - بالماء)!!

ولكن دعونا لا نتعجل الحكم أو إبداء الرأي.. ومن ثم لا نلقي الكلام على عواهنه حين نتناول ما ورد في المحاضرة من نصوص وآراء.. بل حين نتناول بيت القصيد من المحاضرة، بعد أن نتجاوز العنوان ونرفضه أصلاً وفصلاً، فنقول، وعلى الله الاتكال:

أمامنا في موضوع المحاضرة ثلاث كلمات بالذات هي: (غموض، إبهام، تعمية) وهي كلمات يفضي بعضها إلى بعض، ورغم اختلاف دلالتها، فلا يفصل بين الكلمة والأخرى غير شعرة دقيقة رقيقة.

ومن المؤسف أن الأخ العلي تجاهل هذه الفواصل الدقيقة الرقيقة..

ثم قام بعجن الكلمات مع بعضها. دون أن يستل الشعر من العجين.. فكان ذلك الارتباك الواضح في فهمه للنصوص التي استشهد بها.. وبخاصة النصوص القديمة التي اعتسفها عسفًا شديدًا ليلبسها الثوب بالمقاس الذي يريده، وليس بقياسها كما هو!! ومن ذلك - على سبيل المثال وليس الحصر - إيراده لقصة الزبرقان بن بدر حين جاء يشكو الحطيئة عند عمر - رضي الله عنه - وأنشده قوله فيه:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فقال له عمر: ما أرى بذلك بأسًا!!

قال الزبرقان: والله ما هُجيتُ ببيت قط أشد عَلَيّ منه فبعث عمر إلى حسان بن ثابت وقال له:

انظر إن كان هجاء.

قال حسان: ما هجاه فحسب، ولكن سلح عليه!!

❊ ❊ ❊

أورد الأخ العلي هذه القصة.. ثم علق عليها بقوله:

«أريد أن أقف على «دلالة الغياب» لهذا الموقف: عمر على فهمه للشعر، وروايته له لم يعط رأيه في مضمون هذا البيت.. لقد أرسل في طلب حسان ليسأله عن معناه، وحين أكده حسان شرع في معاقبة الحطيئة».

أدهشني كثيرًا هذا التعليق من الأخ المحاضر، وذلك في حين يطالبنا ببذل الجهد من أجل فهم الشاعر.. ولا يلزم نفسه بفهم موقف عمر في هذه القضية.

وحقيقة الموقف هو أن الخليفة كان في مكانة القاضي، والقاضي لا يحكم بعلمه فحسب، ولذلك قال ـ رضي الله عنه: (ما أرى بذلك بأسًا) إذ إن قوله هذا هو ما يقول كل قاض عند محاولته دفع الشبهة أو التهمة، فكان لا بد لعمر أن يقول: (ما أرى بذلك بأسًا) على أساس ظاهر القول بلفظه المجرد عن الدلالة الشعرية لأنه ـ رضي الله عنه ـ لم يجز لنفسه، وهو في موقف القاضي، أن يأخذ بعلمه للمعنى المبطن فأرسل إلى حسان، وهو على يقين بأنه سيشهد بما يعلمه عمر نفسه إذ المعنى في البيت أقل غموضًا من أن يخفى على مثل عمر.. وكل ما هنالك أن عمر كقاض لم يشأ أن يحكم بعلمه ويتعدى ظاهر الكلام فاستدعى غيره ليشهد بين يديه بما يعلمه هو يقينًا!! وما كان يمكنه أن يعاقب الحطيئة بغير شهادة عليه، وليس للقاضي أن يشهد!!

وهكذا ليست هناك «دلالة غياب» ولا يحزنون.. بل هناك «دلالة غياب» عند

الأخ العلي نفسه عن حقيقة موقف عمر من الوجهة الشرعية!! وليس من وجهة فهم الشعر!!

وهناك عجيبة ثانية في «دلالة الغياب» عند الأخ العلي عن فهم النصوص القديمة التي أوردها ـ على قلّتها ـ في محاضرته.. وذلك حيث استشهد بفقرة من أقوال الجرجاني، هذا نصها:

«هذا والمعقد من الشعر والكلام لم يلزم لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة.. بل لأن صاحبه يعثر فكرك، ويشيك طريقك إلى المعنى، ويوعر مذهبك نحوه.. بل ربما قسم فكرك، وشعّب ظنك حتى لا تدري من أين تتوصل، وكيف تطلب»!!

هذه الفقرة من كلام الجرجاني.. لو تأملها الأخ لعلي قليلاً.. لوجد أنها تنسف محاضرته من أساسها، وذلك من حيث أراد الاستعانة بها.

فالجرجاني في هذه الفقرة بالذات يعيب على بعض الشعراء إمعانهم في التعقيد ـ أي في الغموض ـ وهو يعيب عليهم ذلك ليس لأنهم جاءوا بشعر يحتاج فهمه إلى أعمال الفكر.. بل لأنهم وضعوا بشدة غموضهم أسباب العثرات في طريق الفكر، ووضعوا فيه الأشواك فجعلوه وعر المذاهب.. بل جعلوا من شدة غموضهم ما يبلبل الفكر ويشتته، ويشعب الظن.. إلخ.

ذلك هو بالضبط ما أراده الجرجاني.. فأين ذلك مما يريده صاحبنا العلي من غموض مطلق في الشعر.. بل ما يريده من جعل (الشعر هو الغموض)؟!!

***

والعجيب أن هذه الفقرة التي أخذها العلي من كتاب (أسرار البلاغة) للجرجاني، موجودة بعد فقرة أخرى من الكتاب نفسه، وفي الصفحة المقابلة بالذات هذا نصها:

«وإنك لا تكاد تجد شاعرًا يعطيك في المعاني الدقيقة من التسهيل والتقريب،

ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب. ما يعطي البحتري، ويبلغ في هذا مبلغه.. فإنه ليروض لك المُهر الأرعن رياضة الماهر حتى يعنق من تحتك إعناق القارح المذلل، وينزع من شماس الصعب الجامح، حتى يلين لك لين المنقاد المطيع.. ثم لا يمكن ادعاء أن جميع شعره في قلة الحاجة إلى الفكر، والغنى عن فضل النظر»[1].

هذا النص تجاوزه العلي رغم قربه الشديد من النص السابق لأنه أكثر وضوحًا في رفض الشعر المعقد المبهم المعمى.. وإن كان الجرجاني - في الوقت نفسه - يرى أنه لا بد للشعر من بعض الغموض الذي يوجب إعمال الفكر واستنباط المعنى!!

ولكن ذلك شيء، والإبهام أو التعمية أو التوعير.. شيء آخر بالمرة!!

وما دمنا في سيرة الجرجاني فلا بأس من إيراد نص ثالث كان يجدر بالأخ العلي أن يستشهد به دون غيره لأنه أقرب ما يكون في المساعدة على قبول بعض الغموض، ولكن هذا النص الذي سنورده تَوًّا لم يكن في الكتاب الذي رجع إليه العلي.. بل هو في كتاب آخر للجرجاني عنوانه (دلائل الإعجاز) ولو قد عثر الأخ العلي على هذا النص لطار به فرحًا ولأورده دون سواه.. وهذا هو:

(واعلم أنك لا ترى في الدنيا علمًا قد جرى الأمر فيه بديئًا وأخيرًا على ما جرى عليه في علم الفصاحة والبيان.. أما البديء فهو أنك لا ترى نوعا من أنواع العلوم إلا وإذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة، والتصريح أغلب من التلويح.

والأمر في علم الفصاحة بالضد من هذا فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه

---

(١) أسرار البلاغة للجرجاني ص١٢٤.

وجدت جُلَّه أو كُلَّه رمزًا ووحيًا وكناية وتعريضًا وإيماءً إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر، ومن يرجع طبعه إلى ألمعية يقوى معها على الغامض، ويصل بها إلى الخفي) إلخ[1].

وما دمت قد تبرعت للأخ العلي بإيراد هذا النص فإني أريد أن أتصالح معه عليه في أن يكون هو (الفيصل) في موضوع الغموض. وبذلك نرفض قول القائلين بضرورة أن يكون الشعر واضحا كالشمس.. كما نرفض - في الوقت نفسه - مغالاة الأخ العلي بالقول بأن «الشعر هو الغموض» وننتهي بذلك إلى حل وسط يسلم بقبول الغموض المعقول في الشعر، ويرفض - في الوقت نفسه - الإبهام أو التعمية أو وضع الأشواك في طريق الفكر.. وذلك هو خلاصة رأي الجرجاني في موضع آخر من كتابه (دلائل الإعجاز) أو من كتابه الآخر (أسرار البلاغة).. ولكننا لا نستطيع تجشيم القارئ إيراد المزيد من نصوص الجرجاني.

ونعود - بعد هذا الاستطراد الطويل - إلى صلب المحاضرة لنجد - للعجب الشديد - أن المحاضر قد اعتمد بالدرجة الأولى، وبصفة أساسية على رأي امرأة معاصرة اسمها (يمنى العيد) اعتمد على رأيها وتحديدها أو تقسيمها للأغراض الشعرية في القصيدة الحديثة حيث يقول:

«يمنى العيد.. وحدها هي التي أوضحت ميزة الصورة الحديثة) ويقول أيضًا في ردّه على تعقيب الدكتور الغذامي.. يقول النص: (كان في ذهني حين كتبت هذه المحاضرة الموجزة من حيث تقسيم أجزاء القصيدة إلى أربعة.. هي اللغة والصورة والأسطورة والإيقاع، وشرحها بشرح مستفيض أدبيًّا وعلميًّا.. وفي نفس الوقت، ولكني أخذت في الواقع بتقسيم (يمنى العيد) وهي الأجزاء الأساسية في القصيدة الحديثة هي الصورة والرؤيا والإيقاع.. إلخ».

---

(١) دلائل الإعجاز للجرجاني ص٣٤٩ - ٣٥٠.

ترى من عساها تكون (يمنى العيد) هذه حتى لترغم مثقفًا مثل (محمد العلي) على الأخذ برأيها وحكمها دون نفسه، ودون سائر من ذكرهم في محاضرته بما فيهم (الجرجاني) و(ابن رشيق) وغيرهما من القدامى، أو الدكتور (شكري عياد) وأمثاله من المعاصرين؟!! حيث لم يورد المحاضر بعض نصوصهم إلا من قبيل الزخرفة.. أما الأخذ فهو من (يمنى العيد)!!

يبقى من المحاضرة ـ بعد ذلك ـ تلك القراءات النقدية (هي حشو المحاضرة) التي قدمها المحاضر لبعض النماذج من منهج الغموض في القصيدة الحديثة، وهي قراءات تخص (محمد العلي) وحده.. تخص مدى اجتهاده وحسن فهمه، ولكنها لا تضيف شيئًا إلى المقصود من المحاضرة، وخاصة أن بعض تلك النماذج أوضح بأكثر من أن تكون دلالة على أن (الشعر هو الغموض) فهي نماذج فيها غير قليل من الوضوح.. أو من تقريب المعنى، وعلى ذلك فلو أخذنا برأي العلي في أن (الشعر هو الغموض) لذهبت هذه النماذج الشعرية هباءً منثورًا لأن فيها ـ كما قلنا ـ غير قليل من الوضوح، أو المعنى البعيد القريب!!

ولعل ما هو أعجب من ذلك هو اعتراف الأخ العلي من خلال قراءاته النقدية لتلك النماذج.. اعترافه بأن (توظيف الأسطورة جماليًّا حسب الشروط المبثوثة في كتب النقد يحتاج إلى مهارة شعرية فائقة لم يستطعها إلا شعراء القمة.. أما شعراء السفوح فقد انفرطت من أيديهم الفنية شروط توظيف الأسطورة فزادوا الغموض غموضًا، وأصبحت القصيدة ـ يقصد الحديثة ـ (ظلمات بعضها فوق بعض)!! وهنا لا حد لدهشتي حيث يعترف العلي بأن زيادة الغموض يجعل القصيدة (ظلمات بعضها فوق بعض).. ذلك أن هذا الاعتراف ينسف الهدف من المحاضرة، وهو محاولة إثبات أن «الشعر هو الغموض»!!

وذلك منتهى التناقض!!

هل الشعراء الشباب الذين أورد لهم العلي بعض النماذج في محاضرته.. من شعراء القمة. أم من شعراء السفوح؟!

إن قال إنهم من شعراء القمة فهم أكثر تواضعًا من أن يزعموا ذلك لأنفسهم.. والأخ العلي أعقل - كما أظن - من أن يجعلهم في القمة بجرة قلم.

إنهم فتية يتوثبون طموحًا وتطلّعًا إلى القمة. ولا يمكن أن يزعموا لأنفسهم أو يزعم لهم أي زاعم أنهم قد بلغوها.. بيد أنهم - رغم ذلك - أفضل شعراء الحداثة على ساحتنا الأدبية!!

وإذن فمن هم الذين في القمة، وبخاصة من شعرائنا؟!

ذلك - مرة أخرى - منتهى التناقض!!

* * *

وأما بعد.. فلذلك كله أو بعضه، قلت في مطلع مقالي هذا إنني لم أسعد بالمحاضرة.. ولم أستفد منها.. وإن كنت - رغم ذلك - أضع الأخ (محمد العلي) في مكانة عزيزة من قلبي وتقديري.. حفظه الله ورعاه.

عكاظ ١٤٠٥/١٢/٢٤هـ

التنكر للتراث باسم الحداثة!

أخي العزيز[1].

تقول ـ في رسالتك الأخيرة ـ إنه يهولك جدًا ما تقرأه باستمرار في الصحف والمجلات من شعر هابط باسم «الحداثة» وتقول أيضًا إنك تعجب كثيرًا عندما تجد اسم أحدهم يتصدر مقال أحد النقاد على اعتبار أنه من شعراء «الحداثة» وتكون أنت على معرفة تامة بذلك (لأحدهم) وأن ليس له في الشعر ولا في الشعير، وإن كانت الصحف أو المجلات تنشر له بين حين وآخر بعض كلماته المتناثرة التي يعتبرها شعرًا، وتقول إنك كنت تظن أن ذلك يحدث في مصر وحدها!! وأنه ـ من هنا ـ كان استغرابك أن تجد الصحف والمجلات السعودية التي أبعثها لك نفس الحكاية.. أي أنك تجد كلمات متناثرة على اعتبار أنها من الشعر، وليس فيها من الشعر ما يذكر!!

والواقع أنني سبق أن كتبت كثيرًا في هذا الصدد.. ولم يعد يهمني أو يزعجني الآن غير نغمة جديدة، وهي ازدراء العصبة (الحداثية) لكل ما هو تراثي.. أي أنهم يرون أن الشعر هو ما ينشر حديثًا فحسب، وهو بالذات غير المقفى وغير الموزون.. وأن كل ما عدا ذلك إنما هو الأدب المحنط سواء النثر أو الشعر في كتب التراث أو في إنتاج

الشعراء المعاصرين الذين يلتزمون بالوزن والقافية.. إذ ليسوا بذلك غير مقلدين لشعر محنط!!!

والذي أعرفه ـ أو كنت أعرفه!! ـ أن الحداثة في الأدب، لا تلغي التراث بطبيعة

(١) هذا الموضوع عبارة عن رسالة موجهة مني لأحد الأصدقاء.

الحال، ولا تتنافى أيضًا مع ما يسمى بالشعر التقليدي.. أو الأدب الكلاسيكي أو الرومانسي!!

وقد قرأت لكثير من زعماء «الحداثة» تأكيدهم على هذه الناحية، ناحية كون «الحداثة» لا تلغي التراث، ولا تتنكر له.. ولكن يبدو أن معلوماتي قديمة، وأنه قد حصلت نقلات جديدة في اللعبة لم أنتبه لها إلا مؤخرًا..!!

ولواقع أن زعماء الحداثة من أمثال سعيد عقل، وأدونيس، ويوسف الخال، وبقية العصابة إياها.. هؤلاء جميعًا ليسوا فوق الشبهات.. وقد أثبتت الأيام عمالتهم لجهات أجنبية معادية لديننا ولغتنا وتراثنا!!

عندك (سعيد عقل) مثلاً انكشف أمره نهائيًا بعد أن أصبح يشتم العروبة والإسلام من إذاعة إسرائيل، وعندك (يوسف الخال) لا يفتأ يشتم العروبة والإسلام في شعره بأسلوب رمزي، غاية في التعقيد، والمكر، والدهاء.. وإن كان النقد الجاد قد كشفه مؤخرًا.

وأما أدونيس فميوله المعادية لكل ما هو عربي أو إسلامي.. لا تخفى على أي متتبع له.. وقد كتب عن ذلك الكثير، ولكن لا من يقرأ ولا من يسمع.. الأمر الذي استمر معه أدونيس كفتنة كبرى للتغرير بالشباب العربي!!

ولذلك كله، لا يستغرب من أمثال هؤلاء.. أن يبدأوا لعبتهم (الحداثية) بدعوى مبدئية وهي أن «الحداثة» لا تتنافى مع التراث ولا تتنكر له.. لأنهم رأوا أن شعراء لهم وزنهم، يسايرون الحداثة ولكن مع الاحترام لتراثهم.. وهكذا زعم (أدونيس) وعصابته أنهم لا يتنكرون للتراث أيضًا.. فلما أمعنوا في لعبة «الحداثة» وانطلت أكاذيبهم على كثير من الشباب المحب للأدب.. انتقلوا إلى الخطوة التالية، وهي أن «الحداثة» الصحيحة لا تنسجم مع التراث وأنه ـ أي التراث ـ ليس غير أدب ميت محنط!!

وهذه نقلة في اللعبة جريئة وسافرة العداء، ولا بد أن تكون مصدر انزعاج لدى كل مخلص لدينه وعروبته.. وقد تنبه الأدباء إلى كل ذلك.. ولكنهم لم يحركوا ساكنًا - مع كل أسف - اللهم غير كلمة هنا أو أخرى هناك في غير حزم ولا قوة!!

ومن ذلك - على سبيل المثال - ما قرأته اليوم بالذات للشاعر الكبير (نزار قباني) وهو شاعر غير متهم في حداثته، ولا في وطنيته.. فقد سئل عن مفهومه للحداثة الشعرية.. فأجاب بالنص:

«الحداثة في الشعر هي أن تدخل في حوار مع المستقبل، دون أن تقطع حوارك مع الماضي».

«الحداثة.. هي أن تسافر إلى موانئ العالم الجديد، دون أن تنسى أمك وأباك، ومعلمي مدرستك القديمة، ولغتك القديمة، ومسقط رأسك.. هي أن تتعلم لغات جديدة، وتكتب عادات جديدة وتلبس ثيابًا جديدة، وتقرأ كتبًا جديدة دون أن تحرق كتبك القديمة وتبيع في المزاد العلني كوفيتك وعقالك».

(والحداثة هي أن تكتشف المعادلة التي تتفاهم فيها مع عصرك، وتكتشف اللغة التي يمكنك بها أن تتفاهم مع معاصريك) (الشرق الأوسط ١٩٨٥/٦/٢٦م).

❊ ❊ ❊

هل رأيت يا عزيزي - أن نقلة الهجوم على التراث باسم الحداثة قد وصلت إلى نزار قباني فانزعج منها، وندد بها، وأوضح المفهوم الصحيح للحداثة!!

وأنا لم أستشهد بنزار قباني بالذات إلا لأن مروجي أكذوبة الحداثة.. لا يستطيعون الطعن في حداثته، وإلا فإن هناك ما يقال، وهناك ما يستشهد به غير أقوال نزار.. ولكن رسالتي هذه قد طالت.. فإلى لقاء قادم!!

(اليمامة) العدد (٨٨١) ١٤٠٦/٣/١٥هـ

المذاهب الغربية في أدبنا الحديث!

ليس موضوعي هذا بحثًا كما تعنيه الكلمة (أكاديميًّا).. وإنما هو مقالة مطولة، اعتمدت فيها ـ بالدرجة الأولى ـ على معلوماتي وذكرياتي الشخصية التي كونتها طيلة مدة علاقتي بالأدب منذ حوالي ثلاثين عامًا أو أقل بقليل!!

ولم أرجع إلى أي مصدر أو أي مرجع.. اللهم إلا في حالة الحديث عن تعريف المذاهب الغربية التي أثرت في أدبنا فقد رجعت إلى معجمين أدبيين، سأشير إليهما في الهوامش عند كل نص منهما.

وقد دفعني لكتابة هذا الموضوع ما نشهده اليوم ـ على ساحتنا الأدبية ـ من صراع حاد بين عدد من المذاهب الأدبية الواردة إلينا من الغرب.. كما دفعني إلى كتابة هذا الموضوع ما ألاحظه أحيانًا في كتابات بعض أدبائنا من سخرية جارحة تجاه بعض المذاهب القديمة، وبخاصة (الكلاسيكية) و(الرومانسية) وظني أن هؤلاء الأدباء الشباب الذين يسخرون من المذاهب القديمة لا يدركون أي دور لعبته تلك المذاهب في أدبنا منذ بداية عصر النهضة إلى عهد قريب جدًّا.. بل وإلى الآن!!

ونعلم جميعاً أن ازدهار الأدب العربي قد تعرض لنكسة كبيرة، تبعًا للنكسة التي أصابت الأمّة العربية نفسها بعد أن تقلص نفوذ الدولة العربية الإسلامية الضخمة.. وانتقلت الدولة الإسلامية من يد العرب إلى أمم أو شعوب غير عربية منذ بداية الدولة الأيوبية.. ثم المملوكية.. ثم العثمانية أي طيلة فترة زمنية تزيد عن خمسة قرون، ران فيها الركود على الأمّة العربية، ومن ثم على آدابها، وتضافرت على الأمّة أسباب الانحطاط من كل جانب طوال تلك القرون

الخمسة أو الستة، وهي الفترة التي جرى الاصطلاح على تسميتها بعصور الانحطاط.

وليس من شأن هذا المقال أن يتوسع في هذا الجانب... بل تكفيه مجرد الإشارة إلى ذلك كمدخل للحديث عن عصر النهضة أو اليقظة العربية، وبخاصة الجانب الأدبي منها.

عصر النهضة الأدبية الحديثة

كانت البداية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي عندما كانت الشعوب العربية ترزخ تحت نير الاستعمار الإنجليزي ثم الفرنسي، وعندما بدأت ـ أي الشعوب العربية ـ تضيق ذرعًا بعسف الاستعمار وطغيانه واستبداده.. فتفجرت المشاعر العربية، وتدفق المد التحرري في وجه الاستعمار.. فكان لا بد أن يصحب ذلك نهضة أدبية حديثة!! ومن عجب أن تطلُّع الأدب العربي إلى النهوض بدأ بالعودة إلى التراث، يستلهم منه الجزالة في الأسلوب، ويستثير منه مكامن العز أو الفخار العربي.

وقد تمثلت هذه العودة إلى الجزالة العربية ـ على نحو واضح ـ في شعر البارودي وأمثاله.. وكانت مصر هي مبعث اليقظة الأدبية الحديثة.

ومن عجب أن نعلم أن اليقظة الفرنسية.. أو كما تسمى (الثورة الفرنسية) قد عادت في بداية نهضتها الفكرية إلى التراث اليوناني والروماني!!

وهذا التشابه في العودة إلى القديم بين الفرنسيين والعرب، يدل دلالة واضحة على أن القديم هو مكمن العز، ومبعث الفخار.. بيد أن هناك فرقًا ـ في ذلك ـ بين العرب وبين الفرنسيين.. حيث عاد العرب إلى قديم أو تراث يخصهم وحدهم ـ وبه أمجادهم وفخارهم.. بينما قديم الفرنسيين الذي عادوا إليه لا يخصهم وحدهم.. بل ربما لا يخصهم منه غير الشيء اليسير.

وهذا دليل واضح على سلامة البداية في اليقظة العربية الحديثة، وهي بداية استمرت فترة غير قصيرة، وتجلت كثيرًا بين كُتّاب مجلة (الرسالة) أو مجلة (الثقافة) في مصر.. وامتدت إلى كثير من أنحاء العالم العربي، متزامنة في امتدادها مع انحسار النفوذ الاستعماري في كل قطر عربي.. أي أن الشعوب التي نالت استقلالها مبكرًا كانت أسبق في اليقظة العربية والأخذ بأسبابها، والعكس بالعكس!!

التطلع العربي إلى أسباب النهضة الغربية

لم تكتف النهضة أو اليقظة العربية بالعودة إلى الماضي.. بل بدأت تتطلّع إلى الأخذ بأسباب النهضة العصرية.. وكانت (مصر) هي السباقة إلى الانفتاح على العالم الغربي منذ مجيء (نابليون) إلى مصر، ومعه أول مطبعة تصل إلى الشرق الأوسط.. أو منذ بداية إرسال البعثات الدراسية إلى فرنسا في عهد (محمد علي)!!

وهكذا لم تلبث مصر غير وقت يسير من الزمن حتى حققت انفتاحًا كبيرًا على الغرب، والأخذ منه بأسباب النهضة العصرية.

وكان الأدب من جملة تلك الأسباب، حيث شهدت مصر.. ثم لبنان حركة نشطة في مجال الترجمة.. ترجمة عيون الأدب الغربي.. بل والشرقي أيضًا.

ومع بداية ازدهار الترجمة.. ثم وجود بعض المصريين والسوريين واللبنانيين الذين تلقوا تعليمهم في الغرب، بدأت تفد المذاهب الأدبية الغربية، وبدأ الناس يعرفون ما هي (الكلاسيكية) ثم (الرومانسية).. إلخ.

ومن عجب ـ للمرة الثانية ـ أن اليقظة العربية الأدبية ـ قد ترسمت وتابعت خطى النهضة الغربية، وأنا هنا أخلط بين التعبير بالنهضة أو اليقظة، ولست أقصد غير معنى واحد لهما معًا. المهم أن اليقظة العربية الأدبية، تابعت خطى الغرب، وبخاصة فرنسا التي أعلنت الحرب على (الكلاسيكية) واعتبرتها مذهبًا

للأرستقراطيين.. ومن ثم فهي غير صالحة للمد الشعبي المندلع.. وأن البديل الصحيح للكلاسيكية، هو (الرومانسية)!!

وها هنا يحسن بنا أن نورد تعريفًا موجزًا لكل من (الكلاسيكية) و(الرومانسية) كي نوضح للقارئ مدى البون بين المذهبين ليعرف إلى أي حد كانت (الرومانسية) - في ذلك العهد - تعتبر انقلابًا كبيرًا.. بل ثورة عارمة في المفاهيم الأدبية!!

تعريف الكلاسيكية؟!

(الكلاسيكية) هي: (حالة كل أدب أو فن متقيد بالأساليب الماضية، متخذ من الآثار الغابرة نماذج لإنتاجه)[1].

وقد (برزت الكلاسيكية) في الأدب الفرنسي بروزًا أساسيًا في عهد الملك لويس الرابع عشر.. أي خلال القرن السابع عشر، وانتمى إليها عدد من مشاهير أدباء العصر، ولئن احتفظ كل منهم بميزات شخصيته الأدبية فقد تقيدوا جميعا بخصائص مشتركة منها: الإعجاب بالقدامى، والدقة في الصياغة، والتعبير عن الأمور المألوفة، أو المحتملة الوقوع، والعمق في التحليل الخلقي والنفسي، والوضوح في الأسلوب)[2].

وكان أصحاب المذهب (الكلاسيكي).. (كتاب متفوقون يأتون في الطليعة، وتكون آثارهم أهلاً لأن تدرس في المؤسسات التعليمية)[3].

تعريف (الرومانسية)؟!

(اشتقت لفظة (الرومانسية) من اللغة (الرومانسية) التي ظهرت إلى الوجود من اختلاط اللغة اللاتينية كما كان يتكلمها الإيطاليون بلغة

---

(١) المعجم الأدبي لجبور عبدالنور - دار العلم للملايين - طبعة أولى - ص٢٢٠.

(٢) و(٣) المرجع السابق ص ٢٢١.

البرابرة الشماليين)[1].

ولقد طرأ تغير واضح في القرن الثامن عشر على اتجاه الحياة الفكرية ونمطها، وأثرت هذه الثورة الفكرية التي سميت بالحركة الرومانسية في كل نواحي الفكر وفي وسائل النظم، وطرق التعبير الفنية والأدبية.. فقد أظهرت هذه المدرسة منذ بعثها مقاومة عنيفة منظمة للأصول الأدبية السائدة) (يقصد الأصول الكلاسيكية)[2].

المقارنة بين اليقظة الأدبية عند الفرنسيين وعند العرب

أتينا فيما مضى على ما تعنيه كلمة (رومانسية) عند الفرنسيين... أما ما تعنيه عند العرب بعد أخذهم بها كمذهب فهو المعنى نفسه عند الفرنسيين.. أي أن (الرومانسية) قد اعتبرت حركة تجديدية تحررية في العالم العربي، وتبع هذا المذهب قليل من شعراء العرب وكتابهم.

وليست (الرومانسية) وحدها هي التي أخذ بها ـ كمذهب ـ شعراء العروبة وكُتّابها.. بل (ذاعت في الطبقة المثقفة نظريات ومذاهب فلسفية، وسياسية وفنية، تمثلتها العقول، وأبرزتها بلا تعديل أو تبديل.. أو أدخلت عليها ما يتفق مع حاجات البلدان العربية، واتخذت منها منطلقًا في بناء مجتمع أفضل)[3].

وما يقال عما تعنيه (الرومانسية) عند الفرنسيين وعند العرب.. يقال أيضًا عن (الكلاسيكية) التي عند الفرنسيين (تقليد القدامى) هي كذلك تمامًا عند الأدباء العرب!!

وهذا هو التأثر أو التأثير من آداب الأمم التي أفردت لها مؤخرًا الكثير من

(١) و (٢) المصطلح في الأدب الغربي للدكتور ناصر الحاني منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ص٦٨ و٦٩.

(٣) المعجم الأدبي لجبور عبدالنور ص ١٨١.

الدراسات المقارنة!!

وهكذا فإن ما يسخر منه الآن بعض شباب الأدباء العرب.. كان له كبير شأن في بداية يقظتنا الأدبية الحديثة.. بل كان له كبير شأن أيضًا ـ كما ذكرنا سابقا ـ في بداية اليقظة الأدبية الغربية!!

وأما بعد ذلك فقد انهالت علينا المذاهب الأدبية والفكرية حتى اختلط الحابل بالنابل، وكل فريق فرح بما لديه، يتعصب له، ويذود عنه، ويعارك من أجله!!

ولقد قلت في بداية موضوعي هذا إن ما دفعني لكتابته هو (ما نشهده اليوم ـ على ساحتنا الأدبية ـ من صراع حاد بين عدد من المذاهب الأدبية الواردة إلينا من الغرب[1] كما دفعني إلى كتابة هذا الموضوع ما ألاحظه أحيانًا في كتابات بعض أدبائنا من سخرية جارحة تجاه بعض المذاهب القديمة، وبخاصة (الكلاسيكية) و(الرومانسية) وظني أن هؤلاء الأدباء الشباب الذين يسخرون من الذاهب القديمة لا يدركون أي دور لعبته تلك المذاهب في أدبنا منذ بداية عصر النهضة إلى عهد قريب).

ذلك هو دافعي لكتابة هذا الموضوع.

ومنذ الآن، وبعد أن انتهينا من التمهيد بالحديث عن عصور الانحطاط، ثم بداية اليقظة، ثم بداية الانفتاح على الغرب.. منذ الآن سأحاول أن أستعيد بعض معلوماتي أو ذكرياتي الأدبية خلال ثلاثين عامًا تقريبًا!!

السجال بين القديم والحديث

لقد أدركت في بداية مطالعاتي الأدبية تلك المناوشات والمعارك التي يشنها الأدباء المنفتحون على الغرب.. يشنونها حربًا شعواء على (الكلاسيكيين) من

(١) لي وجهة نظر سبق أن ضمّنتها في إحدى مواد كتابي (أدب وأدباء) وخلاصتها أننا هنا تأثرنا بالمتأثرين في مصر أو لبنان أو المهجر.. ولا نتأثر مباشرة، وذلك لأننا كنا وما زلنا عالة على الترجمة.

الشعراء والأدباء العرب مثل (أحمد شوقي) وأمثاله من المقلدين أو من المتعصبين للقديم.

وقد تضافرت الكثير من الأسباب في تلك المعركة غير المتكافئة بين المقلدين، وهم ضعفاء لا ينصر بعضهم بعضًا وبين المجددين المتكاتفين.

وعلى سبيل المثال.. كانت هناك حركة شعراء الديوان.. ثم حركة شعراء المهجر، وهي من الحركات التجديدية المبكرة، يساندها الأدباء والنقاد الذين كانوا يرون في المذهب (الرومانسي) مذهبًا تحرريًّا متقدمًا ضد المذهب (الكلاسيكي) الذي كان عليه معظم الشعراء والأدباء، ومنهم أولئك الذين كانت عودتهم إلى القديم حركة تجديدية في حد ذاتها.

وما زلت أذكر أن أي شاعر عندنا يصفه أي ناقد بأنه (رومانسي) يفرح لذلك فرحًا شديدًا، ويتيه به كثيرًا!! ولم لا وكان ذلك أقصى أسباب العصرنة في تلك الأيام وتغيرت ـ على أثره ـ الكثير من مفاهيمنا نحو الشعر!!

وهذا فيما يختص بالشعر وحده

أما ما يختص أو يتصل بالقصة في بلادنا.. فقد كان الأدباء ـ في ذلك الوقت ـ يتأثرون بكتاب القصة في مصر أو لبنان، وأولئك يتأثرون أو يقتفون خطى الغرب في هذا المجال.

ولقد تأخر كثيرًا أدب القصة أو الرواية في بلادنا عن غيره في البلدان العربية، وذلك بسبب محافظتنا الشديدة وكثرة المتمسكين بالمفاهيم القديمة للأدب العربي.

ولذلك كانت المحاولات الأولى للقصة أو الرواية في بلادنا على جانب كبير من السذاجة، وكان يضحك منها الأديب المتمسك بالقديم مثل ما يضحك منها ـ في الوقت نفسه ـ الأديب الحديث المتفتح!!

ولا أريد أن أسمي أحدًا.. دفعًا للحرج!!

بيد أننا في حدود الثمانينيات الهجرية بدأنا نقرأ قصة قصيرة حديثة فعلاً،

ومواكبة لمفاهيم القصة عند النقاد العرب.

وكانت القصة تتجه إلى معالجة أوضاع اجتماعية محلية، وتتخذ من البيئة المحيطة بها أساسًا لانطلاقتها.. أي أنها كانت نقدًا شبه مباشر للأوضاع غير السليمة!!

الفن للفن.. أم الفن للحياة؟

وكان هذا الاتجاه في القصة، ومثله في المقالة الأدبية أو الاجتماعية، أو السياسية.. كان ذلك نتيجة لمعركة أدبية كبيرة بين مفهوم الفن للفن.. أو الفن للحياة، وقد جاءنا هذا الصراع بين مذهب الفن للفن وبين مذهب الفن للحياة من الغرب أيضًا عن طريق مصر وسوريا وبعض المهجريين.

وأذكر أن هذا الموضوع قد شغل بال أدبائنا طويلاً في السبعينيات الهجرية حتى إن مجلة (المنهل) قد قامت بإجراء استفتاء بين الأدباء حول هذا الموضوع.. كانت نتيجته رجحان كفة القائلين بالفن للحياة.

وهكذا كان معظم الكتاب والأدباء يسخّرون كل نتاجهم من أجل خدمة الحياة.. فكانت معظم المقالات أو القصص نقدًا مباشرًا أو غير مباشر للكثير من الأوضاع التي كان يراها الأدباء غير قائمة على أساس سليم.

وأذكر - كمجرد مثال - أن شركة (أرامكو) كانت هدفًا أساسيًا لنقد كتّاب المقالة بسبب ما كان يراه أولئك الكتّاب - وكنت أحدهم - من إجحاف شديد بحقوقنا في بترول بلادنا حيث كانت نصوص اتفاقيتها مع الحكومة مجحفة جدًا بسبب استغلال الشركة عند الاتفاق للحاجة المادية القاسية التي كانت تعاني منها الحكومة عند اضطرارها للقبول بتلك الاتفاقية.

وكان الكتّاب وأهل الرأي، يرون أن الوقت قد حان لتعديل الاتفاقية بحيث تكون أكثر إنصافًا!!

وهذا مجرد مثال للموضوعات التي كان يعالجها كتابنا باسم (الأدب في

خدمة الحياة)!!

أما أنصار الفن للفن فقد ذووا وانطووا، وتجاوزهم الزمن!!

وهكذا في ظل هذا المذهب (مذهب الأدب للحياة) تغيرت نظرة الأدباء والنقاد نحو (الرومانسيين) وأصبح الشاعر الذي يتغنى بالطبيعة أو الجمال أو المشاعر الذاتية، يعتبر متخلفًا عن الإحساس بمشاعر وآمال وآلام أمتّه. وسبحان مغير الأحوال!!

وتبعًا لذلك لم يلبث الشعراء الذين كانوا يتباهون بـ(الرومانسية) أن أصبحوا يضيقون بمن يصفهم بها.. وأصبحنا نقرأ الكثير من القصائد التي تحث على التحرر..أو الفداء.. أو القضايا القومية والوطنية بصفة عامة على مذهب (الأدب في خدمة الحياة)!!!

وأما (الرومانسية) فقد أصبحت معرّة عند الشعراء!!

وأذكر أنني كتبت ذات مرة عن ديوان لأحد شعرائنا، وعندما أردت إغاظته لم أجد أفضل من أن أشير إلى أن تلك القصيدة أو تلك الأخرى كان فيها الشاعر ما زال (رومانسيًّا) يحلم بالضباب والسراب!! وعندما التقيت بالشاعر - بعد ذلك - قال لي: والله - يا علي - لم يكن أشد علَيّ في نقدك من أن تنسبني إلى (الرومانسية) التي انتهى زمنها!!

إلى هذا الحد كانت حماستنا للمذاهب الأدبية المختلفة!!

أدب الشباب وأدب الشيوخ؟!

لقد كان الشباب هم الذين يتابعون دائمًا وفورًا أية حركة أدبية جديدة في العالم العربي.. بينما الأدباء الشيوخ يتمسكون بمواقفهم المراوحة دائمًا حول تقليد القديم، وبخاصة الشعراء الشيوخ، وتلك سُنّة الحياة في كل زمان ومكان - كما يبدو!!

ومن هنا نشأت معركة عنيفة جدًّا حول ما يسمى بأدب الشيوخ أو أدب الشباب، وأذكر هنا - دون فخر طبعًا - أنني وأخي الأستاذ (راشد الحمدان) إن

لم نكن أول من أطلق النار في هذه المعركة، فهو وأنا من أشهر من أشعلوها واستمروا لوقت طويل في تغذيتها بالحطب!! وشاركنا بعض إخواننا الشباب في تلك المعركة التي طالت أكثر مما طالت حرب البسوس!!! (أستشهد هنا بعبدالفتاح أبو مدين، وهاشم عبده هاشم، وعلوي الصافي)!!

وأشهر صحيفة تبنّت هذه المعركة هي (الرائد) لصاحبها الأستاذ (عبدالفتاح أبو مدين)، وقد كان دوره كبيرًا في تحريضنا من جهة، وفي تهدئة خواطر الشيوخ من جهة أخرى!!!

وبعد فهذه مجرد لمحات من ذكريات أدبية كثيرة متشعّبة.. وكل ما أردته من بعث هذه الملامح من الذكريات هو أن أقول لشبابنا:

لا تظنوا أنكم أول من انفتح في بلادنا على المذاهب الأدبية الجديدة فهناك من هم في عداد (المخضرمين) الآن.. قد سبقوكم إلى الأخذ بكل جديد نافع، واستماتوا في سبيل ما يعتقدونه، وخاضوا ـ من أجل ذلك ـ الكثير من المعارك الحامية الوطيس!!

مجلة الحرس الوطني عدد ٣٦ صفر ١٤٠٦هـ

الشعر العربي .. الحر
من خلال وجهة نظر غربية؟!

(الواقع والأسطورة في الشعر العربي الحر في القرن العشرين).. وما بين الأقواس هو عنوان بحث مطول لناقد غربي اسمه (بيتر باخمان).. نشرته مجلة (فكر وفن) عدد ٣٧ العام ١٩٨٢م، وهي مجلة تصدر مرتين في السنة، وتهتم بالأبحاث الأدبية الراقية.

قرأت البحث فاستهوتني.. بل بهرتني دقته المتناهية.. فضلاً عن غزارة معلوماته، وحسن تناوله، ورصانة أسلوبه، وتبصره الباهر!! والبحث عبارة عن نقد تفسيري للأسطورة في الشعر العربي الحر، وهو لا يكتفي بتفسير النص، بل يعطينا ـ قبل كل شيء ـ لمحة موجزة عن كل شاعر من الشعراء العرب الذين اختارهم كأمثلة لموضوع بحثه.. كأنما يريد أن يقول:

لا يصدر هذا النص إلا عن شاعر، تلك حياته وديانته.. أو أيديولوجيته وبذلك سلط أضواء كاشفة تمامًا، واستخرج ما وضعه الشعراء (في بطونهم!!).

وقد صادف هذا البحث الرائع هوى في نفسي حيث سبق لي أن تناولت ـ في كتاباتي المتواضعة ـ الكثير من مضامينه.. فكأني عثرت على شاهد لتزكية ما سبق لي أن قلته في هذا الصدد أو غيره مما يتعلق بالشعر الحر.

ولذلك أجدني مدفوعًا لإشراك القراء الكرام معي في الاطّلاع على وجهة نظر غربية رصينة جدًّا، حيث سنستعرض معًا أهم ما ورد في هذا البحث، مصحوبًا من جانبي بالشرح والتعليق متى لزم ذلك، وفي الأغلب الأعم سوف لا يلزمني أي تعليق.. لأن البحث من الوضوح والعمق بحيث لا يحتاج إلى مزيد إيضاح.. ولذلك فستكون تعليقاتي هي إبداء وجهات نظري ليس إلا.

فإذا بدأنا في استعراض هذا البحث القيم، سنلاحظ للوهلة الأولى رابطة قوية جدًّا بين ثلاثة نصوص:

أولاً: نص العنوان الذي وضعه الباحث لنفسه، وهو (الواقع والأسطورة في الشعر العربي الحر في القرن العشرين).

ثانيًا: النص الذي استهل به الناقد موضوعه، وهو تعريف وسيلة الأديب من وجهة نظر (جوته) وفيما يلي كامل النص:

«وسيلة الأديب هي العرض والتصوير، وأقصى ما يصل إليه هو أن ينافس الواقع عن طريق العرض والتصوير.. أي حينما تتسرب روح الواقع إلى ما يصوره بحيث تتجلى أمامنا المادة المصورة كشيء حاضر (نابض).. ففي أعلى المراتب، يبدو الشعر كشيء ظاهر للعيان، وكلما انسحب الشعر إلى الداخل (أو إلى الباطن) فهو في طريقه إلى الهبوط، وهذا هو الشعر الذي يصور الداخل فحسب دون أن يجسّمه كظاهر.. أو دون أن يشيع الإحساس بالظاهر من خلال الباطن.. فهذان هما الشرطان النهائيان اللذان من خلالهما ينفذ الشعر إلى الحياة العامة» (جوته: مأثورات وتأملات من سنوات تجوال فلهلم مايستر ١٨٢٩م).

ثالثًا: النص الذي اختتم به الباحث بحثه وقد نقله عن (بندار) في أغنية النصر الثالثة.. وهو كما يلي:

(من ليست لديه إلا تلك البضاعة المأخوذة عن الغير.. فهو أشبه برجل يقطن في الظلام، ويسلك مرة طريقًا ما، وأخرى طريقًا مغايرًا.. فهو لا يعرف أبدًا موضع قدمه، ويتذوق من آلاف الأطعمة بنفس حائرة).

* * *

ومن ذلك يلوح بوضوح أن الناقد لم يختر هذه النصوص بالذات - وهي عنوان بحثه - ونص جوته، ونص بندار إلا ليقول لقرائه - ضمنا - من خلال

نص (بندار) الذي ختم به بحثه.. وهو أن الشعر العربي الحر قد أخذه شعراء موجته عن الغرب أخذًا كاملا متخاذلاً.. ومن هنا كان نص (بندار) القائل:

(من ليست لديه إلا تلك البضاعة المأخوذة عن الغير فهو أشبه برجل يقطن في الظلام، ويسلك مرة طريقًا ما وأخرى طريقًا مغايرًا.. فهو لا يعرف أبدًا موضع قدمه، ويتذوق من آلاف الأطعمة بنفس حائرة).

***

هاهنا يبدو الباحث. وقد استخدم براعته المذهلة في الربط بين هذه النصوص وبين ما انتهى هو إليه من خلال بحثه القيم كنتيجة نهائية!! أو كنتيجة طبيعية حتمية!!

وذلك هو باختصار، واقع الشعر العربي الحر، شئنا أم أبينا.. لا يماري في ذلك غير من يكابر أو يغالط نفسه ليس إلا!!

والواقع أن «المغالطة» عند أصحاب الشعر الحر وأتباعهم هي الأساس في كل شيء لديهم، ولذلك تثور ثائرتهم العارمة عند أدنى محاولة لفضح مذهبهم.. أو كشف غاياتهم.

وإنه ليؤسفني أن أقول مثل هذا، وأنا أعلم يقينًا أن من بين أصحاب الشعر الحر (قلة) لا ترقى إليهم الشبهات، وهم - في الوقت نفسه - من الأسماء اللامعة في دنيا الشعر العربي الأصيل.. وحتى عندما جربوا حظهم في الشعر الحر، لم يبعدوا عن أصالتهم في المضمون على الأقل.

وهذه القلة لا ينطبق عليها ما نقوله هنا.. كما لا ينطبق عليها بحث الناقد الغربي، ولذلك فهو لم يأت على ذكرهم أصلاً، وإنما اختار أولئك الذين اتخذوا من الشعر الحر وسيلة لتغريب الثقافة العربية. وطمس معالم أصالتها بما ينعقون به صباح مساء!!

ولكي يشرح (بيتر باخمان) مدى تقليد أرباب الشعر الحر من العرب في استخدام الأسطورة.. اضطر أن يضع بين يدي بحثه معلومات سريعة مركزة

عن استخدام الأسطورة لدى الأوروبيين لكي تكون المقارنة واضحة.

يقول باخمان في هذا الصدد:

«حين نتحدث عن الأسطورة فإننا كأورونبيين نفكر بادئ ذي بدء في الإغريق.. فآدابنا القومية قد تأثرت لدرجة أو بأخرى، وعلى الأقل لحقبة ما، بالأدب الإغريقي الكلاسيكي من حيث الشكل والمضمون»..

«وهذا يعني أن الكثير من الأساطير الإغريقية ورموزها قد وجدت طريقها إلى الآداب الأوروبية الحديثة حيث استخدمت أو استند إليها في صورها الكلاسيكية أو أعيد تشكيلها من جديد».

بهذا النص ونحوه أوضح لنا (باخمان) أن الآداب الأوروبية الحديثة قد أخذت صورها ورموزها من الأدب الإغريقي.. ثم يوضح لنا بعد ذلك مباشرة أن جماعة الشعر العربي الحر.. قد نهجوا المنهج نفسه في استخدام الأسطورة الجاهلية القديمة رغم أن الإسلام قد جَبَّ ما قبله، وأعطى للعربي شخصية مختلفة تمام الاختلاف عن شخصيته القديمة.. إلا أن هؤلاء الشعراء العرب عندما أرادوا تقليد الأوروبيين في مجال استخدام الأسطورة لم يجدوا أمامهم غير أن يتجاوزوا قرون العصر الإسلامي، ويوغلون في البحث عن الأسطورة عند الوثنيين وعبدة الأصنام في الجاهلية.. إلخ..

* * *

بعد هذه المقارنة ذات المغزى الكبير جدًّا يعود (باخمان) ليعرفنا على بداية الشعر العربي الحر.. فيقول:

في منتصف القرن الحالي قررت مجموعة من الشعراء العرب الشبان في العراق ومصر وسوريا ولبنان أن تنقض العنصر التكويني الأساسي في الشعر العربي.. ولذا سمي هؤلاء بالشعراء الأحرار، وسمي فنهم الذي يخضع لأحكام تكوينية جديدة بـ«الشعر الحر»!!

وقد قام الجيل الأول من هؤلاء الشعراء عن وعي بتقييد حريتهم الجديدة بعض الشيء عن طريق الاحتفاظ بالوزن والقافية، ومن جانب آخر.. فقد أصاب التغيير أيضًا مضامين الشعر العربي.

وسّع هؤلاء الشعراء نطاق هذه المضامين عن طريق الاستعانة بالأساطير، وحرروا أنفسهم من القيود التي تقيدهم بديانتهم (انتبهوا إلى هذه النقطة المهمة جدًّا) سواء كانت هذه الديانة الإسلام أو المسيحية. واستعانوا بالمضامين العربية القديمة التي سبقت الإسلام(!!) وبغير ذلك من المضامين غير العربية).

وبعد هذا النص، وكذلك النص الذي سبقه لا يكتفي (باخمان) بهما لإثبات ناحية التقليد عند الشعراء العرب الأحرار.. بل يصر على أن يقول ذلك بملء فمه، وبوضوح أكثر وأشد وقعًا:

إنه - مثلاً - يقول:

«من البدهي أن شعراء الشعر الحر، وجميعهم قد درس الأدب الإنجليزي أو الفرنسي.. أو قد درس هذين الأدبين معًا، قد عرفوا كيف عالج شعراء أوروبا وأمريكا الكلاسيكيون ومن نحا نحوهم من الشعراء المعاصرين، كيف عالجوا الأساطير الإغريقية وقصص الكِتَاب المقدس(!!) رأوا أن هؤلاء يقتصرون أيضًا في شعرهم على الإشارات والتضمينات حين يدخلون الأساطير في شعرهم، وقد يتحول هذا إلى صنعة دون قيد أو ارتباط بالواقع، وقد يكون هذا أيضًا كما نرى عند (ت.س اليوت)، و(إزرا بوند)، وهما من أساتذة الشعر الحر(!!)..»

***

لقد برح الخفاء في هذه النصوص، وإنني هنا أتحدى أي شاعر حر.. أو أي ناقد يشايع هؤلاء الأحرار أن ينكر ما قاله (باخمان) بكل أدب ووقار عن ناحية التقليد الأعمى للأوروبيين. بل وناحية السير خلفهم في كل خطوة،

ولكن بتعثر شديد، وبمجافاة كاملة لقيمهم الإسلامية أو المسيحية أيضًا عند الشعراء العرب من المسيحيين، وإن كان الخطب يهون جدًّا عند المسيحيين ذلك لأنهم يقلدون من يدينون بدياناتهم، ولكن كيف يكون الشأن بالنسبة للمسلمين؟!.

وسنرى بعد إلى أي حد، ذهب دور الشعراء العرب من المسيحيين في جر رجل الشاعر المسلم إلى متاهات ومفاوز لا علم له بها.. وإنما هو حب التقليد، وشهوة الشهرة.

❊ ❊ ❊

يأتي (باخمان) بعد ذلك ليتحدث لنا عن الأسطورة وعن استخدامها عند بعض الشعراء الذين اختارهم، واختار لهم بعض النماذج من شعرهم مما يتعلق بموضوع بحثه.. فنراه يبدأ بالشاعر (يوسف الخال) ويخبرنا أنه ولد عام ١٩١٧م في طرابلس الشام بشمال لبنان.

(وهو شاعر مسيحي قد درس في المقام الأول الشعر الإنجليزي والأمريكي وأيضًا الشعر الفرنسي الحر، وترجم نماذج منها، وعرف بهذه النماذج من خلال مجلته الأدبية (مجلة شعر) وقد استعان بهذا الشعر، وطوعه لبعض أغراضه (؟!!) في بعض أشعاره).

ثم يختار له قصيدته (السفر) حيث (تحتوي هذه القصيدة على إشارات أسطورية صريحة. وأخرى ضمنية)

وعندما يقوم (باخمان) بتحليل هذه القصيدة فإنك لا تملك نفسك كقارئ عربي مسلم من أن تتقزز وتصاب بالغثيان، وأنت تشاهد كل ذلك الدس اللئيم في قصيدة (السفر) وبالطبع في قصائد أخرى دون شك.

إن (باخمان) قد وضع أيدينا - من غير أن يقصد بل بكل براءة - على حقائق مذهلة.. ما أحرانا أن ننظر فيها جيدًا، وننظر إلى أي حد يتربص بنا أمثال (يوسف الخال) وما أكثرهم!!

لقد توقف بنا (بيتر باخمان) طويلاً عند قصيدة (السفر) ليوسف الخال، وشرحها وحللها بعمق ولا يمكن هنا أن يغنينا نقل تحليل (باخمان) لهذه القصيدة، دون أن نقرأ القصيدة نفسها، ولذلك أجدني مضطرًّا إلى نقلها هنا بالكامل - على أساس: ناقل الكفر ليس بكافر - ثم نتعرف بعد ذلك على ملامحها بعد التحليل الدقيق.

وفيما يلي نص القصيدة (السفر):

وفي النهار نهبط المرافئ الأمان

والمراكب الناشرة الشراع للسفر.

نهتف يا، يا بحر الحبيب، يا القريب

كالجفون من عيوننا

نجيء وحدنا،

رفاقنا وراء تلكم الجبال آثروا

البقاء في سباتهم ونحن نؤثر السفر.

أخبرنا الرعاة ههنا

عن جزر هناك تعشق الخطر

وتكره القعود والحذر،

عن جزر تصارع القدر،

وتزرع الأضراس في القفار

مدنا. حروف نور تكتب السير

وتملأ العيون بالنظر.

بها، بمثل لونها العجيب يحلم

الكبار في الصغر.

إذ اك نصعد المراكب الحاملة

الزجاج والصنوبر، الحاملة الحرير

والخمور من بلادنا، الحاملة الثمر.

نصيح يا مراكب!

يا سلمًا يرقى بنا.

يصلنا بغيرنا،

يأتي لنا بنا غلا،

يأخذ منا ما حلا..

يا أنت ما مراكب،

جئنا إليك وحدنا،

رفاقنا الهناك في الرمال آثروا البقاء

تحت رحمة الهجير والنقيق والضجر

ونحن نؤثر السفر،

أخبرنا الرعاة في جبالنا

عن جزر يغمرها المطر،

يغمرها الغمام والخزام والمطر،

عن جزر لا تعرف الضجر.

بها، بمثل لونها الغريب يحلم

الكبار في الصغر.

وقبلما نهم بالرحيل نذبح الخراف

واحدًا لعشتروت، واحدًا لأدونيس،

واحدًا لبعل، ثم نرفع المراسي الحديد

من قرارة البحر،

ونبدأ السفر:

هللويا.

هللويا.

وفي هنيهة تغيب عن عيوننا

الجبال، والمرافئ الأمان، والمرابع

المليئة اليدين بالزهر:

هللويا.

هللويا.

هللويا.

ونبدأ السفر

وسيرة الرجوع والصراع والظفر.

وهنا لا بد لنا من النقل الكامل للتحليل النقدي الذي كتبه (بيتر باخمان) كنقد تفسيري لهذه القصيدة.. يقول (باخمان) ما نصه:

(من الواضح أن اللبنانيين الذين يرجعون بأصولهم الأولى إلى الفينيقيين، من الواضح أن مجالهم هو الإبحار أو الرحيل عبر البحار، وخلف الجبال - خلف جبال لبنان - يجلس عرب الصحراء: خاملين ناعسين متبرمين عاجزين عن التبادل الحضاري وعن تبادل السلع مع الغير.

ويشير الشاعر أيضًا إلى ضرس التنين الفينيقي ، ويصور - كما تزعم القومية المتطرفة في لبنان - اللبناني (قدموس) (ابن الملك الفينيقي أجينور كما تقول الميثولوجيا الإغريقية)، والواضح من هذا أن الشاعر يريد أن يقول: من لبنان

الـفـيـنـيـقـيـة قد أحضر قدموس الأب الأول الحضـارة إلى بـلاد الإغريـق، وهـو موضوع رائج بين الأوساط المارونية المسيحية في لبنان، موضوع مُعادٌ ومطروق إلى حد الابتذال، يروج له على سبيل المثال الشاعر الرمزي سعيد عقل كما يروّج له تلاميذه.

بالمقارنة بالكثير من قصائد الشعر الحر نذكر أن قصيدة يوسف الخال ، (السفر) تحوي مضمونًا قابلاً للسرد، فهي قصيدة أدوار.

حتى يستحضر الشاعر موقف الرحيل بصورة حيوية ينقل زمن الرواية كما هو الحال عند هوميروس وبوند من الماضي إلى الحاضر، فهو يقول على سبيل المثال: نهبط وليس هبط، ولهذا التغيير وظيفة أخرى، فبواسطته يقدم إلينا لبنان العريق الذي تجلله الأسطورة كحاضر وموجود، عن طريق بلاده وحاضرها يتساويان من حيث القيمة، فهي تنطلق إلى إبداع عالمي تاريخي في الماضي أو الحاضر.

من هذا المنظور التاريخي يختزل الشاعر العصر العربي الإسلامي الوسيط، فهو لا يتفق مع هذه الصورة الجميلة المبسطة، فالعرب البدو يظلون قابعين خلف الجبال) انتهى.

* * *

وهكذا، وبكل بساطة.. بل وبكل وضوح وجلاء يفصل (يوسف الخال) في شعره (فصلاً حادًّا) بين لبنان الفينيقي، وبين عرب الصحراء (هكذا).. (الذين يغطون اليوم في عجزهم كما كانوا بالأمس.. أو كما كانوا خلف جبال لبنان: خاملين ناعسين عاجزين عن التبادل الحضاري) إلخ.

ومعنى هذا كله أن العرب الفاتحين باسم الإسلام للبنان وغير لبنان، والذين امتدت دولتهم العظمى إلى مشارق الأرض ومغاربها، والذين ارتادوا وهضموا

مختلف الآداب والعلوم.. تلك العلوم العربية التي ما زال الغرب نفسه يعترف بفضلها على الحضارة الحديثة إلى الآن.

بل نستطيع أن نؤكد هذا التأثر حين نقارن بين أبيات هذه القصيدة الأولى وبين الأبيات التي تحمل الطابع «البرنامجي» في مسلسلة بوند كانتوس، يقول يوسف الخال:

وفي النهار نهبط المرافئ الأمان

والمراكب..

ويقول بوند:

وبعدئذ يهبط إلى السفينة،

الناشرة الشراع الضاربة في البحر الإلهي.

فيوسف الخال يأخذ عن بوند الأبيات الأولى حتى حرف الوصل (و) الذي لا يوحي ببداية وإنما بقصة مستمرة أو متكررة، ويحور هذه البداية من وجهة الفينيقيين اللبنانيين، وهكذا تنشأ أسطورة (أرض الوطن) التي يرتبط ماضيها التاريخي العريق بالحاضر، وهكذا يصبغ على هذا الوطن هالة المجد، ولكن بيت بوند الأول هو أيضًا تحوير لما يرويه هوميروس في الكتاب الحادي من الأوديسة عن رحلة بطله إلى سكان الأقيانوس (المحيط) عند مدخل العالم السفلي:

حين هبطنا السفينة وضربنا في عرض البحر

أبحرنا بادئ ذي بدء إلى البحر المالح المقدس.

بعد ذلك ببيتين يذكر هوميروس أيضًا الخراف التي قدمت كقربان، فعند هوميروس وبالمثل في الجزء الأول من قصيدة بوند، تستخدم الخراف كقربان من أجل استحضار أرواح الموتى، وعند يوسف الخال تستخدم كقربان إلى آلهة الخصب في بلاد الفينيق.

(فلون المدن الأسطوري) ـ فلنفكر هنا في مدينة أكباتانا التي وصفها هيردوت بجدرانها السبعة، الملونة بلون الكواكب السبعة ـ نصادفها كصورة أسطورية في أشعار(إزرا بوند) (كانتوش) حيث تلعب دورًا رئيسيًّا.

يذكر الشاعر القرابين أو الذبائح المقدمة قبيل الرحيل إلى الآلهة

(عشتروت) و(أدونيس) و(بعل)، وما يكاد يذكر هذه الآلهة القديمة، آلهة الشواطئ الفينيقية، حتى يربطها بنداء (هللويا)، أي يربطها بموحيات مسيحية، وهكذا يوحد بين لبنان الفينيقي ولبنان المسيحي كما يطالب الدعاة المارونيون ـ فالقصيدة تصور لبنان القوي المعاضد للحضارة الذي يرمز إليه (قدموس) أو (أديسيوس) ويفصل فصلاً حادًّا بين لبنان هذا وبين عرب الصحراء الذين يغطون اليوم في عجزهم كما كانوا بالأمس، وأيًّا كان الأمر فالشاعر يطلق عليهم لفظ الرفاق، أي الصحاب، على أن بعض دعاة القومية اللبنانية اليوم ـ وكذلك قبل الحرب اللبنانية الأهلية عامي ٧٥و٧٦(م) ـ لا يتفقون معه في هذه التسمية.

أوديسيوس ـ كما تشير إليه رحلة العودة ـ وقدموس ـ كما يشير إليه ضرس التنين ـ ومدينة دييوكيس (أكباتانا) ـ كما يشير إليه لون المدينة الخرافية ـ هذا جميعه له ما يماثله في أشعار (إزرا بوند) المعنونة كانتوس أي قصائد.

هذه المتشابهات تدعونا إلى القول بتأثر يوسف الخال به، خاصة

وأنه لم يدرس أعماله فحسب وإنما قام بترجمة بعض منها إلى العربية، هؤلاء العرب في نظر (يوسف الخال) مجرد، عرب صحراء (خاملين؟ ناعسين متبرمين عاجزين).. وأن الفينيقيين هم الذين نشروا الحضارة.. إلخ.. إلخ.

وأخيرًا فإن لبنان ليس عربيًّا على الإطلاق في نظر (يوسف الخال).

إن المتعمق في القصيدة.. أو في النقد التفسيري لها، يتضح له إلى أي مدى

بلغ حقد (يوسف الخال) على العروبة والإسلام معا.. ويعود بقرائه إلى القومية اللبنانية التي هي الأصول الفينيقية كما يدعو لها (سعيد عقل) أيضًا.

يا إلهي.. إن الشعر الحر ورموزه وأساطيره.. ليس كل ذلك سوى غلاف شفاف لدعوات فاجرة وحاقدة!! عند كثير من الموتورين أومن العملاء!!

ثم إنني لا تسعني الدهشة من قصيدة (يوسف الخال) هذه، وبخاصة من إمعانها في الغموض أو الرموز.

لمن يتوجه يوسف الخال بمثل هذا الشعر الغامض المبهم إلى الحد الذي لا يجعله مفهومًا؟!

هل هو يتوجه به إلى القراء العرب.. أم إلى أسياده في الغرب؟، وسواء كان هذا أوذاك فهو يغضب العرب، ولا يرضي الغرب كما رأينا!!

* * *

وإنني هنا لا أستطيع أن أكتم شديد ألمي وأسفي أن يكون ليوسف الخال بعض الاتباع من صميم العروبة والإسلام.. ولكم أتمنى أن يقرأوا قصيدته هذه، وشرح (باخمان) لها، والذي اختتمه بقوله:

(من هذا المنظور التاريخي يختزل الشاعر، العصر العربي الإسلامي الوسيط فهو لا يتفق مع هذه الصورة الجميلة المبسطة، فالعرب البدو.. يظلون قابعين خلف الجبال)!!

ألا فافهموا واعلموا - يا قراء يوسف الخال - ما يريده لكم هذا الـ (يوسف) وأمثاله من طغاة الحقد الأسود على كل ما هو عربي أو إسلامي.

* * *

هذا وأمثاله، هو الذي كنت أحاذره في كثير من كتاباتي المتواضعة، وهذا وأمثاله هو الذي حاذره غيري من الكتاب المخلصين.. فقد قلنا مرارًا وتكرارًا:

إن وراء هذا الغموض، وتلك الرموز في الشعر الحر، الشر المستطير.. فذهبت كل التحذيرات كصرخات في واد!!

أما الآن فاقرأوا لهذا الناقد الغربي الذي لا مصلحة له في كشف أضاليل هؤلاء الشعراء.. بل لا شك أن مصلحته في عكس ذلك.. ولكنه فضل الإخلاص للحقيقة الأدبية والتاريخية، وهي حقيقة فضح بها تستر هؤلاء الشعراء خلف الغموض والرموز.. لأنهم لا يستطيعون أن يجهروا بما في نفوسهم، وسط الخضم العربي الإسلامي.

ألا تبا لهم ولأتباعهم مهما كانوا[١]..!!

---

(١) نشر هذا الموضوع على ثلاث حلقات في مجلة المجلة عدد ٢١٧ في ١٤٠٤/٧/١٢هـ وعدد ٢١٨ في ١٤٠٤/٧/١٩هـ وعدد ٢١٩ في ١٤٠٤/٧/٢٦هـ

معركتان أدبيتان

مع العقيلي وطبانه

مقدمــة

قلت في مقدمة كتابي «حصاد الكتب» ما نصه:

«كنت أشعر بكل براءة ـ كما يعلم الله ـ أنه من حقي إبداء رأيي في أي كتاب أقرأه.. أو أي موضوع أدبي يعنّ لي حتى ولو كان هذا الرأي مخالفًا لرأي أحد كبار أساطين الأدب.. حتى ولو كانت عباراتي لا تخلو من حدة.. أو لذعة سخرية أكون قد قصدت المداعبة أو المفاكهة أكثر مما أكون قد قصدت في التجريح.. وماذا عساه يدفعني إلى التجريح حين لا تكون لي في كثير من الأحيان أدنى معرفة بالأديب الذي نقدته؟!.

بل وحتى لو كنت على معرفة وثيقة بالأديب المنقود فإن ذلك ـ كما هو مفروض ـ يجعلني أبعد ما أكون عن قصد تجريحه.. ولا يعقل ـ من جهة أخرى ـ أن تكون بيني وبين المنقود حزازات شخصية تبلغ بي ـ مع كل تلك البراءة ـ إلى حد استخدام النقد الأدبي كسلاح في معركة الحزازات الشخصية!!»

ومن المؤسف حقًّا أن أي نقد لأي أديب من أدبائنا ـ إلا من رحم ربك ـ يعتبر ـ على الفور ـ هجومًا شخصيًّا عليه، وتقليلاً من قيمته، وغضًّا من قدره مهما بلغت درجة ذلك النقد من الموضوعية والإنصاف!!.

ذلك أن أساتذتنا ـ وخاصة الكبار منهم ـ قد تعودوا على التقريظ والمجاملات و«الدحلسة»!!.

تعودوا ذلك إلى حد أنهم لا يتوقعون النقد أصلاً، فإذا جاء أحد عباد الله من أمثالي وأراد استخدام حرية الرأي بأدنى قدر ممكن.. كان ذلك انتهاكًا لقدس أقداس الأديب الكبير!!.

والمؤسف حقًّا ـ تبعًا لذلك ـ أنه ما إن ينشر أي نقد حتى يتحول رأسًا إلى

معركة ساخنة حيث يهب الأديب المنقود لا ليرد على النقدات أو الملاحظات في حد ذاتها.. بل يهب في محاولات جامحة للنَّيْل من الناقد المسكين.. النَّيْل منه بكل الوسائل الأدبية وغير الأدبية مستخدمًا في ذلك كل أنواع الأسلحة المحرمة وغير المحرمة.. بل يصل الأمر إلى استعداء السلطات وما شابه ذلك كما فعل معي «العقيلي» مثلاً!!

وهنا يهب الناقد للدفاع عن نفسه.. قلت للدفاع عن نفسه، وليس عن رأيه فحسب.. ويكون هذا الدفاع قد فُرِض عليه فرضًا لابتعاد المنقود عن موضوع النقد!!

كل ذلك والناس يتفرجون على عراك الديكة؛ فحب الفرجة من الغرائز المتأصلة في طبائع الناس!!

ثم - تبعًا لذلك - تكون الأحاديث في المجالس بين مؤيد لهذا.. أو معارض لذاك.

ولا تفوتني الإشارة هنا إلى أن البعض يظن أن المعارك الأدبية لا خير فيها، ولا فائدة منها، ولا طائل تحتها، وأنها تغرس الحزازات وتربّي الأحقاد، وتهبط بمستوى المفهوم الأدبي.. بل تخرج عن نطاق الروح الأدبية إلخ.. إلخ.

والواقع أنه قد يصح كل ذلك، ولكن أية مساوئ للمعارك الأدبية إنما تعتبر الوجه الثاني لحقيقة الأمور!!

أما الوجه الأساسي الأول فهو أن المعارك الأدبية - مهما بلغ عنفها - تخدم الأدب خدمة جليّ حيث تعمل على تنشيطه، وتفرض على الأدباء أن يحاذروا نشر السفاسف خوفا من أن يقعوا تحت مطرقة النقد.. أو مطرقة المعارك.. سيان!!

وأقرب دليل على ذلك أن الأدب العربي الحديث لم يزدهر أبدا كما ازدهر في عهد شوقي، وطه حسين، والرافعي، والعقاد، والمازني، وشكري، وزكي مبارك. وكنا نعرف أية معارك أدبية ضارية قد نشبت بين هؤلاء بعضهم البعض أو

بينهم وبين غيرهم من الأدباء.

أنتجت تلك المعارك علما وأدبا، وأبرزت أدباء ما كان أن يقدر لهم البروز.

لست أنا الذي يقول ذلك.. بل كان واقع الحال لمجلة الرسالة مثلا هو الذي يقول ذلك حيث كان صاحبها وهو من هو أدبًا وخلقًا وصفاء نفس.. كان يفسح صدرًا رحبًا في مجلته لتلك المعارك الساخنة.. بل كان قد توسط بعض النافذين لدى الأستاذ الزيات لإيقاف نشر حملات زكي مبارك على طه حسين وغير طه حسين فرفض الزيات الوساطة، وقال أن زكي مبارك هو «الملاكم الأدبي لمجلة الرسالة»!!

وكل ذلك من الأمور المعروفة لدى كل متأدب.. وإنما ذكرتها لمجرد إرضاء السياق.. أو هي مجرد استطراد ليس إلا!!

بعد كل ذلك، يصح القول أنه لا شك أن النقد الأدبي إذا لم تصل حرارته إلى درجة معقولة فإنه يصبح مجرد تقريظ أو مجاملة أو «طبطبة»!

ولكن الشرط في النقد الساخن هو أن لا يكون بسبب حزازات شخصية أو دوافع ذاتية لا دخل لها بالأدب.. بل تكون حرارة النقد مجرد غضبة أدبية لوجه الحق وضد الانتهاكات التي يمارسها بعض الأدباء ضد الأمانة الفكرية أو الأدبية أو التاريخية.. وتكون تلك الانتهاكات صارخة.. صارخة بالجهل.. أو بالهوى والغرض!!

حينئذ لا بد أن يكون النقد على درجة من الحرارة تصلح أن تكون رادعًا أو وازعًا لأصحاب التجاوزات والانتهاكات حيث «يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

ولا شك أن دور الناقد ـ في بعض الأحيان على الأقل ـ يشبه إلى حد ما (أكرر: إلى حد ما!!) دور الوازع أو الرادع بالسلطان أي بقوة الحجة، وعنفوان البيان!!

أما ما يقال من أن النقد لا يجوز له أن يصل إلى شخص المنقود.. فتلك كلمة حق، ولكن ما أكثر ما أريد بها من باطل!!

ذلك أنه يجوز ـ في الحقيقة ـ تناول بعض الجوانب الشخصية، وبخاصة تلك

الجوانب التي تنعكس على إنتاج الأديب.. فالأديب أو المفكر أو المؤرخ يصبح ـ بمجرد أن يكون كذلك ـ شخصية عامة.. ومن ثم لا يعود ملك نفسه فحسب.. اللهم إلا أن هناك شعرة رقيقة تفرق بين الأمور الشخصية البحتة، وبين الأمور الشخصية العامة.

الشاعر الأعمى ـ مثلا ـ تعتبر عاهته من خصوصياته.. ولكن كون هذه العاهة الخاصة لا بد أن تؤثر في إنتاجه بشكل أو بآخر، سلبا أو إيجابا.. فها هنا لا يكون على الناقد أي حرج إذا أشار إلى مدى تأثير عاهة الشاعر على إنتاجه، ومثله سائر الأدباء وأرباب الفكر في أي شأن شخصي ينعكس بالضرورة على الإنتاج.

نعرف جميعا أن اللياقة الاجتماعية لا تجيز مجرد التلميح إلى أية عاهة أو نحوها في أي إنسان.. ولكن تلك اللياقة الاجتماعية تسقط في حالة كون صاحب العاهة شخصية أدبية أو فكرية.. تسقط لضرورات الدراسة أو النقد!!

بيد أن هناك مسألة أخرى كثيرا ما نسمعها تتردد على ألسنة الناس في مجالسهم.. تلك هي نقد الناقد لآثار أديب أو مفكر مات حديثًا!!

والواقع أن رسالة النقد هي عكس ما يقوله الناس في هذا الصدد.. أي أن كونه ميتا يكون تناول آثاره لصالحه إذ لن تكون هناك أية دوافع شخصية تميل بالنقد يمنة أو يسرة، وذلك بعكس الأديب الحي حيث ربما يخضع تناول آثاره للدوافع الشخصية السالبة والموجبة.

وأذكر ـ في هذا المجال ـ أنني قرأت منذ مدة نص ندوة نشرتها إحدى الصحف اللبنانية، وأعتقد ـ إن لم تخنني الذاكرة ـ أنها جريدة «الأنوار».

كانت الندوة بين عدد من أساتذة الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان موضعها: «هل تجوز الكتابة عن أديب حي؟!».

وقد ترجح في تلك الندوة أنه لا تجوز كتابة دراسة علمية عن أديب حي لأن

وجوده على قيد الحياة لا بد أن يؤثر سلبًا أو إيجابًا على مجرى الدراسة، وذلك على العكس من الأديب الميت حيث لم يعد في وسعه التأثير الشخصي، وحيث تكون دراسة آثاره ـ عندئذ ـ أقرب إلى الموضوعية، وأبعد ما تكون عن التأثير الشخصي أرأيتم؟!

إن المسألة في تناول آثار الأديب الميت هي على العكس تمامًا مما يعتقده بعضهم، وربما كان مبعث هذا الاعتقاد هو مبدأ (أذكروا محاسن موتاكم).. ولكن هذا المبدأ شيء، والنقد أو الدراسة الأدبية شيء آخر، ولا تعارض أبدا بين هذا المبدأ، وبين تناول آثار الأديب الميت.. ذلك أن النقد الأدبي لا يهدف إلى ذكر مساوئ الموتى أو الأحياء.. بل هو يتناول آثارهم ليس إلا.. اللهم إلا لزمه أن يشير إلى بعض الجوانب الشخصية التي انعكست على آثاره، وليس ذلك مما يتعارض مع ذكر محاسن الموتى.

* * *

أما الآن وقد طالت بنا المقدمة إلى هذا الحد دون أن نشير إلى هذا الكتاب الذي بين أيدينا.. فإنني أريد أن أشير إلى أن استطرادي في هذه المقدمة، كان الهدف منه إيضاح رأيي المتواضع في الجوانب التي تناولتها.

وأما بعد ذلك فإنني أترك القارئ نفسه يخرج بما يعن له من رأي في هذا الكتاب.. ولا أريد أكثر من ذلك.. اللهم إلا أنني أود الإشارة بكل اعتزاز إلى أن المعركة مع الأستاذ العقيلي، وهي المادة الأكثر في هذا الكتاب، قد انتهت إلى اعترافه الصريح ـ بعد مواربة ومداورات ـ بكل ما وجه إليه من نقدات وملاحظات، سواء كان ذلك مني أو من أخي الباحث القدير الأستاذ حجاب الحازمي الذي شارك في المعركة بكل عمق وفعالية وعنفوان.

وكل ما هو مؤسف بالنسبة للأستاذ العقيلي أنه لم يعترف أنه لم يعترف منذ

البداية، ولو فعل لما كانت هذه المعركة التي تشكل مادتهم معظم ما في هذا الكتاب.

أما المعركة مع الدكتور بدوي طبانة، وهي الجزء الثاني من هذا الكتاب فقد قامت لسببين!

أولهما: أنني كنت أتحدث في ندوة الأستاذ الرفاعي عن الزبير بن بكار فقاطعني الدكتور طبانة ليقول لي:

(وهل تعلم أنه مات ودفن بمصر؟) فقلت له:

لا.. لقد مات وهو على قضاء مكة ودفن بها في مقبرة المعلاة بالذات.

قلت له ذلك فأنكر وكابر.. وكان من نتائج المعركة معه أن اعترف بخطئه في النهاية بكل صراحة، وإن كان قد حاول التماس بعض الأعذار لنفسه!!

أما السبب الثاني فهو صاحب كتاب الفهرست.. هل هو «النديم» أو «ابن النديم» وكان من رأي الدكتور طبانة أنه النديم فقط.. وقد أسفرت نتائج المعركة أنه لا فرق بين «النديم» أو «ابن النديم».

وقد تزعم الأستاذ الباحث نسيم الصمادي هذا الجانب من المعركة، وذلك ببحثه القيم جدًا المنشور ضمن هذا الكتاب.

أقصد من كل ذلك أن المعركة مع العقيلي لم تنطلق من فراغ.. والشأن نفسه مع الدكتور طبانة.

اللهم.. وأن الحق أحق أن يتبع.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٥/٦/١٤٠٥هـ

العقيلي.. ومفاهيمه التراثية؟!

الصديق الكبير الأستاذ المؤرخ محمد بن أحمد عيسى العقيلي من أوائل من تلقيت منهم العون والتشجيع والمساعدة على المسار الذي اخترته لنفسي وتعلقت به ـ أقصد الأدب ـ وقد بادرت إلى التنويه بعون وتشجيع الأستاذ العقيلي لشخصي في هذا المسار لأنني بسبيل مناقشته في موضوع مُهِمّ فأردت أن أشير إلى مكانته من نفسي وأنوّه بفضله عَلَيّ. لكأنما أزجر نفسي عن أي تطاول يحدث مني أثناء هذا النقاش.

أما النقاش من حيث هو فلا أظن أن فيه ما يسيء إلى مكانة أي شخص أو يمحو فضله وعلمه وأدبه؛ فالإنسان مهما كان قدره أو نصيبه من العلم عرضة للخطأ والصواب في رأي أو آخر.. فإذا أخطأ العقيلي أو غيره في رأي ما فإنما يدلل على الطبيعة البشرية المعرضة للخطأ دائمًا.. وأن من حفظ شيئًا لا بد أن تغيب عنه أشياء!!

ولقد اطلعت على المقابلة الصحفية التي أجراها الزميل الصديق الأستاذ علوي طه الصافي مع الأستاذ العقيلي في مجلة اليمامة العدد ٢٥٣ في ١٥ ربيع الثاني ٩٣هـ، وعجبت كثيرًا من جواب للأستاذ العقيلي على سؤال الصديق الصافي حول طريقته ـ أي العقيلي ـ في تحقيق التراث ودراسته.

كان السؤال هكذا:

«انتقد الشيخ حمد الجاسر طريقتك أو منهجك في تحقيق ودراسة التراث لقيامك بحذف أشياء منه لأنها لا تتناسب ومجتمعنا الحاضر وجيلنا المعاصر، ورأيه أن التراث يجب أن يبقى كما هو لأن عملية الحذف والاختيار

تجعله مبتورًا وناقصًا ولا يعطي الصورة الصحيحة للبيئة والمجتمع، فما هو رأيك في هذا القول»؟

انتهى السؤال.. وقد أجاب عليه العقيلي هكذا:

«التراث ينبغي أن يقدم بطريقة الالتزام بما يناسب روح الدين والأخلاق الفاضلة.. وما يتفق مع مبادئ نهضتنا الأصلاّحية الدينية.. وأن نقدمه للأجيال مصفى؛ لأن التراث ـ وبالأخص الأدب ـ هو عنصر من عناصر البناء، وهو يسهم في النهضة الصحيحة.. وما كان يستساغ في عصر سابق لا يستساغ في عصر آخر، فنحن أمام طريقين: الأول: أن نقدمه كما هو.. وهذا ما تقضيه الأمانة العلمية مع ما في ذلك من عصبيات وعنصرية وتفاوت طبقي (...) وخنوع.

الثاني: أن نأتي بالتراث ونختار منه ما يتفق وروح الدين وعنصر الأخلاق الفاضلة.. وما يوائم روح العصر.. وندع كتب التراث للخاصة والمختصين الدارسين.

أما إذا تركنا كل ذلك فلن يستفيد أحد.. ولهذا ذكرت في مقدمتي ديواني (ابن هتيمل) و(الجراح بن شاجر) التبليغات ـ أظنها التبريرات ـ التي دعت إلى انتخاب الأصلح وما يتفق ونهضتنا الأصلاَحية الصادقة، وهذا مافعلناه والله من وراء القصد».

انتهى جواب العقيلي، وهذا هو رأيه في تحقيق التراث ونشره، وهو رأي معروف عنه منذ أن حقق ونشر ديواني (ابن هتيمل) و(الجراح) فما أشار إليه هو ما فعله بالنسبة لهذين الديوانين وبالنسبة أيضًا لتاريخه (المخلاف السليماني).

ولكن كنت أظنه قد عدل عن هذا الرأي الخاطئ من أساسه خاصة بعد أن انتقده الكثير من الأدباء وفي طليعتهم الشيخ حمد الجاسر، وهو من هو خبرة ومعرفة بالتراث وكيفية تحقيقه ونشره.

ولذلك دهشت أن يعود العقيلي فيؤكد رأيه هذا، ومع أن الصديق علوي قد كفاني وكفى القراء مؤونة دحض هذا الرأي الخاطئ في المقابلة نفسها إلا أنني أجد نفسي ملزمًا بالمساهمة في ذلك لأنني أعرف أن لدى العقيلي الكثير من المخطوطات الأدبية والتاريخية النادرة عن منطقة الجنوب، وهو بسبيل تحقيقها ونشرها، وأخشى أن تلاقي على يدي مفهومه هذا نفس المصير الذي لقيه (ابن هتيمل) و(الجراح).. فإصرار الأستاذ العقيلي على هذا الرأي يبدو أنه لن يتزحزح.. ومن العجب أنه يقول في نفس المقابلة «التاريخ مرآة الماضي، وسجل الأحقاب وواعظ الإنسان بحوادثه وعبره»؛ فكيف نريد من المرآة أن تعكس شيئًا نقوم به نحن أو يقوم العقيلي بوضعه بالشكل الذي يريد أن يراه أو يرينا إياه لا بالشكل الذي هو عليه أصلاً.. أي أن العقيلي يريد أن يقوم بالحذف والغربلة والصقل ويقدم لنا التراث (مصفى) أو بما يتفق مع مبادئ نهضتنا الأصلاحية - وهذا تعبيره - ثم يرينا هو في المرآة المصقولة لامعًا كما يريد!!

التراث يجب أن نراه كما هو بغبار القرون التي مضت عليه لا في عمر الزهور، ولو فعل كل واحد بالتراث ما فعله العقيلي لما كان لنا قط كل هذا التراث الضخم الذي بين أيدينا بخيره وشره، أي كما هو، لا كما نريد نحن أو يريد العقيلي أن يكون.. وإلا فكيف يجوز حذف كل تراث «لا يناسب روح الدين والأخلاق الفاضلة» أو لا «يتفق مع مبادئ نهضتنا الأصلاحية الدينية» إنه لا يفترض في التراث أن يتفق مع أي مبادئ حاضرة.. وإنما تصح بعد ذلك المقارنة بين (نهضتنا الأصلاحية الدينية الحاضرة) وبين المبادئ التي يصورها لنا التراث.. وذلك هو المطلوب تمامًا.. وإلا فما قيمة التاريخ أو التراث إن لم يكن كما يقول العقيلي نفسه: «مرآة الماضي وسجل الأحقاب»؟

أفنأتي لسجل الأحقاب فنأخذ منه ما نشاء ثم نقول هذا هو ما عكسته مرآة الماضي.. بينما قد حذفنا جوانب من الصورة.. أليس في ذلك كل الافتئات على (الأمانة العامة)؟

ويقول الأستاذ العقيلي: «نأتي بالتراث ونختار منه ما يتفق وروح الدين وعنصر الأخلاق الفاضلة وما يوائم روح العصر.. وندع كتب التراث للخاصة والمختصين الدارسين».

وأنا أتساءل.. أليس العقيلي بتصديه لتحقيق المخطوطات التراثية ونشرها قد اعتبر نفسه من الدارسين المختصين؟

وإذن لماذا لم يفعل ما يفعله الدارس المختص؟!

أما مسألة أن التراث ينبغي أن يوائم روح العصر فهي مسألة مضحكة، إذ لا سبيل أبدًا إلى أن يتواءم الماضي مع الحاضر بالضرورة، ففي ذلك تكليف للأشياء ضد طباعها.

وبعد هناك قاعدة تقول: إن الخطأ مائة في المائة لا يناقش.. ومع ذلك فقد تخطيت هذا القاعدة بكل بساطة.!!

البلاد: ١٣٩٣/٥/٥هـ

حول كتاب
تاريخ المخلاف السليماني

لا شك أن تاريخ منطقة تهامة أو (المخلاف السليماني) أو (الجنوب العربي) بصفة عامة لم يلق العناية الكافية من المؤرخين وخاصة في بعض عصوره التي تكاد تكون مطموسة تاريخيًا.. أو هو - أي هذا الجزء العزيز من وطننا الغالي قد لقي بالفعل تلك العناية من المؤرخين. ولكن لم يشأ الحظ العاثر أن تبرز مؤلفاتهم إلى النور فبقيت على شكل مخطوطات منها ما هو في الحفظ والصون لدى بعض الأشخاص أو الهيئات ممن يعرفون قيمتها فيحافظون عليها، ومنها - أي تلك المخطوطات - ما كان حقلاً مفتوحًا للسلب والنهب وتخاطف الأيدي من الشرق والغرب.. وهواة المخطوطات.. ومنها ما لعله قد تعرض للضياع والشتات والتمزق.

ولكن رغم كل ذلك.. هناك الكثير جدًا من المخطوطات التي لا تزال محفوظة بالفعل.. ولكن ضن أهلها بها من جهة، وعدم عناية الباحثين والمؤرخين العرب بالبحث عنها من جهة أخرى، جعلها رهينة الأرفف والصناديق فضاعت بذلك - أو كادت - ثروة هائلة من المراجع المخطوطة عن تاريخ هذه المنطقة في مختلف العصور.

ومن هنا لا يكاد الباحث إلا أن يجد ما يمكن أن يفيده مما هو متداول أو مطبوع عن تاريخ هذه المنطقة.. اللهم إلا بعض النتف من الأخبار المبثوثة في خضم المراجع القديمة المطبوعة والمتداولة.. وهي نتف من الأخبار تحتاج في

جمعها وترتيبها إلى مجهود شاق.. ثم لا يطلع الباحث منها بتاريخ مترابط الصلة متسلسل الحلقات.

وهكذا ظل تاريخ هذه المنطقة وتاريخ الكثير مما جاورها من المناطق حلقة شبه مفقودة في التاريخ العربي العام.. وأقول: شبه مفقودة.. وأنا أقصد بذلك الكتب أو المراجع المطبوعة المتداولة.. ولكنها ليست مفقودة بالنسبة لآلاف المخطوطات التي ما زالت محفوظة عند رجالات القبائل وعلمائها.. ودعك من تلك المخطوطات المفقودة.. أو تلك التي تناهبتها أيدي سبأ!!

ولم تجد هذه المخطوطات من العناية بها ما وجدته غيرها في البلدان العربية الأخرى، حيث تم تحقيق وطبع ونشر الكثير منها.

أما في هذا الجزء من وطننا العربي، فمخطوطاته حبيسة الأدراج. قد هانت على أهلها.. أو لم يستطع أهلها الإفادة منها لسبب أو لآخر ليس هنا مجال تفصيله!!

وكان الأستاذ محمد بن أحمد عيسى العقيلي من أوائل المعاصرين الذين اهتموا بالاستفادة من هذه المخطوطات فجمع منها ما استطاع جمعه فيما يختص بتاريخ المنطقة.. فذلك حيث يقول في مقدمة الطبعة الأولى لكتابه الذي نحن بصدده: «توفرت لديّ مخطوطات تاريخية نادرة الوجود.. فاقتنصت فُرصًا من أوقاتي شغلتها بما أرجو أن يكون ذا فائدة في تأليف هذا التاريخ» ص٣٩.

وحسنا فعل الأستاذ العقيلي، وكان في ذلك رائدا بحق وحقيق.. ولكن ما كان أحراه وهو على هذا القدر من الغيرة على تاريخ وطنه.. وعلى هذا القدر من الوعي لقيمة هذه المخطوطات.. بل ندرة وجودها ـ على حد تعبيره ـ ما كان أحراه أن يعمل على إبراز هذه المخطوطات إلى النور بتحقيقها وطبعها ونشرها، وهو القادر على ذلك ـ بفضل الله ـ ماديًا وأدبيا.

وكان وما زال يمكنه ـ لو لم يكن قادرا على ذلك لأي سبب من الأسباب ـ أن

يقدم هذه المخطوطات لجامعاتنا أو مراكزنا العلمية، لتقوم بتحقيقها ونشرها[1] ذلك لأن الاحتفاظ بمثل هذه المخطوطات في مكتبة جامعية مثلاً يختلف عن الاحتفاظ بها لدى فرد من الأفراد.. حيث يتيح وجودها في مكتبة جامعية فرصة طيبة لكل باحث للاستفادة منها وذلك ـ كله وبعضه ـ هو الذي يخدم تاريخ المنطقة حقًّا وصدقا!!

أما احتفاظه بها، واحتكاره لمعلوماتها.. وعدم إتاحة الاستفادة منها للباحثين فلم يزد العقيلي بذلك عن كونه مثل أحد شيوخ قبائل اليمن الذين يحتفظون بأكداس من هذه المخطوطات.. ثم لا يتيحون أبدا فرصة الاطّلاع عليها.. وكأنها من أنواع الطلاسم التي تفقد قيمتها بمجرد فتحها!!

إن وجود مثل هذه المخطوطات النادرة الوجود عند الأستاذ العقيلي، أمانة في عنقه.. ولا شك أنه يقدر مدى ثقل هذه الأمانة!! وخاصة أن هذه المخطوطات تشكل قوام تاريخ منطقة بأكملها، عزيزة غالية!!

---

(١) قام بعد تحقيق كتاب نفح العود ونشرته (دارة الملك عبدالعزيز) كما كان قد قام بالتحقيق ونشر دواوين... ولكن التحقيق كان موضوع نقد كبير؛ لأن العقيلي يحمل مفهوما لتحقيق التراث ليس من مفهوم التحقيق الصحيح في شيء (انظر الموضوع السابق في هذا الكتاب) وفضلاً عن ذلك فهو ما زال يحتفظ بكثير من المخطوطات في خزائنه!!

الطبعة الأولى من الكتاب

كانت قد صدرت الطبعة الأولى من كتاب الأستاذ العقيلي عن مطابع الرياض عام ١٣٧٨هـ وكانت الطبعة الأولى بعنوان (المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ).. وكانت تسمية فضفاضة جدًّا حيث قوبلت بالكثير من النقد.. بدأه الشيخ حمد الجاسر في مقدمته لتلك الطبعة نفسها حيث قال:

«وما كنا نريد للأستاذ - يقصد العقيلي - التوسع في الموضوع توسعًا يجعل من الصعب على الباحث أن يعتبر هذا الكتاب شاملاً لتاريخ (الجنوب العربي) الذي يقصد به جنوب جزيرة العرب بأسره، بينما لا يجد الباحث فيه شيئًا من تاريخ جل هذا القسم من بلادنا كعدن وحضرموت وعمان» مقدمة الطبعة الأولى ص (ى - ك)، فكان أن عدل الأستاذ العقيلي - تجاه نقد الناقدين - عن هذه التسمية الفضفاضة.. واختار للطبعة الثانية التي بين أيدينا الآن منها الجزء الأول عنوان «تاريخ المخلاف السليماني» ورحم الله امرءًا عرف قدر نفسه.. ولكن؟ ولكن حتى هذه التسمية الأخيرة فيها نظر أيضًا.. فالحقيقة أن الكتاب لا يعتبر تاريخا للمخلاف السليماني فقط.. بل هو في الكثير جدًّا من صفحاته عبارة عن سرد تاريخي لأخبار دول وحكومات يمنية في عصور مختلفة يذكر من أخبارها حتى كيفية (طبخ الحلوى)!!

ويبرر الأستاذ العقيلي ذلك في مقدمة كتابه بقوله:

«كنت قصدت بتأليفي هذا أن أدون ما وصل إليه علمي من تاريخ المخلاف السليماني، ولكنني اضطررت لارتباط كثير من أخبار دول وحكومات نشأت في البلاد المجاورة له إلى الاستطراد بسرد أخبار تلك الدول والحكومات.. إلخ» ص٤٠المقدمة.

والواقع أن المسألة لم تكن مسألة استطراد فحسب.. ذلك لأن العقيلي قد أفرد فصولا كثيرة بأكملها لأخبار الدول والحكومات المجاورة على مر العصور دون أن يشير إلى العلاقة بين هذه الأخبار.. أو بين تلك الدول والحكومات وبين تاريخ المخلاف السليماني.. وإلا فما هي العلاقة بين مملكة (قتبان) أو دولة (سبأ) أو غيرهما وبين المخلاف السليماني؟!.

بل ما هي العلاقة بين التوسع في الحديث عن المذهب الزيدي ودعاته وأئمته وبين المخلاف السليماني؟!

أو ما هي العلاقة بين التوسع في الحديث عن المذهب الزيدي ودعاته وأئمته وبين المخلاف السليماني؟!

ربما تكون هناك بعض العلاقة الطفيفة جدًّا، وغير مهمة تاريخيا بين ذلك السرد المطول لأخبار الدول والحكومات المجاورة وبين تاريخ المخلاف السليماني.. ولكن الأستاذ العقيلي لا يشير بعد سرد أخبار كل دولة أو حكومة إلى مدى علاقتها بتاريخ المخلاف السليماني.. وكان أول من انتقده في ذلك الشيخ حمد الجاسر في مقدمته للكتاب نفسه حيث يقول:

«كنا نريد أن يكون القسمان الأولان في الجزء الأول من الكتاب أو فى وأكمل مما هما عليه، وأن يوجز تاريخ الحكومات التي حكمت اليمن - فالمؤلفات التي عنيت بتدوين تاريخ هذا القطر العزيز من بلادنا كثيرة متداولة - بخلاف كل ما يتعلق بتاريخ المخلاف السليماني الذي ألف من أجله هذا الكتاب» مقدمة الطبعة الأولى ص (ى).

وهكذا فإن معظم الفصول كانت - في الحقيقة - مجرد سرد أو حشو لا لزوم له!!

وكان العقيلي قد برر ذلك بالتسمية القديمة للكتاب «المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ»، ومعنى ذلك أن الكتاب لا بد أن يشمل أخبار دول وحكومات اليمن.

أما الآن وفي الطبعة الثانية للكتاب، وقد أسقط الأستاذ العقيلي تسمية (الجنوب العربي في التاريخ) لعدم دقتها أو ضرورتها.. فما هي يا ترى ضرورة الاستمرار في سرد أخبار تلك الدول والحكومات المجاورة.. وما هو مبرره في ذلك ما دام أسقط التسمية في الطبعة الثانية.. وما دام لا يشير إلى العلاقة بين تاريخ المخلاف السليماني وبين أخبار تلك الدول والحكومات؟

كان المفروض أن يحذف الأستاذ العقيلي من الطبعة الثانية جميع أخبار تلك الدول والحكومات المجاورة.. أو يقتصر على ما هو متعلق منها بموضوع أو تسمية الكتاب في طبعته الثانية.. ولكنه بدلاً من ذلك ظل في توسعه في سرد أخبار كثيرة جدًا لا علاقة لها بموضوعه.. أو هو لا يشير إلى تلك العلاقة - إن كانت موجودة - على أقل تقدير!! بل إنه يتذكر مثل ذلك في أحيان قليلة جدًا.. ويغفله في مطلق الأحيان!!

ثم إن التسمية الجديدة «تاريخ المخلاف السليماني» كان ينبغي أن يضاف إليها مثلاً: (أو مقاطعة جازان).. ذلك لأن تسمية «المخلاف السليماني» تسمية قديمة لم تعد معروفة الا لدى خاصة الخاصة على أنها تعني مقاطعة جازان حاليا.. فكان أحرى وأدق أن تذكر التسمية القديمة وتذكر معها التسمية الحديثة.

والدليل على أهمية ذلك أن للأستاذ العقيلي نفسه كتاب آخر بعنوان (مقاطعة جازان في العهد السعودي) ولم يقل: «تاريخ المخلاف السليماني في العهد السعودي»!!

منهج التأليف

ذكرنا أن هذا الكتاب قد صدر في طبعة أولى - من جزئين - عن مطابع الرياض عام ١٣٧٨هـ. وهاهو يصدر الجزء الأول منه في طبعته الثانية من

ضمن منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.. ولم يذكر تاريخ هذه الطبعة الثانية.. ولكن المقدمة مؤرخة عام (١٤٠٢هـ).

أما منهج التأليف في الطبعتين فإن الأستاذ المؤلف لا يذكر شيئًا مهما عن منهجه غير قوله في المقدمة:

(وأن يكتب التاريخ لا بلهجة علمية جافة.. تجعله بعيد الاستساغة.. بل يمزجه بقطرات من حلاوة الأدب، ورونق الخيال (هكذا) في حدود تقترب جدًّا من الإنصاف)!!

ثم يقول في المقدمة أيضًا:

«وليكن موائما بين منهج التاريخ الواقعي، ومهيع الطريقة الأدبية»!!!

ولكن المؤلف لا ينير بصيرتنا عن «منهج التاريخ الواقعي» في نظره.. ومن ثم يدلنا على شيء من منهجه في تأليف الكتاب.

وفي هذا المجال بالذات لا بد لنا من إيضاح عدة أمور فيما يلي:

أولا: أن الأستاذ العقيلي قد أعلن أكثر من مرة رأيه في تحقيق ودراسة التراث والاستفادة منه، وهو رأي يخالف على طول الخط المنهج العلمي الصحيح.. وقد انتقده في هذا الرأي غير واحد.. وفي مقدمتهم الشيخ حمد الجاسر، وهو لا شك حجة في هذا المجال.

وأذكر أنني شخصيا كتبت موضوعًا مطولا حول رأي العقيلي في كيفية تحقيق ودراسة التراث.. وكان ذلك الموضوع بعنوان: (العقيلي.. ومفاهيمه التراثية)[1].. وقد نشر بجريدة البلاد بتاريخ ١٣٩٣/٥/٥هـ وقد فندت آراء العقيلي التراثية بتفصيل واضح وكاف.

---

(١)هو الموضوع المنشور في أول هذا الكتاب بالعنوان ذاته.

وأذكر أيضًا أن الصديق علوي طه الصافي كان قد أجرى مقابلة صحفية مع العقيلي حول مفاهيمه التراثية، نشرت بمجلة اليمامه بالعدد ٢٥٣ تاريخ ١٥/٤/١٣٩٣هـ.

وكان من ضمن تلك المقابلة هذا السؤال بالنص:

(انتقد الشيخ حمد الجاسر طريقتك أو منهجك في تحقيق ودراسة التراث لقيامك بحذف أشياء لأنها لا تتناسب ومجتمعنا الحاضر، وجيلنا المعاصر، ورأيه أن التراث يجب أن يبقى كما هو لأن عملية الحذف والاختيار تجعله مبتورا وناقصا ولا يعطي الصورة الصحيحة للبيئة والمجتمع.. فما هو رأيك؟)[1].

وكان جواب العقيلي كما يلي بالنص:

(التراث ينبغي أن يقدم بطريقة الالتزام بما يناسب روح الدين والأخلاق الفاضلة.. وما يتفق مع مبادئ نهضتنا الدينية.. وأن نقدمه للأجيال مصفى (...) وما كان يستساغ سابقا في عصر لا يستساغ في عصر آخر فنحن أمام طريقين:

الأول: ان نقدمه كما هو.. وهذا ما تقتضيه (الأمانة العلمية مع ما في ذلك من عصبيات وعنصرية وتفاوت طبقي (...) وخنوع.

الثاني: أن نأتي بالتراث ونختار منه ما يتفق وروح الدين وعنصر الأخلاق الفاضلة.. وما يوائم روح العصر.. إلخ)[2]

ولقد ذكرت هذا النص بطوله لأنه يمثل في الحقيقة خلاصة رأي العقيلي في كيفية تحقيق التراث ودراسته والاستفادة منه.. وأنه يجب أن يقدم مصفى حتى ولو خالف ما تقتضيه الأمانة العلمية التي أشار إليها الأستاذ العقيلي.

ومن هنا يمكننا أن ندرك كيفية ومدى استفادته من المخطوطات النادرة

---

(١) مجلة اليمامة عدد ٢٥٣ تاريخ ١٥ ربيع الثاني ١٣٩٣هـ.

(٢) المرجع السابق، ويلاحظ أن تكرار إيراد هذه النصوص كان بسبب التفاوت بين تاريخ الموضوع السابق وبين تاريخ هذا الموضوع.

الوجود والمتوفرة لديه في تأليف كتابه هذا أو غيره من كتبه.. وهي كيفية أو طريقة في منهج البحث لا تطمئن القارئ العادي فضلاً عن الباحثين المختصين.

وتلك مجرد فكرة عن منهج الأستاذ العقيلي في الاستفادة من التراث المخطوط أو المطبوع.. والتي اتبعها في تأليف كتابه.

ثانيا: أما منهجه في تأليف الكتاب من حيث الترتيب والتبويب فهو لا يتبع في الحقيقة أي منهج معروف من المناهج القديمة أو الحديثة.. ولذلك لم يستطع هو نفسه أن يوضح لنا مقدمة الكتاب في القاعدة التي سار عليها في تأليف.

وقد أشرنا في صدر هذا المقال إلى مدى الخلط الذي أحدثه الأستاذ العقيلي بين تاريخ المخلاف السليماني وبين أخبار دول وحكومات البلاد المجاورة دون الإشارة - إشارة كافية - إلى مدى العلاقة بين هذا وذاك.

ويكفينا هنا أن ننقل رأي الشيخ حمد الجاسر في مقدمة الكتاب نفسه حول هذا الموضوع:

(على أننا لا نعفي الأستاذ المؤلف من تبعة النقص في مواضع كان في إمكانه تداركه فيها، من حيث الترتيب والتبويب، والإيجاز، في مواضع تستدعي الإسهاب، والإسهاب في مواضع لا تستحق ذلك).

وهذا الرأي الموجز جدًا يعطينا - رغم إيجازه فكرة واضحة عن طريقة المؤلف في الترتيب والتبويب وتناول الموضوعات.

ولا شك أن الإسهاب في المواضع التي تستدعي الإيجاز.. أو العكس.. إنما دعا إليها مفهوم العقيلي نفسه حول تقديم التراث (مصفى) فيحذف الكثير متى شاء فيكون الإيجاز، ويبقي على الكثير متى شاء فيكون الإسهاب بصرف النظر عن المنهج العلمي أو الأمانة العلمية!!

مصادر ومراجع الكتاب

وهذه الناحية على جانب كبير جدًّا من الأهمية، وخاصة في مجال التاريخ، وخاصة أيضًا في مجال تاريخ منطقة لا يكاد يعرف عنها ما يكفي.. وفي هذا المجال بالذات، مجال مصادر ومراجع العقيلي في كتابه لا بد لنا من ذكر بعض الملاحظات فيما يلي: أولا: بعد صدور الطبعة الأولى من الكتاب كثر اللغط والهمس والجهر على مستوى النشر في الصحف والمجلات، وعلى مستوى مجالس الأدباء، وخاصة في منطقة جازان حول كون الأستاذ العقيلي قد سطا سطوًا فادحًا على مخطوط ضخم عن تاريخ المنطقة ـ موضوع الكتاب ـ للشيخ المرحوم عبدالله العمودي الذي عاصر حكم الأدارسة والأشراف والعهد السعودي الأول في المنطقة، وكذلك صدرا من العهد السعودي الحديث، وقيل إن الشيخ عبدالله العمودي كان قد أعار الأستاذ العقيلي كتابه المخطوط الذي سجل فيه الأحداث التي عايشها بنفسه عن كثب.. وأن الأستاذ العقيلي قد سطا على ذلك المؤلف المخطوط ونقل معظم ما جاء فيه من أحداث المنطقة ونسبها إلى نفسه ولم يشر إلى الشيخ العمودي من قريب أو بعيد.

ولكن الأستاذ العقيلي نفى ذلك نفيًا قاطعًا.. وإن كان قد اعترف بأنه استعار الكتاب فعلاً واطلع عليه!!

وبالرغم من نفي العقيلي لما كثر من لغط وقيل وقال حول هذا الموضوع.. إلا أنني أجد من الضرورة الإشارة إلى ذلك ما دمت بصدد الحديث عن مراجع ومصادر العقيلي.

ثانيا: يصرح الأستاذ العقيلي ـ كما سبق أن أشرنا ـ بأنه توجد لديه مجموعة نادرة الوجود من المخطوطات عن تاريخ المنطقة.. وأنه قد استفاد منها في

تأليف هذا الكتاب.. ولكنه - مع كل الأسف - لا يشير إلى النصوص التي استقاها من تلك المخطوطات ولا يضعها بين أقواس ولا يشير إلى رقم الصفحة أو الورقة أو اسم الكتاب ومؤلفه.. ولا يشير - أن أشار في النادر جدًا - إلا بطريقة مبهمة وغامضة.. أو غير كافية لتحقيق المنهج العلمي الصحيح في الإشارة إلى المراجع والمصادر.

ثالثًا: أوحى لنا العقيلي أنه قد اعتمد في تأليف كتابه على المخطوطات المذكورة.. ولكننا نجده يقول في الصفحة ٦٧ من الطبعة الثانية ما نصه:

(لم نعثر على تاريخ مستقل لتهامة في الثلاثة القرون الأولى للإسلام نرجع إليها في استقراء أحداثها ودراسة أحوالها السياسية والاجتماعية والعمرانية).

ورغم إشارته الواضحة هذه نجده يورد في كتابه طائفة كبيرة من الأخبار والحوادث التاريخية والأحوال السياسية والاجتماعية والعمرانية ليس بالنسبة للقرون الثلاثة الأولى فحسب.. بل بالنسبة لما قبل الإسلام.

ومعنى ذلك بوضوح أن الأستاذ العقيلي قد اعتمد في مؤلفه على مراجع أخرى غير المخطوطات الموجودة لديه، ولا شك أنه رجع فيما رجع إليه إلى مصادر ومصادر أخرى غير المخطوطات الموجودة لديه، ولا شك أنه رجع فيما رجع إليه إلى مصادر مطبوعة متداولة أو مخطوطة - سيان - ولكننا نجده يورد تلك الطائفة الكبيرة من النصوص أو مما استقاه من تلك النصوص دون أن يشير إلى مرجع كل نص.. أو مراجع لتلك المعلومات العديدة التي أوردها في كتابه.. سواء معلومات وتواريخ ما قبل الإسلام.. أو معلومات وتواريخ عن القرون الثلاثة الأولى في صدر الإسلام.. ونجده يتوسع كثيرًا في ذلك خاصة فيما يتعلق بدول وحكومات اليمن لأن المراجع عنها متوفرة وميسورة.. ولا

يعفيه من ذلك إيراد قائمة بالمراجع التي استفاد منها!!

أما بالنسبة للمخلاف السليماني أو مقاطعة جازان حاليًا، وهي موضوع الكتاب أصلاً فإننا لا نجد التوسع والتفصيل الا في الحقبة التاريخية الحديثة.. أي منذ أيام حكم الأدارسة أو الاشراف أو العهد السعودي الأول.. وكذلك بعض الجوانب من العهد التركي.

وسبب هذا التفصيل والتوسع في هذا الجانب - أي الجانب الحديث من تاريخ المنطقة - هو وفرة المعلومات لدى الأستاذ العقيلي من المخطوطات الموجودة لديه.. أو مما استعاره واطلع عليه.. ولكنه حتى في هذا الجانب أيضًا لا يشير إلى مصادره بغير قوله في المقدمة: (توفرت لديّ مخطوطات نادرة الوجود فاقتنصت فرصًا من أوقاتي شغلتها بما أرجو أن يكون ذا فائدة في تأليف هذا التاريخ).

ولكن هذه الإشارة وحدها لا تكفي منهجيًّا حيث لا بد من الإشارة إلى مصادر النصوص والمعلومات في كل موطن تذكر فيه من الكتاب.. كما هي أبسط قواعد المنهج العلمي الحديث.

ومما يدلنا على ضن الأستاذ العقيلي بمصادره المخطوطة النادرة الوجود.. ليس كونه لا يشير إليها متى وجبت الإشارة.. بل كونه أيضًا لم يبرز منها إلى النور ما يتعلق بالجانب التاريخي رغم أنه قد أبرز بعض ما يتعلق منها بجانب الأدب والشعر مثل ديوان (ابن هتيمل) وغيره.. فما عدا مما بدا.. وعلى ماذا يدل هذا متى دل على شيء؟!

رابعا: رغم كل ما ذكرناه وما لم نذكره مما من شأنه أن لا يجعل للكتاب أية قيمة علمية أو تاريخية يمكن أن تذكر.. ولكنه - أي الكتاب وبرغم كل ذلك - قد حقق بالفعل قيمة لا يستهان بها.. وذلك لسبب بسيط جدًّا هو أنه لا يوجد بين

أيدي القراء أي تاريخ مستقل عن هذا الجزء العزيز فجاء هذا الكتاب على طريقة المثل الشائع في منطقة جيزان (الأعور في بلاد العمي فاكهة)!!

ملاحظات عامة

ولنا بعد ملاحظات عابرة.. أهمها عدم وجود فهرس للأعلام سواء في الطبعة الأولى من الكتاب أو في الجزء الأول من الطبعة الثانية ولعل المؤلف يتدارك ذلك في الجزء الثاني من الطبعة الثانية حيث لا يمكن أن يخفى على مثل العقيلي مدى أهمية مثل هذا الفهـرس.. وخاصة بالنسـبـة للباحثين.. وهو الذي ـ لا شك ـ قد عانى الكثير من المراجـع التي لا توجد بها مثل هذا الفهـرس ونحوه من الفهارس التي تعين الباحث في الحـصـول على بغيته في سهولة ويسر.

وأما الملاحظة الثانية والأخيرة فهي أن الأستاذ المؤلف قد اقتطع من الجزء الأول.. ومن صدره بالذات ٢٦ صفحة بالتمام والكمال خصصها لما أسماه (كلمات التقريظ والثناء التي وردت للمؤلف).. وهو يقصد رسائل المجاملات التي وردته بعد نشر الطبعة الأولى للكتاب.

ومن الطبيعي جدًّا أن تكون رسائل المجاملات هذه حافلة بالثناء والتقريظ إلى حد المبالغة.. بل الإمعان في المبالغة ـ كما جرت العادة!!

ومثل هذا الأسلوب في نشر رسائل الثناء والتقريظ كان متبعا، وربما مقبولاً قبل أكثر من نصف قرن.

أما الآن فهو غير مقـبـول ولا يستسيغه القـراء.. ولم يعد يلجأ إلى مثل هذا الأسلـوب الممجـوج أي مؤلف معاصـر يحـتـرم نفسـه وقـدره.. ويعـرف أن نشـر رسـائل الثناء والتقريظ لا تزيد من قدره.. بل تغض منه.. وكنت ـ علم الله ـ أربأ بالأستاذ العقيلي عن ذلك.. بل كنت أتوقع منه أن ينشر في هذه الطبعة الثانية كل ما يمكن نشره من النقد الذي وجه إليه عند صدور الطبعة الأولى.

كما كنت أتوقع منه أيضًا أن ينشر في هذه الطبعة رده هو نفسه عن اللغط الذي دار حول موضــوع كتاب الشيخ عبدالله العــمودي الذي أشرنا إليه في هذا الموضــوع.. فقد كان ذلك ونحوه أحــرى وأجدر من رســائل الثناء والتقريظ والمجاملات!!

عكاظ ٩/٧/١٤٠٢هـ

حرب الرسائل

اطلعت على ما نشره الأستاذ محمد العقيلي لهذه الجريدة في عدد الجمعة ١٤٠٢/٧/٢٨هـ بعنوان (رد على مقال العمير)

وكان أغرب ما فيه أنه لم يكن ردًّا على الملاحظات العديدة التي أبديتها في مقالي عن كتابه (تاريخ المخلاف السليماني) وإنما كان نشرًا لرسائل موجهة مني إليه منذ حوالي ربع قرن.. ويريدها أن تكون ردًا على مقال كتبته هذه الايام.. وذلك لأنه في الحقيقة لا يستطيع أن يدحض ملاحظة واحدة من تلك الملاحظات.. وما زال عندي الكثير جدًّا من تلك الملاحظات التي لم يتسع لها مقالي.. وما تزال عندي كتبه التي لم أتعرض لها بعد.. والتي سأضعها قريبًا تحت مجهر النقد!!

وإن رسائلي التي نشر العقيلي بعضها ووعد بنشر الباقي، هي جميعًا رسائل تقريظ ومجاملات.. ولكن فات العقيلي أن تلك الرسائل كانت من (علي العمير) الفتى الغر اليافع الذي لم يكن قد اطّلع على شيء من خبايا العقيلي وغيره.. وليست من (علي العمير) الكهل المطّلع!!

ورغم ذلك فإنني لا أجد ـ ولا يمكن أن يجد القراء ـ في تلك الرسائل ما يريده العقيلي منها!!

أما أنا فعندي مجموعة كبيرة من رسائل العقيلي ـ غير ما فقدته منها ـ وما دام قد أراد هو نفسه حرب الرسائل هذه فإن نشري لرسائله لن يسره بحال من الأحوال.. بل ستكشف ما كان مغطى، وتفضح ما كان مستورًا ويؤسفني حقًّا أنني سأضطر لنشرها رغم أنني لم أكن لأبيح لنفسي مثل ذلك.. ولكنها

(المعاملة بالمثل)!! وحينئذ لن يكون العقيلي في وضع يحسد عليه.. وسيفهم تمام معنى المثل القائل:(على نفسها جنت براقش)!![1]

وإنني بانتظار انتهائه من نشر ما يريد نشره ليكون ردي - بعون الله - بالأسلوب نفسه، وبالطريقة نفسها.. ولن أجد من يلومني ولا العقيلي نفسه!

إن العقيلي بنشره لرسائلي القديمة.. يريد أن يقف بي عند ربع قرن مضى - حيث يقف هو - ناسيًا تمامًا قول الشاعر:(ماذا وقوفك والفتيان قد ساروا)؟! وعلى كل حال فإن كلمتي هذه ليست ردًّا.. كما أن مقالي السابق لم يكن حملة أو شتمًا للعقيلي كما ذكر وفهم هو.. بل كان نقدًا موضوعيًّا تمامًا، وهو الشيء الذي لا يطيقه العقيلي!!

وماذا عساه يحملني على شتم العقيلي وليس بيني وبينه ما يوجب ذلك؟.. بل يشهد أخي الأستاذ هاشم عبده هاشم أن مقالي عن كتاب العقيلي إنما كان بطلب من أخي هاشم[2] تقديرًا منه ومني أيضًا للأستاذ العقيلي.. وأنا لا أكن غير الاحترام والتقدير للأستاذ الكريم.

ولكن منذ متى كان هذا الاحترام أو التقدير يمنع من إبداء وجهة النظر في مسائل أدبية أو غير أدبية؟

إن مشكلة العقيلي هي هوسه الشديد بالتقريظ والثناء إلى حد أنه يفرد الصفحات العديدة في كتبه لنشر رسائل التقريظ والثناء التي ترده حتى ولو كانت من مجرد (صبيان)، ولا يفهم النقد الأدبي أبدًا الا أنه شتيمة.. وتلك هي المشكلة.. فإلى اللقاء إذن في (حرب الرسائل) التي أرادها الأستاذ العقيلي!![3]

عكاظ ١٤٠٢/٧/٣٠هـ

---

(١) توقف العقيلي عن نشر رسائلي فسكت من جانبي ولم أنفذ وعدي!!

(٢) بصفته رئيس تحرير عكاظ التي نشر فيها الموضوع.

(٣) أشرت سابقًا إلى أنني لم أنفذ هذا الوعيد لتوقف العقيلي نفسه عن هذا الأسلوب!

حـــرب العيـــال؟!

قرأت ما كتبه الزميل والرصيف الكبير الأستاذ محمد العقيلي ونشره باسم (ولده) بهذه الجريدة بتاريخ ١٤٠٢/٧/٦هـ تحت عنوان: (العقيلي.. والعمير وتاريخ المخلاف السليماني) ورغم أن معرفتي الأكيدة بالأخ العقيلي.. تجعلني على يقين بأنه سيفعل كل ما في وسعه للنَّيْل مني بمختلف الطرق الملتوية.. إلا أنني لم أتوقع - وهذه حقيقة - أن يخرج كل هذا الخروج البعيد عن الموضوع الأساسي الذي كان يجب أن يكون هو محور النقاش.. وليس غيره.. ولكن العقيلي بدأ باللجوء قبل كل شيء إلى نشر رسائل مني؛ تاريخها يعود إلى ربع قرن مضى وليس فيها بالطبع أي رد - إطلاقًا - على ملاحظاتي العديدة في مقالي عن كتاب (تاريخ المخلاف السليماني) ووعد بنشر المزيد من الرسائل.. فعلمت أنه أراد الخروج عن الموضوع - كعادته - لتمييع الحقائق الأساسية الواردة في مقالي السابق لكي يوهم القراء أن نقدي له لم يكن إلا مسألة شخصية.. ثم يعتمد على مضي الزمن لكي ينسى القراء ما أوردته من ملاحظات ونقدات لكتابه.. فكان أن خرج عن الموضوع - تحقيقًا لهذه الغاية - بنشر رسائلي، وهو الخروج الذي أسميته في الكلمة السابقة (حرب الرسائل).. وقلت إن العقيلي المسكين قد نسي أن عندي أيضًا مجموعة كبيرة من رسائله، ولن يسره نشرها بأي حال من الأحوال.. لأن أدنى ما فيها هو الاستجداء الفاضح بما كان يطلبه مني من نشر الثناء عليه والتنويه عنه إبان عملي في الصحافة، ولم أُلبِّ رغبته بالطبع، وقد وعدت القراء بنشر هذه الرسائل بمجرد أن ينتهي العقيلي من نشر ما يريد.

ولكن بعد أن اطلع العقيلي على كلمتي تلك بعنوان (حرب الرسائل) أدرك أنه

الخاسر فيها حتمًا.. ولم يجد من يعينه أو يصد عنه نقدات (علي العمير) فلجأ إلى أغرب أسلوب يمكن أن يخطر على بال بشر.. وهو أن يكتب ما شاء من ردود باسم (ولده)، وليس باسمه هو حتى لا يتحمل المسؤولية!!

ولكن فاته في هذه المرة أيضًا - أن عندي من الأبناء والبنات أكثر مما عنده، وهم وهن في مراحل دراسية مختلفة أدناها الابتدائية.. وأعلاها السُنّة النهائية بالجامعة (قسم التاريخ) بالذات وهكذا يتضح أن أولادي بكثرتهم وبتعليمهم أيضًا أقدر في (حرب العيال هذه) من (ولد) العقيلي، وهكذا أيضًا سيكون هو الخاسر في مسألة (حرب العيال).. وقد كان الأحرى والأجدر بالعقيلي أن يتحلى بأخلاق الأدباء فيوسع من صدره لما أبديته من نقدات وملاحظات.. ثم يكتب ردًّا مباشرًا يصحح فيه ما لعلي قد وقعت فيه من وهم أو خطأ حيث الكمال لله - سبحانه وتعالى - وحده.. وليس له أو لي، كان ذلك هو الأحرى به، وخاصة وأنه يعتبر نفسه أستاذًا لي.. وأنا أعتبره كذلك بالفعل، أأولقد كنت - والله - أربأ بالعقيلي أن يضع نفسه حيث لا يجوز لمثله أن يوضع.. ولكنه خلقه وطبعه.. ثم مصيبته في حب التقريظ والثناء حتى ليكتب ذلك بنفسه ويوقعه باسم (ولده).. ولم يكتف بما نشره أو استجداه مني ومن غيري ولكني أنا لن أرد على مقال باسم (ولد) العقيلي.. بل سأترك أحد أبنائي يتولى هذه المسألة بحكم كونه أكثر خبرة مني بحرب العيال[1].. فإلى اللقاء!!

أما أنا فلا أملك في هذه الحالة غير أن أتمثل بقول الشاعر - دون فخر بالطبع - وهو:

هـل يضـير البحر أمسـى زاخـرًا

إن رمـى فيـه غـلام بحجـر !!

عكاظ ٩/٨/١٤٠٢هـ

(١) لم أنفذ الوعيد أيضًا لأن العقيلي توقف عن الكتابة باسم ولده.

جالينوس والعقيلي

ذكّرني أستاذنا الكريم محمد بن أحمد العقيلي بما يريده مني أو يحاول أن يوهمني وغيري بأن (كل) ما في كتابه (تاريخ المخلاف السليماني) قضية مسلّمة غير قابلة للجدل.. ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

ذكّرني ذلك بقصة لطيفة رواها لي أحد الأصدقاء الأطباء.. قال ما خلاصته:

كانت لجالينوس - وهو أبو الطب - نظريات ومؤلفات في التشريح.. فكان من تلامذته إذا قاموا بتشريح جثة ووجدوا بعض أجزائها أو عروقها مخالفة لنظريات ومؤلفات (جالينوس).. وقفوا أمام الجثة.. وقالوا: (صدق جالينوس وكذبت الجثة)، وقد استمر هذا الوضع والتصديق الأعمى لنظريات (جالينوس) في التشريح رغم وجود ما يخالفها في الجثث وتكون مختلفة بالفعل عما وصفه (جالينوس) ورغم ذلك كانوا يقولون باستمرار (صدق جالينوس وكذبت القصة)، واستمر هذا الوضع لمدة خمسمائة عام تقريبًا.. وبعد هذه الخمسمائة عام فقط وجد من يقول: (أخطأ جالينوس وصدقت الجثة).

ولم يَرْوِ لي الصدق الطبيب من هو ذلك البطل الذي بلغ من التحرر الفكري والجرأة العلمية أن يكون هو أول من قال: (صدقت الجثة وأخطأ جالينوس).

وبعد ذلك اعترف الناس بأن التركيب العضوي يختلف في كثير من تفاصيله بين جثة وأخرى.. وهكذا تحرر الطب من (وثنية) جالينوس.

والأستاذ العقيلي يريد مني ومن غيري من قراء كتابه (تاريخ المخلاف السليماني) تصديقه المطلق لمدة خمسمائة عام على الأقل.. فإذا وجدنا أي خطأ أو بدت لنا أية ملاحظة ليس لنا إلا أن نقول: (صدق العقيلي.. وكذب الواقع).

وفات العقيلي أن عصر (جالينوس) كان عصر وثنية في كل شيء تقريبًا.. الفكر، والعلم، والطب إلخ إلخ.

أما الآن فنحن في أواخر القرن العشرين.. حيث لم تعد الأصنام أية قيمة لدى البشر.. وحيث لم تعد الوثنية سائدة.. بل بائدة.

والواقع أن نقدي لكتاب (تاريخ المخلاف السليماني) ثم موقف العقيلي من هذا النقد.. ثم ما تبع ذلك من ردود معروفة.

كل ذلك يذكّرنا في الحقيقة بحكاية (جالينوس) وتلامذته، لقد كانت الجثة أمامي (كتاب العقيلي) فشرّحتها ووجدت فيها الكثير مما يختلف مع نظريات البحث أو منهج التاريخ.. ولكن مصيبتي أني لم أقل ـ كما يريد العقيلي ـ (صدق العقيلي وكذب الواقع أمامي).

يا لها من حكاية؟!

عكاظ ١٧/٨/١٤٠٢هـ

حول تاريخ المخلاف السليماني

** لقد أسعدني حقًّا أن يخضع أخيرًا أخي الأستاذ محمد العقيلي لحقِّ النقد الأدبي وأعرافه على أصوله.. وذلك رغم كل ما فعله من محاولات التنصل والإفلات مما يفرضه عليه الحق الأدبي.. وكانت محاولاته بطرق شتى (سأشرحها فيما بعد) والمهم أنه عاد وخضع للمنطق.. وهو ما كان حريًّا به منذ البداية.. ولكن الحق أحق أن يتبع وإن طال المدى، وإن الرد الذي نشره أخي محمد العقيلي في عدد الجمعة الماضي هو الرد الذي كان ينبغي أن يرد به منذ البداية.. ولكن لكل أديب هفوة.. ولكل عاقل كبوة.

وليأذن لي القارئ الكريم أن أعود به إلى القصة من بدايتها.. وإن كان ذلك لا بد من أن يطيل هذا الموضوع.. ولكنه من الضرورة بمكان لإحقاق الحق من جهة.. ولتمكين القراء الذين لم يتابعوا الموضوع أن يعرفوه على حقيقته.. وهو الأمر الذي أحرص عليه كثيرًا.

** بدأت الحكاية مع العقيلي من جانبي بكل براءة وطيبة، ودون أي ترتيب مسبق.. وكل ما هنالك هو أنني كنت في زيارة لأخي الأستاذ هاشم عبده هاشم.. وكان الحديث كالعادة عن الأدب والكتب والصحافة.. وإذا به - بكل براءة أيضًا - يناولني كتاب العقيلي (تاريخ المخلاف السليماني) في طبعته الجديدة للجزء الأول منه، ويطلب مني الكتابة عنه باعتباري أحد كتاب (عكاظ) الثابتين، وباعتباري أيضًا صاحب اهتمام بالنقد.. وسبق لي تناول عدد من الكتب التاريخية والأدبية بالعرض والتحليل والنقد[1].. وباعتباري

(١) مادة كتابي (حصاد الكتب) هي حصيلة عرضي وتحليلي ونقدي لبعض الكتب ومنها كتاب العقيلي.

أيضًا وأيضًا أحد أصدقاء العقيلي منذ حوالي ربع قرن - كما أثبت ذلك العقيلي نفسه - وكوني أيضًا أحد أبناء منطقة جازان.. أي من أهلها الذين لا يمكن أن تخلو معارفهم بشعابهم، ولقد أدركت من الطريقة التي طلب بها أخي الأستاذ هاشم عبده هاشم.. أنه يريد إعطاء الكتاب ما يستحق من تسليط الأضواء عليه.. وهو ما فعلته تمامًا حيث بلغ اهتمامي بالكتاب أن كتبت عنه صفحة كاملة.. وأن طلبت بنفسي نشر صورة الكتاب على عمودين، ونشر صورة العقيلي أيضًا.. بل وبلغ اهتمامي بكل ذلك أن وضعت (الماكيت) بنفسي رغم وجود من يجيد الإخراج في عكاظ افضل مني.. ورغم أنني لم أكن أفعل ذلك مطلقا في سائر مقالاتي في عكاظ.

ولم أكن أشك قط - بعد كل هذا - أن العقيلي سيفرح بمقالي ذاك.. وبما فيه من نقدات وملاحظات تدل - أقل ما تدل عليه - على حرصي الشديد أن يبلغ الكتاب أقصى حد من الكمال.

** وبعد هذا بدأت المفاجآت.. لم يفهم العقيلي أو لم يشأ أن يفهم - لست أدري لماذا - أن نقداتي وملاحظاتي حول الكتاب إنما هي الحرص مني على أن يبلغ الكتاب أقصى درجة ممكنة من الكمال.

وبدلاً من ذلك فهم العقيلي - أو شاء أن يفهم - أن نقداتي أو ملاحظاتي إنما هي محأولة للنَّيْل منه ومن كتابه رغم أن هذا الفهم لم يكن معقولاً بأي مقياس.. فلم يكن بيني وبين العقيلي - بأي حال من الأحوال - ما يجعلني أحاول النَّيل منه.. بل العكس من ذلك تمامًا.. كان - وما يزال ان شاء الله - كل ما بيني وبين العقيلي إنما يوجب احترامي وتقديري له، وهو - لا شك عندي - يبادلني الاحترام والتقدير والمحبة ولكن، والأستاذ العقيلي خير من يعلم جيدا أن العلاقات الشخصية - مهما بلغت من التسامي - لا يمكن أن تكون ذات دخل بالنقد الأدبي والتاريخي..

بمعنى أن العلاقات الشخصية لا يكمن، بل يجب أن لا تقف حائلا دون أن يؤدي النقد الأدبي حقه من الصراحة والوضوح.. وإلا أصبح هذا النقد الأدبي مجرد تقارظ ثناء بين الناقد والمنقود.. أي مجرد (طبطبة)!!

ومع كل أسف كان العقيلي يريد بالفعل هذه (الطبطبة) كما سأثبت ذلك فيما بعد، وهو أمر لم يكن في حسباني ولن يكون!

إن (الطبطبة) لها مكانها بين الأصدقاء بطبيعة الحال.. ولكن ليس في مجال النقد الأدبي المنشور بين الناس.

(الطبطبة) مكانها الرسائل الشخصية.. أو تبادل عبارات المجاملة في جلسات أو اجتماعات خاصة.. أو في أي مجال إلا في مجال نقد ينشر على الناس، ويحسب على كاتبه!

كان هذا مفهومي.. ولكنه مفهوم لم يصادف هوى العقيلي.. فلم يقدر ما فيه من إيثار الصراحة والحق على الصداقة والمجاملات.. ومن ثم لم يقدر مدى الخدمة الكبيرة التي أديتها لكتابه بمقالي ذاك.

لم يقدر أنه (لا يرجم إلا مثمر الشجر) أو (كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه) كما يقول الشعراء، لم يقدر أنه صدرت الكثير جدًا من الكتب خلال هذا العام، فلم يحظ منها أي كتاب بصفحة كاملة في عكاظ!!

كل ما كان يهمه هو أن تكون تلك الصفحة.. أو ذلك المقال من بين زمرة رسائل التقريظ والثناء.. وفاته أن النقد الصريح لا يقل أهمية عن الثناء العاطر المستطاب!!

** لم يكن من العقيلي - بوحي من فهمه الخاطئ من أساسه - إلا أن فاجأني، وفاجأ عكاظ وقراءها بمقال طويل عريض بعنوان (رد على مقالة العمير) ولكنه في الحقيقة كان ردًا بالعنوان فقط.. أما الكلام المنشور تحت هذا العنوان

فهو رسائل مني كتبتها للعقيلي منذ حوالي ربع قرن.. أي منذ كنت فتى يافعًا غِرًا.. ولم يكن في تلك الرسائل التي نشرها العقيلي غير الثناء مني على أدبه والإشادة به.. وقال العقيلي إن في تلك الرسائل كل الرد.. أي أن الثناء الموجود في تلك الرسائل القديمة يعتبر في رأي العقيلي الرد المناسب دون أن يأخذ في حسبانه فارق الزمن - وهو ربع قرن - ودون أن يأخذ في حسبانه أيضًا أنني لا أتنكر لتلك الرسائل - رغم طول عمرها - بل كانت مصدر اعتزازي عند نشرها حيث ذكرتني بأيام الصبا.. وهي ذكّريات لا يجهل العقيلي طعم حلاوتها!!

ولكنه - أي العقيلي - لم يقصد إهدائي الذكريات بنشر تلك الرسائل.. بل ظن أنه يمعن في الإساءة إلي والتشفّي مني بنشرها.. رغم أنني ما زلت إلى الآن أُكِنُّ للعقيلي ما ربما لم تستطع تلك الرسائل الساذجة أن تعبر عنه!!

وحين أدركت أنه لم يقصد من نشر تلك الرسائل غير الإساءة إلي.. كُنتُ لحسن الحظ أحتفظ بمجموعة كبيرة من رسائله.. وفيها ما يعلم هو تمامًا أنه لن يكون بوسعه أن يسر أو يسعد لو قمت بنشر بعضها.. فكتبت كلمة أسميتها (حرب الرسائل) وعدت فيها القراء أن أنشر بعض رسائل العقيلي كحق من أبسط حقوقي في الرد، ثم ذكرت العقيلي ومعه القراء بأنه لم يرد على مقالي الأساسي وما تضمنه من نقدات وملاحظات وأنه لم يفعل غير الخروج عن الموضوع، وهكذا حصرت العقيلي في زاوية لم يجد مفر منها غير التوقفف عن نشر رسائلي التي وعد القراء بنشرها!!

** ثم بعد ذلك لجأ العقيلي إلى أغرب ما يمكن أن يخطر على البال.. لقد نشر باسم ولده مقالاً في عكاظ كله ثناء وإشادة بالسيد الوالد إلى حد أنه اعتبره يحمل (دكتوراه)!! (ليس أكثر)!! والواقع أن العقيلي لا يحمل أية شهادة، ولا يعيبه ذلك!!

وللمرة الثانية لم أجد غير الدهشة من أساليب العقيلي.. فهو بدلاً من أن يرد

ردًّا مباشرًا على ما تضمنه مقالي عن كتابه ويوضح الحقائق التي ربما خفيت علَي.. بدلاً من ذلك أجده يلجأ إلى أساليب في الرد ليس لها ما يبررها.. تارة ينشر رسائلي فيخفق هدفه.. فيلجأ تارة أخرى إلى إقحام اسم ولده في الثناء على نفسه.. وفي محاولة لإسكاتي!!

ولكنني - تجاه دهشتي الشديدة من هذه الأساليب المختلفة - لم أسكت.. بل كتبت كلمة بعنوان (وحرب عيال أيضا) أفهمت فيها العقيلي ومعه القراء أنني لن أنجرّ إلى حرب العيال هذه.. وأنه إذا كان العقيلي يريدها فعندي من الأبناء أكثر مما عند العقيلي.. وأن أحدهم يكفي لهذه المهمة.. ولكنني في الحقيقة لم أسمح لأحد أبنائي بشيء من ذلك!!

** أدرك العقيلي أخيرًا أنه لا مناص له من الخضوع لحق النقد الأدبي.. وأن يرد ردًّا مباشرًا على نقداتي وملاحظاتي.. فكان مقاله الأخير المنشور في عدد الجمعة الماضي من هذه الجريدة.

ولكن هل كان رد العقيلي.. هو الرد الذي يليق بمكانته كما يراها بنفسه؟؟ إذا كان ذلك كذلك فما أشد ما أفلس.. وما أشد ما تنكب جادّة الصواب.. وهذا ما سنوضحه في النقاط التالية.. وبفقرات مرقمة لتسهيل الوضوح!!

١ - كانت مقدمة رد العقيلي الأخير تمثل تناقضًا شديدًا مع المقدمة (ردًّا على مقال العمير) وهو مقاله الأول.

قال في مقدمة الرد الأخير ما نصه:

(تعقيبا على ما نشره الأخ علي العمير فإنني أسارع بالإشارة - هكذا يسارع وهو لم يسارع في الواقع[1] - إلى أن كتاب المخلاف السليماني لو كان من الكتب العادية لما أثار الحسد وأورى الغيرة) إلخ!

(١) انظر تسلسل تواريخ هذه المقالات في نهاية كل مقال.

وقال في المقدمة الأولى التي نشرت قبل ثلاثة أسابيع أو أربعة من مقاله الأخير ما نصه:

(والأخ الصديق الأستاذ علي العمير مُواطن كريم وصديق حميم منذ ما ينوف على ٢٣ سنة) إلخ.

وقال أيضًا ما نصه:

(فأنا أعتبره وأنزله منزل الزميل والرصيف في القلم ولولا أن يظن بي ما يستراب منه من صمتي وتركي للكتابة عن الموضوع لآثرت الصمت والإغضاء فإنه للصحبة والمواطنة والصداقة حقوقا ومن أقلها الاحتمال والتجاوز ومقابلة السيئة بالحسنة.. وإنما سأتناول الموضوع في هدوء واتزان بعيد (هكذا) عن التشنج والمهاترة وقريبًا من الموضوعية) إلخ

ويلاحظ القارئ الكريم أن من ضمن الفارق بين المقدمتين هو أن (علي العمير) - في المقدمة الأخيرة لم يعد ذلك (الصديق الأستاذ المواطن الكريم والصديق الحميم.. ولم يعد ذلك الزميل.. ولا حتى الرصيف(!!)

لم يعد شيئًا أبدا مما كانه في المقدمة الأولى.. وهذه واحدة!!

وأما الثانية من المفارقات فهي أن العقيلي قال في مقدمته الأولى إنه سيتناول الموضوع في هدوء واتزان بعيدًا عن التشنج والمهاترة.. ولكنه في مقاله الأخير يبلغ به التشنج وتبلغ به المهاترة إلى حد استعدائه الصريح للجهات الرسمية ضدي وكان أقل ذلك ما ذكره صراحة في مقاله بأنه أعطى صورة منه لوزارة الإعلام (لاتخاذ اللازم)!!

بل ويبلغ أكثر من ذلك حين حاول الإيقاع بي بصورة لا يتوقعها الإنسان من ألد أعدائه.. وذلك بما أشار إليه عن ملاحظاته مع (ناصر قاسم).. يريد إقحامي في مسألة معروفة وينسى - في سبيل هدفه - أنه هو نفسه قد أثبت موقفي

الصريح من هذا الموضوع في رسالتي التي نشرها هو نفسه في مقاله الأول بتاريخ ٢٨ رجب ١٤٠٢هـ (أريد حياته ويريد موتي).

وهذا موقف مؤسف حقًّا يندى له جبين الأدب.. ثم جبين الصداقة والزمالة والمواطنة وكل القيم والأخلاق!!

ولكن حمدًا لله أن براءتي مما يريد إيقاعي فيه قد جاءت على يديه دون أن يشعر بنشره لرسالتي تلك.

وأنا في الواقع لم أذكر (ناصر قاسم) من قريب أو بعيد!!

ولكن هيهات أن يضرني العقيلي بمثل هذا الدس، فالجهات الرسمية لا تأخذ الناس بالباطل - بحمد الله - ووزارة الإعلام - من جهة أخرى - ليست سيفا مصلتا على رقاب الكتّاب.. بل هي على العكس من ذلك تحتضن الكتّاب وتكرمهم وترعاهم.. وليست كما يظن العقيلي عندما استعداها على شخصي وعلى عكاظ أيضًا!

ويعلم الله أن حسن ظني بالعقيلي لم يكن يجعلني أتصوره في مثل هذه المنزلة التي أنزل نفسه فيها.. ولا أملك غير الأسف الشديد لحسن ظني بل لبلاهتي!!

ألا فليعلم العقيلي - وهو يعلم - أنني أكثر رجولة وشهامة مما يظن.. ولن أحاربه بمثل هذه الأساليب.

أما هو فليهنأ بما ارتضاه لنفسه!!

٢ - هل كان في الرد الأخير للعقيلي أو في جميع ردوده ما يعتبره ردًّا كافيا على ما تضمنه مقالي؟.. اللهم. لا.. اللهم لا!!

ولكنه في رده الأخير كان أكثر مما كان في جميع ردوده قربًا من الموضوع حيث اعترف صراحة بوجاهة بعض ملاحظاتي ونقداتي.. وحاول أن يبرر بعضها.. ثم سكت عن الباقي!! معتمدا على نسيان القارئ.. ولكنني سأذكّر القراء إذا نسوا.

وهـا أنذا أتتبع رده وأقارنه بما ذكرته في الأساس متجاوزا مديحه لنفسه بنفسه.

يقول العقيلي إنه رغم وجود الكثير من المخطوطات في مكتبات سماها وذكرها إلا أن أخيك - يقصد نفسه (هو الوحيد الذي استفاد من المخطوطات لديه فكانت من أهم مصادر كتابه المخلاف السليماني).

وأنا قلت في مقالي عن هذا الموضوع بالذات ما نصه:

(وحسنًا فعل الأستاذ العقيلي - أي باستفادته من المخطوطات لديه - وكان في ذلك رائدًا بحق وحقيق)

فهل كان العقيلي يريد ثناء أكثر من هذا؟

ولكنني ذكرت بعد ذلك ما هو أهم من الثناء.. وهو كيفية استفادة العقيلي من تلك المخطوطات، ومفهومه الخاطئ لكيفية الاستفادة واستشهدت برأي الشيخ حمد الجاسر في هذا الموضوع.

ولكن كل ذلك وغيره أغفله العقيلي في رده لأنه لا يستطيع الإجابة عنه بحق أو باطل!!

٣ - يقول العقيلي ما نصه:

(أما ملاحظاتك - يقصدني - أن اسم الكتاب كان في الطبعة الأولى (المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ) وأنه لاحظ على تلك التسمية شيخنا الجاسر، فالشيخ يطلب الشمول والكمال، وأنا لا أدعي لنفسي شيئا من ذلك، وقد سبقني إلى التسمية شيخنا الجاسر، فالشيخ يطلب الشمول والكمال، وأنا لا أدعى لنفسي شيئا من ذلك، وقد سبقني إلى التسمية الثنائية صاحب كتاب تاريخ عدن الأستاذ حمزة لقمان فكتب عنوان كتابه (تاريخ عدن أو الجزيرة العربية) إلخ.

وفي هذا النص من العقيلي كل التهرب من الإجابة على ملاحظاتي كما هي. فأنا لم أنتقد التسمية الثنائية من حيث هي.. بل ذكرت في نقدي أن العقيلي قد

حذف في الطبعة الثانية الجزء الثاني من تسمية كتابه وهو (أو الجنوب العربي في التاريخ).. وقلت إنه حذف التسمية.. ولكنه لم يحذف الموضوعات المتعلقة بها.. وأن نقد التسمية الثنائية لم يكن مني وإنما كان من الشيخ حمد الجاسر، وقد نقلت نص رأيه وأشرت إلى الصفحة الموجود فيها النص المذكور.

كما أن الشيخ الجاسر لم ينتقد التسمية من حيث هي أيضًا.. بل من حيث كونها تتعلق بموضوعات لا لزوم لها في كتاب المخلاف السليماني، لأن تلك الموضوعات تتعلق بسرد طويل لتاريخ دول مجاورة يستطيع القارئ أن يجد تاريخها في الكتب المطبوعة المتداولة فضلاً عن المخطوطات.

فانظروا إلى الفارق الكبير بين ما نصصت عليه وبين شطح العقيلي.

والأغرب من ذلك أنني طالبت بالتسمية الثنائية واقترحت أن يكون اسم الكتاب (تاريخ المخلاف السليماني أو منطقة جيزان) وبررت اقتراحي هذا بأن التسمية (المخلاف السليماني) تسمية قديمة لمنطقة جيزان والمفروض أن تذكر التسمية الحديثة بجانب التسمية القديمة.. أو تذكر التسمية الحديثة وحدها كما فعل العقيلي نفسه في كتبه الأخرى..

ولكن العقيلي لم يتعرض في رده لشيء من ذلك على الإطلاق.. بل أوهم القارئ أنني كنت أعترض على التسمية الثنائية.. وأنه لم يخطئ حيث سبقه آخرون إلى مثل هذه التسمية إلخ.

فانظروا.. هل هذا هو الرد؟!

٤ - يقول العقيلي: (وعن قولك - يقصدني - أن الكتاب - أي تاريخ المخلاف السليماني - يشتمل على تاريخ اليمن ودول تهامة فأي مؤرخ يؤرخ لقطر لا مندوحة له ولا خيار من أن يلم بتاريخ البلاد المجاورة له من الشمال والجنوب والشرق والغرب) إلخ.

وأنا لم أقل ذلك إطلاقًا.. ولم أمانع أن يلم العقيلي بتاريخ الدول المجاورة.. بل استكثرت منه ذلك السرد الطويل لتواريخ دول مجاورة إلى حد أنه يذكر حتى طريقة صنع الحلوى في بلاط دولة يمنية!!

وقلت إن العقيلي، رغم هذا السرد الطويل لتواريخ الدول المجاورة لا يقول لنا شيئًا عن علاقة ذلك كله بتاريخ المخلاف السليماني.. واستشهدت بنقد الشيخ الجاسر للموضوع واستكثاره ما استكثرته من السرد الطويل الممل لتواريخ الدول المجاورة.. وكان الأحرى أن يكون هذا السرد في (مجال تاريخ المخلاف السليماني) الذي عزّت الكتب المؤلفة عنه.. أما الدول المجاورة فتاريخها متداول معروف كما قال الشيخ الجاسر، وكما قلت أنا أيضًا!!

ولكن العقيلي لا يريد أن يجيب عن صميم هذا الموضوع.. وذلك كل ما في الأمر!!

٥ ـ كان مما أشرت إليه بكل لباقة ولياقة هو عدم استصوابي لما قام به العقيلي من اقتطاع ٢٦ صفحة من صدر الكتاب لرسائل التقريظ والثناء التي وردته.. ولم أستحسن ذلك.

ولكن العقيلي في رده يرى غير رأيي، يرى أن من حقه نشر الثناء عليه إلخ.

وأنا لن أختلف معه في هذه المسألة، ولكنه استشهد لدعم رأيه بأن الشيخ عبدالقدوس الأنصاري فعل ذلك في بعض كتبه.. وأنا أستشهد ـ إذا كان لا بد من ذلك ـ بالشيخ حمد الجاسر فإنه لم يفعل شيئًا من ذلك في جميع كتبه.. ولا شك أن رسائل التقريظ والثناء عند الشيخ حمد الجاسر أكثر بكثير جدًّا مما هي عند العقيلي.

وفضلاً عن ذلك.. لا يهمني أن يصر العقيلي على رأيه هذا فحب الثناء طبيعة الإنسان كما يقول الشاعر!!

ولكنني ـ بملاحظاتي تلك ـ أردت لصديقي العقيلي أن يزجر نفسه عن هواها..

وأن يتسامى عن سفاسف الأمور.. وكانت نصيحة صديق لصديقه أكثر منها نقدًا أدبيًّا.. فما دام العقيلي لا يريد تلك النصيحة فهو أدرى بمصلحته.. وليضع نفسه حيث شاء!!

٦ ـ نقطة مهمة وأساسية، وهي عدم ذكر العقيلي لمراجعه كما توجب الأمانة العلمية ومناهج البحث التاريخي..

وقد اعتذر العقيلي عن ذلك بما نصه:

(أما قائمة المصادر فقد بعثت بها مع مسودات الكتاب للطبعة الثانية هي مع صور لبعض قادتنا كالأمير فهد ولي العهد المعظم والنائب الأول لرئيس مجلس الوزراء، وصاحب السمو الملكي رئيس الحرس الوطني والنائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وصورة للشيخ حمد الشويعر وغيرها فقدت ما بين إدارة المطبوعات والمطابع)!!

وهذا هو نص اعتذار العقيلي كما ورد في رده، وخلاصته أن قائمة المصادر فقدت ما بين إدارة المطبوعات وإدارة المطابع.

وهذا اعتراف صريح بوجاهة ملاحظاتي ودقتها!!

ولكن هل يكفي اعتذار العقيلي بفقد قائمة المصادر؟

إنه يعتذر بذلك، وهو يريد أن يسدل الستار على ناحية أخرى مهمة من ملاحظتي عن المصادر.. فإذا كانت القائمة قد فقدت ـ كما يقول العقيلي ـ فهل فقدت هوامش الصفحات حيث لا نجد تلك الهوامش التي من المفروض أن تشير إلى مصادر النصوص كل نص على حدة ـ كما يفعل العقيلي نفسه عندما يشير في هوامش بعض كتبه إلى بعض كتبه الأخرى!!

لماذا يعترف العقيلي بجانب من الحقيقة ثم يعتذر عنه بفقد قائمة المصادر.. ولا يعترف بالجانب الآخر للحقيقة ـ بل يغفله ـ وهو عدم وجود الهوامش في الكتاب، وقد كانت تغني ـ لو وجدت ـ عن قائمة المصادر المفقودة؟!

اللهم إن العقيلي.. لا يريد الاعتراف بالحق؟!!

٧ ـ هناك ملاحظاتي البسيطة عن عدم وجود فهارس للأعلام كما يعرف العقيلي مدى أهميتها، وخاصة بالنسبة لهذا النوع من الكتب.

وقد اعترف العقيلي بوجاهة هذه الملاحظة البسيطة، ولكنه اعتذر بضيق الوقت حيث لم يستطع عملها لهذا السبب!!

وهو عذر لا نملك غير قبوله.. ولكن قبولنا له لا ينفي نقص الكتاب، فلعله تدارك ذلك في الجزء الثاني.

أما هنا فيكفينا اعترافه بصواب الملاحظة.. ولكنه يعترف بالأشياء البسيطة ويهمل أو يغفل الجوانب المهمة جدًّا..!!

٨ ـ من المسائل المهمة التي أثرتها هو ما أشرت إليه بهذا النص:

(بعد صدور الطبعة الأولى من الكتاب، كثر اللغط والهمس. والجهر على مستوى النشر في الصحف والمجلات، وعلى مستوى مجالس الأدباء وخاصة في منطقة جيزان حول كون الأستاذ العقيلي قد سطا سطوا فادحا على مخطوط ضخم عن تاريخ المنطقة ـ موضوع الكتاب ـ للشيخ المرحوم عبدالله العمودي الذي عاصر حكم الأدارسة والأشراف والعهد السعودي الأول في المنطقة وكذلك صدرا من العهد السعودي الحديث.. وقيل إن الشيخ عبدالله العمودي كان قد أعار الأستاذ العقيلي كتابه المخطوط الذي سجل فيه الأحداث التي عايشها بنفسه عن كثب.. وأن الأستاذ العقيلي قد سطا على ذلك المؤلف المخطوط ونقل معظم ما جاء فيه عن احداث المنطقة ونسبها إلى نفسه ولم يشر إلى الشيخ العمودي من قريب أو بعيد.. ولكن الأستاذ العقيلي نفا ذلك نفيا قاطعا.. وإن كان قد اعترف بأنه استعار الكتاب فعلاً واطّلع عليه.

وبالرغم من نفي العقيلي لما كثر من لغط وقيل وقال حول هذا الموضوع..

إلا أنني أجد من الضرورة الإشارة إلى ذلك ما دمت بصدد الحديث عن مراجع ومصادر العقيلي).

هذا ما ذكرته بالحرف الواحد.. ويتضح منه جليًا أنني لم أتهم العقيلي بشيء.. ولم أكن في موقف النفي أو الإثبات لما قيل وأثير من لغط حول هذه المسألة.. وأنني لم أشر إلى ذلك أصلاً إلا لارتباطه بحديثي عن ومراجع ومصادر العقيلي.. فهل أنا في يالهمدان ظالم؟

وإلا فما بال العقيلي يثور كل هذه الثورة إزاء هذا النص الواضح.. ألأنّه لمس وترًا حساسًا لم أحسب حسابه؟.. أم لأنه لا يريد ذكر هذا الموضوع؟ أم ماذا؟ إنه هو نفسه.. وفي رده الأخير بالذات يشير إلى ما هو أهم وأخطر مما ذكرته أنا في النص السابق.. بل وينشر رسالة من الشيخ العمودي يأذن له فيها بالاستفادة كما يشاء من كتابه، على أن ينص على ذلك في المقدمة.. أي ليس فقط في الهوامش وقائمة المصادر.

ولكن العقيلي لم يذكره في المقدمة ولا في الهوامش.. وأما قائمة المصادر فقد فُقدت!!

أليس بعض هذا أخطر بكثير مما أشرت إليه؟! فلماذا يغضب العقيلي إذن ما دام هو نفسه يصرح حول هذا الموضوع بما هو أخطر وأفدح مما ذكرته أنا ذِكرًا عابرًا؟!

ولماذا يغضب العقيلي مني في هذا الموضوع بالذات إلى حد يفقد صوابه ويشير - بسوء نية - إلى ملاحاته مع (ناصر قاسم) ويترك المئات غيره ممن أشرت إليهم.. وهذا كله رغم يقينه ومعرفته بموقفي من ملاحاته مع (ناصر قاسم).. بل كان العقيلي نفسه هو الذي نشر رسالتي إليه حول هذا الموضوع والتي كان موقفي فيها حاسمًا لصالح العقيلي.. وساخرًا من موقف (ناصر

قاسم) وكان ذلك قبل ربع قرن.

إنني - في الواقع - لا أفهم شيئًا من ذلك!! وليت الأستاذ العقيلي يوضح لي وللقراء موقفه هذا؟!

وإلى اللقاء لإيضاح ما بقي من ملاحظات!! على أنني - حتى اللقاء القادم - أريد أن أنبه العقيلي إلى أنني لست طريَّ العود، ولا ليِّن العريكة، ولا ممن تؤكل لحومهم سائغة.. ولا ممن إذا تحدث (اصطك في فمه القول).. وهو يعلم ذلك جيدًا.. وإنما أردت تذكيره ليس إلا!!

عكاظ ٤/٩/١٤٠٢هـ

الوساطة بين العقيلي والعمير

بقلم الأستاذ: حجاب يحيى موسى الحازمي

تابعت كغيري من القراء المقال الذي نشره (الأستاذ على محمد العمير) في جريدة عكاظ بعددها رقم ٥٨١٥ الصادر بتاريخ ١٤٠٢/٧/٩هـ وقد استهله بالإشادة بجهود الأستاذ محمد أحمد العقيلي التاريخية وهي جهود لا ينكر آثارها سوى مكابر.. فلقد اضطلع منذ بواكير شبابه بحفظ كثير من مخطوطات المنطقة وصونها من الضياع الذي كاد أن يلتهمها لو ظلت حبيسة خزائن أصحابها الفقراء والقريبين من مراتب الجهل بآثار تراث الأسلاف.. أجل فجهوده مشكورة.. قدرها له جل مثقفي المنطقة ويشكره عليها كل مهتم بالتراث.. ولكنهم يتمنون إبراز تلك الآثار إلى حيز النشر لترى النور قبل أن يأتي عليها ما أتى على السابقين وحينها تصبح تلك المخطوطات رهن الضياع الذي ينتظرها.. نعم لقد أفاد الأستاذ العقيلي من تلك المخطوطات وبعث بعض مواتها.. ولكن التركة كبيرة والعبء أكبر، فما زالت هناك آثار شعرية ونثرية وتاريخية رهينة خزائنه المقفلة، وفي هذا المقام لا يسعني إلا أن أضم صوتي إلى صوت الأستاذ العمير وغيره من الأصوات التي تلح في دعوة الأستاذ العقيلي بأن يعجل بنشر ذلك التراث الكبير بأي طريقة يختارها سواء عن طريقه بحمد الله غير عاجز عن ذلك أو عن طريق جامعاتنا الفتية.. أو عن طريق دور النشر العملاقة في بلادنا.. نعم قرأت مقال العمير المذكور وكاد العمير بأسلوبه النقدي الماروني[1] العبودي أن يقنعني باستفادة .

الأستاذ العقيلي من كتاب الشيخ عبدالله العمودي لولا أن الأستاذ العقيلي بالتعاون مع دارة الملك عبدالعزيز قد أنقذا الموقف بنشر كتاب (نفح العود في

(١) الماروني نسبة لمارون عبود المعروف بنقداته النافذة.

سيرة دور الشريف حمود) لمؤلفه العلامة عبدالرحمن أحمد البهكلي المتوفى سنة ١٢٤٨هـ، وهي بادرة كريمة تجعلنا نتوجه لهم بالشكر الجزيل على جهودهم الموفقة التي استطاعت إقناع العقيلي بنشر إحدى المخطوطات النادرة التي تحويها مكتبته حيث قدمت للقراء هذا الكتاب في طباعة جيدة وعلى ورق صقيل.. وليت هذه الدارة تستطيع إقناع الأستاذ العقيلي بنشر كتاب العقيق اليماني لمؤلفه النعمان الضمدى فهو ثروة تأريخية يضم بين جوانبه حوادث ما يزيد على ثلاثة قرون ونصف.. وليتها تقنعه بنشر كتاب العقد المفصل بالعجائب والغرائب لمؤلفه (على بن عبدالرحمن البهكلي)[١].. وليتها وليت جامعاتنا الفتية تقنعه ولو بتصوير مخطوطات العلامة الحسن بن أحمد عاكش ومن أهمها (الديباج الخسرواني في ذكر أعيان المخلاف السليماني)، وهو كتاب يقع في حوالي ثلاثمائة وخمسين صفحة من القطع المتوسط، وهو كتاب يجمع فيه مؤلفه بين التاريخ والأدب واللغة والعلوم.. ومؤرخ فيه للفترة التي بدأت فيها جحافل الأتراك تغزو المنطقة وما رافق ذلك من أحداث.

ومن مؤلفات هذا العلامة.. حدائق الزهر في تراجم رجال القرن الثالث عشر، وعقود الدرر، إلى جانب مؤلفات أخرى وعلى رأسها ديوان الشعر ومعظمها يؤكد الأستاذ العقيلي على حيازتها في كتابه (محاضرات في الجامعات والمؤتمرات) ليت وليت ولعل وعسى الأستاذ العقيلي يستجيب للنداءات المتكررة فيبعث ذلك التراث كاملاً دون أن تشوهه الرغبات أو تتعاوره يد الإهمال والنسيان.. ولعلنا بكتاب نفح العود الذي نشر مؤخرًا نتفاءل مع من تفاءل في مقالته: (وأول الغيث قطر ثم ينهمل) فلعل كتاب نفح العود فاتحة لسلسلة ذهبية تصدر بعده من مخطوطاتنا.. لعل وعسى!!

---

(١) هكذا يسميه العقيلي في كتابه محاضرات كما سماه في تحقيق نفح العود.. بينما نجد صاحب كتاب مصادر الفكر الإسلامي والعربي في اليمن يسميه: عبدالرحمن بن حسن البهكلي.. كما يتفق معه المؤرخ محمد محمد زبارة في كتابه نيل الوطر في تراجم القرن الثالث عشر مطبوع.

الوساطة بين العقيلي والعمير وبين الديباج الخسرواني وتاريخ المخلاف السليماني

أعود الآن إلى مقالة الأستاذ علي محمد العمير فأجده قد أحسن إلى كتاب الأستاذ العقيلي حيث لفت أنظار القراء إلى صدور الجزء الأول من الكتاب في طبعته الجديدة فهو لم يسيء للعقيلي - كما يتبادر إلى أذهان البعض بل أحسن إلى كتابه في الطبعة الثانية.. وليتنا نجد نقادًا يتصدرون لقراءة النتاج الأدبي وإبراز محاسنه وغربلته من الشوائب.. أجل قرأت مقالة العمير واقتنيت بعدها الجزء الأول في طبعته الجديدة وقرأته.. ووجدتني بعد قراءته أختلف مع الأستاذ العمير في ادعائه على العقيلي بالاعتماد على كتاب الشيخ العمودي والأخذ عنه في كتاب (تاريخ المخلاف السليماني)[1]

وأقول للأستاذ العمير بملء فمي: لا يا علي العمير ونصف ألف لا.. الأستاذ العقيلي لم يعتمد على كتاب العمودي في كل ما يتعلق بتاريخ المنطقة ولكنه - كما هو واضح بعد طبع كتاب نفح العود - قد أتى على نفح العود للبهكلي قبل ربع قرن وأخذ عنه الفصل الخاص بأيام الشريف حمود - دون أن يشير إلى ذلك أدنى إشارة - كما اعتمد على كتابي العقيق اليماني للنعمان الضمدي.. والديباج الخسرواني للحسن بن أحمد عاكش دون إشارة إلى أي منهما.. إلى جانب ما لديه من مخطوطات أخرى لم نطّلع عليها ربما تكون هي مصادره الأخرى دون أن يشير إليها.. وقبل أن آتي بالبراهين أود أهمس في أذن الأستاذ العقيلي مذكرًا بأن التأريخ علم يعتمد على الرواية ولا يأتي عن طريق الإنشاء

(١) الواقع أنني لم أتهم العقيلي، وإنما أشرت مجرد إشارة إلى ما نشر وتحدث عنه الناس في هذا الصدد (العمير)

الا بداعي وكاتبه أحد رجلين؛ إما أن يكون عاصر الأحداث أو استقاها من مصادرها.. وحينئذ فالأمانة العلمية تحتم عليه ذكر تلك المصادر سواء أخذ عنها مباشرة أو تصرف في نصوصها.

ولن أترك القارئ يتلهف كثيرا لمعرفة الحقيقة فسوف أقارن له بين نصين أسوقهما من نصوص كتابي (نفح العود للبهكلي) وكتاب تأريخ المخلاف السليماني للأستاذ العقيلي.. ونصين آخرين أحدهما من نصوص كتاب الديباج الخسرواني للحسن بن أحمد عاكش.. والآخر من كتاب تأريخ المخلاف السليماني للعقيلي، وللقارئ أن يدرك بعد ذلك مَن مِن المؤلفين آخذ عن الآخر؛ خاصة بعد أن يعرف أن صاحب نفح العود توفي سنة١٢٤٨هـ وصاحب كتاب الديباج الخسرواني توفي سنة١٣٨٩هـ، ولا يزال الأستاذ العقيلي - أمد الله في عمره - يعيش بيننا في القرن الخامس عشر.. وتعالوا بنا نستعرض النصوص:

يقول صاحب كتاب نفح العود ص ١١٤: يصف أمير صبيا الشريف منصور بن ناصر بعد أن استقبل رجال الدعوة السلفية المباركة واستجاب لهم: (وأقبل منصور إلى صبياء وقد ظهرت عليه ستار الدعوة النجدية وحث رعيته بما يعمل به أصحاب تلك الدعوة ونادى بتحريم التنباك وبالغ في الزجر على مرتكب التنباك، وكان هو من أعظم المستعملين له وممن يعسر عليه مفارقته فهجره هجر الغزال ظله، وفارقه مفارقة الميت أهله) وقال: (قبيح بنا أن نؤدب على الشيء ونحن لا نتركه).

ويقول العقيلي في كتابه: (تأريخ المخلاف السليماني) ص٤٤٨ حائمًا حول الموضوع موجزًا لأهم أفكاره مع تغيير مخل في الأسلوب أحيانًا: (عاد المنصور إلى صبياء بعد اجتماعه بعرار معلنًا انضمامه إلى الإمام عبدالعزيز بن سعود ونادى بمنع التبغ وكان قبل ذلك من أكبر متعاطيه فصمم على تركه

وقال: (قبيح بنا أن نؤدب الناس على تعاطي التبغ ونحن نتعاطاه)[1].

ليت الأستاذ العقيلي أبقى كلام الأمير ناصر بأسلوبه المشرف دون أن يشوهه بالبتر وابدال بعض الكلمات بأخرى كعادة منهجه!!

تأملوا الفرق بين عبارة الأمير في نص كتاب (نفح العود) الذي حققه العقيلي وعبارة العقيلي نفسه في كتابه (تأريخ المخلاف السليماني) وقارنوا بين النصين كاملين وكأني بأحدكم يتهم الشيخ البهكلي المتوفى سنة ١٢٤٨هـ باحتواء أفكار وأخبار العقيلي الذي يعيش معنا في القرن الخامس عشر!!!

وهذا نص آخر أرجو أن لا أثقل به على القارئ وأحرمه من لذة مقارنة الكتابين ولكنني أورده ليؤكد ما أشرت إليه سابقًا من نشر نفح العود مرتين.. مرة باسم العقيلي في ثنايا كتابه (تأريخ المخلاف السليماني) ومرة باسم صاحبه الحقيقي البهكلي.

يقول صاحب نفح العود ص١٠٦ خلال حديثه عن وصول السرية السعودية الأولى إلى المنطقة (المخلاف السليماني) بقيادة حزام بن عامر ومساندة عرار بن شار وأحمد الفلقي من المخلاف: (فتوجه حزام ومن معه إلى خبت السيد فلقي به السادة النعمانيون وهم أهل إبل وماشية.. فقاتلوه وكانت الدائرة عليهم وعند ذلك أجلى أهل المخلاف الشامي إلى صبيا ووصل كبراؤهم إلى المنصور بن ناصر[2] يطلبون منه مصالحة حزام وصون الدماء أن تسفك والحرم أن تضام.. فجمع منصور أهل صبياء وأعيان المخلاف وشاورهم في الأمر وفي أثناء ذلك وصل أحمد الفلقي ومعه خط من حزام إلى المنصور والأشراف ومن في الجهة من أهل العلم فأجمع رأيهم على الرفع إلى أبي عريش وحصل الغوالي والتوالي على أن الشريف الكبير الشهير يحيى بن محمد

---

(١) يلاحظ البون الشاسع بين الأسلوبين.

(٢) أمير صبيا آنذاك.. وهو ابن أخ للشريف حمود.

الحسني ينفذ من أبي عريش إلى صبياء وينفذ معه الشريف منصور بن ناصر وشيخ الإسلام أحمد بن عبدالله الضمدي.. فنفذ الجميع إلى حزام وقد خيم بقرية الحديين.. واجتمع به الجماعة المذكورون وانعقد الأمر على أن الشريف يحيى بن محمد يقوم بالعهد والدعوة في أبي عريش ومنصور في جهة صبياء وأمورها منوطة بشيخ الإسلام الضمدي)ا.هـ

ويقول العقيلي في نفس الموضوع: (وفي خبت السيد اشتبكت السرية في قتال مع أهل الخبت فهزمتهم ووالت تقدمها)

(لاحظ بأن المؤرخ لم يترك من النص إلا جملة (وهم أهل إبل وغنم) كما ذكر صاحب (نفح العود) ويتابع العقيلي:

(وهرع سكان المخلاف إلى أمير صبيا منصور بن ناصر يطلبون منه مصالحة حزام تجنبًا لإراقة الدماء).

هل يختلف هذا عن قول البهكلي السابق: (أجلى أهل المخلاف الشامي إلى صبياء ووصل كبراؤهم إلى منصور بن ناصر يطلبون منه مصالحة حزام وصون الدماء)؟

يبدو لكل قارئ أن هذا النص قد نقله المؤرخ من كتاب البهكلي حرفيًا دون أدنى إشارة ولو بكلمة (بتصرف) عن نفح العود.. مع أنه حرفيًا وليس بتصرف وحبذا لو قالها!!

وأترك للقارئ بقية المقارنة بين النصين يقول العقيلي: (فجمع الأمير كافة أعيان المنطقة وأخذ معهم في استعراض الموقف والتشاور في الأمر وفي أثناء اجتماعهم وصل الفلقي يحمل إنذارا من حزام فأجمع رأي المؤتمرين على إرسال وفد إلى الأمير العام للمخلاف السليماني لعرض الإنذار وتلقي أمره النهائي حيال الموقف[1] وفي أبي عريش تقرر أن يرسل من يمثل جهات المخلاف ليقابل حزاما.. (وفعلا) تألف الوفد من الأمير يحيى بن محمد

(١) أما هذه فهي فذلكة تاريخية لتغطية حرفية النص السابق.

الخيراتي ـ بدلا عن الحسيني في نص البهكلي ـ عن منطقة عريش.. والأمير منصور بن ناصر عن منطقة صبيا.. وشيخ الإسلام أحمد بن عبدالله الضمدي عن منطقة ضمد..).

وهكذا رأينا أن هذين النصين قد أُخذا عنوة عن كتاب نفح العود للبهكلي بتصرف وبتحريف وبغير تصرف ولا تحريف دون أدنى إشارة إلى ذلك، ولعلي لا أجانب الواقع إن قلت: إن الفصلين اللذان يتحدثان عن الدعوة الإصلاحية في المخلاف السليماني.. وعن إمارة الشريف حمود بدءًا من ص ٣٣٣ من (كتاب تاريخ المخلاف السليماني) للعقيلي إلى ص٤٨٠، أي ١٤٧ صفحة أن هذين الفصلين قد نقلا عن كتاب (نفح العود) للبهكلي بتصرف وبتحريف وإن كانت هناك زيادة في نصوص العقيلي فإنما هي فذلكات يصل في بعضها أحيانًا إلى تكفير المنطقة وأمرائها وعلمائها، كما فعل حين جعلهم (يبايعوا على الدخول في دين الإسلام والتبرؤ من كل دين سواه)[1] وكأن وكأن هناك أديانًا كثيرة في المنطقة يرأسها من يسمي بعضهم شيخ الإسلام.. وليته قال: بايعوا على الطاعة ـ كما قال ابن بشر في عنوان المجد..

وبعد فلن أحرم القارئ من فرصة التتبع والاستقراء بنفسه مكتفيا بما قدمت من نصوص.

ولقارئ إن أراد المقارنة أن يقرأ السطر الخامس وما بعده من ص ٤٤٠ في كتاب (تاريخ المخلاف السليماني) للعقيلي ويقارنها بقراءة السطر الأخير من ص ٨٩ وما بعده في ص ٩٠ في كتاب (نفح العود) للبهكلي تحقيق العقيلي.. وليقرأ السطر التاسع وما بعده في ص ٤٤٣ من كتاب العقيلي ثم يقارنه بما سيجده في السطر الخامس وما بعده في صفحات ٩٨ ـ ٩٩ من كتاب نفح العود..

---

(١) راجع ص ٤٥٢ من كتاب تأريخ المخلاف السليماني للعقيلي ج١.

ثم ليقرأ السطر الثالث والسطر الرابع والخامس والسادس والسابع من ص ٤٤٤ من كتاب العقيلي ويقارنه بما سيجده في السطر التاسع من ص ١٠٠ وما بعده من كتاب نفح العود للبهكلي..

وليقرأ ـ إن شاء ـ الفصل: (حركة عرار بن شار) ص٤٤٦ إلى نهاية السطرين الأولين من ص ٤٤٧ من كتاب العقيلي ويقارنه بما سيطالعه على صفحتي ١١٢ ـ ١١٣ من كتاب نفح العود للبهكلي.

ولك أن تقرأ الفصلين المشار إليهما ثم تقرأ نفح العود وستجد بطلان دعوى العمير التي نسبها إلى العقيلي في الاعتماد على كتاب اللامع اليماني كما يقول[1] أجل فدعوى العمير هذه باطلة لأن العقيلي رجع في الحقيقة إلى كتب أهم من تاريخ العمودي أمثال ـ العقيق اليماني للنعمان الضمدي ـ والديباج الخسرواني للحسن بن أحمد عاكش.. والجواهر الحسان في تأريخ صبياء وجيزان.. ومطلع البدور ومجمع البحور.. وغيرها من مخطوطات حفظت تأريخ تلك الحقبة فأفاد منها الأستاذ العقيلي إفادة مباشرة، ولكنه لم يشر إليها إما جريًا على منهجه الذي ذكره العمير في التراث، وإما رحمة بالقارئ من عناء البحثِ عن المصادر دون جدوى، خاصة وهي لا توجد إلا لدى خاصة الخاصة من خازني التراث..

وتعالوا وقد وقف بنا كتاب نفح العود للبهكلي ونزهة الظريف لعاكش التي سماها العقيلي تكملة نفح العود ـ وقف بنا الكتابان عند وفاة الشريف حمود بن محمد الخيراتي سنة ١٢٣٣هـ.. تعالوا بنا نتابع الفترة التالية في كتاب (الديباج الخسرواني للحسن بن أحمد عاكش) فهو كتاب يؤرخ لأيام حمود.. وأيام ولده أحمد وأيام علي بن حيدر وأبنائه وأحفاده إلى ما بعد سنة ١٢٧٢هـ..

---

(١) أكرر أنني لم أزعم ولم أدّعِ شيئًا من ذلك، كما يتضح من مقالاتي السابقة ضمن هذا الكتاب.. ولكن الصديق العزيز الأستاذ الحازمي لا يريد بذلك غير السخرية من جهة، والدعابة من جهة أخرى.

وسوف أضع بين أيديكم نصّا من هذا المخطوط القيم في ص ٩٢ وأدعوكم بعد قراءته أن تقرأوه مرة أخرى في كتاب تأريخ المخلاف السليماني للعقيلي وبالتحديد في ص٤٩٢

يقول الحسن بن أحمد عاكش في الديباج الخسرواني ص٩٢: مخطوط: (وبعد وفاة الشريف حمود انحلّ عقد اجتماع جيشه:

وتفـــرقوا فرقـــًا فكـــل قبيـــلة

فيهـــا أميـــر المؤمنـــين ومنبـــــر

وطلب السيد الحسن بن خالد الحازمي البيعة من رؤساء الجند للشريف أحمد بن حمود ـ كما روى ـ فمنهم من استعد وغالبهم منع لأنهم تعللوا أنه طلب البيعة لنفسه ـ والعلم عند الله ـ وبعد ذلك أشعل الجندُ على السيد المذكور نار الخلاف واحتسى بذلك الواقع من الهموم سلافًا بعد سلاف.. فاعتزل في ناحية عن أولئك القوم ولم يقابلهم بعتب ولا لوم.. وهم صمموا على النزول إلى تهامة وعزموا على أن من اعترضهم أقاموا عليه القتال.. وما كان من ذلك الجند بعد وصولهم إلا أنهم سلموا إلى الشريف أحمد بن حمود القيادة وبايعه من طلب بيعته من أولئك الأجناد وأشعروا في جميع الممالك التي ملكها والده أنه قد تقلد جيد المملكة الشريف أحمد ونفذت أوامره فيما يروم من كل مقصد.. وبعد انفصال تلك الأجناد لم يزل السيد العلامة حسن بن خالد يتوصل إلى نظم للشمل عسير فاجتمع له منهم جمع كثير).

ويتحدث عاكش بعد هذا عن مكانة العلامة حسن بن خالد لدى العلامة حمود إلى أن يقول ص٩٨:

(ولما استقر مطرح السيد العلامة حسن بن خالد بمن معه من الأجناد بوطنه قرية ضمد نصب هنالك الخيام ورفع إلى الشريف أحمد بمكتوب متضمنًا أنه عضيده، وأنه له كما كان لوالده وليس له غير ذلك مطلوب.. والشريف أحمد

مصمم على المساعدة في الخطاب ويرى أن السيد الحسن بن خالد قد حاد عن طريق الصواب فتوسط جماعة من الأعيان منهم الشريف حسن بن شبير بن مبارك على أن يكون بين الرجلين الاجتماع ما بين وادي بلاج وجازان.. ويتفاوضان فيما بينهما.. وما شاء الله كان فرضي كل منهما هذا الرأي السديد فجمع الشريف أحمد الأجناد الذين لديه ولبس الأشراف لامات الحرب بين يديه، وكان غالب الظن أن ينفتح الشر بينه وبين السيد العلامة الحسن بن خالد لما كان ظهر لهم من الشريف أحمد من المقال.. فلما أن ترآى الجمعان جالت خيل الشريف في ذلك الفضاء براعة استهلال لانفتاح باب القتال في ذلك المجال الوسيع فلم يرض الشريف أحمد فعلهم بل قابلهم - كما حكي - بالعتب والتقريع وانتظم عقد الكلام في ذلك المقام على وقوف الشريف أحمد والسيد الحسن بين الجيشين وكل منهما يفيض على الآخر عجره وبجره فطال بينهما بعد الاتفاق المجاذبة بأطراف الكلام وآل الأمر إلى أن بايع السيد الحسن الشريف أحمد وصار ما بينهما بالاتحاد أصفى من ماء الغمام وكأنه لم يجر شيء..

وفي آخر ذلك اليوم توجه الجميع إلى أبي عريش......... ودخلوا المدينة العريشية بأبّهة ملوكية وشارة هاشمية وضربت المدافع للأفراح واستحال ذلك الغسق صباح) انتهى نص الديباج ولننتقل إلى ص ٤٩٢ من كتاب (تأريخ المخلاف السليماني) للعقيلي الجزء الأول في طبعته الثانية سنجد أن المؤرخ العقيلي قد استطاع أن يحرر نص الديباج الخسرواني من السجع الذي كان سائدًا في عصر مؤلفه.. وسيجده قد حذف منه الألقاب.. وعبارات الثناء والإطناب وحوّله إلى نص عصري لولا ما فيه من بعض الاضطراب.. واسمحوا لي بهذا السجع يا قراءنا الأحباب.. أجل سنجده أتى على نص الديباج دون إشارة ولا لجاج.. وكأن صاحبنا عاصر تلك الأحداث أو ألهمها من بطون مخطوطات مصونة بالأدراج.. وليته أشار إلى صاحب النص ولو إشارة عابرة.

وهذا مثل واحد له أشباه وأضداد.. كالتشابه الحاصل بين النص التاريخي الموجود في كتاب العقيلي ص ٥٠٤ ج ١ والنص التأريخي الموجود في ص١١٣ ـ ١١٤ من كتاب الديباج الخسرواني لعاكش مخطوط..

وخوفًا من الإطالة ـ وقد وقعت ـ أكتفي بهذه النماذج.. على أنني أعود فأوافق الأستاذ العمير في كلامه عن منهج العقيلي.. كما وافقت من قبله أستاذ الجيل الشيخ حمد الجاسر الذي نوه بمجانفة منهج العقيلي في البحث لطرق البحث العلمي والتحقيق التراثي.. وأذكر أنني أشدت برأيه في محاضراتي المطبوعة عن شعر بن هتيمل حيث أشار الجاسر هناك أيضًا إلى خطأ المنهج العقيلي في بتر النصوص المحققة أو حذفها.. وإذا كان العقيلي قد اعترف بسلوك منهجه التراثي في مقابلته الصحفية التي ذكّره بها العمير وأنها أجريت في مجلة اليمامة بعددها رقم ٢٥٣ الصادر في ١٥/٤/١٣٩٣هـ فلا شك أنه أسلوب جديد لم يسبق إليه حيث يتصرف بنصوص التراث حذفًا وزيادة حتى ينتقل بها إلى عصره.

يتصرف بنصوص التراث حذفًا وزيادة حتى ينتقل بها إلى عصره.

أجل أوافق الأستاذ العمير كما أوافق الأستاذ الجاسر على ما نسبناه للعقيلي من التصرف بالأثر المحقق وخاصة بعد أن اطّلعتُ على نص رسالة الإمام عبدالعزيز بن سعود إلى أمراء المخلاف السليماني وعلمائه وأعيانه مثبتة في كتاب نفح العود للبهكلي بعد أن اطلعت عليها في كتاب تأريخ المخلاف السليماني للعقيلي.. ويا لهول المفاجأة لقد حصرت الحذف والتبديل والزيادة فزادت في هذه الرسالة وحدها عن أربعين تجاوزًا، وإذا كان هذا العدد من التجاوز والتصرف قد حصل في رسالة الإمام عبدالعزيز وهي رسالة لاشك (موافقة لروح العصر وخالية من كل ما يمت إلى العصبية أو القبيلة)[١] فكيف به في غيرها من النصوص؟!

---

(١) ما بين القوسين من كلام العقيلي.

أجل إنها رسالة زعيم مسلم يوجهها إلى أمراء وأشراف وعلماء وأعيان المخلاف السليماني، وما كان أحرى بالأستاذ المؤرخ وقد ندب نفسه للبحث والتحقيق أن يراعي الأمانة العلمية ويوافق مناهج البحث العلمي ولو في رسالة الإمام عبدالعزيز بن سعود فيسلّمها من البتر والتعديل اللذين اعتادهما..

وقبل أن تفوتني المناسبة أود أن أتوجه بالشكر الجزيل لدارة الملك عبدالعزيز ولسعادة الأستاذ العقيلي على نشرهما لهذا الكتاب القيم (نفح العود)..

وأرجو أن تمكّنني ظروف الحياة من العودة إلى هذا الكتاب فأكمل الدراسة التي بدأتها عنه.. على أنني لن أفوت هذه الفرصة فسأضع بين يدي الأستاذ المحقق ملاحظتين ارتكب المحقق إحداهما في هوامشه القليلة جدًّا والتي لا تخلو من جملة (راجع كتابنا...) وارتكب الأخرى في النص المحقق:

١ - يقول العقيلي في هوامشه ص ٢٨٠ من كتاب نفح العود بعد أن قوس على عبارة عاكش صاحب التكملة: (وقد رأيت تأريخًا حافلا لابن غنام وهو من علماء الحنابلة ترجم فيه للإمام سعود ووالده والشيخ محمد بن عبدالوهاب..) إلخ

يوجه صاحبنا تساؤلا فيقول: (ونحن هنا في سنة ١٢٢٨هـ أي أن عمره سبع سنوات والضمير في رأيت يعود للمتكلم...) إلخ.

وهو بهذا التساؤل يقرر عدم دراسته للموضوع أو ربما سوء فهمه له وإلا فكيف يقرر بقوله: نحن الآن في ١٢٢٨هـ ....) ياللعجب نحن لسنا يا أستاذ المحقق في هذا العام بل نحن في عام ١٢٧١هـ، وذلك بعد أن ألف كتابه (الديباج الخسرواني) وحين وجد كتاب أستاذه البهكلي والضمير يعود إلى المتكلم نعم يعود إليه ولا ضير في هذا حتى ولو قال:

(رأيت كلامًا لابن حنبل.. أو ابن تيمية أو لغيرهما.. نعم ليس في هذا لبس،

وليس هناك محل للملاحظة.. فالمؤلف يقول: رأيت كلاما للعلامة ابن غنام يتحدث فيه عن آل سعود وعن الشيخ محمد بن عبدالوهاب.. أبى إلا أن يقول واصفًا الكتاب الذي ألفه ابن غنام: (وهو تأريخ كبير اشتمل على فنون من التواريخ لأيامهم وسيرتهم ومجرياتهم...) فهل تواجه بعد هذا تساؤلك الذي تحرم فيه العلامة الحسن بن أحمد عاكش وهو العالم المحقق الحقيقي المطلع المتبحر.. هل تحرمه من حق البحث في المراجع التأريخية والإشارة إليها كما تقتضي أمانة البحث، أم تراه ارتكب خطأ حين ذكر أحد المراجع التي أفاد منها كعادة الباحثين؟؟

الملاحظة الثانية التي أستعجل بإيرادها قبل الدراسة الموسعة - إن شاء الله - هي:

٢ - تتعلق بالنص المحقق: فقد غير وبدّل بعض كلمات قصيدة البهكلي صاحب نفح العود التي أوردها عاكش في تكملة[1] نفح العود ص ٣٠٥ - ٣٠٧ حيث غيّر بعض كلمات القصيدة التي رثى بها البهكلي الأمير الشريف منصور بن ناصر:

(أ) غير كلمتي: يقصده - وبصرف من قول الشاعر البهكلي

ما كنت أحسب أن المجد مقصده

صرف الزمان بصرف فيك منتقد

فقد روى البيت على النحو التالي:

ما كنت أحسب أن المجد يقصده

صــرف الزمن بطرف فيك منتقد

وقد هز التغيير معنى البيت كما يلاحظ القارئ

---

(١) هكذا سماها العقيلي، واسمها الحقيقي (نزهة الظريف) كما يجمع على ذلك كتابا نيل الوطر لزبارة وكتاب مصادر الفكر الإسلامي والعربي في اليمن، وكما يؤكد المؤلف نفسه في المقدمة... والغريب أنني وجدت العقيلي يستشهد بهذا الكتاب أو التكملة - كما يسميها - في أحداث سنة ١١٩٠ حيث يقول ص ٤١٤ من تأريخ المخلاف السليماني ج١ (قال صاحب نزهة الظريف: جميع من عليه العول حالتي..)

(ب) كما غير جادبة بكلمة حائدة في قول الشاعر:

وانت أم المعـــالي عنـــك حادبة

عن أن يصيبك سهم البين بالقصد

والفرق شاسع بين معنى الكلمتين مما ترك آثاره الواضحة في بُعد المعنى المراد

٣ ـ كما قدم وأخر في الأبيات:

فلقد فصل بين البيت المشــتمل على القسم التالي وجوابه بعد أن حذف الشــطر الثاني:

تالله لو ملكت كفاك عاملها

حتى اعتلى بك نعب الصارخ العتد

وجواب القسم في البيت:

كنت تارك راميها بمصرعه

طعــم الحبـــارى وأشـــلاء لـذي لبـــد

حيث فصل بينهما بقول الشاعر البهكلي:

فليعظم الأجر كعود الرزء لو قصمت

به ظـــهور أولى اللامـــات والـــردد

وهما غير مفصولين في القصيدة الأصل

وحذف الشطر الثاني من هذا البيت دون الحاجة إلى الحذف فليس بالبيت مبالغة غير مستساغة كما يبرر العقيلي للحذف.. والقصيدة موجودة بالديباج الخسرواني وهو في حوزة المؤرخ العقيلي ـ كما يقول في كتابه محاضرات في الجامعات والمؤتمرات السعودية.

وبعد: فالشكر الجزيل للأستاذ العقيلي على جهوده المبذولة

والتحية والشكر نوجهها لدارة الملك عبدالعزيز التي أخرجت لنا أحد كنوز المنطقة المدفونة.

وتحية وشكرًا لجريدة عكاظ التي هيأت لنا عبر صفحاتها التحدث عن آثار المنطقة وبعض تراثها..

وشكرًا للأستاذ علي العمير الشاعر الناقد الذي لفت الأنظار إلى صدور المخلاف السليماني في طبعته الجديدة.

وشكرًا للقراء الذين يتحملون متابعة هذا الحوار الشيق.

إلى الملتقى على دروب الخير - إن شاء الله

عكاظ ١٤٠٢/٩/١١هـ

لم يعقلها العقيلي؟!

(إن لله جنودًا من عسل).. وهذا أخي الأستاذ البحاثة (حجاب الحازمي) يقطر بما فيه شفاء للناس!!

ذلكم هو مقاله الرائع.. بل بحثه القيم.. بل دراسته النقدية الأصيلة العريقة المنشورة بهذه الجريدة بتاريخ ١١/٩/١٤٠٢هـ تحت عنوان: (الوساطة بين العقيلي والعمير)!![1].

ولكن مهلاً.. فإنني أريد قبل أن أعقب على دراسة الأستاذ الحازمي.. أن أشير إلى نقطة مهمة جدًّا، وهي أن الأستاذ محمد العقيلي قد أشار إلى الحازمي بالذات في رده المنشور بتاريخ ١٩/٩/١٤٠٢هـ وزكاه وأشاد به، معتبرًا إياه من رجال البحث والتنقيب.. وأنه لذلك - أي العقيلي - قد سمح له - أي الحازمي - أن يطلع على ما شاء من مكتبته!!

تلك المكتبة - بما حوته من مخطوطات خاصة - لا يمكن أن يسمح العقيلي بالاطلاع عليها، وهي كل أسراره وخباياه!!

وإنني لأغبط حقًا الأستاذ (حجاب الحازمي) إن كان حقًّا قد مكنه العقيلي من الاطلاع على قدس أقداسه؟!![2]

أما العبدلله - كاتب هذه السطور - فقد قال عنه العقيلي في رده ذاك:

(لو كان إخوتك ممن يعتنون بالبحث لما قصرت معك)!!

هكذا.. (لما قصرت معك!!) - كثير خيرك يا أستاذ !! ولكن الأستاذ نسي أو تناسى أنني طلبت منه قبل أكثر من عشرين عامًا أن أشاهد - مجرد مشاهدة

---

(١) وهو الموضوع المنشور قبل هذا الموضوع ضمن هذا الكتاب.

(٢) اتضح أن مسالة الاطلاع هذه مجرد دعوى من العقيلي نفاها الأستاذ الحازمي..

وليس الاطلاع - بعض تلك المخطوطات.. وكنت في منزله، وضيفه بدعوة منه.. والرسالة التي دعاني بها ما تزال تحت يدي إلى الآن!!

وحينذاك كنت ما أزال من الشداة، ولا يشكل اطّلاعي - فضلاً عن مجرد المشاهدة - أي خطر على العقيلي.. ولكنه - رغم كل ذلك - رفض رفضًا حاسمًا، متذرعًا بمعاذير شتى.. ولم يشفع لي عنده كوني في منزله، وفي ضيافته بدعوة منه.. وكوني أيضًا من المقربين إليه!!

أما الأستاذ الحازمي فيقول العقيلي إنه قد أطلعه على ما شاء الاطّلاع عليه.. ولو كان ذلك حقًا.. فلا شك أن الحازمي قد استخدم مع العقيلي أسلوبًا ماكرًا حتى لا أقول (استخدم السحر والشعوذة)!!

وإلا فهل يعقل ذلك؟!

إن المخطوطات التي في حوزة العقيلي.. هي أخطر أسراره، وخاصة بالنسبة لكتابه (تاريخ المخلاف السليماني) الذي صدر أول ما صدر عام ١٣٧٨هـ أي منذ ربع قرن.. فإذا كان حقًا ما قاله العقيلي من أنه قد ترك الحازمي يطّلع على ما يشاء في مكتبته.. فلا بد أنه - أي العقيلي - قد اطمأن إلى أن مضيّ ربع قرن على صدور كتابه تعتبر فترة زمنية أكثر من كافية لإسدال الستار على أسلوبه في (اقتناص الفرص).. وما بين قوسين هو من تعبير العقيلي نفسه في مقدمة كتابه!!

وهذا الاطمئنان إلى عامل الزمن هو الذي جعل العقيلي يبرز إلى النور كتاب (نفح العود) عن طريق دارة الملك عبدالعزيز!!

وفضلاً عن الاطمئنان إلى عامل الزمن فإن موافقة العقيلي على نشر كتاب (نفح العود) بالذات لا لشيء إلا لأنه أهون مخطوطاته عنده حيث لا يمثل غير فترة تاريخية لا تزيد عن اثني عشر عامًا.. ثم الناحية المادية!!

ولكن العقيلي بذلك.. قد ارتكب في حق نفسه أفدح الأخطاء، ووقع في أسوأ أعماله.. فإن نشر كتاب (نفح العود) أو غيره من المخطوطات من شأنه أن يتيح

لأي باحث.. بل لأدنى باحث أن يقارن بين نصوص كتاب العقيلي التي لم يشر إلى مصادرها.. وبين أصولها في كتاب (نفح العود) أو غيره مما يمكن أن ينشر ويتاح الاطلاع عليه بعد أن كان في الصون أكثر من ربع قرن مضى!!.

ولقد كان هذا الموضوع بالذات.. موضوع مقارنة نصوص كتاب العقيلي بأصولها في كتاب (نفح العود) وهو موضع اهتمامي.. وذلك منذ أن وصلتني النسخة المطبوعة من كتاب (نفح العود).

لقد سهرت عدة ليالي أراجع النصوص في كتاب العقيلي، وخاصة تلك المتعلقة بالفترة الزمنية التي يؤرخ لها كتاب (نفح العود وتكملته).

ويا لهول ما وجدت من نصوص - يصل بعضها إلى فصل بأكمله - في كتاب العقيلي، وهي موجودة بالنص أو ببعض الاختلاف اليسير في اللفظ أو في الأسلوب فقط.. وليس المعنى.. موجودة في كتاب (نفح العود) الذي ظل في خزائن العقيلي أكثر من ربع قرن كمخطوط - في الحفظ والصون!! - لا يمكن أن تصل إليه الأيدي!!

ولقد جمعت تلك النصوص وأصولها وأرقام صفحاتها في حد ذاتها.. وعزمت على الكتابة عنها.. لولا أنه صادف في هذه الأثناء أن اجتمعت بصديق يمني في مكتب أخي الأستاذ (حامد عباس) فقال لي إنه يملك نسخة ممتازة مخطوطة من كتاب (الديباج الخسرواني) ووعدني وعدًا كريمًا بأن يتدبر أمر موافاتي بنسخة مصورة منها في القريب الممكن حيث أصل المخطوطة في اليمن[1]

كما صادف في الوقت نفسه أنني حصلت على وعد من صديق آخر - يقيم في (صامطة) بأن يحضر لي من اليمن أيضًا نسخة مخطوطة من كتاب (نفح

---

(١) مع كل أسف لم يتمكن الصديق من الوفاء بوعده لأسباب ليس هنا محل ذكرها، ولكنه ما زال يؤكد لي أنه سيفي بوعده متى سمحت ظروفه بذلك.

العود) نفسه وهي إحدى المخطوطات التي ذكر العقيلي أنه اعتمد عليها في تحقيق كتاب (نفح العود).

وإزاء ذلك كان لا بد أن أتريث في نشر النصوص التي تمكنت من الوصول إلى أصولها في كتاب (نفح العود) وذلك لعدة أسباب:

١ ـ أنني أشك كثيرًا في طريقة تحقيق العقيلي لكتاب (نفح العود) خاصة وأنني أعرف تمام المعرفة مدى نظرة العقيلي إلى تحقيق التراث، وهي نظرة يصرح بها هو نفسه بصراحة.. بل بجرأة عجيبة حقًا.

ولا بأس أن نكرر هنا نشر نص للعقيلي نفسه قاله لمجلة اليمامة بعددها رقم ٢٥٣ تاريخ ١٥/٤/١٣٩٣هـ قال ما نصه:

«التراث ينبغي أن يقدم بطريقة الالتزام بما يناسب روح الدين والأخلاق الفاضلة.. وما يتفق مع مبادئ نهضتنا الإصلاحية الدينية.. وأن نقدمه للأجيال مصفى (...) ـ هكذا (مصفى) ـ وما كان يستساغ في عصر لا يستساغ في عصر آخر ـ هكذا ـ فنحن أمام أمرين:

الأول أن نقدمه كما هو.. وهذا ما تقتضيه الأمانة العلمية مع ما في ذلك من عصبيات وعنصرية وتفاوت طبقي (...) وخنوع.

والثاني: أن نأتي بالتراث ونختار منه ما يتفق وروح الدين وعنصر الأخلاق الفاضلة، وما يوائم روح العصر إلخ).

وهذا النص وأمثاله هو بعض ـ أقول بعض ـ ما أعرفه جيدًا عن العقيلي.. وذلك هو مصدر شكي حتى في تحقيق العقيلي لكتاب (نفح العود) رغم وجود ما يطمئن ويقلل من شكي هذا، وهو صدور كتاب (نفح العود) عن دارة الملك عبدالعزيز..

ولكن يبقى من الأفضل على كل حال لو أمكنني الاطلاع على أصل إحدى النسخ التي اعتمد عليها العقيلي في تحقيقه.

وهكذا أجّلت نشر موضوعي في انتظار النسخة التي وعدني أحد الأصدقاء بإحضار أصلها.

٢ ـ الوعد الذي حصلت عليه من الصديق اليمني في مكتب الأستاذ (حامد عباس) بأن يوافيني بنسخة من مخطوطة ممتازة لكتاب (الديباج الخسرواني) جعلني أطمع في مقارنة أفضل بكثير بين نصوص كتاب العقيلي وبين ما لها من أصول في كتاب (الديباج الخسرواني) وهو أحد المخطوطات المهمة التي اعتمد عليها العقيلي في كتابه (تاريخ المخلاف السليماني) بالإضافة إلى غيره من المخطوطات الأخرى لدى العقيلي.

الحازمي يفسد أمري

وقد كنت أعول تعويلاً كبيرًا على انتظار تلك المخطوطات لاستكمال بحثي المتواضع عن نصوص العقيلي وأصولها.. وإذا بي أفاجأ مفاجأة مذهلة حقًا.. هي الدراسة السريعة التي نشرها أخي الأستاذ حجاب الحازمي بعنوان: (الوساطة بين العقيلي والعمير) والتي رغم كونها دراسة سريعة كما ذكّرنا كاتبها.. ووعد بالتوسع فيها.. فإنها رغم ذلك قد وضعت العقيلي في موقف لا يحسد عليه!!

لقد كشف الحازمي في خمسة أعمدة فقط من صفحات (عكاظ) عشرات النصوص - من ضمنها فصل بأكمله - موجود في كتاب العقيلي (تاريخ المخلاف السليماني) دون إشارة قط إلى مصدره في كتاب (نفح العود).. ولم يكتف الحازمي بمجرد الذكر ذلك.. بل أشار بالتحديد إلى أرقام الصفحات التي توجد بها تلك النصوص في كلا الكتابين.

لقد قام الأستاذ الحازمي بالمجهود نفسه الذي قمت به في مقارنة النصوص بين الكتابين.. ولكنه سبقني إلى النشر - هنيئًا مريئًا - فأفسد أمري

ولكن ما أهون ذلك عندي.. ما دام الهدف هو نفسه مشتركًا بيننا، وهو خدمة الحقيقة والتاريخ.. وتمكين النقد الأدبي والتاريخي من حقه في جلاء كل غموض، وإزالة كل لبس، وإعطاء كل ذي حق حقه!!!

وللإنصاف والحقيقة - وليس تواضعًا مني - لا بد أن أشير إلى أن الأستاذ حجاب الحازمي قد اكتشف نصوصًا لم أكتشفها في الكتابين المطبوعين ذاتهما (تاريخ المخلاف السليماني) وكتاب (نفح العود).. وإن كانت عندي بالمقابل بعض النصوص التي لم يشر إليها الأستاذ الحازمي ولعله أبقاها لدراسته الموسعة. أما

النصوص التي كشفها الحازمي، من مصادر أخرى فهي ليست عندي أصلاً..

ولا يسعني إلا أن أهنئه على جَلَدِهِ في البحث والتنقيب والمقارنة، وإن كان ذلك قد أفسد عليَّ أمري، وأضاع جهدي بسبقه في مجال النشر.. وهذا بالذات يلزم أخي حجاب الحازمي بأن يبادر بإنجاز دراسته الموسعة التي وعد بها.. وأنا بدوري على استعداد لموافاته بكل ما يمكن أن يعينه على إتمام دراسته تلك؛ فالمهم هو إحقاق الحق، وليس المهم أن تكون هذه الدراسة باسمي أو باسمه.. فموضوعها أخطر وأجلّ من ذلك.. أليس هو تاريخ منطقتنا العزيزة؟!

على أنني أعود وأكرر القول بأن ما نشره الأستاذ حجاب الحازمي ـ فضلاً عن الدراسة المنتظرة ـ يكفي تمامًا لأن يضع أيدي القراء على حقيقة ظلت مطموسة أكثر من ربع قرن حتى سخر الله العقيلي فنشر كتاب (نفح العود).. ولا أظنه يمكن أن ينشر ـ بعد ذلك ـ شيئًا من مخطوطاته المخزونة!!

ولكن سواء نشر أو لم ينشر.. فقد ظهرت الحقيقة أو بعضها.. وسيظهر الباقي حتمًا!!

وليس أمام الأستاذ العقيلي الآن غير أن يتحلى ـ حقًّا ـ بأخلاقيات الباحثين، ويعلن بنفسه حقيقة الأمر، ويعد القراء بأن يكون كتابه في أية طبعة قادمة على الوجه الصحيح الأمثل.. وخاصة فيما يتعلق بالإشارة إلى مصدر كل نص من نصوص كتابه.. ويترك جانبا المكابرة التي لا فائدة له ولا للقراء ولا للتاريخ منها!!

تصفية حساب مع الحازمي

وبقيت ـ بعد كل ذلك ـ مسألة بيني وبين الأستاذ حجاب الحازمي.. كان المفروض أن أشير إليها منذ البداية.. ولكن لم يكن معقولا أن أقدمها على

الموضوع الأساسي.. وهي ما دامت تتعلق بي شخصيًا أهون عندي من أن أقدمها.. ولقد أسميتها الآن (تصفية حساب مع الحازمي).. ولا أقصد غير الدعابة بالطبع. لقد اتكأ الأستاذ الحازمي على شخصي الضعيف - بدون مبرر - في مقدمة موضوعه أو دراسته النقدية..

قال ما نصه:

(وكاد العمير بأسلوبه النقدي الماروني العبودي أن يقنعني باستفادة الأستاذ العقيل من كتاب الشيخ عبدالله العمودي لولا أن الأستاذ العقيلي أنقذ الموقف بنشر كتاب (نفح العود) إلخ.. إلخ.

وقال أيضًا ما نصه:

(ووجدتني بعد قراءته - يقصد مقالي - أختلف مع الأستاذ العمير في ادعائه العريض «هكذا» على العقيلي بالاعتماد على كتاب الشيخ العامودي والأخذ منه في كتاب (تاريخ المخلاف السليماني).. وأقول للأستاذ العمير بملء فمي: لا يا علي العمير ونصف ألف لا، الأستاذ العقيلي لم يعتمد على كتاب العامودي في كل ما يتعلق بتاريخ المنطقة..

ولكنه أيضًا - كما هو واضح بعد طبع كتاب نفح العود - قد أتى - يقصد العقيلي - على نفح العود (...) وأخذ عنه الفصل الخاص بأيام الشريف حمود دون أن يشير إلى ذلك أدنى اشارة كما اعتمد - أي العقيلي أيضًا - على كتابي العقيق اليماني (...) والديباج الخسرواني) إلخ - إلخ.

ذلك هو ماقاله عني بالنص أخي الأستاذ حجاب الحازمي كمدخل لموضوعه أو دراسته.

ولا شك عندي أن الأستاذ الحازمي لم يفترسني على هذا النحو السريع إلا لأنني كنت صيدًا هزيلاً في طريقه نحو صيده السمين (!!) وإلا فأنا - في حقيقة الأمر - لم أقل إن العقيلي قد اعتمد تمامًا على كتاب العمودي.. وإنما أشرت إلى

ذلك اشارات عابرة حذرة.

وفيما يتعلق بكتاب العمودي قلت بالنص ما يلي:

(بعد صدور الطبعة الأولى من الكتاب ـ كتاب العقيلي ـ كثر اللغط والهمس والجهر على مستوى النشر بالصحف والمجلات، وعلى مستوى مجالس الأدباء، وخاصة في منطقة جيزان حول كون الأستاذ العقيلي قد سطا سطوًا فادحًا على مخطوط ضخم عن تاريخ المنطقة للشيخ المرحوم عبدالله العمودي الذي عاصر حكم الأدارسة والأشراف والعهد السعودي الأول في المنطقة ، وكذلك صدرًا من العهد السعودي الحديث.

وقيل إن الشيخ عبدالله العمودي كان قد أعار الأستاذ العقيلي كتابه المخطوط الذي سجل فيه الأحداث التي عايشها بنفسه عن كثب.. وإن الأستاذ العقيلي قد سطا على ذلك المؤلف المخطوط ونقل معظم ما جاء فيه من أحداث المنطقة ونسبها لنفسه، ولم يشر إلى الشيخ العمودي من قريب أو بعيد.

ولكن الأستاذ العقيلي نفى ذلك نفيا قاطعًا.. وان كان قد اعترف بأنه استعار الكتاب فعلا واطلع عليه.

وبالرغم من نفي العقيلي لما كثر من لغط وقيل وقال حول هذا الموضوع.. إلا أنني أجد من الضرورة الإشارة إلى ذلك ما دمت بصدد الحديث عن مراجع ومصادر العقيلي)أ.هـ.

ذلك هو ما قلته بالنص.. ومن الواضح أنني كنت مجرد ناقل لما قيل وأذيع وأشيع (وناقل الكفر ليس بكافر).. ومن الواضح أيضًا أنني لم أكن أستحق هجمة الحازمي تلك.. ولكنني ـ كما قلت ـ كنت صيدًا هزيلاً في طريقه نحو صيده السمين!!

وذلك هو دائمًا شأن الصيد الهزيل، يصطاد حتى من غير قصد!! فليسامحك

الله أيها الصياد.. أيها الحازمي!!

أما إشارتي الحذرة أيضًا إلى مصادر العقيلي الأخرى فقد تمثلت أهم ما تمثلت في النص التالي في مقالي الأول:

(يصرح الأستاذ العقيلي ـ كما سبق أن أشرنا ـ بأنه توجد لديه مجموعة نادرة الوجود من المخطوطات عن تاريخ المنطقة.. وأنه قد استفاد منها في تأليف هذا الكتاب.. ولكنه ـ مع كل أسف ـ لا يشير إلى النصوص التي استقاها من تلك المخطوطات، ولا يضعها بين أقواس، ولا يشير إلى رقم الصفحة أو الورقة أو اسم الكتاب ومؤلفه، ولا يشير ـ إن أشار في النادر جدًّا ـ إلا بطريقة مبهمة وغامضة) إلخ.. إلخ.

وهكذا كنت في غاية الحذر عندما أغمز في المَواطن المؤلمة.. ثم تأتي أنت فتكشف كل ما حاذرته (روح منك لله.. يا شيخ.. يا حازمي)!!.

تواطؤ الحازمي مع العقيلي

وهناك ناحية مهمة جدًّا.. لا أملك تجاهلها غير (الاحتجاج بشدة) على الأستاذ الحازمي، حيث قال في نهاية موضوعه (وشكرا للأستاذ علي العمير الشاعر الناقد)، ووصفي بالشاعر من قبل أخي الحازمي لا شك أنه يعتبر تضامنًا أو تواطؤًا مع الأستاذ العقيلي من أجل التشهير بشاعريتي التي حرصت على سترها زمنًا طويلاً.. ثم فضحها العقيلي بالأبيات السخيفة التي قلتها قبل ربع قرن في الإشادة بأدب العقيلي والثناء عليه!! ونشرها العقيلي مؤخرًا ـ كعادته في نشر كل ثناء أو (طبطبة) عليه!!

ثم جاء الأستاذ الحازمي ليصفني أيضًا بالشاعر، وهي محاولة فضحت تواطؤه مع العقيلي وتضامنه معه في التشهير بشاعريتي المستورة!!

ولا بد أن يتساءل القارئ.. لماذا أنا أحرص كل هذا الحرص على ستر شاعريتي؟

وجوابي على ذلك في منتهى البساطة.. وهو أن شاعريتي قد مرت بمرحلتين؛ المرحلة الأولى (قَلّ فيها الفصيح والموزون) كما يقول الدكتور القصيبي في قصيدة له.

أما المرحلة الثانية فهي وإن كانت قد نضجت من ناحية (الفصاحة والوزن) إلا أنها على درجة كبيرة من التعاسة والخيبة!!

وكان عندي ـ وما يزال إن شاء الله ـ من الحياء ما يمنعني من نشر الخيبة والتعاسة على القراء.. ولذلك وحده كتمت شاعريتي (المسكينة البائسة) ولم يعلم بها غير قلة قليلة من أصدقائي الذين ائتمنتهم على العلم بها، ومنهم الأستاذ العقيلي.. وهو الوحيد ـ إلى الآن ـ من أصدقائي الذي لم يحفظ لي هذه الأمانة!!!

ذلك هو شأن العقيلي.. فما شأنك أنت أيها الحازمي؟!

والله وبالله وتالله إن لم تَكُفّ عن وصفي بالشاعر لأرسلن إليك كل ما عندي من مسودات القصائد التي أكلتها (العثة) جزاء لك وردعًا لأمثالك!!

وختاما أرجو أن تقبل مني أيها الأخ الأستاذ حجاب الحازمي كلمة واحدة فقط.. هي: شكرًا

عكاظ ١٨/٩/١٤٠٢هـ

إنهـــا وســاطــة
وليســـت مواجهـــة

بقلم الأستاذ حجاب يحيى موسى الحازمي

حين قمت بواجب العلم وأمانة القلم فساهمت بقلمي المتواضع.. والكسول جدًّا في ذلك الحوار الذي دار فترة من الوقت بين الأستاذين الكبيرين علي محمد العمير، ومحمد أحمد العقيلي حول تاريخ المنطقة في القرن الثالث عشر الهجري - وهو العصر الذي بلغت فيه منطقتنا المعطاء قمة نضجها الفكري والأدبي رغم عدم الاستقرار السياسي - حين ساهمتُ في ذلك الحوار الذي دار حول تأريخ نفح العود للبهكلي.. والعقيق اليماني للنعمان والديباج الخسرواني لعاكش.. واللامع اليماني للعامودي.. وما يربط بينها وبين المخلاف السليماني للعقيلي من أقوى الوشائج وأعمق الصلات - لم أكن أقصد بصنعي هذا أن أضع نفسي بين لهات أسدين هصورين من فرسان الكلمة، أحدهما أمسك بالقلم منذ ما يزيد عن ثلث قرن والآخر طوعه منذ ما يقارب ربع قرن.. ولكنها قد وقعت فلا مناص من إعادة الكرّة.. ولست متوسطًا في هذه المرة.. ولكنها محاولة للخروج من المعرة!!

لقد سبق الأستاذ العمير برده المنشور بجريدة عكاظ في عددها رقم ٥٨٨٣ بتاريخ ١٤٠٢/٩/١٨هـ.. ولم أسلم من سنان قلمه النفاذ إلا بعد (تصفية الحساب) ثم أعقبه الأستاذ محمد أحمد العقيلي بكلمة نشرها في جريدة المدينة بعددها رقم ٥٦١٧ بتاريخ ١٤٠٢/١٠/٢١هـ[1] ووجهها بكاملها

---

(١) يلاحظ هروب العقيلي مما يسمى عادة (أرض المعركة) وهي جريدة عكاظ التي انتشرت فيها كل هذه الموضوعات!! (العمير).

نحو الوسيط المتمثل في شخصي الضعيف.. وأصبح الوسيط بذلك وحده في الميدان بعد أن اصطلح ضده المتحاوران، وهكذا وجدتني مدفوعًا للكتابة في محاولة التخلص من موقف حشراني فيه بإصرار وخرجا منه موفوري الجانب:

لم أكن من جناتها علم الله وأني بحرها اليوم صالي

لقد حسدني الأستاذ الناقد الشاعر العمير في مقاله السابق على ما حباني به العقيلي من فرصة الاطّلاع على مكتبته ووصل به الحسد أو الغبطة إلى درجة اتهامي باستخدام السحر والشعوذة - إن كان حقًّا ما ذكره العقيلي عن تمكيني من دخول مكتبته والاستفادة منها - وصفى حسابه معي في عمود ونصف من أنهار جريدة عكاظ الثقافية اتهمني خلاله بالتعاطف مع الأستاذ العقيلي.. واختتم مقاله بتهديد شفعه بكل أنواع القسم - إن لم أكفّ عن وصفه بالشاعر ليبعثن إليّ بكل مسودات قصائده - وهأنذا أصفه أيضًا بالشاعر فلينفّذ ما توعدني به!! نعم فلينفذ وعده وتهديده وإني لفي أشد لحظات الترقب والانتظار لتنفيذ وعده الكريم بإرسال صورة من مخطوطة الديباج الخسرواني.. وصورة من مخطوطة نفح العود، وأعده أن ألقي بقلم الوساطة جانبًا لنبدأ تهديده أيضًا ببعث مسودات شعره لنقرأ العمير شاعرًا كما قرأناه ناقدا أدبيًّا وصحفيًا لامعًا.. فهل نطمع في تنفيذ ذلك؟؟

ولن أصفي (حسابي مع العمير) في هذه العجالة فسوف أرجيء ذلك إلى فرصة اخرى ولكنني أود أن أبادر فأبعد عن نفسي تلك التهمة الشنعاء التي وصفني بها العمير وهو في قمة غبطته لى على تمكني من الاطّلاع على مكتبة العقيلي والاستفادة منها كما يقول العقيلي في كلمته المنشورة بعكاظ بتاريخ١٩/٨/١٤٠٢هـ.. ولكي أؤكد للعمير بعدي عن هذه الخصال الذميمة فإنني أقسم له أنني - والحمد لله - ممن يؤمنون بكفر الساحر والمشعوذ، وحتى

يكون على بينة من الأمر فلا بد من التوضيح بأن دعوى العقيلي تلك فيها الكثير من المبالغة بل والمغالاة.. وللحقيقة والواقع أسجل أنه وبعد مواعيد ملحّة مع الأستاذ العقيلي بغرض الإعارة تجاوزت الشهرين قمت بزيارة إلى منزله الذي تحتل المكتبة بعض جنباته، ولكنه لم يتح لي فرصة رؤية المكتبة ولا حتى مجرد دخول المنزل الذي يضمها، غير أنه أفضل عليّ وتلقاني على الباب متأبطا لكتابين من الكتب التي طلبتها.. وظننتها معجزة قد حصلت فها هو الأستاذ العقيلي يدفع إلي بمخطوطين نادرين لأذهب بهما إلى حيث أريد وأصور منهما وأستنسخ كما أريد.. هكذا توهمت.. ولكن الأستاذ العقيلي كان أكبر من هذا الوهم.. وأحرص من ذلك الخاطر.. فقد ظل متأبطًا لهما ولم يزد بعد أن صافحني أن أخذني إلى مكتبه التجاري بالمطبعة، ثم أفضل بتجهيز ذلك المكتب وتسليم المخطوطين لي لأقرأ أو أكتب في هذا الصوان الذي يشبه إلى حد بعيد ذلك الصوان الذي حبس فيه الوزير أحمد بن أبي دؤاد صاحبه عملاق العربية وأديبها العظيم الجاحظ لولا أن الجاحظ كان ولا يزال أجرأ مني حين قال لصاحبه: (أريتنا مقدرتك فأرنا عفوك). أما صاحبكم فلم ينبس ببنت شفه، ولكنه ظل تحت المراقبة من خلال نافذة المكتب المجاور الذي وجد من الأستاذ العقيلي استمرارًا وثباتًا في تلك الساعات لم يسبق لهما مثيلا في وقته الثمين، ومع ذلك فقد اطلعت في تلك الساعات القليلة على نصوص أدبية هامة سجلت بعضها في محاضرتي المطبوعة عن القاسم بن علي بن هتيمل الضمدي، واحتفظت ببعضها وبكامل التقدير لمن منحني تلك الفرصة الذهبية التي اعتبرتها ـ رغم شدة المراقبة ـ من أثمن الفرص. فارفع عني أيها الأستاذ العمير اتهامك وجنّبني هذا الحسد وتلك الغبطة، فهذا هو كل ما في الأمر، وذلك هو التمكين المزعوم من المكتبة فهل تحل عني؟؟!!

وإذا كنت قد أهديت السطور الأولى من هذا الكلام إلى الأستاذ العمير مقدمة لتصفية الحساب معه في فرصة أخرى.. فتعالوا بنا نستعرض ذلك الرد الرائع الذي أتحفنا به الأستاذ العقيلي في كلمته المنشورة بجريدة المدينة بتاريخ ٢١/١٠/١٤٠٢هـ والتي استعرض فيها بعض ملاحظاتي التي سجلتها أثناء الوساطة بينه وبين الأستاذ العمير حول ما أثير عن كتابه (تاريخ المخلاف السليماني) وللحقيقة والواقع فقد تحلى في بعض أجزاء هذه الكلمة بصبر العلماء.. وواقعية الأدباء.. ولا يسعنا إلا أن نشكر له ذلك الهدوء الذي تحلت به تلك الكلمة.. حيث اعترف بعدد غير يسير من واقعية تلك الملاحظات.. وتنازل فيها عن سلوك طريق ظل يدلج فيه ما يزيد عن ربع قرن من الزمان.. وعدد فيها بالتنصيص.. والتهميش أمام أفكار الآخرين ومروياتهم ونسبتها إلى أصحابها الحقيقيين في طبعة الكتاب الثالثة[1] وهذا هو جل ما يريده القراء الذين أصبحت لديهم قدرة التمييز بين الجديد والقديم.. وأصبحوا يريدون من صاحب الجديد أن يقدمه ملائما

لروح العصر.. ويريدون من باعث القديم أن يبرزه على حقيقته دون التشويه ليبقى صورة تعكس روح عصره وحياة معاصريه.

نعم لقد حفلت كلمته تلك باعترافات بعضها يتعلق بالنصوص التي يتصرف فيها، وبعضها بتوضيح منهجه في تحقيق التراث، وبعضها برسائل العظماء.. ولن أخفي على القراء الكرام شدة اغتباطي بتلك الاعترافات، ذلك لأن الحوار الأدبي قد حقق ثمرته المرجوة وقادنا نحو الحقائق.. واتجه في طريقه الصحيح يستعرض النصوص التراثية بدلاً عن الأشخاص وهذه الأمور هي

---

(١) كان اعتراف الأستاذ العقيلي صريحًا في هذا الرد على عكس ردوده السابقة، وكان ذلك هو المطلوب من وراء نقداتي أو نقدات الأستاذ الحازمي. (العمير)

أهم غايات الحوار الأدبي، فشكرًا للأستاذ العقيلي وزميله العمير اللذين أقحماني وسط موج لا أحسن السباحة فيه، ولن أجد بدًّا من خصومة (ما دام الفاس قد وقع في الرأس):

إذا لم يكن الا الأسنة مركب فما حيلة المضطر إلا ركوبها

نعم لقد حفلت كلمة الأستاذ العقيلي باعترافات واعترافات، وبيّن فيها بصراحة تامة (منهجه في تحقيق التراث) غير عابئ باعتراضات الجاسر ولا بنقدات العمير ولا بملاحظاتي - رحمة بالقراء - وحاول مناقشة بعض جوانب لم يحالفه التوفيق في عرضها على الصواب.. من أجل ذلك كان لزامًا عليّ أن أحاول بقدر إمكاناتي البسيطة أن أعيد الكرة..

لقد استهل أستاذنا الكريم رده بقوله: (وإشارة الأخ الكريم أنني قد أتيت على كتاب نفح العود للشيخ العلامة عبدالرحمن البهكلي.. وأخذت منه الفصل الخاص بأيام الشريف حمود دون أدنى إشارة إلى ذلك كما اعتمدت على كتاب العقيق اليماني للشيخ العلامة عبدالله بن علي النعمي الضمدي والديباج الخسرواني للعلامة الشيخ حسن بن أحمد عاكش دون إشارة إلى أي منهم.. إلى جانب ما لدي من مخطوطات أخرى لم يطلع عليها دون الإشارة إلى ذلك فأولاً إن المصادر تكون عادة في آخر جزء من الكتاب، وهذا ما فعلته بالنسبة إلى الطبعة الأولى)[1] ثم أخذ يسرد المراجع التي يذكر أنه وضعها في آخر جزء من الكتاب وبعد أن فرغ من سردها استطرد قائلا: (مع ملاحظة أنه في ذلك التاريخ عند تأليف الكتاب لم يكن قد شاع الأسلوب الأكاديمي بالنسبة إلى أغلب شبه الجزيرة، بل إنه لم يكن قد تأسست نواة جامعة الملك سعود، فاكتفيت بوضع قائمة بالمصادر بدون توثيق بالهوامش.. وأغلب الكتب التي ألفت في ذلك التأريخ تكتفي بقائمة المصادر مثل:

---

(١) هاهنا مغالطة وإلا فإنه لا يكتفى بقائمة المراجع.. بل لا بد من الإشارة عند كل نص في هوامش الكتاب.

تأريخ السباعي المطبوع سنة ١٣٧٢هـ - ويقصد تاريخ مكة.

قلب اليمن للمقدم محمد حسن - المطبوع ١٣٦٧هـ..) إلخ[١]

واختتم هذه التبريرات التي ساقها على الملاحظة الأولى وإن تجاوز في سردها عمودين من أعمدة إحدى صفحات جريدة المدينة الغراء فقد اشتملت إلى جانب الاعتراف والوعد والتبرير على نقاط لا بد من إيضاحها:

أولاً: فتأريخ تأسيس جامعة الملك سعود معروف وقد سبقها إلى الظهور جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية حيث تأسست قبل سنة ١٣٧٦هـ.. ومع ذلك فليست جامعة الملك سعود التي ابتكرت توثيق النصوص ووضع علامات التنصيص والإشارة إلى ذلك أسفل الصفحات.. وإنما ذلك هو منهج الباحثين والمحققين.. وإذا كان الأستاذ العقيلي قد سبق تأسيس الجامعات في المملكة - كما يقول.. فلقد كان الأجدر به أن يسلك طريق من سبقه من الباحثين والمؤرخين.. أمثال الشيخ حمد الجاسر.. والشيخ أحمد السباعي.. والدكتور حسن إبراهيم حسن وغيرهم.. فيوثق نصوصه.. إلخ

ثانيًا: إن ذكر المصادر في صلب الكتاب أو في آخره لا يعفي أي مؤرخ أو مؤلف من وضع علامات التنصيص عند بداية أو نهاية أي نص يسوقه في ثنايا مؤلفه.. بل إن دمج تلك النصوص دون تمييزها بوضع علامات التنصيص يعتبر انتحالاً لأفكار الآخرين ومروياتهم، وهذه أمور نربأ بالأستاذ العقيلي أن يظل يستمرئها لنفسه.

ثالثًا: وإذا تغاضينا عن طبعة الكتاب الأولى - وإن لم نقبل تلك المبررات فما عذر صاحبنا وقد أعاد طبع كتابه في عهد توجد فيه ست جامعات بالمملكة - إضافة إلى جامعة الملك سعود.. وما يزيد عن هذا العدد في شبه الجزيرة العربية.

رابعًا: ولقد تصفحت كتاب تأريخ السباعي الموسوم (تأريخ مكة) فوجدته قد

---

(١) لو اعتذر العقيلي بهذا العذر منذ البداية لكفانا الأخذ والرد (العمير)

أعاد طباعته في عام ١٤٠٠هـ ربما للمرة السادسة، ورأيت صاحبه قد تدارك النقص وتلافى العيب ـ إذ كان كما ذكر العقيلي في كلمته لم يوثق نصوصه فيما مضى ـ نعم وجدت الكتاب في طبعته هذه وقد وضع مؤلفه علامات التنصيص.. ورقّمها مع ذكر مصدرها وجزئه وصفحته، وإذا كان الأستاذ العقيلي يشك في هذا فسوف أصور له إحدى صفحات الكتاب المليئة بالهوامش والتي تشير إلى مراجع النصوص وأجزائها وصفحاتها.

أما أستاذنا العقيلي فقد أعاد طبع كتابه في عام ١٤٠٢هـ أي بعد اعادة طبع كتاب (تأريخ مكة للسباعي) بعامين، ومع ذلك لم يتدارك الأمر رغم (ما أثير حوله من همس يصل إلى مرتبة الجهر عند صدور طبعته الأولى (كما يقول الأستاذ العمير في مقاله المنشور بصحيفة عكاظ بعددها ٥٨١٥ في ١٤٠٢/٧/٩هـ

ونأتي إلى ملاحظة أخرى من ملاحظاتنا يقول عنها الأستاذ العقيلي:

(أما ما أشار إليه الأخ الكريم حجاب عن مقارنة بين نص ما ورد في نفح العود والديباج الخسرواني فهما من مصادري ولا يمكن لأي مؤرخ ـ فيما أعتقد ـ أن يستقي من مصدره ولا يورد عبارته بعد التصرف بعدت أو قربت...) إلى أن يقول: (أما عبارة منصور بن ناصر فقد أوجزت ما أورد كتاب نفح العود عن عودة منصور بن ناصر وأوردت قوله: (قبيح بنا أن نؤدب الناس على الشيء ونحن لا نتركه) مع التصرف اليسير فيما لا يخرجه عن المعنى...) واختتم هذه الاعترافات بقوله: (ولا يغرب عن فطنتك وفطنة القارئ الكريم أنه لا مصدر لأخبار حمود ومن بعده إلا نفح العود والديباج الخسرواني)، ومع أنها اعترافات في غاية الأهمية إلا أنها تحتاج إلى الإيضاحات التالية:

١ ـ ليس نصًا واحدا هو الذي أثبت به وقوع كتاب العقيلي (تاريخ المخلاف السليماني) بين أحضان كتابي نفح العود والديباج الخسرواني.. وإنما هي

نصوص كثيرة ذكرت بعضها بالنص مقابلاً إياها بما يماثلها في كتاب العقيلي.. وأشرت إلى رقم الصفحة والسطر لعدد غير قليل من النصوص الموجودة في كتاب العقيلي ورقم وصفحة ما يقابلها من النصوص في كتابي نفح العود والديباج الخسرواني المأخوذ عنهما.

كما احتفظت بعدد آخر من النصوص سوف أشير إليها حين يحين وقتها

٢ ـ لا يختلف اثنان فيما ذهب إليه الأستاذ العقيلي من أن كل مؤرخ له الحق أن يستقي من مصادره ويتصرف في بعض نصوصها ولكن لا بد أن يعترف بذلك ويشير إليه في هامش الصفحة بعد وضع علامات التنصيص قائلا في أسفل الصفحة: (بتصرف عن كتاب... كذا... جزء... كذا ـ صفحة... كذا).

ولست بحاجة إلى القول بأن الأستاذ العقيلي مطالب بأن يضع قوسين كبيرين أمام الفصلين المشار إليهما من بدايتهما إلى منتهاهما ويقول: بتصرف وبغير تصرف عن كتابي نفح العود والديباج الخسرواني..

وأشار الأستاذ العقيلي في إحدى ملاحظاته إلى كتاب الديباج الخسرواني في عبارة فهمت منها التقليل من شأن الكتاب حيث يقول: (وأما الديباج الخسرواني فهو كتاب مستقل بذاته لا تعدو صفحاته مائة صفحة من القطع المتوسط).

وواقع الكتاب يغاير هذا القول، فالكتاب يقع فيما يقارب ثلاثمائة صفحة، وبين يدي صورة من مخطوطة الكتاب بقلم المؤلف ـ حصلت عليها مؤخرًا، رغم نقصها وتآكل الجزء الأخير منها تؤكد ما ذكرته وسوف أبعث صورة من الصفحات الأخيرة للمحرر لعله يتكرم بنشرها مع هذا المقال[1] حتى تتضح الحقيقة أمام القراء ويدركون أن الأستاذ العقيلي قد ظلم هذا الكتاب مرتين: الأولى حين أصدر كتابه محاضرات في الجامعات والمؤتمرات السعودية الذي قدر فيه عدد صفحات الكتاب بمائة وأربع وعشرين صفحة.

---

(١) عرفت من الأصدقاء في عكاظ أنه لم يكن ممكنًا ـ من الناحية الفنية ـ نشر صور تلك الصفحات حيث كانت ستحتل مساحة كبيرة جداً ولذلك لم تنتشر (العمير).

والثانية في كلمته هذه حيث ناقض نفسه وتقديره الأول فقدره بمائة صفحة لا يتجاوزها.. فهل نأخذ أحد قوليه الظالمين؟؟ أم المرجع ترقيم الكتاب بقلم المؤلف؟ والكتاب قبل أن نقلل من شأنه أو من عدد صفحاته يؤرخ لفترة تزيد عن نصف قرن إلى جانب احتوائه على ذكر قبائل منطقة جازان عامة.. وقبائل مدينة ضمد خاصة إلى جانب التراجم الوافية لمعظم علمائها ورجالاتها..

ويكفي الكتاب علاوة على ذلك أنه لأستاذ كبير من أساتذة كتّاب تأريخ المخلاف السليماني.

أما عن كتاب (نزهة الظريف) الذي أكمل به الحسن بن أحمد عاكش كتاب أستاذه العلامة البهكلي (نفح العود) ويصر الأستاذ العقيلي على تسميته تكملة.. وينسب نزهة الظريف لعبدالرحمن البهكلي.. فإنني أود أن أهمس في أذن الأستاذ العقيلي أنني لست وحدي من يقول هذا فقد سبقني محمد محمد زباره في كتابه نيل الوطر في تراجم رجال القرن الثالث عشر ج١ ص.٣١٧. وكذلك عبدالله محمد الحبشي صاحب كتاب مصادر الفكر الإسلامي العربي في اليمن ص ٤٥٨.

أما الكتاب الذي ألفه عبدالرحمن البهكلي ويحتوي على أخبار الشريف محمد بن أحمد فاسمه (خلاصة العسجد في أيام حوادث دولة الشريف محمد بن أحمد) كما يقول الشوكاني في كتابه البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ص١ ٣٢٢، ويقول ذلك زبارة في كتابه نيل الوطر ج ٢ ص ٢٦، ويقول ذلك أيضًا الحبشي صاحب كتاب مصادر الفكر الإسلامي والعربي في اليمن ص ٤٥٢

وإذا كان الأستاذ العقيلي متأكدًا مما يقول فما عليه إلا أن يرينا صورة صفحة الغلاف المخطوطة التي تثبت أن نزهة الظريف للعلامة عبدالرحمن البهكلي مع تصوير المقدمة التي سيبين فيها المؤلف عنوان كتابه ودواعي تأليفه كعادة معظم المؤلفين، فهل نطمع في ذلك حتى يزول اللبس؟؟

ولست أدري لماذا هذه النوازل تأتي غالبًا على علامتنا عاكش وكتبه؟؟ فالديباج الخسرواني لعاكش في ادعاء الأستاذ العقيلي (لا يعدو مائة صفحة) - مع أنه يقارب ثلاثمائة صفحة - ونزهة الظريف التي تجمع المصادر أنها للعلامة عاكش يجعله الأستاذ العقيلي للبهكلي.. وبعض صفحات نزهة الظريف - تكملة نفح العود - يشك فيها الأستاذ العقيلي كما في ملاحظة ص ٢٧٨ من كتاب نفح العود هل هي للبهكلي أم لعاكش؟!!

وعاكش في مقال الأستاذ العقيلي المنشور بمجلة الدارة العدد الأول السنة الثامنة شوال ١٤٠٢هـ ص١٥٦، عمره حين وفاة الشريف حمود سنتان - مع أن العلامة عاكش من مواليد ١٢٢١ ووفاة حمود في سنة ١٢٣٣ فهل يكون عمره سنتين؟؟ ولولا أن الأستاذ العقيلي كتبها بالحروف لظننت أن ذلك خطأ مطبعيًّا!!

في رأيي المتواضع أن علامة الجزيرة في القرن الثالث عشر لا يستحق من الأستاذ العقيلي كل هذا.. وهو صاحب المؤلفات العديدة التي تملأ أرفف مكتبته سيما وهو أحد العلماء الأعلام في ضمد وممن ساهم بفكره وقلمه في تأييد الدعوة السلفية من أمثال قوله في الديباج الخسرواني ص٢٤ مخطوط بقلم المؤلف:

(فان عامة ما هم عليه هو الدعوة إلى التوحيد وترك ما عليه الآباء والجدود من التقليد، وهدم ما أمر الشرع بهدمه) (فإنه بدعوتهم زالت بدع كثيرات، وارتدع الناس عن المنكرات، فجزاهم الله خيرًا والأعمال بالنيات، وقد أبان السيد إبراهيم محمد الأمير - رحمه الله تعالى - في مؤلفه (فتح الكبير المتعال الفارق بين الهدى والضلال) طريقة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب واستدل على صحة ما دعا إليه مما لا يبقى لمنصف بعده ارتياب، أنه على طريق الصواب)

أما عن رسالة الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود التي وجهها إلى أشراف

المنطقة وأمرائها فإنني أحسد الأستاذ العقيلي على شجاعته الأدبية حيث اعترف بعدد كبير من التجاوزات على أنني أكرر القول بأنها لا تقل عن أربعين تجاوزًا واستثناؤه للجمل الدعائية في غير محله، فهو مطالب بنقل النصوص كما هي دون تقديم ولا تأخير ولا تبديل وفاء بحق الأمانة العلمية.. وليست رداءة النسخ الخطية ـ كما يدّعي ـ مبررًا كافيًا فهو صاحب المخطوطات النادرة، ولن تعجزه المقابلة والتصحيح. ورسالة زعيم مسلم كالإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود ليس فيها ما يثير عصبية، ولا يخالف روح العصر، وإنما هي دعوة خيرة جديرة بالاهتمام وبتبرئتها من الحذف والتقديم والتأخير والبتر!!

أما عن منهج العقيلي في تحقيق التراث فقد أكده هذه المرة بعبارة جريئة حيث قال: (وتحقيق التراث إما أن يورد الأصل ويعلق عليه، أو أن يختار ما يوائم روح العصر ويشار إلى ذلك) ويعترف أن الأخير هو منهجه الذي اختاره لنفسه.. وهنا أجدني غير قادر على إعادة ما كتبته في المقال السابق، كما أنني لست بحاجة للاسترشاد بعلامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر وهو من أبرز المحققين والباحثين في شبه الجزيرة فقد بُحَّ صوته، ولا بآراء كل محققي الدنيا الذين يختلفون مع العقيلي في منهجه الذي اختاره لتحقيق التراث.. أجل لن يقتنع العقيلي إلا بمنهجه وعلى تراثنا المتصرف به تتنزل شآبيب الرحمة ما دام مصرًّا على هذا المنهج إلا إذا اعتبرنا قوله: (وأهيب بإخواني أبناء المنطقة إلى التعاون البناء والتعاضد النافع) إذا اعتبرنا قوله هذا دعوة إلى التعاون من أجل تحقيق ما لديه من مخطوطات فإنني واحد من أبناء المنطقة، أمد كلتا يديّ مرحبًا وآمل أن أحظى بثقته لأتعاون معه في تحقيق إحدى مخطوطات مكتبته المتعلقة بتراث المنطقة، وأعده أن أبذل قصارى الجهد.. فهل نطمع في صدى النداء؟؟

أما عن ملاحظته حول ما بادرت به من ملاحظات حول تحقيق نفح العود وما سجلته من عدم فهم النص الذي يقول فيه العلامة حسن بن أحمد عاكش تكملة نفح العود (ودخلت سنة ١٢٢٧هـ....) إلخ. فلن أعيد على القراء ما أوضحته سابقا في المقال المنشور بعكاظ بتاريخ ١٤٠٢/٩/١٨، ولكنني أدعوه مرة أخرى لقراءة النص ـ كما أدعو القراء أن يرجعوا إلى ص ٢٧٨ من كتاب نفح العود ويتأملوا النص المشار إليه في هامش الصفحة ليحكموا لي أو للعقيلي!!

ولا ريب أن أي قارئ سيدرك معي أن من حق عاكش حين كان يكتب التكملة بعد أن قارب عمره السبعين أن يفيد ممن سبقه من المؤرخين أمثال ابن غنام وسواه، ومن واجبه أن يشير إلى ذلك كما تقتضيه الأمانة العلمية.

أما النص الأدبي المحقق أيضًا والذي أورده الأستاذ العقيلي مثلما أورد غالبية نصوص الكتاب دون شرح لغريب ألفاظه أو تحليل لبعض أفكاره فقد طبق عليه المنهج إياه ـ الاختيار لما يوائم روح العصر ـ ولم يسلم من حذف أو تقديم وتأخير وتغيير لبعض ألفاظه ومع ذلك فحين أشرت إلى ذلك في مقالي السابق أراد أن يبرر تلك الأخطاء فوقع في أخطاء أخرى..

يقول الأستاذ العقيلي في ذلك: (فأنا لم أكتب إلا ما وجدت في النسخة التي اعتمدت عليها وهي بالآلة الكاتبة).. وبالرجوع إلى الديباج الخسرواني وجدت الكلمة (يعضده) يتقدمها عين مهملة وضاد منقوطة بنقطتين مما يتبادر إلى الذهن أنه يعقده.

أما الملاحظة الثانية ـ يقصد ملاحظتي السابقة ـ حول البيت:

وأنت أم المعالي عنك حادبة عن أن يصيبك سهم البين بالقصد

ففي الديباج الخسرواني بخط المؤلف:

وأن أم المعالي عنك حادبة عن أن يصيبك سهم البين بالقصد

فيكون السهو منك في موضعين (أنت) بدل (أن) و(حادبة) بدل (حادية)
والبيت الثالث:

تالله لو ملكت كفاك عاملها حتى اعتلى بك نعب الصارخ العتد

فالبيت في الديباج الخسرواني هكذا:

تالله لو ملكت كفاك عاملها حين اعتلا بك نعب الصارخ الغرد

فيكون السهو منك في موضعين (حين) بدلاً من (حتى) و(العتد) بدلاً من (الغرد)

انتهى الرد الذي وجهه الأستاذ العقيلي حول ملاحظاتي عن هذا النص.

ويؤسفني أن تبريراته هذه كلها غير صحيحة ما عدا (أنت) أتت بدلاً من (أن) وقد أتت سهوًا لكثرة تكرار الضمير (أنت) في أبيات القصيدة وما عدا ذلك من ألفاظ فقد جانبه فيها الصواب.. ولن أعيد ما كتبته ولكنني أكتفي ببعث صورة جزء للنص (من قصيدة البهكلي في رثاء منصور بن ناصر- وهو الجزء المشتمل على الأبيات المختلف عليها) من مخطوطة الديباج الخسرواني بقلم المؤلف وهو قلم معروف للعقيلي ولغير العقيلي، لعل المحرر يتكرم بنشرها فربما يقتنع الأستاذ العقيلي بخطئه قبل القراء ومعرفتهم بالحقيقة.. وإني على ثقة من أن القارئ سوف يجد ملاحظاتي واقعًا لم أفتعله وأن تبريرات الأستاذ العقيلي أتت كما يقال على طريقة (أعربه فأعجمه).

وبعد: فقد وعدت القراء بدراسة موسعة لنفح العود تتناول بعض نصوصه المحققة.. وسوف أحاول الوفاء بوعدي مستقبلاً - إن شاء الله - غير أنني أستعجل هذه المرة أيضًا وأورد ثلاث ملاحظات حول هوامش نفح العود القليلة جدًّا وآمل أن يتقبلها الأستاذ العقيلي.

الملاحظة الأولى على هامش ص ٦٨.

يقول الأستاذ العقيلي في هامش صفحة ٦٨ من كتاب نفح العود حول قول

الحسن بن أحمد عاكش واصفًا أسلوب شيخه البهكلي (بعبارة أرق من النسيم وأبهر من الروض النظير) يقول الأستاذ العقيلي في الهامش بعد ان يضع خطًّا تحت كلمة (النظير): (الصحة بالضاد لا بالظاء وهو جبل مخضر الجنبات تابع لليمن) وتصحيح النسخ عينه الصواب.. لكنه أخجلنا حين تكلف لكلمة النضير بعد تصحيحها معنى غير مقصود فالرجل يشبه الأسلوب بالروض.. أي روض؟ ـ انه روض نضير ـ بمعنى غض حسن بهيج وقبل أن نصعد مع العقيلي إلى جبل النظير أعيد إلى ذاكرته النص في قوله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمئِذٍ نَاضِرَةٌ إلى ربها ناظرة) (والأولى بالضاد والثانية بالظاء)، ومعناها كما يقول الشوكاني في كتابه فتح القدير: (ولا يخفى أن ناضرة الأولى بالضاد معناها ناعمة غضة حسنة، يقال: شجر ناضر وروض ناضر.. وناظره الثانية بالظاء ومعناها النظر إلى الخالق ـ سبحانه وتعالى) وفي الحديث: (نضر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع)، وعلى هذا فالنظير المصححة من المحقق إلى الضاد وليست بالظاء إنما معناها البهيج الناضر الحسن.. وليست جبل النظير..

الملاحظة الثانية على هامش ص ٢٠٦:

يقول الأستاذ العقيلي في هامش صفحة مائتين وست (غزوة نجران لم يشر إليها ابن بشر في كتابه عنوان المجد لا في حوادث سنة١٢١٩، ولا في حوادث سنة ١٢٢٠ ولا بعدها).

والواقع أن العلامة عثمان بن بشر قد رصد تلك الأحداث في مؤلفه القيم عنوان المجد في تاريخ نجد) وذلك في صفحة (١٣٨) في منتصف السطر الرابع من الصفحة حيث يقول: (وفيها ـ أي السنة العشرين بعد المائتين والألف ـ أمر سعود على عبدالوهاب ورعاياه من عسير وألمع وغيرهم.. وفهاد بن شكيان ورعاياه من بيشه وغيرها.. وعبيده وأهل سنحان ووادعه وقراها وأهل وادي

الدواسر ومن تبعهم قيمة ثلاثين ألف مقاتل وذكرهم يقصدون نجران لقتال أهله فسار هؤلاء الجموع ونازلوا أهل بدر مدة أيام...) إلخ

أفلا ترى أن ابن بشر قد ذكر غزوة نجران في حوادث سنة ألف ومائتين وعشرين؟؟ وليست هذه هي المرة الأولى التي ينكر فيها الأستاذ العقيلي جهود العلامة ابن بشر في رصد الأحداث، فلقد أنكره أيضًا من ذكر نص بيعة الشريف حمود مع أنه لو رجع إلى الكتاب بشيء من أناة الباحثين لوجد العلامة ابن بشر قد ذكر في ص ١٤٦ السطر الحادي عشر، وما كان أحرى الشريف حمود والعلامة ابن بشر بالإنصاف من الأستاذ العقيلي..

الملاحظة الثالثة على هامش ص ٢٥٢

يقول الأستاذ العقيلي: (قدر الشوكاني صاحب مطالع البدور جيش عبدالوهاب بمائة ألف مقاتل، وجيش حمود بسبعة عشر ألفا، وملاحظتنا حول الشوكاني فهو ليس صاحب مطالع البدور، وإنما هو مؤلف كتاب - (البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع) وهو كتاب مشهور يقع في مجلدين.. أما كتاب مطالع البدور فهو كتاب مخطوط يقع ضمن محتويات مكتبة العقيلي ومؤلفه أحمد بن أبي الرجال..

ولولا تكرار جملة صاحب مطالع البدور في الهامش ذاته ثلاث مرات لظننته خطأ مطبعيًّا.

وبعد: فهذه ملاحظات لا أقلل بها من شأن العقيلي فهو مرجع الباحثين يفدون إليه للاستفادة من مكتبته، ولكنها بحث عن الحقيقة وإيضاح للواقع ومحاولة للتخلص من الموقف الذي وقعت فيه، حين تحولت من وسيط إلى صاحب الشأن فتحية للأستاذ العقيلي وصديقه العمير، على أمل أن ألتقي مع القراء في فرصة قريبة - بإذن الله

عكاظ ١٤٠٢/١٢/٢١هـ

تاريخ المخلاف السليماني
ودواوين السلطانين وابن هتيمل والجراح

تابعت باهتمام وإعجاب كبيرين ما كتبه أستاذنا أحمد محمد الشامي في مجلة (الفيصل)، ثم في ملحق الأربعاء عما لاحظه على الطبعة الثانية لديوان السلطانين من مسخ وتشويه وبتر وعبث من قبل محققه محمد أحمد العقيلي.. الأمر الذي جعل من الديوان المذكور مجرد مهزلة أدبية، أو مسخ (شائه)!.

ولست أشك أن أستاذنا الشامي، لو كان قد اطلع على الطبعة الأولى للديوان، والتي صدرت منذ حوالي عشرين عامًا، لما كان قد سكت طيلة هذه المدة.

ولو علم أستاذنا الشامي أن ديوان السلطانين ليس غير حلقة صغيرة من سلسلة طويلة.. طويلة، تمتد إلى ما قبل أربعين عامًا حين كان العقيلي في وظيفة كاتب حسابات في مالية جيزان، وكانت (المالية) حينذاك مقصد كبار القوم ومشايخ القبائل، فاستطاع العقيلي بواسطتهم أن يحصل على مخطوطات كثيرة كانت في خزائن أولئك الناس البسطاء..

وهكذا حصل على مجموعة كبيرة من المخطوطات التاريخية والأدبية والدواوين الشعرية، وكان - وما زال - لا يخلو من ذكاء ومخاتلة، فبدأ قبل كل شيء في (تلفيق) تاريخ أسماه: «المخلاف السليماني.. أو الجنوب العربي في التاريخ»، حشده بالنقل الحرفي دون توثيق من بين أكداس المخطوطات الموجودة لديه، ولديه وحده.. حتى لقد نقل فصولا بأكملها ونسبها إلى نفسه حتى استقام له من كل ذلك كتاب من جزءين ضخمين.

حينذاك كان التعليم في المنطقة شبه معدوم أو هو في بداياته الأولى، وهكذا

لم يجد من أبناء المنطقة من يتصدى له، فاستمرأ ذلك.. وبدأ بنشر عدد من الدواوين (ديوان السلطانين وديوان ابن هتيمل، وديوان الجراح إلخ)..

وأيضًا لم يجد من يتصدى له.. أو يقول له (ثلث الثلاثة كام)؟

فكان لا بد أن يحيط نفسه بهالة المؤرخ، والباحث، والمحقق مع اضافة (الأوحد) إلى كل صفة من تلك الصفات!!

وهو الأمر الذي أعماه أخيرًا، فجعله يفقد صفة الذكاء حين أقدم منذ العام الماضي على إعادة طبع كتبه تلك.

وخانه الذكاء أكثر فأكثر حين أطمعته ماديًا (دارة الملك عبدالعزيز) فنشرت له إحدى مخطوطاته السرية، وهو كتاب (نفح العود في دولة الشريف حمود).

وقد انبرى كاتب هذه السطور لكتاب (تاريخ المخلاف السليماني) وأوسعه نقدًا وغربلة في عدد من المقالات المطولة.. ثم تحمس أحد الباحثين الشباب من أبناء منطقة جيزان وهو الأستاذ (حجاب بن يحيى الحازمي الضمدي)، فشارك مشاركة فعالة.

وقد أسفرت تلك المعركة عن إثبات ما يلي:

* **عدم** تسلسل الأحداث التاريخية نتيجة سوء التأليف.

* **حجب** بعض الأحداث التاريخية بصورة متعمدة.

* **تشويه** الحقائق التاريخية الوارد ذكرها.

* **نقل** فصل بأكمله، ثم عدة نصوص من كتاب (نفح العود) دون أية إشارة إليه.

* **نقل** عدة نصوص من كتاب (الديباج الخسرواني) دون أية اشارة أيضًا.

* **نقل** نصوص من مخطوطات وكتب مطبوعة دون الإشارة إليها.

وقد اضطر العقيلي أن يحني رأسه لمطرقة النقد، سواء من قبلي أو من قبل أخي الأستاذ حجاب الحازمي.. واضطر بالتالي - أي العقيلي - للاعتراف الصريح بمعظم نقداتنا وملاحظاتنا، أنا وزميلي، وإن كان قد برر اعترافه بمبررات واهية.

وان المقالات التي دارت في هذا الصدد يمكنها أن تشكل قوام كتاب ضخم، نأمل أن يصدر قريبًا[1]

ولقد أتيح لي شرف الاطلاع على ما كتبه أستاذنا الشامي قبل نشره، وحمدت له غيرته الصحيحة الصريحة على ما لحق بديوان السلطانين من مسخ وتشويه، فتمنيت أن أحظى بمقابلته لأهديه الكتب الأخرى للعقيلي، ولأعطيه نسخة مصورة من المقالات النقدية العديدة التي دارت حولها، وحول مفهوم العقيلي لتحقيق التراث ليكون على بينة من كل ذلك.

ولقد اطلعت على رد من أستاذنا الشامي في ملحق الأربعاء، كما اطلعت على رد العقيلي، وتهجمه الشخصي غير الكريم وغير المنطقي.. فلم أعجب من أسلوب العقيلي لأنني قد بلوت طريقته في الدفاع المتهالك عن نفسه.

ألا فاعذره يا أستاذنا الشامي حيث لا تعلم عن مدى السقوط الذي يشعر به، لقد تربع على كرسي الأستاذية أكثر من ربع قرن حتى جاء شخص بسيط يدعى (علي العمير) وشخص آخر يدعى (حجاب الحازمي) فسحبا بساط الأستاذية من تحت قدميه، وتركاه ـ أمام الناس ـ يتلظى بالرمضاء المحرقة.. فهو ـ من ثم ـ آخر من تجوز له مخاطبتكم باسم الأدباء السعوديين فهم يعلمون أكثر مما يعلم هو القابع في (سبخته) لا يدري شيئًا عما حوله.

الشرق الأوسط

العدد: ١٧٤٤

١٤٠٣/١١/٣٠هـ

---

(١) هو هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

مع الدكتور. طبانه

* عرض الرماح؟!

* ابن النديم

* تمخض الجبل..!!

بين طبانه والعقيلي

عرض الرماح؟!

خطأني الدكتور بدوي طبانه مرتين

وكان ذلك في جلسة واحدة، وعلى مشهد من خيرة العلماء والأدباء في ندوة أستاذنا عبدالعزيز الرفاعي

خطأني وسخر مني حين ذكرت كتاب (الفهرست) وقلت إنه لابن النديم..

فقال: ماذا؟

قلت: ابن النديم

قال: إنه النديم فقط، وليس ابن النديم.. وبلعتها فعلاً خشية أن تكون معلوماتي خاطئة، وبخاصة أنني أمام دكتور (أد الدنيا) بدوي طبانه

ولكني عندما عدت من الرياض، رجعت إلى نسختي الخاصة فوجدت ما كنت على يقين منه (ابن النديم) وليس (النديم) وذلك - على الأقل ما هو مثبت على ظهر نسختي، وفي باطنها، وعلى جوانبها أيضا.

هذه واحدة..

أما الثانية.. فقد جاء ذكر (الزبير بن بكار) فشاركت بالحديث عنه بحكم كوني صاحب اهتمام به، وقد كتبت عنه مؤخرًا بحثًا مفردًا في مجلة الفيصل.

سألني الدكتور طبانة - بكل استخفاف

- وهل تعرف أنه مات ودفن في مصر؟

ولم أستطع أن أبلع هذه أيضًا.. فقلت له: لا - يا سيدي - لقد مات ودفن بمكة المكرمة، حيث تولى القضاء بها، ومات وهو على قضاء مكة، وذكرت له مصادري وأزيد الآن فأقول:

إنني لم أطلع على رواية واحدة تقول إن (الزبير بن بكار) قد زار مصر، مجرد زيارة، وذلك رغم كثرة الروايات والتراجم التي قرأتها عن (الزبير) في الكتب القديمة والحديثة.

ومن هنا لست أشك أن الدكتور بدوي طبانه.. إنما يريد أن يضم (الزبير بن بكار) إلى الأعداد الهائلة المزعوم دفنها في مصر - زورًا وبهتانًا!!

ومن هنا أيضًا تأكد عندي أن الدكتور طبانه لا يعامل أي جليس له إلا بمثل ما يعامل به أدنى طلابه لكثرة ما تعود الاحتكاك بالطلاب (وليرحم الله الجاحظ)؟!!

لقد كنت أقرأ للدكتور بدوي طبانه باطمئنان كبير..أما منذ الآن فلن أكون واحدًا من زمرة طلابه.. بل سأتيقن من كل كلمة له، وهذا إذا اضطررت أصلاً لقراءته.. وإلا ففي كتب غيره مندوحة.

واخيرًا.. أريد أن أهمس في أذن الدكتور طبانة بمجرد بيت من الشعر هو:

جاء شقيق عارضًا رمحه   إن بنى عمك فيهم رماح

وأنه إذا كان قد استعرض رمحه ضدي على رؤوس أشهاد خيار.. فانني هنا لأريه رمحي على رؤوس القراء.

عكاظ ١١/٣/١٤٠٣هـ

تمخض الجبل؟!!

أكتب مقالي المتواضع هذا، وأنا هنا في الرياض على بعد شاسع عن مكتبتي في جدة، ولو كنت بجوار مكتبتي لتخلصت من حرج النسيان هذا الذي وقعت فيه منذ بداية موضوعي حيث أريد أن أذكر بالتفصيل قصة ذلك المثل القائل: (سماعك بالمعيدي خير من أن تراه)

ولكن لعل مما يخفف حرج النسيان هذا.. أن قراء (الجزيرة) لا يمكن أن يجهلوا قصة هذا المثل ومعناه!!

أما الشاهد في هذا المقام بالذات.. فهو أنني كنت أسمع بالدكتور بدوي طبانه.. وأقرأ له أيضًا، وخاصة في مجال النقد الأدبي.. وأنا رجل لا أخلو من غباء.. أو من حسن نية.. أعتمد على الله.. ثم على دعاء الوالدين وما شابه ذلك، وأي رجل هذا شأنه لا بد أن ينخدع - في كثير من الأحيان - بما يسمع أو يقرأ!!!

وكان هذا هو شأني - على وجه التحديد - مع الدكتور بدوي طبانه عندما حظيت بكل شرف التعرف عليه شخصيًا إذ صدمت في الحقيقة بوجود بون شاسع وهوّة سحيقة - لا يسهل ردمها - بين الصورة التي كانت في ذهني للدكتور طبانه من خلال السماع والقراءة.. وبين الصورة الماثلة شخصيًّا أمامي من خلال طريقته في الحديث أو أسلوبه في التعامل مع جلسائه أو غير ذلك مما شاهدته وسمعته منه - على الطبيعة - منذ أول اجتماع بيننا.

وعلى كل حال فإن ما ذكرته إلى الآن، ليس غير مقدمة، كان لا بد منها لتسهيل الدخول إلى الموضوع الذي نحن بصدده مع الدكتور طبانه.

لقد فوجئت اليوم (١٤٠٣/٣/١٩) بمقال أطول من ليل أمرئ القيس، كتبه في الجزيرة الدكتور (بدوي طبانه) ردا على كلمة عابرة متواضعة، في أسطر قليلة جدًّا ضمن زاويتي اليومية في (عكاظ).[1]

فلت أنني فوجئت بالمقال، وخاصة بطوله وعرضه.. ذلك لأنني لم أكن أتصور أنني أستحق كل هذا الطول والعرض من أستاذ جامعي كبير، كما أنني لم أتصور أن كلمتي الصغيرة تلك كانت من القوة بحيث لا يمكن الرد عليها من قبل (دكتور) إلا بكل هذا الحشد والاحتشاد!!

وهنا.. لا أكتم قراء (الجزيرة) أن المفاجأة قد انقلبت عندي إلى ما يشبه (الدغدغة) الأدبية - إذا صح التعبير - ... ثم زاد الأمر قليلاً فشعرت بشيء من الزهو.. لم ألبث بعده أن حمدت الله واستغفرته.

أما الموضوع الأساسي فيما كتبته أنا في كلمتي الصغيرة أو فيما كتبه الدكتور طبانه في مقاله المطول فهو في حقيقة أمره أهون بكثير من أن يكون موضوعا من أساسه بل هو ليس موضوعا على الإطلاق، وإلا فما فائدة أن يراجع الدكتور كل تلك الكتب التي ذكرها، ويهدر وقته الثمين.. ثم يستولي على صفحة كاملة من الجزيرة لا لشيء إلا ليقول لنا إن مؤلف كتاب (الفهرست) هو النديم وليس ابن النديم وليبشرنا أنه قد (وفقه الله) - وهذا تعبيره - إلى هذا الاكتشاف الذي غفل عنه عامة المحققين وكافة الأدباء والباحثين!!

بشرك الله بالخير.. يا دكتور، ويا لفرحتي أن أكون شخصيًّا - رغم قلة شأني - سبب نشر هذا الاكتشاف الباهر!!

أما كيف كان ذلك.. فهو سؤال لا يقل (أهمية) عن أهمية (الاكتشاف) نفسه. ولذلك فإن الإجابة عليه تتطلب بالضرورة للإيضاح والأهمية أن نعود بقراء

---

(١) هي الكلمة السابقة لهذا الموضوع بعنوان (عرض الرماح).

الجزيرة إلى القصة من بدايتها، وليس من نهايتها كما أراد الدكتور.

وسنضطر هنا أن نجاري الدكتور في الأسلوب (التقريري) الذي كتب به مقاله حيث نجعل مقالنا ـ منذ الآن ـ على شكل فقرات، على أن تحمل كل فقرة رقمًا بذاته (كي لا تضيع!!) فنقول، وعلى الله الاتكال:

١ ـ شيء من الأدب

وهذا العنوان ليس من عندي.. بل هو أول شيء بدأ به الدكتور مقاله (الأغر) فأفادنا ـ أفاده الله ـ (أن غير المنكر يجعل كالمنكر) وهذا أمر لا أريد أن أناقشه فيه لأن المقام لا يتطلب النهي عن المنكر ولكني أريد ـ فقط ـ أن أذكر أنني عرفت.. أو (تشرفت) بمعرفة الدكتور طبانه منذ حوالي عام تقريبًا واجتمعت به طويلاً في ندوة أستاذنا الشيخ عبدالعزيز الرفاعي ثم تحدثنا طويلاً أيضًا في الطريق إلى منزله بعد أن رزقني الحظ بشرف إيصاله بسيارتي إلى منزله، وكان من ضمن ذلك الحديث الطويل أنه أصر على معرفة اسمي وعنواني ورقم هاتفي أيضًا.. ورغم ذلك يقول في مقاله إنه لم يعرفني إلا منذ أسبوعين فقط.

وما كنت لأذكر هذا إلا لأدلل على مدى دقة الدكتور طبانه فيما يقول ويكتب، وأتحداه أن ينفي تناقضه هذا في هذه المسألة البسيطة لأن شهودي على ذلك ممن لا يستطيع الدكتور مجرد التفكير في دفعهم!!

هذه واحدة

أما الثانية فقد اجتمعت به فعلاً في ندوة الرفاعي ـ كما ذكر هو ـ وقد دار الحديث المعتاد في هذه الندوة، وكان يدور حول (المناهج) قديمًا وحديثًا.. فذكرت ـ عندما جاء دوري في الحديث ـ أن الجامعة الأمريكية في بيروت أصدرت كتابًا منذ سنوات بعنوان (الأدب العربي في آثار الدارسين) اشترك في تأليفه نخبة أو صفوة ممتازة من (الأكاديميين) المشهورين.

وقلت: إن من العجيب أن الجامعة الأمريكية وصفوة (الأكاديميين) الذين اختارتهم لم يجدوا منهجًا لتأليف كتابهم المشابه لكتاب (الفهرست) لابن النديم غير منهج ابن النديم نفسه.

كان هذا بعض ما قلته، وكان حديثي موجهًا لجميع الحاضرين وليس للدكتور طبانه وحده، وكان حديثي عن (المنهج) وليس عن ابن النديم، وهل هو (النديم) أو (ابن النديم).. ولم أذكر (ابن النديم) إلا أنني ذكرت كتاب (الفهرست).

وكان المفروض أن أي واحد من الحاضرين يريد التعليق على شيء مما ذكرته هو أن يضيف شيئًا في موضوع الحديث نفسه، ولكن الدكتور طبانة - بما عرف عنه من ولعه بالتباهي بعمله، وحبه لإظهار الآخرين بمظهر الجهل - لم يجد - مع أسفه - جهلاً فيما ذكرته عن موضوع المنهج.. فكان لا بد أن يظهر جهلي بأي حال - تلك طبيعته - فمال في جلسته، واتكأ (والتفّت الساق بالساق) ثم منحني نظرة من تحت نظارته.. وقال بلهجة تهكمية في صيغة تساؤل:

من هو مؤلف (الفهرست)؟

قلت: ابن النديم.

قال - مرة ثانية: من؟

قلت: ابن النديم.

قال: لا.. إنه النديم (قالها بطريقة من يريد أن يقول (مش كده يا شاطر).

الزبير بن بكار؟

٢ ▪ قبل حكاية (ابن النديم) وفي الجلسة نفسها.. كان الحديث قد دار حتى وصل (لست أذكر كيف) إلى الزبير بن بكار.. فلما تحدثت عنه شخصيًا.. قاطعني الدكتور طبانه فجأة بتساؤل لا دخل له بما كنت أتحدث فيه.. قال:

وهل تعرف أنه مات ودفن في مصر؟

وألجمتني الدهشة لأسلوبه في أدب الحديث من جهة - قلت إنه قاطعني - ولولعه المذهل بإظهار الآخرين بمظهر الجهل، ولكن لسوء حظه أنني في هذه الناحية بالذات لم أكن جاهلاً كما هو شأني في نواحي كثيرة أخرى.. فقلت له:

لا - يا سيدي - لقد مات الزبير بن بكار ودفن في مكة المكرمة.. ثم ذكرت له المصادر التي يمكنه الرجوع إليها للتأكد.. فلم يحر جوابًا عندما رأى أنني لست ذلك الجاهل الذي توهمه (يبدو أن شكلي يوحي بالجهل فعلاً)،

خيبة ظني في الدكتور

٣ - عندما رجعت إلى جدة.. كان في نفسي (بعض الشيء) من الطريقة التي عاملني بها الدكتور طبانه في تلك الجلسة، والتي لا أستطيع وصفها بدقة، ولا يمكن نشر هذا الوصف - إن استطعته وسمحت به تربيتي - لأنه لا يمكن.. بل لا يجوز أن يكون وصفًا لشخص في مركز الدكتور طبانه.. بل لا يجوز أن يكون وصفًا (لأي بقال)!!

ولكنه - مع كل أسف - هو واقع أمر الدكتور طبانه، وذلك إلى الحد الذي جعلني أستفيد لأول مرة من ذلك القول أو المثل الشائع الذائع (سماعك بالمعيدي خير من أن تراه).

لقد أسفت حقًّا أنني تعرفت على الدكتور طبانه فقد كانت صورته في ذهني - قبل التعرف - حلوة زاهية.

كل هذه الأشياء وغيرها مما لم أذكر دفعتني إلى كتابة كلمة صغيرة في زاويتي اليومية في (عكاظ) كنوع من التنفيس عن كربي وخيبة ظني في دكتوري العزيز.

ويؤسفني أن كلمتي تلك ليست تحت يدي، وأنا أكتب هذا الكلام[1]، وإلا كنت ضمنتها هنا بالنص ليرى قارئ الجزيرة مدى البون الشاسع بين ما كتبته في

---

(١) الكلمة المنشورة قبل هذا المقال ضمن هذا الكتاب.

كلمتي الصغيرة تلك، وبين ما كتبه الدكتور في مقاله الطويل العريض في الجزيرة.

وهو لم يختر (الجزيرة) بالذات لنشر مقاله إلا ليبعد بالقارئ عما يمكن أن نسميه (أرض المعركة) حيث كان المفروض - أن يبعث بمقاله لجريدة (عكاظ) حيث نشرت كلمتي أصلاً.

وربما ظن - من جهة أخرى - أنه لا شأن ولا قيمة لدى المسؤولين في(الجزيرة).

فإذا كان ذلك كذلك فقد خانه التوفيق مرة أخرى، حيث من حسن حظي أنني في الجزيرة - صاحب مكانة لا أستحقها بالفعل، ولكنني أتمتع بها على كل حال!!

وبعد.. فقد انتهينا إلى الآن من ثلاث فقرات أساسية بثلاثة أرقام متسلسلة - على طريقة الدكتور نفسه في مقاله - وسنبدأ - منذ الآن - بأرقام أخرى لفقرات أُخر.. نعلق بها على بعض ما ورد في مقال الدكتور:

وأقول (على بعض) لأنني سأتجاوز الغمزات واللمزات الكثيرة التي حشا بها الدكتور مقاله، والتي أرجو - صادقًا مخلصًا - أن لا يكون قد حشا بأمثالها أذهان طلابه

نبدأ العد:

١ - بدأ الدكتور مقاله تحت رقم(١) باستعراض معلوماته البلاغية التي تعوّد على ترادادها في محاضراته على الطلاب منذ سنوات عديدة، ولكنه نسي شيئًا مهمًّا هو أنه لا علاقة بين تلك المعلومات البلاغية الهائلة، وبين ما ذكرته في كلمتي القصيرة التي علق عليها.. اللهم إلا إذا كان قد أراد أن أفهم أو يفهم القراء أنني لم أكن في شيء من (البلاغة) في كلمتي تلك.. فهذا أمر ما كان يحتاج إثباته إلى أدنى جهد من الدكتور الفاضل البليغ

مجرد همسة عن الرماح

أما ما ذكره عن (الرماح) فهو - من جانبي - لم يكن غير مجرد همسة في أذن

الدكتور.. ولأنها مجرد همسة كنت أرجو أن تظل بيني وبينه فقط دون إشراك القراء وخاصة قراء الجزيرة، بيد أنه وقد أرادها جهرًا لا همسًا، لم يحسب حسابه جيدًا فكان شرحه للبيت الذي همست به في أذنه.. وهو:

جاء شقيق عارضًا رمحه   ان بني عمك فيهم رماح

كان شرحه لهذا البيت عليه لا له.. فقد شرحه من حيث كونه (شاهدًا) في البلاغة.. ولم يشرحه من حيث معناه في المقام الذي نحن بصدده*!!

وبمعنى آخر.. لقد أفادنا بشرحه للبيت كمدرس.. ولكنه لم يستفد منه كناقد!! ما علينا!!

لله في خلقه شؤون

استعلاء الدكتور واستخفافه

٢ ـ قال الدكتور ـ لا فض فوه ـ ما نصه:

«.. فما عمدت في حياتي إلى الحط من كرامة أحد، وما سخرت من بشر وما استخففت بمخلوق، وما استعليت على إنسان مهما يكن ذلك الإنسان»

وقال أيضًا ما نصه:

«... لأني أعرف أن الاستعلاء على الناس والاستخفاف بعباد الله لا يكونان إلا عن ضعة وانحطاط، وأن التواضع فضيلة يجمّل الله بها صفوة العلماء إلخ

وهذه التزكية من الدكتور لنفسه بنفسه ما كان ليكون لي عليها أدنى اعتراض لولا أنه قد نقضها في المقال نفسه بعد أن نقضها في الاجتماع الذي ضمني معه في ندوة الشيخ الرفاعي.

فأما نقضه لهذه التزكية في المقال نفسه فهو معروف لدى القراء.. وأما نقضه لها أيضًا في ذلك الاجتماع فعليه من الشهود من لا يرقى الشك إلى صدق شهادتهم.

ولقد نالني من استعلاء الدكتور وسخريته - سواء في الاجتماع أو في المقال أيضًا - ما لو وُزّع على عدد من طلاب الدكتور لأغرقهم هوانًا وذلاً!![1]

ولم يمنعني من الانتصاف لنفسي أنني لا أملك اللسان الطائل أو القلم السائل.. فهذه مسألة سهلة ميسورة.. بل منعتني من ذلك اعتبارات كثيرة أعرف أن الدكتور لا يجهلها.. فلا أجد ضرورة لذكرها كي لا أزكي نفسي على الله، ولا على الدكتور نفسه.

الدكتور الموفق المكتشف

٣ - كان أكثر من ثلثي مقال الدكتور عبارة عن شرح ضافٍ وافٍ لما (وفقه الله) إليه - وهذا تعبيره - من (اكتشاف) أن مؤلف كتاب الفهرست اسمه (النديم) وليس (ابن النديم).

ونحن نسأل الله أن يرزقنا التوفيق وأن يسعنا ما وسع الدكتور.. ولكنني وأنا أطلب من الله - سبحانه وتعالى - كل التوفيق.. لا يمكن أن أطلب منه - جل شأنه - أن يوفقني إلى هذا النوع من (الاكتشافات) وإن كنت أطلب منه - سبحانه وتعالى - كل ما يراه خيرًا لي.. ولا أظن في هذا النوع من (الاكتشافات) أي خير قط!!

بيد أن هذا (الاكتشاف) الذي يزعمه الدكتور لا يمكن أن يكون بكل هذه الهالة التي أرادها له، وخاصة أنه يقر ويعترف في المقال نفسه أن نسخته نفسها من كتاب (الفهرست) تذكر أن المؤلف هو (ابن النديم) وليس (النديم).

وكل ما هنالك أنه ذكر أن هناك طبعة نادرة صدرت في (طهران) تقول إنه (النديم) وليس (ابن النديم).

ونحن نشارك الدكتور في حمد الله - سبحانه وتعالى - أنه قد عثر - بعد جهد

---

(١) تلقيت - بعد ذلك - رسالة مطولة من أحد طلاب الدكتور يشكو فيها مما يلاقونه من هوان وذل، والرسالة ما تزال تحت يدي.

جهيد ـ على تلك الطبعة النادرة، ولكننا مع ذلك، نود أن نشير إلى ما أشار إليه الدكتور نفسه في مقاله عن (عبث النساخ).. أفلا يجوز أن هذا العبث نفسه هو الذي امتد إلى تلك الطبعة الطهرانية، وسلمت منه الطبعات المصرية والسورية واللبنانية والعراقية والصومالية (الصومال ضمن جامعة الدول العربية)، وفضلاً عن ذلك أي فرق بين (النديم) أو (ابن النديم) مثل أي فرق بين (العمير) أو (ابن العمير) ما دام أن (العمير) هو قلب العائلة أو القبيلة.. أفلا يجوز أيضًا ان (النديم) هو اللقب.. فلا يكون هناك أي فرق!!

البيضة أم الدجاجة أيهما أقدم؟

ثم في النهاية.. ما دام الدكتور يعترف أن اسم (ابن النديم) هو الشائع فعلاً، فهل أكون جاهلا حقًّا إلى الحد الذي أوجب سخرية الدكتور أم أنني كنت مشايعا لما هو شائع.. بل لما هو صحيح، ولي إلى ذلك عودة بعد أن أعود إلى مكتبتي المتواضعة في جدة[1] رغم أنني أعرف سلفًا أن هذه العودة التي أعتزمها لن تخرجني مع الدكتور عن حكاية البيضة والدجاجة.. أيهما أقدم.. ولكن:

إذا لم تكن إلا الأسنة مركب   فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وقد اضطرني الدكتور إلى ذلك بمكابرته رغم اعترافه في مقاله نفسه حيث قال ما نصه:

(فهو مصدق فيما قال ـ يقصدني ـ ولا أماري فيه)!!

ورغم هذا النص الصريح فقد حاول أن يذهب مذاهب شتى، دون أي اعتبار لما يعرفه جيدًا من (أن الرجوع إلى الحق فضيلة).

لا بأس!

---

(١) كفاني عن ذلك الأستاذ نسيم الصمادي بمقاله المنشور ضمن هذا الكتاب بعد هذا الموضوع مباشرة.

٤ ـ أما (الزبير ابن بكار) فإن الدكتور طبانه، رغم أنه تيقن بما لا يدع مجالاً للشك أنني كنت على حق، وأنه كان على خطأ واضح، ورغم اعترافه مرغمًا إلا أنه أبى أيضًا إلا أن يبحث لنفسه عن مخــرج كان أوهى من بيت العــنكـبـوت حيث قال ما نصه:

(وفي القصة وهم على كل حال، وقد أكون المسؤول عن هذا الوهم (كأنه يريد الإنكار) ولعل السبب في ذلك أنني لم أستمع إلى الاسم الذي ذكره كاملا، فحسبت أنه يتكلم عن القاضي بكار (؟) فقلت ما قلت مما رواه الشيخ).

٥ ـ يقصــدني بالمشـيخــة ـ كما قصــدني أيضًا بقــوله (شـخصـيــة هذا العلم الكبير).

وفي أدنى من ذلك ما ينفي تزكيته لنفسه السالفة الذكر في هذا المقال.

من هو القاضي بكار؟

وقال أيضًا ما نصه:

(وأوكد للشيخ الفاضل أن الذي قلته عن القاضي بكار صحيح، وأنه مدفون في القاهرة، وأنني رأيت قبره بعينيّ في الجانب الغربي من قرافة الإمام الشافعي، وعليه شاهد من الرخام مكتوب عليه (هذا قبر القاضي بكار)، ولا أذكر ما وراء ذلك مما هو مكتوب على الشاهد.. أما من يكون القاضي بكار الذي رأيت قبره فإنني أعترف أني لا أعرف عنه كثيرًا أو قليلاً، ولو كان يشغلني لتابعت البحث والاستقراء حتى أهتدي إلى حقيقته.

أما الزبير بن بكار فأنت ـ يقصدني ـ من غير شك أعلم به) إلخ. هل رأيتم أية مشقة تكبدها الدكتور الفاضل من أجل هذا اللف والدوران، ومن أجل مجرد المكابرة حتى في حالة الاعتراف الصريح بأنني أعلم منه بالزبير بن بكار، وهي شهادة أعتز بها، وإن كان تواضعي يدفعها.

ولماذا كل هذا يا دكتور؟

ثم كيف لم تسمع اسم الزبير بن بكار كاملاً، وكان الحديث يدور عنه؟

وهذا الاسم الذي جئتنا به (القاضي بكار) كان الأحرى بك ـ وأنت المكتشف لاسم النديم ـ أن (تكشف) لنا.. من هو (القاضي بكار) هذا الذي قبره في قرافة الإمام الشافعي؟

ولو أنك بحثت ـ يا دكتور ـ مثل ما بحثت عن الطبعة الطهرانية النادرة لكتاب (الفهرست) ومثل ما بحثت في تلك الكتب تثبت أن اسم مؤلف (الفهرست) ليس (ابن النديم) كما هو شائع.. بل (النديم) فقط ـ ويا للحسرة على ضياع (ابن)!!

لو أنك بحثت ـ يا دكتور ـ لربما وجدت أو (اكتشفت) أنني كنت على خطأ، وأن الزبير بن بكار لم يمت ويدفن بمكة المكرمة، وإنما مات ودفن بمصر.. وأنه هو نفسه (القاضي بكار) خاصة وأن الزبير بن بكار مات، وهو على قضاء مكة المكرمة؟

من يدري فقد تكون هناك أجنحة غيبية طارت بجثمانه إلى مصر كما طارت من قبل بجثمان (سيدنا الحسين) وكما طارت بغيره وغيره؟

كيف لم يهمك أمر (القاضي بكار) ولم تنشغل به.. وقد كان يمكن أن تضيف من خلاله (اكتشافًا) جديدًا يفيد جمهرة القارئين المتعطشين إلى المعرفة؟

القبور الشهيرة في مصر؟

إنها مجرد تساؤلات.. وإلا فإنك قد اعترفت تلك الليلة في ندوة الشيخ الرفاعي أنك تعتقد أن معظم القبور الشهيرة في مصر ليست غير مجرد نُصُب رمزية ليس إلا.

اللهم إنك تعرف ـ يا دكتور ـ أن الحق أحق أن يتبع.. وأنه لن يقلل من قدرك وقدر علمك وشهرتك أن يصادف أن العبدلله كاتب هذه السطور كان على حق فيما ذكره عن الزبير بن بكار، وصادف أيضًا أنه ـ أي كاتب هذه السطور ـ لم يكن على خطأ حين ذكر كتاب (الفهرست) وقال إنه لابن النديم.

بعد كل هذا.. نكون قد انتهينا ـ مؤقتًا ـ من بعض ما يجب أن يقال، ولم يبق

غير هامش صغير كنت أود تجاوزه من قبيل التواضع، ولكني تذكرت أن التواضع ليس مطلوبًا في كل الأحوال، وبخاصة في مثل حالتك يا دكتور، ومن ثم لا بد من ذكر هذا الهامش الصغير.

فخر الدكتور طبانة

لقد فخرت يا دكتور - وحق لك أن تفخر - بأنك من أعضاء (ندوة الرفاعي) التي قلت عنها بالنص:

(... التي يؤمها جماعة من الفضلاء أهل العلم والأدب) إلخ.

وكأنما أردت أن تقول بمفاخرتك هذه.. كما قال ذلك الشاعر:

من يساجلني يساجل ماجدًا   يملأ الدلو إلى عقد الركوب

مهلا يا دكتور!!

لقد أكرمني الله بما لم يخطر لك على بال.. فشخصي الضعيف ليس فقط من زوار ندوة الرفاعي، وليس من أعضائها فحسب.. بل من أعضائها المؤسسين بل أنا الذي أسميتها باسمها الذي فخرت بالانتماء إليه، ولم يسمها كذلك الشيخ الرفاعي نفسه، فهو أكثر تواضعا من ذلك، كما لم يسمها أي واحد من روادها القدامى، واسأل الشيخ الرفاعي

ترى أي فخر لك بعد ذلك في هذه الناحية بالذات؟

ثم - يا ترى بعد كل هذا الإيضاح - هل تعتبرني (نكرة) في ندوة الرفاعي كما اعتبرتني كذلك في سياق مقالك؟

أي سيدي الدكتور

أنا لست (علمًا كبيرًا) كما سخرت في مقالك، ولكني أيضًا لست (نكرة) كما أردت!!

وهيهات عليك أن ترفعني أو تخفضني بمجرد (حذلقة) عن الشرح البلاغي لبيت من الشعر، أو بمجرد اكتشاف طبعة طهرانية لكتاب (الفهرست).

وما دام لا يمكنك ذلك، ولن يمكنك.. فإنه لا يمكنك أن تدفعني مع (القاضي بكار) المزعوم!!

ولنا بعد ذلك لقاء - إن شاء الله.

الجزيرة ١٤٠٣/٣/٢١هـ

ابن النديم
بين طبانه والعقيلي

بقلم الأستاذ/ نسيم الصمادي

معركة الفهرست و(ابن النديم) التي بدأت بين الدكتور بدوي طبانه والأستاذ (علي العمير) لا بد وأن يفيد منها القراء، وهذا الأمر لا يتأتى إلا إذا استمرت وأسفرت عن اتفاق أو افتراق.

ورغم أن الخلاف حول (النديم) و(ابن النديم) يشبه إلى حد كبير الخلاف حول (جيم جدة) إلا أن مظاهر الركود في الساحة الثقافية تجعل قضية (الفهرست) وامتداداتها (علم البيلوجرافيا عند العرب) أفضل ما يمكن طرحه في هذه اللحظة على الأقل.

فقد بلغ الإفلاس الثقافي مرحلة خطيرة، جعلت قضية الثقافة نفسها تطرح بطريقة رومانسية، وجعلت جهاز التحرير الثقافي المعلن والمستتر في مجلة أسبوعية ذائعة، يخصص كل زواياه، لمهاجمة كاتب شاب مجتهد لمجرد أنه حقق نجاحًا نسبيًا فشل ذلك الجهاز في تحقيقه.

ولأن هؤلاء لا يفرقون بين الشعارات السياسية الزائفة والقضية العربية المصيرية، ولأنهم يعيشون مرحلة الانكشاف وسقوط الأقنعة، فإن الحديث عن (الفهرست) يصبح محاولة لتعريفهم بنزر يسير من تراثهم، خاصة وأن الفرصة صارت مواتية بعد الحوار الممتع بين الأستاذين (العمير) و(طبانه).

(كتاب الفهرست)

في غمرة الخلاف حول اسم صاحب (الفهرست) نسي الأستاذان المتحاوران

تعريف القراء بهذا السفر القيم، الذي يعد من أهم مصادر دراسات الحضارة العربية في صدر الإسلام، فهو يعطي أروع صورة رسمت للحضارة الثقافية باللغة العربية من بدء الإسلام، فهو إلى جانب إفادته في ذكر الكتب القديمة، يعطينا فكرة عن المؤلفات المفقودة، مما يساعدنا على تقدير الخسارة التي ألحقتها الحروب والغزوات بالحضارة العربية، فإذا كنا نعرف للمسعودي كتابه (مروج الذهب) فإن ابن النديم يذكر له أربعة كتب أخرى، كما يذكر ٢٦ كتابًا للواقدي غير (فتوح الشام) وللأصفهاني ٢٥ كتابًا غير (الأغاني)[١]

أما كلمة (فهرست، أو فهرسة، أو فهرس) فهي كلمة فارسية الأصل عربت منذ استخدام ابن النديم لها، وقد استعملها الطوسي وغيره من علماء شرق العالم الإسلامي بالتاء المفتوحة، واستعملها محمد بن خير الإشبيلي وغيره في غرب العالم الإسلامي بالتاء المربوطة، وقد استعملها العلماء العرب في الماضي في واحد من معنيين:

(قائمة بأسماء الكتب) أو (بيان مختصر بأبواب الكتاب وفصوله)[٢]،

وفي (القاموس) (فهرس) بالكسر، الكتاب الذي يجمع فيه الكتب معربًا مفهرسًا، وفي (التهذيب) زيادة لأسامي حيث قال: يجمع فيه أسامي الكتب. قال ابن منظور: هو معرب دخيل وزنه فعلل، وفي بحر الغرائب هو القانون، والضابطة الإجمالية التي تكتب في أوائل الكتب حتى يعلم فيها أنها كم بابًا، وقد يطلق على أول الكتاب، وفي ديوان الأدب مقسم الماء على وزن فعلل يونانية، فعربوه واستعملوه في مجمع الأبواب، والتاء فيه غلط فاحش[٣].

---

(١) عبدالرحمن معلا. (ابن النديم والبيلوجرافيا الحديثة). مجلة العربي ع ١٧٢، محرم ١٣٩٣هـ، ص٢٩ - ٣٣.

(٢) سعد محمد الهجري. البيلوجرافيا ودراستها في علوم المكتبات. القاهرة، جمعية المكتبات المدرسية، ١٩٧٤. ص٨

(٣) حاجي خليفة. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. طهران: مكتبة الإسلامية - ط٣ - ١٣٧٨هـ الجزء الثاني، العمودان ١٣٠٣و١٣٠٤.

ويعد كتاب (الفهرست) أول عمل بيلوجرافي أُلّف بالعربية، وذلك لأنه يركز على الكتب وموضوعاتها وليس على مؤلفيها، وهو بهذا يختلف عن كتب التراجم التي تذكر الكتب لمامًا في سياق الحديث عن مؤلفيها، وقد يزيد إعجابنا بالفهرست وبمؤلفه ابن النديم إذا عرفنا أن الدكتور (فؤاد سزكين) مؤلف كتاب (تاريخ التراث الإسلامي) قد نهج نهجًا مشابهًا لمنهج ابن النديم وإن اختلف عنه في التبويب الموضوعي وفي مجالات التغطية الزمنية والمكانية.

وقد احتوى (الفهرست) على عشرة مقالات تقع في ثلاثة وثلاثين فنًا هي:

١ ـ ثلاثة فنون في وصف لغات الأمم، وأسماء كتب الشرائع، وأسماء الكتب المصنفة في علوم القرآن.

٢ ـ ثلاثة فنون في النحويين واللغويين.

٣ ـ ثلاثة فنون في الأخبار والآداب، والسير والانساب.

٤ ـ فنان في الشعر والشعراء.

٥ ـ خمسة فنون في الكلام والمتكلمين.

٦ ـ ثمانية فنون في الفقه والفقهاء والمتحدثين.

٧ ـ ثلاثة فنون في الفلسفة والعلوم القديمة.

٨ ـ ثلاثة فنون في الأسمار والخرافات، والعزائم والسحر والشعوذة.

٩ ـ فنان في المذاهب والاعتقادات.

١٠ ـ أخبار الكيميائيين والصنعويين.

(١) ومن الطريف حقًا أن عالم المكتبات الأمريكي (ملفل ديوي) الذي وضع في القرن الماضي أشهر نظام تصنيف في العالم، قد قسم المعرفة البشرية كلها

إلى عشرة أقسام أساسية هي:

١ ـ المعارف العامة.

٢ ـ الفلسفة وعلم النفس.

٣ ـ الديانات.

٤ ـ العلوم الاجتماعية (ومنها الاجتماع والسياسة والاقتصاد).

٥ ـ اللغات.

٦ ـ العلوم البحتة ومنها (الكيمياء).

٧ ـ العلوم التطبيقية ومنها (الصناعة).

٨ ـ الفنون.

٩ ـ الآداب.

١٠ ـ التاريخ والجغرافيا والتراجم.

وبهذا يكون ابن النديم أول من قسم المعرفة البشرية إلى عشرة أقسام منطلقًا من ضرورات وحتميات التصنيف العملي، وهو بهذا يختلف عن الفارابي وإخوان الصفا الذين اعتمدوا في تصنيف العلوم على أسس فلسفية ونظرية بحتة.

ويمتاز (فهرست) ابن النديم أيضًا باستيفاء المعلومات البيلوجرافية عن مؤلف الكتاب والمعلومات البيلوجرافية عن الكتاب نفسه، وكان يترك فراغات في نسخ مخطوطته الأولى وذلك تطلعا إلى الإضافات الجديدة من المؤلفات العربية، ولأن الإحاطة الجارية والتغطية الشاملة من أهم مميزات الأعمال البيلوجرافية الناجحة، وقد أدت هذه المساحات الفارغة التي وفرها ابن النديم إلى وجود اختلافات جوهرية بين نسخة وأخرى، ورغم ذلك فقد امتاز الفهرست بالشمول والدقة ليصبح أول بيلوجرافية حصرية شاملة تغطي التراث الفكري العربي حتى أواخر القرن الرابع الهجري.

طبعات الفهرست

١ ـ طبع الكتاب لأول مرة في عام ١٨٧١ ـ ١٨٧٢م في (ليبزج) على أيدي ثلاثة من المستشرقين الألمان على رأسهم (جوستاف فلوجل)، وقد اعترى هذه الطبعة بعض النقص رغم الجهود التي بذلت في إخراجها.

٢ ـ ثم أعيد طبع الكتاب في مطبعة الاستقامة في القاهرة، حيث نشرته إحدى المكتبات الكائنة في شارع محمد على، وقد أضيفت إلى هذه الطبعة عدد صفحات كانت موجودة في المكتبة التيمورية، مع مقدمة عن حياة ابن النديم وفضل الفهرست.

٣ ـ هناك جزء لم ينشر من المخطوط، وهو يتعلق بالمعتزلة، وقد نشره عن مخطوطة شستربتي، الأستاذ فوك، وجاء في ٢٤ صفحة، وأعاد نشره محمد شفيع في لاهون عام ١٩٥٥م[١]

٤ ـ أعادت مكتبة خياط في بيروت نشر الفهرست، بتصوير طبعة ليبزج بالأوفست عام ١٩٦٤م، وجاءت هذه الصورة في مجلدين.

٥ ـ ترجم (الفهرست) إلى الإنجليزية ونشر في جامعة كولومبيا في مجلدين، وذلك عام ١٩٧٠م، اعتمادًا على نسخ مخطوطة غير نسخة ليبزج، ومنها نسخة شستربيتي المحفوظة بالمكتبة الأصلية بدبلن.

٦ ـ نشرت طبعة جديدة كاملة من (الفهرست) اعتمادًا على مخطوطة جديدة، وذلك في طهران عام ١٩٧٢م، حيث نشرها رضا تجدد، وجاءت هذه الطبعة في ٤٢٥ صفحة بالإضافة إلى ٧١ صفحة ضمت فهارس الكتاب[٢].

---

(١) صلاح الدين المنجد: معجم المخطوطات المطبوعة ١٩٥٤ ـ ١٩٦٠، الطبعة الثانية، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٣٨٩هـ. ج١، ص٣٦.

(٢) المنجد ـ المرجع السابق. ج٤، ١٣٩٨هـ.

* بعد هذا الحديث المختصر عن كتاب الفهرست وطبعاته التي سمعت بها أو قرأت عنها، أصل إلى الحديث عن نقطة الخلاف الأساسية القائمة بين الأستاذين (العمير) و(طبانه).

فالدكتور بدوي طبانة يرى أن اسم صاحب الفهرست هوالنديم خلافًا لما هو شائع في معظم طبعات الكتاب ومخطوطاته، بينما يرى الأستاذ (علي العمير) أن لا فرق بين ابن النديم والنديم، ما دام الأول قد أشيع، وقد قال بأن الفرق بين النديم وابن النديم هو نفس الفرق العمير وابن العمير.

وقد عمدت إلى مراجعة كثير من كتب التراجم والبيلوجرافيات والمقالات الجديدة حول ابن النديم وكتابه فوجدتها تعتمد اعتمادًا كليًا في ترجمتها لابن النديم على واحد من مصدرين:

الأول: مخطوطات (الفهرست) نفسها، وهي تختلف من مخطوطة إلى أخرى، وكما اختلفت في الأصول اختلفت في التحقيق.

الثاني: معجم الأدباء لياقوت الحموي الذي عاش بعد ابن النديم بقرنين من الزمن، ويمتاز معجم الأدباء المعروف (بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) بدقة الرواية، ونمطية الأسلوب في السرد والإسناد والربط والمقارنة، وقبل أن نحتكم إلى معجم ياقوت نعرض لبقية الإشارات والمراجع التي عرضت لابن النديم، مع العلم بأن المصادر الأولية المتمثلة في طبعات الفهرست والمصادر الثانوية المتمثلة في كتب التراجم والتاريخ والأخبار قد اختلفت حول تاريخي مولد ووفاة ابن النديم كما اختلفت حول اسمه.

وقد ورد اسم (ابن النديم) مختلفًا في كثير من المصادر؛ وذلك كما يلي:

١ - في العدد ١٧٢ من مجلة العربي المنشور عام ١٣٩٣هـ دراسة توثيقية

جيدة بعنوان (ابن النديم والبيلوجرافيا الحديثة)، وقد ورد اسم ابن النديم كما يلي (أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق الوراق النديم البغدادي)، وقد اعتمد كاتب الدراسة في ترجمة ابن النديم على مقال دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الفرنسية.

٢ ـ لم ترد ترجمة لابن النديم في دائرة المعارف الإسلامية التي أصدرها بالإنكليزية والفرنسية والألمانية عدد من المستشرقين وعربها الأساتذة: إبراهيم زكي خورشيد، وأحمد الشنتاوي، وعبدالحميد يونس، وطبعت في القاهرة ضمن سلسلة كتاب الشعب. وذلك لأن هذه الدائرة لم تكتمل، بل غطت ـ على حد علمي ـ حتى حرف العين وربما أنها تجاوزت في سياقها الهجائي حرفي (أب) فهذا يعني أن المعربين كانوا ينوون وضع ابن النديم في حرف النون، وذلك لأن ترجمته وردت في الطبعات الأجنبية التي يعربونها.

٣ ـ أما في (دائرة المعارف: قاموس عام لكل فن ومطلب) التي أصدرها فؤاد إفرام البستاني، وغطت ـ على حد علمي ـ حتى (أرسطو)، فقد وردت ترجمة ابن النديم تحت كلمة ابن، أي في السياق الهجائي للحرفين (أب)، وجاء في الترجمة:

ابن النديم: أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق المعروف بابن النديم.

٤ ـ في معجم (الأعلام) للزركلي ورد اسم ابن النديم في الجزء السادس وفي السياق الهجائي لاسمه (محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق أبو الفرج بن أبي يعقوب النديم) ولكنه وضع اسمه الأشهر (ابن النديم) في رأس المادة كعنوان مميز، وقد راجعت الطبعتين الثانية والثالثة من (الأعلام) ولم أعثر على أية مفاضلة بين (النديم) و(ابن النديم)، وكما أشار الدكتور

طبانة، فقد أضاف الزركلي في طبعة (الأعلام) الخامسة الصادرة عن دار العلم للملايين إشارة في الهامش تفيد بأن (محقق طبعة الفهرست) في طهران (شعبان١٣٩١هـ) نبه إلى أنه النديم لا (ابن النديم) وصور الصفحة الأولى من مخطوطة نفيسة في شستربتي جاء اسم الكتاب فيها (الفهرست للنديم) وعلى هامشها من اليمين بخط المؤرخ (أحمد بن علي المقريزي) ما نصه: (مؤلف هذا الكتاب أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق بن محمد بن إسحق الوراق المعروف بالنديم).

وكما سنرى لاحقًا فإن عبارة (المعروف بالنديم) لا تتناقض مع (ابن النديم) خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الحموي عاش في بغداد وحلب ما بين عامي ٥٧٤ ـ ٦٢٦هـ بينما ولد المقريزي ونشأ ومات في القاهرة ما بين عامي ٧٦٦ ـ ٨٤٥هـ وبهذا يكون الحموي أقرب إلى (ابن النديم) من المقريزي مكانيّا وزمانيّا.

٥ ـ وفي كتاب (تاريخ التراث الإسلامي) لفؤاد سزكين نجد الإشارات البيلوجرافية للفهرست مقترنة بابن النديم فيقول: (الفهرست لابن النديم).

٦ ـ وقد أورد صلاح الدين المنجد إشارتين للفهرست وصاحبه في (معجم المخطوطات المطبوعة) الأولى إشارة لقسم من الكتاب نشر عن مخطوطة (شستربتي) وهو ينقل بياناته عن كتاب بروكلمن، وعن معجم كحالة، والثانية إشارة لطبعة رضا تجدد في طهران التي أشار إليها الدكتور بدوي طبانة، وفي الإشارتين ورد الاسم هكذا (ابن النديم. محمد إسحق) ومن الواضح أن أسلوب قلب الاسم الذي اتبعه المنجد هو من ضرورات الترتيب البيلوجرافي وتوحيد مداخل المعجم.

ابن النديم
في تراث الإنسانية

٧ - ولعل أفضل ما كتب عن ابن النديم وكتابه الفهرست تلك الدراسة الضافية التي نشرها الأستاذ إبراهيم الإبياري في موسوعة (تراث الإنسانية) وهي سلسلة تتناول بالتعريف والبحث والتحليل روائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية، وقد ناقش (الإبياري) في الجزء الثالث من تلك السلسلة وعلى الصفحتين ١٩٥و١٩٦ مسألة الخلاف حول اسم ابن النديم، حتى إنني أكاد أجزم بأن الدكتور طبانة متأثر بمقالة الأستاذ الإبياري، وقد يكون الإبياري هو واحد من الذين سمع منهم شيئًا حول هذه المسألة.

وقد أورد الإبياري اسم ابن النديم كما جاء في المصادر وذلك كما يلي:

- (معجم الأدباء ٦٢٦هـ محمد بن إسحق النديم).
- (الوافي بالوفيات ٧٦٤هـ محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق النديم).
- (لسان الميزان، لابن حجر ٨٥٢هـ محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق النديم الوراق).
- (تاريخ الإسلام للذهبي: محمد بن إسحاق بن النديم أبو الفرج).
- (عيون الأنباء لأبن أبي أصيبعة: محمد بن إسحاق النديم البغدادي).

ويخلص الأستاذ الإبياري إلى القول:

(أما عن تلقيبه بالنديم فيكاد يكون هذا خالصًا له لا نصيب لأبيه فيه والنصوص التي وردت في كتاب الفهرست لا تملي غيره).

ولكنا نجد نص الذهبي الذي نقله ابن حجر عنه يردنا إلى الشك، وذلك حين

يقول: محمد بن إسحاق بن النديم، ونص الذهبي كما نرى - إن صح يبعد هذا اللقب عن رجلنا محمد ويخلعه على أبيه - إن كانت عبارة (ابن النديم) على البدل من عبارة ابن إسحاق - أو على الجد الأول لرجلنا وهو محمد، وان صرفت العبارة على غير البدل. ونحن على هذا لا نعرف لم لقب مؤلفنا بالنديم؟ فلقد سكتت المراجع عن هذه. ولعل عبارة الذهبي التي نقلها ابن حجر - وهي: الأخباري الأديب - وعبارة الصفدي - وهي: الأخباري - تُلْقِيان بصيصًا من الضوء على هذا اللقب، فلقد كان أخباريًّا أديبا، فما أولاه أن يكون نديما، ينادم الناس بأخباره).

انتهى كلام الإبياري.

وفي (لسان العرب):

(والنديم: الشريب الذي ينادمه، وهو ندمانه أيضًا، ونادم الرجل منادمة ونداما: جالسه. والنديم: المنادم، والجمع ندماء)

ومن هذا نستنتج أن مهن الوراقة وتوثيق الأخبار والاشتغال بتجارة الأدب هي التي أسبغت على ابن النديم صفة المنادمة، ومهنة الوراقة تشبه إلى حد كبير مهنة التوثيق والنشر العلمي التي نعرفها في أيامنا هذه، بل إن هناك مقترحات طرحت في مؤتمرات المحققين والموثقين والمكتبيين العرب لاستخدام المصطلح (وراقة) رديفًا للمصطلح (بيلوجرافيا) التي تعني الاشتغال بتوثيق الكتب وتنظيمها ونشر أخبارها، وإذا تذكرنا بأن محمد بن إسحاق النديم صاحب الفهرست ورث مهنة الوراقة عن أبيه وأن أباه قد اشتغل - أيضًا - أخباريًّا ووراقًا فإن لأبيه الحق في هذه الصفة مثلما له الحق في ذلك، بل ربما كان الأب أولى من الابن في ذلك، ولا نستبعد أن يكون صاحب الفهرست قد ورث فكرة إعداد الكتاب عن أبيه، ولا بد أن دكان أبيه الوراق قد سهل عليه هذه المهمة فوضع بين يديه كثيرًا من المخطوطات التي ذكرها،

ولأن هذه الاستنتاجات لا تقيم الدليل العلمي الكامل على أنه لا فرق بين النديم وابن النديم، ما دام (النديم) هو اسم العائلة، فإنه لا بد من الاحتكام إلى دليل مادي يجعل القارئ أكثر اطمئنانا، وبما أن أقرب المصادر التي ترجمت لابن النديم أو نقلت عن كتابه، هما (معجم الأدباء) لياقوت حموي (وعيون الأنباء في طبقات الأطباء) لموفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة، فلا بد من الاحتكام إليهما:

أولاً: معجم الأدباء: ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة: مطبعة هندية، ١٩٣، الجزء السادس.

وقد ورد اسم ابن النديم في الصفحة ٤٠٨ برقم (٤١) هكذا (محمد بن اسحاق النديم): كنيته أبو الفرج وكنية أبيه أبو يعقوب مصنف كتاب الفهرست.

لكن ياقوت الحموي يستشهد بفهرست ابن النديم كثيرًا وذلك في ترجماته لكثير من الأدباء الذين أورد أسماءهم في معجمه، ولكي أتأكد مما إذا كان ياقوت يعني (بالنديم) محمدًا أو أباه فقد قمت بإحصاء عدد المرات التي ورد فيها اسم ابن النديم في مجال الاستشهادات الإسنادية. وذلك في الجزء السادس أي في نفس الجزء الذي وردت فيه ترجمة ابن النديم، وذلك حتى لا نتهم صاحب (إرشاد الأريب) بالخلط والنسيان، وقد وجدت ما يلي:

لقد ورد اسم ابن النديم في ذلك الجزء أربعا وثلاثين مرة، وذلك كما يلي:

١ ـ (محمد بن إسحاق ورد ١٦ مرة وذلك على الصفحات: ١٤ ـ ٤٨ ـ ١٩٦ ـ ١٩٧ ـ ١٩٩ ـ ٢٠٤ ـ ٢٩٦ ـ ٣٧٢ ـ ٤٠٢ ـ ٤٢٠ ـ ٤٦٦ ـ ٤٨٢ ـ ٤٨٩ ـ ٤٩٤ ـ ٤٩٥ ـ ٤٩٦).

٢ ـ (محمد بن إسحق النديم ورد ١١ مرة وذلك على الصفحات:١١٦ ـ ١٥٣ ـ

١٦٦ ـ ٢٠٨ ـ ٢١٣ ـ ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ـ ٢٧٩مكرر ـ ٣٠١ ـ ٣٩٨ ـ ٤٠٨).

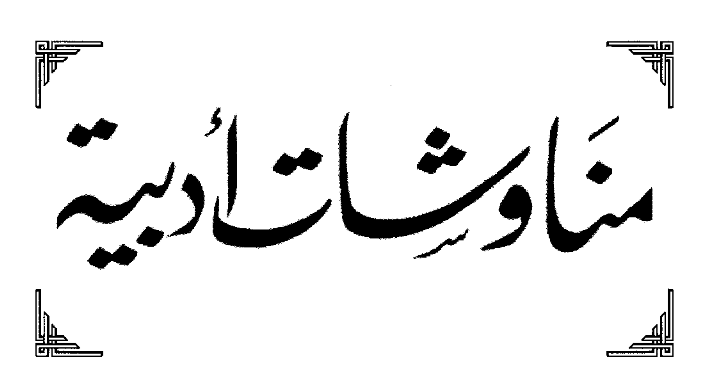
٣ ـ (ابن النديم: ورد ٦ مرات وذلك في الصـفحات: ٤٧ ـ ٧٥ ـ ١٤١ ـ ٢٧٧ ـ ٣١٤ ـ ٤٧٤).

٤ ـ (النديم: ورد مرة واحدة على الصفحة ٤٦٧). ونستنتج من هذه الإحصائية أن (ياقوت الحموي) لم يفرق بين النديم وابن النديم بدليل أنه يستخدم الاسم أحيانا بدون هذه الصفة، وهو عندما يضيف هذه الصفة لا يفرق بين ابن النديم والنديم، بل إنه عندما يستخدمها منفصلة عن اسمه واسم أبيه يكثر من استخدام ابن النديم، وهذا ما يؤكده استخدام ابن أبي أصيبعة في (عيون الأنباء) أيضًا حيث أشار إلى ابن النديم سبع مرات منها: خمس مرات هكذا (ابن النديم البغدادي الكاتب) ومرة هكذا (محمد بن اسحق النديم) والمرة السابعة هكذا (محمد بن إسحق النديم المعروف بأبي الفرج بن أبي يعقوب).

ومن هذا نخلص إلى أن ما قاله الأستاذ (علي العمير) من أنه لا فرق بين النديم وابن النديم، اللهم إلا أن (ابن النديم) أكثر شيوعًا، هو الأصح، وأن القول بخطأ (ابن النديم) من أساسه هو الخطأ، ولعل في الإحصاء السابق خير برهان على ذلك.

خاصة وأن علم البيلوجرافيا الحديث الذي يستند إلى الحاسبات الإلكترونية في قياس تكرار أشكال مداخل المؤلفين العرب الأولين، يميل إلى حذف كلمة ابن في الترتيب الهجائي رغم ورودها رسمًا في السياق، وهذا يعني أن هذه الكلمة غير جوهرية في النص وأن حذفها لا يغير في الأمر شيئًا وأنه لا فرق في النسب أو الصفة سواءً قلنا: محمد بن إسحاق النديم، أو قلنا: محمد بن إسحاق بن النديم.

ولكن يبقى لكل مجتهد نصيبه من الإصابة والخطأ، ولذلك لا ندّعي بأن هذا الرأي قاطع ونهائي، فقد يصل آخرون إلى مصادر أخرى، وينهجون نهجًا آخر، فيثبتون العكس، والله أعلم.


مناوشات أدبية

مقدمة

على مدى أكثر من عشرين عامًا، كتبت الكثير من الفصول والمقالات في مجال النقد الأدبي.. ونشرت هذه المقالات وتلك الفصول في العديد من صحفنا ومجلاتنا في أوقات مختلفة وتواريخ متفاوتة ومناسبات شتى.

لقد كانت صحفنا تحفل بالكثير جدًّا من المعارك الأدبية ذات الصدى الواسع.. وأعتقد أن تلك المعارك الأدبية كانت من الدوافع القوية لتنشيط الحركة الأدبية في بلادنا.. لا ينكر ذلك إلا مكابر.. ولا أقصد بالطبع فصولي ومقالاتي وحدها.

ولما كانت الصحف اليومية وبعض المجلات هي الوسيلة الأولى لنشر أدبنا قبل أن توجد الأندية الأدبية ودور النشر الأهلية.. وقبل أن تبدأ حركة النشر في جامعاتنا.. فإن معظم ما كتبه أبرز الأدباء في المملكة إنما كان ينشر في الصحف والمجلات باستثناء قلة قليلة من هؤلاء الأدباء استطاعوا نشر إنتاجهم في كتب على نفقتهم وبخسائر فادحة!!

ذلك أن الكتاب كان - وما زال - مصدر كلفة كبيرة ومشقة وعناء وسوء رواج... إلخ.

وهكذا.. لا بد أن يلاحظ المتتبع للحركة الأدبية في بلادنا أن معظم ما ينشر من كتب في الفترة الأخيرة إنما هو عبارة عن فصول ومقالات سبق نشرها في الصحف والمجلات.

وهذا ما أسميه أو أعتبره حركة تجميع ونشر.. أكثر من حركة تأليف ونشر!!

ولكن حركة التجميع والنشر هذه تعتبر مهمة جدًّا من وجهة نظري الخاصة.. ذلك لأن ما يجمع الآن من بطون الصحف وينشر على شكل كتب هو في الواقع

قوام أدبنا وركيزته لفترة مضت.. ولا يستطيع أي باحث أو دارس لأدبنا في الفترة الماضية ما لم يرجع لشتى المجلدات الضخمة من صحفنا كما فعل الكثير من الدارسين.

وفي ذلك مشقة عظيمة ربما تصرف الباحث عن بحثه عجزًا ويأسًا من التقليب في مجلدات صحفية مهترئة وغير مفهرسة ونادرة الوجود.

ومن هنا يتضح أن قيام الكثير من أدبائنا بتجميع المبعثر من إنتاجهم في بطون الصحف، ونشره - بعد أن تهيأت أسباب النشر - في كتب - يعتبر خدمة جُلَّى للباحثين والدارسين لأدبنا في فترة طويلة من أزهي فترات يقظته ونشاطه.

ونعود الآن إلى موضوع النقد الأدبي والمعارك الأدبية التي كانت تحفل بها صحفنا ومجلاتنا.. ثم جفت الأقلام عنها الآن - أو كادت - وهو ما يعتبر عندنا الآن تخلفًا للنقد الأدبي في الوقت الذي كان ينبغي أن يكون أوفر حظًّا من النشاط عنه في السابق.. وخاصة لتوالي الإصدارات الأدبية في الفترة الأخيرة دون أن يواكبها النقد كما ينبغي أن يكون.. أي أن الآية قد انعكست.. فقد كان النقد الأدبي مزدهرًا حين كانت الإصدارات الأدبية أقل من القليل.. ثم أصبح متخلفًا حين توفرت هذه الإصدارات.

وهذا أمر يدعو للعجب حقًّا.

ولكنه - في رأيي - يعتبر مسألة طبيعية لو التمسنا الأسباب لذلك.

إن صحفنا قد تخلفت أو كادت عن دورها السابق النشط في رعاية الحركة الأدبية والاحتفال بها إلى حد أن أي مقال أدبي أصبح يسبب الصداع لبعض رؤساء التحرير.. وإلى حد أن الصفحات الثقافية لا توجد الآن في كثير من صحفنا إلا من باب تكميل المظهر ليس إلا.. وقد يكون - مع صفحنا - بعض العذر أو كل العذر في ذلك.. ولكننا لسنا بصدد إيجاد المبررات والأعذار.. وإنما نحن بصدد تقرير الواقع أيًّا كانت أسبابه.

وأنا أعتقد أن هذا الواقع الصحفي الجديد كان من بين أهم أسباب تخلف النقد عندنا.

وأذكر أنني كتبت مقالاً نقديًا قبل مدة يسيرة لأحد الكتب.. وكان ذلك بناء على طلب من رئيس تحرير جريدة يومية... فكتبت ذلك المقال.. ولكنه لم ينشر إلا بعد شهرين من تاريخ تسليمه الجريدة لأنهم ـ في الجريدة ـ لا يجدون له مكانًا، وهو يشكل صفحة كاملة بين زحمة الصفحات الإخبارية والرياضية.. إلخ.

ومثل هذا الأمر لا بد أن يدفع بالنقاد إلى الإحجام عن الكتابة في مجال النقد أو الأدب.

وقد قلت إن لصحفنا بعض العذر أو كل العذر في ذلك.. أو في التخلي عن دورها السابق كوسيلة أولى لنشر الأدب والثقافة في بلادنا... ذلك أن المنطق يفرض وجود مجلات أدبية متخصصة للأدب والنقد.. ومع كل أسف لا توجد لدينا مثل هذه المجلات.

ولا تذكروا لي أسماء بعض المجلات الشهرية التي تصدر في بلادنا.. فإنها أقل من أن تفي بالغرض.. ثم إن حرص بعضها على عدم (وجع الدماغ) قد جعلها بعيدة تمامًا عن الاحتفال بالنقد الأدبي كما ينبغي أن يكون.

وحرصها على (عدم وجع الدماغ) قد أبعد عنها النقاد بطبيعة الحال.. وحتى النقاد الذين يشاركون بالكتابة فيها أعقل من أن يكتبوا نقدًا أدبيًا.. وإنما يكتبون أي شيء آخر!!

ذلك سبب واحد فقط من أسباب تخلف النقد الأدبي توسعت في ذكره لصلته المباشرة بحركة النشر في بلادنا.

والواقع أن هناك الكثير من الأسباب الأخرى التي لا نستطيع التوسع في ذكرها ـ بل حصرها ـ مثل سبب طغيان الحياة المادية وتوسع مطالب الحياة مما شغل الأدباء عن أدبهم، والنقاد عن صولاتهم وجولاتهم سعيًا وراء مطالب الحياة ولقمة العيش إلى غير ذلك من الأسباب العديدة!!

أراني قد أطلت.. وبعدت عن مجرد التقديم لكتاب.. فلنعد إلى موضوع أو محتويات هذا الكتاب، وهي بعض من تلك الفصول والمقالات في مجال النقد الأدبي التي أشرت آنفا إلى أنها كتبت ونشرت على مدى أكثر من عشرين عامًا.

وقد سبق لي أن اخترت منها بعض ما يتعلق بنقد الكتب - بصفة خاصة - في كتاب مستقل صدر قريبًا بعنوان (حصاد الكتب) - وهو من إصدارات (دار العمير للثقافة والنشر).. ثم بقي عندي الكثير من ذلك مما لا يمكن أن يتسع له هذا الكتاب وحده فاخترت ما يمكن اختياره لهذا الكتاب أيضًا ثم تركت الباقي لصروف الدهر وظروفه!!

على أنني أود أن أشير إلى نقطة - تهمني الإشارة إليها - وهي أن تجاربي المتواضعة مع النقد الأدبي ليست من التجارب السارّة على كل حال.. بل كانت مراراتها أحيانًا أشد من العلقم.

ولعل أوجز ما يمكن أن يقال في هذا الصدد هو ما كتبته مؤخرًا في زاويتي اليومية بجريدة عكاظ (تحت الشمس) وبعنوان (تجاربي مع النقد الأدبي).

وهذه الكلمة على رغم كونها ذات أسلوب صحفي سريع ومقتضب بشكل لا بد منه لزاوية يومية في جريدة يومية إلا أنها تلقي بعض الضوء على ما أود قوله في هذا الصدد.. وفيما يلي نصها:

(منذ بدأت أتعاطى الكتابة هاويًا.. ثم محترفًا.. كنت أميل - وما أزال - ميلا شديدًا إلى النقد الأدبي في معظم الموضوعات الأدبية التي كتبتها ونشرتها على مدى طويل من الزمن ولا ضرورة للتحديد!!

بل إنني أذكر أن أول مقالة بعثتها للنشر كانت نقدًا لأمير الشعراء (أحمد شوقي) - هكذا دفعة واحدة - وكان النقد مُحِقًّا في الواقع.. ولكنه لم يكن نقدًا أدبيا.. بل كان نقدًا دينيًا.. وقد اتهمته بالشرك الصريح.. أليس هو القائل مخاطبًا الرسول ﷺ :

أدعوك عن قومي الضعاف لأزمة   في مثلها يلقى عليك رجاء

واستمر ولعي بالنقد الأدبي - وليس الديني - منذ البداية.. وكنت مخدوعًا تمامًا بما ينشر في الكتب والصحف والمجلات عن رحابة صدور الأدباء، وتقبلهم للنقد، واستفادتهم منه

إلى آخره، إلى آخره، مما يزعمه الكثير من الأدباء لأنفسهم.. وكنت أصدق ذلك فعلاً - وأنا الفتى الغِرُّ القابع في قرية من أقصى قرى الجنوب!

ولكن عندما انتقلت إلى المدن، واشتغلت بالصحافة.. وتعرفت على الكثير من أدبائنا - إن لم يكن كلهم - فوجئت.. أو فجعت في الحقيقة باختلاف معظم هؤلاء الأدباء - أبعد ما يكون الاختلاف - عما كان راسخًا في ذهني من حكاية رحابة صدورهم وتقبلهم للنقد واستفادتهم منه.. إلخ!!

وكانت الصورة الجديدة التي ترتسم في ذهني، والمغايرة للصورة القديمة تزداد وضوحًا أو جلاء كلما أبديت نقدًا أو ملاحظة تخص أحد هؤلاء الأدباء.. مهما كان ذلك النقد مُحِقًّا.. أو كانت تلك الملاحظة على صواب.. بل إنه كلما يكون النقد مُحِقًّا كلما يكون الغضب منه أسرع وأكبر.. ويبدو أن اهتزاز الصورة القديمة في ذهني.. وتأصل الصورة الجديدة في مكانها هو الذي دفعني - فيما بعد - إلى نوع من العنف أو السخرية اللاذعة فيما أتناوله من موضوعات النقد الأدبي.

بل وأصبحت إثارة المعارك الأدبية - في فترة من فترات حياتي - هواية محببة رغم ما كانت تسببه لي من متاعب، وفقد صداقات!!

ثم شاءت الظروف أن أنقطع عن الكتابة في النقد أو غيره.. انقطعت تمامًا عن الكتابة حوالي سبع سنوات.. كانت بالنسبة لي فترة راحة فعلية من وجع الدماغ.. ولكنني كنت مدمنًا على هذا الوجع، فلم يسعني غير الرجوع إليه (ما أحلى الرجوع إليه) ولكنني - بعد هذا الرجوع أو العود الحميد، إن شاء الله - وجدت نفسي أنزع إلى ذلك الميل القديم (النقد).. ولكني أجد نفسي كلما حاولت ذلك.. أسترجع تجاربي القاسية في المعارك السابقة والصداقات التي فقدتها، والصورة المخيفة التي رسمتها لنفسي في أذهان الأدباء.. وكل ذلك نتيجة خطأ أساسي.. هو أنني صدقت منذ البداية حكاية رحابة صدر الأدباء وتقبلهم للنقد.. بل واستفادتهم منه!!

أما الحقيقة - كما عرفتها بعد فوات الأوان - فهي أن صدور الأدباء - معظمهم على الأقل - لا تتسع لغير المديح والإطراء والتقريظ.. أما النقد الحق فهم يعتبرونه تجريحًا أو

خصومة أو حقدًا أو نحو ذلك.. وليس هناك ـ عندهم ـ أي وسط بين هذا وذاك.. والمفروض أن هذا الوسط المفقود هو النقد الحق؟!

وإنني ـ لذلك ـ ألجم رغبتي الآن عن أي نقد أدبي أو غير أدبي.. ولكن، إلى متى؟ ذلك هو السؤال).

ولي ـ غير هذه الكلمة ـ إشارات كثيرة بهذا الصدد في كثير مما كتبت ونشرت.. على أنني لا بد أن أقول كلمة حق، وهي أن بعض المنقودين لم يكونوا على هذه الدرجة التي صورتها.. بل إن بعضهم كان نقدي لهم من الأسباب التي وطدت أواصر الصداقة والمحبة بيني وبينهم.

ولا بد أن أذكر أيضًا أنني ـ كما يعلم الله ـ لم تكن من بين بواعثي على النقد غير بواعث النقد ذاته.. وليس للأسباب الشخصية أو الأغراض أو الأحقاد.. ومن بين بعض المنقودين من لم أكن أعرفه أصلاً حين كتابة النقد عنه وبعضهم لا أعرفه إلى الآن.

بل إن بعض من تناولهم النقد في موضوعات هذا الكتاب ـ الدكاترة على سبيل المثال ـ قد أنصفتهم فيما بعد حين وجب إنصافهم.. وانظر كتابي (رسالة الجامعة) الصادر أيضًا عن (دار العمير للثقافة والنشر)، والمهم أنه لم يكن هدفي من النقد ـ كما يعلم الله ـ غير النقد في حد ذاته.. ولي في ذلك العذر إزاء ما يمكن أن تثيره إعادة نشر هذه الموضوعات في كتاب من حساسيات أو إثارة غضب.

وعلى الإخوة المنقودين أن يتذكروا دائمًا أنه لا يرجم إلا مثمر الشجر.. كما يقول الشاعر... والله المستعان.

٢٦/٧/١٤٠٢هـ

الدكاترة ومسؤولية الكتابة؟

تحت هذا العنوان.. كتب الدكتور أحمد محمد الضبيب في جريدة الرياض يرد على الأستاذ علي النعمي.. وكان هذا الأخير قد كتب عن الدكاترة. وعدم اشتغالهم بالكتابة وذهب في ذلك مذاهب شتى.. حتى إنه قسا فعلاً على الدكاترة عندما اتهمهم بأنهم قنعوا بالشهادات.. وقبعوا خلف كراسي الوظائف... إلخ... إلخ.

لا نشك أن هذا الكلام لا يجب أن يقال بأي حال من الأحوال في نخبة من شبابنا قضوا الأيام والليالي.. بل السنين الطوال في الدراسة والتحصيل.. حتى بلغوا من ذلك ما شاءوا، ونالوا أرقى الدرجات العلمية، والأدبية.. وقد عادوا إلى جامعة الرياض[1] بحصيلة وافرة دسمة يلقنونها لأبنائنا وإخواننا.. من طلائع الجيل الجديد.

إن مثل هذا العمل والكد والتحصيل.. واستهلاك الوقت في إعداد المحاضرات ومراجعة كتابات الطلبة.. لا يمكن أن يقال عنه - بجرة قلم - إنه قبوع وراء كراسي الوظائف.. فكراسي الأساتذة في الجامعات لا ينطبق عليها هذا الوصف.. وإنه لإجحاف واضح.. إن نحن حاولنا هذا التطبيق!!

أما لماذا الدكاترة لا يكتبون فهذا شيء آخر.. وأنا منذ الآن أحاول أن أناقش بهدوء مقال الدكتور أحمد الضبيب.. فهو يعتذر بالانشغال الكلي في محيط الجامعة (ينفقون الليالي الطوال في سبيل الإعداد لمحاضرات الأسبوع والتنقيب عن شواردها في أمهات المراجع والكتب... إلخ... إلخ).

---

(١) جامعة الملك سعود

وهذا كلام سليم.. ولكن ألست معي يا دكتور في أن الرغبة الجادة للإنتاج خارج محيط الجامعة.. لا يعوقه عائق حتى ولا (إنفاق الليالي الطوال في سبيل الإعداد لمحاضرات الأسبوع) ؟!.

هل أشغل هذا العائق الدكتور طه حسين.. عندما مد المكتبة العربية بأخصب نتاجه.. وعندما ملأ أعمدة الصحف بالمئات من المقالات التي كان تأثيرها يسري في قراء العربية سريان النار في الهشيم، وعندما جلجل صوته من الراديو بمئات الأحاديث.. تتلقفها الأسماع في كل صقع وحدب وصوب..

كل ذلك.. وهو في الجامعة من أستاذ إلى عميد كلية الآداب.. إلى ملء سمع الدنيا وبصرها..

وهل أشغل هذا العائق الدكتور زكي مبارك.. عندما كان (الملاكم الأدبي) في الرسالة، وعندما كان يسهم إسهامًا فعالاً وإيجابيًا في الحركة الأدبية في بلاده.. كل ذلك - يا سيدي الدكتور - وهو سواء في مدرجات الجامعة يحضر لدكتوراة وثانية وثالثة.. وليس لدكتوراة واحدة.. أو أستاذًا في جامعة القاهرة، أو في بغداد!!

وهل أشغل هذا العائق المرحوم (أحمد أمين) عندما ملأ رَفًّا كاملاً في المكتبة العربية من أنفس البحوث والدراسات الإسلامية والأدبية.. وهو من تعرف أستاذًا في الجامعة؟!! وعميدًا لكلية الآداب؟ والأمثلة على ذلك لا تكاد تحصى.. فإن الكثير من أساتذة الجامعات، في الشرق والغرب.. قد أسهموا إسهامًا بارزًا في الحركات الأدبية في بلدانهم بالرغم من أنهم (يتفقون الليالي الطوال في سبيل الإعداد لمحاضرات الأسبوع).!!

أنت ترى.. يا دكتور.. أن هذا العائق.. ليس عائقًا بما فيه الكفاية.. فإن الرغبة الجادة المخلصة في الإنتاج لا تقف دونها العوائق!!

ويقول الدكتور:

(أما عن الكتابة في الصحف فإن الدكاترة إذا كتبوا فلا أظنهم سيخرجون

للناس هذا (الدش) اليومي والأسبوعي الذي نجده على صفحات جرائدنا تحت اسم الأدب ولا نستثنى منه إلا القليل).

أولاً: على الله ثم على الدكتور أحمد أن تكون زاويتي اليومية (على الماشي) من هذا القليل المستثنى.. مع أنني لا أزعم أنها تكتب تحت اسم الأدب.. بل إنني أقرر بكل تواضع أنها من هذا (الدش) اليومي بدليل عنوانها (على الماشي)!!

وثانيًا: يا إلهي.. يا رب السموات والأرض.. ما كنت أظن أن أحدًا من الناس - فضلاً عن مستوى دكتور - يجرؤ أن ينسب إلى نفسه وإلى زملائه كل هذا على رؤوس الأشهاد في جريدة سيارة!!

فإن الادعاء والتعالي - حتى وإن كانوا حقًا في المستوى الذي وضعه الدكتور - ليس من شيم الدكاترة والعلماء والأدباء.. وقد والله فجعت بذلك.. وكدت لا أصدق عيني.. فاستعنت ببعض الزملاء في قراءة الفقرة المذكورة.. فأكدوا لي أنها كما قرأتها حقًا..!!

وثالثًا: إنه والله - بالرغم مما ذكرت آنفا - ليسرنا حقًا وصدقًا أن يطلع علينا الدكاترة بغير هذا (الدش) اليومي والأسبوعي - وإن كنت أنا لا أسميه كذلك لأنني لم أقرأ غيره للدكاترة!!..

أقول: يسرنا والله أن نقرأ للدكاترة غير هذا (الدش) فهذا ما ننتظره منهم.. وهذا هو ما نعتب عليهم من أجل امتناعهم عنه!!

وإلا فهل يكفينا من الدكاترة أن يقولوا إنهم (ينفقون الليالي الطوال في سبيل الإعداد للمحاضرات الأسبوعية) وإن هذا يعوقهم عن الكتابة.. ثم يأتي أحدهم فيقول: إن الدكاترة لو كتبوا لطلعوا على الناس بغير هذا (الدش) اليومي والأسبوعي، والمفروض أنهم كذلك حقًا!!

ولكن:

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، فهذا كليم الله ونبيه يريد أن يرى

ليطمئن قلبه.. فكيف بالمساكين مثلي وأمثالي.؟!!

أتريدهم يا دكتور حقًّا.. أن يصدقوا بحدوث المعجزات دون أن يروها.. ودون أن تطمئن قلوبهم؟! إنني أربأ بك عن هذا كله.. يعلم الله؟

ويقول الدكتور: (إن الكتابة عندهم ـ يقصد الدكاترة ـ بحث عميق مضن لا يتيسر في يوم أو يومين، ولا يمكن أن يلقى فيه الكلام على عواهنه، بل يتطلب الوقت الكبير والتحري الدقيق والأمانة العلمية).

أما أنا يا دكتور فيعلم الله أنني كتبت هذا المقال في حوالي ساعتين.. وطبعه كاتب الآلة في حوالي عشر دقائق.. أي إن الحكاية كلها انتهت في ساعتين وعشر دقائق.. وهذا دليل ـ بالنسبة لوجهة نظرك ـ بل حتى من وجهة نظري على أنه ليس ذلك البحث العميق المضني.. بل مجرد شيء من هذا (الدش) اليومي والأسبوعي.!!

ولكن أنت يا دكتور قل لي من فضلك:

كم مضى عليك منذ عدت إلى الوطن.. وفي يدك شهادة الدكتوراة في إطار مذهب؟.

المؤكد أنه لا أقل من سنة.. فهلا تكفي سُنّة ـ يا سيدي الدكتور ـ أن تطلع علينا بضعة بحوث من ذلك النوع (البحث العميق المضني الذي لا يتيسر في يوم أو يومين)؟!

(والذي لا يمكن أن يلقى فيه الكلام على عواهنه.. بل يتطلب الوقت الكبير والتحري الدقيق.. والأمانة العلمية)!!

ألا تكفي سُنّة كاملة ـ بالله عليك ـ لشيء من هذا؟ غير مقالك هذا في الرياض!!

ويقول الدكتور: (إن مشكلة الأدب في بلادنا تتمثل في السرعة والتسرع.. السرعة في الإنتاج حتى ولو كان فَجًّا مُبْتَسَرًا، فنحن يهمنا ـ هذا كلام الدكتور ـ أن تلمع الأسماء بغض النظر عن محتوى ما تقدمه (لا أدري كيف تلمع أسماء دون النظر لمحتوى ما تقدمه.. هل القراء إلى هذه الدرجة من الغباء؟).. يهمنا

أن نجد أسماءنا مطبوعة بأكليشيهات مزخرفة - وهذا من كلام الدكتور أيضًا - أو مانشيتات كبيرة من غير أن ندقق في مضمون ما نكتب... ونتحرى في صحة ما نسطر.. ولهذا فإن أدبنا ينحدر من سيء إلى أسوأ لأننا لا نجيد صنعته، ولا نتمهل في إتقانه).

وأنا الحقير الفقير إلى ربه تعالى.. يعلم الله أنني لأعجب كل العجب.. كيف أن الدكاترة يعرفون حقًّا أن أدبنا ينحدر من سيء إلى أسوأ.. ومع ذلك يسكتون؟!!

وأعجب؛ كيف أن الدكاترة يعرفون حقًّا أن أدبنا ينحدر من سيء إلى أسوأ دون أن يفعلوا شيئًا..؟

وأعجب؛ كيف أن الدكاترة يعرفون حقًّا أن أدبنا ينحدر من سيء إلى أسوأ.. ثم يكتفون بالاعتذار عن السمو به بأنهم (ينفقون الليالي الطوال في الإعداد للمحاضرات الأسبوعية).

إنني أكاد أعود لأنضم إلى الأستاذ علي النعمي في اتهام هؤلاء الدكاترة بعدم الإخلاص، ولكنني لا أفعل ذلك خشية من أن يكون الدكتور أحمد الضبيب قد تسرع في مقاله هذا.. ولم يكتبه في مدة طويلة كافية (للبحث العميق الذي لا يتيسر في يوم أو يومين.. ولا يمكن أن يلقى فيه الكلام على عواهنه).

معذرة.. يا دكتور.. وأرجو أن يتسع صدرك لهذا (الدش) اليوم!!

مجلة اليمامة ٩/٣/١٣٨٧هـ

الدكاترة ومسؤولية الكتابة

-٢-

تناولت (اليمامة) الغراء صباح جمعة.. عطلة أسبوعية.. وكانت طرية طراوة الصباح في بلدي.. حبرها لم يجف بعد!!

خُيِّل لي أن بسمة تلوح على حروفها وعناوينها.. وأنا أتصفح ما يهمني.. وصلت فجأة إلى صفحة اليوميات، فأدركت سر البسمة التي خيل لي أنها تلوح على الحروف والعناوين.. كأنما أرادت أن تقول لي: بين دفتي هذا العدد.. في صفحة اليوميات كلمة مطولة ردًا عليك - عليّ أنا.. - دبّجها يراع الدكتور الحازمي[١] من باب (الفزعة) لزميله الضبيب[٢].

وقرأت المقال..

وبما أنه يوم عطلة وعندي الوقت الكافي لأن أتسلى بقراءته مرة ثانية.. خاصة وأن اسمي تردد فيه كثيرًا.. ومن ذا الذي لا يسره قراءة اسمه مرددًا عشرات المرات في مقال دكتور؟!

عندما قرأت عنوان المقال.. واسم الكاتب المتوج بلقبه.. قلت في نفسي: ها هو رد من دكتور لا يكتب المقالات أو البحوث إلا من ذلك النوع (الذي لا يتيسر في يوم أو يومين.. ولا يمكن أن يلقى فيه الكلام على عواهنه.. بل يتطلب الوقت الكبير والتحري الدقيق والأمانة العلمية..).

وما بين القوسين من كلام الدكتور الضبيب في معرض ثنائه وتزكيته لنفسه وزملائه في مقاله بجريدة الرياض.. والذي كتبنا عنه ورددناه عليه في

---

(١) هو الدكتور منصور الحازمي

(٢) هو الدكتور أحمد الضبيب الذي تناوله المقال السابق.

مقالنا السابق بهذه المجلة.. بتاريخ ١٣٨٧/٣/٩هـ.

واستمريت في قراءة المقال.

كان الصباح طريًّا.. والهواء رخوًا.. ونفسي منتعشة متفتحة.. وكنت على أمل كبير أن أقرأ نقاشًا موضوعيًّا منهجيًّا.. ولكن يا للأسف ـ أو حتى بلا أسف ـ فجعت قبل كل شيء بأن الدكتور الفاضل الموضوعي المنهجي يورد بعض فقرات مقالي على طريقة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ..﴾ ـ دون أن يلحقها بـ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ﴾!!

وقلت في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. إن هذا يتنافى ـ علم الله ـ مع (التحري الدقيق والأمانة العلمية) التي قال الدكتور الضبيب إنه وكافة الزملاء يتمتعون بها!!

فمثلاً قال الدكتور الحازمي، إنني أنهيت مقالتي السابقة بالانضمام إلى زميلي النعمي في اتهام الدكاترة بعدم الإخلاص..

وحتى يؤكّد أو يموّه ذلك على القراء أورد فقرة مبتورة من مقالي (أنني أكاد أعود لأنضم إلى الأستاذ علي النعمي في اتهام هؤلاء الدكاترة بعدم الإخلاص).

مع أن هذه الفقرة تأتي بعدها مباشرة كلمة (لولا) (أكاد) وقلت (لولا) فأنا أتساءل الآن مع الدكتور الحازمي:

هل بتر الفقرات أو قراءتها على طريقة﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ من الأمانة العلمية في شيء؟.

وهل هذا في شيء من المناهج العلمية التي تلقيتموها في الجامعات.؟!

وإلا فأنا يا سيدي لم أتهم الدكاترة بشيء.. بل دافعت ضد اتهامهم دفاعًا قصدت به وجه الحق والإنصاف، كما يتضح ذلك جليًّا في مقالي السابق.

ومن ثم خلصت في مقالي إلى التركيز على نقطة واحدة في مقال الدكتور الضبيب هي (أن، الدكاترة لو كتبوا لطلعوا على الناس بغير هذا (الدش) اليومي

والأسبوعي) وهو كلام الدكتور الضبيب في مقاله المشار إليه!!

وهذا كلام فيه الكثير من الغطرسة والتعالي.. أعجبني منك يا دكتور حازمي أنك ساعدتني - جزاك الله خيرًا - على دحض هذه الدعوى من أساسها إذ قلت في مقالك الأغر: (ثُم مَن قال إن نهضة أدبنا متوقفة على حملة الدكتوراة من السعوديين.. ومن قال إن أدبنا المحلي يعيش في قوقعة؟).

وأنا يسرني جدًا يا دكتور حازمي أن أهمس في أذنك أو أجهر بأن الذي قال هذا في وضح الشمس.. وعلى رؤوس الأشهاد في جريدة سيارة.. لست أنا على أي حال.. وإنما هو زميلك الدكتور (أحمد محمد الضبيب) إذ قال عما ينشر عندنا باسم الأدب إنما هو (دش) يومي وأسبوعي.

وقال إن الدكاترة لو كتبوا لطلعوا على الناس بغير هذا (الدش)!!

فهل بعد هذا تتساءل من قال ذلك؟!

هل كنت تظن أنني أنا الذي قلت ذلك؟!

ألم تقرأ مقال زميلك يا دكتور؟. أم شُغلت عنه بـ (سهر الليالي الطوال في الإعداد للمحاضرات الأسبوعية)؟.

وأعتب عليك يا أخي الحازمي أشد العتب أن تدرجني - وأنت الدكتور المنهجي الموضوعي الذي لا يلقي الكلام على عواهنه - في عِداد المغرضين المشككين الذين يلقون التهم (الكاذبة!!) مع أن مقالي خال تمامًا من أية تهمة كاذبة أو صادقة!!

ونفسي - يعلم الله - خالية من أي غرض.. فإذا كنت تقصد زميلي النعمي فكيف لا تخصه بذلك.. وكيف تتجاهل آية قرآنية كريمة ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؟!

أما عن العاطفة الفائرة.. والجانب المريض وأمثال ذلك.. فكلمات نابية كنت

- وما أزال - أربأ بنفسي وبك عنها.. وأنا على كل حال ليس عندي (جانب مريض) ولا (عاطفة فائرة) بدليل أنني لم أقم مع زملائي بزيارة لمؤسسة اليمامة في شكل وفد للإعراب عن بالغ الاستياء[1].

و(العاطفة الفائرة) هو ما فعلت أنت وبعض الدكاترة[2].. أما أنا فأرسل مقالاتي المتواضعة مع أحد المراسلين.. وهم عندكم في الجامعة أكثر مما عندنا!!

وتقول يا دكتور إنني أسأت فهم الضبيب، فكيف فهمت أنت ذلك؟ (سبحان مقسم الأرزاق والأفهام) هل تجعل من نفسك وَصِيًّا على فهمي يا دكتور؟ وبأي حق..؟.. ألمجرد أنني لا أحمل الدكتوراة، فأنا غير مؤهل لفهم الدكاترة.. اللهم ولا كل هذا؟!

وقلت يا دكتور حازمي إن هناك للدكاترة خمسة عشر مجلدًا في كل من جامعات لندن وكيمبردج وليدز وبرمنجهام وشيفيلد وطهران.. إلخ.

فهل بالله تريد مني أو ممن يريد أن يطلع على نتاج الدكاترة السعوديين أن يراجع الخطوط الجوية فورًا ويقطع تذاكر إلى مختلف البلدان التي توجد بها هذه الجامعات.. وذلك من أجل أن يطلع على نتاج الدكاترة السعوديين الذي هو (غير هذا الدش اليومي والأسبوعي)؟

من أين لي يا دكتور - غفر الله لك - هذا المبلغ الضخم قيمة للتذاكر.. وإلا كان يسرني.. والله العظيم!!

أفلا يمكنكم - بدون هذا العناء كله - أن تنشروا هنا في صحفنا نماذج من هذا الإنتاج الخصيب؟. وتقول يا دكتور:

---

(١) قام الدكتور الحازمي مع بعض زملائه الدكاترة بزيارة لمؤسسة اليمامة كان هدفهم منها فقط الاحتجاج على مقالي السابق!! ثم سلموا مقال الدكتور الحازمي الذي هو موضع ردنا هنا.

(٢) التلميح هنا إلى قيام الدكاترة بزيارة مؤسسة اليمامة للاحتجاج ولتسليم مقال الدكتور الحازمي مناولة.

(إنكم لم تكتفوا بالشهادات ذات الإطارات المذهبة!!)

ألم تقرأ مقالي يا دكتور..؟ لقد دافعت فيه لصالحكم ضد زميلي النعمي بشأن هذه النقطة بالذات.. إذ قلت بالحرف الواحد عن النعمي: (حتى إنه قسا فعلاً على الدكاترة عندما اتهمهم بأنهم قنعوا بالشهادات وقبعوا خلف كراسي الوظائف).

وقلت بعد ذلك مباشرة:

(لا شك أن هذا الكلام لا يجب أن يقال بأي حال من الأحوال في نخبة من شبابنا قضوا الأيام والليالي.. بل السنين الطوال في الدراسة والتحصيل).

واستطردتُ في مقالي ذاك يا دكتور قائلاً: (إن مثل هذا العمل والكد والتحصيل لا يمكن أن يقال عنه بجرة قلم إنه قبوع وراء كراسي الوظائف).

لقد دافعت عنكم أكثر منك يا دكتور.. فهل بعد هذا كله تقول عني: (مغرض ومشكك وملفّق تهم كاذبة)؟. وإنني أيضًا - وهذا هو الأطم - أتهمكم بأنكم اكتفيتم بالشهادات ذات الإطارات المذهبة؟.

ألم تقرأ مقالي يا دكتور؟ أم أعمتك عنه (العاطفة الفائرة)؟ أم شغلك عنه سهر الليالي الطوال!!)؟

نقطة أخيرة أريد أن أناقشها معك إذا سمحت يا دكتور!!

لقد ذكرت في مقالك صحف ومجلات (السياسة، والسياسة الأسبوعية، والجريدة، والبلاغ، والبلاغ الأسبوعي).

وأنا أذكرك بأن عندنا (المدينة، البلاد، الندوة، عكاظ، الرياض)، وهذه كلها يومية.

وعندنا اليمامة، الجزيرة، الدعوة، اليوم، و... (الملحق الرياضي في اليمامة...)!! وهذه كلها أسبوعية.

وعندنا يا دكتور (العرب، قافلة الزيت، المنهل، ومجلات الغرف التجارية في

الرياض ومكة وجدة)، وهذه كلها شهرية.

وأرجو أن تكون قد علمت بوجود هذه الصحف أو بعضها إن لم تكن قد شغلتك (البحوث العميقة المضنية) عن العلم بوجودها.. أو (المجلدات الخمسة عشر) أو (سهر الليالي الطوال).. أفلا ترى يا دكتور مثل رأي زميلك الضبيب (أن الدكاترة لو كتبوا لطلعوا على الناس بغير هذا الدش اليومي والأسبوعي).

وإن (الكتابة عند الدكاترة بحث عميق مضن لا يتيسر في يوم أو يومين.. ولا يمكن أن يلقى فيه الكلام على عواهنه.. بل يتطلب الوقت الكبير.. والتحري الدقيق.. والأمانة العلمية).

فما دمتم يا دكاترة كذلك.. ألا ترى أنكم لو كتبتم في هذه الصحف أو بعضها.. ألا يمكن أن ترتفعوا بمستواها إلى مستوى الصحف التي ذكرت أو تقريبًا - على الأقل - إذا تواضع الدكتور الضبيب.. أم ماذا.؟

أليست تلك الصحف يا دكتور سوى مجرد ورق كصحفنا تمامًا.. والبحوث والمقالات العميقة المضنية حقًّا وصدقًا هي فقط الفارق؟!

وما دمتم تقولون وتزعمون - أو يزعم الدكتور الضبيب - أن (الكتابة عندكم بحث عميق مضن) فهلمُّوا.. اجعلوا من المدينة (السياسة) ومن (اليمامة) السياسة الأسبوعية.. ومن (البلاد) الجريدة... إلخ.

وبعد: اسمعها يا دكتور بسيطة صريحة ليس فيها (غرض) ولا (تشكيك) ولا تهم كاذبة)؟!

إن الخلاف بيني وبينكم.. ينحصر في نقطة واحدة ليس غير.. هي ما قاله زميلك الضبيب.. بأن ما يكتب عندنا باسم الأدب إنما هو دش يومي وأسبوعي.

وإن الدكاترة لو كتبوا لطعلوا على الناس بغير ذلك.. وهذا كلام فيه الكثير من

الغطرسة، والتعالي - على غير طائل - وأنت نفسك أنكرته في مقالك عندما قلت إن الأدب باب مفتوح للدارسين والناقدين والباحثين.. وليس مقصورًا على الدكاترة فقط.

وعندما قلت: من قال إن نهضة أدبنا متوقفة على حملة الدكتوراة.

وهذا كلام لو قرأته قبل أن أكتب مقالي السابق لما كتبته.. ولكنت اعتبرت كلامك هذا خير رد على زميلك الضبيب.. فالشهادة أقوى ما تكون عندما تصدر من الأهل ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

وكفانا الله شر الجدل غير المجدي.. ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾!!

مجلة اليمامة ٧/٤/١٣٨٧هـ

(دكتور) يرد على (اللا دكتوراتية)

أخي الكريم علي العمير..

قرأت رسالتك التي ترفض فيها إجازة الطيار لك (بالدكتوراة) وتتهجم فيها على حاملي هذه الإجازة، وأحب أن أضيف شيئًا جديدًا، وأنا متأكد أنه لم يَفُتْكَ عِلمُه ولكنك لم تضمّنه رسالتك، هذا الشيء هو أن هذه الإجازة وغيرها لا يبحث عنها إلا الذين يشعرون بالنقص ويريدون أن يكملوا هذا النقص بلقب، وأنا منهم ولو أنني أحلم بهذه الإجازة حلمًا لأنني لا زلت دون مستواها بكثير.

ومع هذا فإنني أجهل مغزى هذه الشهادة ولماذا شوّهوها ـ كما فهمت من خطابك ـ بهذا الاسم. أنا أعرف وأنت تعرف أن الدكتور هو الذي يعالج الناس أو الحيوانات، حتى ولو كان حلاقًا سابقًا، ولكن ما وجه التسمية بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون إلا معالجة الكتب؟..

رفضكم وتهجمكم على حملة الدكتوراة وجيه خاصة وأن الدكتوراة لا يبحث عنها ـ كما أسلفت ـ إلا من يشعرون بالنقص ولست ـ بفتح التاء ـ منهم، فالعباقرة يعتمدون على شخصياتهم وما يحسونه هم أنفسهم لا ما يحس به الناس تجاههم، فاحمد ربك بأنك عبقري وادع لنا نحن الشاعرين بالنقص بأن ننالها لنكمل نقصنا، علّنا يومًا ما أن نلحق بركب العباقرة، وأسفي على الأمم التي تدّعي أنها متقدمة أكثر منا لأن عندها أكبر عدد من مكملي النقص.

أخوك: حمود البدر

(نشرت بجريدة المدينة ٢٠/٤/١٣٨٧هـ)

لا دكتوراة.. يرد على المتدكترين!

أخي حمود البدر..

تحية وشوقًا (ما شفناك من زمان!؟).

قرأت (نطتك من القدر).. أقصد رسالتك أو بالأصح (لغوصتك) المنشورة في المدينة الغراء.. والتي حظيت أنا بشرف توجيهها لشخصي الضعيف!

فأرجو أن أوضح لك أن ما نشر في المدينة سواء خبر منحي الدكتوراة - وهي طبعًا مزحة صحفية - أو رفضي القاطع الحاسم لها - وهذا أيضًا مجرد مزحة ردًا على سابقتها!

وكل ذلك ما هو سوى مجرد ذيول لنقاش حاد بيني وبين الدكاترة في صحيفة اليمامة.. ويبدو لي أنك لم تطلع عليها.. لذلك كان فحوى رسالتك (كالأطرش في الزفة)!!

وهذا هو السبب الذي جعلك تفهم من رسالتي أن شهادة الدكتوراة قد شوهت.. مع أنني لا أدري كيف ألهمك الله هذا الفهم العجيب؛ لأنني لم أذكر قط في رسالتي حكاية التشويه هذه.. ولا أية كلمة تشير إلى ذلك.. فسبحان مقسم الأفهام؟!

أما وصفك لي بأني عبقري.. فأنا لم أكن أدري أنني كذلك.. وقد فرحت طبعًا عندما وجدت أنك تراني كذلك، خاصة وأنك - كما قلت نفسك - تحلم بالدكتوراة!!

أما أسفك الساخر على الأمم التي تدّعي أنها متقدمة لأن عندها أكبر عدد من الدكاترة، فأنا أرجو أن أشير إلى عدة نقاط حول هذا الموضوع:

إن معظم العلماء والعباقرة والمخترعين والأدباء.. لا يحملون شهادة الدكتوراة.. كما أن هناك من يحمل شهادة الدكتوراة.. ولكنه أعلى بكثير من مستوى شهادته.. والدكتور طه حسين مثلاً غير بعيد عنا.. كما أن الأستاذ العقاد - رحمه الله - غير دكتور.

أما موضوع الأمم الراقية لأن فيها أكبر عدد من الدكاترة.. فهل كان (أديسون) مخترع الكهرباء في أمريكا يحمل شهادة الدكتوراة.

وفي فرنسا.. هل كان جان جاك روسو يحمل شهادة الدكتوراة عندما وضع أسس التربية منذ حوالي قرنين.. وما زالت معظم وزارات التربية في العالم ورجالاتها عالة على (روسو) في كتابه: (أميل أو التربية) أو كتابه (العقد الاجتماعي)؟

وفي روسيا هل كان (تولستوي) يحمل شهادة الدكتوراة.

إن الأمم يا أخ حمود لا تتقدم - بالضرورة - بشهادة الدكتوراة.. ومع ذلك فمن قال إنني أحارب شهادة الدكتوراة في ذاتها؟!

إنني أرحب بكل متدكتر.. ولكن مصيبتي أنني لا أنظر إلى الدكتوراة بأنها غاية في ذاتها.. بل العبرة بما يأتي بعدها من اطلاع وتعمق.. وهذا متيسر حتى بغير شهادة الدكتوراة!!

أضرب لك مثلاً بالدكتور محمد مندور - رحمه الله - جاء إلى جامعة القاهرة ويريد أن يكون أستاذًا فيها ومعه تسع شهادات جامعية (؟!) ومعه أيضًا حصيلة وافرة من العلم والفهم أحسن من - أجدع - دكتور في الجامعة.. ومع ذلك قالوا له في الجامعة: نحن لا نقبل هنا إلا الدكاترة؟!

وذهب فورًا ليؤلف كتابًا عن النقد ويقدمه رسالة للدكتوراة وفاز بها فعلاً.. فهل زادته شهادة الدكتوراة شيئًا في العلم والفهم؟!

وبعد.. إن حكاية (الدكتوراة) يا صديقي مجرد سيرة وانفتحت!

أخوك: علي العمير

(نشرت بجريدة المدينة ١٣٨٧/٤/٢٥هـ)

الزيدان وعبقرية الاتباع؟!

أستاذنا الكبير محمد حسين زيدان صاحب رواية ودراية وفقه في المسائل فهو لذلك صاحب تخريجات بارعة في كثير من الأحيان، ولكن الكمال لله وحده، وما نحن غير بشر نخطيء ونصيب.. ولم نؤت من العلم إلا قليلاً!!

تلك مقدمة متواضعة، أضعها بين يدي هذا النقاش الهاديء مع أستاذنا الزيدان، ويعلم الله أنني لم أقصد من هذا النقاش، تباهيًا بعلم، أو تطاولاً على مقامات الأساتيذ، وإنما هي الرغبة في المعرفة، تحدوني للنقاش.. لعلي أستفيد أو أفيد.

كان الأستاذ الزيدان قد كتب قبل أيام كلمة بعنوان (عبقرية الاتباع)، ويقصد بذلك عبقرية (بومبيدو) فى اتباعه لديجول، وكان بعض قرائه قد استكثروا عليه أن يصف الاتباع بالعبقرية، فجاء يرد عليهم في كلمته أمس فاستشهد أو قارن أو ضرب المثل باتباع أبي بكر وعمر لمحمد ﷺ ، قال:

(ما أعظم ما صنع الصديق.. وكل ذلك لم يكن إلا بالاتباع.. وحتى عمر لا أنكر عليه - رضي الله عنه - الإبداع فهو عبقري إبداع من عبقرية الاتباع فيه.. فكل ما أبدعه كان سُنّة - ولا تعني السُنّة إلا أنها اتباعًا)!

وقال: (والفضيلة التي منحت للقرنين بعد قرن الصحابة، كانت بهذا الاسم واللقب.. نسميهم (التابعين).. نسميهم تابعي التابعين.

خير القرون نالت فضيلة الاتباع فأنالها الله فضل الترضي واتباع من بعدهم لهم) انتهى.

ولا شك أن هذه المقارنة، أو هذا الاستشهاد لمما يثير الدهشة حقًا، إذ الفرق كبير جدًا كفارق ما بين السماء والأرض بين اتباع بومبيدو لديجول، وبين اتباع أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - لمحمد - ﷺ .

اتباع بومبيدو لديجول والاتباع معناه الانقياد اتباع أو انقياد من شخص لشخص مثله يحتمل نهجه، وتحتمل أفكاره الخطأ والصواب.

أما اتباع أبي بكر وعمر لمحمد ﷺ ، فهو اتباع مؤمنين برسالة في شخص رسولها للبشر أجمعين. وهناك من هو أقل من أبي بكر وعمر، رد على محمد ﷺ رأيه عندما اجتهد برأيه الشخصي، وليس بخبر السماء، وذلك في غزوة بدر التي نزل بها رسول الله ﷺ موقعًا من المواقع.. فتقدم إليه أحد الصحابة قائلاً له ما معناه:

أهذا منزل أنزلكه الله.. أم هو الرأي والمكيدة؟

قال الرسول ﷺ : لا بل هو الرأي والمكيدة..

قال الصحابي: فالرأي إذن أن نكون في الموقع الفلاني، فيكون الماء وراءنا نشرب ولا يشرب العدو، ونحارب دونه.

قال الرسول ﷺ : نعم، وانتقل بصحابته إلى الموقع الذي أشار به ذلك الصحابي.

والقصة مشهورة إلى حد أنني لم أحتج إلى مراجعتها وإيرادها بالنص، وإنما كتبتها من الذاكرة.

وإذن فقد كان اتباع أبي بكر وعمر، وغيرهما من الصحابة اتباعًا لرسول عندما يخبر عن السماء.. أو عندما يسن سُنّة فيها هدي النبوة من هدي السماء.

أما الرأي والمكيدة والسياسة فقد كان لأبي بكر وعمر وعامة الصحابة في ذلك رأيهم.. فحفر الخندق من حول المدينة قد أشار به سلمان الفارسي(!!).. بل إن عمر بن الخطاب بصفة خاصة قد كانت له مواقف كثيرة تؤكد رأيه المستقل - ولو شئت لذكرت عشرات الروايات من هذا القبيل، ولكنها روايات يعرفها الأستاذ الزيدان، ويعرفها غيره من القراء فلا مجال لذكرها ولا متسع في المساحة المحدودة لهذا المقال.

ولكني أقول: إن عمر قد اشتهر كثيرًا باجتهاداته التشريعية في عهد الرسول ﷺ نفسه، وكان كثيرًا ما ينزل الوحي من السماء تأييدًا لاجتهاد عمر، بل إن عمر كثيرًا ما كان يرد على رسول الله ﷺ بعض ما يأمر به، فيوافقه ﷺ على رأيه، ولا بأس أن نلخص الروايات الدالة على ذلك.

روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه كان جالسًا مع رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فقام ﷺ لبعض شأنه فأبطأ.

قال أبو هريرة فخرجت أبتغيه فوجدته في بستان فقال: أبو هريرة؟

قلت: نعم..

قال: ما شأنك؟

قلت: كنت بين أظهرنا فقمت فأبطأت علينا فخشينا أن تُقْتَطَعَ دُوننا ففزعنا فكنت أول من فزع، فأتيت هذا الحائط فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، وهؤلاء الناس ورائي فقال:

يا أبا هريرة: اذهب فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة، فكان أول من لقيت عمر فأخبرته فضربني بين ثَدْيَيَّ ضربة خررت لها، ثم قال لي: ارجع يا أبا هريرة، فرجعت باكيًا إلى الرسول ﷺ وفي أثري عمر، فقال رسول الله ﷺ :

مالك يا أبا هريرة؟

قال: لقيت عمر فأخبرته بالذي بعثتني به فضرب بين ثديي ضربة خررت لها، وقال ارجع..

فقال رسول الله ﷺ : يا عمر ما حملك على ما فعلت؟

قال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي.. أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بشره بالجنة؟ قال: نعم

قال: فلا تفعل، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها فَخَلِّهم يعملون.

قال رسول الله ﷺ: فخلهم.

وهذه الرواية ملخصة من صحيح مسلم..

ثم إن الرسول ﷺ لم يسم أبا بكر أو عمر أو غيرهما ممن شهدوه (تابعين)، وإنما أسماهم (صحابة) فأما تسمية (التابعين) و(تابعي التابعين) التي توهم فيها الأستاذ الزيدان - أو سها عنها - فإنما اصطلح على تسمية (التابعي) لمن لم يشهد رسول الله ﷺ وإنما شهد بعض صحابته فهو تابع في الزمن فقط وليس بالانقياد إلا على سُنّة الله ورسوله، وكذلك تابعو (التابعين) هم من شهدوا التابعين فهم أتباع التابعين بالزمن فقط وليس بالانقياد. أما أن (الإسلام في عبقريته.. كل حرصه على الالتزام بالاتباع) - كما يقول الأستاذ الزيدان - فالواقع الذي لا بد قد سها عنه الأستاذ زيدان، ليس كذلك فإنما الطاعة لأولي الأمر، وذوي السلطان على سُنّة الله ورسوله فقط، ولا تجوز البيعة لمسلم أصلاً إلا على ذلك فأما ما عداه فلا.. أي لا تجوز الطاعة إلا على شريعة الله وسُنّة محمد ﷺ فهل في ذلك اتباع أو انقياد؟!

بلى: هو اتباع وانقياد، اتباع لشريعة من السماء، وسُنّة رسوله من السماء، وليس هو مثل اتباع شخص لشخص أو انقياد الحزبيين لمنهج أحزابهم - كما هو الشأن مع بومبيدو وديجول.

وأما البدعة التي أشار إليها الأستاذ الزيدان، وأسماها شذوذًا عن الاتباع، فهو يعلم أنه لا بدعة إلا في الدين فقط.. والبدعة إنما تسمى بدعة إذا أحدثت في الدين حسب اصطلاح الفقهاء أما في غير ذلك فلا..

وفي الختام.. لست ألتمس العذر من أستاذنا الزيدان على هذا النقاش إذ لا أجد فيه كلمة نابية عن موضعها.

ولعل أستاذنا، وهو من تأدب بأدب الإسلام، يعترف بالحق، حيث يعلم أن الاعتراف بالحق فضيلة في الأدب الإسلامي!

(البلاد ٢/٤/١٣٩٣هـ).

الأستاذ العواد
وتفسير القرآن الكريم؟

لا شك عندي أن أستاذنا الكبير محمد حسن عواد متعدد جوانب المعرفة روايةً ودرايةً وعلمًا وفقهًا وفكرًا.. ولا شك أيضًا أنه من القلائل من أدباء الرعيل الأول ممن يتميزون بالفكر الحر والرأي السديد والأصالة الثقافية المتعددة الفروع والأغصان.

ولكن ليس كل ذلك أو أكثر منه أو بعضه مما يجعله هو أو غيره بمنأى عن الخطأ، فإنما هو بشر يخطئ ويصيب بقدر ما يسعفه علمه وفكره على الصواب... وبقدر ما تخذله بشريته فتجره إلى الخطأ... ومهما أوتي البشر من العلم فإنهم لا يملكون إلا النزر اليسير، أو الرقعة الصغيرة التافهة في محيط علم الله تعالى (وفوق كل ذي علم عليم).

وهذا كله ينطبق على العلوم الدنيوية.. فكيف بعلم تفسير القرآن الكريم وهو أجل العلوم وأهمها وأشدها أثرًا وتأثيرًا وخطورة.. فهو لذلك وغيره من أسباب القداسة والجلال من العلوم المحفوفة بالكثير من المحاذير، والمقيدة بالكثير من الشروط، ولا يجوز فيها مجرد الرأي مثل سائر العلوم؛ لقول النبي - صلى الله عليه وسلم : (من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعدة من النار)، وروي عن أبي بكر الصديق وهو من هو - رضي الله عنه - أنه قال: (أي أرض تُقلُّني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم).

وقال أبو عبيدة: (اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله)... وأكثر السلف قالوا مثل هذا أو نحوه... وكانوا يتحرجون كثيرًا من تفسير القرآن - رغم سعة علمهم وغزارة معارفهم وقربهم من عهد نزول القرآن - فكيف بنا الآن بعد ١٤ قرنًا من نزول القرآن؟

بيد أنه لا حرج دون شك من جواز تفسير القرآن في عصرنا هذا أو غيره من العصور، ولكن بالشروط التي وضعها السلف:

ولعل أهون هذه الشروط وأكثرها إيجازًا قول ابن عباس - رضي الله عنه - وهو الذي دعا له رسول الله ﷺ بقوله: (اللهم فَقِّهْهُ في الدين وعلّمه التأويل).

قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه:

١ - وجه تعرفه العرب من كلامها.

٢ - وتفسير لا يعذر أحد بجهالته.

٣ - وتفسير يعلمه العلماء.

٤ - وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله.

أما التفسير الذي تعرفه العرب من كلامها فهو باعتبار الكلمات اللغوية، والتفسير الذي لا يعذر أحد بجهالته هو الحلال والحرام، والتفسير الذي يعلمه العلماء هو ما يستنبطونه من تفسير القرآن بالقرآن والحديث (ولا يجوز أن يخالف التفسير على أي حال ظاهر القرآن). وأما التفسير الذي لا يعلمه إلا الله فهو المتشابه.. ومن ادّعى علم المتشابه أحد سوى الله فهو كاذب)!!

وهناك غير ذلك الكثير من الشروط التي وضعت دون تفسير القرآن الكريم.

ولا شك أن الأستاذ العواد يعلم الكثير منها فهو - كما قلت - متعدد جوانب المعرفة والحمد لله.

ولذلك أثار دهشتي واستغرابي أن يتعرض لتفسير آية كريمة بمجرد رأيه دون أدنى خضوع أو اعتبار لشروط علم تفسير القرآن الكريم.. وفضلاً عن ذلك تورط في تفسير الآية بما يخالف جميع التفاسير منذ الطبري و(ابن كثير) و(الفخر الرازي) إلى (طنطاوي جوهري) و(سيد قطب).

وأمامي الآن أكثر من عشرة مراجع معتبرة بين قديم وحديث جميعها

تخالف تفسيرات أستاذنا العواد ولكن.. لنبدأ الموضوع من أوله.

لقد نشر الأستاذ العواد في يومياته بجريدة البلاد الصادرة بتاريخ ٩٥/٥/٧ مقالاً بعنوان (مجلة الدارة) استعرض فيه موضوعات المجلة حتى وصل إلى موضوع الدكتور (طه عثمان الفرا) وهو بعنوان (تطبيق نظرية جونز على نشأة وتطوير المملكة العربية السعودية)، وهي نظرية سياسية (خلاصتها أن فكرة الدولة وليدة سلسلة من التطورات مكونة من خمس حلقات هي):

١ ـ فكرة سياسية.

٢ ـ قرار (عزم).

٣ ـ حركة.

٤ ـ ميدان.

٥ ـ دولة.

وكأن أستاذنا العواد ـ بدافع من غيرته الإسلامية ـ قد استكثر أن تكون هناك نظرية سياسية لغربي اسمه (جونز) ولا توجد في القرآن الكريم فلم يتمالك نفسه حتى خبط تلك النظرية بـ (ضربة قاضية) فقال: إنها (تبدو ـ أي نظرية جونز ـ غير مركزة إذا نحن تأملنا الآية القرآنية الكريمة التي تقول (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا).

ويضيف الأستاذ العواد قائلاً:

(وقديمًا لفتت نظري هذه الآية وكتبت عنها شارحًا ومعلقًا وأرى أن فيها نظرية راسخة في علم الاجتماع وعلم الحياة وعلم النفس لا في السياسة وحدها).

و(أن النجاح في أي شيء لا في السياسة فحسب وهذا النجاح هو ما سمته الآية الكريمة (السعي المشكور) قد تحصر عناصره في ثلاث مراحل... إلخ).

وبعد أن أورد المراحل الثلاث ـ في رأيه ـ قال: (فهذه هي أركان النجاح في

حياة البشر في دنياهم وفي آخرتهم وفي مادياتهم وفي معنوياتهم وفي روحانياتهم).

وكلمة (الآخرة) في الآية - كما يقول الأستاذ العواد - توحي فيما توحي به بالعاقبة والنتيجة... إلخ، وهذه المقتطفات التي نقلتها من مقال الأستاذ العواد - مع الحرص على الإيجاز - تحصر مفهوم أو تفسير العواد للآية الكريمة: (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) في النقاط المهمة التالية:

١ - صلاحية الآية الكريمة بديلا سابقًا لنظرية (جونز) في سلسلة التطورات التي تتكون منها الدولة.

٢ - صلاحية الآية لأن تكون (نظرية راسخة في علم الاجتماع وعلم الحياة وعلم النفس لا في السياسة وحدها، وأن النجاح هو (السعي المشكور).

٣ - إن كلمة (الآخرة) في الآية ليس المقصود بها بالضرورة (الدار الآخرة) وإنما توحى - أي كلمة (الآخرة) كما يري العواد - فيما توحي به بـ (العاقبة والنتيجة) وتلك هي خلاصة أو مفهوم أو تفسير الأستاذ العواد للآية الكريمة الآنفة الذكر، وهنا لا بد أن نلاحظ عدة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: أن الأستاذ العواد فسر الآية الكريمة بمجرد رأيه دون دليل من القرآن أو السُنّة أو قول من أقوال الصحابة، وفي هذا وحده أهم إخلال بأهم شرط من شروط تفسير القرآن الكريم.

يقول ابن كثير: (إن أصح طرق التفسير: أن يفسر القرآن بالقرآن (....)، وإن أعياك ذلك فعليك بالسُنّة فإنها شارحة للقرآن (....)، فإن لم تجد تفسير القرآن بالسُنّة فارجع في ذلك لأقوال الصحابة - رضي الله عنهم - فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح). وقال ابن كثير أيضًا:

(أما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام).

الملاحظة الثانية: أن الآية الكريمة المذكورة مسبوقة بآية كريمة قبلها مباشرة كما يلي:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلا نُّمِدُّ هَؤُلآءِ وَهَؤُلآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

ومن الواضح جدًّا من سياق الآية أنها مقيدة، وأن المقصود بكلمة (الآخرة) هو (الدار الآخرة)، وليس النجاح في أي شيء كما يقول العواد.

وقد ذكرت آنفًا أن أمامي وأنا أكتب هذا المقال أكثر من عشرة مراجع قديمة وحديثة في تفسير القرآن الكريم وكلها تتمسك بالتفسير على أساس ظاهر الآية وتنص على أن المقصود بكلمة (الآخرة) في الآية الكريمة هو (الدار الآخرة) لأن الآية السابقة نصت على (العاجلة) أي الدنيا الفانية.

ومن هنا فإنه لا مجال بأي حال من الأحوال لإقحام الأستاذ العواد تلك الآية الكريمة في نظريات السياسة وعلم الاجتماع وعلم الحياة وعلم النفس أو غير ذلك مما ذكره!

ولو أن المجال يتسع لي لنقلت هنا جميع نصوص تفاسير هذه الآية الكريمة وهي نصوص بعيدة كل البعد عن فهم الأستاذ العواد وتفسيره.. بل إننا لا نعتبر كلام العواد تفسيرًا للآية بأي وجه من الوجوه؛ لأنه لا يستند إلى أي دليل من الكتاب أو السُنّة أو أقوال الصحابة، ولا يخضع بالتالي لأي شرط من شروط تفسير القرآن الكريم.

أما التفاسير المعتبرة فيؤسفني أن المجال لا يتسع لايراد نصوصها حول تفسير هذه الآية الكريمة ولكني أجتزئ بعضها هنا لمجرد مقتضيات أبسط

مناهج البحث وهي مقتضيات لا تتسع لها صفحات مثل هذه المجلة.

يقول ابن كثير:

(ومن أراد الآخرة) أي أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور... إلخ)، وقال أيضًا في الآية: (مقيدة إطلاق ما سواها من الآيات).

ويقول الزمخشري في الكشاف:

(من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد فقيد الأمر تقييدين: أحدهما تقييد المعجل بمشيئته، والثاني تقييد المعجل له بإرادته).

وقال أيضًا: (إرادة الآخرة بأن يقصد بها همه ويتجافى عن دار الغرور).

وقد روي عن بعض المتقدمين ـ كما ذكر الزمخشري: (من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب).

فأين هذا من الأركان الثلاثة التي ذكرها العواد؟ ويقول صاحب (أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن) ما نصه.

(إن من أراد الدار الآخرة وسعى لها سعيها) أي عمل لها عملها الذي تنال به وهو امتثال أمر الله واجتناب نهيه بإخلاص على الوجه المشروع).

ويقول صاحب (الجواهر):

(ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) أي عمل لها عملها.. إلخ.

ويقول أيضًا: إن التفاوت في الآخرة أكبر ما تراه في الأخلاق والأرزاق والأعمال).

فأين هذا من أعمال (النجاح) التي يريدها الأستاذ العواد في السياسة وعلم النفس وعلم الاجتماع على ضوء الآية الكريمة؟

الملاحظة الثالثة هي: إن نظرية (جونز) في سلسلة التطورات التي تتكون منها الدولة نظرية دنيوية لا علاقة لها بـ (إرادة الآخرة والسعي لها) فكيف

يجوز للأستاذ العواد أن يقحم معنى محددًا بنص واضح في القرآن الكريم في شؤون السياسة والنجاح وعلم النفس... إلخ؟

الملاحظة الرابعة والأخيرة هي: أن المركب الخشن الذي ركبه الأستاذ العواد قد ركبه غيره من قبله بإقحامهم القرآن الكريم في مسائل وأمور حديثة لا علاقة لها بالنصوص القرآنية التي يعتسفونها اعتسافًا من أجلها، مع أن القرآن الكريم ليس بحاجة إلى إثبات جديد لإحاطته بكل شيء فهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. ولا ضرورة للزعم بأن القرآن قد (نص) على كل شيء، ولو كان الهدف من القرآن الكريم هو ذكر كل شيء والنص عليه وتفصيله لما بقي شيء مما يجب ذكره ولا حتى للأحاديث الشريفة - وهي المكملة أو المتممة - له بل لما تبقى شيء للعقل البشري أو للفكر والتدبر ومحاولة الاكتشاف.

ولا يسعني في نهاية هذا المقال إلا أن أستغفر الله لي وللأستاذ العواد ولجميع المسلمين من الخطأ والزلل... وهو سبحانه المستعان على كل صواب وسداد.

مجلة اقرأ ١٨/٥/١٣٩٥هـ

مع الحميدين والمقطع الدائري؟!

لم يدهشني أن يغضب الصديق سعد الحميدين كل هذا الغضب الذي أعرب عنه في مقال مطول بهذه الجريدة[1] (الملحق الأدبي) ليوم الخميس ١٤/ ٦/ ٩٤، وذلك لمجرد أنني أبديت اهتمامًا خاصًا بالعدد الثالث من (ملف اليمامة الثقافي) إذ كتبت عنه. ثم استكتبت أيضًا الأستاذ راضي صدوق في صفحة (أدب وأدباء) التي أحررها في جريدة البلاد. وأن هذا الراضي الصدوق - هداه الله - لم تعجبه قصيدة للصديق (سعد الحميدين) في الملف المذكور. لأنه ببساطة لم يفهمها - حسب قوله - على الرغم من أنه شاعر شهير سواء في الشعر المقفى الموزون أي (الكلاسيكي)، أو في الشعر المحدث المنثور الذي يسميه صديقنا أبو عبدالرحمن بن عقيل (بعر الكبش).

لم يدهشني غضب الحميدين لأنه قد سبقته بعض النذر في جريدة الجزيرة، تلك النذر التي تسبق العاصفة ولأنه - أي الحميدين - لم يفعل شيئًا غير أنه من الأدباء السعوديين بحق وحقيق. ذلك لأن معظم هؤلاء الأدباء (تجرح خدودهم الرقيقة النسمة العليلة).. إذ يعانون من حساسية مفرطة تجاه النقد والنقاد لأنهم - ربما - لم يتعودوا غير الإطراء والمديح وحرق المباخر، ولأنهم أيضًا يعيشون في أمان واطمئنان تحت مظلة عدم المهاترات في صحفنا، أي بالأصح يعيشون في أمان من النقد؛ لأن النقد غائب في إجازة طويلة بسبب عدم تفريق بعض المسؤولين في صحفنا بين المهاترات وبين النقد الأدبي.

والصديق (الحميدين) ليس غير واحد من هؤلاء الأدباء مع أنني كنت -

---

(١) جريدة الرياض.

لسذاجتي ـ قد أحسنت به الظن قليلاً فمرّرت بضعة الأسطر تلك التي خصه بها الأستاذ راضي صدوق ضمن مقال طويل عريض عن مواد ملف اليمامة الثقافي الذي يعمل الصديق الحميدين شريكًا في سكرتارية تحريره.

أقول: إنني أحسنت الظن قليلاً بالحميدين وبمدى تقديره لحق الآخرين في إبداء آرائهم دون أن يكون لهم بالمرصاد من يمنعهم عن ممارسة هذا الحق المتواضع عن طريق التهديد والوعيد وكيل التهم بالجهل والسخافة والوجود الشاحب. والنكرة والتعريض بعدم حمل الجنسية السعودية.. إلخ إلخ..

أما وقد خاب حتى ذلك القليل من حسن ظني أو سذاجتي فإنه حتى الدجاجة لا بد أن تنقرك أو تحاول ذلك إذا أنت حاولت فقس بيضها!!

أما وقد خاب ظني وبانت سذاجتي فلا بد من أن أراجع الحساب مع الصديق الحميدين وهو حساب من شقين ـ أو خانتين:

الشق الأول ـ أو الخانة الأولى ـ ما يخصني أنا بالذات من مقال الحميدين كمحرر للصفحة الأدبية التي استكتبت الأستاذ راضي صدوق ونشرت مقاله.

والشق الثاني ـ أو الخانة الثانية ـ ما يخص الأستاذ راضي نفسه من مقال الحميدين وخاصة بعد أن زجني الصديق الحميدين نفسه كطرف في الموضوع بينه وبين راضي صدوق، ولم يفعل ما فعلته أنا عندما وقفت على الحياد من رأي راضي صدوق في سعد الحميدين ولم أستخدم حقي في التعليق أو (التنبيه) كما أراد الحميدين!!

ولنبدأ بالشق الأول وهو ما يخصني بالذات من رذاذ غضب الحميدين.

افتتح الصديق الحميدين مقاله بأن وضع أصبعه مباشرة على (المآسي) التي يعاني منها أدبنا المسكين فقال:

(من المآسي التي يعاني منها أدبنا المحلي ـ وهل لنا أدب عالمي يا أستاذ؟؟

- إفساح المجال أمام بعض النكرات للإمساك بخطامه وجرجرته (هكذا) إلى وجهات مختلفات ومن ثم ممارسة الأستاذية عليه بمناسبة أو بدونها.

ولم يكتف الصديق الحميدين بوضع أصبعه على هذا الداء المستفحل في أدبنا المحلي لا العالمي.. بل وضع أصبعه مرة أخرى على أسباب هذا الداء فقال:

(وهذا يعود في أوله إلى المحررين الأدبيين في جرائدنا الذين يحاولون أبدًا تطعيم كياننا الأدبي بوجهات النظر الشقيقة.. إلخ.

وكأنه - أي الصديق الحميدين - قد رأى أن التعريض بعدم (سعودية) راضي صدوق غير لائقة وخاصة في مجال الأدب بالذات، وخاصة أيضًا أن راضي صدوق شقيق عربي من فلسطين العزيزة التي تتفانى الأمّة العربية بأسرها من أجل قضيتها لأنها قضية كل العرب والمسلمين.

كأن الصديق الحميدين أدرك ذلك فأردف بقوله:

(وهذا عمل طيب... (الثلاثة الأصفار من عند الحميدين).. إلا أن عملية الاختيار هي التي يقع في حبائلها المحرر بحسن نية مرة... (الثلاثة الأصفار من عند الحميدين أيضًا) وعن قصد سيئ مرة أخرى مما يفتح الباب أمام بعض النكرات - وأعني بالنكرة من ليس له أي أثر في الأدب العربي).

وبرر الحميدين هذا الاندفاع من محرري الصفحات الأدبية نحو الأشقاء (النكرات) أنه (ظنًا منه - أي محرر الصفحة الأدبية - بأن في ذلك ما يدفع بصفحته إلى مكانة معتبرة وهو بسذاجة - أي المحرر الأدبي - يفسح المجال أمام روائح تيارات لم تستطع أن تتسلل... إلخ) وانتهى الصديق الحميدين من التعميم على محرري الصفحات الأدبية ليشرفني بالذات بفقرة خاصة من مقاله فقال: إن اختيار محرر جريدة البلاد (ولم يذكر اسمي مع أنني أرجوه أن يحصي المرات التي ذكرت فيها اسمه مضافًا إلى نعته بالصديق حتى هذا الحد

من مقالي) لراضي صدوق وتكليفه بالكتابة عن ملف اليمامة.. أرجعه إلى حسن النية لدى المحرر ولكن نشره للموضوع بدون مراجعة أو وجهة نظر قلل عندي من حجم حسن النية التي كنت أفترضها.

ويقصد الصديق الحميدين من (عدم المراجعة أو وجهة النظر) أنني لم أنبه راضي صدوق إلى أن مشاركات الحميدين في الشعر ترجع إلى ١٤ عامًا مضت كما أكد ذلك هو نفسه.

ثم عاب عَلَيَّ الحميدين في النهاية اختياري لكاتب واحد (لنقد المواد الأدبية المختلفة التي تضمنها الملف) واعتبر ذلك من الأخطاء التي لا يمكن تركها تمر بدون إشارة!! كان ذلك هو ما خصني به الصديق في مقاله. أو عاصفته!!

وأعرف أنني أسرفت في نقل النصوص ولكن ليعذرني القارئ إذ لا بد من ذلك في أصول النقاش حتى ولو كان نقاشًا عابرًا في صحيفة سيارة، أما الآن فسأبدأ في عرض (بضاعتي) في الرد على الحميدين وليكن ذلك بحسب أرقام متسلسلة زيادة في الاحتياط ضد الغفلة أو السذاجة التي نعتني بها الصديق الحميدين.

١ ـ إفساح المجال أمام وجهات النظر الشقيقة وهو ما عابه علَيّ وعلى الأدبيين مارسه هو نفسه وفي ملف اليمامة المذكور بالذات الذي كتب في الصفحات الأولى منه أن الحميدين هو سكرتير تحريره الثاني بعد الصديق عبدالله الماجد وذلك بنشره أكثر من وجهة نظر شقيقة في ذلك الملف دون أن ننكر عليه ذلك أو على زملائه في أسرة التحرير فتلك واحدة بواحدة. وانتهينا!!

٢ ـ راضي صدوق ليس (نكرة) على الأساس الذي حدده الحميدين نفسه لمفهوم (النكرة) وهو من ليس له أي أثر في الأدب العربي، ذلك أن راضي صدوق له أثر لا ينكر في الأدب العربي شعره ونثره، حيث نشر له أكثر من ديوان شعر عن أشهر دور النشر في العالم العربي وحيث تنشر شعره أو نثره

ليس صفحة البلاد التي أحررها فحسب بل - أكثر المجلات العربية شهرة وسعة انتشار. وفي مقدمتها مثلاً مجلة (العربي) التي لا يمكن - وأرجو المعذرة لهذه الصراحة - أن يتطاول الصديق الحميدين إلى نشر شعره فيها - وخاصة من نوع قصيدته (نقطة البدء)!!

ووجود راضي صدوق في الأدب العربي ومن ضمنه أدبنا ليس (شاحبًا) كما وصفه الحميدين بل هو وجود ثابت متألق أكثر بكثير من وجود الصديق الحميدين نفسه، ومرة أخرى أرجو المعذرة لهذه الصراحة!

ثم ماذا فعل راضي صدوق حتى يشجب الحميدين وجوده الأدبي بجرة قلم؟

ماذا فعل أكثر من أنه أبدى (وجهة نظر شقيقة) في قصيدة لسعد الحميدين (تعتمد على المقطع الدائري) الذي لم يستطع فهمه راضي صدوق فقال ببساطه: إنه لم يفهم القصيدة.

ولنفرض جدلاً وجود عداوة - لا سمح الله - بين الحميدين وراضي صدوق، وهذا أمر غير وارد إطلاقًا.. أفليس من الأحرى بالصديق أن يتمثل بجده الشاعر العربي القديم حيث يقول:

عداي لهم فضل عليّ ومنة   فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا

هموا بحثوا عن زلتي فاجتنبتها   وهم حاربوني فاكتسبت المعاليا

أم أن الصديق الحميدين يعتبر هذا الشعر من (القوالب الجاهزة) التي لا تعتمد على (المقطع الدائري)؟!

وبمناسبة حكاية (المقطع الدائري) هذه وأمثالها من الحكايات التي تحاول أن تروج لبعض المفاهيم الشعرية (المعلبة) المستوردة (تسليم الميناء).. أود أن أشير إلى أن الصديق الحميدين ليس وحده في هذا الميدان (الدائري).. بل إنه قد صدق عندما قال بأن (المقطع الدائري قد استولى على مساحة من الساحة

الشعرية عند الشعراء العرب) فقد وصل هذا النوع من الشعر فعلاً ليس فقط إلى المقاهي أو حتى المجلات.. بل وصل حتى إلى مؤتمرات الأدباء العرب، وكان آخر ما أنشد منه في مؤتمر الأدباء العرب بتونس قصيدة نذكر منها على سبيل المثال هذا (المقطع الدائري) الذي أضحك أغلب الحاضرين في المؤتمر ـ إن لم يكن كلهم ـ وهذا نصه:

(أمي أفعى.. أختي أفعى.. عمتي أفعى.. خالتي أفعى.. جدتي أفعى.. أنا.. أنا.. أنا حنش!!) ومن لم يصدق من القراء أن هذا المقطع أنشد في مؤتمر الأدباء العرب في تونس ـ على أساس أنه من الشعر طبعا ـ فليرجع إلى العدد ١٧٤ لشهر ربيع الأول ١٣٩٣هـ من مجلة العربي مقال الأستاذ أحمد السقاف رئيس وفد الكويت إلى المؤتمر الأدبي المذكور.

دعنا من هذا يا أخ سعد وقل لي بربك، ما الذي أخرجك عن وداعتك ورقتك وحسن تقديرك للأمور فلم يجعلك تحمل عدم فهم (راضي صدوق) لقصيدتك على أحسن محمل أو حتى على أسوأ محمل فتستفيد من بحثه عن زلتك ـ هذا إذا كان قد فعل ـ وتكتسب المعالي؟ بدلاً من (التنديد) به وبي وبجميع محرري الصفحات الأدبية.؟. وبدلاً من النزول إلى درك أدنى ليس أقله التعريض بأن راضي صدوق ليس من السعوديين.. إلخ؟

هل للأدب أو الفكر أوطان في نظرك.. وإذا كان لا بد له من أوطان.. فهل فلسطين التي ينتمي إليها راضي صدوق قليلة في نظرك؟

٣ ـ أما وصفك أيها الصديق الحميدين لمحرري صفحات الأدب ومنهم كاتب هذه السطور.. بل هو المقصود بالسذاجة، لأنهم يفسحون المجال (أمام روائح تيارات).. إلخ فبالله عليك.. ثم بصداقتي وحبي لك أن تقول لي: من هو الذي يفسح المجال أمام (روائح التيارات) أنا... أم أنت..؟ بل من هو الذي يبحث عنها ويحاول أن يتمثلها ويسمح لنفسه بأن يكون نسخة مشوهة عنها.. أنا أم أنت.؟

وأظنك لو راجعت ضميرك الذي ما زلت وسأظل أحسن به الظن إلى أن يثبت العكس تمامًا.. أظنك لو راجعت هذا الضمير لاعترفت بأنني أبعد ما أكون عن هذه التهمة.

٤ ـ وتقول أيها الصديق الحميدين إننا معشر محرري الصفحات الأدبية ـ وأنا المقصود بالطبع في الدرجة الأولى من مقالك ـ نسعى وراء وجهات النظر الشقيقة ظنًّا منا بأن في ذلك ما يدفع بصفحاتنا إلى مكانة معتبرة...إلخ.

ما هذا ... يا سعد؟

إنك تعرف جيدًا أنني لم يسبق لي قط أن نشرت في صفحتي الأدبية أية (وجهة نظر شقيقة) ليس لأنني أفهم وجهة النظر هذه على نحو فهمك بل لأنني ـ للمصادفة ـ لم أتلق أية (وجهة نظر شقيقة) وليس عندي أي متسع من الوقت ـ مع الأسف ـ للبحث ولو لم يكن الصديق الأستاذ راضي صدوق زميلاً وعلى مقربة مني يسمح بها وقتي، ولو لم أعتبره ـ على حسب اجتهادي ـ أهلاً وزيادة لما انتدبته له... لما فعلت ذلك ... وأنت بالتأكيد تفهمني وتعرفني جيدًا يا صديقي.. ولكنه الغضب يعمي ويصم!!

٥ ـ أما أنك تعيب عَلَيّ اختياري لشخص واحد ليقوم باستعراض مواد ملف اليمامة مع أنها متعددة متنوعة... إلخ، فذلك من أعجب العجب حقًّا. هل تريدني أن أعيد الكرة إلى مرماك، وأتهمك بدوري بالسذاجة والجهل وعدم متابعة القراءة...إلخ؟

إذن فاعلم ـ رحمك الله ـ أن أكثر المجلات الأدبية وليس الصفحات فقط تفعل ذلك، وحتى لا تتهمني بإطلاق الكلام على عواهنه سأضرب لك مثلاً على ذلك وعلى المستوى العربي بصفة عامة وهو مجلة (الأدب) اللبنانية مثلاً فإن أحد أبوابها ـ منذ زمن ـ كان بهذا العنوان (قرأت العدد الماضي) يستعرض فيه أحد الكتاب ـ وليس أكثر من كاتب واحد كما تظن أنت ـ مواد العدد الماضي من المجلة شعره ونثره وقصته... إلخ.

وعلى مستوانا المحلي لا اذهب بك بعيدًا في ضرب المثل... فهو أقرب إليك من حبل الوريد!!

مجلة اليمامة ـ ما غيرها ـ التي يصدر عنها الملف المذكور والذي أصبحت من أسرته وأسرتها أيضًا هذه المجلة (اليمامة) هي نفسها أفردت عدة صفحات ـ لا جزءًا من صفحة ـ وفي عددين متواليين استعراضًا شاملاً لموضوعات العدد الثاني من ملف اليمامة (نفسه) بقلم كاتب شقيق أيضًا ـ أي غير سعودي ـ هو الأستاذ (فرحان بلبل) وذلك في العدد ٢٣٨ من اليمامة والعدد الذي يليه!!

فهل تعيب على صفحتي الأسبوعية المتواضعة ما فعلته ـ على شكل أوسع ـ نفس المجلة التي تعمل فيها وتنتسب إلى أسرتها... ثم تنسى كل ذلك في فورة غضبك؟

أي صديقي....

أظن في هذا ما يكفي كتصفية حساب للشق الأول من مقالك أما الشق الثاني فلا أظن مجال الملحق الأدبي في (الرياض) العزيزة يتسع له في هذا العدد.. إلى اللقاء في عدد قادم وشكرًا على كل حال.

جريدة الرياض ١٣٩٤/٦/٢١هـ

مع الحميدين والمقطع الدائري؟!
ـ ٢ ـ

أخي الأستاذ عبدالله الماجد[1]..

قرأت كلمة الحميدين التي يعقب فيها على تعقيبي المتواضع فلم أملك غير قليل من الأسف على الإفراط في حسن الظن به، ولكني ـ مع الأسف القليل ـ أستطيع أن أرد على ما جاء في تعقيبه من مغالطات فاضحة، وأترك الحكم للقراء الواعين المتابعين، فهم خير حكم ليس فقط بين أمثالي وأمثال سعد الحميدين، وإنما هو بين من هم أهم منه ومني!!

وليكن ردي أو تعقيبي ـ كما كان في السابق ـ بالأرقام المتسلسلة، زيادة في الحيطة ضد الغفلة أو السذاجة التي وصفني بها الحميدين، وأنا بالفعل ساذج، وإلا ما كنت أحسنت به الظن!!

وها هو الرد فيما يلي:

١ ـ قال الحميدين في تعقيبه: (ولم تدهشني المغالطات ـ يقصدني ـ لكوني قد وضعت حساباتي على هذه الأسس التي ينطلق منها العمير كلما وجد أنه في حصار أو ضيق... إلخ).

وأنا أتساءل: ترى أي حصار أو ضيق كنت فيه ما دام لم يبدأ بيني وبين الحميدين أي نقاش قط، وحتى هذا النقاش الحالي لم يكن قد بدأ، فأي ضيق وحصار كنت فيه؟؟

اللهم إني لم أكن في غير فضاء واسع، الأرض تقلني والسماء تظلني فيا للحصار!!

---

(١) كان أخي عبدالله الماجد هو محرر الصفحة الأدبية بجريدة الرياض.

٢ ـ وقال الحميدين: (لقد كان مفتاح مقالي السابق يحمل العتب على الصديق العمير لأنه المحرر الأدبي الذي أجاز نشر مقال راضي صدوق... إلخ).

والواقع أن (مفتاح) مقال الحميدين دفعني لكتابة مقالي السابق ـ على بقايا من حسن ظن بالحميدين ـ لأنه افترض في (مفتاح) مقاله أنه كان لا بد أن أقوم بـ (تنبيه) راضي صدوق بأن الحميدين ليس ناشئًا، وأن تجاربه الشعرية (بلغت) ١٤ عامًا مضت، وأنه ـ أي راضي صدوق ـ كان (جاهلاً) بكل ذلك عندما لم يفهم قصيدة (نقطة البدء) للحميدين المذكور!!

وكرر الحميدين تأكيده على هذه النقطة كثيرًا.. مع أن الأمر ببساطة، كان ـ في حسن ظني ووجهة نظري ـ أن أترك راضي صدوق يقول ما يشاء كناقد، ولم يخطر في بالي ـ ولن يخطر ـ أن أمسك بخناقه وأقول له:

انتبه.. ترى أن تجارب الحميدين الشعرية قد (بلغت) ١٤ عامًا!!

لقد تركت راضي صدوق، يقول ما شاء أن يقول، ليس في قصيدة الحميدين وحدها، وهي التي لم يخصها غير بضعة أسطر من المقال، بل في جميع أو معظم مواد ملف اليمامة الثقافي.

والعجيب أنه لم يغضب أي واحد من كتاب الملف ومنهم الوزير والدكتور والأديب اللامع.. إلخ، اللهم إلا سعد الحميدين وهو أقلهم وأدناهم شأنًا، وأعتقد أنه يعترف بذلك، وإلا كنت مغفلاً كبيرًا وليس (ساذجًا) فقط كما وصفني هو نفسه!!

٣ ـ يقول الحميدين: (وهكذا تخيل ـ يقصدني ـ وكأن همي الوحيد يكمن في متابعة صفحة أدبية ـ يقصد الأدب في البلاد التي اهتمت وحدها بملف اليمامة الثقافي ـ تمثل أدبنا قبل ثلاثين عامًا..إلخ).

أرأيت يا صديقي الماجد؟

أن (صفحة الأدب في البلاد) تصدر منذ مدة غير قصيرة، والحميدين لم يكن في (إجازة) خلال هذه المدة.. بل كان يتابع الصفحة باعترافه، ومع ذلك لم

يقل أبدًا وفي السابق إنها (تمثل أدبنا قبل ثلاثين عامًا) حتى خصه أحد كتابها ببضعة أسطر لم ترضه فقال ذلك.. فهو ما دام لم يقل ذلك طيلة هذه المدة الطويلة - بين أحد أمرين:

إما أنه يغالط نفسه، ويغالط الواقع، لأن (صفحة الأدب في البلاد) تتابع أحداث ما ينشر، على الأقل في أدبنا المحلي، بدليل اهتمامها وحدها بملف اليمامة الثقافي فور صدوره، ومعنى ذلك أنها تمثل أحدث ما يصدر من أدبنا المحلي - على الأقل - أخطأت في ذلك أو أصابت فللمجتهد المخطئ أجر واحد، وللمجتهد المصيب أجران!

ومعنى ذلك بالتالي أن صفحة الأدب في (البلاد) لا تمثل الأدب قبل ٣٠ عامًا فقط - كما يقول الحميدين - وإنما تمثل أيضًا أدباء أو حتى (شعراء السبعينيات) الذين عناهم الشاعر اللامع (نزار قباني) في مقاله الأخير الشهير في (الأسبوع العربي) بدليل أن أحد كتابها - أي كتاب صفحة الأدب في البلاد، وهو راضي صدوق - ذكر سعد الحميدين نفسه وهو الذين لم تزد تجاربه الشعرية عن ١٤ عامًا فقط كما زعم هو لنفسه بنفسه!!

الأمر الثاني: هو أن يكون الحميدين قد سكت عن الحق طيلة هذه المدة فلم يقل ما يعتقده بشأن صفحة الأدب في البلاد، ولعله لا يعرف - كما هو شأن أمثاله - أن الساكت عن الحق (شيطان أخرس) كما في الأثر!!

٤ - كان الحميدين قد اشترط في مقاله السابق شرطًا واحدًا فقط لإجازة نشر (وجهات النظر الشقيقة) في صحفنا المحلية، وهم الذين أسماهم (النكرات) وقال بالحرف الواحد: إن النكرات هم الذين (ليس لهم أي أثر في الأدب العربي)، وكان يقصد بكل ذلك طبعًا الأستاذ راضي صدوق، فلما أقمت عليه الحجة الواضحة بأن أثر (راضي صدوق) في الأدب العربي يذكر فيشكر، لم يكن في وسع الحميدين غير أن يزيد على شرطه السابق ثلاثة شروط أخرى، لا بد

منها في رأيه قبل نشر أية (وجهة نظر شقيقة) في صحفنا المحلية، وخاصة فيما يتعلق به نفسه بالطبع!!

والشروط الثلاثة الجديدة التي أملاها الحميدين تعتبر أشمل وأدق بكثير من شروط أكثر البلدان تشددًا في شؤون (الجوازات والجنسية) وليس في شؤون الأدب والأدباء فقط!!

٥ ـ ويقول الحميدين: (المفروض أن نسأل العمير نفسه هذا السؤال: لماذا لم يصل راضي صدوق بكل آثاره إلى حجم قصيدة واحد ممن ذكرت ـ يقصد قصائد القباني، والسياب، والخوري، وعبدالصبور، وأدونيس، وخليل حاوي ـ هنا أعني الأثر، وأعطي طرف الإجابة بأن راضي صدوق نظر إلى نفسه بالميكروسكوب فتضاعف حجمه ملايين المرات أمام عينيه وعيني العمير فقط... إلخ).

وجوابي ـ يا أخي الماجد ـ على هذه الفقرة من شقين:

الشق الأول أن (دار الآداب) التي استشهد بها الحميدين في موضع آخر من مقاله، أصدرت سلسلة من الكتب تحت عنوان (مختارات من الشعر الإفريقي الآسيوي) وقد كان الجزء الأول أو الكتاب الأول من السلسلة المذكورة يحتوي على مختارات جيدة لشعراء أفريقيين وآسيويين، كان من ضمنهم الأستاذ الشاعر (راضي صدوق) ـ ما غيره!

وذلك ما لا يعرفه الحميدين بالتأكيد، وإلا ما كان يمكن أن يذكر (أدونيس) أو (خليل حاوي) في مقاله، خاصة أن ترتيب (راضي صدوق) في الكتاب المذكور قد جاء قبلهما.. بل جاء اسمه أيضًا قبل الفيتوري ومحجوب وغيرهما كثير من الشعراء الإفريقيين والآسيويين الذين اختارت (دار الآداب) قصائد ممتازة من شعرهم!!

يا أخي الماجد.. إن (الجهل) أو (التجاهل) عند الغرض هو مصيبتنا!!

وإلا فلو شئت لذكرت الكثير من المصادر التي تحت يدي أو في مكتبتي، والتي تجعل راضي صدوق أسبق بكثير من الشعراء، حتى الشعراء الذين ذكرهم الحميدين نفسه. أو تجعله - على الأقل - على قدم المساواة مع أشهرهم.. فلماذا نسمح لسعد الحميدين أن يشجب وجود مثل هذا الشاعر عن جهل أو تجاهل منه، ويجعله - بجرة قلم - نكرة من النكرات مع أنه أشهر منه وبمن يعجب بهم أيضًا من الشعراء بمراحل كثيرة؟؟

أما الشق الثاني من جوابي على الحميدين في هذا الموضوع فهو من نوع سؤاله أيضًا.. أي على طريقة (الجزاء من جنس العمل) فأنا أسأله بدوري:

لماذا لم يصل هو أيضًا - خلال تجارب شعرية عمرها ١٤ عامًا كما قال هو عن نفسه - إلى المستوى الذي وصل إليه أدنى من ذكرهم؟

بل لماذا يغمض الحميدين عينيه عما ذكره الأستاذ عبدالله بن إدريس في ملف اليمامة نفسه وهو - أي الحميدين - الذي استشهد به في مقاله ولست أنا!!

لماذا يغمض عينيه عن قول الأستاذ عبدالله بن إدريس في ملف اليمامة نفسه وهذا نصه:

(الحق - وما أمرّ كلمة الحق على من لا توافق هوى في نفسه - أن شعراء العشر سنوات الأخيرة - أي الذين من ضمنهم سعد الحميدين - هذا إذا كان من ضمنهم - في جملتهم يقدمون رجلاً ويؤخرون أخري.. ولم يتبلور لهم بعد اتجاه واضح المعالم ولا مرتكزات لها شخوص وظلال فضلاً عن الشخصية المتميزة... إلخ).

لماذا يغمض سعد الحميدين عينيه عن مثل هذا القول، وهو أجرأ وأصرح وأوضح بكثير جدًا مما قاله - على استحياء - الأستاذ راضي صدوق؟؟

أيكون (كل ذنب) راضي صدوق أنه يعبر عن (وجهة نظر شقيقة) وأنه لم يخضع للشروط التي وضعها الحميدين سابقًا ولاحقًا للكيفية التي ينبغي بموجبها أن يبدي الأشقاء وجهات نظرهم نحو أدبنا، مع أن راضي صدوق لم يكن يعرف شيئًا عن مثل هذه الشروط، ولا أنا أيضًا!

وعلى كل حال فإن هذه الشروط الجديدة أيضًا غير معجزة لراضي صدوق!

٦ ـ كان آخر ما أراد سعد الحميدين أن يقسم به ظهري هو قوله (وفتح نافذة جديدة في مقاله ـ يقصد مقالي ـ لجري إلى مناقشته في الشعر الحر، والذي لم أوجه له أي لوم على عدم فهمه أو استساغته لقصيدتي.. لأنني أعرف نظرته إلى الشعر الحر ـ يقصدني ـ الذي لم يتابعه لعدم قناعته المتأتية من عدم قناعة أحمد السقاف، وصالح جودت... إلخ)!

ولئن دل أي شيء مما سبق كله على تخبط الحميدين أو المغالطة أو عدم الأمانة التي حاول أن يصمني بها فإنما تدل على هذه الفقرة بالذات من قوله ـ على كل ذلك ـ لسبب بسيط جدًّا، أو فلنقل لعدة أسباب بسيطة جدًّا، منها مثلاً أنني لم أذكر صالح جودت (أبدًا) في مقالي الذي عقب عليه الحميدين.

أما أحمد السقاف فقد ذكرته فعلاً، ولا يعيبني ذكره بالطبع فهو أديب كويتي من أشهر وألمع الأدباء العرب، وأدنى دليل على ذلك أنه يرأس وفد بلاده (الكويت) إلى معظم المؤتمرات الأدبية العربية إن لم يكن كلها.. ثم إنني لم أذكره ـ مع الأسف لعدم ذكره في مجالات أخرى ـ إلا لكونه شاهد عيان لنكتة حصلت أو حدثت في المؤتمر العربي للأدباء في تونس.

وهذه النكتة ـ ومن حقي أن أروي أية نكتة أدبية بالطبع، أم لا يا ترى؟؟ ـ هي: أن أحد الشعراء ألقى قصيدة في المؤتمر المذكور من النوع الذي يعجب به الحميدين.. بل يحاول أن يتمثله ويسمح لنفسه أن يكون نسخة مشوهة عنه، وكان من ضمن تلك القصيدة (النكتة) مقطعًا أثار ضحك الجميع.

وهذا هو المقطع كما أوردته في مقالي السابق بالنص:

(أمي أفعى.. أختي أفعى.. عمتي أفعى.. خالتي أفعى.. جدتي أفعى.. أنا حنش)!!

هذا هو المقطع (النكتة) الذي استنتج منه الحميدين ـ لمجرد ذِكري له ـ أنني

لا أتابع الشعر الحر (لعدم قناعتي المتأتية من عدم قناعة أحمد السقاف وصالح جودت).

أما صالح جودت فقد أشرت أنني لم أذكره أبدًا في مقالي السابق وهذا وحده فضلاً عن غيره دليل على عدم أمانة الحميدين.

وأما السقاف فقد ذكرته لمجرد الأمانة في النقل.. حتى ولو كان نقل (نكتة).

أي صديقي الماجد..

إن هناك أشياء كثيرة فيما قاله الحميدين، لو شئت أن أقف عند كل فقرة مما قاله لأضحكت القراء أكثر بكثير مما فعلت حتى الآن!!

بل لو شئت لأضحكت القراء كثيرًا جدًّا على حكاية (النداوة) التي فخر بها الحميدين في مقاله، ولكن المجال ضيق وأنا قد أطلت - لسذاجتي - فلا مؤاخذة!

ولكن في نهاية هذه الرسالة أريد أن أرجوك بحرارة، أن تنوب عني في الاستفسار من الحميدين - وهو على مرمى حجر منك - لماذا لا يريد أن يفتح حوارًا معي عن الشعر الحر؟؟

وما زلت أواصل الرجاء بحرارة أيضًا أن تسأله: هل قرأ مقالي السابق جيدًا؟

وأرجوك أن تقول له إن سبب سؤالي هذا الأخير هو أنه لم يكن لي أي موقف ناقد أو غير ناقد تجاه قصيدته (نقطة البدء) أو تجاه (الشعر الحر)، وقل له ببساطه: أنني أتحداه أن يثبت عكس ذلك، مع أنني في الواقع تجاه هذه القضايا أشد بكثير مما يتوهم أو يضمر!!

وما زلت أواصل الرجاء بحرارة أيضًا وأيضًا أن تصل - أنت شخصيًّا كما وعدت في كلمتك - الدلو بالرشاء أو الرشاء بالدلو. ولا أريد بالطبع أن أدلك على طريقة هذا الوصل فأدناها - كما تعرف - أن تطّلع على ما فاتك الاطلاع عليه في إجازتك وعندك الأرشيف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

جريدة الرياض ١٣٩٤/٧/٦هـ

مع الحميدين والمقطع الدائري؟!
ـ٣ـ

عزيزي عبدالله الماجد:

قرأت صفحتك الأدبية في العزيزة (الرياض) فوجدت فيها ـ بالإضافة إلى خبر عن مجلة دارة الملك عبدالعزيز ـ كلمة لك بعنوان (الحرب الباردة) وكلمة أخرى للحميدين بعنوان (لماذا يحاول العمير أن يشعّب الموضوع)؟

قرأت كل ذلك ففرحت مرتين.. ثم حزنت مرة واحدة.. وكذلك أسفت مرة واحدة فقط لا غير!!

فرحت في المرة الأولى لأنني علمت بخبر عودتك من الإجازة الممتعة من خلال كلمتك، ولم أكن أعلم قبل ذلك.

وفرحت في المرة الثانية لأنك ذكرت في كلمتك أيضًا أنك (طربت لأن الملف ـ ملف اليمامة الثقافي ـ استطاع أن يؤثر وبسرعة في حياتنا الأدبية الراكدة من خلال ما قدمه من مواد كانت تبعث على السؤال، القبول والرفض).

فرحتي الأولى كانت محض شخصية لأنك ـ كما تعلم ـ تعز عليَّ، وتهمّني حتى أخبار سفرك وقدومك.. بل تفرحني ما دام فيها ما يسعدك.

أما فرحتي الثانية فلا بأس أن أتطاول قليلاً وأسميها (فرحة أدبية).. ذلك لأن الذي أثار طربك ليس في الواقع غير شخصي الضعيف كمحرر للصفحة الأدبية في جريدة (البلاد) إذ إن ملف اليمامة الثقافي لم يثر الحركة الراكدة التي تقصدها، حيث في الواقع لم يتناوله أي كاتب من كتابنا أو أية صحيفة من صحفنا بالنقد أو الترحيب غيري بالذات حيث كتبت عنه في زاويتي اليومية في (البلاد) أرحب وأشيد، وأبدي وأعيد.. ثم زاد اهتمامي فاستكتبت الأستاذ راضي صدوق للصفحة الأدبية في جريدة البلاد، وطلبت منه أن يستعرض مواد الملف المذكور، ويبدي رأيه فيه، وقد فعل!!

وكنت أظن ـ وأعتقد أني ما زلت على حق في ظني ـ أن هذا الاهتمام (الزائد) من جانبي بالملف إنما يعكس حبي وحب الزملاء في جريدة البلاد ـ كبيرهم وصغيرهم ـ لزملائهم في مؤسسة اليمامة، وملفها الثقافي!!

وقد كان بالإمكان أن لا ينكر ذلك أي مكابر ـ فضلاً عن المحب المنصف ـ لولا أنه صادف ـ أن الأستاذ راضي صدوق أبدى رأيًا متواضعًا ـ وكان لا بد أن يبديه ـ في قصيدة للحميدين في الملف المذكور، أسماها (نقطة البدء)!!

وصادف أيضًا ـ وكان لا بد أن يصادف ـ أن رأي راضي صدوق في القصيدة المذكورة لم يعجب صاحبها سعد الحميدين وهو الذي لم يذق أبدًا طعم مرارة النقد، لأن النقد غائب عندنا من أساسه، ولأن طراوة عود سعد الحميدين لا تحتمل غير الإشفاق حتى في حالة حضور النقد، ولذلك كان لا بد أن تزعجه بضعة أسطر من مقال طويل لراضي صدوق في صفحة الأدب في (البلاد) عن معظم مواد ملف اليمامة الثقافي، فكيف لو خصه راضي صدوق أو غيره بمقال مستقل عن تلك القصيدة (نقطة البدء) كان إذن يموت قهرًا وكمدًا!!

أعود فأقول إنني فرحت في المرة الثانية لطربك لأنني في الواقع سببه الأساسي، وليس غيري أبدًا لأن أي كاتب أو أديب أو محرر أدبي أو حتى غير أدبي لم يهتم قط ـ على مستوى النشر ـ بملف اليمامة المذكور، وأستثنى فقط الصديق الأستاذ سلطان البادي حيث اهتم بمقال بذاته من مواد ملف اليمامة الثقافي وهو مقال صديقنا الكبير الأستاذ عبدالله القرعاوي في الملف المذكور.

وأنت تعلم ـ بعد ذلك ـ جزاء (سنمار) الذي فزت به مقابل هذا الاهتمام الزائد بالملف!

ومن عجب أن يكون هذا الجزاء السنماري لي ولجريدة البلاد التي أحرر صفحتها الأدبية لم يكن إلا من سعد الحميدين بالذات، أي شريكك في سكرتارية تحرير الملف الثقافي لليمامة، وذلك لمجرد أن بضعة أسطر فقط كانت تعني قصيدته فغضب ونسي لغضبه كل قصد حسن أراده المحرر الأدبي في جريدة

البلاد تجاه جهود زملائه في ملف اليمامة الثقافي.

أرأيت؟.

لم ينظر الحميدين إلى كل ذلك ولا إلى مديحي الذي أسبغته عن طيب خاطر - وما زلت عنده - على ملف اليمامة الثقافي وجهود زملائي فيه، وإنما نظر فقط إلى بضعة أسطر كانت - للمصادفة - تعنيه وترك مئات الأسطر التي كتبتها أنا شخصيًا عن الملف أو الأستاذ راضي صدوق الذي أستكتبه أنا أيضًا فلم أجلب له غير المهازل و(البهاذل) من سعد الحميدين بالذات وليس غيره.

كان ذلك هو نصيبي من الفرح مرتين!!

أما حزني مرة واحدة فلأنك حزنت أيضًا - في كلمتك - (لأن القضية المثارة، والتي تدور الحرب حولها، وهي قضية المقطع الدائري في بناء القصيدة الجديدة قد تحدث عنها الملف بنفس العدد) - تقصد بالعدد نفسه - إلخ.

حزنت شخصيًا لأنك فهمت أن القضية المثارة هي قضية (المقطع الدائري)..

وأنت على عذر تمامًا في فهمك المتسرع هذا، لأنك كنت غائبًا في إجازة فلم يتسن لك أن تحيط بالموضوع من أساسه، وإلا كنت وفرت على نفسك هذا (الحزن) وخاصة أنك - كما قلت - ما زلت تستمتع بسديم السكون والهدوء.. أي سكون وهدوء الإجازة.

وصدقني أنني حزنت حقًا لقطع استمتاعك بسديم السكون والهدوء، ولو كنت أعلم أن ذلك سيحدث لك عند عودتك من الإجازة لبعثت إليك على عنوانك في الإجازة بجميع قصاصات ما نشر حول الموضوع حتى لا تعود فتصدم فتحزن لأنك لم تكن على إلمام شامل بالموضوع، خاصة وأنني عند مروري بالرياض قادمًا من الظهران كان من ضمن همي أن أزورك في مكتبك بالجامعة، وقد فعلت ولكن قيل لي إنك في إجازة، والشاهد على ذلك الزميل الأستاذ عبدالله عسكر وكذلك الزميل الكبير الأستاذ عبدالله القرعاوي.

وهكذا تسرب إلى ظنك أن (القضية المثارة) هي قضية (المقطع الدائري) الذي يبدو وأنه يهمك إلى حد (الحزن)!!

وأنا أيضًا قد حزنت لحزنك ـ كما أسلفت ـ علم الله!

أما الآن وقد استقر بك المقام، وتلاشى سديم السكون والهدوء، وبدأت تحاول أن تصل الدلو بالرشاء، فلا عليك، وأنت الباحث المدقق ـ أن تقرأ جميع ما نشر حول الموضوع وأنا على ثقة بأن حزنك ـ حينئذ ـ سيكون أقل، وطربك أكثر بكثير!!

أما أسفي يا صديقي الماجد وهو أسف في نهاية القائمة، فقد أثاره الحميدين مرة أخرى بإصراره على إغماض عينيه عن كل النوايا الحسُنّة التي استهدفتها من كتابتي عن ملف اليمامة الثقافي أو استكتابي عنه، وإصراره أيضًا على أن (سيئة صغيرة جدًا) تذهب (حسنات كثيرة جدًا) ـ ولا من ـ مع أن القرآن الكريم ينص على أن الحسنات يذهبن السيئات.. هذا إذا كان في الأمر سيئة فقط.. وإنما هناك (وجهة نظر شقيقة) متواضعة مكونة من بضعة أسطر في قصيدة لسعد الحميدين لا تكاد نسبتها تذكر إلى جانب مواد ملف اليمامة الثقافي الذي استعرضته تلك الـ (وجهة نظر الشقيقة) في مئات الأسطر.

والعجيب أنه لم يَفُتْنِي منذ الأساس ما في (بضعة الأسطر تلك) من صراحة بريئة وصدق غافل، ولم يفتني أيضًا ما يمكن أن تحدثه من أثر في نفسية الحميدين كبشر على كل حال، ولكني كنت أحسن به الظن قليلاً كأديب أو متأدب ـ كما أشرت في مقالي السابق ـ فمرّرت بضعة الأسطر تلك، أي أجزتها على أساس من ذلك القليل من حسن ظني بالحميدين بأنه سيتحملها أو يحملها على أقصى قدر من حسن النية أو البراءة، خاصة وأنه ليس بينه وبين راضي صدوق ما يوجب غير حسن النية!

أما من جهتي بالذات فلم أكن أظن قط أنني موضع اتهام ـ على الأقل من الحميدين ـ وهذا ربما يعود للسذاجة التي أتمتع بها كما وصفني الحميدين نفسه!!

جريدة الرياض ١٣/٧/١٣٩٤هـ

الحميدين وذبح الحق!

عزيزي الأستاذ/ محمد رضا نصر الله (محرر الصفحة الأدبية بالرياض) الموقر

تحية طيبة، وتمنيات قلبية بالتوفيق والسداد

أكتب لك، وأمامي الآن عدد جريدة الجزيرة رقم ١١٧٠ الصادر يوم الأحد ٢٥ ربيع الأول ٩٥هـ وفي الصفحة الأخيرة منه قصيدة لأخينا (سعد الحميدين) بعنوان (ذبح الحق) وموضوعها من شقين:

- الشق الأول في رثاء المغفور له فقيد العروبة والإسلام جلالة الملك فيصل - رحمه الله.

- والشق الثاني في مدح جلالة الملك خالد وسمو ولي العهد الأمير فهد وإخوانهما الأمراء الأكارم.

والقصيدة مشاركة وجدانية مخلصة يشترك فيها الأخ الحميدين مع جميع المواطنين بل مع جميع العرب والمسلمين وغيرهم ممن فقد المثل العليا والقيادة الحكيمة بوفاة الفيصل العظيم، وهي كذلك - أي القصيدة - إشادة ومديحًا في محله ولأهله وذويه.

ولكن ملاحظتي التي دفعتني لتوجيه هذه الرسالة إليك بالذات ليس مضمون القصيدة بالطبع.. بل شكلها أو قالبها العمودي الذي بذل الحميدين كل جهده ومن أجل قوافيه وأوزانه.. ويعلم الله.. ثم كل من لديه أدنى إلمام بعلم العروض إلى أي حد كان التوفيق حليف شاعرنا في محاولته هذه؟!

ولكن ليس كل هذا هو المهم.

وإنما أريد أن أذكرك بالقصيدة التي نشرها (الحميدين) في ملف اليمامة

الثقافي، وكانت من نوع ما أسماه بـ (الشعر الدائري) أي أحدث قوالب الشعر الحديث..إلخ.

وتذكر أن هذه القصيدة تعرضت لنقد جانبي متواضع في صفحة (أدب وأدباء) في البلاد عندما كنت أشرف عليها، ويومها ثارت ثائرة سعد، ووصفني - دون ذنب - بأشياء كثيرة ليس أدناها أنني (أمثل الأدب قبل ثلاثين عامًا) - أي بعد مولدي بثمانية أعوام فقط!! - وما ذلك إلا لأنني أجزت نشر نقد متواضع لقصيدته الدائرية تلك!!

وحضرتك أيها الصديق العزيز - شاركت يومها في وصفي أيضًا بطريقة غير مباشرة بأنني أحارب (الحداثة والمعاصرة والعطاءات الواعدة)... إلخ.

فأما سعد الحميدين فقد ناقشته الحساب في حينه وأشرف الصديق الأستاذ عبدالله الماجد على تلك التصفية بكلمة طيبة منه أنصفتني وأرضت غروري في الوقت نفسه، وكانت كلمة (الماجد) الطيبة الكريمة سببا حاسمًا في سكوتي عن أباطيل سعد الحميدين التي ألصقها بشخصي الضعيف دون وجه حق.. بل دون مراعاة أدنى حد للصداقة والزمالة والأخوة.

دعنا من هذا أيضًا فقد انتهينا منه في حينه!!

ولكن حسابي معك بالذات بقي جاريًا - حسب لغة البنوك التي أسمع بها مع الناس!! - ذلك لأنني لم أَرُدّ في حينه على اتهامك إياي بمحاربة (الحداثة والمعاصرة والعطاءات الواعدة) وهي تهمة فادحة كما ترى.. بل هي أفدح من كل التهم التي كالها لي الأخ الحميدين لأنه رأف بي وأعادني ثلاثين عامًا فقط إلى الوراء.. أما أنت فمحوت وجودي بأكمله من (الحداثة والمعاصرة).. ومع ذلك سَكَتُّ عنك لا رأفة بك ولا استهانة بقدرك ولا لمجرد المحافظة على صداقتك مع حرصي على كل ذلك.. بل لسبب بسيط جدًّا هو أنني أحسست

حـيـنـذاك أنك غير صـادق مـع نـفسك في اتـهـامـي، وأنك تـريـد مجرد الإثـارة الصحفية والأدبية، وفي الوقت نفسه تريد جبر خاطر الحميدين معتمدًا - فيما يبدو - على حسن ظنك بتسامحي!!

وقد كنت بالفعل وسأظل - إن شاء الله - عند حسن ظنك!!

والآن، وبعد كل هذه المدة الطويلة، وبمناسبة قصيدة الحميدين المشار إليها في مطلع هـذه الرسـالة.. لا بأس - فيما أظن - أن أقفل معك ذلك الحساب الصغير الجاري!!

أنت تعلم أن قصيدة الحميدين (الدائرية) المنشورة في ملف اليمامة الثقافي لم تكن وحيدته من هذا النوع من الشعر بل لـه غيرهـا قصائد من نوعها وأدنى منها مما يسمى بالشعر الحر أو الشعر الحديث أو الشعر الدائري.. أو ما يسميه صديقنا (ابن عقيل) «بعر الكبش»!!

وأنت تعلم أن الحميدين يجهد نفسه في هذا النوع من الشعر بمناسبة أو بغير مناسبة، وهو بالطبع لا بد يعتبر كل مناسبات قصائد مهمة و... إلخ.

وأهم من ذلك يعتبر نفسه - وقد اعتبرته أنت أيضًا - من طلائع شباب (الحداثة والمعاصرة والعطاءات الواعدة)!!

وإلى هنا أريد أن أسألك سؤالاً بسيطًا متواضعًا خجولاً متمسكنًا:

ترى أية (حداثة) أو (معاصرة) في قصيدة الحميدين (ذبح الحق)؟

ألا ترى معي أنه قد (ذبح) الحداثة بمفهومه ومفهومك لها بقصيدته هذه؟ أقصد بشكلها أو قالبها الفني الذي يعود إلى حوالي ألفي عام وليس ثلاثين عامًا فقط؟!.

وهذا مع التحفظ الشديد حول مدى نجاحها في تقليد هذا الشكل الفني القديم!!

قد يقول الحميدين

أو قد تقول أنت

أو قد يقول غيركما

إن الموضوع الجليل الذي عالجته القصيدة لا يصح أن يعالج بالشعر الحر أو الحديث أو الدائري.. أو «بعر الكبش»!!

وأنا أوافق تمامًا على ذلك.. بل أزيدك علمًا أنني سبق أن كتبت قبل مدة للصديق علوي الصافي رسالة خاصة وأرفقت له بها قصيدة لسعيد عقل شارك بها في ذكرى طه حسين وكانت من الشعر التقليدي التراثي.. كما أرفقت بالرسالة أيضًا قصيدة أخرى لنزار قباني في المناسبة نفسها وهي من الشعر التقليدي أيضًا.

ومعلوم أن كلا الشاعرين سعيد عقل والقباني من دعاة الشعر الحر أو الحديث، أو «بعر الكبش».. بل إن سعيد عقل من دعاة «الحداثة» إلى حد بذل محاولات جادة وحثيثة لهدم التراث العربي والإسلامي بأكمله باسم الحداثة طبعًا، ومع ذلك لم يستطع في مناسبة ذكرى طه حسين - وهي مناسبة مهمة كما تعلم - إلا أن يشارك بشعر تراثي أي غير حديث!!

وقد تساءلت في رسالتي الموجهة للصديق علوي عن هذه الظاهرة العجيبة.. ظاهرة لجوء دعاة ورواد الشعر الحر أو الحديث أو «بعر الكبش» إلى الشعر التقليدي التراثي في المناسبات المهمة بينما - فيما عدا ذلك - يملأون أعمدة الصحف والمجلات والدواوين بالغثاء الذي يطلقون عليه كل يوم مختلف الأسماء.

وهذا شاعرنا الحميدين يشارك في هذه الظاهرة نفسها، فهو طيلة المدة الماضية يملأ الكثير من أعمدة (اليمامة) - بحكم كونه من أسرتها - بشعره الحر أو الحديث أو الدائري حتى إذا وقع الحادث الجلل، استشهاد الفيصل - رحمه الله - لم يستطع الحميدين المشاركة في رثائه إلا بشعر حاول كل جهده أن يكون تراثيًّا تقليديًا.. وبذل في سبيل إرضاء الخليل بن أحمد كل عنت ومشقة!!.. ومع ذلك فأنا على يقين بأنه لم يرضه، وبالطبع لم يرض الشعر التراثي التقليدي،

وإن كان قد أرضى نفسه بالبوح والمشاركة الوجدانية في المصاب بقدر ما تسنى له واستطاعه من محاولة في النظم والتعبير.

السؤال بعبارة أخرى:

ألا ترى معي ـ أيها الصديق العزيز ـ أن الحميدين بهذه القصيدة حاول أن يسير على الطريقة الصحيحة في الشعر العربي، وقد اعترف كما اعترف سعيد عقل والقباني ـ ضمنًا.. بكل صراحة أن الشعر الحر أو الحديث أو الدائري لا يصلح فعلاً للمناسبات المهمة.. وأنه مجرد عبث في عبث يتلهى به هو وأمثاله في وقت الفراغ أو يوم الجمعة وفي الموضوعات الشبيهة بالخواطر العابرة والرؤى الضبابية والصورة المهزوزة والفكر المشوّش!

وهذا أقل ما يمكن أن يقال، وإلا فإنه من الممكن أن نشير بإصبع الاتهام ـ بكل اطمئنان ـ إلى ما هو أهم من ذلك مما تجره أمثال هذه الألاعيب المشبوهة من هدم وتخريب لأهم ما نعتز به من تراثنا وأدبنا ولغتنا.

السؤال بعبارة أخيرة، وبشكل أوضح وأوضح:

إذا كان سعد الحميدين وأمثاله من دعاة العبث الشعري الدائري على اقتناع تام بانهم على حق وصواب في محاولاتهم الشعرية تلك، وأنه لا شبهة أبدًا في ذلك.. فلماذا يجافون هذا الاقتناع ويتركونه جانبًا عندما تكون موضوعاتهم الشعرية جادة.. أو عندما تكون موضوعاتهم الشعرية عبارة عن مشاركة في مناسبات مهمة؟!

هذا سؤال.. أترك الجواب عليه لذمتك، ولذمة الأخ الحميدين أيضًا.. ثم من قبل ومن بعد لذمة التاريخ الأدبي.

ودم واسلم لأخيك

٢٨/٣/١٣٩٥هـ

بين الأصالة والمعاصرة

هذا عنون بحث موجز مركز اشترك به الدكتور نجيب محمود في ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر وحاول أن يعالج به موضوعًا من أخطر الموضوعات الفكرية والأدبية والعلمية الراهنة للأخذ والرد والمد والجزر في عالمنا العربي اليوم.. بل منذ كان هذا العالم العربي هدفًا لشتى ضروب الغزو الفكري وغير الفكري!!.

الحقيقة أن هذا الموضوع لم يكن مُلحًّا في بداية اليقظة العربية كما هو اليوم.

في بداية اليقظة العربية كانت أكثر أجزاء الوطن العربي خاضعة لنير الاستعمار وذله وقهره ومحاولاته المتعددة، لطمس معالم أصالتنا العربية المتمثلة في لغتنا وديننا وعاداتنا وأخلاقنا الصميمة الحميمة.. فكان أول ما يحرص عليه النابهون من المثقفين أو المستنيرين العرب هو الحفاظ بقوة على تلك الأصالة القومية والدينية، وخاصة في مجال الفكر والأدب.. بل لقد كانت أول حركة (انتفاضة) باسم التجديد هي تلك التي تزعمها محمود سامي البارودي، وكان هدفها بالدرجة الأولى العودة إلى الجزالة العربية وتحرير اللغة والأدب والشعر من الإسفاف والركاكة والعجمة التي لحقت به من جراء تراكم قرون التخلف وعصور الانحطاط، وشاء الله لهذه الانتفاضة اللغوية والأدبية أن تؤتي ثمارها يانعة.. وكان أصحاب هذه الحركة من ذوي الغيرة الشديدة تجاه كل ما يمكن أن يمس العروبة والإسلام في أدبها وفكرها بأي حال من الأحوال.

وكانت هذه الغيرة ناشئة من كون أن معظم أجزاء الوطن العربي ما تزال - كما أسلفت - خاضعة لنير الاستعمار وذله وقهره، ومحاولاته المستمرة لطمس كل ما هو عربي وإسلامي فكان ذلك التشديد من أصحاب هذه المدرسة بمثابة نوع من أنواع مقاومة الاستعمار.

أما بعد أن جلا الاستعمار واستقلت أجزاء الوطن العربي فقد أتاح ذلك بعض التسامح والإقلال من الحذر على الرغم من أن الغزو الفكري ما زال مستمرًا بشراسة. تهب سمومه من شرق وغرب.

نعم.. لقد أتاح جلاء الاستعمار ـ تاركًا وراءه التخلف العربي المبهور بالحضارة الغربية ـ بعض التسامح وقلة الحذر في حين لم تخفّ أو تلين محاولات الاستعمار البقاء في المنطقة على شكل غزو فكري يحاول غسل الدماغ العربي وعزله عن جذوره الإسلامية وتراثه العربي وقد ساعد على ذلك بالإضافة إلى الانبهار بالحضارة الغربية أن صفوة المثقفين والعلماء قد تلقوا علومهم في ديار الغرب، وبعضهم لم يكن قد تلقى مرتكزات أساسية من العلم في بلاده تجعله في حصانة مما لا بد أن يولده الانبهار من الارتماء في أحضان الفكر الغربي في عقر دار العروبة والإسلام.

وبعد ذلك توالت العديد من الظروف السياسية وغير السياسية التي جعلت المنطقة العربية مسرحًا لشتى ضروب الغزو الفكري من شرق وغرب.

استطاعت بعض التيارات الهدامة أن تتسلل وتتغلغل وتبث السموم في الفكر العربي.. وباسم التسامح والانفتاح ونحو ذلك لم تجد هذه التيارات من يتصدى لها بقوة وحسم.. لقد وجد مثل هذا التصدي بالفعل ـ وما زال موجودًا ـ ولكنه يقابل من تلك التيارات بهجوم معاكس، حيث أتقن أصحابها وأتباعهم في المنطقة.. أساليب شتى في كبح جماح هذا التصدي بالشغب والتشويش وكيل التهم بالرجعية والتخلف والتزمُّت والانطواء والتعفن الفكري إلى غير ذلك من ضروب السباب والشتائم التي يتقنها هؤلاء الخبثاء الواغلون.

وبذلك وأمثاله تسنى لهم أن يُسكِتوا أصواتًا شريفة مخلصة لم تسكت إلا لأنها تنأى بكرامتها أن تكون عرضة لموجات السباب والشتائم والتهم.. وهكذا أصبح كل واعٍ مخلص لأصالته ودينه وعروبته عرضة لاضطهاد فكري غريب من عصابات التشويش والشغب في المنطقة.

وكـان لا بـد مـع كـل ذلك أن تـوجـد بـلـبـلـة فكريـة تـطـرح معـهـا الـكـثـيـر مـن الـتسـاؤلات الـبـاحـثـة عـن صـيـغـة جـديـدة لـلـتـوفـيـق بين الأصـالـة والمعـاصـرة وخاصـة أن أفراد عصـابـات التشويش يزعمون لأنفسهم ـ في تبجح شديد ـ أنهم وحدهم أصحـاب المعاصرة والحداثة والحضـور والتقدمية، وتجـاوز الذات إلى آخر تلك القـائمة الطويلة من الألفـاظ الرنـانة التي أتقنوا حفظها والتشدق بـهـا.

وهنـا أعود إلى بحث الدكتور زكي نجيب محمود الذي أشرت إليه في مطلع مقـالي.. بل اخترت عنوانه أيضًـا عنوانًـا لمقـالي نفسه.

يقول الدكتور زكي:

(لست أتردد لحظة حين أقرر بـأن أم المشكلات في حيـاتنـا الثقـافية الراهـنـة هـي محـاولة الكشف عن صيغة في حيـاتنـا الفكرية والعملية، تجمع لنـا في طيهـا طرفين، إذ تحـافظ لنـا على خصـائصنـا العربيـة الأصيلـة، وفي الوقت نفسه تفتـح لنـا الأبـواب على مصـاريعهـا، لنستقبل ـ في رحـابة صدر ـ أسس الحضـارة الغربيـة والعصرية كما يحيـاهـا اليوم روادهـا).

(الـهلال جمـادى الآخرة ٩٤).

ومن عجب أن هذه الصيغة التي يبحث عنـهـا الدكتور زكي ونبحث عنـهـا جميعًـا قد وجدهـا الفكر العربي والإسلامي قبل حوالي ألف عـام عند ازدهـار حركة النقل والترجمة والانفتاح على العلوم وحضـارات الأمم، وخـاصـة في عصر المأمون مثلاً، وكـان ذلك معروف مشهور.

ولكن الفرق هو أننـا كنـا في ذلك الزمـان سـادة أنفسنـا فـاستطعنـا أن ننقل ونـهضم من العلوم والآداب مـا شـاء لنـا النقل والـهضم في جو علمي خـالص بعيدًا عن عصـابـات التشويش والادعـاءات وتلفيق التـهم!!

أمـا اليوم فـإننـا لا نكـاد نجد هذه الصيغة بسبب الضغوط العجيبـة والإرهـاب الفكري ضد كل من تسول لـه نفسه ذكر الأصـالـة أو التراث أو الجذور الدينيـة والقوميـة.

وهكذا أصبحنا ـ كما يقول الدكتور زكي نجيب محمود في بحثه المشار إليه ـ أحد ثلاثة: (فإما هو ـ أي العربي ـ قد خلا من الأسس الأصيلة في الثقافة العربية مكتفيًا في حياته بعناصر متنافرة جمعها لنفسه من هنا وهناك من ظواهر الثقافة الغربية، وإما هو قد ملأ نفسه بثقافة عربية صرف حتى انسدت دونه أبواب العصر فلا يدري من أمر هذا العصر شيئًا.. وإما هو قد أخرج وفاضه خاليًا من الثقافتين جميعًا فلا هو إلى أولئك ولا إلى هؤلاء) انتهى (المصدر السابق).

الواقع أن هذا التقسيم من الدكتور زكي لا يخلو من حق في مجمله، وإن كانت تشوبه الشوائب في تفاصيله بدليل أنه استدرك فورًا فأضاف صورة رابعة إلى تلك الصور الثلاث، وهي: (صورة العربي وقد جمع في كيانه وحدة عضوية متسقة متماسكة، قوامها أصول رئيسية من التراث العربي وأصول رئيسية أخرى من مقومات عصرنا الحاضر) (المصدر السابق).

ها هنا نقف مع الدكتور زكي لنشير إشارة عابرة إلى أنه حتى هؤلاء الذين يجمعون بين الأصول التراثية ومقومات العصر الحديث هم في الواقع من أهم أهداف عصابات التشويش لأنهم يشكلون خطرًا بفهمهم لمشارب الثقافة الحديثة. وبأصالتهم وجذورهم التراثية لأن هذه الأصالة أو تلك الجذور تشكل عندهم بذرة مقاومة عنيفة ضد الانجراف أو الانحراف أو الارتماء الساذج الغافل في أحضان الأفكار المستوردة والقوالب الجاهزة.. وإنهم حتى لو غفلوا حينًا من الأحيان وانجرفوا قليلاً أو كثيرًا فإن أصولهم أو جذورهم المتأصلة في التراث الثقافي العربي تعود بهم في النهاية إلى مراكز العقل والحكمة والتوازن بين الأصول التراثية ومقومات الحضارة العصرية.

ولعل خير مثال أو أشهر مثال على ذلك الشاعرة العراقية نازك الملائكة.. ثم الشاعر السوري نزار قباني.

ولخشية الإطالة، سأكتفي بالشاعر نزار قباني كخير مثال لما قصدته آنفًا.

عندما بدأت موجة الشعر الحديث، كان نزار قباني من أوائل فرسان أو ربابنة هذه الموجة بعد أن كان قد لمع في الوقت نفسه في الشعر المقفى الموزون أي (الكلاسيكي) وبعد أن تشبع بقراءة وفهم وتمثل عيون الشعر العربي الأصيل في أصدق مظانه وأمهات مراجعه.. ثم تشبع أيضًا بالثقافة العصرية الحديثة، وهكذا نظر إلى موجة الشعر الحديث على أنها ظاهرة جديدة يمكن إدخالها على الشعر العربي في حدود المعقول وعلى أن تظل مجرد ظاهرة جديدة تضاف إلى الكثير من محاولات التجديد في الشعر العربي.

قلت: تضاف إليه ـ لا أن تقوم على أنقاضه ـ فلما تدفقت هذه الموجة، وبدأت تسيح في الشواطئ العربية بدأ بعض الصبية يلعبون ويلهون في غدرانها الضحلة، وهم بالطبع ـ كصبية ـ لا يستطيعون السباحة في العمق.. في المنبع والمصب كما فعل نزار قباني وأمثاله.

وهكذا أصبحت تلك الغدران والمستنقعات التي تركتها موجة الشعر الحديث في الشواطئ العربية، هي الأساس والكل في الكل عند بعض أغيلمة العرب، فراحوا يزدرون كل من عداهم أو من سبقوهم إلى السباحة في العمق.. بل راحوا يلعنون هذا العمق نفسه ويسبون ويشتمون النابغة الذبياني إلى أحمد شوقي وحافظ إبراهيم والرصافي وحتى نزار قباني نفسه!

وهكذا، وبدافع من الأصول التراثية الثقافية، ثار نزار قباني وهاج وماج عندما وجد أن الشعر العربي في خطر من عبث هؤلاء الصبية وتماديهم في الزعم لأنفسهم بالحداثة والمعاصرة على حساب كل ما هو قديم؛ لا لشيء إلا لأنهم يجهلون هذا القديم، ومن جهل شيئًا عاداه ـ كما يقول المثل.. أو كما يقول نزار قباني في مقاله الأسبوعي في مجلة الأسبوع العربي.

(ويبتلينا الله، ويبتلي الأدب العربي بطغمة من الشعراء الهيبيين، أطلقوا على أنفسهم (اسم شعراء السبعينات) يحملون سندوتشات شعرهم المقدد، ويلقون

قشور الموز تحت أرجل القراء).

ويشير إلى جـهـلـهم الشـنيع بـالأصـول والجـذور التراثية فـيقـول في سخرية لاذعة:

(تسأل الواحد منهم عن المتنبي فينظر إليك بـاشمئزاز كأنك تحدثه عن الزائدة الدودية، وحين تسأله عن (الأغاني) و(العقد الفريد) و(البيان والتبيين) و(نهج البلاغة) و(طوق الحمامة) يرد عليك بأنه لا يشتري اسطوانات عربية ولا يحضر أفلامًا عربية)!!

ويضيف نزار قباني فيشير إلى مدى الارتماء الساذج الذي يمارسه هؤلاء في غدران الأفكار المستوردة فيقول في مقاله الآنف الذكر:

(فإذا سارت مظاهرة في بكين ضد كونفوشيوس فلا بد من تنظيم مظاهرة عربية ضد النابغة الذبياني أو الشريف الرضي، ولا بد من إعادة محاكمتهما باسم الحداثة)... إلخ.

المهم هو أن نزار قباني وهو الشاعر الحديث جدًّا، لم تسمح له أصوله وجذوره التراثية أن يتعامى عن هذا العبث في الشعر العربي فكانت حملته عنيفة وثورته عارمة ضد هؤلاء العابثين.

ترى ماذا سيقولون عنه غدًا؟!

لا شك أنهم سيشطبون اسمه من قائمة الشعراء المحدثين، ويدفنونه مع المتنبي وأبي العلاء وأحمد شوقي وغيرهم!!

ولا شك أنهم سيكونون على حذر في كل محاولاتهم لاغتيال شاعريته، لأن شاعرًا من وزنه يجمع في بنيته الثقافية بين الأصول التراثية ومقومات العصر الحديث جدًّا ليس من السهل اغتياله.. ولكنهم سيفعلون على كل حال وسينسون كل جهوده وشهرته في الحداثة والمعاصرة، ولن يذكروا له أبدًا إلا جريمة ذكره للنابغة الذبياني والمتنبي والشريف الرضي، وكذلك ذكر (الكتب

الصفراء) من أمثال (البيان والتبيين) و(الأغاني) و(العقد الفريد)... إلخ إلخ، فتلك جريمة نكراء لا تغتفر!!

ونعود إلى الدكتور زكي نجيب محمود وبحثه القيم عن الأصالة والمعاصرة.. فنقول: إنه لا شك لم يضع في حسابه هؤلاء العابثين وأمثالهم، وربما لم يضع في حسابه أيضًا الدوافع والتيارات التي تقذف بهم وتشجعهم على مثل هذا، ولعل الدكتور قد استهان بشأنهم ولم يقدر مدى خطرهم بدليل أنه لم يذكرهم في بحثه إلا بصورة عابرة، وفي كلمات قليلة جدًّا مشيرًا إلى أنهم قد خلوا (من الأسس الأصيلة في الثقافة العربية مكتفيًا - أي الفرد منهم - في حياته بعناصر متنافرة جمعها لنفسه من هنا وهناك من ظواهر الثقافة الغربية).

ولكن ما أصدق هذا الوصف وأدقه على قلة كلماته!!

وبعد ما أحوجنا حقًّا - وسط كل هذه الظروف - إلى إيجاد (صيغة لحياتنا الفكرية والعملية تجمع لنا في طيها طرفين، إذ تحافظ لنا على خصائصنا العربية الأصيلة، وفي الوقت نفسه تفتح لنا الأبواب على مصراعيها...إلخ).

وغاية ما نستطيع قوله في هذا الصدد هو ما قاله الدكتور زكي نفسه في بحثه القيم: (إن قيمنا الأخلاقية الموروثة، فيها من السعة ما يمكننا التصرف في إطارها بدرجة من الحرية تكفي للحركة مع سرعة الإيقاع في عصرنا... إلخ).

ولكن أين لنا ذلك والأمواج مضطربة، والأهواء متضاربة، وبوم الليل ينعق، فاللهم لطفًا على كل حال!!

البلاد ١٣٩٤/٧/٥هـ

بين الأصالة والتقليد

عندما انتشر الإسلام وسادت الأمّة العربية أجزاء واسعة من أنحاء العالم، سادت أيضًا لغتهم وفنونهم وآدابهم جميع تلك الأقطار والأمم التي انطوت تحت راية الإسلام.. وأصبحت اللغة العربية هي السائدة في جميع تلك الأقطار والأمم فألفت بها الكتب في مختلف العلوم والفنون والآداب.

ومن تلك الكتب ما لا يزال محل عناية واهتمام في جامعات الدول الغربية المتقدمة إلى الآن.. بل لقد تتلمذ الغرب في بداية نهضته كما هو معروف على كثير من الكتب العربية في مختلفة العلوم والفنون والآداب.. بل لا يزال معظم تراثنا العربي من المخطوطات يوجد في المكتبات والجامعات والمتاحف الغربية إلى الآن أكثر مما يوجد في المكتبات العربية مع الأسف الشديد.

وبما أن الأيام بين الناس دول... فقد كان الشأن كذلك عندما ساد الإنجليز معظم أنحاء العالم بامبراطوريتهم التي لا تغيب عنها الشمس ـ كما يقال ـ سادت معهم بالطبع لغتهم وعلومهم وفنونهم وآدابهم في كل بقعة وصلت إليها سيادتهم حتى لقد أصبح يقال عن اللغة الإنجليزية بأنها (سنترال) العالم نظرًا لكثرة من يجيدها في كل أنحاء العالم تقريبًا.

وكذلك فرنسا كانت صاحبة نفوذ فكان نفوذ لغتها وآدبها وفنونها بقدر نفوذها السياسي.

فأما العرب فقد دالت دولتهم ودالت معهم لغتهم بالطبع في عصور انحطاطهم وانخذالهم وانكسار شوكتهم.

حتى إذا كانت يقظتهم الحديثة أو شبه يقظتهم لم تتفتح أعينهم إلا ليجدوا أنفسهم في قبضة الاستعمار الإنجليزي أو الفرنسي بالفعل أو في متناول قبضته.. ووجدوا أنفسهم مع ذلك أن سباتهم الطويل قد أوجد بينهم وبين

لغتهم وتراثهم وآدابهم وفنونهم فجوة هائلة لا يمكن سدها بسهولة وخرقًا كبيرًا لا يمكن رقعه بيسر!!

وبدلاً من أن يعموا على تقريب سداد الفجوة بينهم وبين لغتهم وتراثهم كما كان يحاول أن يفعل بعض الأفراد من الرعيل الأول أمثال البارودي وشوقي وحافظ ومطران والشدياق وغيرهم ـ عندما كانوا يدعون إلى العودة إلى الجزالة العربية.. وجد غير هؤلاء من العرب أنه لا فائدة من ذلك وأن سُنّة الحياة هي سُنّة الحياة.. فما دام العرب قد فقدوا سيادتهم فإن لغتهم لا شك قد فقدت سيادتها أيضًا من باب أولى!!

وهكذا بدأ العرب بمحاولة استعادة سيادتهم لأنفسهم قبل كل شيء ولا يزالون يبذلون هذه المحاولات إلى الآن وإن كان بعضهم قد تمكّن من استعادة بعض تلك السيادة لنفسه على نفسه.

وفي غمرة المحاولات السياسية والعسكرية لانتزاع الاستقلال كان الأدب العربي يتعثر بين عودة مقلدة ركيكة للتراث العربي وبين تهافت ممسوخ على الآداب الغربية السائدة.. فكان لا بد أن ينبثق عن تلك العودة المقلدة الركيكة إلى التراث العربي وعن هذا التهافت اليائس الساذج الممسوخ على الآداب الغربية.. كان لا بد أن ينبثق عن كل ذلك الكثير من المفارقات التي تزيد من توسيع الفجوة بين العربي ولغته وتراثه وتزيد أيضًا من عدم استقلاله عن السيادة الغربية!

فالمغالون في ضرورة العودة إلى التراث.. مغالون أيضًا بركاكتهم وجمودهم في تقليد ذلك التراث دون أدنى مرونة وانفتاح على عصرهم الحديث.

والمسرفون أيضًا في الانحراف أو الانجراف مع التيارات الغربية إلى حد ذوبان شخصياتهم واستقلالهم لا يستطيعون أن يكونوا غربيين كما يشاءون في وسط عربي بحت!!

فأصبحوا كالغراب الذي أراد أن يقلد الحمامة في مشيتها وتمرن على ذلك كثيرًا حتى نسي طريقته الأصلية في المشي.. ولم يستطع أن يتقن أيضًا طريقة الحمامة في مشيها!

وهكذا ضاعت (الطاسة) كما يقولون بين هذين الفريقين.. إذ يعتقد الفريق الأول بدافع من قوميته وتعصبه لدينه ووطنه ولغته وتراثه أن التشطير والتخميس والتسديس وروايات أبي الفرج ومحسنات الجاحظ وبديع ابن العميد غاية الأدب وطلبة المتمني!!

بينما يعتقد الفريق الثاني بدافع من إعجابه وانبهاره بالأمم الغربية لا لصفاتها وخلالها الممتازة بل لقدرتها وقوتها وتفوقها.. والإنسان دائمًا شديد الانجذاب إلى الإعجاب بالقدرة والقوة، وهكذا ظن هذا الفريق الثاني أن الآداب الغربية هي غاية الأدب وأقصى طلبة المتمني أيضًا.. فانسلخ عن تراثه وتنكر له وراح يتزحلق على جليد الآداب الغربية وهو لا يجيد فن التزحلق.. فكان مثار الهزء والسخرية من قومه وغير قومه!!

ومن عجب أن الفريق الثاني على الرغم مما يثيره من هزء وسخرية يعتبر نفسه مجددًا!!

فإذا قيل له إن التجديد غير التقليد.. قال: وما الفرق؟! ألست آتي إلى وسطي بجديد عليه؟!

وقد نسي هذا الفريق في غمرة انبهاره بالغرب أن التقليد والمسخ والتشويه لآداب الغير لا يمكن أن يكون شيئًا جديدًا وإنما الجديد هو استيعاب كل ما يمكن استيعابه من الآداب الغربية وغيرها.. ثم تقديم كل ذلك إلى الأدب العربي في قوالب وأساليب وقواعد الأدب العربي نفسه حتى يسهل فهمه وتعم فائدته بين العرب الذين اختارهم الأديب أو اختار لغتهم للكتابة بها.. فأما أن يستخدم لغتهم ليلبسها أفكارًا وقوالب غربية فذلك ليس من المنطق في شيء.. فكأنه يطبخ (المعكرونة) في قدر الجريش مع الجريش)!!

ومن هؤلاء دعاة الشعر الحر.. لقد أعجزهم فهم تراثهم الشعري وقواعده

وأساليبه وقواعده وقوالبه في غمرة انصرافهم عنه إلى الأدب الغربي فظنوا أن طريقة وأساليب وقواعد الشعر الغربي الذي يقرأونه يمكن أن تطبق في الأدب العربي وباللغة العربية نفسها.. وهيهات!!

وإنهم ليبررون دعوتهم إلى ما يسمونه بالشعر الحر بمبررات تفضح جهلهم المطبق بتراثهم وأدبهم ولغتهم.. فهم يقولون مثلاً إن الوحدة العضوية في القصيدة الواحدة لا يستطيع الشعر العربي تحقيقها.. كذلك لا يتيح الشعر العربي بأوزانه وقوافيه مزيدًا من الحرية للشاعر في إيراد الصور والأخيلة المتاحة له.

وهكذا يرون أن اختلاف الأبنية والأوزان والقوافي والتصاريف هي السبيل الوحيد القادر في الشعر على المزيد من وجود الصور والأخيلة، وكذلك تحقيق الوحدة العضوية في القصيدة...إلخ.

ومن عجب أنني كنت أقرأ قبل ليال كتاب (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي الذي أُلّف في عام ٤٧٤هـ أي قبل أكثر من ألف عام فوجدت فيه هذا النص: قال أبو عائذ الكرخي في تفضيله النثر على الشعر:

(ومن شرفه أيضًا ـ يقصد النثر ـ أن الكتب القديمة والحديثة من السماء على الرسل بالتأييد الإلهي مع اختلاف اللغات كلها منثورة ومبسوطة متباينة الأوزان متباعدة الأبنية مختلفة التصاريف، لا تنقاد للوزن، ولا تدخل في الأعاريض.

ومن شرفه أيضًا ـ يقصد النثر ـ أن الوحدة فيه أظهر، وأثرها فيه أشهر... إلخ).

وعجبت حقًا.. لأن أهم ما يدعيه دعاة الشعر الحر لأنفسهم ولشعرهم الحر، هو في الواقع من أهم مميزات النثر ومقوماته إذ تجد في هذا النص القديم الذي يميز النثر عن الشعر هي نفس الصفات والمزايا التي يطلقها أنصار الشعر الحر ودعاته إلى هذا النثر الذي يسمونه (الشعر الحر)!!

فهم في الواقع يدعون إلى الوزن، وتباعد الأبنية، واختلاف التصاريف... بل

يدعون لعدم الانقياد إلى الوزن والقافية!!

وذلك كله من صفات النثر ـ كما أسلفنا النص على ذلك.

ويدعون إلى وحدة الموضوع في القصيدة، وذلك حق، ولكنه حق من وجهة نظر الأدب الغربي فقط، أما عند العرب فإنهم إذا أرادوا وحدة الموضوع وبيانه وتقريره ووضوحه لجأوا إلى النثر.. فتحقيق الوحدة الموضوعة في التقارير الرسمية أو غيرها لا يرفعها إلى منزلة الشعر لأنها حققت وحدة موضوعية، وإنما يقربها من النثر الأدبي إذا كانت تجيد التصرف الأدبي في هذا النثر.

مثلاً عندما يريد أحد مهندسي وزارة المواصلات تقديم تقرير عن جسر أو كوبري فإنه لا يحتاج إلى الشعر من أجل تحقيق وحدة الموضوع في تقريره، وإنما يلجأ إلى النثر فيحدد في وحدة موضوعية واضحة مساحة الجسر وارتفاعه وفتحاته وقواعده المسلحة وعمقها... إلخ.

وهكذا الشاعر أيضًا لا يحتاج عندما يقف على نفس الجسر مثلاً فيهتف به هاجس الشعر لذكرى معينة أو احتدام مشاعر فيريد أن يقول شعرًا؛ لا يمكن إذن أن يتقيد بالوحدة الموضوعية للجسر كما تقيد ذلك المهندس في تقريره، وإنما يذكر الشاعر الجسر لما أوحاه له أو به من خواطر أو ذكريات أو مشاعر. وهكذا فإن وحدة الموضوع ـ كما يقول النص سالف الذكر ـ أظهر وأشهر في النثر فقط.

ثم إن هناك في هذا المجال، ناحية مهمة جدًا.. هي الفرق بين التذوق العربي والغربي.

فالعربي يتذوق الشعر لحنًا وأداءً ورنينًا وطنيًا.. ولا يمكن أن يتسنى جذب تذوق العربي للشعر إلا إذا كان الشعر نفسه لحنًا ونغمًا بذاته!!

وهذا لا يمكن إلا عن طريق الوزن والقافية والكلمة الشاعرية الرنانة.. ذلك لأن العربي لم يعرف الألحان إلا عن طريق الشعر في كل جذوره التاريخية وذوقه التراثي بمعنى أن اللحن عند العرب يخضع لأوزانه وقوافيه الشعرية

وكلماته المختارة.. بعكس الغربي الذي يخضع للقوافي والأوزان والكلمة للموسيقى أو اللحن الصادر عن آلات وأوتار!!

وأقرب مثل على ذلك أن الأغاني العربية التي تكون كلماتها عامية وأوزانها وقوافيها مضطربة تنجح ـ إذا نجحت ـ كلحن وأداء فقط. بمعنى أن الكلمات فيها ليست من العوامل المؤثرة في النجاح، وهكذا لا يقدر لمثل هذه الأغنية النجاح إلا بقدر ما يتاح لسامعيها العرب من تذوق اللحن والأداء.. فأما أن تؤثر فيهم مثل ما يتأثرون حتى بأغانيهم الشعبية العربية الموزونة المقفاة حتى ولو كانت عامية فلا وألف لا!!

وقد قيل في الشعر العربي:

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه فليس جديرًا أن يقال له شعر

ولا والله.. لا يمكن أن يهتز أي عربي لهذا الشعر المنثور كبعر الكبش!!

وهكذا فإن دعاة الشعر الحر المقلد للشعر الغربي في صوره ومعانيه وطرائقه، إنما ينفخون في قربة مخروقة ويطبخون (المعكرونة) في قدر الجريش مع الجريش!!.

البلاد ١٦/٨/١٣٩٢هـ

دعاوى الحداثة والمعاصرة

قبل أيام كنت أناقش هذا الموضوع نفسه في إحدى يومياتي في (البلاد) وكان مقالي بعنوان (بين الأصالة والمعاصرة) وها أنذا أعود اليوم لمناقشة الموضوع نفسه مستشهدًا بأحدث الآراء والنظريات لبعض الأدباء العرب المعنيين بشؤون الأدب العربي الحديث ممن لا يرقى الجدل إلى منازعتهم صفة الحداثة والمعاصرة.. بل وممن يستشهد بهم كل من هب ودب ممن يعن لهم ادّعاء الحداثة أو المعاصرة!

والحقيقة أن عنايتي بمناقشة هذا الموضوع بالذات، ترجع إلى أن بعض الشداة من أدبائنا قد توسعوا كثيرًا في الزعم لأنفسهم دعوى الحداثة أو المعاصرة وهم لا يملكون من دعواهم هذه غير طراوة العود وسواد الغرة وإهاب الشباب.

أما معاناة الفكر والرأي والدراسة والتحصيل فقد اكتفوا منها بالقشور دون اللباب، والادعاء دون البينة، وغرور الظن دون اليقين.

ولا شك أنهم قد قدموا بين يدي دعواهم هذه بعض الأعمال الساذجة التي تنم أكثر ما تنم عن جهل آخر بحقيقة الحداثة نفسها حيث ظنوا أن الحداثة تكمن في الشكل دون المضمون فراح الشعراء منهم وكتاب القصة أيضًا يقلدون بعض الأشكال الأدبية بصورة تبعث على الإشفاق.. وتثير الضحك في الوقت نفسه!!

وليس ذلك هو أخطر ما في الموضوع.. بل أخطر منه وأشد أنهم يظنون - ويعملون على أساس ظنهم هذا - أن مفهوم الحداثة لا بد أن يتنكر لكل قديم، ولذلك فإن كل من يذكر القديم أو يعني به هو في نظرهم (غير حديث) حتى ولو كان يُعنَى في الوقت نفسه بأحدث النظريات الأدبية!!

والأكثر إيلامًا من كل ذلك أنهم يرددون في مزاعمهم ودعاواهم بعض الأسماء الحديثة اللامعة مثل صلاح عبدالصبور، وأدونيس، والبياتي، ولويس عوض، ورجاء النقاش، وجلال العشري وغيرهم.

ومن عجب أنهم لا يقرأون في الواقع حتى لهؤلاء، وإن قرأوا فبعض النتف، ودون تمعن أو روية أو إدراك.

وإلا فالحقيقة أن ما يدعو إليه معظم هؤلاء اللامعين يختلف كل الاختلاف عن مفاهيم الشداة من أدبائنا، ويختلف كل الاختلاف عما يفهمونه عنهم.. ذلك لأن معظم هؤلاء اللامعين أمثال أدونيس وصلاح عبدالصبور ولويس عوض وهم في الواقع ممن ترتكز ثقافتهم العميقة على أرضية صلبة من التراث العربي والعالمية الحديثة بينما أصحابنا هنا من هؤلاء الشداة قد أعياهم أيسر الاطلاع على أقل القليل من التراث.. بل على أقل من القليل من الاتجاهات الحديثة بدليل فهمهم المشوش المبتور لهذه الاتجاهات الحديثة!

إنك تجد منهم من يزعم لنفسه الشاعرية الحديثة، فإذا تجرأ أحد النقاد وقال له إن هذا ليس من الشعر الحديث أو القديم قام يكيل له سيلاً من التهم غير الأدبية، ثم بعد ذلك يحدثه عن (المقطع الدائري) وإنما هي مجرد نتف من الأقوال التي قرأها دون استيعاب أو فهم.. فإذا قلت له إن شعره ليس من المقطع الدائري في شيء.. كان أيسر ما يمكن هو أن يتهمك بالجهل وناهيك أن تسأله عن الخليل بن أحمد أو تذكره له، وإياك إياك أن تذكر المتنبي أو الشريف الرضي ومهيار الديلمي أو حتى (أبو نواس)!

وأنا هنا أريد أن أقول لهؤلاء بكل موضوعية وبالأدلة والبراهين: إن الحداثة والمعاصرة ليست على النحو الذي يفهمونه، ولا هي تقوم على الشكل فقط دون المضمون أو على المضمون دون الشكل.. ثم هي لا تقوم بالضرورة على التنكر لكل ما هو قديم سواء من حيث الشكل أو المضمون وإلا فإن شاعرًا مثل صلاح عبدالصبور مثلاً قد اختار أهم موضوعاته الشعرية من التراث العربي وسكبها في شكل حديث.. فهل يكون شاعرًا حديثًا أم لا؟

وهناك شعراء مثل أبي ريشة مثلاً، شديد الحداثة في مضامينه الشعرية ولكنه يلتزم في التعبير عنها بالشكل القديم فهل يكون شاعرًا حديثًا أم لا؟

إنني أعرف من أعنيهم بهذا، وأعرف أنهم لا يقوون على النقاش في هذا الموضوع.. بل يتهربون منه لأن مرتكزاتهم الثقافية هشة غثة، وهم يعرفون ذلك جيدًا ولكنهم في غياب النقد أو النقاش يزعمون لأنفسهم المزاعم.. وقد أفلحوا بالفعل في تثبيت بعض هذه المزاعم خاصة وأنهم يشكلون (شلة) يعمل بعضها في الصحافة ويقوم هذا البعض بالترويج لأنفسهم ولبقية (الشلة) أيضًا.. كما يقومون في الوقت نفسه بالتشويش والشغب على كل من يتجرأ فيحاول كشف بعض الحقيقة!

وأنا هنا لا أريد أن أكشف أحدًا ولا أريد أن أذكر أحدًا بسوء أو بغير سوء، وإنما أريد أن أناقش موضوع الحداثة أو المعاصرة مستشهدًا ـ كما أسلفت ـ بأحدث ما أثير حول الموضوع من آراء ومناقشات، وسأحرص أن لا أذكر أي واحد ممن يمكن أن يتهم بالرجعية أو التخلف أو التزمُّت حتى تكون حُجّتي واضحة ودليلي قويًّا.. وسأبدأ أولاً بعرض وتلخيص وإثبات بعض النصوص المقصودة ثم أبدي رأيي في النهاية أو حتى خلال العرض.

تحت عنوان (محاكمات أدبية في مؤتمر لندن) كتب الدكتور لويس عوض مقالاً مطولاً احتل حوالي صفحة كاملة من جريدة الأهرام يوم الجمعة الماضي ٩ ـ ٧ ـ ١٩٧٤م ويقول ما ملخصه: إنه كان واحدًا من ضمن ٢٥ أستاذًا وأديبًا اجتمعوا ثلاثة أيام متصلة في جامعة لندن بحثوا خلالها الأدب العربي الحديث (الشعر والقصة والمسرح).

فأما القصة فقد قدمت عنها ستة أبحاث، وكان أهمها بحث (حليم بركان) الذي انتهى فيه إلى أن (غربة أدباء العربية عن مجتمعاتهم هي القاسم المشترك الأعظم في الرواية العربية الحديثة).. وانتهى أيضًا إلى أن (رواية التغيير.. لم تكتب بعد.. إلخ).

ثم ذكر لويس عوض بعد ذلك ما أسماه بالقنبلة الأدبية فقال:

(أما القنبلة الحقيقة في ندوة جامعة لندن فهي التي ألقاها الشاعر اللبناني أدونيس (علي أحمد سعيد) ببحثه (معنى الحداثة في الشعر العربي).

وقد بدأ أدونيس باستعراض المدارس الأدبية العربية منذ القدم حتى انتهى إلى المدارس العربية الحديثة فقال:

(هناك مدرستان في النقد العربي القديم المدرسة التقليدية وإمامها الجاحظ والمدرسة التجديدية وإمامها ابن قتيبة.. أما المدرسة التقليدية فهي مدرسة الفطرة وهي مدرسة معادية للثقافة وللحضارة داعية إلى البداوة والجاهلية، أما المدرسة التجديدية فهي مدرسة مثقفة متحضرة .. إلخ).

ثم استشهد أدونيس بأقوال للجاحظ وأخرى لابن قتيبة لتأييد وجهة نظره.. ثم انتهى إلى أن العرب قد عرفوا (معنى الحداثة منذ ١٣ قرنًا أي منذ بشار وأبي نواس وأبي تمام، وقد انعكس ذلك في الفكر والنقد وتجلى في احترام الكتابة أي الثقافة بعد ازدرائها... إلخ، ثم يستشهد بقول ابن قتيبة في مقدمة (الشعر والشعراء): (ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره.. بل نظرت بعين العدل على الفريقين.... إلخ).

ويضيف أدونيس: (هكذا نشأت مدرسة ثالثة من (الموفقين) مثل ابن جني وابن رشيق وقد كانا يريان أن اللفظ للأقدمين والمعنى للمحدثين.. إلخ).

وبعد أن قرر أدونيس هذه الخلفية التراثية تساءل قائلاً: (فماذا كان مصير الشعر في عصر النهضة العربية الحديثة؟).

وأجاب على نفسه: (تكررت نفس التجربة فكانت هناك ثلاث مدارس:

١ ـ المدرسة السلفية التي ركزت على القديم لفظًا ومعنى ومؤسسها البارودي ومعلمها مصطفى صادق الرافعي.

٢ ـ المدرسة التلفيقية التي صبت معاني جديدة في قوالب قديمة ورائدها

معروف الرصافي وخليل مطران.

٣ ـ مدرسة الرؤيا الشاملة ومؤسسها جبران خليل جبران... إلخ).

أما مشكلة الشعر العربي الحديث عند أدونيس فهي أن:

(البداوة هي السمة الغالبة في التجربة وزنًا ونثرًا، إنها استطراد للشعر السياسي وشعر الهجاء والشكوى وشعر الحب، استطراد لامرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة، وأعني بالاستطراد احتضانًا لزمن النموذج ـ الأول ومكانه.. إن الجملة الشعرية الجديدة هي نفسها الجملة الشعرية القديمة، والمفارقة الصارخة هنا هي أن الشعر غير الموزون يحاول أن يلبس خصائص الوزن (يعني مثل ادعاء المقطع الدائري).

وإن الشعر الموزون يحاول أن يلبس خصائص غير الموزون (يعني مثل بعض شعرائنا الذين ينظمون الشعر المقفى الموزون ثم يقطعونه إلى أوصال معينة لكي يتخذ شكلاً حديثًا!!).

وهكذا قد نجد شاعرًا يكتب نثرًا أقرب إلى امرئ القيس من شاعر آخر يكتب وزنًا.

وهذا يعني أن تغيير الشكل خداع وغير كاف ويعني بالتالي أن التجربة الشعرية الجديدة شكلاً منفصلاً عن المضمون...إلخ).

انتهى كلام أدونيس، ويعلق عليه الدكتور لويس عوض فيقول: (بمنطق أدونيس أن أبا تمام أكثر حداثة من صلاح عبدالصبور)!!

ويضيف لويس عوض قائلاً: وهذه هي القنبلة التي فجّرها أدونيس في ندوة جامعة لندن.. إنها حكم بالإعدام على مدرسة الشعر الحديث كلها لأنها وقفت في منتصف الطريق فصبت مضامين (أفكار وعواطف) قديمة في قوالب جديدة.. أو صبت مضامين جديدة في قوالب قديمة، هي حكم بالإعدام على نازك الملائكة والسياب والبياتي وصلاح عبدالصبور وأحمد حجازي وتلاميذهم.. بل وعلى خليل حاوي وتوفيق صايغ وأدونيس نفسه)!! انتهى تعليق لويس عوض!!

ونستطيع أن نستخلص من كل ذلك ما يلي:

١ ـ أن أدونيس ـ وهذا معروف ـ يلم إلمامًا جيدًا بالتراث العربي القديم ولا يستنكف ـ كما يفعل بعض مريديه من شداة الأدب عندنا ـ أن يذكر الجاحظ وابن قتيبة وأمثالهما من أساطين التراث..

٢ ـ أن المدارس الأدبية تكرر نفسها في رأي أدونيس.

٣ ـ أن الشعر الحديث كله هو استطراد للثبات، وأن المفارقة الصارخة هي أن الشعر غير الموزون يحاول أن يلبس خصائص الوزن، وأن الشعر الموزون يحاول أن يلبس خصائص غير الموزون.. وأن المسألة كلها مجرد خداع في الشكل ليس إلا!!

هذا هو ملخص آراء أدونيس الذي يعتبر إمامًا من أئمة الحداثة والمعاصرة في نظر كثير من أتباعه ـ وخاصة عندنا هنا ـ الذين يزعمون أنهم يقرأونه ويحتجون به.. فأين الحداثة أو المعاصرة يا هؤلاء؟؟ يا من تزعمونها لأنفسكم وأنتم ـ باعترافكم ـ لا تساوون شيئًا إلى جانب أدونيس أو إلى جانب من ذكرهم.. فإذا كان ذلك رأيه في أمثال صلاح عبدالصبور والسياب والبياتي.. فكيف يكون رأيه في أمثالكم من الأتباع المقلدين؟؟

ونعود إلى موضوع الحداثة.. لقد قرأت قبل أيام أيضًا وبالذات في جريدة الأنوار اللبنانية الصادرة بتاريخ ٤ آب ١٩٧٤م جزءًا من بحث مطول للدكتور ميشال عاصي بعنوان (أين هم كتاب الحداثة اليوم)؟ وقد انتهى فيه إلى أنه (من حيث الآثار الأدبية الحديثة قلّما نجد أثرًا منها ومهما يكن متميزًا ومتصفًا بالفرادة والإبداع لا يلمح الباحث فيه بصمات من كبار الأدباء العالميين لا سيما الغربيين تطبع هذه الناحية أو تلك في الشكل أو في المضمون فتتركه هكذا حائرًا بين أصول تراثية تجاوزها وبين أصالة إبداعية عالمية لم يكتسبها لأنه لم يكن فيها رائدًا ولا مبدعًا، والريادة والإبداع العالميان لا يتأتيان إلا لمن يعاني المناخات العالمية طويلاً من داخلها... إلخ)!

والدكتور ميشال يتحدث بالطبع عن كبار الأدباء والشعراء لا عن الأذناب والأتباع.. ومع ذلك يقرر ما قرره بشأنهم فكيف يكون رأيه لو أنه يقصد أصحابنا؟

وبعد فلا أظنني بحاجة إلى التأكيد على أنني بالطبع لا أعادي الحداثة من حيث هي لمجرد أنها حداثة.. كما أني لا أتنكر للقديم لمجرد أنه قديم.. ولكنني أعادي وأتنكر لكل دعوى فارغة أو زعم زائف.. أو أي بهتان يريد أن يمرره علينا الأدعياء!!

أريد أن أثبت لهؤلاء أن المعرفة التي يعتنقونها لا تقوم على أساس، وأنني أتحدى أن يثبتوا العكس، وهذا الفرس وهذا الميدان كما يقول المثل!!

عكاظ الأسبوعية

١٣٩٤/٧/٦هـ

أدعياء الحداثة والمعاصرة

وأنا أتصفح جريدة الأنوار وجدت قصيدة لـ (سعيد عقل) ألقاها بمناسبة الاحتفال بذكرى طه حسين.. وأدهشني.. بل أذهلني.. أن القصيدة عمودية وموزونة مقفاة بدقة متناهية تحمل بين كل سطر وآخر رائحة غبار عصور النظم.. (النظم) بكل ما في الكلمة من معني.

والعجيب أن هذا الناظم ليس من دعاة أو مهرجي الشعر الحر فحسب. بل هو أيضًا من دعاة.. أو هو الداعية (الأوحد) الآن لكتابة الشعر ليس فقط بطريقة (بعر الكبش) بل - إضافة إلى ذلك - باللغة العالمية وبأحرف لاتينية - (سعقلية) أيضًا.. وأيضًا.

ولكن ها هو - وها هنا العجب - في أول مناسبة تتاح له للفوز بشرف الاشتراك في اجتماع أدبي مهم كذكرى طه حسين ينسى كل دعاواه و(هرجلته) التقدمية ويلبس الجبة والقفطان والعمامة وينتعل خُفًّا ويحمل مسواكًا، ويخضب ذقنًا و(يرقع) الاحتفال بقصيدة ليست من القديم فحسب بل من مبالغات القديم التي أزرت به.. اسمعه يقول:

هتفت باسمك ما لقيت لي عذري   من ذا يلقبها إلا بها الشيبا

طه حسين ويكفي إذ ذاك منتهجي   أنا كما السيف طلقًا أنزل الكتبا

نظم حلو.. أو لا بأس به كما ترى من ناحية النظم وزنًا وقافية عمودية معممة تمامًا. ولكن ألا يذكرنا هذا بنظم تشجير أسماء المواليد كذلك الذي يعبث به أحيانًا الشيخ أبو تراب الظاهري؟

كان من المفروض أن أفرح بهذه المنظومة (السعقلية) لأنها تمثل ضربة ساحقة ماحقة لحملة لواء «الحداثة» و(المعاصرة) في بلادنا ولكني لم أفرح مع الأسف لأن القصيدة ليست من القديم ولا من الحديث فهي طعنة لدعاة القديم والحديث معًا!!

ولقد كان (سعيد عقل) يومًا من شعراء العربية المعدودين ولكن يبدو أن انهماكه في (ليتنة) الحروف و(سعقلتها) قد صرف عنه هاجس الشعر فلم يفلح في (الليتنة) و(السعقلة) وفقد في الوقت نفسه هاجس الشعر الجميل.. أي أنه - فيما يبدو - لم يتعظ بسيرة الغراب الطيب الذكر فتكررت الحكاية!!

ومن عجب أنني سبق أن لاحظت هذه الملاحظة نفسها ملاحظة لجوء أحد أعلام دعاة الشعر الحديث في المناسبات المهمة للمشاركة بشعر تراثي خالص، وذلك عندما ألقى الأستاذ نزار قباني قصيدة في مهرجان الشعر بالعراق - كما أظن - في نطاق أحد مؤتمرات الأدباء وقد كانت قصيدة طنانة رنانة لم ينظم على نحوها منذ أكثر من عشرين عامًا.

وتساءلت يومها في نفسي: ترى هل (خجل) القباني أن يلقي قصيدة من الشعر الحر؟ مع أن شعره الحر - للحق والإنصاف - من أحسن ما يمكن أن يقرأ في هذا الباب كفن خالص بصرف النظر عن أهدافه ومضامينه وحتى الغزلية لا اعتراض لي عليها شخصيًا باعتبار الغزل وحتى (المجون) من الأغراض الشعرية المعروفة في الشعر العربي.

عفوًا.. بل إن الشعر الحر عند نزار قباني بالذات ومعه قلة قليلة من أمثال نازك الملائكة وصلاح عبدالصبور والبياتي لا يعتبر شعرًا حُرًّا بالمفهوم الذي يريده أدعياء «الحداثة» و(المعاصرة) و(الدائرية) بل هو شعر في معظمه لا غبار عليه ويصلح بالفعل نواة للمحاولات التجديدية الجادة في الشعر العربي:

عفوًا أيضًا.. بل إن شعر القباني بالذات في معظمه من الشعر المقفى الموزون ولكنه رجل بارع في الخداع الفني إذ يجعل من البيت العمودي المقفى الموزون ثلاث أو أربع شطرات مع بعض الفلافل والتوابل من النقاط وعلامات التعجب والاستفهام وتنويع القافية.. فيظن أصحابنا وأمثالهم من (محترفي

البنطلونات) في الوطن العربي أن ذلك هو الشعر الحر ورأوا العملية سهلة جدًّا فكانت أزمة الورق الآن ولا أظنها إلا بسبب الشعر العربي الحر لأن السطر الواحد لا يحتمل غير كلمتين والصفحة لا تحتمل غير بضع كلمات ومجموعة من علامات التعجب والاستفهام وتظل الصفحة بيضاء نقية إلا من سواد الوجه بما سود بعضها به[1].

والأعجب من كل ذلك أنني لاحظت أيضًا منذ مدة ـ وهذه ملاحظة ثالثة ـ أن أحد شبابنا وهو يزعم لنفسه مزاعم عريضة جدًّا في الشعر الحر و«الحداثة» و(المعاصرة) و(الدائرية) إلخ.... إلخ.

هذا الشاب بالذات أراد في مرة من المرات ـ وعليكم السلام والتحيات ـ أن يهدي قصيدة إلى الشاعر الكبير الأستاذ حسين سرحان ـ وهذه مناسبة مهمة كما ترى يجوز قياسها إلى مناسبتي سعيد عقل والقباني ـ فلم يستطع عزيزنا الشاب[2] أو هو (خجل) ـ فيما يبدو أن يهدي قصيدة من (الشعر الدائري) إلى شاعر فحل مثل حسين سرحان.. فهل تدري ماذا فعل؟

لقد نظم قصيدة لو بُعِثَ الخليل بن أحمد حيًّا واطّلع عليها لضرب برأسه مرة ثانية في أسطوانة البيت.. أو سحب أرفف كتبه عليه و... مات!

أما أستاذنا حسين سرحان المهدى إليه فلا نشك أن مآسيه قد زادت واحدة حينئذ!!

---

(١) انظر مثلاً نزار قباني نفسه حين يجعل شطرتين أو ثلاثًا في صفحة كاملة في كثير من دواوينه.
(٢) المقصود هو سعد الحميدين.

حالة انفصام بين الماضي والحاضر!

كثيرًا ما تطرح قضية (أدب الشيوخ وأدب الشباب) على بساط البحث، أو كثيرًا! بالأصح - ما يتراشق الجانبان بالتهم المختلفة وهو أمر طبيعي جدًّا إذا نظرنا إليه على أنه من قبيل الصراع الأزلي بين القديم والحديث في كل زمان ومكان تقريبًا.

ولكنه يبقى غير طبيعي، وغير منطقي إذا كان الدافع إليه مجرد نزوة من نزوات الشباب، أو صبوة من صبوات أو تصابي الشيوخ!!

وذلك هو ما يحدث عندنا كثيرًا، وأنا شخصيًّا سبق أن شاركت - في الماضي - بنصيب ممتاز من نزوات الشباب في هذا الموضوع نفسه.. كما أنني شخصيًّا أعرف عددا من شيوخ الأدب المتصابين، ساهموا أيضًا بنصيب وافر في إذكاء نار الجدل في هذا الموضوع.

وقد وصل الأمر إلى حد أن أصبح هذا الموضوع (أدب الشيوخ وأدب الشباب) مجالاً رحبًا لتمرين الكثير من الأقلام الشابة من جهة، ولملء فراغ الشيوخ المتقاعدين من جهة أخرى!!

ولعله بسبب ذلك - أو لأكثر من سبب - لم يطرح هذا الموضوع قط بشكل جاد أو موضوعية خالصة.. هذا إذا كان لا بد من طرحه!!

وفي خضم كل ذلك، تفوت أو تذوب حقيقة أساسية مهمة لا يريد أي واحد من الجانبين أن يعترف بها.

وهذه الحقيقة يمكن أن نلخصها.. أو نسميها ببساطة (حالة انفصام) قاسية بين الماضي والحاضر.

ولا شك أن من طبيعة الشباب أن تكون طريقته في معايشة الحاضر، وفي النظر إلى المستقبل، متسمة بنوع من الرفض للماضي، تتفاوت درجاته حدة أو هوادة بين شاب وآخر، ولكنه يظل موجودًا في طبيعته ونزعاته النفسية على أية حال!!

كما أنه لا شك من جهة أخرى أن من طبيعة الشيخ أن تكون معايشته للحاضر، ونظرته للمستقبل تتفاوت درجاته أيضًا متسمة بنوع من التعلق بالماضي بين شيخ وآخر، شدة أو اعتدالاً، ولكنه يظل أصلاً في طبيعته ونزعاته النفسية على أية حال أيضًا!!

ولا أظن هناك إمكانية لغير ذلك إلا بقدر ما يمكن أن يبذله الشاب من تفهم لسر تعلق الشيوخ بالماضي، أو ما يبذله الشيخ أيضًا من تفهم لأسباب ودوافع رفض الشباب لهذا الماضي!

بذلك ونحوه.. يمكن تقريب الفجوة أو حتى سدها بين نوازع جيلين مختلفين. وهو أمر تظل إمكانات تحقيقه محدودة!!

وهذا ينسحب بوجه عام على الطبيعة البشرية ونوازع النفس الإنسانية في مختلف المناحي تقريبًا.

أما على الصعيد الأدبي بين شيوخنا والشباب فهو على درجة من التعقيد، أورثتها تراكمات ورواسب مختلفة متعددة، ولكنها لا تخرج كثيرًا عن الإطار السالف الذكر!!

من هنا نجد الأديب الشاب، بسبب دوافع رفض الماضي في نفسه، ضعيف الصلة بجذوره التراثية، والثقافية والتاريخية والأدبية واللغوية!!

ومن هنا نجد - نحن الذين يسموننا أو نسمي أنفسنا بالأدباء الشباب - ثقافتنا سطحية، ولغتنا هزيلة، وأساليبنا غثة رثة!!

وكل ذلك لا لشيء إلا لضعف صلتنا بالجذور الثقافية والتاريخية واللغوية أو بدافع كراهية أو عدم ميل غريزي إلى الماضي!!

ومعروف أن الحاضر وحده أو حتى التطلع إلى المستقبل لا يمكن أن يشكل عمقًا أدبيًا كافيًا.. ذلك لأن الماضي والحاضر والمستقبل حلقات متصلة بعضها بأطراف بعض!!

وكل جيل لا بد أن يهضم ماضيه ويفرزه، ويعيش حاضره، ويبني مستقبله!

وهذا لا يكون إلا بالإنتاج وإعادة الإنتاج. بل إن (الإنتاج) نفسه هو دائمًا إنتاج وإعادة إنتاج.. أي أن كل إنتاج مبتكر، لا بد أن يعاد إنتاجه عدة مرات

قبل أن يصل الإنسان إلى ابتكار إنتاج آخر!!

ولا يمكن لأي جيل من الأجيال أن يرفض ماضيه رفضًا كاملاً لأن أي إنتاج حينئذ سيتوقف حتى يتمكن الجيل الرافض من ابتكار جديد، ولو فعل ذلك لمضت مدة لا بد أن يهلك فيها قبل أن يتمكن الجيل الرافض من ابتكار إنتاج جديد!!

ويجب أن نعرف أن كل ابتكار جديد أو إنتاج جديد لا بد أن يكون تطويرًا لابتكار قديم بشكل أو بآخر.. أو على الأقل لا بد أن يكون تحقيقًا لحلم قديم!!

ولذا كله فإن ضعف صلتنا بماضينا، أوجد عندنا ضعفًا بالضرورة في أدوات الإنتاج، الثقافة، التاريخ، اللغة...إلخ.

نعم.. إننا نقرأ قليلاً أو كثيرًا في الأدب المعاصر، ونميل ونطرب لشطحاته ونزعاته التجديدية، ولكن ذلك وحده لا يشكل ركيزة ثقافية ثابتة، ولا يعين على توفير أدوات الإنتاج بصورة مثلى!

و(اللغة) بصورة خاصة - هي الأداة الأولى للإنتاج الأدبي.. فإذا كانت هذه الأداة الأساسية ضعيفة عندنا إلى الحد الذي نعرفه عن أنفسنا جميعًا فماذا عسانا نتوقع من مردود لإنتاجنا؟

وكذلك العلم بالتاريخ، ومسارات الفكر الإنساني منذ الأزل، ضرورة لا بد منها لتكوين ركائز ثقافية ثابتة صالحة لفهم الماضي ومعايشة الحاضر وتصور المستقبل.. فما هو نصيبنا - يا ترى - من كل ذلك؟

إنه نصيب ضئيل جدًا.. بل إن بعضنا يفخر على صفحات الصحف بأنه لا يقرأ (الكتب الصفراء) ويقصد كتب التراث الفكري والتاريخي والأدبي.

ومن عجب أن يتشدق أحد الشباب ويفاخر بذكر (أدونيس) ونزار قباني، وصلاح عبدالصبور وغيرهم دون أن يعرف - مع الأسف - أن هؤلاء قد تمكنوا تَمَكُّنًا شديدًا من كتب التراث.. بل يعتبر (أدونيس) مثلاً من المتبحرين في الثقافة التراثية، وليست هذه الحركات التجديدية في إنتاج

هـؤلاء وأمثالهم إلا فرزًا طبيعيًّا لثقافتهم التراثية ولمعاصـرتهم الراهنة ولتصوراتهم للمستقبل أيضًا.

وقد تضيف حركاتهم التجديدية شيئًا مُهمًّا أو غير مُهم للتراث الإنساني.. أو تشكل على الأقل رؤيا أو حلمًا يمكن أن تحققه الأجيال القادمة فيما بعد!!

والأعجب من ذلك أن هـذا الشـاب المتشدق وأمثـالـه يـظـن أو يـظـنـون أنـه بإمكانهم محاكاة هؤلاء الأدباء في حركاتهم التجديدية دون أن يكون لهم الرصيد نفسه من الثقافة الواسعة والمعاناة المضنية.. وتلك هي صورة.. أو لمحة من صورة واقعنا نحن الشباب!!

أما الشيوخ فهم أيضًا ـ بدافع ميلهم الغريزي للتعلق بالماضي ـ قد وقفوا حيث انتهى شبابهم ودوافع تطلعهم، وبدأت (حالة الانفصام) عندهم عن الحاضر والمستقبل.. فانكفأوا على الماضي، وانقطعوا عن الحاضر والمستقبل!!

وليست تلك هي المعادلة المطلوبة.

نعم.. إن ثقافة الأدباء الشيوخ أعمق وأوثق صلة بالتراث، تاريخًا، وأدبًا ولغة.. ولكنها ـ من جهة أخرى ـ شديدة الضعف في الاتصال بالحاضر فضلاً عن التطلع إلى المستقبل.

ومن هنا نجد في الكثير من إنتاجهم مجرد إعادة وتكرار لإنتاج سابق دون أدنى محاولة لتطوير أو محاولة لتحقيق حلم قديم.

ومعروف أن تكرار الإنتاج في حد ذاته، لا بأس به، شريطة أن يظل مقبولاً ومستساغًا بدرجة كافية أو بالدرجة التي تحافظ على رواجه في السوق!!

أما غير ذلك.. فيصبح عبثًا لا طائل من ورائه..

وبعد فليس المقصود بمقالي هذا (كل) الأباء الشيوخ.. أو (كل) الأدباء الشباب.. وإنما أقصد بالضبط من تنطبق عليه المواصفات والمقاييس المشار إليها بأية درجة من الانطباق كانت!!

البلاد ١/١٢/١٣٩٤هـ

فوضى تحقيق التراث ونشره

لم يتعرض - في ظني - تراث أمّة من الأمم لمثل ما تعرض له التراث العربي من تشتت وضياع وحرق وغرق ولا زال ما بقي منه عرضة لنوع آخر من التشتت والضياع وعدم الاستفادة منه؟

فأما ما سبق أن ضاع أو حرق أو غرق فقد قلنا: لا حول ولا قوة إلا بالله.. ولكن ما بقي منه في مكتبات العالم هو الذي لا يزال يتعرض للضياع وعدم الاستفادة منه مع الأسف الشديد..

ذلك لأنه منذ بدأ تحقيق التراث ونشره وهو يتخبط في فوضى متناهية من صور التحقيق والنشر فمنه ما يحقق تحقيقًا علميًّا صحيحًا ولكن لا تطبع منه سوى كميات محدودة وسرعان ما يقوم بعض الأشخاص أو دور النشر بتحقيق نفس الكتاب تحقيقًا تغلب عليه العجلة والتسرع والجهل ويتم نشره بتلك الصورة الفجة من التحقيق المتسرع.

ثم لا نسمع إلا وقد قام شخص آخر أو أشخاص أو دور نشر أخرى بتحقيق نفس الكتاب ونشره وطبعه.

وهكذا تتعدد التحقيقات والنشر لكتاب بذاته دون أدنى تنظيم أو تنسيق للجهود العلمية في هذا المجال.

وغالبًا ما تكون الغاية تجارية بحتة من مثل هذه التحقيقات المتعددة المتعجلة.

أما الغاية العلمية الخالصة فغير متوفرة إلا عند عدد قليل من العلماء الغيورين وبعض الجهات العلمية المختصة.. وحتى عند هذه القلة من الجهات العلمية المختصة والعلماء لم يخل الأمر من فوضى وعدم تنسيق؛ فالكتاب الذي يُحقَّق في المغرب مثلاً يُحقَّق بعد ذلك أو قبله في القاهرة أو بيروت أو دمشق أو حتى في دوائر المستشرقين... إلخ.

وأنا أعتقد أن الجامعة العربية - عبر معهد المخطوطات فيها - تتحمل مسؤولية كبرى في هذا المجال، فإذا كان - أي معهد المخطوطات - يعتذر بقلة إمكاناته المادية فلا أقل من أن يكون اتصاله واسعًا بدوائر تحقيق التراث ونشره ليكون هناك ولو بعض الشيء من تبادل المعلومات والتنسيق بين هذه الجهات حتى لا يتكرر على الأقل تحقيق ونشر كتاب بعينه بين جهة وأخرى.. فما أحرى توفير مثل هذه الجهود الخيرة وإبعادها عن التكرار، خاصة وأن هدفها الأساسي هو خدمة التراث وإتاحة الاستفادة منه.

أما التحقيق المرتجل لغايات تجارية بحتة فهو يسيء كثيرًا إلى تراثنا، وقد جرى تحقيق كثير من الكتب عن هذا الطريق فجاءت تحمل الكثير من المسخ وعدم العناية بالتحقيق.

ويحضرني - كأقرب مثال على ذلك - الاكتشاف الهام الذي اكتشفه الأستاذ جبرائيل جبور عندما درس كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه وهو كتاب شائع ذائع..

وقد أشار إلى ذلك الدكتور أسد رستم في كتابه (مصطلح التاريخ)، وها أنا أنقل لكم نصه: (وقد وجد الأستاذ جبور عندما درس كتاب العقد لابن عبد ربه أن ناشري الطبعات التي بين أيدينا لهذا الكتاب اعتمدوا على نسخة خطية دست فيها جملة كثيرة من الأخبار فأثبتوا الأصل والزيادة في طبعاتهم دون أن ينتبهوا إلى الأمر أو يشيروا إليه، والغريب أن بعض هذه الأخبار المدسوسة كانت ظاهرة لا يحتاج أمر اكتشافها إلى الكثير من العناء والتدقيق، فإنك إذا قرأت العقد ترى أنه قد ترجم فيه في كتاب اليتيمة الثانية لأربعة خلفاء من بني العباس هم: الرضي والمتقي والمستكفي والمطيع، وكلهم توفي بعد وفاة ابن عبد ربه أي بعد سُنّة ٣٢٨هـ، وترى في ترجمة الأخير أنه قد خلع نفسه سُنّة ٣٦٣هـ أي بعد موت ابن عبد ربه بخمس وثلاثين سُنّة أ.هـ).

وهذا مجرد مثل بسيط لفوضى التحقيق والنشر.. وإلا فهناك الكثير من الكتب التراثية من سوء التحقيق وعدم العناية بالطبع واستغلال التراث للمتاجرة والطبع والكسب المشروع وغير المشروع.

بل وهناك أصابع اتهام كثيرة تشير إلى بعض المحققين والناشرين بأنهم يتعمدون حذف ودس بعض النصوص لخدمة أغراض ليست في شيء من أغراض التحقيق والنشر ولا هي في سبيله!!

البلاد ٢٧/١١/١٣٩٢هـ

النقد الأدبي إلى أين؟

تعددت المفاهيم النقدية وتضاربت اتجاهات النقاد، وتلون النقد بأكثر من ألوان قوس قزح.. بل وأصبح النقد الأدبي موظفًا في خدمة بعض الاتجاهات البعيدة عن حقيقة أدبنا العربي وصميم رسالته!

وأصبح الجيل الجديد يظن أن هذه الأحاجي والألغاز والمعميات من صميم النقد.. بينما هي مفاهيم دخيلة واغلة لا تربطها أية صلة بالأدب أو النقد العربيين!!

وفي هذا المقال محاولة متواضعة للإلمام بمسيرة النقد الأدبي العربي.. تلمست فيها الاجمال دون التفصيل، والتلميح دون التصريح، حيث لا تحتمل المقالة الصحفية عادة أكثر من ذلك.. والفكرة على كل حال مطروحة للنقاش.

كثيرًا ما أتساءل مع نفسي: إلى أين يمكن أن تصل بنا هذه الاتجاهات المختلفة في النقد الأدبي؟

منذ كان الأدب العربي سواء في الجاهلية أو الإسلام كان يتميز بسمات عربية خاصة لها أصولها وقواعدها المعروفة وإن كانت تختلف من عصر إلى آخر منذ النابغة الذبياني إلى الجاحظ وابن قتيبة والجرجاني... إلخ.

ويمكن القول أن النقد الجاهلي كان يركز على المعنى أو المضمون وكيفية التصرف، أما اللفظ فلم يكن موضع خلاف لأن اللغة العربية كانت حينذاك خالصة لم تَشُبْها العُجمة، وإن كان لا بد من الإشارة إلى أن أعشى قيس وحده من فحول شعراء الجاهلية هو الذي أدخل بعض الكلمات الفارسية القليلة في شعره بسبب أسفاره الكثيرة، ولم يكن ذلك موضع نقد لأن بعض الكلمات الفارسية القليلة كانت قد تسربت إلى العربية بالفعل، بدليل أن القرآن الكريم نفسه قد تضمن بعض تلك الكلمات القليلة ولم يخالف ذلك كونه أنزل بلسان

عربي مبين، ذلك لأن تلك الكلمات قد عربت فأصبحت عربية بالفعل.

والمهم أن اللفظ لم يكن مثار نقد أو جدل أو نقاش!!

وبعد أن جاء الإسلام أحدث انقلابًا كبيرًا وتغييرًا جذريًا لكثير من المفاهيم الجاهلية السائدة.. ثم أيضًا بدأت العُجمة تتفشى قليلاً بحكم الفتوحات واحتكاك الكثير من المسلمين العرب بالأعاجم، فكان لا بد أن يحدث ما حدث من تغيير في المعنى واللفظ أيضًا.

المعاني تأثرت بالمفاهيم الجديدة للإسلام، فأصبح هناك ما نسميه الآن شعر الدعوة بكل ما حواه من معان ومضامين جديدة تمامًا وإن كان الشكل لم يختلف..

أما من ناحية اللفظ فقد بدأ رجال التدوين والتفسير والحديث يلحظون ما يمكن أن تشكله الكلمات الأعجمية المتسربة من خطر شديد على لغة القرآن فبدأت عنايتهم بالشعر الجاهلي كعودة لا بد منها - لا من أجل مضامين ومعاني ذلك الشعر الجاهلي.. بل من أجل لفظه في حد ذاته كشواهد على تفسير لغة القرآن والحديث حتى ليستشهدوا بالشعر الذي يتنافى مع تعاليم الإسلام لأنهم إنما يقصدون الاستشهاد بلغة ذلك الشعر لا بمضمونه.

وهكذا أصبحت هناك قيمة كبيرة للّفظ العربي الصحيح في حد ذاته فنشأت مدرسة جديدة في النقد لم يعد يهمها المعنى بقدر ما يهمها اللفظ ومدى صحة نسبته إلى اللغة العربية.

وهكذا أصبح الناقد يقول: لحن فلانا أو لم يلحن!!

ولعل ذلك كله أو بعضه قد ساعد إلى حد بعيد في ضعف الشعر العربي في صدر الإسلام للعوامل الآنفة الذكر، وهي التغيير الذي أحدثه الإسلام في كثير من المفاهيم، حتى لقد أصبح الشعر نفسه من لغو القول وفضوله ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ الآية.

ولولا عناية رجال الحديث والتفسير بالشعر الجاهلي من أجل الاستشهاد به

لاندثر كله تقريبًا، بل ولربما اندثر الشعر من أساسه.

وأعتقد شخصيًّا أن من أسباب بقاء الشعر في صدر الإسلام وما بعده هو أن الشعر قد استخدم أيضًا في الدعوة الإسلامية والمنافحة عنها، ومن أبرز الشعراء في هذا المجال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ وقَد لقب بشاعر الرسول ـ وهو من المخضرمين كما هو معروف!!

أما الضعف الذي تعرض له الشعر فقد كان لا بد منه بعد أن فقد هذا الشعر الكثير من أغراضه القديمة التي لم تعد صالحة، وخاصة في صدر الإسلام ومنها مثلاً الغزل والهجاء، والمفاخرة والمنافرة.. وكلها أغراض ينهى عنها الإسلام أو يحد منها وهي أغراض أساسية للشعر العربي قبل الإسلام.

ومن هنا قيل إن شعر حسان بن ثابت نفسه لم يعد في الإسلام كما كان بنفس القوة في الجاهلية.. وما قيل عن حسان ـ رضي الله عنها ـ قَيل عن جميع المخضرمين، وهم الذين شهدوا الجاهلية وأدركوا الإسلام.

وبعد ذلك جاءت طبقة (المولّدين) وهم الذين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية في ذروة مجدها وعزها وبذخها وترفها في العصرين الأموي والعباسي، أو بالأصح في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي وهي الفترة التي ازدهرت فيها من جديد الحركة الأدبية، وحاول أرباب هذه الحركة من (المولدين) أو بعضهم على الأقل أن يتمردوا قليلاً ـ بقدر ما أتيح لهم ـ على كل ما هو قديم تقريبًا، وأصبحوا يستهجنون البكاء على الأطلال والدمن وما إلى ذلك من سمات الشعر القديم ،وبدأوا يطرقون أغراضًا جديدة ويتحررون من كثير من القيود والمفاهيم الموروثة في الجاهلية والإسلام أيضًا.

وهنا انقسم النقاد على أنفسهم بعضهم يتعصب للقديم تعصبًا مطلقًا، ويعتبرون ما عداه لا شيء إطلاقًا، وبعضهم كان ينظر إلى الجديد نظرة تقدير

واهتمام، وإن كان لا يرفعه إلى مصاف القديم إلا أحيانًا، وقد وجد من النقاد ـ مثل ابن قتيبة مثلاً ـ من ينظر إلى الشعر بصرف النظر عن قدمه أو حداثته، وإنما يضعه على محك النقد من حيث الشكل والمضمون، أي اللغة والمعنى، أو المعنى والمبنى ـ كما كانوا يقولون!!

وعلى الرغم من نقلة التجديد تلك التي ازدهر معها الأدب أيما ازدهار لم يلبث ـ مع الأسف ـ أن انحدر ـ أي الأدب ـ مع انحدار الدولة الإسلامية وتلاشي سطوتها وتقلص حدودها وتنازع شيعها، فأصبح الشعر يعني أكثر ما يعني بالجناس والتورية والبديع والمحسنات..إلخ.

كما أصبح النثر يعني أكثر ما يعني بالسجع وحوشي الألفاظ وغريبها، وذهب الشعراء والكتاب كل مذهب في سبيل ذلك وأمثاله.

والعجيب أن النقد يتلون بتلون الإنتاج الأدبي نفسه حيث أصبح النقد في هذه الفترة يزن كل أثر أدبي بقدر ما فيه من جناس أو سجع ومحسنات بديعية.. إلخ.. وما عدا ذلك ليس من الأدب في شيء!!

وانتهى الأمر بالأدب العربي، وكان لا بد أن ينتهي إلى أدنى درجات الفجاجة والسماجة والعُجمة الكاملة تقريبًا، ومن ثم اندثر النقد الأدبي أو تلاشى، إذ لم يعد هناك أي تمييز بين الغث والسمين، بل لم يعد هنالك أي سمين.

وعندما جاءت اليقظة العربية الحديثة كان أجرأ ما يمكن أن تبدأ به من جديد هو العودة إلى الماضي، العودة إلى الجزالة والفصاحة ونصاعة البيان ثم توالت المدارس الأدبية بعد ذلك وتحرك النقد الأدبي من جديد تبعًا لمراحل تطور الإنتاج ونوعياته، واختلفت المفاهيم النقدية تبعًا لذلك، ولكنها لم تخرج عن الإطار العربي الصرف حتى بدأ العربي نفسه يخرج عن هذا الإطار في الستينات، حيث تأثر غير قليل من الأدباء العرب بالتيارات الوافدة من الشرق والغرب، وتبلور هذا الخروج عن الإطار العربي منذ أوائل السبعينات بدعوى

التقدمية والعالمية والحداثة والمعاصرة وغير ذلك من الدعاوى الطويلة العريضة التي لم نعرف لها رأسًا من ذنب!!

واضطرب النقد الأدبي وكان لا بد أن يضطرب تبعًا لاضطراب الإنتاج الأدبي نفسه وأصبحت تستورد مفاهيم نقدية جاهزة من الخارج وتبذل محاولات كبيرة جدًّا من أجل أن يلبسها أو يتلبسها الأدباء العرب ولكن شأنها شأن الملابس الجاهزة تأتي أحيانًا فضفاضة جدًّا، أو ضيقة جدًّا أحيانًا أخرى!!

واختلفت المقاييس وأصبحت كتب النقد الحديثة عبارة عن كشكول عجيب يحوي كل ما هَبّ ودَبّ، كجراب الحاوي!!

ولم يعد يعرف الأديب أو المتأدب إلى أي حد يهتم النقد الحديث بالشكل أو المضمون لأن النقد نفسه أصبح مجرد طلاسم وأحاج وألغاز، ولكن الظاهرة الملموسة والمؤسفة في الوقت نفسه أن النقد أصبح يهتم بالشكل في الدرجة الأولى.. وأصبح الشكل هو الأساس وليس المضمون.. فلو أنتج الأديب العربي الآن أروع الروائع ولم يلتزم بالأشكال والقوالب الحديثة فهو لا شيء في نظر دعاوى التجديد!

بل إن الناقد الذي يبدي أي اهتمام بالمضمون قد سقط سقوطًا شنيعًا في رأي النقد الحديث.

قبل أيام كنت أقرأ في مجلة الحوادث العدد ٧٨٢ هذا النص :(في معرض حديث عن النقد والنقاد قال محيي الدين صبحي رئيس تحرير مجلة (المعرفة) السورية: (في مصر هناك رجاء النقاش وغالي شكري، ولقد سقط رجاء النقاش كناقد منذ أن نبذ التحليل الشكلي واتجه إلى منهج النقد المضموني... إلخ).

أرأيتم أن الناقد يسقط لمجرد أن ينبذ التحليل ويتجه إلى منهج النقد المضموني؟

والأعجب من ذلك أن التحليل الشكلي نفسه لا يثبت على أساس، وإنما يتلون

بتلوّن مصدر الاستيراد لا بتلون الإنتاج الأدبي نفسه، أي أنهم أصبحوا يستوردون قوالب شكلية جاهزة للأدب ثم يأمرون الأدباء العرب أن ينتجوا بموجبها وعلى مقاسها.. فإذا أبدى أي واحد من الأدباء العرب ملاحظة صغيرة تقول مثلاً: إنه لم يفهم، هاج المستوردون وماجوا وملأوا الدنيا غضبًا وانفعالاً تجاه هذا الجهل الشنيع!!

وهذا يذكرني بنكتة لطيفة:(في معرض سيريالي وقف زائر أمام لوحة طليت باللون الأسود الفاحم لم يبد فيها أي أثر لإنسان أو جماد أو نبات أو حيوان ولما ذهب الزائر يسأل الرسام عن معنى لوحته أجابه منفعلاً:

كيف.. ألم تفهم بعد إنها تمثل زنجيين يتقاتلان في الظلام؟!).

وهذا هو بالضبط شأن النقد الأدبي في هذه الأيام!!

ترى إلى أين يمكن أن يصل هذا النوع من النقد؟ وهل يطمس معه معالم النقد العربي الأصيل، حتى يصبح مثله مثل زنجيين يتقاتلان في الظلام..؟

البلاد ٢٠/٧/١٣٩٤هـ

أدبنا والتيارات العالمية؟!

أستاذنا الكبير عبدالعزيز الربيع.. كنت وما أزال وسأظل معتزًّا فخورًا بأدبه وفضله، وبشرف انتمائي إلى صداقته.. فهو بالإضافة إلى عمق أدبه، وسعة أفقه ممن يحتفون بمعارفهم وأصدقائهم دائمًا، ويتعهدونهم بالوفاء والإخلاص، والزيارات، وحسن الذكر وجميل الثناء، وواجب المنافحة!!

والأستاذ الربيع من أولئك القلائل جدًّا في دنيا الفكر والأدب الذين إذا تصدوا لموضوع ما.. أوسعوه شمولاً في البحث.. ودقة في التركيز، ونزاهة في أغراض المعالجة.

وهذا هو بالذات سر إعجابي الشديد بأستاذنا الربيع.. وهو لا يفعل ذلك في مقالاته وبحوثه فحسب.. بل إنه حتى في المقابلات الصحفية التي تتطلب أجوبة سريعة (على الماشي) يأبى الأستاذ الربيع إلا النهج نفسه في الشمول والدقة والتركيز.. لا يبالي في سبيل ذلك أن يشغل حيزًا كبيرًا.. ربما لم يحسب حسابه سكرتير التحرير أو المسؤول عن التحرير الذي أوعز بإجراء المقابلة!!

ومن هذا القبيل قرأت مؤخرًا مقابلة صحفية مع الأستاذ الربيع في جريدة الندوة العدد ٢٥٧٣ الصادر في ١١/٤/١٣٨٧هـ احتلّت - أي المقابلة - صفحة ونصف الصفحة ليس فيها غير صورة الربيع وعناوين المقابلة.. أما الباقي فأسئلة وأجوبة، والسؤال طبعًا لا يتعدى السطرين أو الثلاثة!!

وعادة.. لا أهتم كثيرًا بقراءة المقابلات الصحفية التي تجرى مع الأدباء لعدة أسباب.. ليس أقلها أهمية أن معظم الزملاء لا يحالفهم التوفيق كثيرًا في توجيه أسئلة مركزة واعية مستوعبة لموضوع المقابلة!!

ولذلك غالبًا ما تأتي الإجابات على مستوى سطحية السؤال.. فلا تكاد تجد في أي حديث صحفي مع أديب ما يغني أو يجدي؟!

أما هذه المقابلة.. فقد حرصت على قراءتها.. لأنها أولا مع الأستاذ الربيع، وأنا شديد الحرص على أن أقرأ له دائمًا!!

ولأن العناوين قد أثارتني أيضًا.. وللعناوين دور هام في جذب القارئ!!

ولم يخب ظني عندما استرسلت في قراءة المقابلة.. فلقد أثار الأستاذ الربيع مجموعة من النقاط الهامة عن أدبنا، والرعيل الأول، والشباب، والمقاييس، والاتجاهات، وضرورة العمل على دعم التذوق الأدبي عند طلابنا إلخ...إلخ.

مجموعة من النقاط.. أؤكد أن الأستاذ الربيع لو تيسر له الوقت الكافي، وتصدى لها لكسبت المكتبة العربية مجلدًا ضخمًا على جانب كبير من الدقة والتركيز والشمول في معالجة هذا النقاط، وشرحها، وتفصيلها..

وبعض مجموعة النقاط هذه.. كنت وما أزال أوليها بعض اهتمامي في قراءاتي ودراساتي المتواضعة.. وقد كتبت عن بعضها مرارًا، فصادف تصدي الأستاذ الربيع هوى خالصًا في نفسي على حد قول الشاعر:

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قَلبًا خاليًا فتمكّنَا

وهكذا أجد نفسي أحاول - من قبيل تعلق الشادي بالحادي - أن أتناول، فيما أزعمه لنفسي بالدراسة بعض هذه النقاط.. وكلي أمل في التجاوز.. أو التغاضي عن بعض ما قد يحصل من نقص أو قصور.. أو ما قد يذهب إليه بعضهم من تأويلات!!

يقول الأستاذ الربيع: (صحيح أن أدبنا كان متأثرًا بالتيارات الوافدة من الشرق ومن الغرب. ولكن من المؤكد أننا لو سرنا بنفس القوة التي بدأنا بها لاستطعنا أن نخلّص أدبنا من هذا التأثير ولأمكننا أن نخلق أدبًا مستقلاً له خصائصه ومميزاته).

هنا لي وقفة.. ربما تطول، حول موضوع تأثر أدبنا بالتيارات (الوافدة إلينا من الشرق والغرب).

متى بدأت النهضة أو اليقظة الأدبية في بلادنا؟

والجواب هنا سهل ميسور لا يحتاج إلى مراجعة المجلدات الضخمة في التاريخ.. فإن من نسميهم بالرعيل الأول، ابتداء من حمزة شحاته، وانتهاء بالساسي.. ما زالوا على قيد الحياة[1] وهذا يضع أمامنا علامة استفهام مِلْحاحة؟

ما دام هؤلاء هم الرعيل الأدبي فمن أية نوعية كان تأثر أدبنا بالتيارات الوافدة من الشرق ومن الغرب؟

المعروف أن معظم أقطاب الرعيل الأول إن لم يكن كلهم - الاحتياط لا ضرر منه.. - لا يجيدون أية لغة أجنبية لا شرقية ولا غربية - من يدري ربما كان بعضهم يجيد التركية!!.. ولكنهم - أي الرعيل الأول - قد انفتحت أعينهم مبهورة - بينما كانوا إلى أذقانهم في مقامات الحريري - على سيل من الكتب والصحف والمجلات والدواوين الوافدة، لا من الشرق والغرب، بل من أقطار عربية أخرى في فجر اليقظة العربية!!

وجُلُّ هذه الكتب والصحف والمجلات لأرباب أقلام مرورا بعدة مراحل في اتجاهاتهم الأدبية.. كان منها انفتاحهم على الأدب الغربي، وتأثرهم به (فنيًّا).

ونهلهم المباشر من منابعه الصافية - لا الكدر والطين - حتى بلغوا من ذلك ما شاءوا، وحتى استطاعوا - فيما بعد - أن يستقبلوا بأنفسهم.. وأن يستشعروا ذاتيتهم وكيانهم وقدراتهم!!

وفي هذا المجال يقول الدكتور طه حسين:

(وقد كنا منذ حين نتأثر بالغرب، ونسعى إليه، ونقتبس منه، ونريد أن ننقله إلينا - إن صح التعبير - لكن الأمر تغير في هذه الأيام.. فقويت شخصية الكتاب حتى آمنت بنفسها، وآمن بها الناس من حولها في الشرق والغرب جميعًا).

---

(١) تُوُفُّوا جميعًا بما فيهم الأستاذ الربيع نفسه - رحمهم الله.

انفتحت أعينهم - أقصد رعيلنا الأول - على هذا السيل من الكتب والصحف والمجلات.. وإذا هي فتح جديد... سرعان ما تأثروا به، واندمجوا فيه.. وربما قرأوا بعض الكتب المترجمة فبهرهم هذا وذاك.. وأيقظ فيهم الشرارة الأولى للتمرد على القوقعة، والتقليد، والتعفن الفكري!!

أجل لقد تأثر أدبنا بالتيارات الوافدة من الشرق والغرب.. ولكن ليس بصورة مباشرة.. بل جاء هذا التأثر كنسخة ثانية - بالكربون - فقد تأثر رعيلنا الأول لا بالتيارات الوافدة من الشرق والغرب.. بل بالذين تأثروا بهذه التيارات من الأدباء العمالقة في مصر وسوريا ولبنان والمهجر!!

فكان تأثرهم - أي رعيلنا الأول - نسخة ثانية.. كما أسلفت.. لم تَقْوَ على البقاء، والاستمرار والصمود لعوافي الزمن!!

ليس الأستاذ الربيع وحده القائل بأن أدبنا - قد تأثر - يا ليته تأثر حقًّا؟ - بالتيارات الوافدة.. بل إنني قرأت للأستاذ أنيس الخوري المقديسي في كتابه (الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث) ما نصه:

(هذا التأثير الغربي قد تغلغل في البلدان حتى بلغ معاقل الحجاز، وسواها من الأصقاع النائية)، وأشار المؤلف في حاشية الصفحة التي جاء فيها هذا النص إلى مقال للأستاذ أحمد عبدالجبار في (المكشوف) البيروتية.. كان هذا المقال هو مرجع المؤلف في حكاية (تغلغل التأثير الغربي حتى معاقل الحجاز).

وأنا لا أنكر التأثر من ناحية الكَمّ.. بل أكرر أنه كان تأثرًا بالتأثر.. أي أنه بعبارة صريحة.. ليس تأثرًا مباشرًا، بل كانت (خلطته) في مصر وسوريا والعراق ولبنان والمهجر!!

أما ما أشار إليه الأستاذ الربيع من أننا (لو سرنا بنفس القوة التي بدأنا بها لاستطعنا أن نخلّص أدبنا من هذا التأثر ولأمكننا أن نخلق أدبًا مستقلاً له خصائصه ومميزاته).

وأنا أقول: نعم يا أستاذ ربيع.. فإن القدرة على التخلّص مواتية للقادرين على التأثر!!

ولكن حكاية التأثر نفسها (فيها قولان).. وحتى لو كان في أدبنا هذا التأثر، ولم نتخلص منه إلى الآن..، لما عابنا ذلك.. فإن الآداب والفنون والعلوم لا وطن لها، ولا جنس!!

والأستاذ الربيع خير من يعلم أن تراثنا المجيد كان في أوج ازدهاره في عصر المأمون.. عندما انبرى أسلافنا الفطاحل إلى نقل العلوم وترجمتها عن اليونان وسواها.

وإن كانوا - أي أسلافنا الفطاحل - في غمرة انهماكهم بنقل العلوم.. تركوا العناية بالآداب العربية، لغة وَفنًّا وتصورًا.

وفي هذا المجال يقول الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات - صاحب الرسالة - ما نصه:

(ولو شاء الله لأدبنا الكمال لأَلْهَمَ المترجمين في عصر المأمون أن ينقلوا روائع الأدبين الإغريقي واللاتيني من الشعر والقصص والروايات والملاحم.. كما نقلوا العلم والحكمة).

ولكنهم - مع أسف الأستاذ الزيات وأسفنا أيضًا - لم يفعلوا، وكان ذلك لعدة أسباب.. ليس هنا مجال بحثها!!

نعود إلى موضوعنا.. أن رعيلنا الأول عندما انفتح على أدب المتأثرين بالتيارات الوافدة من الشرق والغرب.. صحا من غفوته أو سباته العميق - وبدأ يضرب - أقصد ينتج الأدب - يمينًا وشمالاً محاكاة وتقليدًا وتأثرًا بالمتأثرين!!

ونفخوا في أقلامهم الروح الجديدة التي تلمسوها فيما انفتحوا عليه من اتجاهات ورؤى وصور وعمق.. وكان الميدان خاليًا إلا منهم.. قلة قليلة!!

وعندما يكون الفارس وحده في الميدان يبادر إلى الظن فورًا.. أنه نفسه (عنترة بن شداد) مع فارق اللون طبعًا!!

وهكذا وجد الرعيل الأول نفسه.. قلة قليلة وحدها في الميدان، والبون شاسع بينها وبين السواد الأعظم من الشعب.. فجعل من نفسه ـ أي الرعيل ـ وصيًّا على الأدب في الجزيرة العربية وما زالوا كذلك إلى الآن.. ومن ثَم.. أي منذ جعلوا من أنفسهم أوصياء بنفوذ مطلق على الأدب في جزيرة العرب (مالوا إلى جانب الراحة، وآثروا الهدوء النفسي).

وما بين القوسين من كلام الأستاذ الربيع في معرض حديثه عن الرعيل الأول!! ولم يتابعوا حتى مواصلة التأثر بالمتأثرين.. فما داموا أوصياء على الأدب في بلادهم الطويلة العريضة.. فما حاجتهم إلى مواصلة الاطّلاع، والإنتاج والتأثر.. بله محاولة التخلص من التأثر و(خلق أدب مستقل له خصائصه ومميزاته).

وأريد أن أعود إلى عبارة الأستاذ الربيع: (لو سرنا بنفس القوة التي بدأنا بها لاستطعنا...إلخ)، السبب في أننا لم نسر بنفس القوة ـ مع أنها قوة واهية من أساسها غير مستندة إلى أسس وطيدة ـ هو أن الأساتذة أو الأساتيذ ـ إرضاء للشيخ عبدالقدوس الأنصاري ـ صادف توقفهم، أو الركون إلى ما عندهم في وقت لم ينتشر فيه التعليم بعد، وبالتالي كان التعليم (لم يرتفع بعد بشكل مدهش، ولم ترتفع نسبة المتعلمين) كما يقول الأستاذ الربيع.

وهكذا توقف أدبنا في مرحلته الأولى.. في أول الطريق الطويل الشائك!! وكنتيجة حتمية لذلك تبخر التأثر.. وتبخرت دفعات الحماس التي نفخوها في أقلامهم.. حيث لم يكن هناك ـ سواهم ـ من يواصل النفخ (بله الطبخ)!!

أما ما بقي منهم بعد ذلك ـ أي الرعيل الأول ـ فمقالات ما تزال تنشر ـ لا أثر لها ولا خطر.. ولا تحمل أية نفحة من نفحات تلك الروح القديمة.. وقصائد

مناسبات.. ما زال دور وصف العظماء بالأُسُود مثلاً يتخللها. بالرغم من أن هذه الطريقة في الوصف قد أُنكرت واستهجنت منذ عهد عبدالملك بن مروان!!

فلقد مدحه أحد الشعراء، وشبَّهه بالأسد في صولته وجولته، فقال له عبدالملك بن مروان: ما زدت على أن وصفتني كلبًا!!

فهل ذلك هو تأثر أدبائنا بالتيارات الوافدة من الشرق والغرب؟!!

جريدة المدينة المنورة

١٣٨٧/٥/٢٧هـ

الصويّان والكتاب السعودي

تشرفت أمس بقراءة ما كتبه الزميل الصديق صالح الصويان في زاويته (ضوء) بهذه الجريدة عن الحلقة المذاعة في التليفزيون ضمن برامج الندوة الثقافية.. وكانت عن الوسائل التي يمكن الأخذ بها لترويج الكتاب السعودي في الداخل والخارج!!

وأرجو صرف النظر عن كوني شخصيًّا أحد المشتركين في الندوة المذكورة.. فإنني أريد أن أبدي بعض الملاحظات المتواضعة على ما أشار إليه الزميل الصويان في كلمته.

قال: (كنت أنتظر وغيري أن يوضح أحدهم - يقصد أحد أعضاء الندوة - السبب الحقيقي الكامن وراء عدم رواج الكتاب السعودي في العالم العربي والمحلي وبأن يقول الواقع عنه.. وهو أنه لا زال في مستوى لا يؤهله للاقتناء ما دام يعتمد في معظمه على قصاصات ما ينشر في الصحف عن مواضيع وقتية كصنبور مطلوب إغلاقه.. أو حفرة يراد ردمها).

هذا هو ما قاله الزميل بالحرف الواحد.. وقد نقلته بالمسطرة.. فلا أقل من أن يكون جزاء أتعابي في النقل السماح لي بإبداء بعض الملاحظات!!

أولاً: إنني شخصيًّا قلت في الندوة ما معناه أننا لكي نتمكن من توزيع الكتاب السعودي ينبغي أن نهتم بنوعية الكتاب واختيار موضوعه وجودته, وقلت: إن صدور كتاب عن تاريخ مكة مثلاً لو أرسل للخارج لأمكن توزيعه على نطاق واسع لا في العالم العربي فحسب.. بل في العالم الإسلامي بعكس كتاب يصدر عن رابغ مثلاً.

وقد علق الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي وهو أحد أعضاء الندوة على كلامي وأيده.. وقال بالضبط إن هناك فرقًا كبيرًا بين الكتاب الباحث المحقق.. وبين

كتاب (مجموعة مقالات) هكذا نص وأكد، وكذلك أكدت أنا شخصيًّا فإذا عرفنا ذلك اتضح لنا أن الزميل الصويان لم يستمع ويشاهد الحلقة المذكورة.

وربما كان مشغولاً بتصحيح (بروفة) في المطبعة أو (دقة بلوت) عند بشكته!!

ثانيًا: أجحف الزميل الصويان عندما قال إن الكتاب السعودي (يعتمد في معظمه على قصاصات ما ينشر في الصحف عن مواضيع وقتية) فالواقع أن الكتب السعودية من هذا النوع قليلة جدًّا.. وخاصة التي تشتمل على (موضوعات وقتية).. أما الكتب التي تشتمل على مجموعة مقالات غير وقتية - فإنها موجودة في الكتب السعودية.. ولكن ليست معظم الكتب السعودية!!

وكان يجب أن يفرق الأخ الصويان بين المقالات التي تتعلق بزمن تنتهي بانتهائه.. وبين المقالات التي يمكن أن تبقى للزمن على مدى طويل كالمقالات الأدبية والنقدية والعلمية فإن مقالات من هذا النوع لا يضير.. بل يحبذ أن تجمع في كتاب!!

تعال يا أخ صالح: هل تستغني عن كتب طه حسين ومعظمها مجموعة مقالات وقصاصات سبق أن نشرت في الصحف؟!

وهل تستغني عن كتاب (وحي الرسالة) للأستاذ أحمد حسن الزيات بأجزائه الثلاثة، وهو عبارة عن مقالات وقصاصات سبق أن نشرت في مجلته السابقة الرسالة؟

وهل تستغني عن كتاب (وحي القلم) بأجزائه الثلاثة أيضًا.. وهو مجموعة مقالات نشرت في الصحف؟

وهل تستغني عن كتب مارون عبود وعلي الطنطاوي وعبدالعزيز البشري وغيرهم من القمم الأدبية الشامخة.. ومعظم كتبهم مجموعة مقالات وقصاصات سبق أن نشرت في الصحف، وإذًا لا يعيب الكتاب السعودي أن يكون منه مجموعة مقالات.. ولكن الفرق هو بين مقالات ومقالات.. أيهما أبقى وأجدى..؟

ثالثًا: عدم رواج الكتاب السعودي في الخارج ليس هو كما ذكرت بأنه يعتمد في

معظمه على قصاصات ما نشر من صحف.. بل هي أسباب متعددة يطول ذكرها.. ولكن الكتاب السعودي لم يقدم أصلاً للخارج لأنه ليس هناك دار توزيع ونشر سعودية فيما مضى وعندما وجدت (دار اليمامة) مثلاً استطاعت أن توزع كتبها في أنحاء معظم العالم العربي، وكذلك الدار السعودية للنشر استطاعت أن توزع بعض الكتب السعودية وفي مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي.

ولكن هذا لم يحدث إلا منذ مدة وجيزة لا تعدو ثلاث سنوات.. وما تزال في بداية الطريق.. وكل من هو في بداية الطريق لا بد أن تعترضه المصاعب والمتاعب.. وتدمي قدمه الأشواك.

رابعًا: كنت أنتظر منك أن تلاحظ وتنقد الندوة المذكورة فيما هو أهم.. لو قلت مثلاً إن الندوة لم تستكمل موضوعها لكنت مُحِقًّا.. ولكن كان يمكن الرد عليك بأن الوقت المحدد للندوة قصير جدًّا.

ولو قلت مثلاً إن أعضاء الندوة لم يناقشوا الموضوع بعمق وتركيز لكنت مُحِقًّا!!

جريدة الرياض ١٣٨٩/١/١٩هـ

مع (معين بسيسُو) على أرصفة الشوارع

(معين بسيسو)

هل تعرفونه.. أو.. سمعتم به؟

إنه رجل.. زائغ النظرات.. وفكره أكثر زوغانًا - هذا إذا كان عنده أي فكر أساسًا وإنما هو ببغاء فكر، ومتسقط ثقافة من أرصفة الشوارع - كما يقول هو عن نفسه - وسأنقل نص كلامه بعد.

أما الآن فلنواصل التعريف.

إنه أيضًا يكتب في مجلة الأسبوع العربي، ولا ينسى أبدًا أن يؤكد لقراء هذه المجلة في كل مقال كتبه أو لم يكتبه بعد أنه شاعر منذ عام ١٩٥٢م.. أي منذ أن أصدر ديوانه الأول.

ويبدو من كل ما يكتبه في الأسبوع العربي أن الهدف الأساسي منه هو تذكير القراء بأنه شاعر.. وأنه كذلك منذ أكثر من عشرين عامًا.. فإذا مط أحد القراء شفتيه علامة أنه لم يسمع عنه أو به فلا يعجل فإنه سيذكر بنفسه في الأسبوع القادم ثم في الأسبوع القادم على التوالي في مجلة الأسبوع العربي، وكأنه قد نسي تمامًا أن اسم المجلة هو(الأسبوع العربي) لا (أسبوع تذكير العرب بشاعرية معين بسيسو)!!

وكان آخر خبر.. بل آخر بشرى زفها إلينا عن شاعريته - في مقال طويل عريض في الأسبوع العربي - أنه (على عتبة كتابة المقدمة الشعرية لمجموعتي - مجموعته - الكاملة)!!

ولم يشأ أن يتركنا نهنأ فقط بانتظار صدور مجموعته الشعرية الكاملة حتى بادر فاستعرض لنا تاريخ حياته، وكيف أنه التقط الشعر من (أرصفة شوارع القاهرة وبغداد).

إنه يقول:

(لم أعرف الشعر، ولم أعرف المكتبة الثورية إلا من فوق أرصفة شوارع القاهرة وبغداد)!! فيا ترى من عرف من الشعراء فوق هذه الأرصفة؟

إنه يقول:

(فمن فوق أرصفة شوارع القاهرة، تعرفت إلى الشاعر بول إيلوار، وليس أراغون، وزيدريكو غارسيالوركا، وبابلو نيرودا، ومن فوق أرصفة شوارع بغداد تعرفت إلى الشاعر ناظم حكمت، وأحببت من خلاله الشاعر محمد مهدي الجواهري)!!

وهؤلاء الشعراء العظام (!!!) الذين ذكرهم واعتز بذكرهم ليس بينهم من العرب ـ كما هو واضح ـ غير محمد مهدي الجواهري، ونصف عربي آخر هو ناظم حكمت.

أما بقية الشعراء العظام (!!) الذين وجدهم على أرصفة شوارع القاهرة منهم إيلوار، وأراغون، وزيدريكو، ونيرودا إلخ...إلخ.

أسماء شعراء، لا بد أن شعرهم كان بذرة وجود المقاومة الفلسطينية (!!) وإلا لما تباهى بهم كل هذا التباهي الشاعر (الفلسطيني) معين بسيسو!

أما إبراهيم طوقان.. أو عبدالرحيم فإن مجرد ذكرهما أمام (معين بسيسو) يعتبر استفزازًا له!!

نعم.. إن من يذكر هذين الشاعرين الفلسطينيين الكبيرين فإنما يستفز (معين بسيسو)!

إنه يقول في مقاله الآنف الذكر ما نصه:

(منذ أيام جاءني أحد النقاد بحماس شديد، يسألني إلى أي مدى كان حماسي للشاعر إبراهيم طوقان.. للشاعر عبدالرحيم محمود.

ولقد كان سؤالاً استفزازيًا بالنسبة لي.. فجيلي من الشعراء لم يتأثر أبدًا لا

بـإبـراهـيـم طـوقـان لأنـه قـبـل أن يـوظـف صـوتـه الشعري في خدمـة الإذاعـة البريطانية ـ في خدمة إذاعة القدس أيام الانتداب البريطاني، يوم كان مديرًا لهذه الإذاعة، وبعده بسنوات كان الشاعر عبدالرحيم محمود الذي أصبح شهيرًا فـيـمـا بـعـد، رئيس تحرير مجلة (المنتدى) الـتـي كـانـت تصدر أيـام الانـتـداب البريطاني على فلسطين باسم الإذاعة البريطانية)!

ولست أدري كيف تجرأ هذا الناقد على ذكر إبراهيم طوقان، وعبدالرحيم محمود أمام الشاعر الفلسطيني (معين بسيسو) الذي ثقف الشعر من أرصفة شوارع القاهرة وبغداد، وتعرف من خلال هذه الأرصفة على شعراء عظام (!!) من أمثال (بول إيلوار) و(لويس أراغون) و(زيديكو غارسيالوركا) و(بابلو نيرودا).

والحقيقة أن الفارق بين هؤلاء الشعراء العظام(!!) وبين الشاعرين الفلسطينيين المتواضعين(!!) كبير جدًا في نظر (معين بسيسو) إلى حد أن مجرد ذكر الشاعرين الفلسطينيين إزاء أولئك يعتبر استفزازًا لمعين بسيسو، وذلك لسبب بسيط.. هو أن أحد هذين الشاعرين وهو عبدالرحيم محمود قد استشهد بالفعل بشظايا قنابل العدو اليهودي، وكان ـ أي عبدالرحيم محمود ـ قد حمل السلاح مجاهدًا ومدافعًا عن وطنه، بينما (معين بسيسو) يتثقف الشعر على أرصفة شوارع القاهرة وبغداد.. ومات بل استشهد عبدالرحيم محمود، وهو شاكي السلاح.. وكان هو القائل:

سأحمل روحي على راحتي — وألقي بها في مهاوي الردى

فإما حياة تسر الصديق — وإما ممات يغيظ العدا

لعمرك إني أرى مصرعي — ولكن أغذ إليه الخطى

وكان له ما أراد ـ رحمه الله...

ولكنه لم يُلْقِ بروحه في مهاوي الردى، وإنما ألقى بها في جنات عدن - إن شاء الله - حيث هي مقام كل شهيد في سبيل دينه ووطنه وأمّته.

وأما إبراهيم طوقان الذي يغمزه (معين بسيسو) بأنه كان مديرًا لإذاعة القدس في عهد الانتداب البريطاني.. فلعله قد فات معين بسيسو، وهو يتثقف الشعر على أرصفة الشوارع بعيدًا عن فلسطين فضلاً عن حمل السلاح من أجلها... ويتعرف على شعراء من أمثال (إيلوار) و(زيدريكو).. إلخ.

لعله قد فاته، وهو يجاهد في سبيل وطنه (!!) بالتعرف على أمثال هؤلاء الشعراء العظام.. أن إبراهيم طوقان - رحمه الله - قد اتخذ من إذاعة القدس في عهد الانتداب البريطاني مطية لجهاده، ومتراسًا يقذف من خلفه الحمم على اليهود.. وكان آخر ما فعله في تلك الإذاعة أن أذاع بحثًا طويلاً عن قصة الوفاء المزعوم للسموأل اليهودي، وهو أول بحث في العربية أثار ضجة في الأوساط اليهودية في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني.. وقامت قيامة اليهود تطالب الانتداب البريطاني بإقصاء إبراهيم طوقان عن الإذاعة التي لا يفتأ كل يوم يهاجم اليهود من خلالها.. وفصلته سلطات الانتداب من عمله في الإذاعة لأنه.. لأنه يهاجم اليهود!!

ولم تفصله وتقطع رزقه لأنه كان مثلاً يتسكع على الأرصفة أو يتسقط الشعر على فضلاّت موائد الأجنبي!!

وغير ذلك، معروف أن إبراهيم طوقان - رحمه الله - قد أوقف حياته وشعره وفكره وعمله في سبيل قضية فلسطين، وهو شاعر مشهور معروف لا يكاد يذكر الشعر على صعيد القضية الفلسطينية إلا ويتبادر اسمه إلى الأذهان على الفور.

ولعله من أجل ذلك، من أجل استشهاد عبدالرحيم محمود وهو يحمل السلاح جهادًا ودفاعًا عن وطنه.

ومن أجل استماتة إبراهيم طوقان طوال حياته في الدفاع عن وطنه بالكلمة الشاعرة والحجة الهادرة.

لعله من أجل ذلك، ومن أجل أنهما لم يعرفا فن تسقط الشعر على أرصفة الشوارع، ولم يتعرفا بشعراء أجانب!!

لعله من أجل ذلك أو بعضه، يعتبر مجرد ذكرهما استفزازًا لمعين بسيسو.. وإلا فماذا يمكن أن نفهم غير ذلك؟؟

ويحدثنا معين بسيسو في استعراضه لتاريخ حياته بمناسبة بشارته لنا بقرب صدور مجموعته الشعرية الكاملة.. أنه تعرف لأول مرة على الشاعر السوفيتي (إيفجبني إيفتوشنكو) فيقول: (دعاني على زجاجة نبيذ، وبعد الرشفة من الكأس صاح إيفتوشكنو بمرارة: لقد كان عنقودًا طيبًا)!!

ويعلق معين بسيسو على ذلك بقوله: إن كل الشعر في هذه الجملة فالكثير من القصائد التي كانت عناقيد طيبة.. ما أسرع ما تتحول بعد مرور السنوات إلى خمرة رديئة)!!

ولا شك أن معين بسيسو قد أراد أن يلقننا ما يلي:

١ - يخبرنا، ولعله قد أخبرنا من قبل، أنه أيضًا قد تعرف على شاعر سوفيتي، وأنه أيضًا دعاه إلى زجاجة نبيذ(!!) ربما إكبارًا لجهاده من أجل القضية الفلسطينية!

٢ - نظرًا لشكه في قدرتنا المتواضعة على فهم الشعر (الكامل) يخشى أن يفوتنا الفهم الذي يتمتع به، وهو: أن (كل) الشعر.. نعم (كل) الشعر في هذه العبارة: (لقد كان عنقودًا طيبًا).

وهي عبارة الشاعر السوفيتي الذي أخبرنا أو بشرنا بأنه تعرف عليه.

أما قول عبدالرحيم محمود:

سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى

فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا

فهو استفزاز سمج للنشوة الحالمة التي تمتع بها معين بسيسو مع الشاعر

السوفيتي وزجاجة النبيذ التي كانت عنقودًا طيبًا!!

٣ ـ أراد معين بسيسو.. أن لا يجعلنا تائهين في الحيرة وعدم الفهم لكون قصائد إبراهيم طوقان وعبدالرحيم محمود تعتبر مجرد استفزاز لأمثاله.. فشرح لنا بوضوح أن (الكثير من القصائد التي كانت عناقيد طيبة، ما أسرع ما تتحول بعد مرور السنوات إلى خمرة رديئة)!!

أي أن معين بسيسو قد تواضع فاعترف أن أمثال قصائد إبراهيم طوقان وعبدالرحيم محمود كانت عناقيد طيبة، ولكنها أصبحت الآن (خمرة رديئة) خاصة وهو ـ أي معين بسيسو ـ على وشك إصدار مجموعته الشعرية الكاملة!!

وذلك هو كل ما استطاع فهمي المتواضع أن يدركه من معاني معين بسيسو.. فإذا جاء فهمي شديد القصور فعذري من القراء واضح تمامًا ـ متى عرفوا أو اعترفت لهم بأن ثقافتي لم تكن قط عبر أرصفة شوارع.. ثم لم أتعرف قط بـ (زيدريكو) وجماعته.. ولم يحصل لي شرف شرب النبيذ مع شاعر سوفيتي!!

ثم.. اللهم إنك تعلم أنها قد هزلت وسامها كل مفلس!!

حتى القضية الفلسطينية يسومها مثل هؤلاء.. وحتى شهداء القضية يسامون خسف الكلمة المأجورة وغير المسؤولة.

إنه الطوفان لا شك فلا حول ولا قوة إلا بالله!!

جريدة المدينة ١٣٩٣/٧/٧هـ

عمالة سعيد عقل

الحرب المعلنة وغير المعلنة على اللغة العربية لا تستهدف اللغة في حد ذاتها، وإنما تستهدف هدم القرآن الكريم... فهدم اللغة العربية التي أنزل بها القرآن ومسخها وتشويهها هو هدم ومسخ وتشويه للقرآن نفسه!!

وليس من المعقول أن يحاربوا القرآن علنًا وبوضوح فهم أذكى وأخبث من ذلك لأنهم بمحاربتهم له علنا يجابهون ستمائة مليون مسلم في عقيدتهم ودينهم.. بل في أعز وأغلى وأقدس معتقداتهم. ولا شك أن مجابهة من هذا النوع مصيرها الخسران والخذلان!!

وهكذا حسب أعداء الإسلام حسابهم بعد أن فشلوا في معاركهم الصليبية وغيرها أن يهدموا القرآن ففكروا في وسائل أخرى لعدوانهم وهكذا بدأ بعض المستشرقين وغير المستشرقين بحملة تتسم بالطابع العلمي البحت في الظاهر بأن اللغة العربية جامدة متأخرة ومعقدة وأنه يصعب فهمها وتعلمها إلى آخره إلى آخره.

ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع أيضًا لأن الدعاة لها كانوا من الأجانب فانكشف للعرب والمسلمين أحابيلهم ولكنهم لم يَنُوا ولم يتخاذلوا.. بل تنبهوا إلى ضرورة وجود عملائهم من العرب أنفسهم ـ ومن المسلمين إن أمكن ـ حتى لقد وصل بهم الأمر إلى أن استطاعوا إيصال دعوتهم اللئيمة لهدم اللغة العربية في مصر حين تقدم عبدالعزيز فهمي أحد أعضاء المجمع باقتراح سُنّة ١٩٤٣ بكتابة العربية بالحروف اللاتينية.

ولكن جميع هذه الدعوات لم تكن في غفلة من يقظة العرب والمسلمين فتصدوا لها وفنّدوها وندّدوا بها بل ووأدوها في مهدها!!

ولكن أنى لعدو حاقد أن يهدأ ويستكين أو يستسلم للفشل بعد الفشل، لقد أعيتهم

الحيلة حين فشلوا حيث اعتقدوا النجاح عن طريق مجمع اللغة العربية في مصر، ونحن نعرف أن المجمع يضم أعضاء من المستشرقين الإنجليز والفرنسيين!!

حين أعياهم ذلك لجأوا إلى عملاء جدد من ضعاف النفوس ومهزوزي القومية والوطنية.. بل ومن المستعدين بالفطرة لخيانة أمّتهم ولغتهم وتراثهم.. ولكنهم كانوا أفرادًا لا شأن لهم ولا قيمة، فلم تؤثر أصواتهم المبحوحة أدنى أثر.. حتى لقد وصل الأمر بمفكري العروبة والإسلام إلى الاستهانة المتناهية بمثل هذه الدعوات.. لأنهم على يقين بأن أية دعوة من هذا القبيل لن تصادف أي نجاح فلم يكلفوا أنفسهم بعد - مشقة أي عناء أو رد أو اهتمام بذلك!!

ولعل أعداء القرآن الذين يحاربونه في ذات اللغة قد تنبهوا إلى هذه الاستهانة أو الاستكانة من مفكري اللغة العربية حين برز فجأة (سعيد عقل) في لبنان ليجدد الدعوة إلى هدم اللغة العربية حيث يدعو إلى كتابتها بحروف لاتينية بل وبحروف إضافية جديدة مبتكرة من عند سعيد عقل.. أو كما يدعي أنها من عنده إذ نحن نشك في ذلك كثيرًا، وبدعوته أيضًا إلى التأليف باللغة العامية.

ومن بدائه القول أن كتابة العربية بالحرف اللاتيني أو بالحروف الجديدة أو التأليف باللغة العامية.. كل ذلك أو بعضه وسائل هدم للكيان الإسلامي والتراث الإسلامي من أساسه!!

ويجدر بي هنا أن أشير إلى ما ذكره الدكتور يحيى الجبوري في محاضرة له في رابطة العالم الإسلامي عام ١٣٨٨ مطبوعة ضمن محاضرات الرابطة بعنوان (الإسلام والثقافة الحديثة) قال الدكتور الجبوري:

(وقد عثر الدكتور حسين الهواري على تقرير سري لأحد هؤلاء المستشرقين يرشد فيه حكومته، ويوضح السياسة الاستعمارية في مقاومة الإسلام وسبيلهم الأول - كما يصرح - التقليل من أهمية اللغة العربية وصرف الناس

عنها بإحياء اللهجات المحلية واللغات العامية حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم ويمكن بعد ذلك التغلب على عواطفهم الدينية، ويقرر المستشرقون في شماتة صليبية أن تركيا لم تعد بلدًا إسلاميًّا فإن قراءة القرآن العربي وكتب الشريعة الإسلامية قد أصبحت الآن مستحيلة بعد استبدال الحروف العربية)!!

وهكذا يريد منا سعيد عقل، أو بالأصح من هو وراء سعيد عقل أن نقلل من أهمية اللغة العربية ونحيي اللهجات العامية حتى لا نفهم قرآننا ليسهل التغلب على عواطفنا الدينية ولنصبح من ثم غير مسلمين حين يستحيل علينا عن طريق حروفه الجديدة ودعوته إلى العامية أن نفهم قرآننا أو كتب شريعتنا؟؟

ولقد استمر (سعيد عقل) ولا يزال مستمرًّا بكل جراءة وقحة في دعوته هذه مستفيدًا هو ومن وراءه من استهانة المفكرين بشأنه في المُضيّ قُدُمًا في دعوته حتى لقد وصل به الأمر إلى إنشاء مطبعة ضخمة فريدة من نوعها في العالم خاصة به وبحروفه الجديدة.. بل وقد بدأ فعلاً بإصدار سلسلة من الكتب بحروفه الجديدة وعاميته اللبنانية وسماها دون أدنى تواضع (أجمل كتب العالم).

أجل.. لقد وصل الأمر بسعيد عقل إلى هذا الحد دون أدنى وازع أو رادع، فهل يجوز بعد الآن الاستهانة بدور (سعيد عقل) في المؤامرة على اللغة العربية بل وكل الكيان الإسلامي بأكمله؟

لأن الكيان الإسلامي هو المقصود من أمثال هذه المؤامرات لا اللغة العربية في حد ذاتها - كما أسلفنا - إذ لولا الإسلام لما كان للغة العربية أدنى شأن عند هؤلاء ولما حيكت حولها كل هذه المؤامرات.

وهكذا.. لا شك قد استوجب على علمائنا ومفكرينا أن يهبوا لتفنيد هذه الدعوة والتنديد بها ودرء خطرها لأن سعيد عقل ليس وحده كما كنا نظن، ولأن دعوته قد اتخذت صبغة عملية بوجود مطبعته الضخمة الفريدة من

نوعها في العالم ـ من أين له ذلك؟! ـ ويتوالى صدور كتبه الجديدة الهدامة التي ربما تجد صدى عند بعض الجهلة بأهداف هذه الدعوة ومراميها البعيدة!!

لا شك قد استوجب على علمائنا ومفكرينا أن يثوروا في وجه هذه الدعوة الهدامة.. فهل نتسامع قريبًا ـ إن شاء الله ـ بموتها كما مات غيرها من الدعوات!!

ويعد يحسن قبل اختتام مقالي هذا أن أضم صوتي إلى صوت الأستاذ رجاء النقاش في مقال بمجلة المصور العدد ٢٤٩١ في ٢٦ جمادى الأول ٩٢هـ قال:

(أريد أن أسأل. من الذي يمول مطبعة سعيد عقل؟ ومن الذي يقف ماديًّا وراء هذا المشرع الكبير؟

هل هي إمكانات سعيد عقل الخاصة؟

إن هذا بالطبع افتراض غير معقول وغير ممكن، ولا بد أن هناك (هيئة ما) تقف وراء هذا المشرع؟

فما هي طبيعة هذه الهيئة وما هي مصلحتها في ذلك؟.. ثم من هي الجماهير التي تقبل على هذه الكتب الكثيرة التي يصدرها سعيد عقل والتي يقدم منها طبعات متعددة؟!

هذه كلها أسئلة بحاجة إلى إجابة واضحة وصريحة، ولست أملك هذه الإجابة، وإنما أدعو سعيد عقل وغيره ممن يساهمون معه في هذه المحاولة إلى تقديم الإجابة الواضحة الصريحة حتى يفهم الرأي العام العربي حقيقة دعوة سعيد عقل وهدفها الصحيح).

ولكن هل نتطلب في الماء جذوة نار، وهل يعقل أن يجيب سعيد عقل أو من هم مع أو وراء سعيد عقل إجابة واضحة صريحة؟

إن في ذلك إذن هدم جميع مخططاتهم وأهدافهم البعيدة والغريبة، وما كل مرة تجني على نفسها براقش!!

والشيء بالشيء يذكر فإن الدعوة إلى هدم اللغة العربية، تشابه أيضًا الدعوة

التي يتزعمها بعضهم لتغريب الثقافة العربية أي جعلها ثقافة غربية!!

والواقع أن الثقافة لا قومية لها ولا وطن ولا حدود، ولكن ما اتخذوه مجرد ستار لدعوتهم.. وإلا فالمقصود هو طمس معالم الثقافة العربية والقضاء على التراث الفكري العربي والإسلامي، وإيجاد فجوة بين المسلم وتراثه الفكري حتى لا يجد فيه ذلك النبع الصافي الذي يحثه على مكارم الأخلاق وعلى التمسك بالدين.

إنها دعوات وشنشنات نعرفها من أخزم!!

البلاد في ١٣/٧/١٣٩٢هـ

عودة إلى سعيد عقل واللغة

قبل عام تقريبًا، كتبت مقالاً في هذه الجريدة بعنوان (عمالة سعيد عقل) استعرضت فيه أثر دعوة سعيد عقل إلى الكتابة بحرف لاتيني بل بحروف زائدة مبتكرة من عنديات سعيد عقل وفكره (المبدع!!)

وأشرت كذلك إلى خطر هذه الدعوة التي جسدها سعيد عقل في مطبعة ضخمة وحيدة من نوعها في العالم لأن حروفها وحيدة من نوعها فهي مزيج من اللاتينية و(السعقلية) نسبة إلى سعيد عقل.

وأصبحت هذه المطبعة تصدر الكثير من الكتب والدواوين الشعرية أيضًا بلغة عامية، وحرف لاتيني (سعقلي)!!

وقد تساءلت في مقالي ذاك. لمصلحة من يقوم سعيد عقل بكل هذا العمل؟

وكذلك أوردت تساؤل الأستاذ رجاء النقاش:

(أريد أن أسأل. من الذي يمول مطبعة سعيد عقل؟ ومن الذي يقف ماديًّا وراء هذا المشروع الكبير؟).

هل هي إمكانات سعيد عقل الخاصة؟

أن هذا بالطبع افتراض غير معقول وغير ممكن، ولا بد أن هناك (هيئة ما) تقف وراء هذا المشروع؟

فما هي طبيعة هذه الهيئة وما هي مصلحتها في ذلك.. ثم من هي الجماهير التي تقبل على هذه الكتب الكثيرة التي يصدرها سعيد عقل.. والتي يقدم منها طبعات متعددة؟؟

وقد أشرت كذلك إلى نص من محاضرة للدكتور يحيى الجبوري ضمن محاضرات رابطة العالم الإسلامي قال الدكتور الجبوري:

(وقد عثر الدكتور حسين الهراوي على تقرير سري لأحد المستشرقين يرشد فيه حكومته، ويوضح السياسة الاستعمارية في مقاومة الإسلام وسبيلهم الأول ـ كما يصرح ـ التقليل من أهمية اللغة العربية وصرف الناس عنها بإحياء اللهجات المحلية، واللغات العامية حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم، ويمكن بعد ذلك التغلب على عواطفهم الدينية، ويقرر المستشرقون في شماتة صليبية أن تركيا لم تعد بلدًا إسلاميًّا فإن قراءة القرآن العربي وكتب الشريعة الإسلامية قد أصبحت مستحيلة بعد استبدال الحروف العربية).

تلك هي أهم النقاط والنصوص التي أوردتها في مقالي السابق عن عمالة سعيد عقل.. وبينما كنت أتصفح بعض المجلدات القديمة من مجلة العربي عثرت على مقال للأستاذ عمر أسعد بعنوان (أحيا اليهود لغتهم الميتة، فأصبحوا دولة، وأضعنا لغتنا.. فكدنا نفقد شخصيتنا وقوميتنا).

وأورد صاحب المقال نَصًّا من كتاب (حاضر اللغة العربية في الشام) للأستاذ سعيد الأفغاني.. قال فيه:

(كان اليهود في مطلع هذا القرن مبعثرين في القارات الخمس، تتكلم جالياتهم لغات لا حصر لها، عرف علماؤهم أن لاسبيل إلى جمع كلمتهم إلا بلغة جامعة، فأخذوا أنفسهم جيلاً بعد جيل بإحياء العبرية القديمة الميتة، يتعلمونها إلى جانب لغة الشعب الذي ينزلون بلاده، فكان صنيعهم هذا الذي بدا للناس حينئذ نوعًا من الجنون والجمود وإضاعة الوقت، هو الذي خلق منهم أمّة ودولة وجامعة، انتزعت لها مقرًّا وسكنًا من أعز بلاد الناس الذين حباهم الله لغة جامعة لا مثيل لها في قوتها ورسوخها في الزمن والمكان بين جميع لغات الأرض، وليس في الأمر عجيب.. لقد آمن اليهود بأهدافهم وبلغتهم الميتة فأحبوها ولم يَدَعُوا فرصة لمشكك أو مستهزئ أو مزهد فنجحوا، وتهاونًّا بلغتنا الحية القوية فأهملنا السهر عليها وصيانتها فاندسّ إليها

اللصوص والعابثون فخسرنا من حيث نجح اليهود.. أنشأ اليهود بإحيائهم لغتهم الميتة دولة من العدم، وأضعنا بإغضائنا عن عبث العابثين بلغتنا أول مقومات أمّتنا، وما زال فينا من يتساءل على ملأ منَّا.. أنكتب بالفصحى.. أم بالعامية؟).

فإذا كان هذا هو شأن اللغة عند اليهود.. فكيف ينبغي أن يكون شأنها عندنا وهي لغة القرآن؟

اللهم إنك تعلم أن الفساد إنما يدب في أوصال أمتنا بسبب التسامح الذي يبديه رجالها ضد أمثال هذه الدعوات المريبة.

البلاد ١٣٩٣/٨/٢١هـ

سقطة يوسف إدريس!!

تابعت منذ أيام مع غيري من قراء جريدة الشرق الأوسط الحلقات الخمس أو الست ـ لم أعد أذكر ـ التي كانت أطول من ليل امرئ القيس.. والتي كتبها ونشرها على التوالي الكاتب المصري المعروف (يوسف إدريس) وكانت كل تلك الحلقات على طولها المفزع تحت عنوان (لماذا وكيف قابلت حسني مبارك) وهو عنوان ـ كما يلاحظ القارئ ـ يكفي لاستيعاب محتواه نصف عمود على الأكثر!!

أما كيف أصبح ذلك الموضوع ممكن النشر في سلسلة من الحلقات لا أول لها ولا آخر فذلك علمه فقط عند (يوسف بيه)!!

العنوان مجرد سؤال.. ولكن من شقين.. فأما الشق الأول (لماذا) فهو الشق الذي كنا ـ كقراء ـ ننتظر الإجابة عنه من (يوسف بيه) كلما فوجئنا في نهاية المقال الطويل العريض بأن له بقية غدًا.

وننتظر إلى الغد وما بعده لمدة خمسة أو ستة أيام على التوالي لنجد أن الأستاذ يوسف إدريس ما زال (يرك ويرغي) كل يوم حول الإجابة على الشق الثاني فقط من السؤال العنوان (كيف قابلت حسني مبارك؟).

أما الإجابة عن الشق الأساسي (لماذا؟) فقط انتظرناه حتى أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح!!

انتظرنا حتى وجدنا ما يثبت انتهاء الحلقات.. ولم نجد ما كان ينبغي أن يقوله يوسف إدريس.. اللهم غير جملتين أو ثلاثًا أو حتى أربع جمل غير مفيدة عن أولاده وأولاد الرئيس ـ حفظهم الله ورعاهم!!

اللهم.. إن يوسف إدريس اكتشف حقيقة كانت غائبة.. ولعلها لو لم تكن غائبة لكانت من عوامل وحدة الصف العربي!!

كانت تلك الحقيقة الغائبة هي أن عمر يوسف إدريس يتقارب كثيرًا مع عمر

سيادة الرئيس مبارك.. في الفرحة القراء!!

وأما غير هذه الحقيقة.. وغير مسألة (الأولاد) فليس في تلك الحلقات الطوال غير السقوط المفزع في براثن الزيف والملق.. وإفلاس الذات الأدبية من كرامتها!

ترى ماذا يريد يوسف إدريس!!؟؟

لقد نفى عن نفسه أنه كان يريد من مقابلة الرئيس أي منصب أو أي شيء لنفسه ولكن بعض النفي يؤكد الإثبات ـ كما يقول رجال القانون ـ وهو قد فشل حتى في درء التهمة عن نفسه فأثبتها!! ولم يقل شيئًا غير ذلك!!

وكل ما اتضح جليًّا من مقاله أنه وجد الساحة خالية فأراد أن يركب الموجة (والموقة تقري ورا الموقة عايزة تطولها) ولكنه نسي أنه لا يملك القدرة الهائلة التي يتمتع بها موسى صبري.. أو أنيس منصور مثلاً؟!.. مرة أخرى.. ماذا يريد يوسف إدريس؟

إننا بالطبع لا ننكر حقه في الطموح أو التطلع إلى الأفضل.. ولكننا ننكر بالطبع أن يكون محسوبًا على الأدب في مكانة رفيعة كل ذلك الزمن الماضي.. ثم فجأة يخذلنا ـ نحن قراء الأدب ـ كل هذا الخذلان في شخصه الكريم!!

إنني لا أتصور الرئيس حسني مبارك نفسه، وهو المقصود بالتزلف والملق إلا وقد اغتمّ ـ هذا أن كان قد قرأ ما قرأناه ليوسف إدريس ـ كل الاغتمام.. ولا أتصوره أيضًا إلا وهو يمط شفتيه مبديًا أسفه على ضياع ذلك الوقت الثمين في المقابلة إياها.

لا شك أننا في عصر (الصعود إلى الهاوية) حقًّا.

عكاظ ١٤٠٢/٢/٢٥هـ

سقطة يوسف إدريس أيضًا!!

قيل لأحدهم إن فلانا يأكل الموز بقشره.. فقال: وهل للموز أي قشر؟

فإذا كنت أنا في كلمتي المتواضعة التي نشرتها قبل أيام في هذه الجريدة عن (سقطة يوسف إدريس) قد أكلت الموز بقشره فإن الدكتور (يوسف إدريس) في رده المنشور بهذه الجريدة لم يكن يعرف أصلاً أن للموز قشرًا!! ولكن قبل أن ندخل بين (الموز وقشره) نريد - عودًا على بدء - أن نوضح الموقف منذ بدايته.

يوسف إدريس.. كاتب مصري معروف.. وبالذات كاتب قصة.. حقق شهرة طيبة ليس في مصر وحدها بل وفي بعض أنحاء العالم العربي، وأنا شخصيًّا أحد قرائه.. ويعلم الله أنني لم أكن سعيدًا بقراءته بقدر ما كنت سعيدًا لأنه لم يسقط في تلك الحفرة الهائلة التي سقط فيها عدد كبير من الكتاب المصريين في عهد الطيب الذكر (المرحوم) السادات!!

وكان مجرد عدم سقوط يوسف إدريس في تلك الحفرة يعتبر موقفًا أصيلاً وإيجابيًّا في حد ذاته، على أساس أن الصمت نفسه يعتبر موقفًا أو رأيًا ثالثًا في بعض الأحيان، أو في بعض الظروف المشابهة لظروف يوسف إدريس في عهد السادات!!

كنت أعرف هذا جيدًا وكان لا بد أن أدرك منه أن يوسف إدريس غير قابل للبيع - كما ذكر هو عن نفسه في رده - ولذلك كانت له في نفسي مكانة خاصة غير قابلة للبيع أيضًا!!

ولكن دارت الأيام.. حتى أهيل التراب على السادات - اللهم لا شماتة - في تلك الحفرة الهائلة نفسها التي حفرها ليدفن فيها كل كاتب مصري.. وكل شعب مصر.. وكل الأمّة العربية؟

ثم جاء الرئيس حسني مبارك.. وبدأنا نحن كقراء.. في العالم العربي نتطلع

إلى ما يكتبه إخواننا كتاب مصر وخاصة الشرفاء منهم لنلتمس عن طريقهم بعض ما ينبغي لنا معرفته عن الرئيس الجديد.

ومن هنا كان نهمي للقراءة بالغًا أشده عندما وقع نظري على عنوان عريض بجريدة الشرق الأوسط (لماذا وكيف قابلت حسني مبارك) بقلم يوسف إدريس.. فقد توقعت بالطبع أن أقرأ شيئًا يسرني أو يزيد من معرفتي الضئيلة وخاصة في معرض الإجابة عن (لماذا؟) وليس عن كيف!!

وإذا بي أقرأ مقالاً بلغ من طوله أنه كون خمس أو ست حلقات - لم أعد أذكر - وكنت في كل يوم من الأيام الخمسة أو الستة التي نشرت على مدارها الحلقات أريد أن أعرف لماذا قابل يوسف إدريس الرئيس حسني مبارك؟... وماذا قال كل منهما للآخر و... وإلى آخر ما هو متوقع من مقال بقلم يوسف إدريس وبعنوان (لماذا وكيف قابلت الرئيس حسني مبارك).

ولكن الواقع الذي فوجئت به وأذهلني حقًّا.. أن يوسف إدريس قد قال لنا كل شيء وكل صغيرة وكبيرة عن كيفية مقابلته لحسني مبارك.. ولم يكد يقول لنا شيئًا قط عن الموضوع الأساسي وهو (لماذا قابل الرئيس حسني مبارك؟).

ولم يكن هذا هو كل مأخذي على ما كتبه يوسف إدريس.. فقد كان يمكن اعتبار ذلك مجرد (غفلة) بسبب دهشة المقابلة!!

ولكن كان مأخذي.. بل انزعاجي الشديد من ذلك الملق والزيف وإفلاس الذات الأدبية من كرامتها وهذا هو في الواقع نص تعبيري في كلمتي السابقة.

وهذا هو - في الواقع أيضًا - الذي أغضب يوسف إدريس - وكان لا بد أن يغضبه ما دام لم يفقد الإحساس بعد - فكتب مقالته التي نشرت بعكاظ في عددها الصادر يوم الثلاثاء ٢٤/٣/١٤٠٢هـ يرد على كلمتي تلك.

ولكن ما كتبه يوسف إدريس لم يكن في الواقع - ردًا على كلمتي لأنه لم

يتناول موضوعها الأساسي بأي تعليق.. بل كان ما كتبه مجرد دفاع مُلْتَوٍ.. أو من خلف الأذن عن نفسه!!

عتب على شخصي الضعيف كزميل كريم - كما قال هو - وقال: إن كلمتي تحمل كمًّا من المرارة كفيلة بأن تحيل البحر الأحمر كله إلى بحر أسود - وهذا تعبيره هو.

وأنا أقول: نعم لقد عبرت عن أسفي وحسرتي على يوسف إدريس بمرارة شديدة حقًّا لأنه خذلني مع غيري من قرائه خذلانًا كبيرًا.. وبقدر الخذلان.. كان لا بد أن تكون المرارة وقال: (إنه غير قابل للبيع).. وأنا لو لم أكن أعتقد فيه ذلك أصلاً.. لما كانت خيبتي ولما كانت تلك المرارة التي ضاق بها.. ولو كنت أعرف - قبل ذلك - قابليته للبيع... هل كنت أقرأ له؟ ثم هل كنت أكتب عنه؟!

إن القابل للبيع.. أو المباع أصلاً.. لا نقرأ له هنا يا دكتور يوسف وبطبيعة الحال.. لا يمكن أن نذكره.. أو نكتب عنه!!

ولكن بدفاعك هذا بالذات.. تكاد تقول خذوني!!

وقال يوسف إدريس في دفاعه إنه ليس موسى صبري ولا هو أنيس منصور.. وإن حسني مبارك ليس هو السادات.. فهل - يا ترى - يظننا يوسف إدريس من الغفلة إلى هذا الحد؟

لقد قلت أنا نفسي في كلمتي السابقة ما معناه بوضوح أن يوسف إدريس لا يمكن أن يكون موسى صبري أو أنيس منصور.

هذه مسألة شهدنا لك بها يا دكتور.. قبل أن تشهد بها لنفسك.. والا إيه؟

أما أن حسني مبارك ليس هو السادات فهذه مسألة خارجة عن موضوعنا.. ومع ذلك لم يقل لنا يوسف إدريس كيف؟ خاصة وهو يتهمني شخصيًّا بأنني لا أفهم ولن أفهم ما يدور في مصر؟!

- هكذا - والواقع أنه من الجائز.. جدًّا بأنني لا أفهم ما يدور في مصر لأنه

صعب الفهم حقًا وأنا محدود الذكاء والفهم ولكن ليس إلى الحد الذي يمكن معه القول بأنني (لن أفهم).

إن معظم الحيوانات التي أتقارب معها في محدودية الفهم والإدراك أمكن لها أن تفهم وتدرك بمجرد أن أتيح لها أي قدر من أسباب الفهم والإدراك.. ولكنني أنا لم أجد في ست حلقات كتبها يوسف إدريس عن مصر ورئيس مصر أي قدر أو عون على الفهم والإدراك.. فإذا كان هذا هو حالي.. فكيف بمن هو أغبى مني؟.. ولا بد أن يكون هناك من هو أغبى مني.. أو تلك هي مواساتي لنفسي.

ويقول يوسف إدريس (إن صحافتنا في كل أنحاء العالم العربي مليئة بالمأجورين فهل كنت يومًا مأجورًا لأحد؟)

وأنا في الحقيقة لم أقل شيئًا من هذا على الإطلاق.. ولا يمكن أن يفهم مثل هذا المعني من ضمن كلامي بأي حال من الأحوال.. إلا أن يكون هو قد أخذها على هذا المحمل فذلك شأنه!!

وبعد فهذا هو كل ما قاله يوسف إدريس في رده وفي دفاعه عن نفسه.. أو هذا بالأصح هو أهم ما جاء في رده من نقاط.. وهي نقاط كما يرى القارئ - (ما تودي ولا تجيب)!!

أما غير المهم في رده - وكله كذلك تقريبًا - فهو إشارته في معرض عتبه على انتقادي له وهو زميل المهنة بكل تلك المرارة - كما يقول - إلى الراقصات!

قال: لا فض فوه: (إننا في مصر عندنا راقصات أحيانًا ما ينتقدن بعضهن البعض - بحكم الغيرة ولكنهن أبدًا لا يفعلن هذا بمثل تلك المرارة).

وأنا هنا لا أملك إلا أن أستريب في هذه المعلومات والتفاصيل الدقيقة عند يوسف إدريس عن الراقصات.. ولكن لعل عذره أنه اكتسب ذلك بحكم احتكاكه بمثل هذه الأوساط على أساس أن له قصصًا تحولت إلى أفلام.. والأفلام

المصرية لا بد لها من راقصات وهز وسط.. ومن هنا كانت معلومات يوسف إدريس عن الراقصات.. والا أيه؟

وهي معلومات تنقصني شأنها شأن ما أشار إليه يوسف إدريس بأنني لا أفهمه ولا يمكن أن أفهمه.. أما نقد زملاء المهنة فهو غير محظور ـ حسب علمي المتواضع ـ إلا أن يكون يوسف إدريس يريد أن نتعامل على طريقة (امسك لي واقطع لك)؟!

وأخيرًا.. وليس آخرًا.. أريد أن أذكّر نفسي ويوسف إدريس بالحديث النبوي الشريف: (من حام حول الحمى أوشك أن يرتع فيه)!!

عكاظ ١٤٠٢/٣/٣٠هـ


أدب وأدباء

مقدمة

هذا كتاب عنوانه (أدب وأدباء).. وهو عنوان يدل بكل بساطة على المحتوى، موضوعات أدبية كتبت في تواريخ مختلفة، ومناسبات شتى مع غير قليل من (أدب الإخوانيات) الذي هو أدب الدعابة والملاطفات بين الأدباء بعضهم البعض بمناسبة أو أخرى.

ولقد كان لي بعض النصيب من هذه المداعبات والملاطفات مع غير قليل من أدبائنا، سواء عن طريق المراسلات أو الرسائل، وهو ما سأنشر بعضه - إن شاء الله - في كتاب مستقل، عنوانه (من أدب الرسائل).

أما ما نشرته هنا فهو مختارات يسيرة من هذا النوع من أدب الدعابة والملاطفات و(الملاحظات) أيضًا.. وكل ذلك عبارة عن مجموعة من المقالات كتبتها أنا أو كتبها غيري، ولكني كنت السبب في دفعه لكتابتها.

وما يخجلني هنا أنني قد اضطررت لنشر هذه المقالات للغير بكاملها (وهي ثلاثة مقالات فحسب)، حفاظا على النص الأصلي، رغم وجود بعض الثناء على شخصي الضعيف هنا أو هناك في هذه المقالات الثلاثة.

ويعلم الله أنني ما كنت لأنشر الثناء على نفسي في كتاب يحمل اسمي، لولا أن الثناء لم يكن هدفا في ذاته وإنما جاء ضمن موضوعات أدبية، لا يمكن فصلها عنها، ولا يمكن حذف الثناء وإبقاء الموضوع الأدبي لأن ذلك معناه بتر الموضوع فضلا عن كونه عدم أمانة في نقل النص.. فإذا كان ما نقلته في هذا الكتاب من ثناء على شخصي يعتبر كفرًا أدبيا.. فإنني أقول:

(إن ناقل الكفر ليس بكافر)!!

بيد أن الكتاب ليس كله ثناء في ثناء.. بل إن الثناء - وهو مصدر اعتزازي - ليس غير أيسر وأهون ما في الكتاب.. أما سائر مادته فهي من الأدب الخالص بصرف النظر عن مدى جودة هذا الأدب أو عدم جودته.. فذلك ليس من شأني.. بل هو من شأن القراء والنقاد!!

وأغلب ظني أن هذا الكتاب لا يمكن أن يخلو من حسنات بجانب - ما لا بد قد اعتورته من سيئات - أو أنه لا يخلو من حسنة واحدة صغيرة، وهو أنه يعكس في موضوعاته بعض الملامح الأدبية التي كانت سائدة وقت نشر كل موضوع من موضوعات هذا الكتاب بسبب تفاوت تواريخ النشر.

ولذلك حرصت على إثبات تاريخ نشر كل موضوع في نهايته ليستطيع القارئ أو الناقد أن يضع النص في ظرف العصر الذي نشر فيه، أو المناسبة التي كتب فيها.

وليس عندي ما أقوله غير ذلك.. والسلام.

١/٥/١٤٠٣هـ

مع الأستاذ الربيع

كانت تربطني بالصديق الأستاذ الناقد الكبير (عبدالعزيز الربيع) - رحمه الله وغفر له - روابط قوية جدًّا من صادق الود، ومحض الوفاء، وخالص المحبة كأنما عنانا الشاعر بقوله: (أدب أقمناه مقام الوالد).

وقد سنحت له فرصة طيبة لمداعبتي على صفحات الصحف بعد أن كانت المداعبات بيننا على مستوى المجالس فحسب.. بل سنحت له الفرصة ليعرب عن مشاعره الكريمة الفياضة تجاه شخصي الضعيف.

كنت أكتب زاوية يومية في البلاد تحت عنوان (على الماشي) فاستشهدت مرة بالبيت الشهير:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

ونسبته تسرعا إلى أبي العلاء بينما هو لأبي العتاهية.. فلم ألبث غير أيام، وإذا بي أفاجأ في عكاظ بالمقال الرائع التالي نصه، ويليه ردي عليه:

بين أبي العتاهية وأبي العلاء

صديقي الأستاذ علي العمير أديب بارع وصحفي لامع فهو قد جمع في براعة ليست غريبة عليه بين الأدب والصحافة وإن كان يبدو أن الصحافة قد أخـــذت تسـتـأثر بجهده ونشـــاطه وذلك شيء طـبـيـعـي فهو يعيش أيامه ولياليه في دوامة الصحـــافة التي تلفه بعـــنف فلا تكـــاد تـتـرك له وقـــتـا يفـــرغ فيه إلى قـــــراءة كتاب أو إعـــداد بحث أو ممارســـة هـــوايته في المناوشة أو المناقشة!!

وهو بعد ذلك أو قبل ذلك أو مع ذلك كاتب خفيف الروح عذب الكلمة رشيق الأسلوب ولكنه شديد الأسر عنيف الخصومة يضرب بلسانه أرنبة أنفه!

وكم كان بِوُدّي لو خلص هذا الصديق الأديب من أسر الصحافة ليفرغ إلى إنعاش الحركة الأدبية بتعليقاته الذكية وتعقيباته الألمعية ووثباته الذهنية.

وما أشك في أن صديقي يود ذلك من كل قلبه ولكن هذا الدور الخطير يتطلب صفاء الذهن وفراغ البال وتوفر الإمكانات. وكل هذه الأمور غير متاحة لصديقي الأديب.

وهذا لا يعني أن صديقي الكاتب الأديب خاضع لظروفه مستسلم لها؛ فلديه من الطاقة ما يجعله قادرا على استخلاص وقت من وقته للقراءة الجادة والاطلاع المثمر وعنده من الذكاء والألمعية ما يوجد له الوسائل ويهيء أصلح الظروف لممارسة هواياته الأدبية والنفاذ إلى أسرار الشعراء والأدباء والباحثين لاستغلالها في تعريتهم والهجوم عليهم.

وخلاصة القول أن الأستاذ العمير أديب بارع وصحفي نابغ وقارئ من طراز فريد وصديق صادق الود عظيم الوفاء.

والأستاذ العمير واحد من القلة القليلة من كتابنا في الصحف اليومية ممن أُحِبُّ أن أقرأ لهم كل ما يكتبون.

وكضريبة لهذا الإعجاب فإنني أرجو أن يأذن لي الصديق الكريم في أن أتناول بين الفينة والفينة بعض ما يكتب مما أراه يستحق الإشادة والتعليق.

وقد كتب الصديق الأديب في إحدى (أسبوعياته) عن مشكلة الفراغ.. وأنا لا أريد أن أعرض لشيء مما ورد في مقاله عنها فذلك أمر لا يعنيني لأسباب لا يعني القارئ معرفتها، ولكن الذي يعنيني هنا هو أن أشير إلى خطأ أدبي وقع فيه الصديق الأديب ـ من غير قصد ـ فقد استشهد في مقاله بالبيت المشهور:

إن الشباب والفرغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

وبدلاً من أن ينسبه إلى قائله الحقيقي نسبه إلى شاعر آخر: لقد نسبه إلى فيلسوف المعرّة أبي العلاء المعري بينما الواقع أنه للشاعر الشهير (إسماعيل بن القاسم) المكنى بأبي العتاهية.

وهذا البيت من أرجوزته (ذات الأمثال) ويصفها بعض مؤرخي الأدب بأنها (من بدائع أبي العتاهية، ويقال إن فيها أربعة آلاف مثل) وقد لاقت هذه الأرجوزة استحسانًا كبيرًا من الأدباء ونقدة الشعر حتى ليقول (الجاحظ) في تعليقه على أحد أبياتها:

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب

يقول الجاحظ: في قول أبي العتاهية (روائح الجنة في الشباب) معنى كمعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير.

(وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه).

ومع أن كثيرا من شعر أبي العتاهية قد بقي محفوظًا إلى يومنا هذا، فإن أرجوزته قد عدا على أكثرها النسيان فلم يبق منها إلا ثلاثمائة وعشرون بيتا. وإذا لاحظنا أن كل بيت من الأبيات الباقية التي سلمت من الضياع يحتوي على مثل واحد كان معنى هذا أن عدد أبيات الأرجوزة أربعة آلاف بيت من الشعر وهو قدر كبير، كم وددت لو بقي إلى يومنا هذا، فهو في الواقع ثروة شعرية ضخمة. وبالرغم مما يبدو من مبالغة في عدد أبيات هذه الأرجوزة فإنني لا أستبعد أبدًا أن تكون قد تطاولت إلى ما بعد الألف من الأبيات بقليل أو كثير فأبو العتاهية أصيل الشاعرية سهل الأسلوب كثير الافتنان، حتى لقد وصفه نقاد الأدب وشيوخه بأنه (أشعر أهل هذا العصر) وقال عنه بعضهم: (إنه أشعر الجن والإنس).

ويقول عنه العلامة المبرد (كان إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية حسن الشعر قريب المأخذ لشعره ديباجة. ويخرج القول منه كمخرج النفس قوة وسهولة واقتدارًا).

ويروي مؤرخو عصره أنه كان يقول: (لو أردت أن أجعل كلامي كله شعرا لفعلت).

وهو قول يدل على قوة واقتدار وثقة بالنفس لا تُحد، ولكنه قد يوحي أيضًا بسهولة شعره سهولة قد تقربه إلى العامية وتجعله مجرد ألفاظ تافهة في قوالب من النظم.

إلا أن الواقع هو أن أبا العتاهية قادر في جميع أحواله على أن يبعث في شعره حرارة وحيوية وأن يجعل من هذا الشعر جسرًا يربط بين العامة وبين المثقفين ثقافة رفيعة فيلتقون على الإعجاب به والثناء عليه.

وليس أدل على ذلك من أرجوزته (ذات الأمثال) فمع أنها في ظاهرها أقرب إلى أن تكون شعرا تعليميا بسبب اختيار وزن الرجز قالبا لها وهو وزن حاول بعض النقاد أن يستبعده من الأوزان الشعرية بسبب ما فيه من ركود ورتابة.

وبسبب اهتمام الشاعر بجمع الأمثال في أرجوزته هذه وهو اهتمام من شأنه أن يحد من انطلاق الشاعر، ويحول دون تحليقه ولكن أبا العتاهية استطاع أن يضفي على أرجوزته غير قليل من رواء الفن وأن يرتفع بها إلى مستوى شعره.

ومما يذكر أن أبا العتاهية عرض للفراغ مرة أخرى في أرجوزته فقال:

ما أسرع البغي لكل باغ ... ورُبَّ ذي بغي من الفراغ

والمعنى الذي تضمّنه البيت معنى عميق جدير بالتأمل.

أما البيت الذي استشهد به صديقنا العمير فقد ورد في بعض الروايات هكذا:

علمت يا مجاشع بن مسعدة ... إن الشباب والفراغ والجدة

مفسدة للمرء أي مفسدة

وعلى الأستاذ العمير إرضاء للشاعر الذي ظلمه بأخذ بيته ونسبته إلى أبي العلاء أن يعرف الناس بصديق الشاعر: مجاشع بن مسعدة ولعله يهتدي إلى سر مجاشع هذا وإلى الأسباب التي دعت الشاعر إلى أن يتوجه إليه بهذا النصح.

وهل تربطه بالكاتب البليغ عمرو بن مسعدة أخوة أو قرابة أو نسب أم أن الأمر مجرد اتفاق في اسم الأب؟

وقد خطر لي لأول وهلة وأنا أقرأ بيت أبي العتاهية منسوبا إلى المعري تلك القصة التي يشير إليها القرآن الكريم في سورة (ص) ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾

وقد اشتهر كثير من أبيات العلاء في الحكمة على ألسنة الناس، أما أبو العتاهية فلم يشتهر من شعره غير هذا البيت المفرد فكانت نسبته إلى المعري أمرًا غير مستنكر.

ومع هذا فأنا لا أشك مطلقًا في أن الحاسة الأدبية عند صديقي العمير قادرة تماما على أن تميز بين حكمة أبي العتاهية وحكمة المعري، وبعبارة أدق إن الحاسة الأدبية لدى الأستاذ العمير قادرة على أن تميز بين الصياغتين لدى فيلسوف المعرة وحكيم الزهد.. ولكن الأستاذ العمير كان يعالج مسألة من وحي الساعة بأسلوب صحفي فلم يكن يعنيه المعري أو أبو العتاهية بقدر ما كان (مشغول) الذهن بالحديث عن مشكلة (الفراغ).

ولعل هذه القضية الأدبية تصلح مثالاً لما يمكن أن تجنيه الصحافة على الأدب.

وأمر أبي العتاهية يدعو إلى العجب فهو شاعر من شعراء عصر ازدهار الدولة العباسية، وهو من الطبقة الأولى بين شعراء عصره. وهو أحد ثلاثة يقول مؤرخو الأدب لا يستطاع الإحاطة بشعرهم لكثرته. وقد تفرد باتجاه خاص عن بقية نظرائه في جمهرة شعره، إذ حمل لواء الدعوة إلى مقاومة الترف ومكافحة الشهوات، والزهد في ملذات الدنيا وافتن في ذلك افتنانا عجيبا.

والواقع أن الدعوة التي حمل لواءها أبو العتاهية كانت دعوة ضرورية بعد ظهور كثير من الانحراف والتفسخ وارتفاع الأصوات التي تدعو إلى الاستهتار بالقيم والعبث بمكارم الأخلاق.

كان الناس في عصره بحاجة إلى من يذكّرهم فيحسن تذكيرهم وإلى من ينبههم إلى ما يعيشون فيه من وهم وخداع. وإلى من يلفتهم إلى الدار الآخرة.

ولكن الناس في عصره كان ضعيفا.. ربما لأن التيار المضاد كان عنيفا كما

يتراءى ذلك للباحث من أول وهلة ولكن بعض العارفين ببواطن الأمور يعزون ضعف أثر أبي العتاهية إلى سببين آخرين يعودان إلى ذاتية أبي العتاهية أو إلى أمور باطنية فيه نابعة منه. إذ يتهمون أبا العتاهية بأنه لم يكن صادقا في دعوته إلى الزهد؛ إذ كان يكنز الذهب والفضة في نفس الوقت الذي كان يحارب فيه الكانزين.

بل يذهب هؤلاء العارفون إلى أن دعوة أبي العتاهية إلى الزهد في الدنيا والرضا باليسير والقناعة بالقليل ليست دعوة صادرة عن إيمان صادق بالمبادئ التي ظل طول حياته يبشر بها ويدعو إليها، ولكنها صادرة عن حقد مدمر يأكل قلبه على الأغنياء وأرباب الثروة، ولذلك صمم على أن يجعل من شعره ملحمة حزينة تنغص على الناس حياتهم وتنكد عيشهم وتصبحهم بالمآسي والآلام وتمسيهم بألفاظ الخراب والدمار والمقت فلا يسوغ لهم شراب ولا يهنأ لهم بال ولا يهدأ لهم خافق ولا تكف لهم عبرة.

وهكذا فَقَدَ شِعُر أبي العتاهية الصدق ففقد العنصر الأساسي للشعر الأصيل، وكان لذلك أثره في انصراف الأدباء والباحثين عنه؛ فبينما نجد أن ما كتب عن نده ومعاصره والذي يسير في اتجاه مضاد لاتجاهه وهو الحسن بن هانئ، وبينما نجد أن ما كتب عن الحكيم الشاعر الفيلسوف الذي جاء بعده بكثير (المعري) فبينما نجد أن ما كتب عن أحدهما لو جمع لكوّن مكتبة له وزنها وقيمتها - لا نكاد نعثر على كتاب عن أبي العتاهية، ولم أجد في مكتبتي إلا كتابا واحدا عنه لم أقرأه بعد.

وقد لاقى شعره - فيما يظهر - رفضا في حياته وبعد مماته وما نسبة بيته (الفرد) إلى أبي العلاء - وإن كان سهوًا وعن غير قصد - إلا نوعًا من هذا الرفض نتيجة لعدم صدقه فيما كان يدعو إليه - كما يقول مؤرخو الأدب.

وإذا صح هذا الرأي فإنني أرى أن الشاعر لا بد وأنه كان صادقًا في حقده على المجتمع أو على طبقات منهُ وهذا سر ما في شعره من حرارة وحيوية رغم كل محاولات الرفض التي قوبل بها.

وقضية شعره بين الرفض والقبول تتطلب بحثا عميقا ربما فرغت له في مقبل الأيام - إن شاء الله.

أما بعد فقد كانت فكرة المقال في أساسها دعابة لصديقي العمير ولكنها تحولت - ولا أدري كيف - إلى بحث جاف ثقيل: وإذا كانت الصحافة تجني على الأدب، أفلا يكون المعقول أن يكون هذا المقال واحدًا من الشواهد على جناية الأدب على الصحافة؟

عكاظ ١٣٩٢/٧/٢٦هـ

بين أبي العتاهية وأبي العلاء

تمنيت أن أخطئ كل يوم مائة مرة على الأقل فأنسب بيتا من الشعر لأبي العتاهية إلى أبي العلاء.. ثم أظفر بمثل هذا التعليق الشائق الرائق، وبمثل هذا الثناء العطر الجم المستطاب الذي دبجه يراع صديقي الكبير الأستاذ عبدالعزيز الربيع في مقاله المنشور بجريدة عكاظ بتاريخ ٩٢/٧/٢٦ هـ تحت عنوان (بين أبي العتاهية وأبي العلاء).

فلقد حشد صديقي وأستاذي مقاله هذا بفيض من عواطفه النبيلة، ومشاعره الصادقة، ووفائه العظيم، وثنائه الجم على شخصي الضعيف.. فوالله ما أدري هل أتيه بالثناء.. أم أحتفل بتصحيحه للخطأ الذي وقعت فيه عندما نسبت في أحد أسبوعياتي بيتا لأبي العلاء المعري.. أم أعجب لهذا الاستطراد الرائع الذي حفل به مقال الصديق الأستاذ عن أبي العتاهية بالمناسبة؟!

لست أدرى من أي ذلك أعجب، ولكن الفضل من معدنه لا يستغرب، وأستاذنا الربيع معدن فضل، وجوهر كرم ونبل وشهامة وإخاء ووفاء[1] ووالله لولا أن يقال (يتقارظان الثناء) لكان لي من بين شقي هذا القلم، مندوحة في إنصافه، وميدانا رحبا للتنويه بفضله، وذكر ما هو له أهل، وبه جدير.

فأما ما خصنى به من الثناء فهو من بعض ما عنده - وهذا تعبير عامي ولكنه في محله - وأما ما أسبغه عليّ من صفات ومزايا فهو نبراسها المضيء، ونجمها المتلألئ ومنارتها الشامخة.. بل هو في كل ذلك وبذلك وغيره مهوى أفئدة الأصدقاء والأحباب، وفي حبة السويداء من قلوبهم.

---

(١) رحمه الله كان كذلك وأكثر - علم الله .

وإني لأقول ما قاله صاحبنا أبو العتاهية:

بلوت رجالا بعده في إخائهم فما ازددت إلا رغبة في إخائه

وكيف لا أزداد إلا رغبة في إخائه، وأنا أسير كرمه وفضله ووفائه؟ ووالله لو لم يكن منه إلا الصفاء والوفاء وحسن التعهد وقوة المنافحة، وطيب المعشر، وحلو الحديث لكان في ذلك فضل أي فضل.. فكيف وأفضاله علي أكثر من ذلك وأوفى، وأسمى من ذلك وأنبل؟

وتالله إنني لم أحفل في حياتي بثناء قط على شخصي الضعيف، قدر ما حفلت بهذا الثناء من صديقي وأستاذي الربيع، وقدر ما حفلت قبله بثناء عطر مستطاب من أستاذ جيلنا الشيخ حمد الجاسر في مجلة العرب، وقدر ما أتيه وأدل وأسحب أذيال الفخار والاعتزاز بما يبلغني من حسن ثناء شيخنا الأستاذ ضياء الدين رجب في مجالسه!!

وحق لي أن أتيه بكل ذلك، ولترغم أنف كل حاسد، فالثناء من مثل هؤلاء درة واسطة العقد، والكلمة من أمثالهم لا تقال جزافا.. بل توزن بأغلى الأثمان وأكرم المعادن.

وما أبالي بعد ذلك إلا أن أجهد نفسي في تقوية ما أعرفه وما لا أعرفه عن نفسي من ضعف وقصور وجهل.. فوالله ما رضيت عن نفسي قط إلا عندما أنظر إلى من هو دوني، ولا ينبغي لطالب علم وأدب أن ينظر إلى من هو دونه في ذلك، وإنما ينظر إلى من هو أعلى منه ليهتدي ويقتدي، ويتطلع ويتحفز.. فلا يعرف فضل أهل العلم والأدب إلا من اكتوى مثلي بنار الجهل، وشغف نفسه بحب المطالعة والنظر في الكتب.

ولكن أنى لي بذلك، وانشغالي بتأمين لقمة العيش لي ولأولادي تستغرق من وقتي ليلا ونهارًا بما لا يقاس مما يمكن أن يتاح لي لمطالعة كتاب.. أو بعض كتاب.

ولقد وضع أستاذي الربيع سنة قلمه على مدامل الجرح عندي، وهو الخبير بأحوالي عندما قال: (.. وإن كان يبدو أن الصحافة قد أخذت تستأثر بجهده ونشاطه وذلك شيء طبيعي فهو يعيش أيامه ولياليه في دوامة الصحافة التي تلفه بعنف فلا تكاد تترك له وقتا يفرغ فيه إلى قراءة كتاب أو إعداد بحث أو ممارسة هوايته في المناوشة أو المناقشة).

ولقد تمنى لي أفضل ما يتمنى الصديق لصديق عندما قال: (وكم كان بودي لو خلص هذا الصديق الأديب من أسر الصحافة ليفرغ إلى...).

ومكان الأصفار ثناء على شخصي لا أبيح لنفسي نقله بقلمي - فهيهات يا أستاذي الصديق أن أخلص من أسر الصحافة، وقد اتخذتها مهنة، وابنكم الصغير فوزي وإخوان له وأخوات كزغب القطا ينتظرون عودتي كل يوم وليلة أو يغلبهم النوم وأنا في المطابع، تارة أتلقى الأوامر، وأخرى أحرر الأخبار، وثالثة أصحح العناوين.. ثم لا أسلم مع كل جهد من مؤاخذة رئيس أو تهاون مرؤوس، أو كزازة زميل!!

ولا والله ما قصدت أن أضيف بعض همومي إلى همومك أيها الصديق الغالي، ولكنها نفثة مصدور، وبعض شكوى إلى ذي مروءة!!

فأما ما أشرت إليه أيها الصديق الكبير من خطئي بنسبة هذا البيت:

إن الشباب والفراغ والجدة ... مفسدة للمرء أي مفسدة

إلى أبي العلاء المعري بينما هو لأبي العتاهية.. فهو خطأ لاشك فيه، ولكن هل يستطيع قلمي هذا المتواضع أن يعتذر لي أكثر مما اعتذر قلمك البليغ عندما قلتم: (ومع هذا فأنا لا أشك مطلقًا في أن الحاسة الأدبية عند صديقي العمير أدق فإن الحاسة الأدبية لدى الأستاذ العمير قادرة على أن تميز بين الصياغتين لدى فيلسوف المعرة وحكيم الزهد، ولكن الأستاذ العمير كان

يعالج مسألة من وحي الساعة بأسلوب صحفي فلم يكن يعنيه المعري أو أبو العتاهية بقدر ما كان مشغول الذهن بالحديث عن مشكلة (الفراغ)!!

ولعل هذه القضية الأدبية تصلح مثالا لما يمكن أن تجنيه الصحافة على الأدب).

هل أجد عذرًا أبلغ وأسمى وأصدق وأنبل من ذلك، وإلا فإن صديقي الكبير على يقين أنني لا أجهل أن هذا البيت لأبي العتاهية وأنه من ضمن قصيدته (ذات الأمثال) ولكن ما بالك بسبق القلم وزحمة الصحافة وضيق الوقت وضجيج المطابع، وارتفاع صوت أستاذنا الشبكشي وهو يتميز غيظا وغضبا من تأخر الأخبار أو تأخر الصف أو كثرة الأخطاء أو غير ذلك من المشكلات.

وأنا يا سيدي أكتب معظم ما أكتبه في مثل هذا الجو الهادئ ولا هدوء يوم ينفخ في الصور!!

فأما ما ذكرتموه يا سيدي الكريم من أن ذلك يصلح مثالا لجناية الصحافة على الأدب.. فأنا أتمنى عليك أن تفرّق في مقال قادم - إن شاء الله - بين جناية الصحافة على الأدب، وبين جناية الصحافة على الأديب عندما يعمل صحفيّا، فجناية الصحافة على الأدب أمر تداولته الأقلام كثيرًا، ولكن جناية الصحافة على الذين تضطرهم ظروف المعيشة، وإلحاح الحاجة إلى ما يقيم الأود - أمر يحتاج إلى بحث وإلى تنويه وإلى إنصاف من أمثالكم.. فلعل وعسى!

ولقد داعبتني يا سيدي الكريم، مداعبة لطيفة آسرة، ولكنها شاقة عسيرة بالنسبة لمثلي مع ما تعرفه عن ظروفي عندما قلت في مقالك: (أما البيت الذي استشهد به صديقنا العمير فقد ورد في بعض الروايات هكذا:

علمت يا مجاشع بن مسعدة　　إن الشباب والفراغ والجدة

مفسدة للمرء أي مفسدة

وعلى الأستاذ العمير، إرضاء للشاعر الذي ظلمه بأخذ بيته ونسبته إلى أبي العلاء، أن يعرّف الناس بصديق الشاعر: مجاشع بن مسعدة، ولعله يهتدي إلى سر مجاشع هذا، وإلى الأسباب التي دعت الشاعر إلى أن يتوجه إليه بهذا النصح، وهل تربطه بالكاتب البليغ عمرو بن مسعدة أخوة أو قرابة أو نسب.. أم أن الأمر مجرد اتفاق في اسم الأب).

لقد داعتبني أيها الصديق الغالي هذه المداعبة القاسية وأنت تعلم جيدًا أنني لا أملك من وقتي فضالة تزيد عن حاجة الطاحونة إياها، ومع ذلك فقد جهدت في البحث عن (مجاشع بن مسعدة) هذا في الكثير من المظان التي أمكنني الرجوع إليها فلم أجده، رغم يقيني المسبق أو شبه يقيني أن الرواية من أساسها ضعيفة بل غير صحيحة لأنها ليست من نسق أرجوزة أبي العتاهية، ولأن صاحب الأغاني قد أورد في الجزء الثالث (ص ٢٧٢) بعض هذه الأرجوزة، وكان البيت الذي قبل البيت موضوع البحث هو:

من جعل النمام عينا هلكا مبلّغك الشر كباغيه لكا

ثم تلا ذلك قوله:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسده

ومن ذلك يتضح تماما أن النسق لا يستقيم مع الرواية التي أشرتم إليها وهي:

علمت يا مجاشع بن مسعدة إن الفراغ والشباب والجدة

مفسدة للمرء أي مفسدة

ولكن يبدو أن سبب هذه الرواية التي أشرتم إليها، هو أن أحد الأدباء، أو ربما الشاعر نفسه أراد أن يتظرف مع صديق له أو ينصحه، ولا بد أن يكون اسم هذا الصديق (مجاشع بن مسعدة) فقال له:

علمت يا مجاشع بن مسعدة إن الفراغ والشباب والجدة

مفسدة للمرء أي مفسدة

وفي كلمة (علمت) ما يدل على أن شطر (علمت يا مجاشع بن مسعدة) مقحم إقحاما على أرجوزة أبي العتاهية؛ إذ تدل كلمة (علمت) على أن البيت أسبق من هذا الشطر، وأن هذا الشطر مجرد مخاطبة للسيد (مجاشع بن مسعدة) الذي لا بد أنه قد غرق إلى أذنيه في (الشباب والفراغ والجدة) فكان (لا بد أن يفسد أي مفسدة).. ثم كان لا بد لصديقه سواء كان الشاعر أو غيره أن ينصحه فيقول:

علمت يا مجاشع بن مسعدة إن الفراغ والشباب والجد
مفسدة للمرء أي مفسدة

ثم لا بد أن قد سمع ذلك من سمع فرواه فتناقلته الكتب، وفي الكتب القديمة أشياء كثيرة من تحريف الرواة، وملابسات الروايات.

فأما (عمرو بن مسعدة) فهو معروف شهير غير منكر، كان وزيرا للمأمون، وأحد الكتّاب البلغاء (وكان مذهبه في الإنشاء الإيجاز واختيار الجزل من الألفاظ، وفي كتب الأدب كثير من رسائله وتوقيعاته، وكان جوادًا ممدحا فاضلا نبيلا).

«راجع عنه (الأعلام للزركلي) و(وفيات الأعيان لابن خلّكان) و(تاريخ بغداد) و(إرشاد الأديب) و(أمراء البيان) و(المرزباني).. كما أشار إلى ذلك صاحب كتاب (الأعلام) الأستاذ خير الدين الزركلي».

وقلتم يا أستاذنا الكريم: (ومع أن كثيرًا من شعر أبي العتاهية قد بقي محفوظا إلى يومنا هذا فإن أرجوزته قد عدا على أكثرها النسيان فلم يبق منها إلا ثلاثمائة وعشرون بيتًا.. إلخ).

والواقع أن الديوان المطبوع لأبي العتاهية ليس في حوزتي[1] ولكن لا أعتقد أن أرجوزته أربعة آلاف بيت والتي أشرتم إلى أنه لم يبق منها إلا ثلاثمائة وعشرون بيتا،

(١) عثرت بعد ذلك على ديوان أبي العتاهية ودراسة مستفيضة عنه.

وإن كنت أعلم أن يوسف بن عبدالله بن عبدالبر قد جمع (زهديات أبي العتاهية) في مجلد كبير، ولكن لا أعلم هل طبع أم لا؟

ولست أدري هل يليق بي أن أعيد إليكم (الكُرة) فأطالبكم بإيضاح ما إذا كانت البقية الباقية من أرجوزة أبي العتاهية مطبوعة أم لا؟ أم هل هي مخطوطة موجودة وأين توجد؟

ولا شك أن في سعة اطلاعكم وواسع علمكم ما يتيح لكم الإجابة عن ذلك - إن شاء الله.

وداعبتموني أيضًا يا أستاذي الكريم عندما أشرتم إلى أنه خطر لكم لأول وهلة، وأنتم تقرأون بيت أبي العتاهية منسوبًا إلى أبي العلاء (تلك القصة التي يشير إليها القرآن الكريم في سورة (ص) (إنّ هَذَا أخِي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ)

وقلتم أيضا:

(وقد اشتهر كثير من أبيات أبي العلاء في الحكمة على ألسنة الناس، أما أبو العتاهية فلم يشتهر من شعره غير هذا البيت المفرد فكانت نسبته إلى المعري أمرا غير مستنكر).

ولست أدري كيف لم يشر أستاذي الكريم إلى أن لشعر الحكمة والأمثال، وقعًا خاصًا في النفس العربية القارئة أو السامعة، وهوى يصادف قلوبًا خالية، ولذلك يتمكن منها أمثال شعر أبي العلاء والمتنبي وغيرهما.

فأما شعر الزهد الذي اشتهر به أو أراد أن يشتهر به صاحبنا أبو العتاهية فإنه لا يستهوي التذوق العربي في جاهليته أو إسلاميه، فالإسلام وإن كان يحث على الزهد في مواضع.. فإنه يحث على العمل والكسب المشروع في مواضع أكثر، و(المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف) و(أعدُّوا لهم مّاسْتطعتم من قُوَّة) و(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا).

وكل ذلك وغيره كثير جدًا في النصوص الإسلامية التي لا يتسنى العمل بها إلا بالعمل الجاد والكسب المشروع.. فليس إذن في تاريخ العربي وبيئته وتفكيره ودينه ما يحثه على الزهد أو الرهبنة إلا في مواقف قليلة ومحدودة جدًا.. فلا بد أن يكون الزهد أبعد ما يكون عن أغراض الشعر العربي.. فيكف إذا كان الشاعر الذي يدعو إلى الزهد مثل أبي العتاهية مجرد مولى من الموالي ثم هو من كنزة الذهب والفضة كما هو ثابت عنه في كتب التاريخ والأدب العربي.. وأخباره في كتاب الأغاني وغيره من هذا القبيل مخزية مزرية!

وقلتم يا أستاذنا الكريم:

«ويروي مؤرخو عصره أنه كان يقول ـ تقصدون أبا العتاهية ـ (لو أردت أن أجعل كلامي كله شعرًا لفعلت) وعلّقتم على ذلك: (وهو قول يدل على قوة واقتدار وثقة بالنفس لا تحد، ولكنه قد يوحي أيضًا بسهولة شعره، سهولة قد تقربه إلى العامية وتجعله مجرد ألفاظ تافهة في قوالب من النظم».

والواقع أن ما أشرتم إليه بهذه الصفة العابرة أكثر من صحيح وواقع بالنسبة لأبي العتاهية، وقد نعت في كتاب الأغاني بأنه: (قريب المأخذ لشعره ديباجة، ويخرج القول منه كمخرج النفس قوة وسهولة. واقتدارًا).

ولكن الحقيقة أنه كان يستهين بالشعر العربي كثيرًا ـ ولا ننسى أنه مولى وعاش في عصر كان فيه الفَتّ في عضد العرب أمرًا ميسورًا ـ ، فاجتهد ما وسعه أن يقول أن الشعر العربي ـ وهو ديوان العرب وفخرهم ـ من الأشياء السهلة الميسورة، وذلك هو ما أشرتم إليه من قوله: (لو أردت أن أجعل كلامي كله شعرا لفعلت).. فكأنه يقول: هذا وأنا مولى من موالي العرب؟!

وأمثال ذلك من استهانته بالشعر العربي واستهجانه له مما هو مثبت في أخباره التي حفظتها لنا كتب الأدب العربي، ومن ذلك ـ كمجرد مثال، ولو

أردت أن أطيل لأطلت - ما أورده صاحب الأغاني (ج٣ - ص ٢٧٩) قال: (قال أبو العتاهية: أكثر الناس يتكلمون بالشعر وهم لا يعلمون، ولو أحسنوا تأليفه كانوا شعراء كلهم، قال: فبينما نحن كذلك إذ قال رجل لآخر عليه مسح: (يا صاحب المسح تبيع المسحا)، فقال لنا أبو العتاهية: هذا من ذلك، ألم تسمعوه يقول: (يا صاحب المسح تبيع المسحا)؟ قد قال شعرا وهو لا يعلم، ثم قال الرجل: (تعال إن كنت تريد الربحا) فقال أبو العتاهية: وقد أجاز المصراع بمصراع آخر وهو لا يعلم، قال له: (تعال إن كنت تريد الربحا).

وهذه الرواية - كما قلت - مجرد مثل، وإلا فإن غيرها كثير مما يدل على استهانة واحتقار أبي العتاهية للشعر العربي، وقد ظن بما أوتيه من استطاعة على نظم القوافي والأوزان أنه قد ملك ناصية الشعر العربي، وأنه لذلك سهل حتى على بائع (المسح)!

ولقد تنبه لذلك وأمثاله (مسلم بن الوليد الأنصاري) (حين اجتمع به - أي بأبي العتاهية) في بعض المجالس، فجرى بينهما كلام، فقال له مسلم: والله لو كنت أرضى أن أقول مثلك:

الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك

لبيك إن الملك لك

لقلت في اليوم عشرة آلاف بيت، ولكني أقول:

موف على مهج في يوم ذي رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل

ينال من الرفق ما يعيا الرجال به كالموت مستعجلاً يأتي على مهل

يكسو السيوف نفوس الناكثين به ويجعل الهام تيجان القنا الذبل

ولاشك أن مثل أبي العتاهية لا يجهل كل ذلك، ولكنه قد أوتي قدرة على

النظم، ولا يخلو أيضا من شاعرية، وإن كانت نادرة، ربما لاستخفافه بأغراض الشعر العربي.. بل بالشعر العربي نفسه.

بل ما لنا نذهب بعيدًا، ولا نستشهد برأي أبي العتاهية نفسه في شعره (الأغاني ج ٣ ص ٣١٠):

(حدثنى ابن الأبيض قال: أتيت أبا العتاهية فقلت له: إني رجل أقول الشعر في الزهد، ولي فيه أشعار كثيرة، وهو مذهب أستحسنه، لأني أرجو أن لا آثم فيه، وسمعت شعرك في هذا المعنى، فأحببت أن أستزيد منه، فأحب أن تنشدني من جيد ما قلت، فقال: اعلم أن ما قلته - يقصد نفسه - رديء، قلت: وكيف؟ قال: لأن الشعر ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين، أو مثل شعر بشار وابن هرمة.. إلخ).

فهو إذن - أي صاحبنا أبي العتاهية - يعرف تماما أن الشعر العربي ليس من نوع هذره ولغوه، ولا من نوع (يا صاحب المسح تبيع المسحا)، وإنما هو شيء في أشعار المتقدمين، وفي أشعار بعض معاصريه من أمثال بشار وابن هرمة.

أما هو في (زهدياته) فيعرف أنه يكذب، وأنه ينظم الأمثال نظما - لا شعرًا - وأنه يتكلف لكل ذلك، ويعرف أنه في سائر شعره إما مستجدٍ ذليل من مثل قوله:

نعل بعثت بها ليلبسها قرم بها يمشي إلى المجد

لو كان يصلح أن أشركها خدي جعلت شراكها خدي

وإما يفاكه وينظم في أغراض ساقطة ليست من الشعر أو الحكمة أو الزهد في شيء، ومن ذلك أنه صار مرة إلى معاصره الشاعر (سلم الخاسر) - على خسارته في بيعه المصحف بالطنبور - فقال له: (حئتك زائرًا) فرد عليه سلم الخاسر: مقبول منك ومشكور أنت عليه.. إلخ (ج ٣ ص ٣٣٣ الأغاني).

فقال أبو العتاهية: دعني من هذا واسمع مني أبياتا، فقال له (سلم الخاسر) هات فأنشدني.

فأنشده أبياتًا (لا داعي لذكرها هنا) ثم قال له: كيف رأيتها؟ فقال له: لقد جودتها لولا أن ألفاظها سوقية، فقال: والله ما يرغبني فيها إلا الذي زهدك فيها).

هذا وأمثاله من الأشياء التي أشرت إليها، ومن الأشياء التي لا أستطيع الإحاطة بها في هذا المقال السريع المتواضع، الذي أكتبه وأنا على عجلة وقهر من أمري في شأن وقتي، والذي وصلت إلى هذا الحد منه أي مقالي في الوقت الذي تطل فيه أخت (يوشع) بأشعتها، وقد قضيت أكثر من ثلثي ليلتي في المطبعة، وبقيتها في كتابة هذا المقال!

قلت: هذا وأمثاله من الأشياء التي أشرت إليها والتي لم أشر إليها، من أسباب سقوط شعر أبي العتاهية، لأنه كان فاسد النية، ساقط الهمة، سوقي الألفاظ، ولذلك كله ليس غريبا، ولا مستنكرًا، ولا مستبعدًا، أن يسبق القلم، أو يغفو الخاطر فينسب بيتًا فردًا له من نهج ونسق فيلسوف المعرة أبي العلاء المعري إلى أبي العلاء المعري نفسه، فذلك - كما يقول أستاذنا الربيع - (أمر غير مستنكر).

وبعد: فقد أشار أستاذنا الربيع في نهاية مقاله إلى أن شعر أبي العتاهية قد لاقى (رفضًا في حياته وبعد مماته).

ثم قال: (وما نسبة بيته (الفرد) إلى أبي العلاء - وإن كان سهوا وعن غير قصد - إلا نوعا من هذا الرفض، نتيجة لعدم صدقه فيما كان يدعو إليه، كما يقول مؤرخو الأدب.

وإذا صح هذا الرأي فإنني أرى أن الشاعر لا بد وأنه كان صادقا في حقده على المجتمع أو على طبقات منه، وهذا سر ما في شعره من حرارة وحيوية رغم كل محاولات الرفض التي قوبل بها).

أي سر أم أية حرارة أو حيوية في شعر أبي العتاهية يا أستاذي الكريم؟!

قد تحتج إذا شئت - ولا أظنك تتعنت بالحجج الأدبية الواهية على صديقك

وتلميذك - فتقول: إن أبا العتاهية كان من المقدمين والمقربين والمفضلين من شعراء عصره.

ولكن هل يعقل أن ننسى أن أبا العتاهية وأمثاله في عصره إنما كانوا يقربون ويقدمون ويفضلون لأمثال قول أبي العتاهية نفسه:

نعل بعثت بها ليلبسها قرم بها يمشي إلى المجد

لو كان يصلح أن أشركها خدي، جعلت شراكها خدي

فأي سر أم أية حرارة في شعر أبي العتاهية يا سيدي الكريم؟

وهل مثل هذا مما يجعل أبا العتاهية، في نظر الذوق الفني الأدبي من الشعراء؟

لا والله، ولكنها أيام خلت، وأسأل الله أن تكون أيامنا عامرة بالذوق والفن والجمال!

عكاظ ١٣٩٢/٨/٥هـ

مع معالي
الأستاذ محمد عمر توفيق

كنت أشرف على صفحة (أدب وأدباء) في جريدة البلاد، وكنت أحاول جاهدًا رفع مستواها باستقطاب الأقلام البارزة للكتابة فيها.. وكانت لي أساليب شتى في مسألة الاستقطاب هذه.. فالكاتب الذي لا أستطيع أو لا أفلح في إقناعه بالكتابة للصفحة الأدبية التي أشرف عليها ألجأ إلى أسلوب (جر الشَّكل) فأنشر خبرًا مثيرًا، أو رسالة استفزازية.. أو نحو ذلك من الأساليب.

وحكاية الرسالة الاستفزازية هي التي طبقتها مع أستاذنا الكريم محمد عمر توفيق، وكان حينئذ وزيرا للمواصلات، وكنت على يقين بأنني لن أستطيع إقناعه بالكتابة لصفحتي وسط زحمة مشاغله.. فكتبت له الرسالة الاستفزازية التالي نصها، ونشرتها في صفحة الأدب نفسها.. وها هي الرسالة بالنص..

رسالة إلى محمد عمر توفيق

صاحب المعالي الأستاذ محمد عمر توفيق..

كنت البارحة في ذكرك أو في سيرتك مع - ما غيره - الأستاذ عبدالمجيد شبكشي، أو الأستاذ رئيس التحرير، أو كما ندعوه نحن في جهاز التحرير (الوالد).

ذكرتك فذكرت (الذكرى) وأنا رجل أحرر هذه الأيام، صفحة الأدب والأدباء، ومن ثم تداعت الذكريات فكانت مناسبة لتوجيه هذه الرسالة إليك.

والواقع أن الرسالة كما أردتها منذ البداية موجهة ليس إلى صاحب المعالي الوزير محمد عمر توفيق، فليس عندي أدنى مشكلة أو قضية في المواصلات، وإنما هي - أي الرسالة - موجهة إلى (الأديب) الأستاذ محمد عمر توفيق. ولكن وجدت أن لا بد من ذكر اللقب الرسمي (صاحب المعالي) قبل لقب (الأستاذ) ليس فقط للمحافظة على اللياقة واللباقة.. بل لأن ذلك هو الواقع.

وهذا الواقع يجعلنا أمام شخصين في إهاب واحد.

الشخص الأول هو صاحب المعالي الوزير، وهذا مع إجلالنا له - لا علاقة لنا به في هذه الصفحة.

والشخص الثاني (الأديب الأستاذ) وهذا صديقنا وصاحبنا وأستاذنا وزميلنا[1]، بل وحبيبنا أيضًا - كما يعلم الله.

ولكن في إهاب ومسؤوليات (صاحب المعالي) فلم نعد نظفر منه بكلمة شائقة

(١) كان معإليه زميلنا في جريدة البلاد قبل توليه الوزارة.

رائقة مجنحة ولو من قبيل الـ (ذكرى)[١].

وهكذا حتى أصبح كتابه (طه حسين والشيخان) مجرد (ذكرى).

أما صاحب المعالي الوزير فنشاطه واضح ملموس، و(نظافته) لا غبار عليها، وذكره على ألسن الناس بما يذكر به أمثاله كل يوم.

أي سيدي الوزير الأديب.

ألا ترى معي أن معالي الوزير محمد عمر توفيق قد ظلم الأديب الأستاذ محمد عمر توفيق؟

إن الأول قد استأثر بكل الوقت والأضواء والمجد والعمل الجاد المثمر، ولم يترك فرصة قط للثاني أن يمارس أقل وسائل إثبات الذات.. أو (ذكراها) على الأقل.

وهذا ظلم فادح لا شك فيه.

وأعيذك يا معالي الوزير، أن تنتهز فرصة ذكر (الظلم) فتستشهد لصالحك بقول المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

فهذه مقالة شاعر لا يعلم إلا الله أية ظروف نفسية كان يعانيها عندما قال هذا؟ فنستغفر الله لنا وله ولسائر المسلمين أجمعين.

أي سيدي الوزير الأديب.

خلاصة القول وقصاراه والغاية منه هو الشفاعة عند شخصك صاحب المعالي الوزير أن يرفق بشخصك الثاني الأديب، وأن يحترم له قدر الأسبقية، على الأقل يتركه

---

(١) (ذكرى)، كان عنوان زاوية يومية يكتبها معإليه لجريدة البلاد.

ليأخذ نفسًا أو هنيهات يثوب فيها إلى كتابه وقلمه فنظفر نحن - على قلتنا في هذه الصفحة - بأيسر ما يظفر به كل مواطن من وزارة المواصلات.

والسلام ختام..

البلاد ١٥/٣/١٣٩٤هـ

وما إن نشرت هذه الرسالة حتى كان لي ما توقعته حيث وافاني البريد بعد فترة يسيرة بالمقال المطول التالي نصه، وكان بعنوان (معالي الوزير).

وقد عقبت عليه بمقال مطول بعنوان (معالي الوزير أيضا) وكنت أقصد الاستفزاز أيضًا، ولكني لم أفلح.. فقد أدرك معاليه (اللعبة) - فيما يبدو.

وفيما يلي نص مقال معاليه، ثم نص مقالي أيضًا:

معـــالي الـوزيـــر

بقلم الأستاذ: محمد عمر توفيق

هل أستطيع أن أكتب ما أحب؟

وعلى طريقة (سقراط) في الإجابة على السؤال بسؤال:

هل في وسع أحد أن يعيش دائمًا كما يحب؟ إننا نرغب أولاً.. وقد تتلاشى الرغبة برغبة أخرى أو بالفراغ إلى حين من كل رغبة.. وقد تستمر وتتحول إلى عاطفة معينة هي الحب.. أي إلى رغبة أقوى تسخر إرادتنا لتحقيقها إذا استطعنا.

وما أيسر الرغبة وحركتها في النفس وعلى اختلاف ما نرغبه بين الليل والنهار، ثم يذهب ما لا نستطيع أن نريده إلى الأعماق ويظل على السطح ما يمكن ويستطاع.. وقد لا يتحقق إذا أردناه وإنما يتحقق شيء نكرهه أو شيء لم يكن في الرغبة والحسبان، وقد يتحقق ولكن الرغبة تمله وتتطلع إلى سواه.. ويدفعنا قانون الملل إلى معاناة أحلام جديدة.

وهكذا يبدو أن الإنسان تحكمه عوامل أقوى من رغبته ثم من إرادته ـ إذا تحولت الرغبة إلى إرادة أو إلى ورقة عمل كما يقال!

وهناك التفاصيل الكثيرة التي تصور عجز الإنسان عن تحقيق أتفه الرغبات في دنيا الضرورات قبل الكماليات.. ويبدو الإنسان في مواجهة هذا العجز واحدًا من اثنين:

إما ساخط يكتم السخط أو يعلنه في مواجهة واقع الحياة:

وإما راض قرير النفس والعين بوقائع حياته دائمًا كما لو كانت هي التي رغبها وأرادها أصلاً!

ربما كان في الناس من يستوي عنده الحلو والمر والأدنى والأعلى لأنه يعيشه في طاقة محدودة من الشعور بالحياة، فهو لا يرغب وبالتالي لا يريد شيئًا معينًا ويرضيه الواقع كيفما اتفق.. ولعل هذا هو الطراز المشار إليه في قول المتنبي (وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم).

إنه طـــراز أقرب إلى الحــيواني يحــتـويه الناس، وإن بدا الخـــروف - مثلا - في طمأنينة يغبط عليها وهو يعالج البرسيم والجزار يشحذ المدية ليذبحه في هذه الأثناء!

غير أن المثل العالي هو أن يعيش الإنسان نفس الطمأنينة لا كما يعيشها أخو الجهالة أو الحيوان؛ بل كما يعيشها أخو الزهادة أو الفلسفة وبأسلوب من يقول: سأعيش راضياء أو ساخطًا فيما حصل لا فيما أردته ولم يحصل.. والسخط هو الشقاء بعينه فلماذا أفضل جحيمه على جنة الرضى؟ ولماذا أبيع الطمأنينة بالقلق؟

إنه مثل عالٍ يلوح سهلاً على الورق واللسان ثم يتعذر تطبيقه كلما فشل أحدنا في تحقيق أتفه الرغبات أو أحسنها.. وقد يتظاهر بما تيسر من السخر والضحك والفلسفة وبأن كل شيء على ما يرام، ولكنه يظل في الأغلب يداري ما يعانيه بعيدًا عن ملاحظة الآخرين بينما المطلوب - كمثل عال - هو أن تخلص النفس من نفاق كهذا إلى وجدان ملؤه اليقين والطمأنينة لأي واقع كان ويكون.. وكأنه أحلى الأماني وأطيب الأحلام!

وحول شيء كهذا تدور فلسفة (ديل كارنيجي) وغيره ممن يحاولون ترويض الأجيال على السعادة ومحاربة القلق!

على أن المبادئ القديمة المبعثرة في كلمات مضغوطة من الشعر والنثر تختصر فلسفة هؤلاء ومؤلفاتهم الكثيرة في هذا المضمار.

وعلى سبيل المثال قول بعض العارفين: (إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون)،

إنها قاعدة تختصر ما بشرت به تلك الفلسفة والمؤلفات ضد القلق؛ فما يشقى بالحرمان من يضع في حسبانه دائمًا أن ما يريده قد لا يكون وأن منتهى المراد هو ما كان لا ما قد أراده ولم يكن!

إنها مثالية تبدو كالسهل الممتنع في ممارسة الحياة.. وهنالك أقوال أخرى مأثورة عن الأنبياء والصالحين والفلاسفة والشعراء والكتاب.. فيها خلاصات موجزة لكل ما بشر ويبشر به دعاة الطمأنينة في كل مكان وزمان.

وهناك القرآن الكريم من قبل ومن بعد.. فيه خلاصة الخلاصات التي تهدي إلى الخير وإلى السلوك الأمثل بين مفارقات الحياة وفي كل أحوالها ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى:

﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾.

لكن هذا حسبنا عندما يحدث لأحدنا ما يكره فما أجدره بأن يسعده ما حدث وهو يتصور احتمال الخير فيه ولا ينبغي أن يكرهه حينئذ كما لا ينبغي أن يحبه كل الحب إذا جاء طبق رغبته ومشتهاه لاحتمال الشر فيه وهذا يعني توازن الإنسان ومشاعره بين الخيال والواقع وبين الحب والكره والشقاء والسعادة وبين الخير والشر عمومًا في هذه الحياة.

وما أنا بصدد بحث كهذا حول مقومات الحياة.. وكيف ينبغي أن يكون الشعور الإنساني بها وبين مفارقاتها ولكنني انطلقت أول المقال من التساؤل عما إذا كان في وسعي أن أكتب كما أحب؟

وينبغي أن أذكر هنا - وقد طال الكلام على غير ما توقعت - أن الكاتب الصاعد (علي العمير) هو الذي جرني إلى كل هذه الثرثرة التي قد يضيق القراء ذرعا بها فما أكثر ما يقرأون أو لا يقرأون مثلها كل يوم!

لقد وجه على صحيفة (البلاد) منذ بضعة شهور خطابًا إلى (الأديب) في شخصي لا إلى (معالي الوزير) فهذا - على حد تعبيره - قد ظلم ذلك (واستأثر

بكل الوقت والأضواء والمجد والعمل) إلى آخر ما قاله عن (الأديب المظلوم الذي لم يعد يجد وقتا لإثبات الذات أو ذكراها على الأقل).

ويتلمس آخر الأمر من شخص (معالي الوزير) أن يرفق بشخص (الأديب) وأن يحترم له قدر الأسبقية فيتركه ليأخذ نفسًا ولو هنيهات يثوب فيها إلى كتابه أو قلمه!! إلى آخر ما قاله.

ولقد أحسست ما يشبه الدغدغة لتفقّد أدبيّ كهذا من زميل في المهنة وفي الوظيفة قبل المهنة وبعدها فقد كان يوما ما موظفا في وزارة المواصلات فهو ذو علاقة بالشخصين على كل حال!

ولكن هل هما (شخصان) حقًّا؟ وهل يمكن الفصل بينهما فلا يتأثر أحدهما بالآخر أو يؤثر فيه؟!

وفكرت بجد وعلى ضوء علم النفس في ازدواج الشخصية وما قد يكون منه مرضا يعالجه أو لا يعالجه أطباء النفس.. وفكرت بعيدا عن هذا مستعيذًا بالله منه في تعدد الشخصيات وانقسامها وإمكان عزل بعضها عن بعض ومعايشة البعض المرغوب دون الأبعاض الأخرى بحسب الظروف والتجليات!

البعض الرسمي مثلاً - وهو شيء كالظل يتبع (الوزير) أو يتبع ظلاً آخر يسمى (معالي الوزير) وإن كنت لا أدري متى وكيف وجد في التاريخ ظل أو إطار كهذا يلوح فيه حامل أثقال أو غير أثقال بشيء كالأبهة والوقار.

هذا البعض الرسمي مطلوب أن يختفي كلما سرد أحدهم قصة مرت به أو بغيره.. موكدًا - لأكثر من مرة - أنها لعلمي الشخصي لا الرسمي.

وأهز رأسي بمعنى الموافقة أول الأمر كانصياع تلقائي لفكرة تعدد الشخصيات حسبما قيل ويقال.. ثم أتبين خطورة القصة وعلاقتها الواضحة بالبعض الرسمي إياه فكيف يمكن التظاهر بأنه لم يسمع شيئًا يستحق الذكر؟

ومن هو البعض الذي سمعها ولا بأس عليه من مثل هذا السماع؟

هو كما يبدو شخص عادي.. ويدور في نفسي أن مسؤولية (الشخص العادي) ما ينبغي أن تقل عن مسؤولية (الشخص الرسمي) - إذا صح الوعي - عن تقويم الاعوجاج على نحو من قال لعمر بن الخطاب: (والله لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقوّمناه بسيوفنا).

وعلى افتراض أن الشخص العادي غير مسؤول بحكم الوعي المفقود إجمالا فإن الآخر يظل مسؤولاً لأن الوعي مفترض فيه بحكم المهنة ومتطلباتها - على الأقل - وفي مقدمتها الأمانة والإخلاص.

وأصارح محدثي بأفكاري ثم بفشلي في محاولة الحجز بين شخصين: أحدهما لا يعنيه الأمر من باب الوعي المفقود والآخر لم يسعني احتجازه ضد السماع.. إنه يطالب الآن بدليل على القضية أو بالمساعدة على إقامته لتصحيح الخطأ، وتقويم الاعوجاج فإذا هو لا يملك دليلاً أو شبه دليل وكل ما هناك أنه قد سمع.. أو هكذا قيل!

وهو يخشى مغبة الدخول في أية محاولة تسيء لأحد وإن كان مسيئا!

ويؤكد للمرة الأخيرة أنه قد روى ما رواه ليس إلا لعلمي الشخصي فحسب!

وما أكثر ما يدور نحو هذا على الألسنة مما أظنه غير لائق بأهل الوعي من ذوي الرأي والمسؤولية على الأخص!

ويأتي - بعد ما سبق عن شخصين في كياني - شخص ثالث هو (الأديب) الذي استفزه أخونا (علي العمير) ضد استبداد أحد الشخصين المذكورين به وطالب بإنصافه منه.. تماما كما يطالبني البعض بالانفصال عن (شخصي الرسمي) المستبد بشخص الأديب كما قال - لأسمع ضربًا من القصص من طراز ما أسلفت!

ولهذا كان سؤالي في مقدمة هذه الثرثرة هو: هل أستطيع أن أكتب ما أحب؟

وأحسبني قد انتهيت بعد السؤال والجواب إلى أنه ليس في وسع الإنسان أن يعيش كما يحب فليس في وسعه إذن أن يكتب كما يحب كما ليس في وسعه أن يقرأ أو ينظر أو يسمع أو يمشي أو يأكل أو ينام دائمًا كما يحب! - ليس في وسعه أن يعيش إجمالا بالتفصيل دائمًا كما يحب!

ومع أن الانسان يملك داخله كما يبدو ويتصرف فيه بحرية لا رقابة عليها إلا التي يلتمسها هو - فإنه قد يضيق ذرعًا بما يلوب في نفسه من وجدانيات يود أن يهرب منها ولو إلى صمت بليد مطبق ولكنه لا يستطيع!

إنه قد يخرج يهرب خارج نفسه.. مثلاً من الشاي إلى القهوة ومن زيد إلى عمرو.. من البر إلى البحر ومن السهل إلى الجبل.. من أي معاناة للحياة وغيرها ومن أي شيء لآخر تحريًا لما يرغبه ويظن فيه السعادة - وإن كانت هي في الطمأنينة للواقع كما سبق المقال - ولكنه لا يستطيع أن يهرب مما في داخله إلا إليه.. أي إلى داخل نفسه بمحتوياتها العجيبة التي قد تتناقض إلى حد الصراع، ثم يبدو على ظاهر الكيان أن هنا إنسانًا ملؤه التوافق والانسجام.

والمفروض أن الإنسان يحكم داخله أكثر مما يحكم خارجه وهو في واقع الأمر لا يحكم على الحالين إلا كما تحكم الذرة التافهة حركتها في أشعة الشمس!

وإذا كان من الحق أن تعيش الذرة أو الإنسان على أي حال من الرضى أو السخط ومن القلق أو الطمأنينة ما دامت الحياة قدرا ينتظمها كملايين المخلوقات - فان من الحق ألا يعيش الإنسان بعض التفاصيل كالكتابة إذا لم يكن في مقدوره أن يعيشها كما يجب.. وكيف لا يغدو في وسعه أن يكتب كما يحب وفي ثيابه عدد من الأشخاص كالوزير والإنسان العادي والأديب وغيرهم ممن يمكن تصورهم بهذا المعنى أشخاصا متمايزين لأي معنى أو صفة في محتوى هذا الإنسان؟!

كيف يكتب شخص ما من هؤلاء الأشخاص في معزل عن الآخرين وكأنما لا وجود لهم عندما يكتب؟

إن كل شخص أعيشه ـ على افتراض تعدد الشخصيات ـ يذوب في داخلي كما يذوب في الكأس عدد من العناصر.. لكل منها قبل الكأس كيان مادي أحسبه أكثر وضوحا وتمايزا مما يدعيه الإنسان لنفسه أو للآخرين باسم (تعدد الشخصيات).

ودار في ذهني أنه مجرد افتراض أو اصطلاح لتبرير سلوك الإنسان وتصرفاته الحسنة أو السيئة فما هنا عدة (شخصيات) بل عدة أفكار قد تتخاصم إلى حد القتال، غير أنها تتحول إلى ذوب واحد في داخل النفس ثم قد يطغى أحدها ويحكم تصرف الإنسان ومزاجه، كما يطغى عنصر بذاته على ما عداه في الكأس أو في ذوق الشاربين.. وعندها يقال:

إن شخص (الوزير) ـ مثلا ـ قد طغى أو استبد بشخص (الأديب) أو أن شخص (الرجل العادي) هو الذي ينبغي أن يظهر في مواجهة قصة ما دون شخص (الوزير)، إلى غير ذلك من الشخصيات التي يحتويها الناس كلهم قلمه في ذوب الانفعالات التي يعيشها وأن ينقلها إلى الورق كما هي...

وهذا يستدعي أن يعي حق الوعي ما يريد أن يقوله لئلا يقول كلاما طائشا أو تافها أو غير مفهوم وأن يكون قادرًا بالموهبة ثم بوسائل إبرازها على الأداء الملائم!

ومما لا شك فيه أن الافتعال أمر ممكن وقد يتقن الكاتب أو الشاعر أداءه ويبلغ به مستوى قد لا يبلغه من يحاول أداء انفعال صحيح صادق لا افتعال فيه!!

أبو نواس ـ مثلا ـ كان يروي انفعالاته على حقيقتها دائمًا أو غالبًا ومع هذا لم يكن مستواه كالمستوى الذي ارتقى إليه أبو الطيب المتنبي رغم كل افتعال في معظم شعره الذي أصبح أغرودة خالدة كما قال!

ومع هذا أيضًا يلوح المتنبي في شعره الذي كان يصدر عن انفعال كقصائده عن سيف الدولة - أقوى وأحسن منه في شعره الذي افتعله عن كافور - كما حدث هو عن نفسه بعد الافتعال ويأسه مما كان ينشده بالافتعال!!

إن القدرة الفنية بما فيها الموهبة تلعب دورها في رفع أو خفض مستوى التعبير على كل حال من الانفعال والافتعال غير أن هذا يظل مرجوحا في ذوق أهل الانفعال وطلابه على حقيقته وإن ارتفع مستوى الافتعال أو تألق كما يتألق الكذب والنفاق!

وعلى أي حال من هذا وذاك واحتمالات الجدل فيهما وفي مستوى الكتّاب والشعراء بينهما يلوح أن المزاج وحده هو الذي يختار أحد الطريقين.. ولا يعني الاختيار التفوق إلا لمن يغتر وينسى أن الفشل والضعف والركاكة احتمالات جائزة!!

ولكنه يعني مزاجًا يكره أو لا يكره الافتعال!

إنني أحب أن أكتب انفعالاتي كما هي.. لا أتصنعها.. ولا أتصنع لها ما استطعت فيكف أكتب انفعالات عدد من الأشخاص يحتويها كائن واحد.. هو أنا.. والمفروض أن انفعالاتهم جميعا تتحول إلى ذوب واحد في داخلي، وأن قلمي يغمس في هذا الذوب وينقل إلى الورق شيئًا منه لا من ذوب مفتعل؟!

كيف أعزل شخص (الوزير) وأدفعه بعيدا عن قلمي وهو يملؤ انفعالاتي بين دوامة العمل ومن أتعامل معهم ويتعاملون معي.. على اختلاف نوعية ومستويات العمل والمتعاملين؟!

كيف أخنق انفعالات كهذه لأكتب عما أحسه في هدأة الليل أو في صحوة الفجر، أو على صوت السكون وخرير المياه.. أو هدير الأمواج أو أي تجليات تبثها الطبيعة في النفس وهناك انفعالات أخرى تملؤني ولا تكاد تبرحني إلا إذا سكنت أطرافي على ما يشبه النوم؟!

ولو أخذت أكتب على الطبيعة كما يقال لما سلمت - والقلم في يدي - من صداع طويل؟

إن شخص (الوزير) مثلاً سيرفض كلمات أو عبارات أو انفعالات بعينها لأنها مما لا ينبغي أن يصدر عن (الوزير) في نظر الآخرين وسيقف شخص الكاتب في وجهه قائلاً:

دعه يكتب ما يحسه على حقيقته.. ويرد شخص الوزير:

إن هذا لا يتفق مع وقار (الوزير) أو إطاره على الأقل، ثم إن الناس أو بعضهم على سبيل المثال قد يقول إذا كتبت نقدا: لو لم يكن (وزيرا) لما تطاول إلى هذا الحد.. أو لماذا لا يصحح الوضع وهو المسؤول؟ مع أن تصحيح الوضع - والوعي في مقدمته - قد يستعصي على المسؤولين أجمعين إن لم يكن من الله عون لهم.. ومن عباده المخلصين!

وإذا كتبت أفكارا يومية أعيشها فقد يلوح بعضها تافها - في نظر بعضهم - أو لا ينسجم مع هالة الإطار الذي يعيش فيه حامل أثقاف اسمه (الوزير) كما سبق. ويرد شخص الكاتب عليه في الحال بقوله: اسكت.. دعهم يقولون ما شاءوا ويشاؤون دعهم يقولون - كيف يكتب كلاما عن النمل مثلا أو الضفادع أو أية حيوانات أدنى أو أعلى إذا تحرك شعوره بها في أي اتجاه..؟ أو كيف يكتب عن ظاهره أو باطنه.. جميله أو قبيحه.. أو عن عاطفة بذاتها كالحب أو الاستلطاف أو الدهشة أو الاستخفاف.. إلى آخر ما يطيب للمزاج الفني أن يصوره بلغة العاشقين أو الناقدين أو الساخرين.. كانفعالات يومية يعيشها بين الليل والنهار.. ويطول الجدل بين (الوزير) و(الكاتب) ثم قد يشترك شخص ثالث معهما في الحوار إن تغلب الكاتب وضغط قلمه ليكتب خواطره أو يومياته كما هي بدون أية مواربة أو غطاء.. ذلك هو (الشخص الطبيعي) الذي يحاول المواءمة عادة بين ما ينبغي وما لا ينبغي مسترشدًا في ذلك بكل ما مر به

وبالآخرين من تجربة واعتبار!

إنه يتدخل حينئذ ويقول بهدوء:

لا ينبغي أن يذكر الإنسان كل شيء وكل حدث وكل قصة ـ إن هناك ما ينبغي ستره كعورات النفس والسلوك وإن زعم بعض من كتبوا عن حياتهم ويومياتهم: أنهم كتبوها كما هي..

لقد زعم شيئًا كهذا (جان جاك روسو) الكاتب الفرنسي المعروف عندما كتب عترافاته وقال: أنها تحدثت عن كل شيء في حياته بمنتهى الصدق والصراحة.. لكن بعض النقاد زعموا في مواجهة اعترفاته: أنها لم تستوعب كل شيء وأن هناك ما ستره ولم يذكره في الاعترافات، وهذا معقول فما ينبغي أن يكتب الإنسان كل شيء إلا إذا كان (بوهيميًّا) أو شيئًا ممن يدعون (الخنافس) أو (الهيبز) آخر صرخة في رقي الإنسان!

ويظل القلم صامتًا في هذه الأثناء..

وقد ينتصر شخص ما لعله الرابع أو الخامس باسم الإرادة.. لا يبالي أن يكتب عن انفعال بعينه ويتجاهل انفعالات أخرى تطل على الفكر وتدور في النفس وتكاد تسبق القلم.. كيف أخنقها ليكتب القلم؟

وأشعر حينئذ أن التعب ـ ولعله شخصية سادسة ـ أقوى من إرادتي بعد كل هذا الحوار وصداعه الطويل!!

وقد أتغلب على التعب باسم إثبات الذات ـ على حد تعبير أخينا العمير ـ وإن كانت الدنيا عندي أهون كثيرًا من محاولة إثبات الذات فيها إلا بما يحسن به مصير الإنسان بعدها.. وهذا لا يتطلب إثبات الذات بل قد يتطلب نكرانها!!

وتفويض الأمر لله.. ولرحمته.. إلى الأبد!!

ولكن الوقت بعد كل هذا الحوار والتعب والتغلب عليه لم يعد فيه متسع لمحنة الفكر والقلم وهي على أشدها أحيانًا، وهناك متطلبات الغد مما ينبغي أن

أضع نفسي من أجله على فراش النوم أو في أي وضع مريح ما أمكن لمعايشة الغد ومتطلباته.

وقد أطرح الخمول جانبًا.. وليكن ما يكون من أمر الغد، والنشاط المكدود فيه بعد سهر أو جهد يطول أو يقصر مع القلم، والحرف، والأفكار.. وأكتب أي انفعال يظل يؤرقني حتى أضعه على الورق!

وأفكر بعده في النشر، فإن الحرف المطبوع أدعى لإثبات الذات!

وإذا هو غالبا بعد النشر شيء مسخته المطبعة، جملة بأسرها سقطت من أول الكلام أو خلاله.. وكلمات طبعت في سطر آخر، محرفة إلى ما يعطي غير أو ضد المعنى المقصود.. وعبارات لا تبين من رداءة الطبع.. إلى آخر ما قد يتحول معه إثبات الذات إلى إثبات كلام معقد، أو تافه، أو غير مفهوم..

وأخير لا آخرًا.. أعود لحساب الزمن.. لا أكاد أجده إلا كما أجد الماء في كفي من جدول كالسراب في صحراء!

وعلى سبيل المثال هذا الكلام.. أو هذه الثرثرة.. لقد كتبت جزءًا منها في أشهر بعده.. مع أنها انفعالات مكتوبة في داخلي، وكل ما سنحت الفرصة لأكتبها طرأ ما يغليها في الحال.. حتى انقطعت لها آخر الأمر، وأفرغت ما تبقى منها، أو بعضه على الأصح، فما زلت أشعر بأن في النفس بقايا.. ولكن التعب قد أدركني حقًّا، وأشعر مقدما بما قد يحسه القارئ - نتيجة الفصل بين فترات كتبت فيها هذه الثرثرة - من فقدان التوازن أو الانسجام بينهما!

كما أشعر أيضًا بما قد يقال عنهما أو عن بعضهما على نحو ما أسلفت.. أو بما قد يثار بعدها من تعليقات إذا كانت فارغة فسأتركها كما تركت وأترك مثلها للهواء، وإلا فقد أحاول أن أكتب جهد المستطاع.. أو أصمت.. والصمت خير في الأغلب الأعم، بل إن لي اقتراحا قديما يعرفه بعض الأصدقاء، وهو أن

تعقد مؤتمرات للصمت، بعد أن جرب العالم مؤتمرات لا تكاد تحصى للكلام، ثم لم تحسن نتائجها كما ساءت إلا ما رحم ربك!

مؤتمرات للصمت.. وفترات يتفق الناس عليها وعلى الصمت فيها.. لعل هذا أحسن وأدعى للخير والسلام!

ولا أدري كيف تجري أحداث صمت كهذا.. أو مؤتمرات وفترات كهذه، كما قد يدري ذلك خـيال قصـصـي بارع لا يضيق بأي اتـهـام عقلي يسدد إليه من علماء الكلام!!

البلاد ١٢/١٠/١٣٩٤هـ

معالي الوزير أيضًا

أعترف سَلَفًا أن رغبتي الجارفة في التعليق على مقال أستاذنا محمد عمر توفيق (معالي الوزير) المنشور يوم الأحد الماضي لا تنبع من حرص على فائدة للقراء بالضرورة كما أنها بالتأكيد ليست من قبيل ملء الفراغ فما أكثر ما يمكن أن يفيد القراء، وما أكثر أيضًا ما يمكن أن يملأ الفراغ!

ولكنها رغبة تشبه النشوة، أو استخفاف الطروب.. فلقد قرأت المقال أكثر من مرة ومرة، قراءة استمتاع، وقراءة استفادة وتمعن.. ثم قراءة تصحيح تجارب الطبع؛ مع أن التصحيح ليس من الأعمال التي أتقاضى عليها أجري الشهري، وإنما هي الحفاوة بالمقال، دفعتني إلى الحرص على تصحيحه بنفسي، أو لعله التحسب لإرضاء أستاذنا الكريم، خاصة، وأنه قديم الشكوى من الأخطاء المطبعية.. بل إنه أشار إلى مثل ذلك في صلب المقال نفسه!

ويعلم الله أنني في كل مرة أقرأ المقال، من كل تلك المرات المتعددة، أجد نشوة جديدة، ومتعة أجَدّ!

وأعترف أيضًا أنني رغم نشوتي واستمتاعي كنت أبحث - بغير قليل من اللؤم - عن أية فجوة في تماسك الأسلوب، أو عن كلمة في غير موقعها، أو أية فكرة (ليست على قد المقام)! فلا أجد!

ولكن من حسن جانب اللؤم في نفسي أن المقال مقال فلسفة بالدرجة الأولى.

والفلسفة عادة تبحث عن الحقيقة بأدوات قوامها الجدل، والمنطق، وصنعة البلاغة والبيان، وقوة العارضة في الحجة، وسرعة البديهة ولطفها في إيراد البرهان!! وبقدر ما تكتمل هذه الأدوات أو بعضها عند كاتب ما، لا بد أن تصبح

الحقيقة في خطر، أو أن تصبح - على الأقل - ذات وجهين كالعملات النقدية!

ومن هنا شعرت - لعله بِواعِزِ اللؤم! - أن أستاذنا لا بد قد أخفى أو داهن نفسه في بعض جوانب الحقيقة.. أو في أحد وجهيها، وخاصة في تبريره لعدم إمكانية الكتابة كما يحب، طالما يجمع في إهابه عدة أشخاص منهم (معالي الوزير) و(الإنسان العادي) و(الأديب)!

وقد ذهب في هذا التبرير مذاهب شتى، استخدم فيها كل أدوات وأسلحة الجدل، والفلسفة، والمنطق، والبلاغة، والبيان، والحجة، والبرهان!

وأقل ذلك.. بل أدنى ذلك يمكن أن يعصف بأعتى الحقائق، ويجعلها عجينة لينة مطواعة يشكلها الصانع كيف يشاء!!

وإلا كيف يريد أستاذنا الفاضل.. بل كيف يمكنه أن يقنعنا بدون ذلك أن الكتابة بالنسبة له مستحيلة لأنه لا يستطيع أن يكتب كما يحب لسبب تعدد الشخصيات في ذاته أو إهابه.. فهو - على حد عذره أو حجته - إذا كتب بسجية الأديب وعفويته وسماحة خواطره، لا بد أن يتعارض ذلك على نحو أو آخر مع إطار أو وقار (معالي الوزير).. ليس ذلك فحسب.. بل كيف يمكنه أيضًا أن يتجاهل أو يغفل انفعالات ومشاعر (معالي الوزير) عندما يكتب خواطره أو انطباعاته أو انفعالاته، وهي - أي انفعالات ومشاعر معالي الوزير - تملأ عليه نفسه أكثر وقته تقريبًا مع من يتعامل معهم أو يتعاملون معه؟!.

وإذا أراد - مثلاً - أن يكتب عن هذه الانفعالات.. فهل يستطيع؟

إنه إذا انتقد مثلاً، قيل عنه، ولماذا لا يصحح الخطأ وهو المسؤول؟ إلى آخر ما يمكن أن يثار على هذا النحو!!

وهذه التبريرات كما يرى القارئ على غاية من الوجاهة، وخاصة في مواقعها من مقال (معالي الوزير).. أما هنا فهي تلخيص، أفقدها لا شك رونقها!

ولكن.. ولكن ليس الأمر بالضرورة كما أراده منطق أستاذنا الكريم فللحقيقة وجه آخر في المنطق الفلسفي ـ كما أسلفت!

* * *

إن الأساس الذي بنى عليه أستاذنا الكريم كل تبريراته الرائعة تلك، إنما هو رسالة متواضعة كنت وجهتها إليه على هذه الصفحة، وخلاصتها أن الميدان الأدبي افتقد واحدًا من أبرز فرسانه هو الأستاذ محمد عمر توفيق، وخاصة بعد أن اندمج أو ذاب في شخص (معالي الوزير) ومسؤوليته وإطاره ووقاره فلم نعد نظفر منه ـ أي من الأديب محمد عمر توفيق ـ بكلمة شائقة مجنحة، ولو من قبيل الـ (ذكرى)!

وكلمة (ذكرى) إشارة رامزة إلى الزاوية الناجحة التي كان يكتبها في هذه الجريدة يوميًا بعنوان (ذكرى)!

وقلت في رسالتي تلك إن معالي الوزير محمد عمر توفيق قد ظلم الأديب الأستاذ محمد عمر توفيق حيث استأثر الأول بالأضواء والمجد والعمل، ولم يترك فرصة قط للثاني!

وقلت: إن هذا ظلم فادح لا شك فيه!!

والتمست في النهاية من (معالي الوزير) في شخص محمد عمر توفيق أن يرأف بالأديب في شخصه أيضًا وأن يحترم له قدر الأسبقية على الأقل فيتركه ولو هنيهات من الوقت يثوب إلى كتبه وفكره وقلمه فنظفر نحن القراء ولو بأيسر ما يظفر به سائر المواطنين من جهود وزارة المواصلات!!

* * *

ذلك هو ملخص الرسالة التي استطاعت ـ رغم تواضعها ـ أن تنتزع أديبنا الكبير من بين براثن مسؤوليات وزارة المواصلات وأكوام التقارير عن

الكباري والجسور، وعرض أكتاف الطرق والمواني والسكك الحديدية، والمواصلات السلكية واللاسلكية والبريدية[1] وإلى آخر القائمة الطويلة العريضة من المسؤوليات التي تفترس أديبنا الكبير كل يوم، وذلك فضلا عن الاجتماعات والمقابلات والصبر والأناة على المراجعين وطلاب الحاجات!!

كل هذا نعرفه ونقدره، ومن أجله كان اعتزازنا كبير بمقال (معالي الوزير) حيث استطاع أن يكتبه في غفلة من كل تلك الأسلاك الشائكة!

ومعنى هذا أن الأديب محمد عمر توفيق يستطيع - ولو أحيانا - أن يتخطى الأسلاك الشائكة، وتقارير الكباري والجسور، ويكتب شيئا يجدد (ذكراه) في نفوس محبيه ومريديه من أهل الأدب وعشاق الحرف.. وذلك ما أردناه بالضبط من رسالتنا!

* * *

ونعود إلى التبريرات الآنفة الذكر، والتي أوردها أستاذنا بأسلوبه المجنح، ومنطقه المقنع، وحججه التي يعرضها بزخرف وبهرجة تبدو معها وكأنها الحق كل الحق، وكأن الباطل لا يمكن أن يأتيها من بين يديها أو من خلفها وذلك هو إعجاز البيان!

ولكن إذا نظرنا إلى كل تلك التبريرات بمقياس أو ميزان لا يتأثر بزخرف اللفظ أو بهرجة الأسلوب لوجدنا أنها قابلة للنقاش والأخذ والرد، شأنها شأن كل فكرة فلسفية أو صنعة أدبية!!

يحتج أستاذنا بأنه لا يستطيع أن يكتب كما يحب انفعالات ثلاثة أشخاص أو أكثر في إهابه (معالي الوزير) و(الأديب) و(الإنسان العادي) لأن هذه

---

(١) كل هذه كانت من مسؤوليات وزارة المواصلات قبل إيجاد وزارة البرق والبريد والهاتف أو مؤسسة الموانئ.. إلخ.

الانفعالات من التضارب بحيث تصل إلى حد الصدام أو القتال، ومنها ما يصلح للكتابة ومنها ما لا يصلح لاعتبارات الوقار أو غيره!!

والواقع أن أستاذنا الكريم خير من يعلم أن ليس كل الانفعالات صالحة للكتابة، وأن الأديب لا يستطيع أن يعبر عن كل انفعالاته وخلجاته مهما أتيحت له من فرص حرية البوح أو التعبير.

وأستاذنا يعلم أن الانفعالات التي تجيش في نفس (معالي الوزير) من جراء حسن سير العمل في الوزارة أو خلله أو نحو ذلك من المضايقات أو الارتياح إنما هي انفعالات أو مشاعر وقتية شبه آلية تدور مع دورة الدم، ثم تذهب بقدر السرعة التي يمكن بها معالجة أسباب ذلك الانفعال، وهي غالبا سرعة ميسورة، وخاصة لأمثال معالي الوزير، وحتى لو كانت انفعالات الوزير أعمق من تقديرنا هذا في بعض الأحيان فإن ما يصلح منها للكتابة الأدبية لا يترسب في نفس معالي الوزير، وإنما تدخل أو تنصهر أو تذوب فورا في دائرة الوعي أو اللاوعي (العقل الباطن) في نفس الأديب وليس غيره إذ لو كان الأمر غير ذلك لأصبح كل وزير أديبا.. بل لأصبح كل إنسان عادي أديبا أيضا! ما دامت له انفعالاته أيضا!

أما انفعالات الأديب فهي من طراز آخر، منها ما هو مقتصر على الأديب بذاته، ربما تثيرها جملة في كتاب، أو عبارة في مقال، أو شطر بيت من الشعر، أو حتى منظر رفوف المكتبة، وبعض هذه الانفعالات لا بد أن تثير ومضات خواطره فتؤرقه ليله تدفعه إلى البوح دفعا!!

ومن ذلك مثلا أن أستاذنا نفسه لم يكتب مقالا أدبيا واحدا منذ سنوات؛ لا لشيء إلا لأنه قد انغمس في انفعالات لا تمت بصلة إلى الانفعالات المثيرة للأدب والأدباء.

ولكن رسالة صغيرة متواضعة في صفحة أدبية، أثارت في نفس أستاذنا من

الانفعالات ما لم تفعله آلاف الصفحات من تقارير ومعاملات وزارة المواصلات!!

وهذا وحده يدلنا على أن الانفعالات التي تدفع الأديب إلى تناول قلمه، وبسط أوراقه ليست هي سائر الانفعالات التي يعانيها الإنسان كل يوم.. على أن الانفعالات اليومية، سواء كانت انفعالات (معالي الوزير) أو أي إنسان عادي، يمكن أن تكون انفعالات صالحة للكتابة، ولكن بعد أن تذوب وتترسب في أعماق الوعي أو اللاوعي.. ثم لا بد أن تطفو على السطح يوما ما في سياق مقال أو فصل قصة أو أبيات شعر أو أي عمل أدبي!

وهذا هو بالضبط ما أشار إليه الأستاذ محمد عمر نفسه في مقاله (معالي الوزير) عند ذكره العناصر المختلفة المتمايزة التي توضع في الكأس فتذوب في بعضها لتصبح عنصرا واحدا بذاته!

أفليست انفعالات (معالي الوزير) و(الإنسان العادي) و(الأديب) في شخص محمد عمر توفيق يمكن أن تنصهر فتصبح ذوبا واحدًا صالحا للاغتراف الفني والأدبي؟

أليس هذا من ذاك..؟ فما معنى إذن حيرة أستاذنا الكبير فيما يأخذ أو يدع من انفعالات تعدد الأشخاص في ذاته؟!

* * *

وأثار أستاذنا نقطة مهمة في مقاله - وكل مقاله من الأهمية بمكان - هي مدى إمكانية الأديب أن يسجل كل انفعالاته أو انطباعاته بخيرها وشرها، جمالها وقبحها مما يمكن أن يدخل في إطار الانفعالات، وأشار في سياق ذلك إلى اعترافات (جان جاك روسو) التي زعم - أي روسو - أنها اعترافات كاملة صادقة صريحة، ولكن النقاد زعموا أنها ليست كذلك تماما، وهذا معقول، كما قال الأستاذ محمد عمر توفيق.

وهاهنا ـ كما يعلم أستاذنا ـ مسألة خلاف كبير بين مفهوم الاعترافات عند (جان جاك روسو) وأمثاله ممن يدينون بالمسيحية، وعند (محمد عمر توفيق) وأمثاله ممن يدينون بالإسلام!!

الديانة المسيحية تشجع على (الاعتراف) وهو ضرب من (الغفران) عندهم، ولكن رغم ذلك يجب ألا يكون الاعتراف علنيًّا.. بل يقتصر أو ينحصر بين المعترف وكاهنه في الكنيسة، ولا ينبغي أن يصل إلى حد النشر والبث كما فعل روسو وغيره.

أما في الإسلام فإن القاعدة الذهبية في هذا الشأن وأمثاله هي ﴿لا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوءِ﴾ و(إذا بُلِيتُم فاستتروا) فرسالة الأدب في الإسلام إذن هي رسالة الجمال والحق والخير وكل مثل سام أو خليقة فاضلة، أي بعيدا تماما ـ كما يعلم أستاذنا ـ عن كل ما يروجه المروجون من دعاة (فرنجة) الثقافة العربية باسم الصدق الفني أو الإخلاص للحقيقة أو نقل الوقائع كما هي بصرف النظر عن جمالها أو قبحها، وبصرف النظر عن مدى ما تتركه من أثر حَسَن أو سيء!!

وهم ـ في الغرب ـ قد ذهبوا مذاهب شتى في هذا الفن أو المسخ إلى حد أنهم لا يتورعون عن ذكر الألفاظ القبيحة الداعرة، والصور الشنيعة الفاضحة.. وكل ذلك ليس في شيء من جمال الأدب وسموه وترفعه!!

ورغم ذلك فإن الاعترافات التي يزعمونها ويروجونها ويبثون الدعاة لها في الشرق والغرب ليست اعترافات صادقة بقدر ما هي أحابيل أو وسائل شريرة لنشر الفجور والغواية والقبح الفني!!

وعلى كل هذا ينبغي للأديب ـ وخاصة الأديب المسلم ـ أن لا يأخذ من انفعالاته ومشاعره ووقائع حياته أو حياة غيره بقصد العمل الأدبي أو الإبداع الفني إلا ما كان تصويرًا لجمال أو دعوة لخير أو تقويمًا لاعوجاج أو نقدًا لشذوذ.. أو حتى لإشاعة وبث المتعة الفنية الخالصة في نفوس قرائه!!

وأما ما عدا ذلك من الانفعالات والمشاعر فهي بين أمرين.. إما أن تكون انفعالات ومشـاعـر آنية تذهب بذهاب أسـبابها ولا يبقى منها ما يصلح لقوام عمل أدبي أو إبداع فني، وإما أن تكون مشـاعـر وانفعالات خاصة جدًّا أي من النوع الذي يحسن السكوت والتستر عليه ليبقى صونًا بينه وبين ربه حتى يوم يبعثون!!

* * *

ولا بد أن نخلص من هذا كله لنطرح التساؤل التالي:

على هذا الأساس ـ كله أو بعضه ـ ماذا نريد من الأديب الأستاذ محمد عمر توفيق على رغم كونه وزيرًا أو شخصا عاديا أو غير ذلك من الأشخاص في ذاته؟

سؤال يمكن أن نجيب عنه بسؤال آخر ـ على طريقة سقراط التي أشار إليها أستاذنا في مطلع مقاله:

هل تعدد الشخصيات في ذات إنسان أديب.. تشكل عائقا دون ممارسة وجوده الأدبي.. أم هي ـ أي الشخصيات المتعددة ـ تشكل رافدا أو روافد جديدة لمنابع الاغتراف الأدبي والفني؟!

أعتقد أنه لو اعتذر أستاذنا عن الكتابة بكثرة المشاغل لا بسبب تعدد الشخصيات لكان الأمر أدعى إلى بعض القبول.

ولكن حتى هذا العذر الوجيه لا بد أن يجعلنا نتساءل ـ إذا أردنا الإسراف في اللوم ـ على هذا النحو:

وشخص الأديب في ذاته.. أليس له مسؤولياته أيضًا.. فلماذا كل هذا التقاعس عن ممارستها؟!

كيف يبيح لأي شخص من الشخصيات المتعددة في ذاته ـ ما دام هذا قدره ـ أن يطغى على الشخصيات الأخرى ويستبد بها ويستأثر دونها بمقومات الحياة وإثبات الذات؟

وعلى ذكر (إثبات الذات).. لقد قال أستاذنا في مقاله إن الدنيا كلها أهون عنده من أن يحاول فيها إثبات الذات، وكان يقصد الذات الأدبية.

أتراه يمكن أن يقول إن الدنيا أهون عنده من أن يحاول فيها إثبات الذات فيما لو كان الأمر يتعلق بذات الوزير في شخصه؟!

إن ذات الوزير تفرض عليه فرضا أن يحاول إثباتها بمختلف الوسائل المشروعة لكي يضمن لعمل الوزارة حسن سيره، وللمسؤولية هيبتها اللازمة لردع من يستحق الردع، ومكافأة من يستحق المكافأة!

فيكف إذن تهون عليه الدنيا دون إثبات ذاته الأدبية، ومسؤولياتها ربما لا تقل عن مسؤولية الوزير في خدمة الأمن والوطن؟ وإنما هو يقصد ـ لا شك ـ أن تواضعه لا يمكن أن يدفعه إلى ممارسة الوجود الأدبي لمجرد إثبات الذات، خاصة وأن ذاته هذه ثابتة راسخة على كل حال، وكل ما هنالك أنها تحتاج إلى بعض التعهد!!

وذلك بالضبط هو ما قصدته أو استهدفته من رسالتي.. بل استهدفت أيضًا أن للقراء والأدباء حقوقًا في ذمة ذات الأديب محمد عمر توفيق كما لسائر المواطنين حقوقا في ذمة الوزير فما باله ينصف ذمة الوزير، ويهمل ذمة الأديب؟؟

ذلك هو السؤال.. أو تلك هي المسألة!

وبعد فإن مقالي هذا ليس ردًا أو حتى نقاشا وإنما هو بعض تنفيس عن كوامن حب، ودفائن شوق، وبواعث تجلة واحترام وتقدير لأستاذنا (الأديب) محمد عمر توفيق ليس إلا!!

جريدة البلاد ١٩/١٠/١٣٩٤هـ

مع الأستاذ عزيز ضياء!

كنت أحظى ـ منذ زمن ـ بتشجيع أستاذنا الكبير (عزيز ضياء).. وكنت قد انقطعت عن الكتابة عدة سنوات ثم عدت إليها عبر زاويتي اليومية في عكاظ (تحت الشمس) ثم بعض المقالات في (عكاظ) نفسها أو في غيرها من صحفنا ومجلاتنا.. وصادف أن تكون زاويتي (تحت الشمس) في الصفحة نفسها التي تضم زاوية أستاذنا الكبير، ذات العنوان (نشر وطي) فكأنه كان يتحين الفرصة للترحيب بعودتي للكتابة وتشجيعي من جديد كعادته معي دائمًا.. فما هو إلا أن نشرت مقالا لي بعنوان (المعري في ضيافة الفارسي والقصيبي) حتى وجد فيه الأستاذ فرصة مناسبة للتعبير عن مشاعره الكريمة حين خصني بحلقة كاملة من زاويته.

وفيما يلي مقالي المذكور.. ثم مقال الأستاذ عزيز ضياء.. ثم ردي عليه بالشكر الجزيل.

المعري في ضيافة الفارسي والقصيبي

كنت أتصفح قبل أيام مجلدا إحصائيا ضخما.. وكان من ضمن تلك الإحصائيات العديدة، إحصائية خاصة باستهلاك مختلف مناطق المملكة من اللحوم.. استوقفتني إحصائية اللحوم هذه.. وأذهلتني حقًّا.

ألوف مؤلفة من الإبل والأبقار والأغنام التي تم ذبحها في فترة زمنية محدودة.. ولم تأت الإحصائية على مقدار ما ذبح من الطيور أو الدواجن أو الدجاج لأنها - دون شك - فوق أي حصر.. كما أن الإحصائية لم تأت أيضًا على ذكر اللحوم المستوردة الجاهزة.. وهي ربما أكثر مما يذبح هنا. وعندما ألقيت بالكتاب الإحصائي جانبا.. لست أدري كيف تذكرت فيلسوف المعرة (أبو العلاء المعري) وكيف لو أمكنه الاطلاع - في زمنه - على إحصائية كهذه.. كان يموت حتما - لفوره من الكمد والغيظ.. وكيف لا يموت كمدا وغيظا من مثل هذه الإحصائية المهولة، وهو الذي كان في مرض خطير فوصف له طبيبه (مرقة ديك) فوافق على ذبح الديك - وكانت تلك مسألة عظيمة عنده - ولكن عندما جاءوه بالديك ومرقته.. نظر إليه مليًّا.. ثم قال قولته المشهورة: (استضعفوك فوصفوك.. هلاَّ وصفوا شبل الأسد).

لقد استكثر في النهاية ذبح ذلك الديك المسكين.. وكم أتمنى لو يبعث من قبره فيزور مزارع فقيه - مثلا - أو يقرأ فقط هذه الإحصائية التي قرأتها.. والتي هي ليست عن دجاج مزارع فقيه أو غيرها.. بل عن الإبل والأبقار والأغنام والأعداد الهائلة المروعة التي تذبح منها.

أتمنى حقًّا أن يبعث أبي العلاء.. وأن يصادف أول من يصادف عند بعثه، محمد سعيد فارسي أمين مدينة جدة.

ولا بد ـ عند ذلك ـ أن يستضيفه الفارسي بالضرورة.. ولا بد أن يأخذه معه بسيارته في اليوم التالي ليطوف به على أنحاء جدة.. ليشهد معالمها الحضارية الحديثة التي لن يهتم بها (المعري) كثيرًا.. ولكن الفارسي سيبالغ حتمًا في إكرام ضيفه فيذهب به إلى (مسلخ جدة) ليريه إياه كمعلم حضاري!!

وسوف لن يدرك الفارسي مدى الخطأ الذي ارتكبه ـ دون قصد بالطبع ـ في حق ضيفه إلا بعد أن يجده مغمى عليه.. ثم لا يفيق إلا في أحد مستشفيات جدة.. وليكن مستشفى الدكتور سليمان فقيه حيث اشتهر هذا المستشفى باستقبال الأدباء استقبالاً حسنا.. فكيف بأبي العلاء المعري؟

لا شك أن الدكتور فقيه سيطير فرحًا بمريضه.. وفي غمرة فرحة سينسي حتمًا ويأمر بشوربة دجاج، ومعها فخذ ديك.. وربما حمل ذلك بنفسه إلى أبي العلاء.. زيادة في التكريم.

ولا بد أن يحدث الكثير من الهرج والمرج في المستشفى نتيجة لهذا الخطأ الفادح الذي ارتكبه الدكتور فقيه..

ثم لا بد أن أعلم أن بوجود أبي العلاء.. ومن ثم لا بد أن أذهب لزيارته.. ولكن سأحمل معي ذلك الكتاب الإحصائي.. وعندها فقط سأنقذ الفارسي وفقيه معًا.. لأنه سيعود من فوره إلى قبره إذا اطّلع على بعض ما اطّلعت عليه من إحصائيات اللحوم.

* * *

حتما ستعلم الصحف بكل ما حدث.. وستنشر تلك الأخبار بصورة مثيرة.. وسيعلم بالطبع الدكتور غازي القصيبي فيهرب إلى جدة سريعا (لتقصي الحقائق)[1] ولكنه سيعلم أن المعري قد عاد إلى قبره بسببي أنا كاتب هذه السطور.. لا لشيء إلا لأنني أطلعته على جزء من الحقيقة!

---

(١) ما بين القوسين من التعبيرات السياسية الشائعة!!

سيضرب القصيبي كَفًّا بِكَفٍّ.. وهو يلومني على تصرفي ذاك.. ولكنني لن أتركه يستمر في لومه لي.. حيث سأذكره فورًا أن (أنيس منصور) يستطيع تحضير الأرواح.. وإن كان قد اقتصر نشاطه - في الفترة الأخيرة - على تحضير أرواح الصهاينة فقط.. وليس المعري منهم.. وهذه مشكلة.

(ولكن كل مشكلة لها حلال) كما يقول العامة!

ومن السهل جدًّا، وبمجرد حفنة من الريالات.. يمكن إقناع (أنيس منصور) باستحضار روح أبي العلاء.. وبزيادة قليلة في حفنة الريالات.. يمكن أن يبعثه حيا(!!) وليس روحه فقط!!

وعندها يمكن اجتماع القصيبي بأبي العلاء.. فيعتذر له عما بدر من أخطاء غير مقصودة سواء من الفارسي، أو من فقيه، أو من العمير.. ثم ينشده بعض شعره في الزهد والتقشف فتنتعش روح أبي العلاء.. ويأخذه الدكتور القصيبي ليريه - قبل كل شيء - مقبرة (أمنا حواء) فتزداد روح أبي العلاء انتعاشا فينشد من شعره:

(خفف الوطء.. فما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد)

ثم لا بد أن يتساءل المعري مخاطبا القصيبي: هيه.. يا بني.

ماذا فعل الله بالشعر من بعدي؟

فيقول له القصيبي: بشراك يا عم.. الشعر عندنا بألف خير.. سواء الشعر التقليدي.. أو الشعر الحر!!

فيقول له المعري: وما الشعر الحر يا بني؟

فيقول له القصيبي: هو - ياعم - شعر مستحدث.. ولكن دعنا منه الآن فإنني أخشى أن يغمى عليك أو تعود إلى قبرك.. ودعنا من الشعر التقليدي فإنه عندنا - في هذه الأيام - كفيل بأن يجعلك - لو سمعته - في عداد أبطال (رسالة الغفران).

تعال نذهب إلى الطائف المأنوس حيث هناك وفرة النباتات والحشائش التي يمكن أن (نعزمك) منها!

وعلى ذكر النبات والحشائش.. لا بد أن أتحفك - يا عم - بطرفة لطيفة تسرّي عنك.

أنت - يا عم - رجل نباتي... وتحب النبات والنباتيين وأبشرك أنه كان إلى عهد قريب في لبنان أحد النباتيين المشهورين.. اسمه (كمال جنبلاط) من الزعماء المعدودين.. وصهره (الأمير مجيد أرسلان) كان وزيرا للدفاع عدة مرات في لبنان.

وذات يوم اتصل (كمال جنبلاط) بزوجة (مجيد أرسلان) قائلاً لها سأتغدى عندكم اليوم.. ووقعت المسكينة في (حيص بيص) وهي تكتب قائمة الطعام الذي يمكن تقديمه لكمال جنبلاط.

كانت قد كتبت: خس، جرجير، فجل، جزر، كوسة، خيار، طماطم، بقدونس) ثم لم تعد تدري ماذا تكتب.. في الوقت الذي وصل فيه زوجها فوجدها على تلك الحال من الحيرة في أمرها.. فلما سألها أخبرته أن (كمال بيه) سيتغدى عندهم.. ثم طلبت مساعدة زوجها في إعداد القائمة.. فلما قرأ القائمة التي كتبتها من قبل لم يتمالك أن صرخ قائلا: (هيدا أكل أوادم.. والا أكل أرانب؟).

ويضحك القصيبي للنكتة.. ولكن المعري لم يضحك لأنه لم يفهمها.. ولكن عندما فهمها بعد، اكتفى بالترحم على جنبلاط.

وعندئذ فقط.. أدرك القصيبي مدى ورطته بهذه الضيافة.. فهو لم يستضف (أرنبا) قط.. ولا يعرف بالضبط ما هي الأكلات المفضلة عند الأرانب من نوع أبي العلاء، وكمال جنبلاط.

وعندها قال القصيبي في نفسه: هذه ورطة حقيقية ولن ينقذني منها غير العمير.. فهو الذي أعاده في المرة الأولى إلى قبره.

ولكنه - أي القصيبي - لم يستعن بالعمير لإنقاذه من ورطته.. بل ابتكر طريقة أخرى أذكى بكثير.

لقد استدعى لضيفه أحد الشعراء التقليديين.. فلما أنشده أول بيت من قصيدة

له.. سقط ذقن أبي العلاء على صدره وراح في غيبوبة لم يفق منها إلا وهو بحضرة شاعر آخر من أحدث طراز.. فما كاد يسمعه بعض النقاط وعلامات التعجب من شعره حتى كان أبو العلاء قد فارقته الروح بصورة لا يمكن لأنيس منصور أن يستحضرها بعد ذلك.

وارتاح القصيبي في نهاية الأمر.

ولكني أنا - كاتب هذه السطور - لم أسترح من التفكير في موضوع تلك الإحصائية الهائلة لرؤوس الإبل والأبقار، والأغنام التي ذبحت في بلادنا.

هل يعقل أن نكون قد أكلنا كل تلك الأعداد الهائلة.. أم هي القمائم التي أكلتها؟

إن القمامة عندنا تأكل أكثر مما نأكل نحن بكثير جدًّا.. ولذلك لا شك أن القمائم عندنا هي المسؤولة عن كل رقم من أرقام تلك الإحصائية التي قرأتها.

والله حسبنا ونعم الوكيل..

عكاظ ١٦/٦/١٤٠٢هـ

نشـــــر وطـــــي!

بقلم الأستاذ: عزيز ضياء

إن كان قد فاتني أن أقرأ ما يتحفنا به الأستاذ علي العمير، منذ استطاعت عكاظ أن تعتقله وأن تعيده إلى رواق كتابها، فهو هذا الحوار الذي دار، وربما سوف يظل يدور بضع سنين بينه وبين الأستاذ العقيلي، لأن الموضوع بالنسبة لي طلسم لا طاقة لي على معايشته[1]

أما هذه اليوميات[2] التي تنشرها عكاظ في (ملتقى الآراء) للأستاذ العمير فإنها عندي واحدة من أفضل ما أحرص على قراءته، لأنه ـ إلى جانب ما يمتاز به من عمق التناول، بقدرة تدهشني على تجنب عملية (سلق البيض) التي يقع فيها أكثر من يلتزم الكتابة يوميًا، ـ وقد أكون أنا منهم ـ لأنه الوحيد الذي لا تفرغ من قراءته إلا وأنت تبتسم إعجابًا بالسخرية اللاذعة والمهذبة في نفس الوقت، أو ضاحكًا للقفشة الذكية التي يشعها ببراعة يندر أن تجد من يبلغ مستواها، بين من يحاول أن (يخفف) دمه على القراء. ولولا أن الدكتور حسن نصيف يكاد يملأ أكبر مساحة من الفراغ في الأدب الضاحك، بتسإليه ورمضانياته، لكان ما يستحقه العمير، أن يوصف بأنه اليوم الكاتب الوحيد الذي يعرف كيف يعالج الموضوع الجاد بشحنة من الخيوط الضاحكة، وكثيرًا ما يكون بينها تلك الخطوط التي تعطيك ملامحه شخصيًّا وقد طوعها لمطلب السخرية المازحة، يبتسم لها القارئ، لكنه لا يملك إلا الإحساس، بالرضى والألفة والحب!!

---

(١) يشير إلى معركة أدبية دارت رحاها مع العقيلي حول كتابه (المخلاف السليماني).

(٢) يقصد زاويتي اليومية (تحت الشمس).

وفي مقاله الذي استضاف فيه المعري على مائدة الفارسي والقصيبي، يفتح العمير نافذة على مخزونه من القدرة على معالجة العمل الكوميدي في مستوى الأستاذية النادرة، التي يقل نظيرها بين من يتصدون لكتابة الكوميديا، ويخرجونها في أعمال مسرحية، لا يكاد يرفع عنها الستار حتى تتهافت، وتأخذ في السقوط، وإن كان فيها ما يضحك جمهور النظارة فهو تلك الحركات القردية السخيفة، التي لا بد أن تضحك التافهين من العوام، بينما تسخط من يتمتع بشيء من الثقافة والوعي..

ويمتاز العمير، بعد ذلك بأنه ظاهر الحرص على جزالة الأسلوب، وحسن اختيار مفرداته اللغوية، دون تقعر أو إغراق في التعقيد.. مع رشاقة الجملة وقدرتها - رغم قصرها - على توصيل المضمون مشرقًا ومحتفظًا في نفس الوقت بنصيبه الوافر من التهذيب والدعة واللطف..

لم أر العمير منذ سنين طويلة، فإذا أتيح لي أن أراه في يوم ما، فإنني سأحاول إقناعه بأن يتفرغ لكتابة التمثيلية الضاحكة، للإذاعة والتليفزيون ولن يمنعه ذلك أن يواصل لقاءه بقرائه في عكاظ..

عكاظ ١٤٠٢/٩/٢٠هـ

قمة لم تكتشف

لم أكد أصدق أنني المقصود - حقًا - بكل ذلك الثناء العاطر المستطاب الذي أغدقه على شخصي الضعيف أستاذنا الكبير - الكبير حقًا - (عزيز ضياء) في زاويته الشهيرة (نشر وطي) بتاريخ ١٤٠٢/٩/٢٠هـ.

لم أكد أصدق كل ذلك لأنني - عند نفسي - أقل من ذلك بكثير جدًا.. فكيف أكون قد بلغت تلك المنزلة العالية عند أستاذنا الكبير، وهو من هو، اللهم إلا أن يكون قد أراد تشجيعي، وشد أزري.. ولكن ما قاله عني أكثر بكثير مما يقال في مجال التشجيع أو نحو ذلك.

وعهدي بأستاذنا شديد الضّنّ بالثناء إلا في موقعه وموضعه.. فهل أنا أصبحت أهلاً وموضعًا لثناء أستاذنا؟

اللهم لا.. اللهم لا!!

وإنما هي غمرة عطف ورضى من أستاذنا الكبير.. ولا شك أنني أستحق عطفه، وأطمع في رضاه.. ولكن أن يبلغ بي ما هو أكثر من ذلك - فليس هو غير الفخار والزهو.. يا عمير!!

كان النابغة الذبياني.. يضرب خيمته في (عكاظ) فيفد إليه الشعراء.. ينشدونه روائعهم.. فلا يكاد يعلق بشيء.. يضن بمجرد الكلام العابر.. أو التحية العادية.. ولكنه إذا سمع بيتا شرودًا.. أو معنى بكرًا، طرب واهتز وانتشى.. ثم لا يلبث أن يضرب على كتف الشاعر قائلاً له قولته المشهورة:

اذهب يا ابن أخي.. فأنت أشعر العرب!!

وكانت هذه العبارة هي أرفع وسام يمكن أن يحصل عليه أي شاعر حينذاك؛ وسام لا يكون فخرًا للشاعر فحسب.. بل لقبيلته بأسرها.. ولحليفاتها أيضًا من القبائل الأخرى!!

وأستاذنا (عزيز ضياء) ـ وهو في (عكاظ) أيضًا ـ أقدر من النابغة الذبياني وأوسع منه معرفة بالأدب ـ شعره ونثره ـ بما لا يقاس، وهو أيضًا أشد بخلا بثنائه من النابغة الذبياني.. ورغم كل ذلك فقد قال عني أكثر مما كان يقوله النابغة عن الفحول من شعراء عصره.

وكان الخلفية (المأمون) من رجال العلم والأدب المعدودين في عصره.. جمع إلى مجد الخلافة سعة العلم ووفرة الأدب كما هو المشهور عنه.

ثم وهو على هذا القدر من هيبة الخلافة، وجلال العلم، وزينة الأدب.. يفد عليه الشاعر (كلثوم بن عمرو العتابي) فما إن يسلّم عليه بالخلافة حتى يبادره المأمون قائلا:

(كلثوم ياكلثوم.. بلغتني وفاتك فساءتني.. ثم بلغتني وفادتك فسرتني).

فقال له العتابي: (يا أمير المؤمنين.. لو قسمت هاتان الكلمتان على أهل الأرض لوسعتاهما فضلاً وإنعامًا، وقد خصصتني منهما بما لا تتسع له أمنية).

والمأمون ـ فيما عدا الخلافة ـ لا يكاد يزيد شيئًا كثيرًا عن أستاذنا عزيز ضياء.. ولكن أنا أقل بكثير من العتابي الشاعر.. ومع ذلك فقد وسعني من فضل ثناء أستاذنا الكبير ما لو تقاسمه أدباء المملكة بأسرهم لوسعهم بزيادة.

فماذا عساه يكون موقفي؟

(لا خيل عندي أهديها ولا مال).. وأما (إسعاد النطق) فهل أجلب التمر إلى هجر ـ كما يقول المثل؟

أي نطق عساه يسعفني فأسعد به مثل عزيز ضياء؟

وحتى لو كان ذلك في مقدوري.. وأردت أن أهدي إلى أستاذنا الثناء ـ وهو جهد المقل ـ فسيقال: ها هما يتبادلان الثناء، ولا بد أن ذلك باتفاق بينهما على طريقة (شيّلني وأشيّلك).

ولكني لن أتيح الفرصة لأمثال هذه المقولات اللئيمة.. وسأكتفي في مجال الثناء هذا.. أن أستعير من أستاذنا (عبدالعزيز الرفاعي) ما ذكره أو كتبه ونشره على غلاف كتاب للأستاذ عزيز ضياء نفسه ـ ضمن سلسلة المكتبة الصغيرة ـ وهو بعنوان (حمزة شحاتة.. قمة عرفت ولم تكتشف) فقال الأستاذ الرفاعي، وهو صاحب المكتبة الصغيرة، وناشر الكتاب المذكور.. قال: (يعتقد أستاذنا الكبير.. عزيز ضياء أن الشاعر العبقري، حمزة شحاتة.. قمة لم تكتشف بعد.. وهو في ذلك على حق.. وأنا أعتقد شيئًا آخر أيضًا.. هو أن أستاذنا عزيز ضياء.. قمة لم تكتشف كذلك.

إن الأستاذ عزيز ضياء نفسه، رغم صولاته الكثيرة الشاسعة في ساحة الأدب السعودي.. يظل بارزًا في ميدانين اثنين لا يكاد يتخطاهما.. وهما الصحافة والإذاعة.

لذلك أرجو أن لا أكون مخطئًا إن قلت: إن هذا الكتاب يعد أول كتاب يصدره أستاذنا الكبير.. وبه يعيننا ـ معشر القراء ـ على التعرف لا على حمزة شحاتة القمة فحسب.. بل أيضًا على القمة الأخرى.. أعني (عزيز ضياء).

الكتاب إذن يمثل قمتين.. إحداهما تتحدث عن الأخرى.. قد لا أغلو إذا قلت: إن الأستاذ عزيز ضياء يبلغ حقًا الذروة في النثر السائغ السلس القوي الآسر.. تمامًا كما يبلغها حقًا الأستاذ حمزة شحاتة في الشعر المتدفق، حيوية ونصاعة وعبقرية.

إن هذا الكتاب محاولة أولى لاكتشاف القمّتين معًا).

انتهى مقال أستاذنا الرفاعي..

ولقد استعرته منه ليس فقط لأنني لا أستطيع أن أفي أستاذنا عزيز ضياء حقه من الثناء.. بل لأن عزيز ضياء أكبر من ثنائي وأغنى عنه.. ولكني أردد مع صاحبنا (العتابي) السالف الذكر.. قوله:

فُتَّ المدائح إلا أن ألسننا   مستنطقات بما تحوي الضمائر

ثم تبقى ـ بعد كل ذلك ـ كلمة لا بد منها..

لقد عتب عليّ أستاذنا الكبير في نهاية مقاله تلميحا ولكن أبلغ من كل تصريح حيث قال: (لم أر العمير منذ سنين طويلة، فإذا أتيح لي أن أراه في يوم ما، فإني سأحاول إقناعه بأن يتفرغ لكتابة التمثيلية الضاحكة للإذاعة وللتليفزيون ولن يمنعه ذلك أن يواصل لقاءه بقرائه في عكاظ) انتهى.

وأستاذنا عزيز ضياء ليس مديرًا عامًا للإذاعة والتلفزيون حتى يحرص كل هذا الحرص على استقطاب كاتب من طرازي.

وإنما أراد بذلك أن يقول ما معناه بالبلدي: (أنت.. يا واد.. يا علي.. ما تستحي.. ما تخجل.. كل هذه السنين لا أراك فيها.. لا تزورني.. ما هذه العقوق.. أولاد آخر زمن)!!

وأنا - والله - أعترف بذنبي.. وأعترف بتقصيري في حق أستاذنا الكبير.. ولا أجد ما يشفع لي غير أن أقول:

عذرًا.. عذرًا.. يا أستاذنا.. يا والدنا الكريم.

عكاظ ١٤٠٢/٩/٢٣هـ

مع شاعرنا الفقي

يقال إن إعجاب أي قارئ بشاعر أو أديب أو مفكر، يرجع سببه في الواقع إلى وجود تشابه بين القارئ وشاعره أو أديبه المفضل.

وليس من الضروري أن يكون التشابه في السمات.. بل هو التشابه في مناحي التفكير ومشارب الثقافة.. فإذا صح هذا فسأكون فخورا جدًّا.. وأنا أعرب في كل مناسبة عن إعجابي بشخصية وشاعرية، شاعرنا الكبير بحق وحقيق، الأستاذ محمد حسن فقي.

وقد سعدت أمس - شأني شأن عدد كبير من المعجبين المتذوقين للشعر - بالرائعة الجديدة التي أتحفنا بها شاعرنا المبدع في جريدة المدينة الغراء، والقصيدة بعنوان (صديق) أوجعه شاعرنا بالعتب واللوم، وكشف حقيقته الزائفة ومعدنه الرقيق، كما اجتهد شاعرنا في اعتداده بنفسه إزاء هذا الطراز من الأصدقاء.

وما أنا مما يضمرون بآمن ... ولا أنا مما يظهرون بخائف

ثم يبرئ الشاعر نفسه مما قد يتهم به من سوء ظن أو تحامل أو النظر إلى الحياة والأحياء بمنظار أسود.

يقولون إني ليس يبدو لناظري ... من الناس طرا غير سود الصحائف

ولو صدقوا يوما لقالوا بأنهم ... سواد عقول في سواد عواطف

قد استتروا خلف المعاطف خشية ... من المبصري الأسواء خلف المعاطف

إن القصيدة تعتبر بحق رائعة من روائع شاعرنا الكبير في وحدة موضوعها، ودقة وعنف تناولها فضلا عن لفتات فكر بارع، وخلجات نفس خبيرة مجربة عانت الكثير، ومارست الكثير.. وذلك هو الفضل.

وإنني أشعر دائمًا أن هذا الشاعر الكبير لم ينل من التقدير ما يتناسب مع عطائه الثر وينابيعه الفكرية المتدفقة.

إنه الدليل القائم على مدى ما لدينا من جحود ونكران للنبوغ والفضل.. وإلا فإنني لا أعتقد أن لدينا من الشعراء الفحول ما يبيح لنا إغفال مثل هذا الشاعر الفحل.

غفرت لدهري إنني بك عارف وإنك بي دون الورى غير عارف

ألا فاغفر ثم اغفر.. فلعلك تجد في ساحة الغفران ما يجعلك تعذر أبناء دهرك إن وجدت بينهم في زمن سادت فيه الزعائف، وراجت السفاسف، وفسد الذوق، وضحلت المعارف!!

لك الله أيها الشاعر الكبير.. فإما أن تكون قد تقدمت عن زمنك أو تأخرت في المجيء كثيرًا.. من يدري؟

كان ينبغي أن توجد في زمن المتنبي والبحتري وأبي تمام أو تتأخر مع شعراء لم يأتوا بعد.

أما وقد وجدت بيننا فلا تعتب.. بل اغفر.. ثم اغفر!!

البلاد ١٣٩٣/٧/٢٣هـ

مشلح، وعقال، ومساجلة شعرية!

لكل أمة من الأمم زيّها وتقاليدها وعاداتها.. تنشأ أول ما تنشأ هذه التقاليد والعادات والزي.. بدائية بسيطة ثم لا تكون هذه البساطة إلا إرهاصًا لما سيكون بعد من تطوير وتعديل وتحسين.. ثم.. ثم لا تكون تلك البساطة، وهذا الإرهاص إلا بوحي - أصلاً - من مستلزمات البيئة وضروراتها!!

فمثلاً تاريخ (العقال) عندنا.. أو بدايته كانت وسيلة فأصبحت غاية في ذاتها.

كان أسلافنا عندما يرتحل أحدهم من مكان لآخر.. يمتطي ذلوله، والذلول في حاجة عند الإناخة إلى عقال، وإلا ذهبت تنشد المرعى وتهيم على وجهها لا تلوي على شيء.. الأمر الذي يسبب لصاحبها عَنَتًا ومشقة في البحث عنها عند الحاجة فكان لا بد للذلول من عقال.

والعقال إنما هو (حبل) يتخذ لربط الناقة أو الذلول بإحدى يديها.. عندما تكون باركة على الأرض، وتكون يدها المربوطة في شكل منثن.. فلا تستطيع - لو قامت فكاكًا أو انطلاقًا.

وفي الحديث عن النبي ﷺ اعقلها وتوكل.

ثم كان لا بد لصاحب الذلول أن يصطحب معه هذا العقال بصورة دائمة.. عندما يكون كثير الترحال والانتقال.. فرأى أن خير وسيلة لحفظه من الضياع، وجعله قريب المتناول أن يثنيه ويربطه على رأسه.. فلا يكاد يخلعه من رأسه إلا ليعقل به ذلوله ولا يكاد يطلقها منه إلا ليعيده إلى رأسه!!

وعرب هذه الجزيرة - قِدْمًا - ما منهم إلا وهو صاحب ذلول كثير الترحال والارتياد فلست تراهم إلا معصوبي الرؤوس بالعقال.. فأصبح عصب الرأس بالعقال جزءًا لا يتجزأ من زيّهم.. فلما ورثنا ذلك منهم ولم تعد لدينا المطايا..

فقد جعلنا منه غاية في ذاته نعصب به رؤوسنا في غير ما حاجة لاستعماله كما كان أسلافنا، وما دام قد أصبح في ذاته غاية بالنسبة لنا.. وتكملة لزينا.. فقد أدخلنا عليه تحسينات لم يعد معها مجرد حبل لربط الناقة.. بل أصبح زيًّا وأصبحت سوقه رائجة كزي لا كحبل!!

وأما (المشلح) فقد اتخذ أول ما اتخذ للوقاية من البرد.. فكان يغزل ويعمل من الصوف الخالص.. يستعمله عرب الصحراء يتلففون به عند اشتداد البرد لمجرد الوقاية من البرد.. لا باعتباره زيًا في ذاته.. وكان صنعه بدائيًا ساذجا.. لا كما هو اليوم في منتهى الفخامة.

فكما كان (العقال) عند أسلافنا مجرد وسيلة.. أصبح عندنا غاية.. كذلك (المشلح) كان عند أسلافنا لمجرد الوقاية من البرد فهو يُعمل خشنًا غليظًا ما أمكن ذلك.. أصبح عندنا زيًّا.. فنحن نتخذه رقيقا ناعما هفهافا ما أمكن ذلك.. وبذلك انحرفنا به عن غايته، وجعلناه زيًّا شائعا رسميًّا في ذاته.

والحقيقة أن هذا (المشلح) وذلك (العقال) يرهقاننا من أمرنا عسرًا في التكاليف والاستعمال والمظهر.. لذلك ترى الكثير من الشباب، وغير الشباب يحجمون عن استعمالهما، ولولا البيئة والمناسبات، وحكم العادة.. لما عصب أحدهم برأسه عقالاً، ولما أسبل على هيكله مشلحا.

وإنك لترى الآن رجالا يزاولون أعمالا مختلفة أشد ما تكون حاجة إلى التخلص من هذه الأعباء المرهقة ويشعرون أنها فوق رؤوسهم، وعلى أجسامهم من قبيل (لزوم ما لا يلزم).. ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون منها فكاكا.. ما دام عليهم أن يحترموا الزي الرسمي الكامل وإلا فهم عرضة للهزء والسخرية والاحتقار لذلك فهم يرضخون مرغمين لهذا المفاهيم.. مع أنهم على يقين أنها مفاهيم خاطئة.. أو لا لزوم لها.

ومن ذلك ما يتحدث به بعض الناس في مجالسهم همسا، وما نشره بعض الكتّاب علنًا..

ومن أطرف ما قرأته أخيرًا من هذا القبيل في جريدة الندوة.. مساجلة شعرية فكهة طريفة بين الأساتذة.. حسين سرحان، وحسين عرب، وأحمد جمال، وها أنا أستعرضها.. كلون من الأحاديث التي تدور في الأوساط الواعية، مندّدة بهذا المشلح المرهق، وهذا العقال الذي ما (أنزل الله به من سلطان)!!

يقول الأستاذ سرحان:

تحملت العباءة والعقالا ... وهذا البرد ينثال انثيالا

ففيها الدفء من قر وصر ... إذا هبت ذوائبها شمالا

ولكن كيف أحملها بيوم ... عنيف الحر يشتعل اشتعالا؟

هذه هي علامة الاستفهام الكبيرة.. التي تركها الأستاذ (سرحان) تتلوى حيرة وغموضا.

نعم.. نعم.. كيف يلبسها في يوم شديد الحر؟ وهل لا بد من ذلك؟ ولماذا؟ أما في البرد.. فحملها معقول كأية (بطانية) مهذبة.. تقيه البرد.. ولكن في الحر أيّ لزوم لها؟.. مع بقية الأثافي من غترة وطاقية؟

أرى عرقي إذا ما جف حينا ... تفجر - بعد وانهمل انهمالاً

وكيف بالله لا يتفجر وينهمل، وأثافٍ ثلاث تكتنفه، غترة، ومشلح، وعقال؟

وأذابت غترتي وسقت قذالي ... بمعتصر يدير بي القذالا

وهل (طاقيتي) يوما ستغني ... إذا انسلّت حواشيها انسلالا

لا لن تُغن!!

وأما الأستاذ حسين عرب.. فهو ثائر مزمجر.. فيه من غترته وحدها غم تمطى فكيف بعباءة وطاقية فأما العقال.. فهو يرى الدنيا بما وسعت عقالا!!

فيا لعباءة كانت خيوطا ... على كتفيّ فاندالت حبالاً

وما (طاقيتي) إلا مجاز ... تكلت به الحقيقة والخيالاً

وما لي والعقال فإن نفسي ... ترى الدنيا بما وسعت عقالاً

فإذا كان هذا هو (حسين عرب) وهو من هو وزيرًا وأديبا ومفكرًا.. يرى في المشلح والعقال والغترة هذا الرأي الحر العنيف، ومع ذلك يلبسها رغمًا عنه.. أفلا ترى في ذلك - أيها القارئ - تنافرًا واضحًا كافيًا لأن يحملنا على أن نفعل ما نرى ونعتقد.. لا ما تفعله البيئة وتعتقده؟

أما الأستاذ أحمد جمال.. فهو يرى في لبس المشلح والعقال مدعاة للزهو والجلال، ويرى في المشلح أنه يغني عن اللحف والبطانيات، كذلك العقال قد ينفع عند اللزوم تصدّ به عداءة عاد.. وتكتسب به احترام غرّ الأجناد؟

(السخرية واضحة!!)

اسمعه يقول:

سلا كتفيّ يوم لبست بشتا	**ورأسي حينما اعتصب العقالا**
أكان يفوقني غيري زهوًا	**على الدنيا ويكبرني جلالا**
وما أغني العباءة عن لحاف	**و(دقديق) إذا ما البرد صالا**
وما أوفى العقال لضرب عاد	**يبادلك السباب أو انفصالا**
وما أحراه حين يراك غيرٌ	**من الأجناد أن يقف امتثالاً**

وهذه.. في رأيي تبريرات ساخرة متهكمة، ولكنها مهذبة على كل حال!!

وها أنت ترى أيها القارئ الكريم مدى ما تبلغه الأحاديث الخاصة من نيل بالمشلح والعقال خاصة.. كأي شيء لا لزوم له ومع ذلك لا بد منه!!

أما والله.. إننا لنعيش في حيرة وصراع بين آرائنا وبين ما تفرضه علينا البيئة والتقاليد العتيقة.. بين إيماننا ورغباتنا في الانطلاق. وبين قيودنا السخيفة التي نرزح تحت نيرها.. وبين مفاهيم العصر الجديد المنطلق.. وبين رواسبنا الآسنة الراكدة.

مجلة الرائد ١٣٨٣/٦/٣هـ .

المكتبـــة المنزليـــة!

أخي الكريم الأستاذ/ السيد علي فدعق

قد تفاجأ بتوجيه هذه الرسالة إليك.. وعلى صفحات الجريدة.. بينما كان بإمكاني أن أوجهها إليك رأسًا بالبريد ثم لا أخسر أكثر من بضعة قروش قيمة طوابع البريد.

مع معرفتي الأكيدة لهذه البدهيات.. فضلت أن أوجه لك هذه الرسالة على صفحات الجريدة.. ليس لأنني أبخل ببضعة قروش.. ولا لأن عندي تلك الأفكار القيمة التي يجب أن أعممها على القراء.. ولكن لما هو أقل أو أكثر من هذا وذلك - فضلت أن أوجه لك هذه الرسالة على صفحات الجريدة وسأذكر السبب ضمنًا فيما بعد.

الوقت الآن بعد منتصف الليل..

اشتغلت في بداية هذه الليلة أو مطلعها مع بعض الإخوان في نقل مكتبتي المتواضعة من غرفة كانت تحتلها بكاملها إلى غرفة أخرى.. حشدت بها الجدران من كل جانب.. ولم يبق في الغرفة من مجال سوى الوسط.

الوقت الآن.. قلت بعد منتصف الليل.. وأنا تعب جدًّا من جراء المجهود الذي بذلته كمشاركة في نقل المكتبة.. ولست أدري كيف ألقيت نظرة على الكتب التي تكاد تصطدم بأنفي.. نظرة فيها شيء من الحنان والحب لهذه الكتب.. وفيها شيء ربما أكثر من القرف والنكد والمتاعب التي تكبدتها من جراء الحرص على الاحتفاظ بمكتبة منزلية، ولعلك بدأت الآن تعرف سبب توجيه هذه الرسالة إليك بالذات.. وعلى صفحات الجريدة؟

صدق.. أو لا تصدق.. وقع نظري صدفة على كتاب (فكرة اليوم).. الكتاب

الذي صدر عن وزارة الإعلام منذ حوالي ثلاث سنوات.

ومنذ ذلك الحين كان من ضمن محتويات مكتبتي المتواضعة ـ ولكنني لم أقرأه إلى الآن.. ليس استهانة به إلى هذا الحد.. ولكن لأنني سمعت معظم مادته من الإذاعة رأسًا، وهو ـ أي الكتاب ـ كما تعرف مختارات من برنامج (فكرة اليوم) الذي تقدمه الإذاعة.. لذلك ـ ربما لأكثر من ذلك ـ لم أحفل بقراءته طيلة السنوات الماضية.

أما الليلة فقلت أتسلى فيه.. حتى ينضج النوم!

وكعادتي دائمًا في قراءة الكتب أبدأ دائمًا بالفهرست وما إليه.. وخطر في بالي أثناء ذلك، وبعدما قرأت عدة أسماء من كتّابنا الأفاضل.. قلت في نفسي إنها فرصة أتعرف على مطامح هؤلاء الكتّاب عن طريق أفكارهم المختصرة المضغوطة هذه.

هل تصدق يا سيدي أن أول ما توصلت إليه إطلاقًا هو أن الأستاذ عبدالمجيد شبكشي ـ وهو أحد كتّاب فكرة اليوم ـ يختلف أسلوبه كثيرًا، وحتى نهج تفكيره بفارق ملحوظ بين أسلوبه السهل البسيط الحلو في (فكرة اليوم) وبين مقالاته المنشورة في جريدة البلاد التي يرأس تحريرها[١].

إنه في (فكرة اليوم) يمتاز ببساطة مذهلة في الإقناع والأسلوب.

أما في افتتاحيته للجريدة أو مقالاته بها فتشعر بأسلوب صحفي زهقان.. يسأل الله دائمًا الغفران والرحمة.. وحسن التوبة!!

ربما شطحت كثيرًا يا سيدي، ولكنني أعتقد أنني ما زلت في صلب الموضوع.. وإذا كان غير ذلك فلا تنس أن الوقت يزحف الآن نحو الفجر، وأنا أكتب هذه الرسالة والمؤكد أنني سأتأخر في القيام غدًا.. وبإمكان إدارة مؤسسة البلاد ـ وأنا أعمل بها كما تعرف ـ أن تعرف من مقالي هذا أنني

---

(١) اتضح لي فيما بعد سبب ذلك ولكن لا ضرورة لذكره هنا.

تأخرت فتحصل مصيبة الحسم من مرتبي تبعًا لاعترافي هذا.

ولكن الأهم من ذلك - طبعًا - هو موضوع هذه الرسالة.

قلت: أتسلى في كتاب (فكرة اليوم) حتى ينضج النوم.. ولم ينضج النوم مع الأسف، أو بلا أسف قبل أن أقرأ (فكرة) لك أو بقلمك: عنوانها (مكتبة المنزل) قرأتها ووقفت عندها كثيرًا.

إنني أشاركك الرأي من كل أعماقي في الضرورة الملحة لوجود مكتبة منزلية في كل منزل مهما تواضع.. ولقد تأثرت حقًّا بصديقك السائق الإنكليزي الذي تشرفت أو تشرف هو بزيارتك لبيته فوجدت عنده مكتبة صغيرة في منزله.. والذي لاحظته عليه أنك كل ما ركبت معه وجدت أمام عجلة القيادة جريدة.. إلخ.

إلى الآن فكرتك في غاية الروعة.

ولكن - تفكُّها وربما جدًّا - سأقص عليك حكايتي مع مكتبتي المنزلية.. وهي، أي المكتبة نموذج لمكتبات (الغلابة) من أمثالي الذين لا يملكون مساكن يقيمون فيها.. ومع ذلك أو بالإضافة إليه تضطرهم ظروف المعيشة الصعبة للانتقال من مكان لآخر.. ومن مدينة لأخرى.

قبل عامين كنت في جدة، وأنا الآن في الرياض، وربما في أقل من عام أعود لجدة، وقبل ذلك كله كنت في الرياض.. وأساس موطني جيزان.

وأثناء وجودي في أية مدينة أضطر للانتقال من منزل لآخر بحكم أنني لا أملك منزلاً.

فهل تظن المكتبة المنزلية في هذه الحالة نعمة أم نقمة؟

يقال إن النقل من منزل لآخر نصف حريقة.

وأنا على استعداد أن يحصل ما يحصل في أثاث منزلي لا سمح الله، ولكن أن ينخلع جلد مجلد واحد من مكتبتي أصعب عليَّ كثيرًا من أن ينخلع ضرسي..

فما بالك وأنا عرضة للنقل في كل حين.. أليست مكتبتي المنزلية عرضة للتمزق والضياع والشتات؟

أنا أعرف أنك عندما دعوت إلى ضرورة المكتبة المنزلية - وأنا أشاركك بصورة ملحة في هذه الدعوة - كنت تفترض وجود مكتبات عامة.. بحيث لا يضطر الأديب أو المتأدب أو محب الاستطلاع إلا إلى كتب قليلة جدًّا في منزله.

ولكن ما رأيك في أن معظم مدننا - بله قرانا - لا توجد بها مكتبات عامة.. وحتى تلك التي توجد بها مكتبات.. ليست - مع الأسف - على المستوى المنشود.

وما رأيك في شخص مثل أخيك الصغير يضطر لقراءة الكتب ومراجعتها بحكم هوسه وحبه للاطلاع ماذا يصنع؟

ثم ما رأيك في أن وزارة المعارف الجليلة وجدت ما يشغلها في المدارس والمعاهد والكليات.. وانشغلت بذلك عنا نحن الذين لا نستفيد من المدارس والمعاهد والكليات؟

يقال إن مهمة وزارة المعارف في أية بلدة ليست محصورة بالضرورة في المدارس والمعاهد والكليات.. وإنما تتعداها بكثير إلى الثقافة العامة.. والمكتبات العامة.. والمحاضرات العامة.. و.. العامة إلخ.. إلخ.

وأنا والله أعرف معالي وزير معارفنا[1] معرفة جيدة وأكيدة.. أعرف أنه يتطلع بطموح إلى مهمام وزارته الجليلة.. ويعيها جيدًا.. وبالتأكيد أكثر مني.

ولكنني لست الآن في موقف المحامي عنه.. بل أنا - لا سمح الله - في موقف المهاجم له مهما كان عذره، وأنا بذلك لا أتهم وزارة المعارف بالتقصير، ولكنني مواطن ينشد الأمثل والأكمل لبلده الحبيب.

---

(١) كان وزير المعارف معالي حسن بن عبدالله آل الشيخ قبل إنشاء وزارة التعليم العالي وتوليه إياها.

وإلا فإنني أسمع وأرى في الراديو والتليفزيون معظم الأيام والليالي عن افتتاح مدرسة أو معهد أو كلية.. أو حفل في مدرسة أو معهد أو كلية، ولكنني لا أسمع نفس الاهتمام بالمكتبات العامة.. وإن كان هناك شيء من ذلك فهو ليس بالقدر المنشود والأمثل.. وأظن معالي وزير المعارف نفسه يشاركني هذا الرأي فضلاً عن غيره من المواطنين.

ولا شك أن شيئًا من ذلك ضمن مشروعات الوزارة حاليًا أو مستقبلاً.. ولكن الملاحظ إلى الآن بصورة أكيدة أن انشغال الوزارة بالمدارس والمعاهد والكليات قد أشغلها عنا نحن الذين لا نستفيد من المدارس والمعاهد أو الكليات.. ونحن لسنا قلة إلى الحد الذي يمكن أن تستهين به وزارة معارفنا الجليلة.

فيا أخي.. يا فدعق.

أنا والله معك في ضرورة وجود المكتبة المنزلية.

ولكن قبل أن تكون دعوتك، وقبل أن توجد المكتبة المنزلية.. يجب أن توجد المكتبة.. بل المكتبات العامة في كل مدينة وقرية.. بل يجب أن تعرض الكتب برخص رغيف العيش نفسه.

عكاظ ١٣٨٩/١/٢٧هـ

اللغة بين النطق والكتابة

يطالعنا بعض أدبائنا بمباحث لغوية بين حين وآخر.. ومنها تصحيح نطقنا لبعض الكلمات فجيزان صحتها جازان.. وجدة بالضم لا بالكسر ولا بالفتح.. وأخيرًا ثقافة بالكسر لا بالفتح وغير ذلك من التصحيحات التي يبدو واضحًا أنها تصحح طريقتنا في النطق.

وقد كنا مع الأستاذ محمد حسين زيدان في حديث عن ذلك فقال: إنهم يؤاخذوننا على النطق وذلك لا يصح.

ومن المعلوم أن معظم اللغات في العالم تنتهي إلى لغة راقية محفوظة مكتوبة هي لغة العلم والفكر والشعر والأدب وهي اللغة التي تحتفظ على مر الزمن بقواعدها وأصولها ونحوها وصرفها وبيانها ولغة أو لغات أو لهجات أخرى منطوقة أو محكية هي لغة الحياة اليومية أو لغة التعايش المرنة السريعة التي لا تخضع لقواعد ونحو أو صرف وإنها هدفها بيان وإيضاح المطلوب.. وهي لغة العامة ولهجاتهم فيها مختلفة ونطقهم فيها للكلمات نفسها ضمّا أو فتحًا أو كسرًا أو إمالة حسب طريقة كل قوم في النطق ترخيما أو إمالة أو فتحًا أو كسرًا.. إلخ.

واللغة العربية لم تكن مقيدة بقواعد ونحو وصرف الخ.. الخ إلا بعد أن أصبحت لغة القرآن الكريم أي لغة للإسلام الذي بعث الله نبيه ليكون رسوله إلى العالمين مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله أي إلى دينه الإسلامي الحنيف، فكان لا بد من أن يختلط العربي المسلم بغيره من الأعاجم سواء عن طريق الفتح أو غيره من الطرق فالمسلم أخو المسلم، ولا فرق بين العربي والعجمي إلا بالتقوى (لا باللغة).

وحيث إن اللغة العربية هي لغة القرآن ولا بد أن يحفظ الله كتابه كما أنزل..
وحيث بدأت العُجمة تتسرب إلى العربية فقد هَبّ القوم بكل جزع إلى وضع قواعد اللغة وأصولها. فأصبحت تلك القواعد عِلمًا بذاته لم يكن واردًا لو لم تكن هذه اللغة لغة القرآن. وتقدم القوم وأخذت الفتوحات تنتشر في كل حدب وصوب في بلدان الأعاجم ينضمون إلى الإسلام زرافات ووحدانًا، يختلط بهم المسلمون ويختلطون هم بالمسلمين بالضرورة فكان لا بد أن تتأثر اللغة العربية المنطوقة بكثير من الكلمات غير العربية وبضروب شتى من النطق تأثيرا بطرائق النطق وتأثيراته المناخية من مكان لآخر.

ولكن اللغة العربية الفصيحة لغة القرآن ظلت محفوظة مكتوبة بعد أن نشط التدوين، فلا يكتب العربي حديثه أو فكره أو أدبه أو شعره إلا بلغته الفصيحة المكتوبة كتفريق واضح بين لغة الكتابة ولغة النطق.

بل إن اللغة العربية كانت قبل نزول القرآن عدة لغات فهذه لغة قريش وتلك لغة تميم.. إلخ.

ولقد تنبه عثمان بن عفان - رضي الله عنه - يومًا فوجد أن القرآن نفسه قد كتب في عدة مصاحف على عدة لغات عربية هي السبعة الأحرف أو السبع اللغات فجمع المصاحف وأحرقها وأبقى فقط مصحفه الذي كتبه على لغة قريش ويمسمى مصحف عثمان إلى اليوم.

ومن الواضح أنه - رضى الله عنه - لم يفعل ذلك إلا ضَنًّا بالقرآن أن يتشتت بين لغات العرب المختلفة وهو الذي - أي القرآن - أراد له الله الحفظ والمنعة.. ولم يكن قصد عثمان - رضي الله عنه - هو الإنكار على العرب أو المسلمين بأن لا تكون لهم غير لغة واحدة لا تختلف في النطق أو الكتابة. فقد رأينا أن ذلك من العسير جدًّا في عهد اللغة العربية في الجاهلية نفسها حيث كان يختلف نطق كثير من الكلمات من قبيلة إلى أخرى.. بل حيث كانت توجد كلمات عند

قبيلة لا توجد عند أخرى وذلك تبعا لطريقة الحياة والمعيشة في كل قبيلة.

وقصة الحميري مع الرسول ﷺ معروفة مشهورة (ليس من امبر امصيام في امسفر) فأم عند الحميريين توضع بدلاً من أل التعريف فأقره الرسول ﷺ بل جاراه في النطق بلغته، وعلى الرغم من جوازها كلغة قوم ولغة حياة ونطق فقط، فإنه لا يجوز بالتأكيد أن نستخدمها في القرآن فنقول مثلاً (أمحمد لله رب امعالمين امرحمن امرحيم) كما لا يجوز أن يكون القرآن بأية لهجة من اللهجات العربية الموجودة إلى الآن التي تحذف بعض الحروف أو تستبدلها بغيرها مع أن هذه اللغات واللهجات جائزة لأهلها كلغة حياة يومية.

ومن المعروف أن كثيرًا من لغات العالم ومنها الإنجليزية مثلا يوجد فيها كثير من الكلمات التي تكتب بشكل يختلف مع نطقها في الحياة اليومية، وذلك يدل على أن القوم يحافظون على لغتهم ولكن في الكتابة فقط، فأما النطق فيتركون لأنفسهم الخيار فيه.

وهل أدل على ذلك من أنهم يكتبون بعض الكلمات بشكل وبحروف تختلف زيادة أو نقصا عن حروف وشكل الكلمة التي ينطقونها وذلك لمجرد المحافظة على لغتهم المكتوبة والمحافظة في نفس الوقت على حريتهم في نطق أية كلمة كما تشاء حاجتهم، وذلك هو الأساس في معظم لغات العالم تقريبا فإن البون الشاسع بين اللغة الفصحى لغة الكتابة والأدب والفكر وبين اللغة المنطوقة لغة الحياة والمعيشة، معروف للجميع.

ومن هنا وددت أن أشير إلى أن هؤلاء الذين يقومون بالتصحيحات اللغوية بين حين وآخر يجب أن يتجه تصحيحهم إلى تحرير اللغة الفصحى المكتوبة من الكلمات الدخيلة عليها لا من طريقة النطق بهذه الكلمات أو بغيرها فذلك هو الفرق.. والله أعلم.

البلاد ١٣٩٢/٩/٨هـ

محنة المفكر العربي!

لعل من أبرز مظاهر محنة المفكر العربي في عالمنا العربي ما يعانيه رجال الفكر أنفسهم من تناقض، وشتات وتمزق كنتيجة لا بد منها لما عاناه العالم العربي نفسه منذ أصبح محورًا للأطماع الاستعمارية والحروب الصليبية والصهيونية وغيرهما.. حتى لقد أصبح المفكر العربي لا يستطيع أن يلم شتات ذهنه أو تفكيره في خضم المذاهب والاتجاهات والصراعات التي تعج بها الساحة العربية. وهي مذاهب واتجاهات وصراعات زرعتها أيد أجنبية لأهداف وأغراض ليس منها بالطبع تنمية الفكر العربي.. بل اضطرابه وبلبلته وإفساد رأيه!

ولكل مذهب من تلك المذاهب شعاراته البراقة وصيغه المنمقة وفلسفته التي تبدو في خضم الشعارات والصيغ وكأنها غاية ما تسعى إليه الإنسانية من سعادة ورقي وطمأنينة وفردوس!!

وكل هذا أو غيره من المغالاة أو المبالغة في التعصب للمذاهب والأفكار يمكن أن يقبل ولو على سبيل (لا بد مما ليس منه بد) أو لمجرد حرية الفكر أو حرية المعتقد.. أو أي شيء من هذا القبيل لا تشوبه الشوائب أو تحوكه الدسائس.

ولكن المشكلة أن الذين يتزعمون المناداة بحرية الفكر أو حرية المعتقد هم أشد الناس ضيقا وتبرما وإقذاعا في السباب والشتائم وكيل التهم بالخيانة والعمالة والجاسوسية والتعفن الفكري إلى غير ذلك من الموبقات التي يكيلونها ضد كل من يعارضهم الرأي أو الفكر أو المعتقد.

وهذا وحده يعطينا أكبر دليل على أن مزاعم حرية الفكر والرأي.. أو حتى

مزاعم التقدمية أو الحداثة والمعاصرة إنما هي مجرد ستار لتغطية ما هو أهم وأخطر من دعاوى الفكر أو الحرية أو ما شابه ذلك.

ولو كانت المسألة مسألة حرية فكرية أو مذهبية لكان الأمر أدعى إلى سماع الرأي ونقيضه، ولكان الأمر أدعى إلى سماع قبول النقاش في كل مذهب أو اتجاه برحابة صدر وسعة أفق ورغبة صادقة في الوصول إلى الأفضل والأكمل، ولكن دعاوى حرية الفكر أو دعاوى المذاهب المختلفة ليس لها من اسمها أدنى نصيب وإنما كل فريق يعمل لغايات مختلفة ولحساب جهات بعينها ذات مصلحة في انتشار هذا المذهب أو ذاك كجزء من مخططاتها البعيدة المدى والأهداف.

ولذلك ما إن يبدي أي مفكر عربي رأيه الصريح في شأن من الشؤون أو مذهب من المذاهب حتى يهب المجندون لذلك المذهب في حملة عنيفة مسعورة ليس منها بالطبع أدنى أصول النقاش أو الجدل أو قرع الحجة بالحجة، وإنما هي - أي الحملة - سيل من الشتائم والاتهامات التي تصل إلى حد استعداء السلطات.. أو بالأصح استعداء قوى المراكز المناصرة لذلك المذهب الذي تناوله المفكر العربي - أي مفكر - برأي من الآراء أو ملاحظة من الملاحظات!!

وينسى هؤلاء بكل قحة وبجاحة ما كانوا ينادون به بالأمس القريب وربما كل يوم أو حين وفي مناسبة أو غير مناسبة من حقوق المواطن في حرية الرأي والفكر والتعبير.. فكأن حرية الرأي والفكر والتعبير هي حريتهم فيما يدعون إليه من مذاهب وآراء، وكأن هذه المذاهب والآراء من القدسية بحيث لا ترقى إليها حرية الآخرين في إبداء الرأي أو الملاحظة!!

تلك هي المحنة الحقيقية التي يعيشها المفكر العربي ولا شك عندي.. بل إني على يقين تقريبا بأن هناك الكثير من المفكرين العرب يحرصون كثيرا على

كتم أو خنق أفكارهم خوفا من مغبة ما لا بد أن يتعرضوا له من قبيح الذكر من قبل مجندي قوى المذاهب والاتجاهات الخفية الغامضة أو حتى المعلنة في بعض الأجزاء من الوطن العربي!!

وإذا صادف أن تشجع أحد المفكرين العرب وأبدى رأيًا أو مجموعة آراء في شأن أو آخر فإنه سيقضي وقتًا طويلا وهو يسودّ الصفحات تلو الصفحات في الدفاع عن نفسه وشرفه وكرامته ضد كيل التهم بالعمالة أو الخيانة أو الرجعية أو الارتداد.. أو بها جميعا..

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

البلاد ١٥/١٠/١٣٩٤هـ

فضل النقد على العلم والأدب!

كنت في زيارة خاصة للصديق الكبير الأستاذ عبدالعزيز السالم فجلسنا - كالعادة - نتجاذب أطراف الحديث وخاصة في شؤون الأدب والأدباء!!

فالحديث مع عبدالعزيز السالم في مجالسه الخاصة لا يكون عادة إلا في شؤون الأدب والأدباء!!

ذلك لأنه - كما ربما لا يعرف كثير من الناس - أنه من خيرة متذوقي الأدب وأن الأدباء بخاصة من أحب الناس إلى قلبه وهو رجل واسع الاطلاع شديد الولع باقتناء الكتب والحديث عنها وعن مؤلفيها ومحققيها.. إلخ.

وفي أثناء الحديث قام الأستاذ السالم إلى غرفته الخاصة حيث جاءني بمجلدين ضخمين هدية كريمة هما كتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام تحقيق الأستاذ الكبير العلامة محمود محمد شاكر وهو بالمناسبة من أعز وأخلص أصدقاء الأستاذ السالم.

وعدنا - الأستاذ السالم وأنا - نتجاذب أطراف الحديث عن محققي الكتب القديمة ومدى الأخطاء الفادحة التي يقعون فيها.. ثم مكابرتهم مع ذلك على أخطائهم وأغاليطهم، وكان لا بد أن نشير في هذا المجال إلى الضد فالضد يبرز حسنه الضد - كما يقول الشاعر - فحدثني الأستاذ السالم بكثير من الإعجاب والاعتزاز عن مدى ما يتمتع به الشيخ محمود محمد شاكر من تقدير كبير للنقد والنقاد.. فهو لذلك يحتفل كثيرا بكل ملاحظة تأتيه أو نقد يوجه إلى عمل من أعماله الأدبية والفكرية حتى لقد بلغ به الأمر أن وصلته رسالة عن طريق لندن من يهودي يعيش في إسرائيل تتضمن الرسالة بعض الملاحظات على أعمال الأستاذ شاكر فلم يستنكف أن يحتفل بهذه الرسالة وهي من عدو ويأخذ بما فيها من وجاهة وصواب على طريقة: الحقيقة ضالة المؤمن يأخذها حيث

وجدها.. بل لقد أفرد الأستاذ شاكر فصلا خاصا في مقدمته لكتاب (طبقات فحول الشعراء) عن فضل النقاد في أعماله الأدبية وبصفة خاصة على الطبعة الأولى من هذا الكتاب وذكر جميع من أفادوه ونقدوه وفي مقدمتهم الأستاذ أحمد صقر والشيخ حمد الجاسر.

فقد ذكر أن الشيخ الجاسر بعث إليه بمقال طويل جدًّا ضمنه ملاحظاته على الطبعة الأولى من الكتاب وأن الأستاذ شاكر قد وجد جل أو كل تلك الملاحظات صحيحة تمامًا وأنه قد أخذ بها بأكملها تقريبًا في هذه الطبعة الثانية للكتاب وأشار إلى ذلك بكل تواضع وصراحة في مقدمته لطبعته الثانية.

بل وصل به الأمر إلى أن تبرأ من كل أخطائه في الطبعة السابقة وطلب من القراء والأدباء والباحثين الذين لديهم تلك الطبعة أن يصححوها بالمقارنة بهذه الطبعة الجديدة أو يستغنوا عنها نهائيًا وأنه براء من كل ما ينسب إليه بعد ذلك في تلك الطبعة.

قلت للأستاذ السالم: هذا هو محمود محمد شاكر أبرز وأشهر وأقدر محققي كتب التراث ولكن لا يعرف الفضل أو العلم إلا أهله!

أما هؤلاء الزعانف الذي يحسبون أنفسهم على العلم والأدب فهم أضيق الناس صدرًا أو ذرعًا بنقد النقاد وملاحظاتهم وتصويباتهم لأنهم يرون في ذلك عدوانا عليهم وكشفا لدخائلهم وفضحا لجهلهم وتسفيهًا لآرائهم وتطامنًا مع غرورهم.

أما الحقيقة فهي أن فضل النقد على العلم والأدب لا تقاس بقدر أو قيمة، ذلك لأن العلماء والأدباء - شأنهم شأن غيرهم من سائر البشر - عرضة للخطأ والصواب وفوق كل ذي علم عليم.. وليس هناك أدنى ضير.. بل من الواجب على كل ذي علم أن ينبه غيره إلى ما قد يقع فيه من أخطاء عن جهل أو غير قصد أو سبق خاطر.. ولنا في السلف الصالح أعظم قدوة في هذا المجال وغيره.

وأقرب مثال خطر في بإلي الآن هو ذلك الموقف الشهير الذي وقفته

(امرأة) مع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكان قد خطر له أن يعالج في خطبة الجمعة أو إحدى خطبه في المسلمين موضوع المهور، وكأنه رأى أن يحدد مهرًا معينًا كحد أقصى للمهور.. فما راعه إلا صوت امرأة من خلف الصفوف تقول له:

هيه يا عمر.. فما تقول في قول الله ـ سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾... الآية.. فوجم عمر ـ رضي الله عنه ـ ثم قال:

الله أكبر.. حتى النساء أفقه منك يا عمر ـ يخاطب نفسه ـ وعدل عن رأيه ذاك بشأن المهور، والأمثلة من هذا القبيل كثيرة جدًّا وهي في شؤون الأدب أكثر وأكثر!!

وأنا شخصيًّا أعتقد أنه حيث يكون النقد الجيد يكون العلماء والأدباء أكثر حرصًا على التجويد والدقة والتحرز.

أما في حالة غياب النقد كما هو حاصل عندنا الآن فيكون الخلط واللت والعجن ونشر كل ما هب ودب باسم الأدب وعلى ذمة الأدباء.

وأعود فأذكر مثلاً آخر على فضل النقد على العلم والأدب فقد قام أحد المحققين وأظنه الدكتور صلاح الدين المنجّد ـ إن لم تَخُنّي الذاكرة ـ بتحقيق أحد كتب التراث، (لا أذكره على وجه الدقة). فأنا أكتب هذا الموضوع في مكتبي بالجريدة معتمدًا على ذاكرتي بعيدا عن كتبي وكناشاتي.

وتم تحقيق ذلك الكتاب وطبعه ونشره وتداوله بين الناس.. بل وأصبح مرجعًا مُهمًّا من المراجع الباحثين. ولكن بعد ذلك وبكل بساطة يأتي أحد النقاد فيكشف أن حوالي عشرين ورقة من الكتاب ليست من أصل الكتاب نفسه ذلك لأنها تضمنت تراجم لأشخاص توفوا بعد وفاة المؤلف نفسه.. فلا يعقل بالطبع أن يترجم المؤلف لأشخاص يذكر تاريخ ميلادهم وتاريخ وفياتهم

بعد وفاته هو، ولكن الذي يبدو كما أشار ذلك الناقد النابه أن أحد الذين اقتنوا مخطوطة ذلك الكتاب قد أراد أن يضيف إلى نسخته من الكتاب بعض تراجم الأشخاص المجانسين لأولئك المترجم لهم في الكتاب نفسه، ويبدو أنه قد ضم وريقاته الجديدة إلى نسخته دون أن يشير إلى ما فعل.. فجاء المحقق الفاضل ليصادف هذه النسخة بالذات، وكأنه لم يجد غيرها، أو لم يهتم بالبحث عن غيرها - كأدنى شروط التحقيق - فكان لا بد أن يقع في ذلك الخطأ الفادح الذي لولا النقد ونباهته لما كان فضل هذا الاكتشاف الخطير في أهم كتاب من كتب التراث الأدبي.

وهكذا فإن فضل النقد على العلم والأدب لا ينكره إلا جاحد أو مكابر أو.. أولئك الذين يدعون العلم والأدب.. فينكرون فضل النقد لأنهم يخشون سطوته وبأسه. فهم في عداء له..

وما دمنا في سيرة النقد والنقاد.. فلا بأس أن نفاكه القراء بعد هذا الموضوع الطويل الجاف ببعض الطرائف واللطائف المتعلقة بالنقد والنقاد. وسأختار هنا طائفة من الروايات اللطيفة التي تنم عن حس مرهف ونكتة لاذعة وبديهة حاضرة.. وليس لي في ذلك غير فضل الجمع والاختيار.

أنشدت - بضم الألف - سكينة بنت الحسين قول الحارث بن خالد:

ففرعن من سبع وقد جهدت   لأحشائهن موائل الخمر

فقالت: أحسن ذلك عندكم؟

قالوا: نعم.

قالت: وما حسنه؟ فوالله لو طافت الإبل سبعًا لجهدت أحشاؤها.

أنشد نصيب الشاعر وهو مولى أسود اللون قوله:

وكدت ولم أخلق من الطير إن بدا   لها بارق نحو الحجاز أطير

فسمعه ابن أبي عتيق فقال له: يا ابن أم.. قل (غاق) فإنك تطير.. يعني أنه غراب أسود!!

غنت مغنية وإبراهيم المهدي حاضر (من رأى نوقًا غدت سحرا) فقال إبراهيم أنا رأيت هذا..

قيل له: وأين رأيته أيها الأمير..؟

قال: رأيت ولد علي بن ريطة يمضون في السحر إلى الصيد!!

عندما سمع ابن أبي عتيق قول ابن قيس الرقيات:

تقدمت بي الشهباء نحو ابن جعفر   سواء عليها ليلها ونارها

يقصد ناقته - قال ابن أبي عتيق: كانت هذه يا ابن أم في ما أرى عمياء!!

البلاد ١٥/٥/١٣٩٤هـ

الكتابة عن الأديب حيًّا!

كثيرًا ما طرح هذا السؤال في صحفنا وبين أوساطنا الأدبية.. وهو:

هل تجوز الكتابة عن الأديب الحي؟!

ولكن بصيغة أخرى وهي: إلى أي حد يمكن تناول شخص الأديب في ذاته أو حياته الخاصة عند تناول أعماله وآثاره الأدبية؟

وبالطبع اختلفت الآراء وتضاربت كثيرًا حول هذه النقطة بين مؤيد ومعارض.. بين مؤيد لإباحة شخص الأديب وحياته الخاصة لمشرحة النقاد ومباضعهم بحجة أن الأديب منذ اختار الأدب.. أو منذ أدركته حرفة الأدب كتعبير القدامى.. لم يعد ملكا لنفسه وأن حياته الخاصة لا بد أن تنعكس بصورة أو بأخرى على إنتاجه، ومن ثم فإن تناول إنتاجه يحتم بالضرورة تناول حياته الخاصة وغير الخاصة لمعرفة مدى تأثيرها على مسار تفكيره وإنتاجه!!

وبين معارض يرى أن شخص الأديب وسلوكه وحياته الخاصة يجب أن تبقى بمأمن عن تناول النقاد بأية صورة كانت!!

وأن يكون الأثر وحده هو موضع النقد والتناول بصرف النظر عن تأثير أو عدم تأثير حياة الأديب على إنتاجه وفنه.

وأذكر أنني كنت ذات ليلة عام ١٣٨٦هـ ضيفا على أسرة الوادي المبارك بالمدينة المنورة وعميدها الصديق الكبير الأستاذ عبدالعزيز الربيع وقد احتشد الأعضاء الأدباء في ناديهم العامر بمنزل الأستاذ الربيع، وطرحت الكثير من موضوعات النقاش الفكري والأدبي. وأذكر أنني طرحت هذا الموضوع نفسه للنقاش وهو: إلى أي حد يمكن تناول شخص الأديب ذاته أو حياته الخاصة

عند تناول آثاره وأعماله الأدبية؟ وقد أجاب معظم الحاضرين على السؤال واختلفوا بالطبع حول الموضوع مع تفاوت في درجات الاختلاف.. وأذكر أن الأستاذ عبدالعزيز الربيع وهو الناقد الكبير قد أشبع الموضوع ليلتها تناولا من مختلف جوانبه وكنت سجلت كل ما قيل عن الموضوع ليلتئذ وهو حصيلة وافرة وجيدة ولكن مع الأسف الشديد فقدت كل ذلك لطول المدة، ولأنني لم أتمكن من نشر ذلك النقاش في حينه لأسباب ليس هنا مجال ذكرها!!

والمهم أن موضوع تناول أو عدم تناول حياة الأديب عند تناول آثاره من الموضوعات المثارة دائمًا على بساط النقاش عند كل مناسبة!

ولكن جريدة الأنوار اللبنانية وهي ذات اهتمام ملحوظ بالنواحي الأدبية طرحت الموضوع على شكل استفتاء وبصورة أخرى هي بالتحديد (هل تجوز الكتابة عن أديب حي؟) (العدد ٥٠٣٤ في ١٢ تشرين الثاني ١٩٧٤م).

وأوضحت فكرة الاستفتاء هذه بمقدمة قصيرة قالت فيها: (هل تجوز الكتابة عن أديب حي؟ وهل يمكن أن نعطي تقييمًا لأعماله الفنية يأخذ شكل دراسة أكاديمية موضوعية، مستفيدين من قربنا الزمني من هذا الأديب مما يساعدنا على القبض على حرارة العمل الفني وعلى فهمه واستيعابه من منظور الواقع الراهن، أم نكتفي بالتركيز على الأدباء الراحلين مستفيدين من عامل الوقت ومن توفر الدراسات والمراجع حول هؤلاء ومن العامل الأهم وهو تحرر الدارس أو الناقد من ارتباطات شخصية أو مصلحية قد تجمعه بالكاتب ومن خطر الخوف من الإساءة إليه.

ذلك هو السؤال الذي طرح نفسه في أكثر من مناسبة وعلى أكثر من صعيد.

وقد أجاب على السؤال الأستاذ أحمد أبو حاتم رئيس شعبة اللغة العربية في كلية التربية بالجامعة اللبنانية.. ثم الدكتور ميشال عاصي أستاذ الجماليات في كلية التربية أيضًا.

ومن عجب أنهما اتفقا تقريبا على أنه لا بد من الاهتمام بدراسة ونقد آثار الأدباء الأحياء لإيجاد (حياة أدبية تضج بالحركة وأنواع التفاعل والصراع)!

واتفقا أيضًا مع ذلك على صعوبة دراسة آثار الأديب الحي حيث تحفّه عادة - كما يقول الدكتور ميشال عاصي: (بعض المخاطر والصعوبات في التصدي لدراسة مؤلفات أديب حي.. أو آثار كاتب ما يزال حضوره الشخصي في الحياة يشكل عقبات لا يستطيع تجاوزها إلا من اتسم بالترصن الكبير والشجاعة الفائقة والموضوعية التي لا تؤخذ إلا بالحقيقة والعلم)!!

(وإن تناول أديب حي يقتضي من الباحث أن لا يرعى الحضور الشخصي للأديب كما يقتضيه أن يتجاوز ما هو سائد حوله من أحكام هي في أكثر الأحيان نتيجة لعلاقة الأديب الشخصية لا لقيمة أدبه وإنتاجه).

ولعله لهذه الأسباب أو غيرها اجتمع رأي الاثنين أيضًا على أنه لا بأس من (دراسة آثار الأدباء وتحليلها ونقدها في محاضرات أو كتابات صحفية في الجرائد والمجلات أو في مؤلفات خاصة أو عامة).

أما (اتخاذ آثار الأدباء الأحياء وأصحابها موضوعات لرسائل علمية جامعية) فقد اتفق الاثنان على أن ذلك لا يجوز أو غير ممكن تقريبا لأنه من الصعب أن تتوافر شروط المنهجية العلمية الصحيحة التي تقتضي من الدارس كل (تجرد عن الأهواء والعواطف والنزوات والميول والأمانة العلمية.. والاستقلال بالبحث والإخلاص للحقيقة وتعزيزه بكل ما هو ثابت واضح أكيد).

(ومن الصعب أن تتوافر هذه الأمور كلها في دراسة آثار الأدباء الأحياء لا سيما إذا كان بين الدارس والمدروس علاقات صداقة ومودة وتقارب في النزعات والميول السياسية والأدبية والفكرية أو علاقات عداوة وتنافس وتعارض في الأفكار والأهواء والميول).

ويضيف الدكتور ميشال عاصي:

(وفي خبرتي الشخصية أن معظم الطلاب عاجزون عن الرؤية الموضوعية الشجاعة الرصينة في دراسة آثار الأدباء الأحياء).

ذلك هو خلاصة رأي أستاذين أكاديميين في موضوع تناول آثار الأدباء الأحياء.

وطرح الموضوع على هذا النحو يجرّنا بالضرورة إلى السؤال الذي أشرنا إليه في مطلع هذا المقال وهو: إلى أي حد يمكن تناول شخص الأديب في ذاته أو حياته الخاصة عند تناول أعماله وآثاره الأدبية؟!

وقد أشرنا آنفًا أيضًا إلى مدى الاختلاف حول إباحة ذلك أو عدم إباحته.. ولكن ما يزال السؤال قائما وهو: إلى أي مدى يمكن الإباحة أو عدم الإباحة؛ ذلك لأن الذين يرون الإباحة ربما يكون لهم بعض التحفظ في جانب آخر.. كما أن الذين يرون عدم الإباحة ربما سمحوا ببعض التناول في حدود معينة.

ولكن الشيء المؤكد في نظر النقد الصحيح هو أن دراسة حياة الأديب أو جوانب منها - على الأقل - ضرورة ملحة.. أو وسيلة مساندة لإمكانية تقييم آثاره الفكرية والأدبية.. وهذا ليس محل خلاف بل الخلاف ينحصر في التخوف مما يمكن أن يلحق بالأديب - وخاصة الأديب الحي - من إساءة أو ما يمكن أن يعتبر تجريحًا عند تناول آثاره وحياته بشيء من الصراحة المطلوبة بالضرورة في أي نقد أدبي؟!

ومن هنا أصبح الموضوع ليس هو جواز أو عدم جواز تناول حياة الأديب من خلال تناول حياته كما هو المنهج النفسي الحديث في النقد الأدبي وإنما هو - أي الموضوع - مدى إمكانية أو عدم إمكانية تناول آثار أديب حي بالصراحة والمنهجية العلمية المطلوبة لما يمكن أن يشكله وجود هذا الأديب

من عقبات أو محاذير في وجه النقد الصحيح الصريح البعيد عن أي هوى أو غرض أو ميول!

وإني.. لأعجب بل لا أكتم إنكاري على المشفقين لأسباب إنسانية أو غيرها على الأدباء الأحياء أن تكون حياتهم عرضة للتناول عند تناول آثارهم وأفكارهم.. فإذا مات هذا الأديب لا بأس من ذلك التناول بحجة البعد عن الهوى والغرض!

إنني أعتقد أن تناول حياة وآثار الأديب في حياته أجدى وأكثر إنصافا للأديب نفسه منه بعد مماته، بحيث يمكنه - وهو على قيد الحياة - أن يدافع عن نفسه أو يدافع عمن يريد الدفاع عنه من معاصريه فتكون الحقيقة في شأن هذا الأديب أقرب إلى الوضوح منها بعد مماته.

أما الأسباب الإنسانية والخوف من الإحراج أو التجريح أو نحو ذلك فإنها أشد على الأديب بعد مماته ومنافاة واضحة لنصيحة ذكر الموتى بالمحاسن!!

وعلى كل حال فإنني أطرح الموضوع على بساط البحث وستنشر هذه الصفحة كل رأى يردها حوله[1] ويسعدني أن أدعو - بصورة خاصة - أديبنا الكبير وناقدنا المعروف الأستاذ عبدالعزيز الربيع للأسباب التي أشرت إليها في مؤتنف مقالي هذا.

البلاد ٢/١١/١٣٩٤هـ

(١) المقصود بالصفحة، صفحة (أدب وأدباء) التي كنت أشرف على تحريرها في جريدة البلاد حينذاك.

ماذا نريد من الدراسات الأدبية والتاريخية؟

يحفل تراثنا الأدبي والتاريخي بآلاف الكتب والمصادر والمراجع المشتملة على الكثير من الروايات والنصوص مبعثرة في تلك الآلاف المؤلفة من كتب التراث المطبوع منها أو الذي ما زال مخطوطا ينتظر دوره في التحقيق والنشر.

وهذه الألوف من الكتب الزاخرة بالكنوز الأدبية والتاريخية ألفت بالطبع في فترات مختلفة على امتداد تاريخنا الحافل وهي لذلك متفاوتة في مناخها وأساليبها وطرائق تناولها ومدى تحرّيها للصواب من عدمه ومدى الحوافز والمؤثرات والدوافع الكامنة وراء تأليفها.. الأمر الذي يجعل الاستفادة منها تبدو مستحيلة تقريبا لغير الباحثين الدارسين المختصين.

ولقد تطورت مناهج البحث التاريخي والأدبي في عصرنا الحاضر وأصبحت على جانب كبير من تحري الدقة والصواب والإفادة.

ولا شك أن أية دراسة منهجية حديثة لأية فترة من فترات التاريخ أو لأي موضوع من موضوعات الأدب من شأنها أن تفيد قراء العربية في ذلك الموضوع أكثر بكثير جدًا مما لو كان الشأن متروكًا للقارئ ليبحث بنفسه عن ذلك في أمهات كتب الأدب والتاريخ.

ولا شك أيضًا أن اختلاف المناهج وأساليب وطرائق التناول في الكتب القديمة يشكل عائقًا كبيرًا دون الإفادة منها على الوجه المطلوب ـ كما أسلفت ـ الأمر الذي يحتاج بالضرورة إلى مزيد من الدراسات المنظمة لمختلف جوانب تراثنا التاريخي والأدبي لكي نستطيع أن نضع بين يدي القارئ الحديث ما

يمكن أن يفيد منه ولربما يدفعه إلى البحث والتنقيب والاهتمام بالتراث.

ومن حسن الحظ أن هناك الكثير من الجهود المبذولة في سبيل تحقيق التراث ونشره ومن ثم دراسته من مختلف نواحيه وقد حفلت المكتبة العربية بالكثير من الدراسات القيمة والتحقيقات المفيدة الجديدة.

ولكن مما يؤسف له حقًا عدم وجود أدنى تنسيق بين هذه الجهود المبذولة في مختلف الدول العربية سواء على صعيد الجامعات والمحافل العلمية أو على صعيد المجهودات الفردية لأنه ربما لا توجد هناك أية وسائل فعالة لتبادل المعلومات بين المختصين بتحقيق التراث ونشره ودراسته في مختلف أنحاء الوطن العربي.

ولذلك كثيرًا ما يصادف أن تقوم إحدى الجامعات أو الجهات أو الأفراد بتحقيق ونشر كتاب معين سبق أن قامت إحدى الجامعات أو الجهات أو أحد الأفراد بتحقيقه وطبعه ونشره وربما يتكرر ذلك كثيرًا في أكثر من مكان من أنحاء الوطن العربي.

والأمر نفسه يحصل كثيرًا بالنسبة للدراسات أيضًا حيث تتكرر الدراسات عن الموضوع نفسه بين أكثر من جهة أو مؤلف.

كان بالإمكان تفادي مثل هذا التكرار وبعثرة الجهود لو أن منظمة الثقافة في الجامعة العربية تضطلع بمسؤوليتها بشكل فعال وتقوم بجمع المعلومات الخاصة بأمثال هذه الجهود وتوزيعها دوريًا أو شهريًا على الجامعات والمحافل العلمية وكبار المعنيين بالتراث والدراسات.

وعلى كل حال فهذه ملاحظة هامشية بالنسبة لموضوعنا هذا (ماذا نريد من الدراسات الأدبية والتاريخية).. ولكنها ملاحظة مهمة لتثبت أسس هذه الدراسة الأدبية والتاريخية التي نريدها؛ إذ لا بد من وضع هذه الأسس التي يمكن عن طريقها تنسيق الجهود بين مختلف الجهات والمختصين لتحقيق

أقصى درجة ممكنة لإفادة المكتبة العربية دون الوقوع في البلبلة نفسها أو التشتت نفسه الذي يعانيه تراثنا بين كتاب وآخر.. بل بين كتب وأخرى.. الأمر الذي لا بد أن يحوجنا في النهاية إلى دراسة الدراسات.

ونعود الآن إلى موضوعنا: ماذا نريد من الدراسات الأدبية والتاريخية؟

إن المرحلة التي تمر بها أمّتنا المجيدة تشير كل دلالاتها إلى أنها على وشك استعادة دورها الحضاري العريق، ومن ثم فهي على وشك أيضًا أن تستعيد تأثيرها الكبير على الصعيد الأممي!!

ولذلك فإن دور الدراسات الأدبية والتاريخية لأية أمة تمر بمرحلة شبيهة بالمرحلة التي تمر بها أمتنا لا بد أن تأخذ في حسابها ليس فقط النهج الأكاديمي للدراسة والتحقيق.. بل تأخذ إلى جانبه ضرورة ربط منطلقات الحاضر بجذوره التاريخية بشكل يصل الماضي بالحاضر على نحو تبدو معه الرؤيا المستقبلية واضحة شديدة التطلع.

لا يكفي مثلاً أن ندرس العصر الأموي من أجل مجرد دراسته فقط.. بل لا بد أن نتخذ من أسباب سقوطه مثلا وجها لمقارنة بينه وبين أي شبه ممكن له في حاضرنا.. فينبه الدارس إلى مزالق ذلك الشبه وهكذا!!

والأمر نفسه يجب أن يكون في الدراسات الأدبية أيضًا حيث ينبغي أن نعرف كيف ازدهرت الحركة في العصر العباسي وكيف سقط في العصر البويهي مثلاً، ونبحث عن أوجه الشبه في حاضرنا بين الدوافع أو الأسباب التي أدت إلى ازدهار الأدب في العصر العباسي وسقوطه في عصر بني بويه، وننبه إلى مدى إمكانية تكرار أسباب السقوط أو الازدهار.

ومن المعروف أن الأسباب نفسها ربما لا تتكرر بذاتها ولكن بأشباهها.. فإذا كان من أسباب ازدهار الأدب في العصر العباسي مثلاً أن الخلفاء والأمراء وسراة القوم كانوا على جانب كبير من العناية بالأدب وإغداق الجوائز

والأموال وأسباب التشجيع والتكريم على الأدباء، فليس معنى ذلك أن نطالب الملوك والرؤساء الآن بمثل ذلك.. بل نطالب وزارات المعارف والجامعات ومجالس الفنون والآداب وغير ذلك من الجهات المختصة بمثل ذلك.

وإذا كان من أسباب سقوط الأدب العربي في عصر بني بويه أو غيره من العصور هو (الشعوبية) مثلاً أو أي سبب آخر فيجب أن ننبه إلى مدى إمكانية تكرار ذلك بنحو أو بآخر بحسب ظروف عصرنا.

وتلك مجرد أمثلة متواضعة المقصود بها إيضاح ما نريده من الدراسات الأدبية والتاريخية الحديثة وإلا فهناك الكثير من الأمثلة على ذلك.. على أن هناك من جوانب الدراسات، ما ربما لا يحتاج إلى كل ذلك كالدراسات اللغوية والمعجمية ونحو ذلك مما يكفي معه مجرد العمل على تنسيقها وترتيبها والإضافة عليها وفقًا للمناهج العصرية الحديثة، وأعتقد أن خير حافز لإيجاد الدراسات الجادة المفيدة.. بل لإيجاد نوع من حبها وتذوقها بين صفوف أجيالنا هو التوسع في تدريس مناهج البحث الأدبي والتاريخي في الجامعات العربية بل وفي المدارس أيضًا وإلزام الطلاب بمعاناة البحث والتحقيق على نحو جدي مع البعد كل البعد عن الأساليب العتيقة في التلقين وحشو الأدمغة بالنصوص، والمختارات دون إيجاد رابطة شعورية بين الطالب والنصوص، وهذه الملاحظة لا تزال قائمة عندنا مع الأسف، وخاصة في المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، حيث البون شاسع جدًا بين كثير مما يدرسه الطالب وبين مشاعره وأحاسيسه وفهمه وواقع عصره.

وتلك أيضًا مجرد ملاحظة على هامش الموضوع، ولكنها شديدة الصلة به.

البلاد ١٧/١١/١٣٩٤هـ

نحن والتراث!

كيف يمكننا أن نفيد ونستفيد حقًّا من تراثنا الضخم؟

سؤال طالما ردّدته على نفسي وكرّرت القول عنه في أحاديثي وكتاباتي المتواضعة.

إن هناك الكثير من العوائق التي تحول دون استفادتنا الصحيحة من تراثنا الضخم هذا.. ومنها على سبيل المثال:

* كون تراثنا في معظمه عبارة عن روايات وأحاديث مسندة وغير مسندة.. حتى تراثنا الشعري القديم قد وردنا عن طريق الرواية أيضًا من صدور الرجال.

* اختلاف وتعدد وتباعد مناهج التأليف عن بعضها البعض في مختلف العصور منذ بدء التدوين إلى الآن.

* ما تعرض له تراثنا ـ على مر العصور ـ من دس وتشويه على أيدي بعض الفرق المتناحرة.. أو على أيدي الدساسين المشهورين من الشعوبيين وغير الشعوبيين من أعدائنا.

* السلب والنهب والحرق والضياع الذي تعرض له تراثنا كما هو معروف.. وإلى حد أن الكثير من كتبنا التراثية المهمة ما تزال مشتتة في مكتبات العالم دون أن تحظى باستعادتها وتحقيقها ونشرها.

* الأخطاء الشنيعة التي ارتكبت ـ عن قصد أو غير قصد ـ فيما تم تحقيقه ونشره من هذا التراث.

تلك بعض النقاط ـ فضلاً عن غيرها ـ وهي نقاط أو أسباب كفيلة بعدم استفادتنا من تراثنا الضخم على الوجه الصحيح.

وسنتحدث الآن عن هذه النقاط ببعض التفصيل، بعد أن ذكرناها بإيجاز غير كاف.

ولنبدأ بكون تراثنا في معظمه عبارة عن روايات مسندة، وربما غير مسندة!!

ومعروف أن مجرد السند في الرواية لا يجعلها في مصاف الحقيقة إلا بعد معرفة تامة برجال السند في كل رواية، ومدى حظهم من الصدق والثقة بهم.. وكان هذا أمرا ميسورا عند الكثير من القوم في صدر الإسلام، وعند بدء التدوين حتى إن أكثر المؤلفين أو المدونين كانوا يدونون الكثير جدًّا من الروايات المكذوبة، وهم يعلمون أنها مكذوبة.. وذلك لمجرد أنهم ذكروا سند الرواية، وأن ذلك كان في نظرهم كافيًا لتمييز صدق الرواية من كذبها اعتمادًا على معرفة الناس بذلك.

ولكن بعد أن كثرت الروايات واختلط بعضها ببعض وضعف علم القوم برجال السند، وكثر الخلط والكذب في الروايات.. بل وحتى في الأحاديث الشريفة ذاتها.. عندئذ تنبه رجال الحديث - بصفة خاصة - فانبرى منهم الجهابذة ليضعوا القواعد والأسس لعلم الرواية والرواة.. أو ما نسميه الآن (مصطلح الحديث).. وبذلك نجا الحديث أو نجت الرواية عن رسول الله ﷺ إلى حد كبير.. وأصبحنا - إلى الآن - نستطيع عن طريق علم (مصطلح الحديث) أن نميز الخبيث من الطيب، والصدق من الكذب.. وأن نعرف الشيء الكثير عن رجال السند في الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

أما في مجال التاريخ والأدب.. فلم يكن الحظ فيه كما كان الحظ بالنسبة للأحاديث الشريفة.. حيث لم ينبر الجهابذة من رجال التاريخ والأدب لوضع قواعد مشابهة لتلك التي وضعت للحديث الشريف فبقيت الروايات التاريخية والأدبية على ما هي عليه من غير عناية تذكر من قبل رجال الأدب والتاريخ.. وإن كنا لم نعدم تعقيبات أو تعليقات من بعضهم على بعض الروايات، ولكنها

ـ لقلّتها ـ لا تغني شيئًا بالنسبة لذلك العدد الضخم من الروايات المسندة وغير المسندة.. أو الملفّقة السند أصلاً.

وقد كثر التلفيق ـ بخاصة ـ وعمّ وطمّ عندما أصبحت الرواية ذاتها ـ وخاصة في مجال التاريخ والأدب ـ مصدر رزق للكثير جدًّا من الرواة في دواوين الخلفاء والكبراء وسراة القوم.. وعندما تفرق الناس أحزابًا وشيعًا.. كل فريق يأتي بروايات ـ صدقًا أو كذبًا ـ يسند بها مزاعمه ودعاواه وتعصبه.

وبذلك كثرت وتضخمت الروايات الأدبية والتاريخية وظهر فيها التلفيق إلى الحد الذي لم يعد يدهشنا أن نجد في كثير من كتب التراث الروايات الواضحة الصنع والتلفيق والكذب.

وهذا أمر ـ لا شك ـ يجهد الباحثين الآن في تراثنا أي جهد.. ولو اقتصر الأمر على الباحثين المتمكّنين لهان الخطر.. ولكن الخطر الأكبر في كل ذلك إنما هو على جمهرة القراء الذين لا يستطيعون تمييز الخبيث من الطيب.. وهؤلاء ـ أقصد أنصاف المثقفين ـ يحسبون كل ما يرد في الكتب القديمة لا بد أن يكون صحيحا فهم في حيرة بين التصديق والتكذيب.. بين المعقول وغير المعقول فيما يقرأونه من روايات.

بل إن بعضهم ممن يتعاطى الكتابة في الصحف.. كثيرًا ما يستشهدون بروايات وجدوها في الكتب القديمة ليدعموا بها رأيا حديثًا لهم دون أن يفطنوا إلى إمكانية أن تكون تلك الرواية مكذوبة من أساسها!!

بل إن هذا الخلط والتلفيق في كثير من الروايات قد أفاد منه أعداء العروبة والإسلام أي فائدة عندما استندوا إليها في توجيه سهامهم ونبالهم إلى الإسلام وأمّة الإسلام.

وأما اختلاف مناهج التأليف، وتعدد أغراضه.. فهو أيضًا سبب آخر من

الأسباب المهمة التي أوجدت البلبلة والاضطراب في تراثنا.. فهناك - على سبيل المثال - الكثير جدًّا من الكتب التراثية الضخمة التي ألّفت لخلفاء أو أمراء أو وزراء، وكان القصد من تأليفها أصلا هو الترفيه أو التسلية.. أو كما كانوا يقولون: (الإمتاع والمؤانسة).. ولا أقصد هنا بالذات كتاب (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي.. بل هناك مثل كتاب (الأغاني) لأبي الفرج وغيره وغيره من الكتب المشابهة.. وقد احتشدت فيها روايات، وقصص، وأشعار، وسير، ومغازٍ، وتواريخ.. لا يعلم إلا الله مدى صحتها.

أما المؤلف.. فلم يكن يهمه غير سرد أكبر قدر ممكن من الروايات، والقصص، والأخبار، والأشعار التي يمكن أن تدخل السرور على قلوب أولئك المترفين.. فقد كان مثل هذا من أهم وسائل التسلية حينذاك!!

وناهيك بمؤلف أو مؤلفات.. يكون الغرض منها أساسًا ما أشرنا إليه.. ثم تصبح فيما بعد.. أو في عصرنا الحاضر حجة في التاريخ والأدب لمجرد كونها من كتب التراث القديمة!

نعم.. إنه يوجد حتى في هذه الكتب التي أشرنا إليها ما يمكن اعتباره حجة.. ولكن ليس على إطلاقه ولا لمجرد كونه قد جاء في كتاب قديم.. بل إن ما يمكن اعتباره حجة لا يمكن أن يكون كذلك إلا بعد إخضاعه لمقاييس ومعايير، يعرفها رجال البحث والتحقيق والتدقيق.. وأما بدون ذلك فلا!!

وهذا يجرنا إلى الحديث عن نقطة من النقاط التي أشرنا إليها في مطلع هذا الموضوع، وهي (الأخطاء الشنيعة التي ارتكبت - عن قصد أو غير قصد - فيما تم تحقيقه ونشره من تراثنا).

ذلك أن الكثير مما تم نشره من كتبنا التراثية.. لم يكن الدافع لتحقيقها ونشرها غير الدافع التجاري البحت.. وقلة قليلة هي تلك الكتب التي حققت

تحقيقًا علميًا صحيحًا من قبل هيئات علمية أو علماء بارزين.. ثم تم نشرها بعد ذلك على الوجه الصحيح.

أما الكثرة الكاثرة فقد حققت ونشرت بدافع تجاري - كما أسلفنا - ولذلك جاءت حافلة بالأخطاء والنقص والتطبيع بصورة تقلل كثيرًا من فرص الاستفادة منها حتى لدى المتخصصين من رجال البحث والتحقيق.. فكيف بجمهرة القراء؟

وقد وصل الأمر بتجار نشر الكتب التراثية أن أدخلوا بعضها في بعض - جهلاً منهم أو طلبًا للسرعة - بل حذفوا الفصول وأضافوا الفصول.. ولم يدققوا في النصوص.. ولم يراجعوا المزيد من النسخ أو الأصول.. بل ربما اكتفوا بنسخة واحدة.. أو أصل واحد.. وجعلوه أساسًا لكتاب يطبع وينشر على أساس أنه من كتب التراث المحققة المدققة.

وهذا أيضًا من الأسباب الخطيرة التي أثارت الاضطراب في كثير من كتبنا التراثية المطبوعة.

وقصارى القول.. وبدون أن نأتي على جميع النقاط التي أشرنا إليها في صدر موضوعنا هذا.. فإن الحديث عن التراث يطول ويتشعب.. ولا يتسع لنا هنا المزيد من الخوض فيه.

ولكننا نقول - باختصار شديد: إننا لا يمكن أن نفيد من تراثنا بصورة صحيحة سليمة ما لم تتهيأ له عناية ضخمة من قبل الجامعات والدوائر العلمية ورجال البحث الموثوقين.. وما لم ينفق بسخاء كبير من قبل الحكومات على أسباب التحقيق والتدقيق والنشر الصحيح لتراثنا الضخم هذا.

وهنا لا بد أن نشير إلى وزارة التعليم العالي في بلادنا ودورها الكبير والخطير جدًّا في هذا المجال، ليس لكونها مجرد وزارة للتعليم العالي.. بل

لكونها كذلك في المملكة العربية السـعـودية بالذات.. مهـبط الوحي، ومنبع هـذا التراث الضـخـم فـمسؤوليـتـها لذلك مضـاعـفـة.. بل ويـزيـد من هـذه المسؤولية كون المسؤول الأول عن هذه الوزارة هو معالي الشيخ حسن آل الشيخ.. وهـو من هـو.

والله من وراء القصد.

المجلة العربية (رمضان ١٤٠٢هـ).

كيف نتذوق التراث؟

معظم تاريخنا الإسلامي والجاهلي قد كتب على شكل أخبار وروايات تجمعها الكتب جمعًا دون رابطة بين خبر وآخر أو رواية وأخرى.. وإنما هي متناثرة لا تربطها وحدة ولا يحدها منهج.

وإنك لتجد الكثير من الأخبار ينقض بعضها بعضًا في كتاب واحد، أو يربو بعضها على بعض في الكتاب نفسه وقل أن تجد في الكتاب تنبيها على ذلك أو إيماءة إليه.

وإنك لتجد التكرار الممل عند قراءتك لكتب التاريخ والأدب بما تحفل به من أخبار وروايات هي نفسها مكررة بنقص أو زيادة أو بالنص في كتب أخرى.. فهذا ينقل عن ذاك، أو يصادف أن تتصل نفس الرواية بهذا المؤلف أو ذاك ومن هنا ينشأ التكرار الممل، فأما سوء المنهج في ترتيب هذه الأخبار والروايات فحدث ولا حرج تجد خبرا عن خليفة أموي مثلاً وتجد إلى جانبه خبرًا عن النعمان بن المنذر، ثم ربما تجد ثالثا إلى جواره عن إحدى الجواري. أو خبرا عن إسحاق الموصلي، وقلّ أن تجد أخبارًا مرتبة حسب وحدة موضوعها أو حسب تسلسلها التاريخي، اللهم إلا فيما ندر!!

ولعل أكثر الكتب التاريخية دقة في المنهج هي كتب التراجم والسير؛ فهذه سير الصحابة مثلاً في كتاب (الإصابة) أو الاستيعاب) مثلا وهذا معجم للأدباء.. إلخ.. إلخ.

وهناك أيضًا كتب المغازي لا بأس بمنهجها في الترتيب!!

أما ما عدا ذلك فهي ـ كما أسلفت ـ من سوء عرض وشتات مذهب!!

وقد زاد الطين بلة فوضى المحققين والناشرين في اختيار وطبع ونشر الكتب

التراثية فإنهم لا ينظرون إلى الأهم فالمهم وهل سبق للكتاب الذي اختاروه أن حقق ونشر أم لا، إلى غير ذلك مما ينبغي أن يكون من تنسيق بين جهود المحققين والناشرين في العالم العربي وغير العالم العربي.

ذلك لأن النشر أصبح تجارة فلحق به التحقيق أيضًا، بل أصبحت هنالك متاجرة كبيرة بالمخطوطات.

وكل ذلك وغيره قد ساعد كثيرًا على الإساءة إلى تاريخنا وتراثنا بطريقة أو بأخرى!

وفي يقيني أن هذا التراث العظيم من كتب التاريخ والأدب لا يمكن أن يفيد منها إلا الباحث المنقب الذي أفنى عمره وأعشى بصره في النظر إلى الكتب!!

أما الناشئ في طلب العلم فإنه سيجد نفسه في متاهة حقيقية لا أول لها ولا آخر.. بل ربما وجد نفسه في خضم متلاطم الأمواج من هذه الأخبار والروايات التاريخية والأدبية المكررة في معظم كتب التراث وفي كتب الدارسين الباحثين المحدثين أيضًا!!

وإن ذلك كله وغيره قد ساعد على عزوف هذه الأجيال عن كتب التراث لأنهم لا يستطيعون الإفادة منها على نحو منظم ميسور لأن الشقة قد باعدت بين هذه الأجيال وتراثها المتوارث فقد قل عند هذه الأجيال تذوق التراث.. بل أصبح مثار سخرية وتنكيت وتبكيت، فكيف إذن نستطيع أن نجعل تذوق التراث ممكنا؟!

وهذا السؤال جِدّ مهمّ في الواقع.. فالإجابة عليه من الصعوبة بمكان، وخاصة في مقال عابر كهذا في صحيفة يومية سيارة.

ولكن ما لا يدرك جلّه لا يترك كلّه فلا بأس من الإلماح إلى بعض النقاط التي يمكن الإشارة إليها بصورة عابرة على النحو التالي:

١ ـ أن تعمد جماعة من العلماء ممولة تمويلاً كافيا من الدول العربية عن

طريق جامعة الدول العربية مثلاً فتجمع كتب التاريخ والأدب وتحرر جميع موادها من جديد؛ تبوّبها منهجيًا حديثًا حسب وحدة الموضوع أو تسلسل التاريخ، أو غير ذلك من الطرق والوسائل المنهجية التي تمكّن طالب العلم أو الباحث من الرجوع إلى بغيته من أقصر طريق وأيسر سبيل.

ولا بأس طبعًا أن تبقى الكتب السابقة على ما هي عليه بغية لمستزيد أو سعة للباحث.

٢ ـ أن يكون تدريس اللغة العربية في جميع المدارس والمعاهد والجامعات العربية على غير ما هو عليه الآن.. فيلتزم كل مدرس بتنمية الإحساس بجمال اللغة العربية عند طلابها عن طريق شرحها وتبسيطها، وعن طريق إلزام الطلاب بالتخاطب مع الأستاذ وفيما بينهم في المدرسة باللغة العربية الفصحى ما أمكن ذلك؛ حتى يسهل عليهم التعود على النطق السليم، وينبغي أيضًا تشجيع الخطابة والارتجال باللغة العربية الفصحى.

٣ ـ ينبغي أن تلتزم جميع أجهزة ووسائل الإعلام من إذاعة وصحافة وتليفزيون باللغة العربية الفصحى، والتقليل ما أمكن من هذه اللهجات التي تمزق الإحساس بجمال لغتنا الأصيلة.

بذلك ونحوه نستطيع أن نتذوق تراثنا العظيم فيكون حاضرنا على أقوى صلة بماضينا، أما ما نحن فيه فإنه يجرنا حتمًا إلى الانفصام عن تراثنا وماضينا كما هو حاصل الآن بالفعل إلا ما لطف ربك.

البلاد ١٣٩٤/٣/٢٥هـ

القط والجمل والأدب!

إلى الصديق الكبير الأستاذ (أبو أسامة)[1].

أردتني أكتب موضوعا أدبيًّا لصفحتك المحترمة الرصينة.. فما أسهل ما طلبت، وما أصعبه في الوقت نفسه!!

ما أسهله بالنسبة لما يكتب هذه الأيام باسم الأدب!

وما أصعبه بالنسبة لما ينبغي أو يجب أن يكتب باسم الأدب الحقيقي الذي يتوسمه أو يتوخّاه أمثالك ممن يتذوقون معنى الكلمة ويترشفونها.. ثم يتلمظونها بعد ذلك!!

كان الأدب - يا سيدي - كوجهي الاسطوانة.. يسجل في وجه منها الأغنية التي يراد تسجيلها فعلا، وفي الوجه الآخر يسجل ما يراد بيعه في غمرة الرواج المتوقع للوجه الأساسي للاسطوانة.

أما الآن فيكفي فقط، الوجه المزيف واستمر هذا.. واستمر حتى استمرائي أيضًا.. بل حتى أصبح الوجه المزيف هو الوجه الأساسي للاسطوانة.

هل تذكر تلك الحكاية التي حدثتك بها مرة، ونحن بمنزلك الصغير في (الرياض) فضحكت لها كثيرًا؟؟

إذا كنت قد نسيت فخلاصتها: أن أعرابيًّا نزل به داء، فنذر إلى ربه أن يبيع جمله بدينار إن هو شفي من دائه.

ولما شفي، عز عليه أن يبيع الجمل بالثمن البخس، كما عز عليه ألا يفي بالنذر ففتقت له الحيلة أن يأتي بهر (قط) ويربطه بذنب الجمل.. ثم يروح

---

(١) أبو أسامة.. هو الأستاذ عبدالمجيد شبكشي.

ينادي: الجمل بدينار، والهر بألف، ولا أبيع إلا الاثنين معا، (يقصد التعجيز حتى لا يبيع جمله بدينار) فكان الناس ينظرون إلى الجمل ويرددون في حسرة:

ما أحسن هذا الجمل لولا الهر المعلق في ذنبه!

لقد انعكست هذه الحكاية في دنيا الأدب عندنا.. يا سيدي.

أصبح الهر هو الأضخم والأجمل والأنفع والأقوى أيضًا.

وأصبح الناس يقولون: (ما أحسن هذا الهر لولا هذا الجمل، المعلق في ذنبه)!!

أرأيت؟، وأنت المتذوق للثمار الأدبية اليانعة، إنني لم أعدُ الحق أو أجانبه عندما قلت في بداية رسالتي هذه: ما أسهل ما طلبت.. وما أصعبه في الوقت نفسه.

نعم.. ليس أسهل الآن من أن أربط الجمل في ذيل قط أو حتى فأر وأصيح في الناس: الفأر أو القط بألف ريال.. أما الجمل فمن دون شيء البتة.

أما أصعب شيء الآن فهو أن أعيد الآية إلى سورتها وأربط القط بذيل الجمل وأصيح: الجمل بدينار والقط بألف.. إذ لو فعلت لما استطعت أن أجعل الناس يتحسرون على الجمل.. ذلك لأنهم سيشترون القط بالألف.. ثم يتركون الجمل وقد تركوه.

وأنت تعرف أنه لو فهم (هذا لو فهم) أحد الذين أقصدهم، مغزى السخرية في قولي هذا لأسند يديه على جذعه وثنا.. ثم مطق لبانته ومسح غرته، وقال: (دي رجعية خالص!!).

أي سيدي:

وتريدني بعد ذلك أن أكتب موضوعا أدبيًا لصفحتك الرصينة؟

لا أظنك ترضى لي أن أكون أحد أمرين أحلاهما مر.

إما أن أكون في نظر جمهور الجمال قطًا صغيرًا حقيرًا في ذيل جمل فأره ضخم.

أو أن أكون في نظر جمهور القطط الصغيرة المنمنمة، جملاً ضخمًا يؤذي العين منظره!!

* * *

لقد أردت أن أكون وسطًا بين الاثنين.. فلم أجد إلا أن أكون ثورًا أو حمارًا، وهذه ما لا ترضاه لي، ولا أرضاه لنفسي بالطبع فماذا إذن أفعل؟ وقد اختلفت المقاييس، وطفّ الكيل، وزاغ الميزان.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

البلاد ١٣٩٣/٩/٩هـ

اللهى تفتح اللها!

كان الخلفاء والوزراء والأمراء وسراة القوم يقربون العلماء والأدباء إليهم ويدنونهم من مجالسهم، ويفسحون لهم على موائدهم.. ويعطونهم الأعطيات الجزيلة والهدايا السخية في غير مَنٍّ ولا أذى.. بل بتقرب وتودد وحسن حفاوة.. وكانوا يتخذون منهم نسّاخا لكُتبهم وكُتب غيرهم حيث لم تكن الطباعة موجودة آنذاك..

وقد انعكس أثر ذلك واضحًا على النهضة العلمية والفكرية والأدبية حتى كان لنا هذا التراث الضخم من الكتب في مختلف مسائل الفكر والعلم واللغة والأدب فاللهى تفتح اللها ـ كما يقولون.

ثم دالت هذه الدولة، وجاءت بعدها عصور الانحطاط والتخلف إلى أن بدأت اليقظة العربية الحديثة منذ ٥٠ عامًا تقريبا، وقد بدأت أنشط ما بدأت في مصر وسوريا ولبنان.. ثم امتدت الهوينى إلى بقية الدول العربية.. فحق لنا أن نتساءل الآن:

ما هو مدى تقريب الملوك والرؤساء والأمراء والوزراء لرجال العلم والأدب؟

فأما عندنا هنا فإن جلالة الملك فيصل قد اشتهر بتقريبه للعلماء وإجلاله لهم.. بل اشتهر بتقريبه للأدباء أيضًا وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن بليهد ـ رحمه الله ـ حيث كان صديقًا شخصيًا لجلالته وكذلك الدكتور عبدالوهاب عزام وغيرهما.. بل كان لجلالة الفيصل الفضل الأول في تحقيق موقع سوق عكاظ من قبل ابن بليهد، وعبدالوهاب عزام. كذلك كان له الفضل في تأليف كتاب (صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار) لابن بليهد وغير ذلك من أفضال جلالته المشهورة المعروفة على العلم والأدب.

ولا شك أن لبعض الأمراء ومنهم سمو الأمير فهد[1] وسمو الأمير عبدالله

الفيصل وسمو الأمير سلمان وغيرهم فضل على العلماء والأدباء يذكر فيشكر.

وإنما نتساءل بصفة عامة عن مدى تقريب الرؤساء والأمراء والوزراء وسراة القوم في مختلف أنحاء العالم العربي للعلماء والأدباء؟

وهو تساؤل لا أعتقد أن الإجابة عليه بالإيجاب، وربما يرجع ذلك لعدة أسباب منها انشغال القوم بأمور السياسة وشؤونها وشجونها، وقد أصبحت السياسة معقدة تعقيدًا شديدًا خاصة في الظروف العربية الراهنة، فأصبح معظم هؤلاء لا يميلون إلى العلوم والآداب، وحتى لو وجدوا الميل إلى ذلك فإنهم لا يجدون الوقت للمطالعة إلا في شؤونهم السياسية.. وحتى لو وجد الوقت لذلك فإن كتب العلم والأدب في متناول أيديهم هيأتها لهم الوسائل الطباعية الحديثة فلا يحتاجون إلى ورّاقين ولا إلى تقريب العلماء والأدباء منهم لأن في ميسورهم الاطلاع على ما يشاءون عن طريق الكتب.

وهكذا أصبح المقربون هم رجال السياسة وكتّاب السياسة. أما رجال العلم والأدب فقد دالت دولتهم وذهب مجدهم!!

ولعل الحكومات قد أدركت ذلك حين أولت هؤلاء العلماء والأدباء بعض الاهتمام عن طريق وزارات المعارف والجامعات ومجالس الفنون والآداب، ولكنه اهتمام لا يرفع من شأنهم ولا يزيد من قدرهم مثل أيام عزهم ومجدهم عندما كانوا مقربين من سراة القوم ومن بيدهم الحل والربط يتصدرون المجالس وتنحني لهم الجباه، مثل ما هو شأن رجال السياسة الآن، ولكل زمان دولة ورجال!!

والشيء بالشيء يذكر فما دمنا في سيرة تقريب العلماء والأدباء من الخلفاء

(١) جلالة الملك الآن.

والوزراء والرؤساء، وما ترك ذلك من أثر كبير على النهضة الفكرية والأدبية واللغوية حيث إن معظم كتب التراث أُلّفت بناء على طلب من وزير أو سريّ محب للأدب فلا بأس أن نضرب أمثلة من ذلك فيما يلي:

١ - أبو حيان التوحيدي:

لقد اتصل أول ما اتصل بالصاحب بن عباد.. ثم بأبي الفتح بن العميد فلم يجد عندهما ما يقدره لنفسه وعلمه من مكانة فانصرف من عند كل منهما مغاضبًا إذ يرى من حقه أن يكون، وهو العالم الأديب، مقربًا أكثر من غيره، فلما لم يحصل له من ذلك ما يريد ألّف فيهما كتابه (مثالب الوزيرين) رماهما فيه بكل هامة وطامة من لاذع القول ولواسع الهجاء.. ولا يزال هذا الكتاب شهيرًا خالدا.

ثم لما اتصل التوحيدي بأبي الوفا الذي أوصله بدوره الوزير (أبو عبدالله العارضي) ألف كتابه الضخم (الإمتاع والمؤانسة) حيث طلب أبو الوفاء من أبي حيان الثوحيدي أن يؤلف له مسامراته مع الوزير، وقد هدده إن لم يفعل بالقطيعة والهجر.. ذكر كل ذلك في مقدمة الكتاب.. وهكذا كان وجود هذا الكتاب الحافل بالعلم والأدب واللغة.

٢ - أبو الفرج الأصفهاني:

وأبو الفرج الأصفهاني أو الأصبهاني ألف كتابه (الأغاني) الضخم الفخم الذي يعتبر من أمهات كتب الأدب العربي بناء على طلب من رئيس حيث يقول هو نفسه: (والذي بعثني على تأليفه أن رئيسا من رؤسائنا كلفني جمعه له).

والأصل في تأليفه أو في طلب تأليفه هو اختيار مائة صوت أي مائة أغنية، ولكن الأصبهاني لم يرض لكتابه أن يكون مجرد اختيار مائة صوت فذهب يجمع فيه (ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية قديمها وحديثها،

ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره وصانع لحنه (....) وتفسير للمشكل من غريبه وما لا غنى عن علمه من علل إعرابه وأعاريض شعره).

(وأتى في كل فصل من ذلك بنتف تشاكله، ولمع تليق به، وفقر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلاً بها من فائدة إلى مثلها، ومتصرفا فيها بين جد وهزل، وآثار وأخبار، وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة، وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام تجمل بالمتأدبين معرفتها...).

وهكذا كان تأليف هذا الكتاب الضخم بناء على طلب من رئيس.

والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا.. بل إن معظم كتب التراث قد أُلّفت بناء على طلب من رئيس أو تقربًا بها إلى حظوة من رئيس.

وأعتقد أن البديل الذي يمكن أن يوجد الآن ليس هو تقريب الرؤساء للعلماء والأدباء فذلك قد أصبح في حكم المستبعد، وإنما يكون على الأقل عن طريق إيجاد الجوائز الضخمة للمؤلفين والأدباء، كذلك عن طريق التشجيع المادي بشراء كميات من نسخ مؤلفاتهم.. بل وبتخصيص مبلغ معين إعانة لكل من يصدر كتابًا جديدًا إلى آخر هذه الوسائل المادية التي يمكن عن طريقها إغراء وتشجيع المؤلفين.. ومن ثم ازدهار الحركة الأدبية والنهضة الفكرية، وإلا فقل على الأدب السلام ورحمة الله.

والشيء بالشيء يذكر أيضًا.. فلا شك أن هناك اهتمام كبير من قبل حكومات العالم وزعمائه.. فإن هناك الكثير من الأدباء المشاهير في العالم، مقربون إلى زعماء بلادهم وحكوماتها من أمثال برتراند رسل في بريطانيا فقد كان صديقًا شخصيًا لتشرشل وغيره من الزعماء البريطانيين على ما كان بينه وبين تشرشل من مداعبات لاذعة.

وهناك أندريه موروا في فرنسا كان صديقًا شخصيًّا مقربًا من الجنرال ديجول.

وفي أميركا.. همنجواي إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة.. بل إن من أهم الأمثلة وأبرزها على المستوى العالمي هو اختيار عامنا هذا عام ٧٢م عامًا دوليًّا للكتاب يحتفل به في جميع أنحاء العالم بإشراف منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة.

ولا تزال معظم الدول تولي اهتمامًا كبيرًا بالفنون والآداب والمعارف الإنسانية وتنفق بسخاء على تأليف وطبع ونشر الموسوعات ودوائر المعارف وغير ذلك من ضروب الاهتمام حتى لقد وصل الأمر بالنسبة لليابان مثلاً أنها تسعى الآن لإيجاد موسوعة شاملة للمكفوفين، فهو اهتمام ما بعده اهتمام ولفتة إنسانية ما بعدها ولا قبلها!!

وإنه يطيب لي أن أعرب عن أملي هنا بأن تهتم الدول العربية بخدمة العلم والأدب واللغة، ولو ببعض القدر الذي تهتم به دول العالم المتقدم في هذه الناحية.. وأن تكون بلادنا في المقدمة من كل ذلك.

البلاد ١٣٩٢/٨/٢هـ

ذكريات وتطلعات!

منذ بداية ميولي الأدبية المبكرة وأنا أقرأ وأسمع عن مجلة (الرسالة) دون أن أطلع على عدد واحد منها.. وعندما انتقلت من قريتي النائية في الجنوب إلى جدة ثم إلى الرياض كنت لا أكاد أجتمع بأديب من أدبائنا المعرفين إلا ويذكر مجلة (الرسالة) وتلمذته عليها.. بل ويفخر بذلك أيّ فخر!!

وكان ذلك يحزّ في نفسي كثيرًا حيث كنت أيامها أقرأ كل ما يقع تحت يدي وأقرأ بسرعة هائلة، وكانت ظروفي لا تساعدني على اقتناء الكتب بالقدر الذي يتناسب مع نهمي وسرعتي في القراءة، فكنت أستعير وأرتاد المكتبات العامة وقرأت كثيرًا من الكتب، ولكني كنت ما زلت أجد الحسرة في نفسي لأنني لم أطلع على أي عدد من مجلة (الرسالة)، فهي قد توقفت عن الصدور ومجلداتها عزيزة فيئست من الحصول عليها.

وفي إحدى المناسبات ذكرت لصديقي وأستاذي عبدالفتاح أبو مدين مدى حسرتي وأسفي لأنني لم أتمكن من الاطلاع على مجلة الرسالة، وأن الحديث عنها أصبح عقدة بالنسبة لي، فابتسم وسكت، ولكني فوجئت به يبعث لي بمجلدين ضخمين من مجلة الرسالة، فانكببت عليهما أقرؤهما بالحرف الواحد، وبعد ذلك بحوالي عام تقريبا تمكنت من الحصول على كامل مجلدات الرسالة وقرأتها جميعا فارتاحت نفسي واطمأن بالي لأنني أصبحت أستطيع أن أقول: لقد قرأت مجلة الرسالة!!

ومن الطريف أنني كنت عندما أجد مقالاً للرافعي أو طه حسين أو غيرهما أتذكر على الفور أنني سبق أن قرأت المقال في كتاب ما.. ولكن سرعان ما أذكر أنني في الحقيقة أقرأ الأصل لتلك الكتب.

إلى هذا الحد كان أثر وتأثير الرسالة بين القراء، ولقد ذكرت كل هذا الآن وأنا أتحفز لكتابة مقال لهذا العدد العكاظي الأسبوعي الجديد الذي يشرف عليه الأستاذ عبدالفتاح أبو مدين.

ذكرت كل ذلك وتساءلت في نفسي همسًا حتى لا أزعج مؤسساتنا الصحفية فتساءلت: ما ضرّ لو أن واحدة فقط من هذه المؤسسات الصحفية المتعددة قد فكرت في إصدار مجلة أدبية أسبوعية كبرى في مضمونها متواضعة في مظهرها على غرار مجلة الرسالة مثلاً، على أن ذلك زمن قد مضى ولكل زمان دولة ورجال!!

إن جميع مؤسساتنا الصحفية تتسابق على إصدار الصحف اليومية والأسبوعية ذات الطابع السياسي والاجتماعي إلخ.. ولكنها ما تزال تحجم عن إصدار المجلات المخصصة وإن كانت مؤسسة اليمامة تصدر مجلة اليمامة.

وها هي عكاظ تصدر عددًا أسبوعيًّا ولكن المطلوب هو مجلة أدبية بحتة ذات مستوى رفيع تستطيع أن تؤثر في قرائها بالقدر الذي تؤثر به مجلة الرسالة التي كانت مدرسة بذاتها.. فلعل وعسى؟

ومما يقال عن تطلعاتنا إلى وجود مجلات متخصصة، يقال أيضًا عن جانب مهم من جوانب تنشيط الحركة الفكرية في بلادنا.. فالواقع أن من أهم أسباب ركود حركتنا الفكرية والأدبية هو عدم توفر وسائل النشر، فجميع مطابعنا تقريبًا تكاد تكون مشغولة بإصدار الصحف اليومية والأسبوعية وبالأعمال التجارية الرابحة.. أما الكتب فلا تكاد تحظى بنصيب من اهتمامات هذه المطابع.. وإن وجد هذا الاهتمام فأسعار الطبع مرتفعة.

ومن هنا يتردد الكثير من أدبائنا في طبع كتبهم، فتظل حبيسة أدراجهم أو يذهب بها من يستطيع منهم السفر إلى بيروت.

ومن المؤسف أننا في هذه الناحية بالذات متخلفون عن مواكبة نهضتنا

الشاملة في مختلف المجالات، ولست أدري سببا لذلك غير أنه من قبيل نقص القادرين على الكمال.

والعجيب أن الكثير من الكتاب يطالبون بضرورة وجود دور نشر وتوزيع حيث يأملون عن طريق التنافس بين تلك الدور بوجود حركة فكرية وأدبية نشطة، وهذا حق، ولكن هؤلاء الكتاب يغفلون عن ناحية مهمة جدًّا، وهي أنه حتى عندما وجدت دور النشر في المملكة مثل (دار اليمامة للترجمة والنشر) لصاحبها العلامة الجليل الشيخ حمد الجاسر، وكذلك (الدار السعودية للنشر) لصاحبها الصديق الأستاذ محمد صلاح الدين، وربما توجد بعد دور نشر أخرى[1].

فالمشكلة ليست هي مشكلة وجود أو عدم وجود دور النشر - على ما لذلك من أهمية - بل المشكلة هي انشغال مطابعنا بإصدار الصحف والأعمال التجارية، ومن ثم غلاء أسعارها بشكل لا يشجع على التعامل معها، والنتيجة أن الدار السعودية استطاعت بكل جهد ومشقة أن تطبع أكثر من سبعين كتابًا ولكن جميعها أو معظمها طبعتها في بيروت رغم كل عوائق النقل وضياع الوقت.

أما الشيخ حمد الجاسر فقد أقام في بيروت بصفة نهائية، ربما فقط من أجل طبع كتب دار اليمامة للترجمة والنشر وإصدار مجلة العرب.

وهذا أبلغ دليل على أن مطابعنا وهي الركيزة الأساسية لأية انطلاقة فكرية وأدبية لا تزال ظروفها غير مواتية لوجود حركة طبع ونشر، وهو الوجود الذي لا تكون بدونه حركة فكرية وأدبية[2].

عكاظ الأسبوعية ١٣٩٣/١١/٧هـ

---

(١) وجدت الآن بالفعل الكثير من دور النشر، وازدهرت حركة النشر في بلادنا ولكن المتاعب الطباعية ما تزال قائمة رغم ازدياد عدد المطابع عن ذي قبل.

(٢) للإنصاف نقول إنه قد وجدت الآن نهضة طباعية مزدهرة في بلادنا.. والأمل كبير في ازدهار النشر.

عمادة الأدب العربي؟!

(الدكتور طه حسين.. عميد الأدب العربي).. كيف ومتى أطلق عليه هذا اللقب؟ هل كان ذلك في مهرجان شعري أو أدبي.. كذلك المهرجان الذي أقيم للشاعر المرحوم أحمد شوقي.. وأطلق عليه فيه لقب أمير الشعراء وبايعه فيه شعراء العروبة في عصره، واعترض بعضهم بصوت خافت! السؤال بالتحديد: كيف ومتي ولماذا أطلق لقب (عميد الأدب العربي) على الدكتور طه حسين؟

غير وارد عندي مطلقًا أن أجيب على السؤال بأن الدكتور طه حسين يستحق اللقب.. أو لا يستحقه.. فذلك ليس من شأني ولا يدخل في إطار موضوعي هذا، وإن كنت لا أستطيع أن أنفي، ولست في حاجة إلى أن أثبت أن الدكتور طه حسين قمة شامخة من قمم الأدب العربي منذ فجر اليقظة العربية الحديثة إلى الآن.

قلت (قمة شامخة).. ولم أقل أعلى قمة.. فهل استحق اللقب.. لقب (عميد الأدب العربي) لأنه أعلى قمة أدبية في عصره؟

ذلك ما لا يزعمه ولا يدعيه لنفسه دكتورنا طه حسين نفسه.. وإن كان قد زعمه بعض الذين اعتادوا المبالغة، والمغالاة، والإفراط في الإعجاب.

أما الدكتور طه حسين نفسه.. فإنه ينفي ذلك أشد النفي.. ويرفضه كل الرفض فذلك حيث يقول في كتابه (خصام ونقد) ص ١٠٢ ط بيروت:

(ولعل الأستاذ - يقصد عباس محمود العقاد - رحمه الله - يعلم أنني لم أحفل قط بعمادة لهذا الأدب أو ذاك، ولم يعنني قط أن تأتي هذه العمادة من المجددين أو المحافظين لأني لا أعرفها ولا أقرها فضلاً عن أن أطلبها أو أتلقاها من أي ناحية تجيء).

هذا هو النص وهو بقلم الدكتور طه حسين نفسه يضع أيدينا على خلاف ما

يعتقده بعض الأدباء من أن الدكتور طه حسين هو عميد الأدب العربي بحق وحقيق.. أو أنه قد جعل من نفسه كذلك.

ولو علم بعض هؤلاء الأدباء.. قصة (عمادة الأدب العربي هذه) وكيف نشأت لضحكوا ملء أشداقهم.. ولكفوا عن هذا الهذيان بعمادة الأدب العربي.

فالواقع أن الدكتور طه حسين لم يحلم بهذا اللقب الضخم.. ولم يرشح نفسه قط لذلك.. ولا رشحته أية جامعة أو أي أديب.. وكل ما هنالك أي (الحكاية وما فيها) أن الدكتور طه حسين كان عميدًا لكلية الآداب بجامعة القاهرة فلما فصله (صدقي باشا) من الجامعة لأسباب سياسية معروفة.. قامت صحف المعارضة بحملة شديدة على (صدقي باشا).. لقبت الدكتور طه حسين خلالها بلقب (عميد الأدب العربي) وليس عميد كلية الآداب وحدها.

وهذه المعلومات ليست من عندي، ولا من خيالي وإنما هي من كتاب (عشرة أدباء يتحدثون) الصادر عن دار الهلال ص ٢٠ وهو من كلام الدكتور طه حسين نفسه.

وإذن فلقب (عمادة الأدب العربي) هو مجرد فورة من فورات صحف المعارضة، مجرد مناسبة عفوية أطلق فيها اللقب فتلقّفه شرقنا العربي المفتون بالألقاب، وكان ذلك من عام ١٩٣٢م. ومنذ ذلك الحين أصبح الدكتور طه حسين عميدًا للأدب العربي.. دون أن يخطر ذلك في بال أحد ولا في بال الدكتور نفسه ولم يخطر آنذاك في بال صحافة المعارضة نفسها!!

زراعة القمح تسبق الأدب!

لا شك أنه يحق لنا هذه الأيام أن نكرر القول ونبدي ونعيد حول أدبنا السعودي بمناسبة انعقاد أول مؤتمر للأدباء السعوديين، خاصة وأن كل الظروف مواتية لأن يكون هذا المؤتمر بداية بعث أدبي جديد[1].

ولعله ليس من قبيل الصدف وحدها أن يكون توقيت إعلان الانتهاء من دراسة نظام المجلس الأعلى للآداب والفنون[2]، هو نفس توقيت أول اجتماع لأول مؤتمر أدبي سعودي. ثم يعلن ذلك معالي وزير المعارف نفسه في كلمة الافتتاح. لكأنه أراد أن يقول؛ بل هو قال فعلاً ما معناه تلميحًا أو تصريحًا:

أيها الأدباء، لقد حان دوركم في الرعاية وليس هذا المؤتمر إلا فرصة أتاحتها جامعة الملك عبدالعزيز لنستطيع التعرف على مطامحكم وتصوراتكم للمستقبل، وما عساه يعترض حركتكم الأدبية من عقبات أو معوقات ليكون كل ذلك أساسًا للمرحلة الجديدة التي تبدأ مع بداية وجود المجلس الأعلى للآداب والفنون.

كان كل ذلك شديد الوضوح في كلمة معالي الوزير التي افتتح بها المؤتمر.

أما الأدباء أنفسهم فقد كانوا مشدوهين، تثيرهم الفرحة من جهة وتدهشهم المفاجأة من جهة أخرى!!

كانوا - أي الأدباء - قد تعودوا التواضع الشديد فلما وجدوا أنفسهم وسط هالة كبيرة من التكريم والحفاوة والتقدير، غمرتهم الفرحة، وامتلأت أنفسهم بالعزة،

---

(١) مع كل أسف لم يثمر هذا المؤتمر ولم ينفذ أي شيء من توصياته.. بل لم تكرر فكرته نفسها حيث لم يعقد أي مؤتمر للأدباء بعد ذلك!

(٢) لم يتم أي شيء مهم أيضًا بشأن هذا المجلس.

وإن تخالج في أنفسهم ما يختلج عادة في النفس من اضطراب وخوف!!

الخوف؟. الخوف من أن يكون الفرح حلمًا لا حقيقة.

وهكذا انتعش الأمل في النفوس بعد كل يقين جديد بأن مصدر الفرح حقيقة لا خيالاً.. يقينًا وليس طيفًا.

حقيقة أن معالي الوزير كعادته لم يسرف في بذل الوعود وقطع العهود بأن ينقل الأدباء وأدبهم من البؤس إلى النعيم، من شقاء الإهمال والجحود إلى جنة من الرعاية والعناية يسكن فيها الولدان المخلدون والحور العين الذين يطوفون بأكواب من ذهب على حلقات الأدب.

ولكنه ـ أي معالي وزير المعارف ـ قال بتواضع كبير: إن مجلس الوزراء قد انتهى من دراسة نظام المجلس الأعلى للفنون والآداب.

وأبى عليه تواضعه أن يقول ماذا يمكن أن يعني الانتهاء من ذلك.

ولم يشأ بالطبع أن يذكر لهم ما اشتمل عليه هذا النظام لا لأن ذلك سر من الأسرار التي لا بد أن يحتفظ بها عضو مجلس الوزراء، بل لأن المقام مقام تكريم من معاليه للأدباء فلم يشأ أن يستعرض أمامهم ما استطاع هو إنجازه لهم.

وعلى ذكر الإنجاز، لا بد أن نشير إلى الأسباب والمسببات التي حققته.

وقبل ذلك لا بد أن نشير إلى الواقع الذي كان، وما زال يعيشه الأدب والأدباء قبل الإنجاز.

نعم، وبوضوح وصراحة، نقول إن الأدب والأدباء كانوا في آخر القائمة من الاهتمامات المباشرة للدولة، وإن كانت هناك اهتمامات ضمنية أو فردية من بعض المسؤولين، وإنما أقصد أنه لم يوجد مرفق خاص بالذات من مرافق الدولة يهتم بشؤون الأدب والأدباء مثل مجلس الآداب والفنون مثلاً.

اللهم نعم.. إن وزارة المعارف مسئولة ـ كما هو مفروض ـ عن شؤون هذا

الأدب وأربابه فذلك ـ كما هو معروف ـ من مهامها ومسؤولياتها، ولكنها ـ أي وزارة المعارف ـ كانت في شغل شاغل بما هو أهم.

كانت مشتغلة بالتعليم:

التعليم الابتدائي.

التعليم المتوسط.

التعليم الثانوي.

التعليم الجامعي[1].

وهذا كله مع وجوده وتكامله الآن عندنا ـ كان إلى سنوات قليلة مضت غير موجود أساسًا بل كُنّا وما زلنا ـ أو ما زالت وزارة المعارف بالأصح ـ تستقدم المدرسين للمراحل المتوسطة والثانوية وحتى الابتدائية.. إلى جانب الموجودين من المدرسين السعوديين الذين أمكن توفيرهم.

ومع ذلك، أي مع أننا لا زلنا نستورد المدرسين حتى للمدارس الابتدائية يوجد لدينا من هيئات التدريس الجامعية أساتذة من صميم بطاح مكة، أو حرار المدينة، أو شماريخ اليمامة، أو قنان السراة، أو سهول تهامة.

بخ بخ.. كيف يكون هذا كله دفعة واحدة؟ نترك السؤال، ونعود إلى ما يجب ذكره عن الأسباب والمسببات التي حققت هذا الإنجاز الخاص برعاية الأدب. والأدباء.

ولنقلها صريحة:

إن الأدب عندنا لم يكن وليد حركة علمية منهجية منظمة، كما هو الشأن عند غيرنا ممن سبقونا، وإنما كان وليد جهود فردية استطاعت أن تشق طريقها وسط ظلام حالك من غشاوة الجهل!

ويكفي أن نذكر أن الرعيل الأول الذي لا يزال معاصرًا من أدبائنا لم يتعلم

---

(١) أصبح للتعليم العالي ـ بعد ذلك ـ وزارة مستقلة.

في جامعة أو حتى في مدرسة نظامية، وإن كان بعضهم أو أقلهم قد تمكن من بعض ذلك - أي من بعض ما دون الدراسة الجامعية أو الدراسة العليا في انتظام، ولكن ذلك لم يكن كل شيء في تكوينهم بقدر ما كان اجتهادهم الهائل واطلاعهم الحر، ونبوغهم الذاتي هو الأساس في تكوينهم.

ولا يزال أشهر أدبائنا الموجودين في الساحة الأدبية على صعيد النشر والذكر حتى من بين الشباب أنفسهم، من الذين لم يتمكنوا حتى من إنهاء دراستهم الثانوية فضلاً عن الجامعية اللهم إلا فيما ندر.

ولا أعني بذلك بالطبع أن الأديب لا يمكن إلا أن يكون (متدكترًا) فكم من المتدكترين لا يفهمون شيئًا في الأدب أو لا يفهمون إلا جانبًا منه، وكم من جلاس الكتاتيب، وأروقة المساجد، ومؤتبطي الكتب، وجُثاة الرُّكَب في طلب العلم قد نبغوا في الأدب أي نبوغ!!

ولكن الذي أردت أن أقوله إن قوام أدبنا منذ اليقظة الحديثة لم يكن وليد حركة تعليم عامة شاملة ينبغ فيها من ينبغ، ويستفيد فيها من يستفيد بما يسر الله، على قدر ما بذله من جهد في دراسته، وإنما كان - أي أدبنا - وليد نبوغ أفراد نابغين بذاتهم.

أما الآن فقد وجد المتعلمون المجتهدون.. ووجد من بينهم المتعلم المجتهد النابغ أيضًا.

فماذا يعني كل هذا؟

ماذا يعني أن تكون الساحة الأدبية مشغولة الآن بكثير من الواغلين في الوقت الذي أصبح يوجد فيه أساتذة منا في جامعاتنا؟

الجواب بكل بساطة هو أن الصحافة عندنا هي الوسيلة الأولى في نشر أدبنا وما تزال.

وهذه الصحافة قد نمت عندنا على هذا الأساس، ولم تستطع قط إلى الآن أن تتخلص

من هذا المفهوم حتى وهي مشتركة الآن في الوكالات العالمية للأنباء والصور.

أي أن مفهوم الصحافة عندنا ظل كما هو قبل ٤٠ أو ٥٠ عامًا، وهو أن الصحفي هو من ينشر له في الصحف، ولو نشر له بعد كل حين عشرة أسطر أو أكثر أو أقل عن قمامة لم تزلها البلدية، أو إشارة مرور خربة لم يصلحها المهندس الكهربائي في قلم المرور[1].

وهذا ليس عيب الصحافة، وإن كنت لست مدافعًا عنها مع أنني أحد أفرادها، وإنما عيب الظروف التي جعلت من الصحافة الوسيلة الأولى والمثلى لاشتهار أديب، بل هو عيب الظروف التي جعلت القارئين في بلادنا يعتقدون أن الأديب هو من ينشر اسمه في الصحف حتى ولو كان ما كتبه عن إشارة مرور خربة أو عن قمامة لم تزلها البلدية.

وعلى كل حال فإن ما أريد أن أقوله ـ بعد كل هذه الاعترافات عن واقعنا الأدبي ـ هو أن الحكومة لم تكن في غفلة تامة عن الاهتمام بأدبنا وأدبائنا وإنما كانت تبذر البذور في كل ناحية، وقد ساعدتها الظروف أن تستطيع بذر هذه البذور، وكانت تنتظر الثمار.

ومن عجب أن تنجح زراعة قمح (الماكس) قبل أن يعقد أول مؤتمر للأدباء السعوديين، بل قبل أن ينتهي مجلس الوزراء من دراسة نظام المجلس الأعلى للآداب والفنون.

أليس ذلك عجيبًا؟

نعم، إنه عجيب حقًّا ـ في منطق غيرنا ممن سبقونا في تكوين حضارتهم وبذرها حبة فحبة.

أما نحن فقد نثرنا كل البذور دفعة واحدة لأننا صحونا في وقت متأخر،

---

(١) الواقع أن صحافتنا قد تطورت الآن بحيث لم يعد ينطبق عليها تمامًا ما ذكرناه في هذا المقال القديم.

وساعدتنا الظروف بإمكانات طيبة - بحمد الله - في هذه الصحوة المتأخرة.

ولأننا نثرنا دفعة واحدة لم يكن عجبًا أن تنجح زراعة (الماكس)،

وهو قمح غريب جدًّا على صحراء بلادنا، قبل أن تنجح زراعة الفكر والأدب مع أنها زراعة نابعة من أرضنا منذ قرون عديدة.

ذلك لأن زراعة القمح تعتمد على مجرد وجود التربة الخصبة والمياه الوافرة، ومجرد البذر فتنمو بسرعة.

أما الفكر والأدب فأيضًا يحتاج إلى وجود التربة الخصبة، وهي موجودة ولكن بعد هذه القرون من التخلف والخمول والركود الفكري والأدبي، لا يمكن إلا أن يتأخر قليلاً أو كثيرًا نمو النبت الفكري أو الأدبي لأن جذع النخلة لا ينمو بالسرعة التي تنمو بها قصبة قمح (الماكس).

وخلاصة أو قصارى القول هو أن مؤتمر الأدباء السعوديين يشكّل أو يكوّن أولى ثمار بذرة أو نبتة الاهتمام الفكري والأدبي التي غرستها الدولة، ممثلة في وزارة المعارف، أو سواها من المؤسسات المختصة بالثقافة والتعليم.

أليست جامعة الملك عبدالعزيز وهي التي دعت إلى المؤتمر وتبنّته ورعته وأكرمته وأنجحته أيضًا هي نفسها واحدة من المؤسسات التعليمية التي تعيش الآن ومنذ مدة بل ومنذ وجودها في بحبوحة رعاية الدولة؟

أوليست جامعة الرياض بما تضم من طلبة يعدون بالآلاف، وأساتذة منّا وفينا يعد الواحد منهم بالألف؟

أوليس كل ذلك مما لا بد أن يعتبر رعاية سابقة - بطريقة أو بأخرى - للفكر أو الأدب السعودي؟

أما رعاية اليوم، الممثلة بدايتها في هذا المؤتمر، فهي تكريم لأرباب مرحلة سابقة من مراحل الفكر والأدب بطريقة مهذبة جدًّا، وهي في الوقت نفسه

بداية لرعـــايــة مرحـــلــة جـــديدة مكونة تكوينًا مدروسًا بطـــريقة عــلــمـيــة لا تسمح بـالشهرة لمجرد من يكتب في الصحف عن قمـامة لم تزل.. أو إشارة مرور مطفأة.

البلاد ٤/٣/١٣٩٤هـ

أدب الرحــلات!

لأدب الرحلات في تراثنا العربي والإسلامي شأن عظيم.. فقد ترك لنا أسلافنا من هذا القبيل ثروة كبيرة.. أفاد منها رجال البحث أعظم فائدة في مختلف النواحي التاريخية والأدبية والجغرافية.. إلخ.

ولا تزال تلك الآثار معينًا لا ينضب للدارسين والباحثين.. فرحم الله أولئك الأسلاف الأفذاذ الذين تجشموا مشاق السفر وعنته وهول مخاوفه، يقطعون الفيافي والقفار ويجوبون الأقطار والأمصار، ويدوّنون خلال كل ذلك مشاهداتهم وإنطباعاتهم بكل دقة وعناية، بل يرسمون الخرائط الجغرافية ويحددون المعالم.. ولا يتركون شاردة أو واردة إلا ودوّنوها.

ولقد ازدهر أدب الرحلات أيّما ازدهار لأنه كان يشتمل على الكثير من عجائب الدنيا وغرائبها وطباع الشعوب ومشاربها واختلاف عاداتها.. مما كان يجهله الناس كل الجهل لسبب تفاوت المسافات وانعدام المواصلات السريعة كما هو الشأن في عصرنا الحاضر فكانوا يعجبون لذلك كل العجب.

أما اليوم فإن أدب الرحلات بمفهومه القديم أمر لا غناء فيه ولا جدوى، ذلك لأن أحداث العالم كل العالم تقريبًا في متناول سائر الناس في مختلف أنحاء المعمورة في نفس اليوم بل ربما في نفس الساعة أو الدقيقة عبر موجات الأثير بالصوت والصورة عبر الراديو أو التليفزيون!!

فأما عادات الشعوب وغرائب طباعها وتقاليدها فقد تكفلت الأفلام السينمائية والتليفزيونية بذلك بأدق صورة وأوجز عبارة.

وفضلاً عن ذلك فقد أصبح في ميسور كثير من الناس أن يتناول إفطاره في جدة

مثلاً.. ثم يتغدى أو يتعشى في واشنطن أو باريس أو لندن، أي أن معرفة العالم أصبحت متاحة بسهولة ويسر لكثير من الناس.. فلم يعد هناك ما يدهش ويثير مثلما كان الشأن أيام ابن بطوطة مثلاً. فقد كان في أيامه كل شيء يدهش ويثير!!

وذلك لأن سكان كل بقعة في الأرض لا يكادون يعرفون شيئًا عن أدنى الأقطار منهم، كيف عن أقصاها، ولذلك كانت أخبار الرحلات مدهشة ومثيرة، ولذلك كان لأدب الرحلات تلك المكانة المرموقة في تراثنا العربي والإسلامي.

أما اليوم وعلى الرغم من كل ما ذكرنا آنفًا من الأسباب والعوامل التي جعلت من أدب الرحلات أمرًا ثانويًا.. إلا أن الكلمة المكتوبة فيما يبدو ستظل محتفظة بمكانتها رغم الأفلام السينمائية والتليفزيونية والصور الفوتغرافية وبرامج الإذاعات ولكن الأمر اختلف عن السابق حسب مقتضيات العصر وإمكاناته وتسهيلاته فلقد استعيض عن أدب الرحلات بطابعه القديم المعروف الذي يعتمد على الوصف الدقيق وتحديد المعالم والمسالك. إلخ. استعيض عنه الآن بما يسمى بالريبورتاجات الصحفية المصورة أو غير المصورة، وهي غالبا ما تتحاشى المعلومات المعروفة أو التي سبق أو أمكن سبق معرفتها عن طريق الراديو والتليفزيون والأفلام السينمائية.. إلخ، أي ما تبقى بعد كل ذلك!!

ولعل خير مثال على ذلك كتاب أنيس منصور (حول العالم في ٢٠٠ يوم) فإن النجاح الذي حققه هذا الكتاب لا يعود لكونه فقط قد جمع معلومات يجهلها الناس وإنما يعود - أي نجاح الكتاب - إلى الحاسة الصحفية اللماحة عند أنيس منصور التي استطاع أن يلتقط بها ما لم تلتقطه عدسات التليفزيون أو السينما أو وكالات الأنباء!!

وإلا فإنه لا يمكن أن يخطر في بال أحد أن يحقق أنيس منصور أو غيره أدنى

نجاح في كتاب من هذا القبيل لو أنه اتبع طريقة القدماء في تدوين مشاهداتهم وتسجيل انطباعاتهم وطريقتهم في تحديد المعالم وجغرافية المسالك، إذ لو فعل ذلك لكان أضحوكة بين القراء الذين يعرفون الشيء الكثير مما يمكن أن يسرده أو يذكره!

والسؤال الآن هو: هل يندثر أدب الرحلات؟ والجواب: نعم.. ولا في آن واحد!

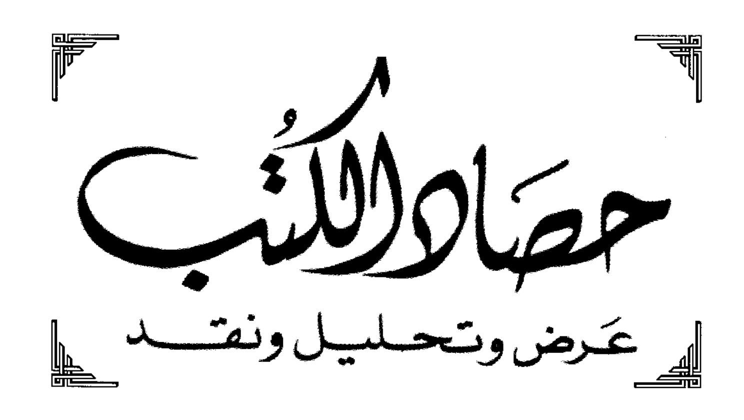
نعم سيندثر بل قد اندثر فعلاً أدب الرحلات الذي يستهدف جغرافية الأقطار أو يسرد المشاهدات ويصف الطرق ويذكر العجائب ويصف ما لا أذن سمعت.. إلخ.

أما أدب الرحلات الذي يعتمد على الحاسة اللماحة والطرفة الخفيفة واللمحة الذكية والانطباعات الذاتية المفعمة بالحس المرهف والوجدان الشفاف.. فهذا هو الأدب الذي سيبقى وهذا هو أدب الرحلات الجديد سواء كان من (أوراق مسافر) لأمين نخلة، أو من (جعبة) سعيد فريحة، أو من فلافل وتوابل أنيس منصور أو حتى من رصانات جمال الفراء أو على الأقل من ضحك وبكاء فكري أباظة، ورحم الله شوقي حيث يقول:

لكل زمان مضى آية وآية هذا الزمان الصحف

فهذه، الصحف هي وحدها التي أبقت على أدب الرحلات حتى وإن اختلفت الأساليب وتباينت الغايات فالنتيجة واحدة على كل حال!!

البلاد ٨/٥/١٣٩٤هـ


حصاد الكتب
عرض وتحليل ونقد

مقدمة

لربما كان الكتاب من أسباب شقوتي، وعدم قدرتي على تحقيق الحد الأدنى مما حققه غيري في جوانب كثيرة من شؤون الحياة العامة.. وهو لا يزيد عني - بأي حال من الأحوال - بل ربما يقل!! بل يقل!!

لعل السبب في ذلك هو صحبتي الطويلة المزمنة للكتاب، وملازمته (أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر)!!

ولا تخلو علاقتي بالكتاب، أو عشرتي له من طرائف ومفارقات غير مسألة (فضل ثوب المعسر).

وصحبة الكتب هي سبب اشتهار الأدباء بالبؤس والتعاسة في حياتهم العامة حتى وصل الأمر بعامة الناس - منذ القدم - أنهم إذا رأوا أحدهم متأبطًا كتابًا.. أو منكبًا على كتب قالوا عنه:

(أدركته حرفة الأدب)!!

ومعنى ذلك - في نظرهم - أنه قد أدركه الفشل.. أو لحقته الخيبة.. ربما لأن الطبيعة التي تلازم صاحب الكتب تجعله يلهو بدنيا كتبه.. فلا يهتم الاهتمام الكافي بدنيا الناس ووسائل معاشهم!!

ربما هذا.. وربما ذاك.. كما يعتقد الناس، ولكن، وحتى بافتراض أن كل ذلك صحيح فأن الحقيقة التي يعرفها أرباب الكتب جيدا، ويجهلها عامة الناس.. هي أن ساعة واحدة مع كتاب جيد تساوي أيامًا.. بل أعوامًا من الحياة الفارغة الجوفاء التي يعيشها بعض أولئك الذين يعتبرهم عامة الناس من كبار الناجحين.. وليس هو النجاح.. وإنما هو الفراغ الروحي، والخواء النفسي،

والتحجر الفكري.. قد غلف كل ذلك بمظاهر براقة خادعة مزبرقة.. ليست من حقيقة الحياة في شيء!!

ولكن ذلك هو ما تواضع عليه الناس - مع كل أسف - ومن ذا الذي يستطيع أن يخالف ما تعارف عليه عامة الناس؟!

فيا عامة الناس.. مغفرة وصفحا عن جرأتي هذه غير المقصودة على قدس أقداسكم المتمثل في قولكم (الحكيم) المشهور: (من يملك قرشًا يساوي قرشًا(!!

ذلكم هو الحق.. أما الذي يملك المعرفة أو بعضها فلا يساوي شيئا بالطبع.. وأنا أول من (يبصم) معكم على ذلك.. فهل يرضيكم مني هذا يا سادتي الكرام.. يا عامة الناس؟!!

أما الطرائف والمفارقات التي حصلت لي من جراء (حماقتي) في صحبة الكتب فهي كثيرة، وبعضها يضحك الثكلى!!

ولكنني لا أعتقد أن يتوقع مني القارئ ذكر مثل ذلك في مقدمة كتاب.. وإنما هي إشارة عابرة أفلتت مني ربما لأن هذه المقدمة هي مقدمة كتاب يتحدث عن الكتب أصلاً، ولا شأن له غير ذلك.. فكان لا بد من تداعي الذكريات.. ومن ثم لا بد من فلتة إشارة عابرة مثل هذه!!

أما الكتاب الذي بين أيديكم.. والذي خرج الآن من كونه كان ملكًا لي وحدي طيلة أعوام مديدة وأصبح ملكًا مشاعًا.. نصيبي منه لا يزيد عن نصيب أي قارئ.. بل إن نصيبي منه أكثر خسارة وبوارا لأن أي عيب فيه لا ينسب لغيري.. وما أكثر العيوب بالنسبة لمثلي وأمثالي ممن تزداد حدة حساسيتهم بالجهل كلما ازدادوا قليلا أو كثيرًا من المعرفة!!

فما بالكم اذا كانت مادة هذا الكتاب عبارة عن موضوعات متعددة كتبت ونشرت في أوقات مختلفة على مدى عدة سنوات، كما يتضح من تاريخ كل

موضوع.. لا شك أنني عند كتابة كل موضوع من موضوعات هذا الكتاب كنت - في كل مرة - أشعر بجهلي أكثر من ذي قبل.. ولذلك لا بد أن يلاحظ القارئ أنني في كل تاريخ متقدم من تواريخ هذه الموضوعات أكون في ذلك الموضوع أكثر جرأة واعتدادًا بالنفس أو اغترارًا بها على الأصح!!

والعكس من ذلك تماما... أكون أكثر ميلا للتواضع وتحسبا لمواقع الخطا عندما أكتب موضوعًا آخر بعد فترة زمنية كافية لازدياد إحساسي بالجهل بقدر ما أكون قد ازددت قراءة واطّلاعًا!!

ليس هذا تواضعًا.. بل هو الحقيقة.. ولكن - رغم ذلك - سيجد القارئ في موضوعات هذا الكتاب الكثير من عنفوان الشباب.. والكثير أيضًا من حماس المخلصين لعشقهم.. على أن هذه الموضوعات التي اخترتها بين دفتي هذا الكتاب هي في الواقع قليل من كثير مما كتبته عن الكتب حيث عمدت إلي استبعاد الكثير من ذلك لا لشيء إلا لقسوة تلك الموضوعات وعنفها.. وما تركته حين نشرها من ردود فعل لم تكن متوقعة مني، فخسرت بذلك صداقات عزيزة.. واكتسبت بدلا منها عداوات!!

وما كان كل ذلك ليحدث لو لم أكن في مطلع شبابي (عبيطًا) حين صدقت حكاية (إن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية)!!

وحين صدقت المزاعم القائلة إن الأدباء - من بين سائر الناس - هم الأكثر رحابة صدور وتقبلاً للنقد.. بل والاستفادة منه أيضًا!!

وتلك مزاعم ضخمة كنت أقرأ عنها في شبابي فصدقتها بكل براءة و(عبط)!!

وزاد الطين بلة مصادفة أنني كنت منذ بداية ميولي الأدبية المبكرة وكنت بفطرتي أو طبيعتي - ولست أدري لماذا؟ - ميّالا إلي النقد الأدبي.. ثم نما هذا الميل البريء معي حتى أصبحت (كويتبا) يحتل مساحات شاسعة من أعمدة

الصـحـف والمجلات ربما بـحـق.. وربما بـدون حـق.. ولـكـن المهـم هـو أن موضوعاتي المفضلة كانت دائما: النقد الأدبي!!

كنت أشعر بكل براءة - كما يعلم الله - أنه من حقي إبداء رأيي في أي كتاب أقرؤه.. أو أي موضوع أدبي يعنّ لي حتى ولو كان هذا الرأي مخالفًا لرأي أحد كبار أساطين الأدب.. وحتى لو كانت عبارتي لا تخلو من حدّة.. أو لذعة سخرية أكون قد قصدت بها المداعبة أو المفاكهة أكثر مما أكون قد قصدت التجريح.. وماذا عساه يدفعني إلى التجريح حين لا تكون لي في كثير من الأحيان أدنى معرفة بالأديب الذي نقدته؟!

بل وحتى لو كنت على معرفة وثيقة بالأديب المنقود فإن ذلك - كما هو مفروض - يجعلني أبعد ما أكون عن قصد تجريحه.. ولا يعقل - من جهة أخرى - أن تكون بيني وبين الأديب المنقود حزازات شخصية تبلغ بي - مع كل تلك البراءة - إلى حد استخدام النقد الأدبي كسلاح في معركة الحزازات الشخصية!!

ولكن هكذا كان.. ولم يكن الخطأ خطأ الأدباء الذين غضبوا وثاروا وأقاموا الدنيا ولم يقعدوها.. واستخدموا أرخص الأسلحة في محاربتي.. وليس منها بالطبع سلاح قرع الحجة بالحجة أو دحض الرأي بالرأي.. ولكن كانت أسلحة أخرى تماما.. ليست من ذلك في شيء!!

حقًا.. لم يكن الخطأ هو خطأ أولئك الأدباء.. وإنما كان خطئي أنا أساسًا منذ صدقت أن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية.. في حين الواقع يصرخ بأن اختلاف الرأي يفسد كل القضايا.. حتى في مجال الأدب.. وليس فقط في الخلاف على حدود أرض مثلاً.. أو نحو ذلك!!

وحين أدركت كل ذلك - بعد فوات الأوان - لم أتعظ - مع الأسف - ولا أظنني سأتعظ.. فمن شب علي شيء شاب عليه - كما يقولون!!

ولكن كل ما هنالك هو أن الأمر اختلف قليلاً معي فبدلاً من أن أكتب بكل تلك البراءة الساذجة، وذلك التصديق الأعمى بحكاية رحابة صدور الأدباء.. أصبحت أكتب النقد - لا أقول بخبث وسوء طوية - بل بحذر شديد وباستعداد مسبق لتقبل أي رد فعل غير معقول!!

أكتب ما أعتقده حقًّا - وَدَعْكَ من كونه ربما غير ذلك من وجهة نظر أخرى - ثم لا أبالي قام الأديب المنقود أو قعد.. ولكنني في كل ذلك أراعي منتهى الحرص أو الاحتراس.. الأمر الذي خفف - بالضرورة - من حدتي القديمة!!

وبهذه الروح نفسها مع رواسب ما تزال عالقة في نفسي من ذلك التصديق القديم برحابة صدور الأدباء.

بمزيج من هذه وتلك قمت باختيار موضوعات هذا الكتاب من بين عشرات الموضوعات، حيث راعيت أن يكون الأشخاص موضع النقد في موضوعات هذا الكتاب هم الأقرب في ذهني فعلاً إلى مزية رحابة الصدر.. وإن كان حتى هؤلاء المختارين يتفاوتون مع الأسف في التمتع بهذه المزية.

ثم راعيت - مع ذلك - في اختيار موضوعات الكتاب أن تكون هي الموضوعات التي كنت فيها أكثر احتراسا وحرصا!!

وذلك كل ما يمكنني قوله في هذه المقدمة عن موضوعات الكتاب من حيث هي كمضمون!!

أما من حيث هي ككتاب فإن هذه الموضوعات لم تؤلف في مجملها كوحدة لكتاب، ولذلك لم تكن - في ترتيبها وتبويبها - وفقا لمنهج معين.. وإنما هي مجموعة من الموضوعات النقدية كتبت ونشرت في أوقات مختلفة.

ولكن المبرر الوحيد الذي يمكن أن يقوم مقام المنهج في جمع هذه الموضوعات في كتاب بذاته، هو وحدة الموضوع الذي تصب فيه.. أو تدور

حوله جميع موضوعات الكتاب وهو نقد الكتب واستعراضها وتحليلها وإبداء الرأي فيها..

فإذا كان هذا ليس مبررا كافيا - من حيث المنهجية - في رأي إخواننا من المنهجيين فإنني أستميحهم العذر أصالة عن نفسي.. ونيابة عن المئات من المؤلفين - وبعضهم من الكبار جدًّا - ممن اتبعوا هذه الطريقة نفسها في إخراج الكثير جدًّا من كتبهم!!

وما أنا إلا... إلخ!!

وبعد.. فقد أطلت، ولكن هل أفدت.. اللهم غفرا..!!

١٠/٦/١٤٠٢هـ

كتاب الأغاني

كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني

(ابني الأستاذ علي العمير من شباب هذا الجيل الواعي، يتصف بصفة يجب أن تنمى حتى تثمر، تلك الصفة تقوم على أساس الشك ـ الشك في كل شيء ـ بغية الوصول إلى الحقيقة، على طريقة أبي الطيب:

فصـرت أشك في من أصطفيه لعلمـي أنـه بعض الأنـام

وقد قيل: إن الشك هو طريق الوصول إلى الحقيقة. والأستاذ العمير يريد أن نسايره في شكه علّنا نصل إلى حقائق أكثر وأكثر مما عرفناه عن هذا المؤلف الخالد كتاب (الأغاني) وهو في مقاله هذا يسير على خطة أشار إليها مؤرخو أبي الفرج من طرف خفي، فحاول علي أن يوضحها، فلقد أورد الخطيب[1] عن أبي الفرج قول محمد بن الحسن النوبختي: كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب الناس، كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة، والدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئًا كثيرًا من الصحف، ويحملها إلى بيته، ثم تكون رواياته كلها منها. ثم يورد الخطيب قولاً آخر ينفي هذا إلا أنه يثبت أنه خلط قبل أن يموت، وعلي العمير، يعرض لنا ذلك الرأي عرضا يتلاءم مع أسلوب العصر الذي نعيشه، وهو عرض ـ مهما كان ـ جدير بأن يكون له مكانة، وأن يكون له قراء ـ مع معرفة ما لكتاب (الأغاني) من قيمة ثقافية، إن حاول محاولون إضعافها من حيث الرواية، إلا أنها تصور واقعًا من حياتنا، قد لا يضيرنا إذا كان تصويرها قائمًا علي أساس من التصوير الخيالي البحت، أو من طريق الرواية،

---

(١) (تاريخ بغداد) ١١/٣٩٩

فهو واقع أيًّا كانت وسائل إبرازه، وما أجدرنا وأحوجنا إلى أن نسمع شبابنا المتطلع الواعي الحائر إلى الشك في كل شيء يصور لنا أفكاره وآراءه)[١]

(حمد الجاسر)

أبو الفرج ورواياته المسندة؟

يعتبر العصر الذي عاش فيه مؤلف كتاب «الأغاني» خلاصة أزهي العصور الإسلامية، حضارة، ورونقا وبهاء، وترفًا وسرفا، وطلب علم، وتحصيل رواية، وسماع نغم.. إلخ.

وكان الخلفاء والوزراء والأمراء وسراة القوم يغالون في تكريم العلماء والأدباء والشعراء.. ويجزلون لهم العطاء.. حتى لقد انتهى إلينا أن الخليفة أو الأمير أو الوزير يسمع البيت أو البيتين من الشعر. فيترنح ويهتز نشوة وطربًا.. ثم لا يرى للشاعر من صلة إلا أن يحكّمه فيما يريد..!!

وهكذا فاللهى تفتح اللها.. نفقت بضاعة الأدب في هذا العصر.. وازدهت تجارته.. فأقبل عليه الناس طلبا للذته وفوائده، وحسن المتوبة عليه!!

وكان من بين هؤلاء، ومن المجلين في عصره، مؤلف كتاب «الأغاني». وقد كانت الكتب تؤلف في ذلك العصر استجابة لطلب أمير أو رغبة وزير..!!

وهذا بالضبط هو الباعث الأول لتأليف كتاب «الأغاني» ويقول مؤلفه: (والذي بعثني على تأليفه أن رئيسًا من الرؤساء كلفني جمعه له)[٢].

وهكذا فالباعث الأول لتأليف هذا الكتاب الضخم هو تلبية لرغبة رئيس - وأكرم بها من تلبية - ولكن ماذا عسى يرغب فيه هذا الرئيس من تأليف كتاب

---

(١) ما بين المعقوفين مقدمة أفضل بها أستاذنا الكبير العلامة الشيخ حمد الجاسر عند نشره لهذا الموضوع في مجلة (العرب).

(٢) ج١ ص ١٦ الأغاني.

عن الأغاني؟.. إلا أن يكون له مصدر لهو ومتعة، وقصص وسمر؟

وهل بوسع الأصبهاني إلا تلبية هذه الرغبة؟. ثم هل بوسعه إلا يراعي أهداف الرئيس المترف وإلا أن يعمل على إمتاعه وإيناسه بما (يروق القلب، ويلهي السامع) من الطرائف، والأخبار، والأشعار؟

وما قصر في تلك الأصبهاني ولا توانى.. حيث (أتى في كل فصل من ذلك بنتف تشاكله، ولمع تليق به. وفقر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلاً بها من فائدة إلى مثلها ومتصرفًا فيها بين جد وهزل، وآثار وأخبار. وسير وأشعار)[1]

وبالرغم من بساطة الباعث على تأليف كتاب (الأغاني) إلا أنه قد جاء في النهاية أكثر بكثير من مستوى دوافع تأليفه، ولا غرو فالأصبهاني - على علو كعبه، وأصالة ثقافته، وواسع علمه بالروايات - لا يمكن أن يتمخض كما فعل الجبل الطيب الذكر!!

لقد اهتم بالأمر على قدر مستواه هو.. لا على قدر البواعث والدوافع.. وتكلف.. لا بل سلخ من عمره نصف قرن في تأليف الكتاب. فجاء الكتاب على أقصى ما اشتهى وأراد، مفخرة من المفاخر، قدر له من الانتشار والذيوع والرواج ما لم يقدر لكتاب من نوعه في مختلف العصور منذ تأليفه إلى الآن!!

لقد ملأ الدنيا وشغل الناس.. وأصبح من أهم المراجع التاريخية والأدبية (لنا في ذلك رأي سيأتي بعد) حيث اشتمل على قدر هائل من أخبار العرب وأشعارهم، وأيامهم، وقصصهم، ومآثرهم، ومثالبهم، وحيث اشتمل على قدر كبير من أخبار أزهى العصور الإسلامية.. مما يستطيع معه الباحث المنقب الدقيق الملاحظة أن يستخلص أهم جوانب الحضارة الإسلامية في أزهى عصورها.. وخاصة عهد الأمويين والعباسيين.

ولكن إلى أي حد نستطيع الاعتماد على كتاب الأغاني ورواياته المسندة؟

---

(١) من مقدمة الأغاني.

الواقع أن الإسناد في الرواية لا يعطيها الحق في أن تكون قضية مسلّمة..

هذا بدهي جدًّا.. ولكنه يجرنا للحديث عن الروايات المسندة وغير المسندة من أساسها، إذ قد ذهب بعض الأدباء بكتاب (الأغاني) بعيدا حيث اعتبروه حجة تاريخية فيما رواه وأسنده.. وقد جر إلى هذا الخطل الأسانيد المتعددة عن فلان عن علان عن أبيه عن جده!!..

وتناسوا أو جهلوا أن الروايات قد لفقت بأسانيد مختلفة كذبًا وزورا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم نفسه ـ واختلق عليه ما لم يقله وهو رسول الهدى، فما بالك بغيره؟.. إلا أن جهابذة من العلماء ورجال الحديث قد انبروا لهذه الروايات الملفقة، وأوسعوها غربلة ونقدا وتكذيبا وتسفيها، ووضعوا الأسس والقواعد لعلم الحديث، الأمر الذي جعل الرواية عن رسول الله ﷺ تنجو إلى حد بعيد من اختلاق المختلقين، وافتراءات المفترين.

أما رجال السند في الرواية الأدبية والتاريخية فإن أحدًا ـ مع الأسف ـ لم يُعنَ بهم عناية رجال الحديث برواته.. لذلك لا يستطيع الباحث الآن أن يعتمد على أحد أو آخر من رجال السند هؤلاء.. دون أن يتكبد جهدا مضاعفًا، ومشقة بالغة!!.

لو أن بعض الباحثين قد انبرى لرجال السند في الروايات الأدبية والتاريخية لكُنّا الآن بمنجاة من زيف هؤلاء، كما أصبح رجال الحديث بمنجاة من زيف أولئك.. وسننظر الآن بقدر ما نستطيع في شأن روايات (الأغاني) ومدى استطاعة الاعتماد عليها:

١ ـ المعروف عن أبي الفرج الأصفهاني.. أنه رجل أدب وجَمّاع رواية.. وأنه لم يقل قط إنه قد تصدى في هذا الكتاب كمؤرخ.. بل أكد ونبه إلى أنه: (يكره أن يؤثر عنه في هذا المعنى ما يبقى على الأيام مخلدًا.. وإليه على تطاولها، منسوبا.. وإن كان مشوبا بفوائد جمة ومعان من الأداب شريفة)[1].

وليس من غرض للكتاب سوى الحرص على جمع كل ما قيل، بصرف النظر

(١) ص ١٧ ج ١.

عن صدقه من كذبه. وإن كان المؤلف نفسه ينبه أحيانا إلى أن هذا الخبر: (الصنعة فيه واضحة أو ذاك مكذوب).

وكذلك نص في أكثر من مكان من كتابه أنه يكره أن يخلو الكتاب من شيء قد رواه ودوّنه الناس[1].

٢ ـ نص مؤلف الكتاب أن الباعث على تأليفه ـ كما أشرنا آنفًا ـ هو استجابة لرغبة رئيس من الرؤساء في تأليف كتاب عن الأغاني.. لا عن التاريخ.. والذي يطلب أو حتى الذي يؤلف كتابا عن الأغاني لا يمكن أن يحرص حرص المؤرخ على صحة الرواية من عدمها.

ويجب ألا يخدعنا ما يحصل أحيانًا من تنبيهات مؤلف الأغاني على عدم صحة بعض الأخبار، وما يعرضه أحيانًا من نقد شديد لبعض الروايات.. فإنه إنما يفعل ذلك لا لغاية التحقيق وتحري الدقة في هذه الروايات بقدر ما هو إبراز لمكانته في علم الرواية، وهو بحق كذلك، ولكن لم يكن من غايته في كتاب (الأغاني) أن يحقق ويدقق.. بل غايته الإمتاع والمؤانسة.. وجمع أكبر قدر من الروايات التي تحقق بابة الكتاب لا يكاد يهمه صدقها من كذبها، وفي الحق أن الرواة لا يلزمهم بالضرورة تحري الصحة من عدمها في الرواية بقد ما يلزمهم عدم الوضع والاختلاق...

٣ ـ الرواة ورجال السند في الروايات الأدبية والتاريخية ربما لكونهم لا يجدون حرجًا دينيًّا أو خلقيًّا يمنعهم من اختلاق الروايات. أو غَلَوا في ذلك، وذهبوا كل مذهب.. تارة لغرض سياسي أو حزبي.. وتارة أخرى للتسلية والمتعة.. وطورا ليقال عنهم رواة دهاة، ليثابوا على ذلك وتجزل لهم الأعطيات.. خاصة وهم في عصر نفقت فيه بضاعة الأدب، وازدهت تجارته..

---

(١) ج ١٨/١٦١.

ولقد اشتهر كذب معظم الرواة في ذلك العصر نفسه، حيث تواترت الأخبار التي وردت إلينا في كتب الأدب والتاريخ عن ذلك، ولسنا في حاجة إلى ضرب الأمثلة.. فإن الموضوع أشهر عند كل متأدب من أن تضرب له الأمثال..

ولعله اتضح لنا مما تقدم أنه لا يمكن الاعتماد بحال على روايات (الأغاني) المسندة أو غير المسندة كقضية مسلّمة.

ولكن لا شك أن هذه الروايات - تبقى بعد ذلك وبرغمه - من أهم مصادر التاريخ والأدب العربي.. ولكن شريطة أن ينبري لها ولغيرها من الروايات في كتب التاريخ والأدب من رجال البحث، من يوسعها بحثًا وتمحيصًا، وقياسًا ومقارنة، والاستدلال بالظواهر على البواطن، ووضع القواعد والأسس لذلك.

ولا شك أن رجال الحديث من أسلافنا الأفذاذ قد تركوا لنا ثروة ضخمة من القواعد الصارمة التي وضعوها لرواية الحديث ورواته.. يمكننا أن نستعين بها خير استعانة في سبيل غربلة روايات التأريخ والأدب.. بالإضافة إلى ما يمكننا الاستعانة به من مناهج البحث الغربي الحديث الذي قطع شوطًا طويلاً في هذا المضمار.

وإن تراثنا الأدبي والتاريخي لفي أمس الحاجة إلى ذلك. ولعلنا ننتهي إلى القول: إن كتاب (الأغاني) بقدر ما هو كتاب لهو وسمر، وقصص وخيال، وعبث ومجون. كذلك هو كتاب تأريخ وأدب من طراز رفيع، ولكن بشرط أن ينبري له من يستطيع الاستفادة والافادة منه.

أما القارئ العادي.. فإنه لن يبلغ ذلك.. ولكنه على أية حال لن يسخر.. سينتقل من جد إلى هزل، ومن فائدة صغيرة إلى متعة كبيرة.. وهكذا دواليك، فليكن الله في عونه..!!

نماذج من أكاذيب الرواة!!

الراوية لغة هو الجمل أو الحمار الذي يستقى عليه الماء.. ومن هنا اشتقت

تسمية (رواة) لرواة الحديث والأدب والتاريخ.. فالراوية هو الذي يسمع الحديث فينقله كما هو عمن سمعه.. وليس من شأنه نقد المتن المروي.. ولكن يلزم عدم الوضع، وعدم الاختلاق والكذب.

هذه خلاصة موجزة - وربما مخلة في إيجازها - عن ماهية الراوية وتعريفه.. اضطررنا إليها كتوطئه للحديث عن أولئك الذين ابتلي به أدب العرب، ولغتهم، وتاريخهم، بل وشريعتهم أيضًا.. ابتلاء لم تعرفه - فيما أعلم - أمّة من الأمم بالقدر الذي ابتليت به أمّة الضاد.

وأقصد هذا العدد الكبير من الرواة الذين لم يراعوا في رواياتهم إلاً ولا ذمة.. اتخذوا من الرواية سلعة يتاجرون بها، ومطية هوى وأغراض، فجاءوا بسيل من الرواية الكاذبة الزائفة.

ولئن كنت قد أشرت آنفا إلى أن الراوية ليس من شأنه نقد المتن.. أو أن يتأكد من صحة الرواية أو عدم صحتها.. فلست هؤلاء أقصد.. وإنما أقصد أولئك الذين يختلقون الروايات ويضعونها عمدًا لسبب مذهبي أو سياسي أو نفعي.. فهؤلاء هم مصيبتنا.. وأكثر منهم إيجاعًا لنا من يستشهدون بأقوالهم إلى اليوم، إما عن جهل أو غرض.. كما يفعل بعض أدعياء العلم عندنا! أو كما يفعل بعض المستشرقين من أصحاب الهوى والغرض!!

لقد بدأ الوضع والاختلاق عند رواة الحديث (حيث تنازع المسلمون شيعًا وأحزابًا.. وانقسموا سياسيًا إلى جمهور وخوراج وشيعة.. فكان الانتصار للمذاهب. من أهم الأسباب الداعية إلى وضع الأخبار واختلاق الأحاديث.. حتى لقد قال أحدهم: (انظروا هذا الحديث عمن تأخذونه فإنّا كُنّا إذا رأينا رأيًا جعلنا له حديثًا)[1].

هذا بالنسبة للحديث عن النبي ﷺ ورحم الله عبدالله بن المبارك قيل له: هذه الأحاديث الموضوعة؟ فقال: تعيش لها الجهابذة.. (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وقد عاش لها الجهابذة.. وميزوا الخبيث من الطيب.. ووضعوا القواعد والأسس لعلم الحديث.. فكفانا الله شر الرواة من هذا القبيل إلى حد بعيد..

أما رواة الأدب والتاريخ.. فهم الذين ما زلنا نعاني من أكاذيبهم.. وهم الذين لم يَنْبَرِ لهم رجال البحث في الأدب والتاريخ على نحو ما فعل علماء الحديث.. اللهم إلا قلة نادرة لم توف الموضوع حقه، ولن تفيه إلا بهمة عالية، وتضافر جهود، وتشجيع دول، وبذل وسخاء على البحث والتحقيق.. وذلك لتعدد مناحي الأدب والتاريخ عنها في علم الحديث الشريف.

إن الروايات في حد ذاتها ـ بصرف النظر عن صدقها أو كذبها ـ تعتبر تراثًا ضخمًا.. يلزمنا العناية به.. والإفادة منه تعليلاً وإيضاحًا، استنباطًا وقياسًا، وتمييزًا.. ومن الغبن والإجحاف أن يترك القارئ العربي وغير العربي.. يتخبط في متاهات هذه الروايات، لا يدري صدقها من كذبها!!.

إن الضرر الذي يعود على تاريخنا وتراثنا.. ومن ثم مستقبلنا.. من بقاء هذه الروايات على حالها دون تحقيق واستخراج واستنتاج، لهو أكثر مما يقدر المتهاونون اللاهون عن تركة أمّتهم وتاريخ حضارتهم!!.

وسنورد فيما يلي بعض نماذج من أكاذيب الرواة. لعل ذكرها يذكي الغيرة، ويحث الحمية عند الباحثين:

١ ـ سبق أن أشرنا فيما مضى إلي بعض أسباب الوضع في الحديث.. وأنه بدأ حين تنازع المسلمون شيعًا وأحزابًا.. فكان الانتصار للمذاهب من أهم الأسباب

---

(١) ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ علوم الحديث ومصطلحه الدكتور صبحي الصالح.

الداعية للوضع.. ولا بأس أن نذكر هنا بعض نماذج من أكاذيب رواة الحديث وأساليبهم في التلفيق.. فمنهم من يختلق الحديث لأتفه الأسباب دون أدنى وازع من دين أو ضمير.

روي عن أحدهم.. وقد جاءه ابنه من الكُتّاب يبكي. فقال له: مالك؟ قال: ضربني المعلم. قال: لأخزينهم اليوم: حدثني عكرمة عن ابن عباس مرفوعًا: (معلمو صبيانكم شراركم، أقلهم رحمة لليتيم، وأغلظهم على المساكين)[1].

وقد يكون التلفيق في الرواية عن غير قصد، ومثال ذلك هذا النص: (دخل ثابت على شريك وهو يملي ويقول: (حدثنا الأعمش عن سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ وسكت ليكتب المستملي: فلما نظر إلى ثابت قال: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار (وقصد بذلك ثابتًا لزهده وورعه، فظن ثابت أنه متن ذلك الإسناد. فكان يحدث به)[2].

ولقد اشتهر بعض هؤلاء الرواة ليس بالكذب والاختلاق فقط بل بالصفاقة أيضًا: (ذكر رجل لمالك حديثًا منقطعا فقال: اذهب إلى عبدالرحمن بن زيد يحدثك عن أبيه نوح!!)[3].

هذه نماذج من أساليب الوضع والاختلاق في الحديث...

٢ ـ أما الوضع والاختلاق في روايات الأدب والتاريخ.. فحدث عن ذلك ولا حرج.. لقد بلغ الأمر أن سئم بعض الخلفاء من محبي الروايات التاريخية والأدبية أكاذيب أولئك الرواة فصاروا يعطون الجوائز عن صدق الرواية!!

قال نصيب الشاعر: دخلت على عبدالعزيز بن مروان فقال: أنشدني قولك:

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٣.

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٦ ، ٢٧٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٥.

إذا لم يكن بين الخليلين ردة سوى ذكر شيء قد مضي درس الذكر

فقلت: ليس هذا لي.. هذا لأبي صخر الهذلي. فقال لي عبدالعزيز: لك جائزة على صدق حديثك[1]!!

وهذا الخبر يدل على مبلغ تردي وتهافت الرواة.. حتى ليفرح خليفة ويجيز إن صدقه شاعر في أمر بسيط جدًا كهذا!!

ومن أساليب الرواة.. أن يختلق الراوي رواية عن نفسه في صغره.. يريد أن يرفع بها من شأنه في كبره من أمثال علي بن الجهم قال: حبسني أبي في الكتّاب، فكتبت إلى أمي:

يا أمتاه، أفديك من أم أشكو إليك فظاظة الجهم

قد سرح الصبيان كلهم وبقيت محصورًا بلا جرم

قال: وهو أول شعر قلته، وبعثت به إلى أمي. قال عيسى: فحدثت بهذا الخبر إبراهيم بن المدبر فقال: علي بن الجهم كذاب.. وما يمنعه.. من أن يكون ولّد هذا الحديث، قال هذا الشعر وله ستون سنة، ثم حدثكم أنه قاله وهو صغير ليرفع من شأن نفسه[2].

وهناك الكثير جدًا من الروايات الملفقة لأغراض شعوبية، أو سياسية ـ وهذا هو الخطر الذي يجب التنبه له ـ ولو ذهبنا في سردها. وضرب الأمثلة لها لملأنا صفحات، فراجع مثلاً الأغاني ج٩ ص٢٥٤ تجد خبرًا طويلاً عن أبي دلامة.. لا شك أن واضعه أراد الإساءة إلى العرب.. واتهامهم بالجبن والغفلة.. وهذا ما لم يكن وخاصة آنذاك...

ومن نماذج أكاذيب الرواة.. ما أشار إليه ابن سلام في (طبقات الشعراء) قال: (وكان ممن هجن الشعر وأفسده، وحمّله كل غثاء محمد بن إسحاق مولى آل

---

(١) الأغاني ج ١ ص ٣٣٢.

(٢) الأغاني ج ٩ ص ٢٢٥.

مخرمة بن المطلب بن عبدمناف. وكان من علماء الناس بالسير فنقل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر. إنما أوتى به وأحمله. ولم يكن ذلك له عذرًا فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قط، وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال.. ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود)[1].

وبإمكاننا الآن الاقتصار على هذه النماذج التي قدمناها على أنها تكفي، وزيادة، في الدلالة على مبلغ ما تردى إليه أولئك الرواة، وما ركبوه من أفانين واختلاق وبهتان.. ذهب ضحيته القارئ، والباحث لا يدري أين يضع قدمه من هذا الزخم من الروايات الملفقة المبثوثة في كتب الأدب والتاريخ.. ولم تعش لها الجهابذة!!

مجلة العرب ع ٨ س٣ ـ ١٣٨٩هـ

ـ ٢ ـ

منذ بدأ اتجاهي لدراسة كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني.. والاطّلاع على ما يقع تحت يدي من كتب أو دراسات عنه.. وجدت نفسي في خضم متلاطم الأمواج من الآراء عن هذا الكتاب الخالد.

وهي آراء.. يمسك بعضها برقاب بعض.. حينًا في لطف وهدوء.. وحينًا آخر في قسوة وعنف..!!

لقد وجدت بعض الباحثين ممن تصدوا للتأليف أو الكتابة عن كتاب (الأغاني) وصاحبه يغالون مغالاة شديدة في تقويمهم للكتاب وصاحبه.

---

(١) راجع كتاب (صاحب الأغاني) للدكتور محمد أحمد خلف ص (٥).

ووجدت الآخرين يميل منهم فريق إلى العنف والقسوة على أبي الفرج.. وفريق آخر يميـــيـل إلى الاتـزان والـعـــدل.. أو بـالأصـــح يميل إلى البحث العلمي المجرد.

والحق يقال إنني وجدت ـ خير ما وجدت ـ مما وقع تحت يدي من مؤلفات عن أبي الفرج الأصبهاني، وكتابه الأغاني.. كتاب الدكتور محمد أحمد خلف الله (صاحب الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني الراوية) خير كتاب، وخير مؤلف، وخير باحث ودارس لهذا المؤلَّف الخالد.. ودعك من أنه لم يستوف بحثه كاملاً.. فهو ـ مثلاً لم يتعرض لمصادر أبي الفرج إلا من نواحٍ غير كافية أو غير مستوعبة، كما لم يتعرض لها ـ أي المصادر ـ أي كاتب أو مؤلف ممن قرأت لهم، ولكن بصرف النظر عن ذلك يعتبر ـ من وجهة نظري ـ أحسن كتاب اطلعت عليه عن كتاب الأغاني وصاحبه.. لأن شخصية مؤلفه واضحة بارزة ـ وكدت أقول: طاغية ـ من خلال النصوص التي أوردها، ومن خلال فهمه لهذه النصوص.. ومن خلال تعليله لها أيضًا.

إن الرجل قادر قدرة طاغية من خلال تصديه لهذا الموضوع.. فهو تصدٍّ لو بعث الأصبهاني لراعه ما راعني..

وعلى هذا الكتاب اعتمدت بقدر وافر من الاعتماد في سبيل التأكد من وجهات النظر التي كوّنتها عن أبي الفرج وكتابه الأغاني من قبل!!

وكنت قبل ذلك قد اطّلعتُ ـ مثلاً ـ على كتاب (أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني) للأستاذ محمد عبدالجواد الاصمعي.. المصحح بدار الكتب المصرية، وهو كتاب على غاية كبيرة من الجودة. من حيث الجمع ـ أقول من حيث الجمع ـ ومن حيث الجمع فقط.. إذ قد جمع طائفة لا يستهان بها من النصوص والآراء لقدماء ومحدثين عن كتاب الأغاني.. وقد راجعتُ بعض ما يهمني من تلك

النصوص في مظانها فوجدت الرجل دقيقًا أمينًا في النقل.

أما من حيث شخصية المؤلف، ومجمل رأيه.. فهو على ناحية من الضعف مؤسفة.. إذ ما كنت أتصور أن من يستطيع القدرة على هذا الجمع يكون بهذا القدر من الضعف والخذلان في رأيه!!

ولقد اطّلعتُ أيضًا على كتاب (أبو الفرج الأصبهاني) للأستاذ شفيق جبري، وهو كتيب صغير من سلسلة (نوابغ الفكر العربي)، وهي في رأيي - مع احترامي للقائمين على شؤونها وللأستاذ شفيق جبري أيضًا - سلسلة غايتها التجارية، أو على الأقل الشعبية، واضحة جدًا.

وأقل ما يدل على رأيي هذا ضآلة حجم الكتاب - سواء كتاب شفيق جبري أو غيره من السلسلة - في نفس الوقت الذي تتصدى فيه كتب هذه السلسلة لموضوعات هامة، ولكن لا شك أن هذه السلسلة تؤدي دورًا لا بأس به على مستوى الثقافة الشعبية.. أو الثقافة العاجلة.

أما على صعيد البحث فذلك ما لا ترقى إليه هذه السلسلة (نوابغ الفكر العربي)!.

وقرأت أيضًا كتاب (علوم الحديث ومصطلحه) للدكتور صبحي الصالح.. وهذا الدكتور يبدو لي شديد الاختصاص بموضوعه.. أو بموضوع كتابه هذا.. فإنني سبق أن درست - على طريقتنا.. القديمة - علم مصطلح الحديث.

وبقدر ما كانت دراستي لهذا العلم دراسة قديمة - وإن كنت ما أزال في مستهل شبابي - كان إعجابي فائقًا بالدكتور صبحي الصالح. لا لشيء إلا لأنه يعرض علم (مصطلح الحديث) بأسلوب عصري جذاب.. لا يستغني عنه القدامى.. ولا يملك الشبان أمثالي إلا التطلع إليه!!

وهذه ليست كل مصادري عن كتاب (الأغاني).. فبالإضافة إلى الكتاب نفسه الذي قرأته مرات لا تقل عن أصابع اليد الواحدة، ولا تزيد.. فضلا عن مقالات

ودراسات. وعن أخبار مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ العربي.

ولست أدري ما الذي دعاني إلى الاستطراد في هذه المقدمة بهذا الشكل. إذا لم يكن الشأن هو أنني من الذين لا يحملون درجات علمية ـ كماجستير، ودكتوراه.. و.. إلخ ـ وأن هؤلاء الذين يحملون هذه الدرجات لا يؤمنون ـ أولا يكاد بعضهم ـ يؤمن بغيرهم من خلق الله الذين ابتلاهم ـ سبحانه وتعالى ـ بحب الاطلاع والقراءة!!

وذلك بحجة أن الذين ليست لديهم مؤهلات أو شهادات لا يستطيعون الخوض في البحوث بطرق علمية ومنهجية..!!

وأما بعد: فإنني سأتجه فورًا إلى موضوعي (الأغاني وصاحبه في ميزان الرأي بين قدماء ومحدثين).

يذهب بعض الأدباء بكتاب (الأغاني) مذاهب بعيدة حيث يعتبرونه حجة من الحجج المطلقة.. وخاصة فيما يسنده من الروايات.. فإن الروايات المسندة شيء فاتن، في نظر كثير من أغبياء الباحثين. أو المتأدبين.. أو أدعياء البحث والأدب..

ومن ذلك قول صاحبنا المشار إليه آنفًا الأستاذ محمد عبدالجواد الأصمعي في كتابه (أبو الفرج الأصفهاني، وكتابه الأغاني) ص ١٠٩: (والأغاني لا يعتبر أهم مرجع للتاريخ الأدبي إلى القرن الثالث الهجري، فحسب، بل يعتبر كذلك أهم مصدر لتاريخ الحضارة الإسلامية للدولتين الأموية والعباسية).

وهذا القول من الأقوال التي ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب.. فإنه من الصحة بمكان أن يكون كتاب الأغاني من أهم مصادر تاريخ الحضارة الإسلامية للدولتين الأموية والعباسية.

ولكن ـ وهنا مربط الفرس ـ لا يمكن لكتاب (الأغاني) أن يرقى إلى هذا المستوى بشكله الحاضر، أو بنصوصه أو رواياته المسندة أو غير المسندة.. فإن ذلك كله

مما يشول في كفة البحث المجرد.. وإنما يستطيع الباحث الحديث أن يرقى بكتاب (الأغاني) إلى أكثر من هذا المستوى.. إذا هو تصدى لقراءته، وفهمه، ومقارنة نصوصه بغيرها.. وألمّ بمصادره وميوله واتجاهاته.. يستطيع من ثم أن يستخلص لنا منه العلم الجزيل بشكل يلائم الذوق العصري الحديث.

وأرجو الرجوع إلى ص ١٧٥ من نفس كتاب الأستاذ عبدالجواد الأصمعى إذ إن ما أسلفته هو بالقرب من رأي الدكتور طه حسين الذي يقول عنه الأصمعي في نفس الكتاب: (أدامه الله ذخرًا للعلماء والأدباء) ويقول الدكتور طه حسين أيضًا: أما نحن فأشد من هؤلاء القدماء طمعًا، وأكثر منهم تحفظًا.. ولا تكفينا أسماء الثقات من الرواة (فما بالك بغيرهم ممن ليسوا من الثقة في شيء) ولا يكفينا جمال القصيدة وجودة المقطوعة، وإنما نريد أن نتخذ كل شيء موضوعًا للبحث والنقد والتحقيق والتحليل، ولا نكاد نفرق في ذلك بين الأدب والعلم، ونحن محقون لأننا لا نبتغي من الأدب والتاريخ رواية الأعاجيب والعظات، ولا إرضاء الذوق والميل الفني، وإنما نتخذ الأدب والتاريخ مرآة للأمم وسبيلاً إلى فهم حياتنا العقلية والشعرية وإلى فهم ما خضعت له من ألوان النظم المختلفة[1].

أجل هذا هو الرأي.. ولا يمكن بدون ذلك أن يعتبر كتاب الأغاني: (أهم مصدر للحضارة الإسلامية للدولتين الأموية والعباسية) كما يقول الأستاذ الأصمعي..

ثم هو نفسه أيضًا يضيف في كتابه ـ ص ٢٨٠ ـ قوله: (ويعتبر كتاب الأغاني أول المراجع التاريخية والأدبية الكبيرة التي تغلب عليها صحة النقل، وتحري الصواب).

---

(١) راجع نفس الكتاب ص ١٧٦.

إنني لا أملك، ولا أستطيع أن أملك إلا العجب من أمثال هذه الأقوال (صحة النقل وتحري الصواب) مع أن مؤلف (الأغاني) نفسه لا يزعم لنفسه هذه الصحة ولا ذلك التحري.. بل هو - أي الأصبهاني نفسه - قد نبه وأكد على أنه يحرص في كتابه على جمع كل ما قيل في بابة كتابه.. لا يكاد يهمه صدق ما يجمع من كذبه.. فإنما هو راوية.. ولم يكن له شأن المؤرخ في (صحة النقل وتحري الصواب)..

وقد نص في أكثر من موضع من كتابه أنه يكره أن يخلو الكتاب من شيء قد رواه ودونه الناس[1].

ونص على أنه: (يكره أن يؤثر عنه في هذا المعنى ما يبقى على الأيام مخلدًا، وإليه على تطاولها منسوبا، وإن كان مشوبًا بفوائد جمة، ومعان من الآداب شريفة)[2].

وإذا كان ينبه أحيانًا إلى أن هذا الخبر أو ذاك: (الصنعة فيه واضحة أو مكذوب) فقد قلنا في بحث سابق: إنه انما يفعل ذلك لا لغاية التحقيق، وتحري الصواب بقدر ما هو إبراز لمكانته في علم الرواية - وهو بحق كذلك - ولكن لم يكن من غايته في كتاب الأغاني سوى (الإمتاع والمؤانسة) وإنما يأتي: (في كل فصل من ذلك بنتف تشاكله، ولمع تليق به، وفقر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلاً بها من فائدة إلى مثلها، ومتصرفًا فيها بين جد وهزل... إلخ[3].

وأشار كذلك في مقدمته أنه يعرف أن: (في طباع البشر محبة الانتقال من شيء إلى شيء، والاستراحة من معهود إلى مستجد، وكل متنقل إليه أشهى إلى

---

(١) راجع مثلاً ص ١٧ ج ١ من الأغاني.

(٢) ج ١٨ ص ١٦١ الأغاني.

(٣) من مقدمة الأصبهاني.

النفس من المنتقل عنه، والمبتكر أغلب على القلب من الموجود)[1].

وأرجو أن تضعوا خطًا تحت العبارة الأخيرة وهي: (والمبتكر أغلب على القلب من الموجود) ضعوا خطًا.. ثم اقرأوا معي هذه الفقرة من كتاب (تاريخ الأدب العربي) للمرحوم مصطفى صادق الرافعي ص ٢٨٣ ج١:

(أما القُصّاصُ فإنهم كانوا يُميلون وجوه القوم إليهم، ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغرائب والأكاذيب من الأحاديث... وللقوم في هذه الفنون الأكاذيب العريضة، والأخبار المستفيضة).

وإن الذي لا شك فيه أن الأصبهاني قد حاول جادًّا أن يُميل وجوه القوم إليه ـ خاصة وأن باعث تأليفه كتابه كان بطلب من رئيس ـ وأتى بمناكير وغرائب وأكاذيب من الأحاديث.. ينص هو نفسه على كذب بعضها.. ولكنه يوردها لا لشيء إلا لأنها قيلت.. وإلا لأنه يحرص على ألا يفوته أي شيء مما قيل، وإن كان كذبًا.. ذلك لأنه يحرص أن يستدر ما عند القوم ـ على طريقة القُصّاص ـ ولو بالأكاذيب العريضة والأخبار المستفيضة!!

وهل هناك أكثر استفاضة من روايات أبي الفرج وأخباره؟

ثم إن أبا الفرج من المتفوقين في الأسلوب، والحبكة، والإبداع الفني والأدبي لذلك أجد نفسي ملزمًا بالاشتراك في الرأي مع الدكتور أسد رستم حيث يقول: (ولا نرى بُدًا في هذه المناسبة من مصارحة المؤرخ المستجد بأن شَكّنَا في عدل الراوي يتناسب أحيانًا كثيرة مع تفوقه في الإبداع الفني والأدبي.. فكلما ازداد الراوي إبداعًا في أسلوبه الأدبي ازددنا شكًّا في عدله)[2]

ترى مَن مِن الرواة يملك الإبداع في الأسلوب الأدبي كما يملك الاصبهاني؟؟

والحق أنه لا يمكننا مؤاخذة الأصبهاني بسبب ذلك.. فهو قد تبرأ.. بل طالبنا بعدم

---

(١) ج١ ص ١٥ الأغاني.

(٢) كتاب مصطلح التاريخ ص ٦٥.

مؤاخذته بهذه الأسباب، ما دام قد نبه إلى طريقته في جميع الكتاب وتأليفه.

ولكننا نورد هذه النصوص، والأقوال، والآراء بقدر ما نريد أن ننظر في كتاب (الأغاني) نفسه.. كأثر بارز من تراثنا الضخم.. تلزمنا دراسته ولا شيء يمنعنا من إبداء الرأي فيه.

وبين أيدينا الآن - بالإضافة إلى ما تقدم - طائفة من الآراء لقدماء ومحدثين ممن لهم ثقل في ميزان الرأي.. وسأحاول إبداء رأيي متى لزمني ذلك - في سبيل المقارنة والاستنتاج والحصول على نتيجة تستوجب إبداء الرأي:

١ - قال النوبختي فيه - وهو من معاصريه: (كان أبو الفرج الأصفهاني أكذب الناس. كان يدخل سوق الوراقين - وهي عامرة بالدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئًا كثيرًا من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها)[١]

وقد علق شفيق جبري على ذلك بقوله: (يسلخ صاحب الأغاني خمسين سنة من تأليف كتاب الأغاني.. ويتبع فيه الصدق، وشدة التوقي على قدر الإمكان. فيجهد نفسه في البحث عن أصح الأخبار والروايات والأحاديث، ويتبرأ فيها من كل عهدة، ويحاسب الرواة على الأكاذيب والخطأ.. يؤاخذهم بكل تحامل وحمق وسب وشتم وتجهيل. فيجيء أحد النقاد فيقول: إنه أكذب الناس دون أن يكلف نفسه بيان موطن من مواطن هذا الكذب) [٢].

فأما قول النوبختي: (كان أبو الفرج أكذب الناس) فإننا لا نملك من الأدلة ما يدحض هذا الزعم أو يثبته بشكل قاطع، وأما أن روايات الأصبهاني كلها من الصحف التي يشتريها من الوارقين المملوءة دكاكينهم بالكتب الخ.. فهو قول يكاد يمس أنف الحقيقة.. وذلك لأسباب أقلها أننا أثبتنا فيما سبق من هذا البحث أن الاصبهاني كان يحرص الحرص كله ألا يفوته شيء مما قيل من

---

(١) ص ١٤ - ١٥ كتاب (أبو الفرج الأصفهاني) لشفيق جبري.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحات.

بـابة كتـابه عن صدق أم كذب.. ولـهذا لا يمكن أن يضيره ـ وهو بـجوار الصـاحب بن عبـاد ـ شراء الصحف الكثيرة.. وأن ينقل من رواياتـها الشيء الكثير.. فتلك هـي عـادة القوم يومئذ.. ولم تنشط سوق الوارقين إلا من هذه العـادة. وذلك بعد أن استفـاض تدوين الرواية.. وأصبحت تقدم على أطبـاق من فنون الأسـاليب والتنميق والتزويق للخلفاء، والرؤساء، وسراة القوم!!

ثم إن الأصبهاني نفسه يشير في كتـابه أكثر من مرة بقولـه: (نقلت من كتـاب كذا.. أو نسخت كذا) ليس في كتـاب الأغـاني فحسب بل في كتـابه (مقـاتل الطالبين)، أيضًا يقول الأستـاذ السيد أحمد صقر محقق وشارح هذا الكتـاب في المقدمة: (وقد أتى أبو الفرج بروايات مدخولة وأحـاديث موضوعة لم يعقب عليهـا. ولكنه أمر نقده على بعضهـا إلى أن يقول: (وكنت إذا مـا رأيت أبـا الفرج ينزع نزعة مسرحية نقلت من أقوال ثقـاة المؤرخين مـا يرجع الحق إلى نصـابه، ويرد التـاريخ إلى محرابه)[1]

ونـحـن الآن بين أمـريـن أهـونـهمـا شر، الأمر الأول: أن يـأتـي الأصـبـهـاني بـهـذه الروايات المدخولة من عنده فيكون إذن كمـا قـال عنه النوبختي. والأمر الثـاني: أن يـأتي بـهذه الروايات المدخولة من سوق الوارقين.. وهـذا مـا يؤيد قول النوبختـي أيضًا بـأن معظم روايات الاصبهاني من الكتب التي يشتريهـا من سوق الوراقين..

وأمـا تعليق شفيق جبري الذي أوردنـاه أنفًا فـإنه لولا أن مثله وأمثـاله من الآراء من الحوافز التي دفعتني لكتـابة هذا البحث.. إذ وجدت لشفيق جبري أضرابًا وأشبـاهًـا من إخواننـا الأدبـاء.. يذهبون بكتـاب الأغـاني مذاهب بعيدة لو بُعث الأصبهـاني من قبره لهـاله منهـا مـا هـالني!!

لولا ذلك.. ولـولا مـا يقتضيه البحث لمـا أوردت رأي شفيق جبري فـإن فيه

---

(١) من مقدمة أحمد صقر لكتاب (مقاتل الطالبيين) طبع دار إحياء الكتب العربية.

مغالاة شديدة بغير قليل من التسرع.. فالأصبهاني نفسه لم يقل قط إنه تتبع الصدق وشدة التوقي.. بل قال إنه يحرص على جمع كل ماقيل، لا يهمه صدق ذلك من كذبه.

أما أنه يحاسب الرواة والأكاذيب على الخطأ.. فإن ذلك لم يحصل إلا في مناسبات معينة من كتابه ورواة بذاتهم.. ومع ذلك مع نقده ومعرفته لهذه الروايات الكاذبة الزائفة يوردها في كتابه لا لشيء إلا لأنه يحرص على جمع كل ما قيل..

أما أن يفاخر شفيق جبري بأن الأصبهاني كان يؤاخذ الرواة بكل تحامل وحمق وسب وشتم وتجهيل.. فإن ذلك ليس من التبرئة في شيء للأصبهاني.. بل هو الإدانة كل الإدانة وإلا فمتى كان التحامل والحمق والسب والشتم والتجهيل مما يؤخذ به في مجال النقد؟ ومتى كان التحامل والحمق والسب والتجهيل من وسائل البحث؟ أو من أدوات النقد؟!

ومما هو أطم في رأي شفيق جبري أنه لم يورد مثلاً واحدًا على حكاية (تتبع الصدق وشدة التوقي) عند أبي الفرج.. الأمر الذي لا يمكن معه الأخذ برأيه.. ولكن لا شك أن مثل هذه الآراء المتسرعة فتنة كبيرة على عامة كبيرة من القراء.. فإنه ما دام أن الأصبهاني على درجة من تتبع الصدق، وشدة التوقي.. يجب أن تكون جميع المهازل التي وردت في كتابه صحيحة دون أن نبحث عن أصلها. فضلاً عن ظلمها وذلك ما لا يقول به باحث.

٢ ـ يقول ياقوت الحموي[1]: (لعمري إن هذا الكتاب لجليل القدر شائع الذكر، جم الفوائد، عظيم العلم جامع بين الجد البحت، والهزل البحت.. إلخ).

والحق أن ما قاله الحموي يضرب في منطقة موغلة من كبد الحقيقة ويهمنا بصورة خاصة ـ قوله: (جامع بين الجد البحت، والهزل النحت) فأما الجد

---

(١) ج ١٣ ص ٩٨ معجم الأدباء، ط مصر (دار المأمون).

البحث فلو توفر باحث أو أكثر على دراسة الجوانب الجدية في كتاب (الأغاني)، ومقارنتها بما ورد في كتب ثقاة المؤرخين، أو ثقاة الرواة.. أو عن طرق أخرى ليس أقلها مصادر الكتاب، أو تحري النص.. أو عدل الراوي.. وهل أجاز أحد من رجال الحديث روايته أم لم يجيزوا.. فضلاً عن وسائل كثيرة لا يعنينا هنا ذكرها.. وبهذا وحده نستطيع التثبت من (الجد البحت) في كتاب (الأغاني).

أما (الهزل النحت) في كتاب الأغاني.. فحدث ولا حرج.. فهو سدة الكتاب ولحمته.. ومع ذلك فإنه - أي الهزل النحت - يمثل في الواقع - شئنا أم أبينا - ظلاً من ظلال الحقيقة يجب ألا يستهان به..

إن الأساطير نفسها - وهي مجرد أساطير - لها في كثير من المواقف ظل حقيقة.. فما بالك بروايات مسندة - ودعك من أهمية الإسناد - لا بد أن يكون لها نصيب من ظل الحقيقة أكثر..

هذا النصيب من ظل الحقيقة، يجب أن يكون أكبر دافع لرجال البحث في لغة الضاد لاستقصائه وتمحيصه، وإدارة الرأي فيه.. ولكن وا أسفاه، إن هناك وفرة من المفاهيم (القمقمية) تحول دون كثير من ذلك، وإن كان الرأي المعتدل والحجة المنطقية المتزنة.. لا بد أن تحطم شيئًا من ذلك!!

وإننا لفي أمسّ حاجة إلى دراسة تراثنا، وتقديمه لأجيالنا بصورة صحيحة صريحة منقحة.. مجردة تجريدًا علميًّا بعيدًا عن قصور الأفهام، وانغلاق العقول.. فإن تراثنا لم يبق منه إلا الصورة التاريخية المجردة - وهي صورة مشرفة والحمد لله - ولكن قبل أن نقنع غيرنا بقالبها المنطقي الحديث.. يجب أن نصنع نحن هذا القالب ونؤمن به!

٣ - يرى العلامة ابن خلدون - وأنا هنا - أنقل هذا النص عن كتاب محمد عبدالجواد الأصمعي (أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني) - ص ١٦٨: (يقول

العلامة ابن خلدون: ولعمري إنه ديوان العرب، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر، والتاريخ، والغناء، وسائر الأحوال، ولا يعدل به كتاب في ذلك، فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب، ويقف عندها).

ورأي ابن خلدون له ثقل كبير في ميزان الرأي وإن كنت - شخصيًا - لا أذهب مع الذاهبين بابن خلدون أيضًا إلى بعيد.. فإنك تلمس في مقدمته وغيرها.. ما لو أخضع لصهر البحث لوجد أنه يحتاج - بدرجة لا تقل شأنًا - إعادة النظر في آرائه - ولا أقصد رأيه في أبي الفرج فذلك شيء آخر!!

ومع ذلك فأنا لا يهمني الآن سوى النظر في رأيه في أبي الفرج، وكتابه (الأغاني).. فذلك هو موضوع بحثي هذا.. فأن يكون كتاب الأغاني (ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن، التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر، والتاريخ، والغناء، وسائر الأحوال) لا شك أن في ذلك مبالغة كبيرة - أقول كبيرة - وإلا فإن كتاب (الأغاني) يحتوي على نصيب لا يستهان به من كل ذلك - وهذه حقيقة - ولكن أن يكون كتاب الأغاني وحده (ديوان العرب) فأنا أتساءل: أين يجب أن يوضع من التراث العربي - شعرًا أو نثرًا - ما لم يرد في كتاب الأغاني؟

وكتاب الأغاني - كما هو معروف - لم يحو كل الشعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام.. أي قبل تأليف الأغاني نفسه.. ذلك الشعر الذي هو (ديوان العرب) ذلك ما لا تحتويه كلمة ابن خلدون بأنه - أي كتاب الأغاني - (ديوان العرب).. فتلك أولى المبالغات التي لا تخلو منها مؤلفات القدماء وتعبيراتهم.!!

وأما ما يراه ابن خلدون من أن كتاب الأغاني: (جامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم - أي، العرب - في كل فن من فنون الشعر، والتاريخ) فذلك ما ينطبق عليه ما قلناه آنفًا.!!

وأما قوله: (والغناء) فذلك ما لا أملك إلا أن أثبته كما هو لأنني لا أجد بين يدي من الأدلة ما يدحضه أو يثبته.!!

وأما قوله - أي ابن خلدون - (وسائر الأحوال) فتلك مبالغة مفرطة.. وإلا فأين نذهب بالمؤلفات التي وصلت إلينا مطبوعة أو مخطوطة.. أو التي لم تصل في (سائر الأحوال) - تلك - لا شك - مبالغة مفرطة، وغير متحفظة نربأ بابن خلدون عنها ولكنها صدرت منه مع ذلك كغيره من المفرطين، والمفرطين - بتشديد الراء وكسرها - من القدماء والمحدثين!!

قد يقول قائل: إن هذا تطاول مني على ابن خلدون وأمثاله. أما أنا فأقول إنه لم يقتلنا في دراسة تراثنا وتاريخنا إلا شيوع تهمة (التطاول) بيننا.. وإلا فما قيمة الرأي إذا لم يقف موقف النقاش مع ابن خلدون أو غيره؟

ثم يهمني بعد - نزولاً عند بابة هذا البحث - أن نقف عند قول ابن خلدون: وهو - يقصد كتاب الأغاني طبعًا - (الغاية التي يسمو إليها الأديب، ويقف عندها).

والشيء الذي يهمنا بالدرجة الأولى من وقفتنا هذه عند قول ابن خلدون هذا.. هو أنه - وهو المؤرخ المشهور - لم يقل إن كتاب الأغاني هو الغاية التي يسمو إليها المؤرخ ويقف عندها.. بل قال، إنه الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها..

ولا شك أن الغرض معروف بين ما يجب أن يقف عنده المؤرخ.. وبين ما يجب أن يقف عنده الأديب..

مجلة العرب ع١ س٤

التاريخ العربي ومصادره

ذلكم هو الجزء الثاني من سلسلة موسوعة (العرب في أحقاب التاريخ) التي يزمع مؤلفها الفاضل الأستاذ السيد أمين مدني مواصلة نشرها تباعًا.

وقد أصدر منها الجزء الأول بعنوان (التاريخ العربي وبدايته)

وهذا هو الجزء الثاني وقد صدر حديثًا ويقع في ٦٤٠ صفحة من القطع المتوسط طبع بدار المعارف بمصر في ورق جيد وطباعة حسنة.

أما محتويات الكتاب فهي ١٢ فصلاً مقسمة إلى أبواب وذلك غير المقدمة وكلمة الإهداء وآراء بعض الأدباء في الجزء الأول من الكتاب والتعريف الموجز بالمؤلف.

فكرة التاريخ ومصادره

بدأ الأستاذ المؤلف بعد التوطئة ـ بفصل (فكرة التاريخ ومصادره) استعرض فيه (سقم نصوص التاريخ العربي قبل الإسلام) وناقش موضوع النصوص الاسرائيلية، وأشاد بجهود روّاد التاريخ الذين بدأوا التدوين في صدر الإسلام وحرصهم على سماع كل خبر ونقل كل نص.

كما تطرق لموضوع الرواية العربية عن أقوام غابرين مثل عاد وثمود إلخ.

وأكد في النهاية أن (مسلسل التاريخ العام ما زال تنقصه حلقات وسيستمر كذلك ما لم يتصد لتأليف تاريخ عام، جهد جماعي ترعاه دولة من الدول العربية الغنية، تهيئ لهذا الجهد، التفرغ والوسائل القادرة على جمع النصوص وتحقيقها وربط حلقات البحوث المتناثرة في مؤلفات لا تجمعها

لغة واحدة ولا يوحدها هدف واحد إلى غير ذلك مما يحتاج إليه تأليف موسوعة تاريخية مرتبطة الحلقات).

التاريخ في القرآن

وتحت هذا العنوان نقد وتفنيد لأقوال بعض المستشرقين وشكوكهم الناشئة أساسًا عن جهلهم بخصائص اللغة العربية وخلطهم بين النص القرآني وتفسير المفسرين واعتسافهم القول بأن: (صحة ما جاء في القرآن تتوقف على وجود أصل له فيما سبقه من كتب مقدسة) وأمثال ذلك من أقوال وأباطيل.

وقد اجتهد السيد المؤلف في دحض هذه الأباطيل والشكوك وأشار إلى أن الكثير من الأخبار: (التي أنفرد بذكرها القرآن والتي كانت إلى وقت قريب موضع شك المستشرقين أصبحت أخبارًا ذات قيمة في البحوث التاريخية بعد أن اكتشف الباحثون آثارهم في شمال الحجاز وفي اليمن).

وأشار المؤلف بعد ذلك إلى نقطة مهمة وهي:

(أن هدف القصص القرآني لا يقتضي تفصيل أخبار الماضي وتتبع أحداثه مثلما تفصل التواريخ.. فالقصص القرآني ذكرى وموعظة)..

والواقع أن الأستاذ المؤلف قد أجاد الدفاع عن القرآن الكريم بمنطق سليم وحجة ناصعة.. إلا أنه عندما عرج على موضوع إثبات الحفريات لأخبار آنفرد القرآن بذكرها مثل أخبار عاد وثمود.. لم يتوسع في تفصيل ذلك، وكان البحث يقتضي هذا التوسع بالضرورة للإسهام في المزيد من دحض افتراءات المفترين.

الأمثال القرآنية

وفي أقل من أربع صفحات تحدث الأستاذ المؤلف عن الأمثال في القرآن إلى أن قال: (لقد وجد الباحثون في أمثال القرآن ـ على اختلاف عقولهم ـ فيضا من المعاني المشرقة فأخذ كل باحث ينظر إليها بمنظاره ويحلق معها بقدر طاقته العلمية..

فمنهم من لم يخطئ في فهم المثل والقصة والقصص وجانب التوفيق الذين

قصر إدراكهم عن فهم مقاصد القرآن في مثله وفي قصته وفي قصصه).

ولكنه هو نفسه ـ أي المؤلف ـ لم يقل لنا ما هو الفرق بين المثل والقصة في القرآن وهذا من أوليات مقتضيات البحث.. كما أنه لم يعرف المثل في القرآن تعريفًا علميًّا.. بل اكتفى ببعض الإشارات العابرة إلى بعض الأمثلة في القرآن دون أن يحدد ماهية المثل نفسه وهذا أيضًا من أوليات مقتضيات البحث.

وتحت عنوان (النص القرآني أصدق النصوص) لم يعقد المؤلف أية مناقشة مع المتشككين في النص القرآني ، بل اكتفى بما سبق، ولم يقدم أي أدلة جديدة غير ما قدمه تحت عنوان القصص القرآني والقصة في القرآن، فلماذا عقد هذا الباب إذن؟ وما حاجته إلى إضافة صفحتين بعنوان مستقل دون أن يناقش ويبرهن ويعلل ويدلل؟

ومع ذلك ينتهي إلى القول: (وبعد فإخالك أيها القارئ قد عرفت وجهة البحث في قصص القرآن وعرفت أني لست من الذين يشكّون في خبر من أخبار القرآن).

فأما أنّا قد عرفنا بأنه لا يشك في خبر من أخبار القرآن فذلك حق.. جزاه الله خيرًا وزاده إيمانًا وثباتًا.

وأما أن القراء قد عرفوا وجهة البحث في قصص القرآن فأنا من القراء الذين لم يعرفوا هذه الوجهة من خلال بحث المؤلف، وذلك لسبب بسيط هو أن المؤلف نفسه لم يحدد أية وجهة للبحث في قصص القرآن، وإنما عقد مناقشات مع بعض المستشرقين المتشككين ومجرد المناقشة وسرد الأدلة لا يمكن أن تشكل هيكلاً أو منهجا لوجهة البحث، فلكل وجهته في البحث هو مولّيها.

الأسفار مصدر من مصادر التاريخ

وتحت هذا العنوان تطرق الأستاذ المؤلف إلى موضوع شائك هو موضوع تحريف التوراة.. هل هو بالتأويل أم بالتبديل وأشار إلى قول ابن عباس ـ رضى الله عنه: (إن تبديل الكلم عن مواضعه، تحريفه بالتفسير والتأويل

اللذين اختلطا بنص التوراة بصورة جعلت من العسير تمييز ما هو من توراة موسى مما هو من تفسير أحبار إليهود).

ثم أشار إلى رأي ابن خلدون ووصفه بالتحمس لما في الأسفار من تاريخ.

كما أشار إلى أن إليهود قد (استغلوا موقف المسلمين المعتدل من الأسفار وإقبالهم على ما يظنون أنه جاء فيها أخبار الأمم التي ذكرها القرآن وعن أنبائها فنسبوا قصصهم الشعبية إلى الأسفار فنقلها البعض بدون تحقيق وحققها الأعلام فرجعوا عن ما ورد عنها كما ثبت عن ابن عباس وغيره).

وقد انتهى المؤلف إلى إرجاع أسباب التأويل والتحريف إلى الدوافع العنصرية وإلى استغلالهم اقتناع المسلمين بالخبر الذي يسند التوراة وإلى تعدد اللغات واختلاف الأسلوب باختلاف البيئة والزمن مما نشأ عنه تحريف المدونين والمفسرين.. ثم استشهد بطائفة من آراء المؤلفين ثم خلص في النهاية إلى نتيجة هي (أن الأسفار يهودية ومسيحية هي في مقدمة نصوص التاريخ القديم.. لها قيمتها في تاريخ البلاد العربية الجاهلي بالنسبة لانتشار الجاليات إليهودية والمسيحية في أرجاء البلاد العربية).

ثم لا ينسى أن يشير إلى (أن الأسفار ـ ككل مصدر من مصادر التاريخ ـ عرضة للشك ما خلا تلك النصوص التي تثبت عصمتها).

ولست أدري كيف يمكن إثبات هذه العصمة؟

ثم كأني بالمؤلف قد فاته أن يشير إلى نوعية النصوص التي يمكن الركون إليها في الأسفار: مثلاً إذا كان النص يتعلق بمجرد وصف جغرافي كتحديد موقع أو ما شابه ذلك فلا بأس من قبوله على أساس أن الدوافع العنصرية أو الدينية لا يمكن أن تتدخل في تحديد موقع مثلاً أو نحو ذلك.. أما إذا كان النص يتعلق بالديانات فلا بد من الحذر الشديد.. ولكن بدلاً من أن يفعل المؤلف ذلك

ويفصّل فيه القول اكتفى بقوله (إن قيمة الخبر الموجود في الاسفار - في نظر المؤلف - تقدر على أساس تاريخ الخبر وأن على كل مؤرخ ألا يأخذ خبرًا ما لم تثبت صحته سواء كان الخبر من الأسفار أو من غيرها) ولست أدري ماذا يقصد الأستاذ بقوله إن قيمة الخبر الموجود في الأسفار تقدر على أساس تاريخ الخبر، فإذا كان المقصود هو حداثة الخبر أو قدمه فَكَم لَعَمري عمر الأسفار؟ أليست شديدة الإيغال في التاريخ؟!

وكان من حق منهج البحث ما دام قد اعتبر الأسفار مصدرًا من مصادر التاريخ العربي أن يحدد نوعية الأخبار التي يمكن الأخذ بها وأن يفصل القول عن مواطن التبديل والتحريف في الأسفار إلخ.

المؤلفون في التاريخ قبل الميلاد وبعده

وليعذرني القارئ إذا مررت بهذا الفصل مرورًا سريعًا مع أنه يقع في ٢٣ صفحة؛ ذلك لأنه ليس مما يسهل معه التلخيص إلا أن أهم ما فيه قائمة المؤرخين الأوائل التي نقلها الأستاذ عن جرجي زيدان ثم آراء وإشارات نابهة للمؤلف عن فقدان الكثير من المؤلفات القديمة وعن أن المؤرخين القدامى لا بد وأنهم كانو يملكون نصوصًا تاريخية ذهبت مع ما ذهب على غير ما يعتقده بعض المشككين من أن تاريخهم مجرد خرافات.

وكذلك الإشارة إلى القدرات العمرانية التي كان يملكها القدامى وتسخيرهم الطاقات البشرية الهائلة من أجلها إلى غير ذلك من الإشارات والآراء القيمة الذكية إلى أن يقول في النهاية:

(وخليق بنا أن لا نشك في شيء مما في التراث القديم أو نصدقه ما لم تتوافر أدلة الشك وشواهد التصديق).

ولست أدري - علم الله - كيف يستوي الجمع بين عدم الشك وعدم التصديق

في آن واحد أهو ما يسمي بالتجريد؟

إن مثل هذه العبارات المطاطة خطرة جدًا على ناشئة القراء وخاصة في مجال التاريخ حيث ينبغي أن تكون كل كلمة في موضعها تمامًا بعيدًا عن صناعة الإنشاء.

أساطير الأولين في العصر الجاهلي

استهلّ الأستاذ المؤلف هذا الفصل بمناقشة فورية لآراء (كرد علي ورشيد رضا وتوماس كارليل) وغيرهم في هذا المجال.

أما دراسة العصر الجاهلي نفسه فقد أحال القراء إلى الجزء الأول من كتابه (وإذا كان من حق البحث التقصي فإن التقصي لا يلزمنا العودة إلى ما سبق في الجزء الأول من هذا الكتاب عن الحياة العربية في عصور الجاهلية القديمة).

ولقد استعرض الأستاذ طائفة من آراء المؤرخين التي تقول أو لا تقول بأن العرب في الجاهلية كانوا يجيدون القراءة والكتابة أو لا يجيدون وانتهى في ذلك إلى (أن أكثرية المتقدمين وأكثرية المتأخرين تؤكد أن العرب في جاهليتهم لم يكونوا جميعًا يجهلون القراءة والكتابة) وأن معني الأمية التي يوصف بها العرب هو ما قاله ابن عباس في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ قال: سمّاهم أميين لجحودهم كتاب الله ورسوله.

(وقال ابن زيد عندما فسر قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً﴾ قال: إنما سميت أمة محمد ﷺ الأميين لأنه لم ينزل عليهم كتاب).

والواقع أن الأستاذ قد أسهب وأفاض في موضوع هذا الفصل وأوفاه حقه من الشواهد والأدلة والشرح والتعليل.

وقد انتهى إلى أن (على المؤرخ الذي يحاول الوصول إلى مصادر القصص الجاهلي وأساطيره أن يوطن نفسه على الصبر والأناة ويفتش عن الوثائق التاريخية في الأخبار القصيرة والكلمات العابرة التي تأتي في الكلام عن

التاريخ الإسلامي وفي الحديث عن الأدب الجاهلي وأخبار شعراء الجاهلية وأيام العرب، وعليه أن يجرد الأخبار التي يطلع عليها من الخيال ويستخلص الحقائق من المبالغات التي امتزجت بها وإنه لَعَمْرُ الحقِّ أمرٌ جِدّ عَسير).

وإنه لَعَمري أنا أيضًا أن الدراسات التاريخية في الاجتماع والسياسة والأدب في العصور الجاهلية والإسلامية أيضًا لا تزال متخلفة أقبح ما يكون التخلف على الرغم من بعض المحاولات والجهود الفردية هنا وهناك.

فأما بالنسبة للعصور الجاهلية فإن قلة أو شبه المصادر العربية المدونة لهذه العصور وقف حائلاً صعبًا بين الباحثين وخوض هذا الميدان أو هذه الصحراء القاحلة وذلك على الرغم من أن الباحث الاجتماعي مثلاً يستطيع بالفعل - وإن كان بغير قليل من الجهد - أن يستخلص من القرآن الكريم ومن الأسفار ومن الشعر الجاهلي نفسه وأخبار الجاهلية وأيام العرب ملامح واضحة المعالم أو قريبة من ذلك للمجتمعات الجاهلية.

وكذلك الشأن بالنسبة للتاريخ الإسلامي تاريخا وأدبًا واجتماعًا وسياسة فإنه على الرغم من وفرة مصادره الهائلة إلا أن الدارسين له ما زالوا يتخبطون في دياجير أمهات الكتب والموسوعات القديمة غير المنظمة دون أن يستخلصوا من كل هذا الفيض ما يشفي الغُلّة ويروي الغليل ويتلاءم مع ذوق العصر بطرقه ومناهجه الحديثة.

ولكن عذرهم أن جهودهم مبعثرة وفردية وإنما تنهض بمثل ذلك في غير بلادنا الجامعات والمؤسسات العلمية الكبرى ومجامع اللغة والعلوم وتعين على كل ذلك الحكومات بالعطاءات والأموال الجزيلة.

الشعر الجاهلي وصلته بالتاريخ

وقد استعرض المؤلف في هذا الفصل أسباب اهتمام رجال التفسير والحديث بالتاريخ الجاهلي ومشاركة القصيدة العربية في أحداث الجزيرة وقوّم ما جمعه

الرواد من الشعر الجاهلي ولغته وأخباره وأهمية تراجم رواد الشعر الجاهلي.

وليس لي من تعليق إلا على موضوع تقويم ما جمعه الرواد من الشعر الجاهلي ولغته وأخباره كان يحتاج ذلك إلى فصل خاص - لا نصف صفحة كما فعل الأستاذ - وهو لا يجهل القيمة الكبرى والأهمية القصوى للشعر الجاهلي ليس فقط لاعتباره من المصادر المهمة للتاريخ العربي بل أيضًا لكونه مما قد استعين به على التفسير والحديث كما هو معروف وكما أشار إلى ذلك المؤلف نفسه في مكان آخر.

وأما أهمية تراجم رواد الشعر الجاهلي فهي بالفعل أهمية قصوى بل ضرورة ملحة.

إن رواة الحديث الشريف قد انبرى لهم الأفذاذ من العلماء الأجلاء الذين وضعوا للرواية أصولاً وقواعد ومصطلحات وميزوا بذلك الصحيح من غيره.

أما رواد التاريخ والشعر والأدب والقصة فلم ينبر لهم الأفذاذ ربما لانشغال المسلمين في بداية التدوين بالتفسير والحديث وأيضا بالجهاد والفتوحات إلخ.

ولذلك أو لغيره لا زلنا نجهل الكثير عن هؤلاء الرواة مع أن كثيرًا من أخبارهم مبعثرة في أمهات الكتب، فتراجمهم وجمع أخبارهم الآن ضرورة ملحة كما قلت ولكن على أن تكون تراجم شاملة يعرف منها مثلا قبيلة الرواي، حتى نكون على حذر منه حين تكون روايته عن قبيلة أخرى منافسة أو معادية مثلاً.

ونعرف مثلا أيضًا: هل روى الحديث وماذا قال عنه رجال الحديث وما مدى ثقتهم في أمانته؟ فإن كثيرًا من رواة الأدب والتاريخ والقصة والشعر قد رووا الحديث الشريف أيضًا.. ومنهم من صحّت روايته ومنهم من لم يؤخذ بروايته.

ونعرف مثلاً العصر الذي عاش فيه الرواي فإذا كان في العصور التي ازدهرت فيها الرواية وأصبحت مصدرًا من مصادر التكسب والرزق.. وجب أن نكون منه

على حذر، فكم من قصص قد اصطنعت وكم من روايات كاذبة قد لفقت..!!

وباختصار فإن تراجم الرواة يجب أن تحتوي على أدق التفاصيل عنهم.. لا كما نشاهده في كثير من التراجم حديثها والقديم.

ولا شك أن مثل هذه التراجم ستخدم الباحثين أجل خدمة.

من المدينة بدأ التاريخ وتدوينه في العصر الإسلامي

وهذا فصل من خيرة فصول الكتاب ولا غرو فالأستاذ المؤلف من أبناء المدينة المنورة وأهل كل بلدة أدرى بشعابها وألصق بشؤونها وشجونها، فما بالك إذا كانت هذه البلدة هي المدينة المنورة وما بالك إذا كان المؤلف هو الأستاذ أمين مدني؟ ثم يعقد فصلا من الفصول يتعلق بالمدينة، هل يمكن أن يكون هناك أي مجال لتعليق من أمثالي من ناشئة النقد؟ على أن مصادر البحث موفورة أيضًا.. وهذا سبب آخر مهم من الأسباب التي جعلت هذا الفصل يوفي على الغاية في بابته!!

التدوين والمدونات في صدر الإسلام

وهذا فصل آخر على غاية من الخطورة والأهمية في موضوعه وهو أشد ما يكون التصاقًا بالفصل السابق.. بل هو امتداده وقد استعرض فيه المؤلف الأسباب التي نشأ عنها تأخر التدوين في التاريخ ونصوص النهي عن التدوين ونصوص الحث عليه وعدم تعارض هذه النصوص والأسباب الحقيقية لتأخر التأليف في العصر الإسلامي.

وهي عناوين لموضوعات خطيرة كان نصيبها من الكتاب عشر صفحات لا غير وهو نصيب ضئيل وقسمة ضيزى بالنسبة لضخامة الموضوعات وسعة القول فيها.

وأقول ذلك لا لأنني أؤيد التأليف بالكيلو.. ولكن لأن عشر صفحات لا يمكن أن تستوعب شرح هذه الأغراض المتعددة مهما كان إعجاز الإيجاز أو إيجاز الإعجاز!!

وهذا ما حصل بالفعل في هذا الفصل.. فإن هناك تساؤلات ظلت دون جواب.. وقد ذهب الجواب عنها ضحية أو فدية لتحمس الأستاذ تحمسًا شديدًا لموضوع نفي تهمة كراهية التدوين واستغرق في ذلك كثيرًا.

ولا يسعني مع الأسف مناقشته في هذا المجال.. فقد أطلت وربما تكون لي عودة إلى ذلك فإن لي بالموضوع نفسه بعض اهتمام متواضع!!

الرواية العربية وموقف التحقيق منها

وسأتجاوز فصل (مناهل رواد الثقافة) إلى فصل أهم وأخطر والحقيقة الماثلة في هذا الكتاب. أن فصوله تزحم بعضها بعضًا في الأهمية ومعظمها على غاية من ذلك.

وهذا الفصل مثلاً، (الرواية العربية وموقف التحقيق منها) يتطرق إلى جوانب وزوايا غامضة مبهمة ظلت وستظل ميدانًا رحبًا للأخذ والرد والتحقيق والتمحيص بين المنطق والحق وبين الجدل المتعسف لأن الرواية العربية بالإضافة إلى الظروف التي عاشتها في أحقاب مختلفة قد تعرضت للكثير من الدس والبهتان والكذب والاختلاق بدوافع كثيرة شعوبية ودينية وفتن قبائل وتنازع سلطة وعنعنات أحساب وأنساب.. مما جعل التحقيق في تراث الرواد العرب محفوفًا بالمصاعب والاشواك.

وأهم ما أثاره المؤلف من كل ذلك هو موضوع الثقة التي تتمتع بها آراء المستشرقين وكذلك النصوص الأثرية ومقارنة ذلك بالثقة التي حازت عليها المدونات غير العربية في القديم.. لكأنه قد كتب على العرب أن يسترفدوا تاريخهم من الخارج قديما وحديثًا..

هل أقول إن تطرق المؤلف لمثل هذه الموضوعات الخطيرة إنما يدل أكثر ما يدل على وعيه الرائع وبصيرته الثاقبة بشؤون تاريخنا وشجونه؟؟

لو قلت ذلك لخشيت أن أكون حيث يقول الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصى

مسالك رواد التاريخ ومناهجهم

وبعد فصل الرواية العربية.. عقد المؤلف فصله التاسع عن مسالك رواد التاريخ ومناهجهم لكنه لم يترجم لهم - إلا إذا اعتبر تلك الإشارات والنبذ الموجزة في فصل أعلام المؤلفين في التاريخ العربي من قبيل التراجم فهي ليست كذلك!!

أقول لم يترجم لهم كما فعل في فصله عن الأوائل من رواد التفسير والمغازي والأنساب الذي ترجم فيه لعشرين رائدًا منهم وإن كنت أعتقد أن الأستاذ المؤلف نفسه يشاركني الرأي بأن تلك التراجم مبتورة ناقصة موجزة بشكل لا يفيد المحقق الباحث تلك الفائدة المطلوبة التي قد يتوخاها في كتاب عن التاريخ العربي ومصادره.

وذلك ربما يعود لعدم توفر الأخبار في المراجع القديمة عن هؤلاء مع أن بعضهم قد ألفت عنهم مؤلفات وربما يعود الأمر من جهة أخرى إلى رغبة الأستاذ في الاقتصاد من صفحات الكتاب ادّخارًا لما هو أهم في رأيه..

والحقيقة - مهما كان الأمر - أن التراجم تحتاج من الأستاذ إلى جزء أو أكثر من موسوعته - خاصة وهو يؤلف عن العرب في أحقاب التاريخ - والتراجم من ذلك في الصميم.. وخاصة ما يتعلق منها بمنهج بحثه.

أما التراجم التي أوردها في هذا الجزء من كتابه فهي غير وافية وليست

في مكانها تمامًا، وما قلناه عن تراجم الأوائل من رواد التفسير ينطبق أيضًا على تراجم الفصل الحادي عشر لنقاد الشعر الجاهلي ورواة أيام العرب، فهو لم يترجم إلا لخمسة من هؤلاء، فهل نقاد الشعر الجاهلي ورواة العرب هم هؤلاء الخمسة فقط؟!

أين تذهب أذن بالباقين الذين ملأت نقداتهم للشعر الجاهلي وروايته مئات الكتب؟

أعلام المؤلفين في التاريخ العربي

أما الفصل الثاني عشر والأخير فإن مباحثه أقرب جميع مباحث فصول الكتاب إلى عنوان الكتاب نفسه، وهو أيضًا أعمق ما يكون اتصالاً بمنهج البحث والتلخيص التاريخي الحديث لأنه بالإضافة إلى العرض والتلخيص.. قد أورد نبذا موجزة عن هؤلاء وذكر أسماء بعض كتبهم وإن كان لم يشر إلى طبعات هذه الكتب ولا إلى أرقام وجودها بالمكتبات الشهيرة، كما ولم يشر أيضًا إلى المخطوط منها ولا إلى أرقام وجودها أيضًا ولم يشر إلى المفقود منها أو الموجود..

ولا شك أن ذلك مما ينوء به كاهل المجهود الفردي وإن كان من ضرورة البحث في الصميم، ومع ذلك لو نظر القارئ إلى كتاب (تاريخ الأدب العربي) لبروكلمان لوجده يفي بكل هذه الأغراض التي أشرت إليها آنفا بالنسبة لموضوع الكتاب - أي كتاب بروكلمان - ومنهج بحثه.

وأذكر أنني عندما قابلت الأستاذ المؤلف قبل أيام في مكتب الأستاذ عبدالمجيد شبكشي قلت له: إن موضوع كتابك هذا يتطلب منهج مباحثه أن تذيل كل فصل من فصوله بقائمة من مراجع موضوع الفصل سواء تلك التي رجعت إليها بالفعل

أو غيرها لأنك إنما قصدت بتأليفك الحديث عن التاريخ العربي ومصادره.. أي أنني أردت منه أن يفعل مثلما فعل (بروكلمان) ومثل ما فعلته الجامعة الأمريكية في بيروت عندما أصدرت كتابها (الأدب العربي في آثار الدارسين).. وكما فعل ذلك من قبل بزمن طويل ابن النديم في الفهرست.

وأذكر أن الأستاذ المؤلف تنهد من أعماقه، وقال: إن كتاب الجامعة الأمريكية مجهود جماعي.. ثم أضاف إشارة مؤسية إلى المبلغ المالي الذي أنفقه على طبع كتابه فضلاً عن إنفاق وقته وجهده في تأليف الكتاب نفسه، ولكنه لم يعلق على الفهرست لابن النديم وهو مجهود فردي أيّ مجهود.. وفي وقت لم تكن فيه مطابع.. ولم تكن فيه دور نشر تطبع قوائم دورية بكتبها.. ولم تكن فيه جامعات.. ودور كتب تحتفظ بفهارس منظمة لمعظم ما في مكتبات العالم من كتب ومخطوطات.. وفي وقت لم يكن فيه البريد بالطائرة.. أو الباخرة.. أو السيارة.. وفي وقت لم يكن فيه الإبراق ممكنًا.. والهاتف مستحيلاً كما هو الشأن الآن في كل ذلك.

وعلى كل حال.. لا يسعني حقًّا إلا أن أكرر القول.. وأزيده تكرارًا أن أستاذنا الكريم قد بذل جهدًا رائعًا في كتابه هذا.. وهو جهد شديد الوضوح في أعطاف الكتاب وثناياه.. وخاصة إذا عرفنا أنه لا توجد عندنا إلى الآن دور كتب منظمة تنظيمًا كافيًا تسهل للباحث الاطّلاع على ما يحتاج الاطّلاع عليه من مصادر ومراجع.

ولست أشك أن معظم مراجع الأستاذ المؤلف هي مما تحتويه مكتبته الخاصة.. أو مما أعانه به بعض الأصدقاء.. أو مما استطاع بجهد جهيد أن

يحصل عليه في مكتبات المدينة المنورة أو غيرها.. وفي بغض ذلك مشقة أية مشقة.. فإذا اعتور كتابه بعض النقص - ولا بد من ذلك - فهو على عذر حقًا.. ولذلك أرجو أن يعذرني هو أيضًا عن ذكر بغض الهنات الهينات مما ذكرت ومما لم أذكره خشية الإطالة.. وقد أطلت.. والله من وراء القصد.

البلاد ١٣٩١/١٢/٣٠هـ

في شمال غرب الجزيرة

صدر هذا الكتاب عام ١٣٩٠هـ أي منذ حوالي سنتين، وكنت قد قرأته في حينه، ولكن عندما بدأت في الآونة الأخيرة بتحرير صفحة (كُتب وكتّاب) الأسبوعية في هذه الجريدة اضطررت لإعادة قراءته من جديد، من أجل عرضه وتقديمه، فلا شك أن من حق شيخنا حمد الجاسر مؤلف الكتاب، أن تكون آثاره وكتبه موضوع عناية واهتمام.. فهي في هذا الموضع من قبل علماء أجلاء ومجامع علمية كبيرة فكيف بمثلي من تلامذته؟

ولست أزعم أنني قد استمتعت بقراءة الكتاب في المرة الأولى أو الثانية، والعياذ بالله!! فهو طراز من الكتب التي لا تقرأها إلا وأنت معصوب الرأس، وأقراص (الأسبرو) بجانبك.. ذلك لأنها شد ما تقرع أدمغة القراء بمعلومات، وتواريخ، و(بهاذل) لا يمكن أن تكون من المتعة التي يطلبها قراء (المؤانسة والإمتاع) في شيء، وإن كان قد تخلل الكتاب بعض النوادر والطرائف التي تضحك الثكلى من نوع (الحليب!! عاينوا البل ص ١٠٠) ومن نوع نزول شيخنا الجاسر إلى حقل ماء في خيبر ليغتسل، ثم ليغسل ثيابه الداخلية(!!) بين ضحك وهزء رفيقه في الرحلة ص ٣١٩ - إلى آخر ما هنالك من هذه الطرائف، والنكت، المحبوبة جدًّا في أدب الرحلات، وغير أدب الرحلات، ولكن شيخنا الجاسر - سامحه الله - قلل منها، مع قدرته الفائقة على الكثير منها!!

يقع الكتاب في ٦٧٥ صفحة من القطع المتوسط، طبع مطابع المثنى في بيروت، الطبعة الأولى عام ١٣٩٠هـ على ورق جيد، وطباعة حسنة، وتجليد ممتاز، وهو - أي الكتاب - من قبيل كتب الرحلات القديمة المهتمة بالوصف

والتحديد الجغرافيين، بل هو كتاب رحلة بالفعل حيث قام مؤلف بثلاث رحلات لشمال غربي الجزيرة، وللأماكن أو معظم الأماكن التي ذكرها في كتابه، ولكنه يختلف عن كتب الرحلات، وعن الكتب الجغرافية القديمة من عدة أوجه:

١ ـ أسلوبه العصري.

٢ ـ طريقة العرض الحديثة المنظمة.

٣ ـ دراسات لبعض الموضوعات المتعلقة بالمنطقة موضوع الكتاب، ليس جغرافيا فقط، بل تاريخيًا واجتماعيا وعلميا، وزراعيا الخ. بل ودينيا أيضًا مثل بحث: (إليهودية في تيماء) وغير ذلك مما لا نجده في كتب الرحلات أو الكتب الجغرافية القديمة أو مما لم أجد أن مثله في قراءتي المتواضعة!

الفهارس الدقيقة المنظمة التي اشتمل عليها الكتاب.

المصورات الجغرافية ـ الخرائط وقد بلغت تسع خرائط.

الصور الفوتوغرافية لكثير من المواضع، والآثار والأمكنة التي ذكرها الكتاب وقد بغت ٥٣ صورة.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى ستة أقسام على النحو التالي:

وادي السرحان (قريات الملح).

الجوف (دومة الجندل).

الشعبية والجار ـ ميناء الحجاز.

في بلاد خيبر.

تيماء وآثارها.

بين تبوك وعمان.

وذلك بالاضافة إلى (معجم المواضع) الذي أحتل ١٤٦ صفحة، وهو وصف موجز لأهم المواضع من قرى ومدن ومناهل وأودية وجبال وآبار وعيون، في بلاد

تبوك وتيماء والجوف وخيبر والقريات (وادي السرحان) وما حول تلك البلاد.

وأعتقد أن لولا منهج بحث الكتاب لما أورد شيخنا الجاسر هذا المعجم في الكتاب، ذلك لأنه قد بدأ فعلا بأضخم عمل من هذا القبيل، وهو المعجم الجغرافي الحديث للبلاد العربية السعودية، وقد صدر منه بالفعل الجزء الأول عن منطقة جيزان، والجزء الثاني عن منطقة غامد وزهران، وهناك عدة أجزاء في طريقها إلى الصدور تباعا، ومنها: (شمال الحجاز) و(شمال المملكة) والمنطقة الشرقية وغير ذلك من أجزاء وأنحاء المملكة المترامية الأطراف، وهو عمل جليل سيبقى أثره طويلا على مدى التاريخ، فما كان ليحتاج إلى هذا المعجم في الكتاب لولا مقتضيات منهج بحث الكتاب، إذ ليس كل قارئ يملك أجزاء المعجم الجغرافي التي صدرت أو التي ستصدر.

وقد وضع المؤلف مقدمة مركزة بين يدي كتابه تناول فيها أسبابا كثيرة مما لا تزال معها بلادنا بحاجة لدراسة متعددة النواحي، وأنها لا تزال بكرا في هذا المجال، وأن تحديد كثير من الأمكنة لا يزال مكتنفا بالحيرة والغموض، وأنه (لا يمكن التخلص من هذه الحيرة إلا بزيارة المواضع ومشاهدتها عن كثب، وتحديدها بعد تلك المشاهدة، وهما أمران لم يتسن للمتقدمين القيام بهما الخ)، وذلك ـ كما هو واضح ـ هدف هذا الكتاب، وهدف غيره من الكتب التي أصدرها علامتنا الجليل.. ذلك لأن الجزيرة العربية هي: (مهد العرب، ومنها نبغ الشعراء الذين كان شعرهم المعين الأول لتدوين اللغة العربية، وفي قيافيها وقفارها جرى جولات وتنقلات وحروب، سجلها الشعر العربي مرتبط بأماكن حوادثها).

أما محتويات الكتاب، ومنهج بحثه فكما يلي:

١ ـ تسجيل مشاهدات المؤلف عن الأمكنة التي مر بها.

٢ ـ أيراد أقوال المتقدمين بوصف المواضع وتحديدها.

٣ ـ ذكر المواضع المذكورة في الشعر العربي، والمجهولة في الكتب المختصة، مما قرب من الأمكنة التي زارها المؤلف.

٤ ـ ذكر بعض المواضع المجهولة بجوار المواضع المعروفة.

٥ ـ ذكر الاسم الحديث للموضع بجانب الاسم القديم له.

٦ ـ إصلاح بعض الأخطاء في المعلومات الجغرافية في خرائط طبعت من قبل وزارة البترول والثروة المعدنية.

ويقول المؤلف:

(وبالإجمال فقد حاولت أن أقدم للقارئ خلاصة وافية مما بين يديّ من المؤلفات القديمة أو الحديثة، وهي مؤلفات على درجة من الكثرة قد لا يتنسى لكل قارئ جمعها)، وذلك طبعا بالإضافة إلى مشاهداته شخصيًا.

هذه هي خلاصة محتويات الكتاب، ومنهج البحث فيه.

أما النقد فلست أرشح نفسي لنقد ما ورد في الكتاب من تحديد للأمكنة أو مصورات جغرافية، أو غير ذلك من هذا القبيل، لأنني لست معنيًا بهذا الشأن إلى الدرجة التي يمكن أن أتصدى معها للنقد فيه، ولأن حمد الجاسر هو علامة الجزيرة، وحجتها في هذا الشأن، ليس عند القراء من أمثالي فحسب، بل عند العلماء، والمجامع العلمية ـ كما أسلفت.

ولقد كنت أعتقد أثناء قراءتي للكتاب أن أستاذنا الكبير قد أقحم بعض الموضوعات في كتابه مثل (أسطورة إليهود في تيماء) و(من أعمال عبدالعزيز السديري) و(التعليم في القريات) إلى غير ذلك من الموضوعات المشابهة.. إلا أنني عدلت عن اعتقادي هذا لأن المؤلف ينص في عنوان كتابه على أنه ـ أي الكتاب ـ نصوص، مشاهدات، انطباعات، وإذن فكل ما أورده مما كنت أعتقد

أنه من قبيل الإقحام، هو في الواقع من صميم المشاهدات والانطباعات، وإذن لا ضير ولا تثريب، فحتي هذه لم يتركها لنا شيخنا الجاسر لنتعلق بها تعلق الشادي بالحادي!!

ولكن - مع ذلك - أهم ما استوقفني طويلاً في الكتاب هو موضوع (إليهودية في تيماء)، وهو موضوع على درجة من الأهمية في البحث التاريخي، ولكن شيخنا الجاسر لم يعرض له إلا لالتصاقه بسمت الكتاب، ولذلك أجمل فيه ما يحتاج إلى تفصيل، ولا شك أن هذا التفصيل لا يلزم منهج الكتاب نفسه، ولكنه قد أثار في ذهني - على كل حال - عدة أسئلة حول موضوعي (أسطورة إليهود في تيماء) وحول (السموأل).

خلاصة رأي الشيخ الجاسر عن (إليهودية في تيماء) أنها مجرد ديانة فقط، وأن أهلها لم يكونوا يهودًا بالنسب.. بل كانوا في ذلك العهد - أي قبل الإسلام - عربًا قحطانيين من غسان.. لماذا لا أورد النص نفسه؟ ها هو إذن: (ولا شك أن الديانة إليهودية قد انتشرت في تيماء، ولكن سكانها لم يكونوا يهودًا، بل كانوا في ذلك العهد عربًا قحطانيين من غسان).

لماذا، وكيف؟ لأنهم كما يرى شيخنا: (ما كان إليهود يستطيعون في ذلك العهد أن يتوغلوا إلى تيماء الواقعة في مكان متوغل بين منازل القحطانيين في الغرب والشمال والشرق، ومنازل العدنانيين في الجنوب، والجنوب الغربي).

ويرى الشيخ الجاسر (أن إليهودية لصقت بتيماء حينما عرف من أهلها السموأل بن عاديا، وهو عربي قحطاني غساني، ومن ثم عرفت بتيماء إليهودية للتفريق بينها وبين مواضع أخرى تسمى بهذا الاسم).

وقبل هذه الآراء التي أوردها الشيخ الجاسر كان قد أورد قوله: (وتبرز قصة السموأل بن عاديا الذي يكاد يتفق المؤرخون على أنه يهودي، ومن ثم يعرف أهل

تيماء عند ظهور الإسلام بأنهم يهود صالحوا الرسول ﷺ سنة تسع من الهجرة).

ثم يتساءل بعد ذلك مباشرة: (فهل كان سكانها الأقدمون - يقصد تيماء - من اليهود؟ أم أن ديانتهم هي اليهودية، وأنهم من العرب الصريحي النسب)؟

ثم يذهب - أي الشيخ الجاسر - إلى ما ملخصه أن جزيرة العرب قد عرفت ديانات مختلفة قبل الإسلام، ومنها اليهودية في جنوب الجزيرة وشمالها إلى أن يقول: (ومسألة انتشار الأديان بين العرب أمر مفروغ منه، وانتقال جالية من اليهود إلى شمال الحجاز شيء معروف أيضًا، ولكن تلك الجالية كانت تقيم في كنف القبائل العربية ولم يكن لها حول أو طول، بل كانت على درجة من الذلة والاستكانة..) ثم يورد دليلاً على ذلك أبياتا لجماعة البارقي.

بعد كل هذه النصوص التي أوردتها من آراء شيخنا الجاسر عن اليهودية في تيماء نجد أنفسنا تجاه مفترق طرق اليهودية في تيماء:

هل هي النسب؟

أم هي الديانة؟

وبما أنني شخصيا فارغ الذهن حيال هذا الموضوع - إذا شئت أن أتواضع - أو شبه ذلك - إذا شئت أن أتعالم فإنني أود أن أطرح التساؤلات التالية على شيخنا وعلامتنا:

١ - كيف عرفت الجزيرة العربية جنوبها (أين بالتحديد) وشمالها (أين بالتحديد أيضا) الديانة اليهودية؟ فما أحرى الشبيبة المتطلعة أن تعرف مثل ذلك بالأسلوب العصري الذي تفهمه، بدلا من أن يقال إن ذلك شيء مفروغ منه أو معروف!!

هل يريد شيخنا الجاسر وأمثاله من مثلي وأمثالي أن نرجع إلى أمهات ومتاهات كتب التاريخ لنعرف مثله أن ذلك شيء مفروغ منه أو معروف؟

بينما كان بإمكانه أن يقول لنا ذلك في صفحة أو صفحات من كتابه هذا ما دام قد تطرق للموضوع، وما دام قد قضى عمره - أمد الله في عمره - في هذا السبيل وأمثاله: أفيكفينا منه أن يقول لنا: إن ذلك شيء معروف، معروف لمن؟!

وما دام لا بد بالضرورة من دعاة ومبشرين لأية ديانة، فمن هم هؤلاء الدعاة أو المبشرون الذين نشروا اليهودية في جنوب الجزيرة وشمالها، وتوغلوا بهذه الديانة كل هذا التوغل بين القحطانيين والعدنانيين على ما كانت عليه الجالية اليهودية من ذلة ومسكنة؟

وما دام أن (انتقال جالية من اليهود إلى شمال الحجاز شيء معروف أيضا) لماذا لا يحتمل أن يكون يهود تيماء من هذه الجالية؟ وهي - أي تيماء - إن لم تكن في الصميم الجغرافي من شمال الحجاز فعلى وشك!

ثم كون الجالية اليهودية (كانت تقيم في كنف القبائل العربية، ولم يكن له حول ولا طول).. هل يمنع ذلك أن يبرز منها مثل السموأل، خاصة ونحن نعرف أن بعض القبائل العربية نفسها - فكيف بجالية يهودية مستضعفة - كانت تلوذ - أي القبائل أو الفخوذ العربية - حين تهزم أو تستضعف، تلوذ بذلة ومسكنة أيضًا إلى قبائل أخرى أشد منعة، وقد تندمج فيها أحيانًا.. أليس كذلك، وهل أحتاج إلى إثبات مراجع؟!

وكون اليهود، ما كان في استطاعتهم - كما يرى الشيخ الجاسر - (أن يتوغلوا إلى تيماء الواقعة في مكان متوغل بين منازل القحطانيين في الغرب والشمال والشرق، ومنازل العدنانيين في الجنوب، والجنوب الغربي).

كيف إذن استطاعت الديانة اليهودية وحدها أن تتوغل إلى هذا المكان الموغل (تيماء)؟. ونحن نعلم أنه لم تكن حينذاك وسائل نشر أو إذاعة أو

(تليفزيون) بل ولا سبل مواصلات ميسورة.. فيكف إذن تتوغل الديانة وحدها كل هذا التوغل؟ ثم تأخذ كل هذه الشهرة في تيماء خاصة، وفي غير تيماء؟

إذا أعدنا شهرة انتشار إليهودية في تيماء إلى شهرة السموأل كما يرى الشيخ الجاسر - ألا يفرض علينا ذلك التساؤل عن أسباب شهرة السموأل نفسه؟.

ولا شك أن أسباب شهرة السموأل معروفة في كتب التاريخ والأدب العربي، وكان بوُدي أن أعرض لها بالتفصيل إلا أنني قد أطلت، والحيز في هذه الجريدة محدود، ولكن ذلك لا يمنع أن أشير إلى أن أسباب شهرة السموأل هي قصة الوفاء المزعوم الذي اشتهر به مع أدرع امرئ القيس فقيل في الأمثال (أوفى من السموأل)، ولكن هذه القصة نفسها، وهي أهم أسباب شهرة السموأل، خاضعة للبحث والتمحيص، مع أنها منتشرة بشكل كثيف في كتب الأدب والتاريخ العربي، ومع أنه قد ذهب بها إليهود كل مذهب! ولكن ما أكثر ما يحتاج إلى البحث والتمحيص مما ورد في هذه الكتب!!

ورواية هذه القصة بل رواية قصيدة امرئ القيس التي هي سبب شهرة السموأل قد انفرد بها - كما هو معروف دارم بن عقال وهو من ولد السموأل وهو شاعر أيضًا.. أفلا ينبغي أن نحذر منه بعض الحذر عند التحقيق والبحث في هذا الموضوع؟

أما نسب السموأل نفسه ففيه - كما يعلم شيخنا الجاسر - اختلاف كبير في كتب الأنساب والتاريخ، اختلاف لم يحصل مثله - على حد علمي - في نسب أي مشهور من مشاهير العرب، فما هو السر في ذلك؟!

أليس هو - يا ترى - اضطراب الروايات، بسبب سوء القصد منها؟!

إنني بعد أن وضعت كل علامات الاستفهام هذه، وأشرت إلى مواطن

شكوك معينة لا تخفى على شيخنا الجاسر، لأنتظر منه أن يوافي قراء هذه الصفحة ببحث مفصل عن إليهودية في تيماء، وقصة وفاء السموأل، وله الشكر الجزيل سلفًا.

١ ـ (جريدة البلاد ١٣٩٢/١/٢٩هـ).

٢ ـ نقلته مجلة العرب ع٩ س٦.

تاريخ المخلاف السليماني

لا شك أن تاريخ منطقة تهامة أو (المخلاف السليماني) أو (الجنوب العربي) بصفة عامة لم يلق العناية الكافية من المؤرخين وخاصة في بعض عصوره التي تكاد تكون مطموسة تاريخيًا.. أو هو - أي هذا الجزء العزيز من وطننا الغالي - قد لقي بالفعل تلك العناية الواجبة من المؤرخين.. ولكن لم يشأ الحظ العاثر أن تبرز مؤلفاتهم إلى النور فبقيت على شكل مخطوطات منها ما هو في الحفظ والصون لدى بعض الأشخاص أو الهيئات ممن يعرفون قيمتها فيحافظون عليها، ومنها - أي تلك المخطوطات - ما كان حقلاً مفتوحًا للسلب والنهب وتخاطف الأيدي من الشرق والغرب.. وهواة المخطوطات.. ومنها ما لعله قد تعرض للضياع والشتات والتمزق.

ولكن رغم كل ذلك.. هناك الكثير جدًا من المخطوطات التي لا تزال محفوظة بالفعل.. ولكن ضنَّ أهلها بها من جهة، وعدم عناية الباحثين والمؤرخين العرب بالبحث عنها من جهة أخرى، جعلها رهينة الأرفف والصناديق فضاعت بذلك أو كادت ثروة هائلة من المراجع المخطوطة عن تاريخ هذه المنطقة في مختلف العصور.

ومن هنا لا يكاد الباحث الآن يجد ما يمكن أن يفيده مما هو متداول أو مطبوع عن تاريخ هذه المنطقة.. اللهم إلا بعض النتف من الأخبار المبثوثة في خضم المراجع المطبوعة والمتداولة وهي نتف من الأخبارتحتاج في جمعها وترتيبها إلى مجهود شاق.. ثم لا يطلع الباحث منها بتاريخ مترابط الصلة متسلسل الحلقات.

وهكذا ظل تاريخ هذه المنطقة وتاريخ الكثير مما جاورها من المناطق حلقة

شبه مفقودة في التاريخ العربي العام.. وأقول: شبه مفقودة.. وأنا أقصد ذلك بالنسبة للكتب أو المراجع المطبوعة والمتداولة ولكنها ليست مفقودة بالنسبة لآلاف المخطوطات التي ما زالت محفوظة عند رجالات القبائل وعلمائها. وَدَعْكَ من تلك المخطوطات المفقودة.. أو تلك التي تناهبتها أيدي سبأ!!

ولم تجد هذه المخطوطات من العناية بها، ما وجدته غيرها في البلدان العربية الأخرى حيث تم تحقيق وطبع ونشر الكثير منها.

أما في هذا الجزء من وطننا العربي، فمخطوطاته حبيسة الأدراج.. قد هانت على أهلها.. أو لم يستطع أهلها الإفادة منها لسبب أو لآخر ليس هنا مجال تفصيله!!

وكان الأستاذ محمد بن أحمد عيسي العقيلي من أوائل المعاصرين الذين اهتموا بالاستفادة من هذه المخطوطات فجمع منها ما استطاع جمعه مما يختص بتاريخ المنطقة.. فذلك حيث يقول في مقدمة الطبعة الأولى لكتابه الذي نحن بصدده: (توفرت لديّ مخطوطات تاريخية نادرة الوجود.. فاقتنصت فرصًا من أوقاتي شغلتها بما أرجو أن يكون ذا فائدة في تأليف هذا التاريخ) (ص ٣٩).

وحسنا فعل الأستاذ العقيلي، وكان في ذلك رائدًا بحق وحقيق... ولكن ما كان أحراه وهو على هذا القدر من الغيرة على تاريخ وطنه... وعلى هذا القدر من الوعي لقيمة هذه المخطوطات.. بل ندرة وجودها ـ على حد تعبيره ـ ما كان أحراه أن يعمل على إبراز هذه المخطوطات إلى النور بتحقيقها وطبعها ونشرها، وهو القادر على ذلك ـ بفضل الله ـ مادياً وأدبياً.

وكان وما زال يمكنه، لو لم يكن قادرًا على ذلك لأي سبب من الأسباب ـ أن يقدم هذه المخطوطات لإحدى جامعاتنا أو مراكزنا العملية، لتقوم بتحقيقها ونشرها أو الاحتفاظ بها في صون وأمان حتى يتاح تحقيقها ونشرها.. ذلك

لأن الاحتفاظ بمثل هذه المخطوطات في مكتبة جامعية مثلاً يختلف عن الاحتفاظ بها لدى فرد من الأفراد.. حيث يتيح وجودها في مكتبه الجامعة فرصة طيبة لكل باحث للاستفادة منها.

وذلك ـ كله أو بعضه ـ هو الذي يخدم تاريخ المنطقة حقًّا وصدقًا.. وهو الهدف الذي توخاه الأستاذ العقيلي.

أما احتفاظه بها، واحتكاره لمعلوماتها.. وعدم إتاحة الاستفادة منها للباحثين فلم يزد العقيلي بذلك عن كونه مثل أحد شيوخ قبائل اليمن الذين يحتفظون بأكداس من هذه المخطوطات.. ثم لا يتيحون أبداً فرصة الاطلاع عليها.. وكأنها من أنواع الطلاسم التي تفقد قيمتها بمجرد فتحها!!

إن وجود مثل هذه المخطوطات النادرة الوجود عند الأستاذ العقيلي، أمانة في عنقه.. ولا شك أنه يقدّر مدى ثقل هذه الأمانة!! وخاصة أن هذه المخطوطات تشكل قوام تاريخ منطقة بأكملها، عزيزة غالية!!

الطبعة الأولى من الكتاب

كانت قد صدرت الطبعة الأولى من كتاب الأستاذ العقيلي عن مطابع الرياض عام ١٣٧٨هـ وكانت الطبعة الأولى بعنوان (المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ)... وكانت تسمية فضفاضة جدًّا حيث قوبلت بالكثير من النقد.. بدأه الشيخ حمد الجاسر في مقدمته لتلك الطبعة نفسها حيث قال:

(وما كنا نريد الأستاذ ـ يقصد العقيلي ـ التوسع في الموضوع توسعًا يجعل من الصعب على الباحث أن يعتبر هذا الكتاب شاملاً لتاريخ (الجنوب العربي) الذي يقصد به جنوب جزيرة العرب بأسره، بينما لا يجد الباحث فيه شيئًا من تاريخ جُلّ هذا القسم من بلادنا كعدن وحضرموت وعمان) مقدمة الطبعة الأولى ص (ي ـ ك).

فكان أن عدل الأستاذ العقيلي - تجاه نقد الناقدين - عن هذه التسمية الفضفاضة.. واختار للطبعة الثانية التي بين أيدينا الآن الجزء الأول عنوان (تاريخ المخلاف السليماني) ورحم الله امرءًا عرف قدر نفسه.. ولكن؟

ولكن حتى هذه التسمية الأخيرة فيها نظر أيضًا.. فالحقيقة أن الكتاب لا يعتبر تاريخًا للمخلاف السليماني فقط.. بل هو في الكثير جدًّا من صفحاته عبارة عن سرد تاريخي لأخبار دول وحكومات يمنية في عصور مختلفة يذكر من أخبارها حتى كيفية (طبخ الحلوى)!!

ويبرر الأستاذ العقيلي ذلك في كتابه بقوله: (كنت قصدت بتأليفي هذا أن أدون ما وصل إليه علمي من تاريخ المخلاف السليماني، ولكنني اضطررت لارتباط كثير من أخبار دول وحكومات نشأت في البلاد المجاورة له إلى الاستطراد بسرد أخبار تلك الدول والحكومات.. إلخ) ص ٤٠ المقدمة.

والواقع أن المسألة لم تكن مسألة استطراد فحسب.. ذلك لأن العقيلي قد أفرد فصولاً كثيرة بأكملها لأخبار الدول والحكومات المجاورة على مر العصور دون أن يشير إلى العلاقة بين هذه الأخبار.. أو بين تلك الدول والحكومات وبين تاريخ المخلاف السليماني، وإلا فما هي العلاقة مثلاً بين مملكة (قتبان) أو دولة (سبأ) أو غيرهما وبين المخلاف السليماني؟!

بل ما هي العلاقة بين التوسع في الحديث عن المذهب الزيدي ودعاته وأئمته وبين المخلاف السليماني؟!

أو ما هي العلاقة بين طريقة (طبخ الحلوى) في بلاط دولة يمينة بتاريخ المخلاف السليماني؟!

ربما تكون هناك بعض العلاقة الطفيفة جدًّا، وغير المهمة تاريخيا بين ذلك السرد المطول لأخبار الدول والحكومات المجاورة وبين تاريخ المخلاف

السليماني.. ولكن الأستاذ العقيلي لا يشير بعد سرد أخبار كل دولة أو حكومية إلى مدى علاقتها بتاريخ المخلاف السليماني.. وكان أول من انتقده في ذلك الشيخ حمد الجاسر في مقدمته للكتاب نفسه حيث يقول:

(كنا نريد أن يكون القسمان الأولان في الجزء الأول من الكتاب أوفى وأكمل مما هما عليه، وأن يوجز تاريخ الحكومات التي حكمت اليمن - فالمؤلفات التي عنيت بتدوين تاريخ هذا القطر العزيز من بلادنا كثيرة متداولة - بخلاف كل ما يتعلق بتاريخ المخلاف السليماني الذي ألف من أجله هذا الكتاب) مقدمة الطبعة الأولى ص (ي).

وهكذا فإن معظم الفصول كانت - في الحقيقة - مجرد سرد أو حشو لا لزوم له!!

وكان العقيلي قد برر ذلك بالتسمية القديمة للكتاب (المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ) ومعنى ذلك أن الكتاب لا بد أن يشمل أخبار دول وحكومات اليمن.

أما الآن وفي الطبعة الثانية للكتاب، وقد أسقط الأستاذ العقيلي تسمية (الجنوب العربي في التاريخ) لعدم دقتها أو ضرورتها.. فما هي يا ترى ضرورة استمرار الأستاذ العقيلي في سرد أخبار تلك الدول والحكومات المجاورة.. وما هو مبرره في ذلك ما دام قد أسقط التسمية في الطبعة الثانية.. وما دام لا يشير إلى العلاقة بين تاريخ المخلاف السليماني وبين أخبار تلك الدول والحكومات؟

كان المفروض أن يحذف الأستاذ العقيلي من الطبعة الثانية جميع أخبار تلك الدول والحكومات المجاورة.. أو يقتصر على ما هو متعلق منها بموضوع أو تسمية الكتاب في طبعته الثانية.. ولكنه بدلا من ذلك ظل على توسعه في سرد أخبار كثيرة جدًّا لا علاقة لها بموضوعه.. أو هو لا يشير إلى تلك العلاقة

- إن كانت موجودة - على أقل تقدير!!

رغم أنه يذكر مثل ذلك في أحيان قليلة جدًّا.. ويغفله في مطلق الأحيان!! ثم إن التسمية الجديدة (تاريخ المخلاف السليماني) كان ينبغي أن يضاف إليها مثلاً: (أو مقاطعة جازان).. ذلك لأن تسمية (المخلاف السليماني) تسمية قديمة لم تعد معروفة إلا لدى خاصة الخاصة على أنها تعني مقاطعة جازان حاليًا.. فكان أحرى وأدق أن تذكر التسمية القديمة وتذكر معها التسمية الحديثة.

والدليل على أهمية ذلك أن للأستاذ العقيلي نفسه كتاب آخر بعنوان (مقاطعة جازان في العهد السعودي) ولم يقل (تاريخ المخلاف السليماني في العهد السعودي)!! وله كتاب آخر بعنوان (الآثار التاريخية في منطقة جازان)!!

منهج التأليف

ذكرنا أن هذا الكتاب قد صدر في طبعة أولى - من جزأين - عن مطابع الرياض عام ١٣٧٨هـ.. وها هو يصدر الجزء الأول منه في طبعته الثانية من ضمن منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.. ولم يذكر تاريخ هذه الطبعة الثانية.. ولكن المقدمة مؤرخة عام (١٤٠٢هـ).

أما منهج التأليف في الطبعتين فإن الأستاذ المؤلف لا يذكر شيئًا مُهمًّا عن منهجه غير قوله في المقدمة: (وأن يكتب التاريخ لا بلهجة علمية جافة، تجعله بعيد الاستساغة.. بل يمزجه بقطرات من حلاوة الأدب، ورونق الخيال (هكذا) في حدود تقرب جدًّا من الإنصاف)

ثم يقول في المقدمة أيضًا: (وليكن موائمًا بين منهج التاريخ الواقعي، ومهيع الطريقة الأدبية)!!

ولكن المؤلف لا ينير بصيرتنا عن (منهج التاريخ الواقعي) في نظره.. ومن

ثم لا يدلنا على شيء من منجه في تأليف الكتاب.

وفي هذا المجال بالذات لا بد لنا من إيضاح عدة أمور فيما يلي:

أولاً: أن الأستاذ العقيلي قد أعلن أكثر من مرة رأيه في كيفية تحقيق ودراسة التراث والاستفادة منه، وهو يخالف على طول الخط المنهج العلمي الصحيح.. وقد انتقده في هذا الرأي غير واحد.. وفي مقدمتهم الشيخ حمد الجاسر، وهو لا شك حجة في هذا المجال.

وأذكر أنني شخصيا كتبت موضوعا مطولا حول رأي العقيلي في كيفية تحقيق ودراسة التراث.. وكان ذلك الموضوع بعنوان: (العقيلي.. ومفاهيمه التراثية؟!).. وقد نشر بجريدة البلاد بتاريخ ١٣٩٣/٥/٥هـ.. وقد فندت آراء العقيلي التراثية بتفصيل واضح وكافٍ.

وأذكر أيضًا أن الصديق الأستاذ علوي طه الصافي كان قد أجرى مقابلة صحفية مع العقيلي حول مفاهيمه التراثية، نشرت بمجلة اليمامة بالعدد ٢٥٣ بتاريخ ١٣٩٣/٤/١٥هـ وكان من ضمن تلك المقابلة هذا السؤال بالنص:

(انتقد الشيخ حمد الجاسر طريقتك أو منهجك في تحقيق ودراسة التراث لقيامك بحذف أشياء منه لأنها لا تتناسب ومجتمعنا الحاضر، وجيلنا المعاصر، ورأيه أن التراث يجب أن يبقى كما هو لأن عملية الحذف والاختيار تجعله مبتورًا وناقصًا ولا يعطي الصورة الصحيحة للبيئة والمجتمع.. فما هو رأيك؟)

وكان جواب العقيلي كما يلي بالنص:

(التراث ينبغي أن يقدم بطريقة الالتزام بما يناسب روح الدين والأخلاق الفاضلة.. وما يتفق مع مبادئ نهضتنا الإصلاحية الدينية.. وأن نقدمه للأجيال مصفى (...) وما كان يستساغ سابقا في عصر لا يستساغ في عصر آخر فنحن أمام طريقين.

الأول: أن نقدمه كما هو.. وهذا ما تقتضيه الأمانة العلمية مع ما في ذلك من عصبيات وعنصرية وتفاوت طبقي (..) وخنوع.

الثاني: أن نأتي بالتراث ونختار منه ما يتفق وروح الدين وعنصر الأخلاق الفاضلة.. وما يوائم روح العصر إلخ).

ولقد ذكرت هذا النص بطوله لأنه يمثل في الحقيقة خلاصة رأي العقيلي في كيفية تحقيق التراث ودراسته والاستفاد منه.. وأنه يجب أن يقدم مصفى حتى ولو خالف ما تقتضيه الأمانة العلمية التي أشار إليها الأستاذ العقيلي.

ومن هنا يمكننا أن ندرك كيفية ومدى استفادته من المخطوطات النادرة الوجود والمتوفرة لديه في تأليف كتابه هذا أو غيره من كتبه.. وهي كيفية أو طريقة في منهج البحث لا تطمئن القارئ العادي فضلاً عن الباحثين المختصين.

وتلك مجرد فكرة عن منهج الأستاذ العقيلي في الاستفادة من التراث في المخطوطات أو المطبوعات.. والتي لا شك أنه قد أتبعها في تأليف كتابه.

ثانيا: أما منهجه في تأليف الكتاب من حيث الترتيب والتبويب فهو لا يتبع في الحقيقة أي منهج معروف من المناهج القديمة أو الحديثة.. ولذلك لم يستطع هو نفسه أن يوضح لنا في مقدمة الكتاب القاعدة التي سار عليها في التأليف.

وقد أشرنا في صدر هذا المقال إلى مدى الخلط الذي أحدثه الأستاذ العقيلي بين تاريخ المخلاف السليماني وبين أخبار دول وحكومات البلاد المجاورة دون الإشارة - إشارة كافية - إلى مدى العلاقة بين هذا وذاك.

ويكفينا هنا أن ننقل رأي الشيخ حمد الجاسر للكتاب نفسه حول هذا الموضوع: (على أننا لا نعفي الأستاذ المؤلف من تبعة النقص في مواضع كان في إمكانه تداركه فيها، من حيث الترتيب والتبويب، والإيجاز في مواضع

تستدعي الإسهاب، والإسهاب في مواضع لا تستحق ذلك).

وهذا الرأي الموجز جدًّا يعطينا ـ رغم إيجازه ـ فكرة واضحة عن طريقة المؤلف في الترتيب والتبويب وتناول الموضوعات.

ولا شك أن الإسهاب في المواضع التي تستدعي الإيجاز أو العكس.. إنما دعا إليها مفهوم العقيلي نفسه حول تقديم التراث (مصفى) فيحذف الكثير متى شاء فيكون الإيجاز، ويبقي على الكثير متى شاء فيكون الإسهاب بصرف النظر عن المنهج العلمي أو الأمانة العلمية!!

مصادر ومراجع الكتاب

وهذه ناحية على جانب كبير جدًّا من الأهمية، وخاصة في مجال التاريخ، وخاصة أيضًا في مجال تاريخ منطقة لا يكاد يعرف عنه ما يكفي، وفي هذا المجال بالذات، مجال مصادر ومراجع العقيلي في كتابه لا بد لنا من ذكر بعض الملاحظات فيما يلي:

أولاً: بعد صدور الطبعة الأولى من الكتاب، كثر اللغط والهمس والجهر على مستوى النشر في الصحف والمجلات، وعلى مستوى مجالس الأدباء، وخاصة في منطقة جازان حول كون الأستاذ العقيلي قد سطا سطوًا فادحًا على مخطوط ضخم عن تاريخ المنطقة ـ موضوع الكتاب ـ للشيخ المرحوم عبدالله العمودي الذي عاصر حكم الأدارسة والأشراف والعهد السعودي الأول في المنطقة، وكذلك صدرًا من العهد السعودي الحديث.

وقيل إن الشيخ عبدالله العمودي كان قد أعار الأستاذ العقيلي كتابه المخطوط الذي سجل فيه الأحداث التي عايشها بنفسه عن كثب، وإن الأستاذ العقيلي قد سطا على ذلك المؤلف المخطوط ونقل معظم ما جاء فيه عن أحداث المنطقة ونسبها لنفسه، ولم يشر إلى الشيخ العمودي من قريب أو بعيد.

ولكن الأستاذ العقيلي نفى ذلك نفيًا قاطعًا.. وإن كان قد اعترف بأنه استعار الكتاب فعلا واطّلع عليه.

وبالرغم من نفي العقيلي لما كثر من لغط وقيل وقال حول هذا الموضوع - إلا أنني أجد من الضرورة الإشارة إلى ذلك ما دمت بصدد الحديث عن مراجع ومصادر العقيلي.

ثانيًا: يصرح الأستاذ العقيلي - كما سبق أن أشرنا - بأنه توجد لديه مجموعة نادرة الوجود من المخطوطات عن تاريخ المنطقة.. وأنه قد استفاد منها في تأليف هذا الكتاب.. ولكنه - مع كل أسف - لا يشير إلى النصوص التي استقاها من تلك المخطوطات ولا يضعها بين أقواس ولا يشير إلى رقم الصفحة أو الورقة أو اسم الكتاب ومؤلفه.. ولا يشير - إن أشار في النادر جدًّا - إلا بطريقة مبهمة وغامضة.. أو غير كافية لتحقيق المنهج العلمي الصحيح في الإشارة إلى المراجع والمصادر.

ثالثًا: أوحى لنا العقيلي أنه قد اعتمد في تأليف كتابه على المخطوطات المذكورة.. ولكننا نجده يقول في الصفحة ٦٧ من الطبعة الثانية ما نصه: (لم نعثر على تاريخ مستقل لتهامة في الثلاثة القرون الأولى للإسلام نرجع إليها في استقراء أحداثها ودراسة أحوالها السياسية والاجتماعية والعمرانية)

ورغم إشارته الواضحة هذه نجده يورد في كتابه طائفة كبيرة من الأخبار والحوادث التاريخية والأحوال السياسية والاجتماعية والعمرانية ليس بالنسبة للقرون الثلاثة الأولى فحسب.. بل بالنسبة لما قبل الإسلام.

ومعنى ذلك بوضوح أن الأستاذ العقيلي قد اعتمد في مؤلفه على مراجع ومصادر أخرى غير المخطوطات الموجودة لديه.

ولا شك أنه قد رجع - فيما رجع إليه - إلى مصادر مطبوعة متداولة أو

مخطوطة ـ سيان ـ ولكننا نجده يورد تلك الطائفة الكبيرة من النصوص أو مما استقاه من تلك النصوص دون أن يشير إلى مرجع كل نص.. أو مراجع تلك المعلومات العديدة التي أوردها في كتابه سواء معلومات وتواريخ ما قبل الإسلام.. أو معلومات وتواريخ عن القرون الثلاثة الأولى في صدر الإسلام.. ونجده يتوسع كثيرا في ذلك خاصة فيما يتعلق بدول وحكومات اليمن لأن المراجع عنها متوفرة وميسورة.. ولا يعفيه من ذلك إيراد قائمة بالمراجع التي استفاد منها!!

أما بالنسبة للمخلاف السليماني أو مقاطعة جازان حاليًا، وهي موضوع الكتاب أصلاً فإننا لا نجد التوسع والتفصيل إلا في الحقبة التاريخية الحديثة.. أي منذ أيام حكم الأدارسة أو الأشراف أو العهد السعودي الأول.. وكذلك بعض الجوانب من أواخر العهد التركي.

وسبب هذا التفصيل والتوسع في هذا الجانب بالذات ـ أي الجانب الحديث من تاريخ المنطقة ـ هو وفرة المعلومات لدى الأستاذ العقيلي من المخطوطات الموجودة لديه.. أو مما استعاره واطلع عليه.. ولكنه حتى في هذا الجانب أيضًا لا يشير إلى مصادره بغير قوله في المقدمة: (توفرت لديّ مخطوطات نادرة الوجود فاقتنصت فرصًا من أوقاتي شغلتها بما أرجو أن يكون ذا فائدة من تأليف هذا التاريخ).

ولكن هذه الإشارة وحدها لا تكفي منهجيا حيث لا بد من الإشارة إلى مصادر النصوص والمعلومات في كل موطن تذكر فيه من الكتاب.. كما هي أبسط قواعد المنهج العلمي الحديث.

ومما يدلنا على ضن الأستاذ العقيلي بمصادره المخطوطة النادرة الوجود.. ليس كونه لا يشير إليها متى وجبت الإشارة.. بل كونه أيضًا لم يبرز منها إلى

النور ما يتعلق بالجانب التاريخي رغم أنه قد أبرز بعض ما يتعلق منها بجانب الأدب والشعر مثل ديوان (ابن هتيمل) وغيره فما عدا مما بدا.. وعلى ماذا يدل هذا متى دل على شيء؟!

رابعًا: رغم كل ما ذكرناه وما لم نذكره مما من شأنه أن لا يجعل للكتاب أية قيمة علمية أو تاريخية يمكن أن تذكر.. ولكنه - أي الكتاب وبرغم كل ذلك - قد حقق بالفعل قيمة لا يستهان بها.. وذلك لسبب بسيط جدًّا هو أنه لا يوجد بين أيدي القراء أي تاريخ مستقل عن هذا الجزء العزيز، فجاء هذا الكتاب على طريقة المثل الشائع في منطقة جيزان (الأعور في بلاد العمي فاكهة)!!

ملاحظات عامة

ولنا بعد ملاحظات عابرة.. أهمها عدم وجود فهرس للأعلام سواء في الطبعة الأولى من الكتاب أو في الجزء الأول من الطبعة الثانية، ولعل المؤلف يتدارك ذلك في الجزء الثاني من الطبعة الثانية حيث لا يمكن أن يخفى على مثل العقيلي مدى أهمية مثل هذا الفهرس.. وخاصة بالنسبة للباحثين.. وهو الذي - لا شك - قد عانى الكثير من المراجع التي لا توجد بها مثل هذا الفهرس ونحوه من الفهارس التي تعين الباحث في الحصول على بغيته بسهولة ويسر.

وأما الملاحظة الثانية والأخيرة فهي أن الأستاذ المؤلف قد اقتطع من الجزء الأول.. ومن صدره بالذات ٢٦ صفحة بالتمام والكمال خصصها لما أسماه (كلمات التقريظ والثناء التي وردت للمؤلف).. وهو يقصد رسائل المجاملات التي وردته بعد نشر الطبعة الأولى للكتاب.

ومن الطبيعي جدًّا أن تكون رسائل المجاملات هذه حافلة بالثناء والتقريظ إلى حد المبالغة.. بل الإمعان في المبالغة - كما جرت العادة!!

ومثل هذا الأسلوب في نشر رسائل الثناء والتقريظ كان متبعًا، وربما مقبولاً

قبل أكثر من نصف قرن.

أما الآن فهو غير مقبول ولا يستسيغه القراء ولم يعد يلجأ إلى مثل هذا الأسلوب الممجوج أي مؤلف معاصر يحترم نفسه وقدره.. ويعرف أن نشر رسائل الثناء والتقريظ لا تزيد من قدره.. بل تغض منه.. وكنت ـ علم الله ـ أربأ بالأستاذ العقيلي عن ذلك..

بل كنت أتوقع منه أن ينشر في هذه الطبعة الثانية كل ما يمكن نشره من النقد الذي وجه إليه عند صدور الطبعة الأولى.

كما كنت أتوقع منه أيضًا أن ينشر في هذه الطبعة رده هو نفسه على اللغط الذي دار حول موضوع كتاب الشيخ عبدالله العمودي الذي أشرنا إليه في هذا الموضوع.. فقد كان ذلك ونحوه أحرى وأجدر من رسائل الثناء والتقريظ والمجاملات.

عكاظ ٩/٧/١٤٠٢هـ

المعجم العربي.. نشأته وتطوره

المعروف أن الكتب التي يتقدم بها أصحابها من أجل نيل إجازة أو شهادة الدكتوراه تكون على جانب كبير من الدقة في المنهج والتركيز في المحتوى لعله من أجل أن مؤلفيها يعرفون أن هناك لجانًا تنتظرهم للفحص والنقد بالإضافة إلى الأستاذ المشرف الذي يوجه ويسدد، بينما نجد كثيرًا من المؤلفين حتى من حملة شهادات الدكتوراه أنفسهم يتهاونون كثيرًا أو قليلاً بنسب متفاوتة في كتب أخرى بعد نيلهم الدكتوراه، وكأنهم لا يحسبون حسابًا للقراء على أنهم أيضًا هيئات ولجان تناقش وتفحص بدقة. إن رسالة الدكتوراه تحتاج عادة إلى مدى طويل من أجل دقة البحث، بينما نجد بعد ذلك سيلاً من الكتب لهؤلاء الدكاترة أو بعضهم بالأصح، في مدد قصيرة جدًا، وفي موضوعات أكثر خطورة، فكأن الدكتور يكتفي بأن يكون دكتورًا بكتاب واحد، ثم ينهال بسيل عرم من الكتب على حساب رصيد الدكتواره..

والكتاب الذي نقدمه اليوم (المعجم العربي.. نشأته وتطوره للدكتور حسين نصار) هو من كتب الدكتوراه، أي أن صاحبه قد تقدم به لنيل شهادة الدكتوراه، وقد نالها به فعلاً، بحق وجدارة، ليس في نظري فحسب.. بل في نظر اللجنة، ولا بد أن يكون في نظر معظم القراء..

ذلك لأنه قد تعرض بالدراسة المركّزة الواعية لجانب مهم، هو جانب (المعاجم العربية) والمراحل التي مرت بها منذ التدوين إلى الآن، وقد سد بذلك ثغرة لم يسبقه إليها غيره، وخطا خطوة في هذا الميدان الرحب لم يخطُها غيرُه قَبله، وإن كان الميدان ما زال رحبا، وفي حاجة إلى كثير من

الخطوات والجهود.

وهذه هي الطبعة الثانية من الكتاب، وقد طبعت عام ١٩٦٨م.

أما الطبعة الأولى فكانت عام ١٩٥٦م، أي قبل ١٦ عامًا، وقد طبعت ـ أي الطبعة الأولى ـ على نفقة السيد حسن الشربتلي، والعجيب أنه على الرغم من أن هذا الكتاب قد طبع أول طبعة على نفقة تاجر سعودي، فضلاً عن أنه ـ أي الكتاب ـ من الأهمية بمكان إلا أننا هنا.. أو معظمنا.. أو بعضنا، لم نسمع بهذا الكتاب ولم ندر عنه حتى بعد طبعته الثانية وأقول هذا حسب علمي أنا فقد عثرت عليه في إحدى مكتبات الرياض قبل عام تقريبا، وقرأته وأعجبت به كثيرا فذكرته في مجلس الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي لعدد من الأدباء الكبار فلم أجد عندهم علما عنه، وحدثت عنه أحد كبار أدبائنا فلم أجد عنده علمًا عنه أيضًا فأهديته نسختي، اشتريت لنفسي نسخة أخرى، ثم ذكرته هنا في جدة لعدد ممن هم على سعة علم بالكتب، وخاصة في هذا المجال فلم أجد عندهم علما عنه..

وكل ذلك ليس غريبًا، مهما كان شأن الكتاب، ولكن الغريب أن يطبع طبعته الأولى على نفقة تاجر سعودي هو السيد حسن الشربتلي.. ثم لا يهدى إلى أدباء المملكة على الأقل، أم ترى مكتب السيد الشربتلي لا يعرف عناوين أدباء المملكة؟؟

لقد استطردت كثيرا، وهذا الاستطراد يجرني إلى استطراد آخر ـ الاستطراد في الأدب العربي ميزة وليس مذمة ـ هو أن عندنا الآن غير قليل من الدكاترة السعوديين لم يستطيعوا طبع رسائلهم إلى الآن، وهي تتناول، أو معظمها، موضوعات مهمة جدًا، ولذلك فهي جديرة بأن ترى النور بأية طريقة كانت.

نعود إلى كتاب (المعجم العربي)، وقد قلنا إنه سد ثغرة في موضوع بحثه، ونقول أيضًا إنه قد حالفه التوفيق.. فأنا أعتقد بل أجزم أنه ليس هناك أية أمّة من الأمم لديها مثل أو أقل مما من تراث، وبذلت كل هذا القصور والإهمال من أجله، إذا كان القصور والإهمال من الأشياء التي تبذل..

إن تراثنا مشتت من جهة، غير مدروس من جهة أخرى، وهو من جهة ثالثة كأي تراث قد مر بمراحل عديدة، وطرق تناول مختلفة، وهو الآن في أمسّ الحاجة إلى جمع أولاً.. ثم ترتيب ثانيًا.. ثم إفادة منه ثالثًا.. بأيسر الطرق والأساليب الحديثة.

وأني لأتساءل، ونحن الآن في مجال واحد من تراثنا هو تراث المعاجم، مَن مِن طلاب الثانوية أو الجامعة أيضًا يستطيع أن يهتدي بسهولة إلى كلمة يريدها في (لسان العرب) لابن منظور مثلا؟ مع أنه قد انتظم الكثير من المعاجم العربية مما قبله في ترتيب حديث بالنسبة لتاريخه؟.

إن صعوبة البحث، وشبه استحالة الاهتداء إلى الألفاظ المرادة في المراجع أو المعاجم القديمة بسبب اختلاف طرق ترتيبها عن الطرق الحديثة في ترتيب المعاجم، جعل منها - أي المعاجم العربية القديمة - كميات كبيرة مهملة اللهم إلا عند قلة من المختصين!!

ولذلك أو بعضه أو أقله، نحن في حاجة حقًّا إلى جهود علمائنا ومجامعنا وجامعاتنا ومؤسساتنا العملية - إلى تنظيم (المعجم العربي) بالشكل الذي نستطيع الإفادة منه، بالإضافة إلى كثير من الجهود التي تبذل ويجب أن تبذل في الميادين الأخرى.

ومن أعجب العجب أن السلف من علمائنا قد نظموا أنفسهم - كما يقول أحمد أمين - (فرقا كفرق الجيش، كل فرقة تغزو الجهل والفوضى في ناحيتها حتى

تخضعها لنظامها، ففرقة للغة، وفرقة للحديث، وفرقة للنحو، وفرقة للكلام، وهم يتسابقون في الغزو والانتصار وتدوين العلوم وتنظيمها، تسابق قبائل العرب في الفتوح والغزوات).

أما الأفاضل من باحثينا الآن فلم ينتبهوا، أو هم قد تنبهوا واستبدت بهم الأنانية إلى فضل الجهود الجماعية في كل ناحية من النواحي، قد يذكر قارئ المجمع اللغوي أو غيره.. فنقول: ما هي الجهود التي أثمرت عن اجتماعاته؟، ولا شك أنه قد أثمر بعض الجهد، ولكن الجهود الفردية لبعض أعضائه أو غير أعضائه أهم من ثمرة جهود أعضاء المجمع بكاملهم، لعله الروتين، أو طريقة إدارة الجلسات، أو الأثرة والأنانية من بعض الأعضاء أو كلهم، هي السبب!!

أما الجامعات العربية فهي لا تعدو كونها مدارس لتخريج الموظفين أو نحو ذلك!!

أما البحث العلمي الجاد في تراثنا، وأما الأعمال الكبيرة والجادة مثل المعاجم وغيرها، فكأنما ذلك ليس من صميم رسالتها!!

ولقد استطردت مرة أخرى، ولكن لم أبعد عن موضوع الكتاب - إن شاء الله..

محتويات الكتاب ومنهج بحثه

يقع الكتاب في حوالي ٨٤٠ صفحة مقسمة على جزءين، ومحتوياته على النحو التالي:

١ - **وضع المؤلف** بين يدي بحثه مقدمة مستفيضة مركزة عن موضوع بحثه، ومنهجه في البحث، وهي مقدمة تدل على وعي كبير، وإلمام واسع بموضوع البحث.

٢ - **مهّد المؤلف** أيضا بفصل خاص لموضوع كتاب بعنوان (العرب

والعربية) استعرض فيه أهم جوانب التمهيد للبحث ومنها بداية التدوين في صدر الإسلام، وكيف أن أول حركة علمية، هي تفسير غريب القرآن، وكيف أن التأليف أو التدوين لم ينشأ إلا بعد أن تفشت العجمة وغلب الجهل فتنبه القوم إلى ضرورة التفسير والشرح ووضع القواعد والمتون.

وأشار أيضًا إلى أنه عند بداية التأليف لم يكن ينزع المؤلفون إلى الإطالة لأن (الناس يومئذ كان فيهم بقية، وعندهم معرفة، فلم يكن (الجهل قد عَمّ، ولا الخطب قد طَمّ) كما يقول ابن الأثير.

وأشار المؤلف أيضًا إلى أن العلوم الدينية كانت (أسبق العلوم ظهورًا وأكثرها سيادة على المجتمع العربي في أكثر عصوره، وكان للفقه من هذه العلوم منزلة خاصة).

وهذا حق، مع أن المؤلف لم يشر إلى أسباب ذلك ومسبباته، وعذره واضح فليس ذلك من منهج بحثه، ولكن عندما يصل القارئ إلى مثل هذه الإشارات المهمة لابد أن يعرف الأسباب والمسببات ولو في إلمامه وجيزة أو إشارة إلى المراجع المعنية بذلك، فالقارئ الذي يقرأ مثل هذه الإشارة، إشارة أن العلوم الدينية كانت أسبق العلوم ظهورًا وأكثرها سيادة على المجتمع العربي في أكثر عصوره؛ لا بد أن يتساءل ضمنًا عن أسباب تخلف الفنون الأخرى في الأدب كالتمثيل والرسم والنحت والموسيقي وغير ذلك، ثم لا بد أن يقارن هذا القارئ في ذهنه مدى تقدم هذه الفنون في حضارات الأمم الأخرى.. بل إنه - أي القارئ - قد يستغرب مدى اهتمام الحضارة العربية الإسلامية بكثير من العلوم المهمة دون اهتمامها بالفنون المشار إليها آنفًا. الباب الثاني (كتب اللغات والعامي والمعرب)، لغات القرآن، لغات القبائل، المعرب، المعاجم المتعددة اللغة (وهي التي تورد اللفظ بمعناه في اللفظ الفارسي أو التركي أو غير ذلك

من اللغات الأجنبية)، كتب لحن العامة.

الباب الثالث: (كتب الهمز).

الباب الرابع: كتب الحيوان، الحشرات، الخيل، خلق الإنسان.

الباب الخامس: كتب النوادر.

الباب السادس: كتب البلدان والمواضع.

الباب السابع: كتب الأفراد والتثنية والجمع.

الباب الثامن: كتب الأبنية، المصادر، الصيغ الخاصة من الأفعال، الأفعال عامة، أمثلة الأسماء، الأبنية عامة.

الباب التاسع: كتب الصفات.

٢ - **الكتاب الثاني (المعاجم)، وهو من عدة أبواب:**

الباب الأول (المدرسة الأولى): كتاب العين، كتاب البارع، كتاب التهذيب، كتاب المحيط، كتاب المحكم، خصائص المدرسة وعيوبها.

الباب الثاني (المدرسة الثانية): كتاب الجمهرة، المقاييس، المجمل، خصائص المدرسة وعيوبها.

الباب الثالث (المدرسة الثالثة): كتاب الصحاح، العباب، لسان العرب، القاموس المحيط، تاج العروس، المعيار، خصائص المدرسة وعيوبها.

الباب الرابع (المدرسة الرابعة): كتاب أساس البلاغة، معاجم اليسوعيين، مشروعات المجمع اللغوي، خصائص المدرسة وعيوبها.

٣ - **الكتاب الثالث (المعاجم التي نحتاج إليها)**، عيوب المعاجم القديمة، خصائص المعاجم، خاتمة.

تلك هي محتويات الكتاب، وما كنت لأورد هذا الفهرس، وليس ذلك من عادتي في تقديم الكتب، لولا أن ذلك يدل أكبر دلالة على أهمية

الموضوعات التي تطرق إليها الكتاب بالشـــرح والتفصـيـل بكل دقة.. فكأنني أقول: إنني لم أثن على هذا الكتاب إلا لتناوله مثل هذه الموضـوعات التي تعتبر بِكرًا في ميدانها.

منهج البحث

أما منهج البحث في الكتاب فهو منهج علمي حديث بكل معني الكلمة، أو بقدر ما أستطيع أن أفهم أنا وأمثالي بل واللجنة المشرفة ـ أنه أقصى ما يمكن، ولذلك لست أجد في تعريف هذا النهج بأقصى إيجاز خيرًا مما فعل الأستاذ المشرف، مصطفى السقا.. حيث قال:

(يقوم عمل المؤلف، على وصف المناهج العامة بالمعاجم، وتحليل مواد جزئية من كل معجم، وإحصاء النتائج، من خصائص ومآخذ، ثم المضاهاة بينها وبين نظائرها في معجم آخر، وتنسيق الوحدات التي تلتزم نظامًا معينًا مشتركًا بين أصحابها، مما سماه الباحث (المدرسة اللغوية) ثم استخلاص الخصائص العامة لكل مدرسة، والدلالة على مراحل التطور فيها، متى بدأت؟ وأين انتهت؟ ومن صاحبها؟ ومتى حدث تطور آخر جديد؟ وعلى يد من؟ وهكذا يتتبع الجزئيات ويترقى منها إلى الكليات، ويؤلف بينها، حتى يجعل من مجموعها نظامًا تأليفيًا ذا طابع خاص، يعرفه القراء للمعاجم في صورته الأخيرة، ولكنهم يجهلون الأطوار التاريخية التي مهدت لظهوره، والجهود المضنية التي أدت إليه.)

أما الغرض من البحث فهو ـ كما نلخصه من قول الأستاذ المشرف نفسه:

١ ـ (تدوين تاريخ شامل للمعاجم العربية).

٢ ـ (وضع الصوى والأعلام في طريق اللغويين المحدثين من العرب، الراغبين في تأليف المعاجم اللغوية الحديثة).

ولا أستطيع أن أزيد على ذلك إيضاحًا لمنهج بحث الكتاب نظرًا لضيق المساحة المحدودة لهذا الاستعراض، فضلاً عن أنني قد أشرت في المقدمة إشارات كافية ـ كما أعتقد.

هوامش وملاحظات

أما ملاحظاتي المتواضعة على الكتاب فقبل أن أوردها أود أن أكرر الإشارة إلى أن الكتاب رسالة علمية تقدم بها صاحبها لنيل الدكتوراه وقد فحصتها لجنة من علماء كبار وأقرتها، وإلى أنني قد أشدت كثيرًا بطريقة التناول، وعذرية الموضوع، ومع ذلك وغيره فإن لي بعض الملاحظات أو التهميشات المتواضعات كما يلي:

١ ـ قسم المؤلف، المعجمات الكبيرة والصغيرة أيضًا إلى مدارس وحاول الربط بين هذه المدارس باستخراج آثار الأولى منها في الأخيرة ـ وهذا تعبيره ـ والحقيقة أن اطلاق كلمة (مدرسة) أو مدارس على كل مجموعة من المعاجم، لمجرد اجتماعها في منهج أو خطة بحث أو زمن فيه إجهاد لمعنى كلمة مدرسة أو مدارس.

وكان أحرى بالمؤلف أن يسمي ذلك مرحلة أو مراحل تطورات المعجم العربي، وهي ملاحظة بسيطة، ولكن التعبير بمعنى (مدرسة) في مثل هذا الشأن، إنما هو انسياق غير واعٍ أو مدرك وراء التعبيرات الغربية. بينما المؤلف يتحدث عن (معاجم) عربية.

والعجيب أنني بعد أن كتبت هذه الملاحظة ـ علم الله ـ لاحظت أن المؤلف قد استعمل بالضبط كلمة (مرحلة) أو مراحل، وذلك في صفحة ٣٥ ج١، بينما كانت ملاحظتي منصبة منذ البداية على ما ذكره المؤلف في المقدمة ص٧ مع أنه ـ أي المؤلف ـ قد استمر في استعمال مدرسة ومدارس في سائر الكتاب وفي

عناوين بعض الفصول أيضًا.

ومن هذا القبيل في عدم استعمال الدقة في البيان، لاحظت أن المؤلف لا يبالي (أحيانًا) بهذه الدقة، ولست بسبيل إحصاء هذه الهنات، وإنما أشير مثلاً إلى قوله: (وكان نشاط المسلمين في ذلك يسترعي الأنظار ويستخرج العجب) ص٣٣ج.١. فكلمة (يستخرج) ركيكة وفي غير موضعها، وإلا فهل العجب، مخبأ في خدر أو قصر أم هو في بئر حتى يستخرج؟

ومع أن هذا الكلام.. يحتمل أن يكون من نص الأستاذ أحمد أمين الذي استشهد به المؤلف إلا أننا لا نعرف هل هو من نص أحمد أمين أم هو من عند المؤلف.. ذلك أن نهاية الكلام قد أقفل بقوس، وأشير إلى أنه من كتاب (ضحى الإسلام) بينما ليس هناك أي قوس في بداية الكلام، ولعله خطأ مطبعي، ولكن ذلك لا يعفي المؤلف على كل حال.

٢ ـ ناقش المؤلف، الأستاذ أحمد أمين في موضوع مراحل ـ وانتبهوا لكلمة مراحل ـ ووافقه على كثير من آرائه ولكنه لم يسمه باسمه، بل كنى عنه بقوله: (أحد الباحثين المحدثين) أو (هذا الباحث) واكتفى أن يشير بقوله: (المرجع السابق ص كذا)، والمرجع السابق هو (ضحى الإسلام) لأحمد أمين، فلماذا هذه التغطية والساق مكشوف؟.

٣ ـ لاحظت أن المؤلف يذكر أسماء المؤلفين في بعض الفنون وخاصة في موضوع بحثه فيقول: ألف في هذا الفن فلان وفلان، ولكنه لا يذكر حتى أسماء كتبهم، فضلاً عن وصفها، والمطبوع منها أو غير المطبوع، والموجود منها أو غير الموجود، كما هو شأنه ـ أي المؤلف ـ فيما ذكره عن (كتب الخيل) و(كتب خلق الإنسان) وغير ذلك.

وكان الأجدر به أن يسمي هؤلاء على الأقل، وأن يشير منها إلى المخطوط أو

المطبوع كما فعل في بعض فصول الكتاب.

٤ ـ في كثير من فصول الكتاب، يذكر المؤلف أسماء المؤلفين في موضوع الفصل وأسماء كتبهم، ولكن بطريقة سردية خالصة، وكان الأفضل أن يشرح غاية الفصل وبحثه والمقصود منه.. ثم يورد في نهاية الفصل قائمة بأسماء الكتب ومؤلفيها الذين ألفوا في موضوع الفصل، بدلاً من السرد الممل الذي انتهجه المؤلف، والذي يضطر القارئ لقراءة الفصل كاملاً بينما هو مجرد بيان بأسماء الكتب والمؤلفين صيغ بطريقة أخرى طويلة لا لزوم لها.

قد يقول المؤلف: إنني فعلت ذلك لأنني أضطر أحيانًا إلى وصف بعض الكتب أو الإشارة إلى بعض الجوانب فيها، وأقول جوابًا على ذلك: إنه كان يمكن أن يصدّر الفصل ببحث عن موضوعه، ثم يثني بوصف الكتب أو ذكر الجوانب التي يرى أنها مهمة فيها، ثم قائمة المؤلفات عمومًا.

وتلك هي ملاحظاتي المتواضعة.. وهي ملاحظات لا تقلل أبدًا من أهمية الكتاب وريادته.

البلاد ١٣٩٢/٢/٧هـ

الأدب العربي في آثار الدارسين

اعتادت الجامعة الأمريكية في بيروت.. أن تطرح بين عام وآخر أحد الموضوعات الفكرية أو الأدبية.. وتعهد إلى مختصين بدراسته ومناقشته.. ثم تجمع هذه الدراسات والمناقشات وتصدرها في كتاب.. و(الأدب العربي في آثار الدارسين) أحد هذه الكتب.. وقد صدر منذ حوالي ثماني سنوات أي ١٩٦١م.. ولكن لم يتح لي الحصول والاطلاع عليه إلا مؤخرا..

واعتقد أن قيمة هذا الكتاب لا يمكن أن تتأثر بزمن لا من ناحية قيمته الفكرية، وهي ناحية لا غبار عليها.. وإنما من ناحية أن هذا الكتاب سيظل خير عون للباحثين والدارسين؛ ذلك لأنه يعرض لما (أسهم به المؤلفون العرب في المائة سنة الأخيرة في دراسة الأدب العربي).. وهذا الموضوع على جانب كبير من الأهمية.. فما بالك وقد طرق الموضوع - بين دفتي الكتاب - عدد من المختصين تناوله كل واحد منهم من زاوية أخرى على النحو التالي:

١ - العصر الجاهلي - الدكتور صالح أحمد العلي.

٢ - صدر الإسلام - الدكتور وليد عرفات.

٣ - العصر الأموي - الدكتور جبرائيل جبور.

٤ - الشعر العباسي حتى آخر عهد المتنبي - الدكتور أنطون كرم.

٥ - الشعر العباسي من المتنبي حتى سقوط بغداد - الدكتور عمر فروخ.

٦ - النثر في العصر العباسي - الأستاذ موسى سليمان.

٧ - الأدب الفاطمي - الدكتور محمد كامل حسين.

٨ - الأدب في الأندلس والمغرب - الدكتور احسان عباس.

٩ ـ الأدب العــربي من ســقــوط بغــداد حتى أوائل النــهــضــة ـ الدكــتـور شكرى فيصل.

١٠ ـ الفنون الأدبية ـ الدكتور محمد يوسف نجم.

ومـعـذرة لإيـراد هـذا الـفـهـرس لـلـمـوضـوعـات.. فـقـد تـراءى لي أن إيـراده مـن الضرورة بمكان ليتبين لقارئ هذا المقال أهمية وخطر الموضوعات التي تصدى لها هؤلاء الكتاب من ذوي الاختصاص.

قدم كل واحد منهم لموضوعه بدراسة تحليلية ـ لوحظ أن جميع الموضوعات روعي فيها الإيجاز الشديد ـ ثم ألحقها بفهرست شامل للكتب والمقالات التي أمكنه الاطــلاع عليها أو العلم بها مما صــدر في المائة سنة الأخيرة ومما يتعلق بالموضوع..

وهكذا أصبح لدى الباحث إمكانية الإلمام بجانب كبير مما صدر من الكتب والمقالات في المائة سنة الأخيرة مما يبحث في الموضوعات الآنفة الذكر..

وتلك لَعَمري أهم ميزة من مزايا هذا الكتاب.. ذلك لأنها ستقدم للباحث عونًا كبيرًا. وتسهيلاً ميسورًا يهديه لمصادر أية دراسة يود أن يقوم بها في أي جانب من جوانب هذه الموضوعات.

فضلاً عن أن هذا الكتاب قد سجل ـ سواء عن طريق الدراسة أو الفهارس ـ الملامح والســمات الفكرية والأدبية خــلال مائة عام، وهذه وحدها ميزة أخرى مهمة.

ولا أود أن أستمر في سرد مزايا هذا الكتاب.. كذلك لا أهدف لمناقشة الآراء والأفكار التي ضمها بين دفتيه.. لأن قيمة الكتاب عندي لا تنحصر في هذه الدراسات الموجزة عن موضوعات هامة.. وإنما تأتي قيمة الكتاب في الدرجة الأولى من هذه الفهارس للمقالات والكتب التي تحتل ـ أي

الفهارس ـ معظم صفحات الكتاب..

والعجيب جدًّا أن هذا الكتاب يسير على نفس النهج ـ تقريبا ـ الذي انتهجه ابن النديم في كتابه (الفهرست).. أي أن ابن النديم قد سبق الجامعة الأمريكية إلى هذه الفكرة.. إلا أن ابن النديم لم يحصر موضوعاته بفترة معينة.. وإنما قسم كتابه إلى عشرة أبواب أو عشر مقالات ـ كما يسميها ـ كل مقال في علم أو فن من الفنون، ثم يتبع المقال ببيان أسماء الكتب التي أُلّفت في موضوعه..

والعجيب الأعجب أن تتبع الجامعة الأمريكية نفس التقسيم فقد جعلت من كتابها هذا عشرة أقسام كل قسم لموضوع بعينه متبعة إياه ببيان أسماء الكتب التي تتعلق به وصدرت في المائة سنة الأخيرة؟

ترى ماذا ترك الأول للآخر؟

وهذه مجرد ملاحظة عابرة لم أقصد بها المقارنة بين كتاب وكتاب..

بقي أن أشير إلى أن الفهارس لا تشمل كل ما صدر من الكتب والمقالات والأبحاث خلال المائة سنة الأخيرة.. وإنما تشمل كل ما أمكن لمؤلفي الكتاب الاطلاع عليه أو العلم به.. ولقد اشتكى معظمهم مر الشكوى من المعاناة التي كابدها كل واحد منهم في سبيل الحصول على ما قدم من فهارس.

حاجة الباحثين إلى الفهارس المنظمة

والحديث عن هذا الكتاب (الأدب العربي في آثار الدارسين) يجرنا إلى الحديث عن الحاجة الماسة التي يعانيها الباحث العربي عند البحث عن المصادر والمراجع التي تهمه..

ترى من المسؤول عن عدم وجود فهارس منظمة للمطبوعات العربية في كافة أقطار العروبة أو غيرها؟

طرحت هذا السؤال على نفسي.. فتذكرت على الفور كتاب (ثقافتنا في جامعة الدول العربية) للمرحوم الأستاذ ساطع الحصري.. وهناك وجدت الجواب فعلاً.

إن المسؤول عن عدم وجود فهارس منظمة للمطبوعات العربية هو (الإدارة الثقافية) بجامعة الدول العربية.. فلقد أشار الأستاذ ساطع الحصري في كتابه الآنف الذكر ص٥٨ ط بيروت، إلى أن اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية قد قررت عام ١٩٤٨م أن تقوم الإدارة الثقافية بالجامعة بطبع وتوزيع فهرست دوري يشمل كل ما يطبع وينشر من الكتب والمجلات في مختلف البلدان العربية، وذلك بعد أن تقوم بتوجيه الدعوة لوزارات المعارف وإدارات المطبوعات في كل بلد عربي لموافاتها بفهرست دوري بالكتب والمجلات.

ولكن هذا القرار لم يوضع قط موضع التنفيذ لدى الإدارة الثقافية بالجامعة.. كأنما هي تنتظر لتنوب عنها الجامعة الأمريكية في هذا الصدد.. وربما غيره..

البلاد ١٣٨٩/٦/٢١هـ

قصة الأدب في اليمن

«لعل الأدب اليمني هو الأدب الوحيد - بين آداب اللغة العربية - الذي لم يُعنَ به الأدباء.. لا أقول العناية التامة.. بل حتى ولا القليل منها.. لا من قبل أدباء اليمن ولا من قِبَل أدباء العربية ومؤرخي آدابها في الأقطار الأخرى على السواء.. النثر منه والشعر.. المحكم، والحميني، والقديم والحديث».

تلك هي فقرة من المقدمة التي وضعها مؤلف هذا الكتاب (قصة الأدب في اليمن)، الأستاذ أحمد محمد الشامي بين يدي كتابه هذا الذي نحن بصدد استعراضه اليوم، وإن كان قد مضى على صدوره حوالي سبع سنوات فهو قد طبع عام ١٣٨٥هـ، إلا أنه لا يزال يتمتع بالجدة في موضوعه.

ويرى الأستاذ الشامي - ورأيه الحق - أن من أسباب ذلك، أسباب عدم عناية المؤرخين والأدباء العرب وغير العرب بالأدب اليمني - أن (اليمانيين لم يُعنَوْا بنشر تراثهم وكتبهم، ودواوين شعرائهم، وآثار أدبائهم، ولم ينفقوا ما يجب في سبيل بثها ليسهل على الأدباء في الأقطار العربية الشقيقة قراءتها ودراستها والاطلاع عليها فيحتفوا بها ويقدروها حق قدرها).

ويرى أيضًا - أي المؤلف - أن كبار أدباء العربية لم يبذلوا أي مجهود أو محاولة لكشف النقاب عن (الكنز الدفين)، ويقول بأن مخطوطات يمنية جمة، وأن (بعض فضلاء اليمن وعددا من المستشرقين قد عُنُوا بطبع عدد قليل من تلك الآثار الفكرية، وأن كل ذلك كان يستحق أن يشار إليه وأن يقتبس منه.. بل ويصلح أن يكون مصدرًا غنيًا لبحث ودرس وتاريخ)!

وما أشار إليه الأستاذ الشامي حقيقة واقعة ليس بالنسبة للأدب اليمني

فحسب، بل لكثير من آداب الأقطار العربية الأخرى، فمعظم الدارسين يكتفون بدراسة الحركة الأدبية في مصر أو سوريا أو لبنان أو بغداد على أكثر تقدير!!

أما بقية الأقطار العربية. وهي الكثرة الكاثرة، فنصيبها من هذه الدراسات ضئيل جدًّا.. بل شبه معدوم، فكان ينبغي أن يلاحظ الأستاذ الشامي ذلك ويشير إليه، وهو قد لاحظه لا شك، إلا أنه يؤلف عن (قصة الأدب في اليمن) وليس في الأقطار العربية الأخرى، على أنه قد أشار إلى ذلك من طرف آخر عند التماسه (العذر لأدباء اليمن، ولأساتذة تاريخ الأدب العربي) ليجنبهم (نصف قرن أخرس).. إلخ.

والحقيقة أن هذا الموضوع - موضوع ضرورة العناية من قبل الأدباء العرب، وأساتذه التاريخ العربي بآداب الأقطار العربية في المغرب والمشرق والشمال والجنوب - يجب أن يكون موضع بحث ونقاش، فالإهمال الذي تتعرض له آداب الكثير من الأقطار العربية، وضعف معلومات القارئ العربي في كل قطر بآداب الأقطار الأخرى أمر يؤسف له خاصة في عصر النهضة، ويُسر وسائل المواصلات ووفرة أسباب الاتصال.

ولنَعُد إلى (قصة الأدب في اليمن).. إن هذا الكتاب خطوة رائدة في ميدان التعريف بالأدب اليمني ودراسته، ومؤلفه من خيرة رجالات أدباء اليمن البارزين.. بل هو أيضًا من كبار المسؤولين في اليمن، وقد تقلد عدة مناصب هامة في عهود مختلفة في بلاده.

وواضح من جهوده البارزة التي بذلها في تأليف هذا الكتاب، أنها تكاد تضاهي ما لاقاه من عنت ومشقة في تقلد المناصب ومسؤوليات الحكم!!

وأنا على يقين بأن الأستاذ الشامي، لو تيسرت له أسباب التفرغ من

مسئوليات السياسة والحكم لأمكنه أن يملأ رفا كبيرا في المكتبة العربية عن تاريخ الأدب في اليمن.. بل عن التاريخ اليمني عموما، فهو واسع الاطلاع، غزير الثقافة والمعرفة، وهو إلى جانب ذلك قد عارك الحياة اليمنية في قمة وذرى أطوارها وعركته وعركها، فهو لذلك يعرف من أسرارها وخفاياها الشيء الكثير!!

وهو إلى جانب ذلك ولوع بالأدب والشعر، فهو شاعر، إلى حد الهيام والفتنة!!

ويكاد يكون كل رجالات اليمن شعراء أيضًا.. وليس الأستاذ الشامي فحسب.. وهذه خاصية مشهورة عن القطر اليمني الشقيق!!

وأذكر أنني اجتمعت به - أي الشامي - قبل سنوات في فندق اليمامة بالرياض فرأيته منكبًا على أوراق بين يديه، وكان أيامها (وزير خارجية). فلم أستطع أن أميزه من هيئته وطريقة انكبابه على الورق، هل كان في شأن سياسي أم أدبي؟. ذلك لأنه يعيش في السياسة بروح الأديب، وفي الأدب بحنكة السياسي!!

ولذلك جاء كتابه (قصة الأدب في اليمن) على غاية من الحنكة والذكاء واللباقة وسعة المعرفة، فإنه في بعض فصول الكتاب، وخاصة في الفصول التالية:

١ ـ حضارة اليمن.

٢ ـ مع علماء التاريخ.

٣ ـ اللغة.

٤ ـ الشعر والشعراء.

قد أوفى مع الإيجاز الشديد - أهم جوانب هذه الفصول في اليمن.

وأنه مثلاً في فصل (المسند)، وقد أفرد له ١٤ صفحة، وهي قليلة جدًا

بالنسبة للموضوع إلا أنه لم يترك شاردة أو واردة مع هذا الموضوع بالذات قد طرق كثيرا من قبل أدباء ومؤرخين من العرب والمستشرقين، إلا أنه لا ينبئك مثل خبير!!

وكنت أود أن أستعرض جميع فصول الكتاب، وأناقش فيما يعن لي، ولكن سيطول بي ذلك والحيز محدود، وأملي أن تسعدني فرصة مواتية للعودة إلى الكتاب في بحث أوسع ومجال أرحب، فهو جدير بالمناقشة والعرض والتحليل.

أما الآن فإنني أختتم هذه الدراسة المتواضعة بإيراد بعض الملاحظات التي دونتها أثناء مطالعاتي للكتاب.

١ ـ بدا لي أن المؤلف شديد الضن بمصادره!! أو هو كثير الحرص على الإيجاز، أو هو ما لست أدري، لا يشير عندما يورد كثيرًا من النصوص إلى صفحات أو أجزاء الكتب التي ينقل عنها، ومن ذلك ـ مثلاً ـ عندما يقول: (ففي كتاب الأغاني عن الأصمعي أنه سئل.. إلخ) ثم يورد النص ولكن دون إشارة إلى الجزء المنقول منه ورقم الصفحة، والمعروف أن كتاب الأغاني يزيد عن ٢٠ جزءا وكل جزء يتكون من مئات الصفحات، فأين النص في هذا الخضم من الصفحات والأجزاء؟

ومما يزيد دافعنا في مؤاخذة المؤلف بهذا الشأن المهم، أنه قد أشار فعلاً إشارات قليلة إلى بعض مصادره ويذكر رقم الصفحة أيضًا.. بينما الكثير جدًّا من النصوص لم يشر إلى موضعها في مصادره، وفي ذلك ما يدعو إلى التقليل من شأن كتابه في اعتبارات النهج الحديث في التأليف.

والأدهى من ذلك أن المؤلف لم يثبت قائمة مراجعه في الكتاب!!

٢ ـ **فهرست أعلام أدباء اليمن**، أورده المؤلف حسب ترتيب ورودهم في

الكتاب، يذكر رقم الصفحة.. ثم يذكر الأسماء التي وردت فيها، سواء كان هذا الاسم يبدأ بحرف الياء أو بحرف الألف، ومثل هذا الفهرس لا يؤدي الغرض منه، وهو تيسير العون للباحث، ولو أن المؤلف قد اعتمد طريقة الترتيب الأبجدي في الفهرس ثم ذكر رقم الصفحة لكان ذلك أجدى وأوفى كما هو معتاد فعلاً في هذا الشأن.

٣ ـ ليس هناك أي فهرس للأعلام من غير اليمنيين ممن ورد ذكرهم في الكتاب، والمفروض أن يكون في الكتاب مثل هذا الفهرس للأعلام اليمنيين أو غيرهم كما هو المعتاد أيضًا في هذا الشأن خاصة وقد ورد ذكرهم في الكتاب!

٤ ـ ليس هناك فهرس المواضع، مع أن هناك مواضع كثيرة مهمة قد ورد ذكرها في الكتاب.

٥ ـ إقحام المؤلف بعض الشؤون السياسية في كتابه.. وأذكر أنني عندما التقيت بالأستاذ المؤلف، كان قد جرنا الحديث إلى الإشارة إلى هذه الناحية في كتابه، فقال إنه قد تنبه لها وإنه سيحذفها من الطبعة أو الطبعات القادمة - إن شاء الله.

٦ ـ أفاض المؤلف كثيرًا في النصوص التي نقلها أو اختارها لشعراء اليمن بحيث احتلت نصف الكتاب تقريبًا، دون أن يترجم للشعراء المختارين لأنه لا يزيد (أن يكون تاريخنا للأدب اليمنى كتاب تراجم ووفيات) ومع ذلك فهو قد ترجم لستة شعراء، وكابد (عظيمًا من الضنى والجهد، وأفنيت كثيرا من الوقت والتفكير كي أميز أخبارهم وأحدد أنسابهم وأزمانهم) إلخ.. فهو بذلك يعترف بمدى أهمية التراجم في تاريخ الأدب اليمني أو غير اليمني، وهو نفس الوقت لا يريد أن يكون تاريخ الأدب اليمني تراجم ووفيات.. وأن كان

يبرر ترجمته لهؤلاء الشـــعـراء الستة بأنهم: (في الواقع أسماء كل اسم منها علم لشاعرين كبيرين، وكثيرًا ما تتردد أسماء هؤلاء الشعراء غير مميزة، وتختلط أخبارهم وأشعارهم دونما تحديد، ولكي أجنب المؤرخين والباحثين المشقة والحيرة كان لا بد أن أقف وقفة قصيرة للتعريف بهم واحدًا واحدًا).

والأسـتـاذ الشـامـي يـعـلـم أن الـغـالـبـيـة الـعـظـمـى ممن اخـتـار لـهم المقـطـوعات الشعرية التي احـتـلـت حوالي نصـف الكتاب غير معروفين لـدى الأدبـاء الـعــرب، فـكـان أحـرى بـه أن (يـجـنب الـبـاحـثين والمؤرخين المـشـقـة والحـيرة) فـيترجـم لـهؤلاء الـذيـن اخـتـار لـهـم المقـطـوعـات الشعرية، ولو بشكل موجز.

وبعد فالكتاب جدير بالعناية والبحث والدرس، فهو كما أسلفت خطوة رائدة في ميدان التعريف بالأدب اليمني ودراسته.

البلاد ١٤/٢/١٣٩٢هـ

الحمينى والموشحات الأندلسية

ظهرت الموشحات الأندلسية في الأندلس، بعد الفتح الإسلامي وما تلاه من تناحر وفتن حتى استقر الوضع تمامًا.. وحتى اندمج أهل الأندلس مع العرب الفاتحين إلى حد أنهم ـ أي أهل الأندلس ـ قد نسوا لغتهم تماما ـ فضلاً عن ديانتهم ـ وأقبلوا على اللغة العربية وآدابها إقبالاً منقطع النظير حتى أجادوا في ذلك وأفادوا.

وهذه سنة الحياة، وحتمية التاريخ.. حيث المغلوب لا بد أن يقلد الغالب ويحاكيه في جل شؤونه وثقافته ولغته.. فكيف إذا كان هذا الغالب ـ أقصد الفتح الإسلامي ـ لم يأت أصلاً لمجرد أن يغلب وأن يشعر بعزة الظفر ونشوة النصر.. وإنما جاء لينشر دين الله الحق.. وليحرر الشعوب من عبوديتها وربقتها.. ثم يترك لها الخيار بين الدخول في دين الله طوعًا.. أو البقاء على دينهم مع دفع الجزية.. وحتى الجزية لم يكن القصد منها مجرد قهر الشعوب أو هضمها.. وإنما كانت ـ أي الجزية ـ لحكمة وأسباب كثيرة.. ليس هنا مجال ذكرها.

مثل هذا الفاتح لا بد أن يؤثر تأثيرًا كبيرًا في الشعوب التي يحررها من ربقتها وعبوديتها أكثر من أي فاتح آخر يكون قصدة مجرد الفتح في حد ذاته لقهر الشعوب وإذلالها واستغلال ثرواتها.

فلا غرابة أن يبلغ تأثر أهل الأندلس بذلك الفاتح العربي المسلم ذلك الحد من التأثر الذي نسوا معه لغتهم وثقافتهم وتقاليد حياتهم، وقبل ذلك ديانتهم المسيحية نفسها.

وكان للثقافة العربية النصيب الوافر من تأثر الأندلسيين بالعرب وتقليدهم

ومحاكاتهم.. ولكن ذلك لا يمنع بقاء بعض الرواسب في نفوس القوم من بقايا عاداتهم وتقاليدهم وآدابهم وفنونهم.. حتى إنهم عندما أرادوا محاكاة الشعر العربي لم تسلم محاكاتهم من تلك الرواسب الباقية المتأصلة في نفوسهم من آدابهم وفنونهم وثقافتهم القديمة فجاءت محاكاتهم للشعر العربي الفصيح وعروضه وأوزانه، مزيجًا مما ثقفوه منه ومما هو متأصل في نفوسهم من آدابهم وفنونهم.. وبخاصة في مجال الشعر الغنائي بالذات الذي يتطلب مراعاة خاصة للإيقاعات الموسيقية.

وكان العرب في الأندلس ـ بعد استرخاء الفتح ـ قد مالوا إلى اللهو والترف فجلبوا المطربين والمطربات من المشرق.. من بغداد والمدينة المنورة وغيرهما.. فكان هذا أيضًا مصدرا جديدا من مصادر تأثر الأندلسيين بالفنون العربية أيضًا.. ولكن أهل الأندلس أهل ترف ونعيم وطرب وغناء.. فكان لا بد، وقد ثقفوا الفن العربي أن يمزجوه أيضًا بما هو متأصل في أعماقهم من فنونهم فنتج عن ذلك بطبيعة الحال ما يمكن أن نعتبره مزجًا بين الفن العربي المشرقي وبين الفن الأندلسي.

وكان لا بد لهذا المزج في الثقافة والفن أن ينتج ثقافة أو أدبا أو شعرا بطابع خاص مميز.. وبخاصة ـ مرة أخرى ـ في مجال الشعر الغنائي حيث لا بد أن يوجد الشعر المميز الذي يمكن أن يتناسب مع الإيقاعات الجديدة الممزوجة، المشرق والمغرب.

ومن هنا ـ بحكم طبيعة الأشياء.. أو في تصوري على الأقل ـ نشأ ما يسمى بالموشحات الأندلسية، وهي ضرب من الشعر امتاز بلينه ورقته وسلامته.. ثم بخروجه عن عروض الخليل وحتى عن قواعد سيبويه أحيانًا.. بل وجدت فيه خرجات أعجمية خالصة!!

وكان الترف واللهو قد بلغ أشده في شتى أنحاء الخلافة الإسلامية حينذاك

فشاع الترف واللهو والطرب بصورة لم يسبق لها مثيل، وإن كانت لها جذور قديمة.. سواء في المشرق أو المغرب دون شك.

شاع اللهو والطرب إلى حد أن الخلفاء والأمراء والوزراء وسراة القوم - في المشرق والمغرب على السواء - يتهادون الشعر والأدب والطرب.. فالعربي في المغرب يستقدم زرياب أو غيره من المشرق.. والعربي في المشرق تأتيه القيان المجيدات للغناء والطرب من شتى الأنحاء - بما في ذلك الأندلس بطبيعة الحال.

وكانت الموشحات الأندلسية بطابعها المميز ورقتها وسلاستها وجدّتها أيضًا وامتيازها بنكهة خاصة متقاربة إلى حد بعيد مع الذوق العربي، وخاصة في مجال الغناء والطرب.. فكانت لا بد أن تنتشر انتشارًا كبيرًا في المشرق والمغرب على السواء لأنها تلامس الذوق المغربي، وتساير منذ البداية ذوق المشرق.

ومن هنا ذهب فريق كبير من أدباء العربية ونقادها - فيما بعد - إلى أن هذه الموشحات الأندلسية ذات أصل عربي خالص.. ولم تنقصهم الأدلة والبراهين على ذلك؛ إذ إن الموشحات ذات جذور عربية بالفعل.. بل إنها نشأت أصلاً متأثرة بالشعر العربي واللغة العربية والذوق العربي.. ولكن مع خليط أو مزج أو نكهة خاصة من الذوق الأندلسي أيضًا ولغته وثقافته وفنه، لا شك في ذلك!!

وذهب فريق آخر، معظمه من المستشرقين الناقمين على العربية وآدابها وفنونها فقالوا بأن الموشحات الأندلسية إنما هي أندلسية خالصة ذات إيقاع وأوزان استمدها أهل الأندلس من موسيقاهم وأدبهم.

ولكن هذا الفريق الآخر تعوزه الحجة، وينقصه المنطق، ويدفعه الهوى والغرض.. فلم يجد من الحجج التي يمكن أن يحتج بها غير وجود بعض تلك الخرجات الأعجمية الأندلسية الموجودة في بعض تلك الموشحات.. وهي حجة

واهنة.. ذلك أن وجود الخرجات الأعجمية أو اختلاف الأوزان لا ينفي الجذور العربية للموشحات، وأقرب دليل على ذلك - وإن كنا لا نحتاج إلى أدلة لدحض مثل هذه الفرية - أن الموشحات قد قيلت باللغة العربية أصلاً.. وفي هذا وحده ما يكفي لاثبات جذرها العربي، فضلاً عما أشرنا إليه في صدر هذا المقال.. وفضلا عما لم نذكره لضيق المجال.. أو حتى لعدم الحاجة إلى ذكره.

وأخيرًا برز تيار جديد من بين أدباء العربية، يتزعمه في المقدمة الأديب اليمني الشهير الأستاذ أحمد محمد الشامي، وتبعه آخرون لعل أحدثهم على الإطلاق الأديب الجازاني الشاب الأستاذ عبدالرحمن الرفاعي.

يقول هؤلاء الأدباء - ويؤكدون أقوالهم بكثير من الأدلة والنصوص والحجج والبراهين - إن الموشحات الأندلسية إنما هي في الأصل مستمدة من الشعر الحميني اليمني المشهور.

وقد وصل الأمر - في هذا الصدد - إلى أن الأستاذ عبدالرحمن الرفاعي قد أفرد كتابًا بأكمله يقع في ٢٢٤ صفحة من القطع المتوسط صدر أخيرًا عن النادي الأدبي بجيزان وعنوانه (الحميني الحلقة المفقودة في امتداد عربية الموشح الأندلسي).

أفرد كتابه هذا بأكمله لحشد من النصوص القديمة والحديثة.. أراد أن يثبت بها أن الشعر (الحميني) اليمني هو الأصل الحقيقي للموشحات الأندلسية متابعًا في ذلك آراء الأستاذ الشامي وفريقه في هذا الشأن.. بل توسع فيه كما لم يتوسعوا.. وتحمس كما لم يتحمسوا.. ربما لطبيعة الشباب.. وربما لحرارة المنطقة - وهذه دعابة - وربما - وهذا هو الأرجح - لغيرته الشديدة على عروبته، وخاصة حين وجد من المستشرقين من يريد أن يسلخ منها جزءًا مُهمًّا عزيزًا من تراثها!!

ولسنا هنا بصدد إيراد الحجج والبراهين التي يستند إليها الأستاذ الشامي أو

الأستاذ الرفاعي.. ولو أردنا ذلك لما استطعنا لكثرتها.. وأما عن هذه الحجج أو تفنيدها فهو يحتاج إلى مجلد بأكمله.

ولكن - مهما يكن من أمر - فإن من الثابت أن الموشحات الأندلسية ذات جذور عربية دون شك.. ولم يقل بغير هذا غير المغرضين سواء من المستشرقين أو مَن تأثر بهم وقلّدهم في تعسفهم المنهجي، وخاصة حين يكون الأمر متعلقا بالعروبة والإسلام.. ذلك لأن الاستشراق من أساسه لم يوجد إلا لمحاربة العروبة والإسلام وبث الشكوك في تراثهم وأمجادهم ليوهنوا من عزتنا وفخارنا.. وليجدوا السبيل - بعد ذلك ممهدًا لأغراضهم الاستعمارية البحتة!!

ولكن لا بد من كلمة عارضة هنا - لمجرد الإنصاف - وهي أن رجال الاستشراق قد برز منهم عدد من المنصفين.. بل برز منهم من خدم اللغة العربية وآدابها خدمات جُلَّى.

ونعود الآن إلى مسألة كون الموشحة الأندلسية، ثابتة الجذور العربية دون شك.. ولكن أن تكون هذه الجذور هي الشعر (الحميني) اليمني فذلك هو الجديد حقًّا في مسألة عروبة الموشحات الأندلسية.. فقد كنا نكتفي بالقول إن الموشحات الأندلسية ذات أصل عربي لا شك فيه.. ولكننا لم نجد من يقول إن هذا الأصل العربي هو في بغداد أو نجد أو الحجاز أو غير ذلك من الأصقاع العربية!!

أما وقد وجدنا الآن من أدبائنا من يقول إن الموشحات الأندلسية ذات أصل عربي، ومن اليمن بالذات.. وإن هذا الأصل العربي اليمني ما زال على قيد الحياة إلى الآن ممثلاً في الشعر (الحميني) في اليمن.. فهذا مجال بحث جديد حقًّا.... ولا يمكن - لأهمية الموضوع - أن نكتفي فيه بما قيل أو

صـــدر حتى الآن ســواء عن الأستاذ الشــامي أو الأستاذ الرفاعي، رغم توســعهما في القول.. بل لا بد أن يخضع هذا الأمر لمزيد من البحث والتقصي.

ولكن ما دامت قد انطلقت الشرارة الأولى.. فلا بد أن يتبعها المزيد.. ولا بد أن نقرأ بعد ذلك الكثير من الأبحاث المنهجية المتأنية في هذا الصدد.. فلعل وعسى!!

القرآن.. وطه حسين

قرأت كتاب الدكتور طه حسين (في الأدب الجاهلي) منذ مدة طويلة، وقرأت عنه أيضًا معظم ما كتب نقدًا له، وكانت لي عليه بعض التهميشات المتواضعة أثناء قراءتي له، ولم أظن أن أكتب عنه أو أعود إليه.

ولكن البارحة وقد أعياني الحصول على كتاب جديد، كنت أفتش في مكتبتي عن كتاب ما فوقع نظري عليه، فكان هو نصيبي في مطالعة البارحة.

وقد عن لي أن أناقش موضـوعًا بذاته من موضـوعات الكتاب أو بالأصح رأيًا بذاته من آراء الدكـتور طـه حسين على كثرة ما له مـن آراء جـريئـة في هذا الكتاب.

وأرجو أن لا يعتبر مقالي هذا ردًّا على الكتاب أو نقدًا له، وإنما هو مجرد (مذاكرة!) في نقطة بذاتها ليس غير، حيث استوقف انتباهي رأي من أعجب آراء الدكتور طه حسين في هذا الكتاب، وهذا الرأي العجيب ليس هو اتهامه المشهور بأن معظم الشعر الجاهلي (إنما هو نحل الرواة أو اختلاف الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين) فقد يكون له في ذلك بعض الحق حيث إن الانتحال في الشعر العربي جاهليّه وإسلاميّه أمر ثابت في تاريخ الأدب العربي ودوافعه وأسبابه معروفة مشهورة، ولكن ليس إلى الحد الذي بلغه طه حسين بنسفه الشعر الجاهلي من جذوره.

كل ذلك عجيب أو غير عجيب من الدكتور طه حسين، ولكن الأعجب منه حقًّا أن يجعل الدكتور طه حسين من عدم معالجة الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا للحياة الدينية والسياسية والاقتصادية إلخ، أكبر دليل عنده على أنه - أي الشعر الجاهلي - منحول وأنه لذلك - أي طه حسين - يتخذ من القرءان مرآة للعصر الجاهلي أكثر مما يتخذ من الشعر الجاهلي مرآة لذلك العصر، لأنه - أي

القرآن - قد عكس جوانب كثيرة من تلك الحياة الجاهلية في معظم جوانبها الدينية والسياسية والاقتصادية إلخ.

ولست أدري كيف فات على أديب عظيم مثل طه حسين أن الأدب الجاهلي - وهو الذي لم يدون إلا أقله - لم يكن يعني - كما هو مفهوم الأدب الآن - بتصوير الحياة سياسة أو اقتصادًا أو اجتماعا إلخ.

وفي الأساس لم تكن العرب في جاهليتها دولة حتى يكون لها كيان اقتصادي أو سياسي أو اجتماعي، وإنما كانت قبائل مجزأة مشتتة يحارب بعضها بعضًا، وينهب ويسلب ويعتدي بعضها على بعض، فكان النظام القبلي هو السائد، والقبيلة في جزيرة العرب مهما عظمت لا يمكن أن يكون لها طابع سياسي أو اقتصادي معين ثم كم هم الشعراء الجاهليون الذين وصلت إلينا بعض أشعارهم؟.

إنهم قلة، وكل واحد منهم أو ربما أكثر من واحد يمثل قبيلة بذاتها، فيكف يريد طه حسين من هذا الذي وصل إلينا من الشعر الجاهلي أن يمثل الحياة الجاهلية في جميع مناحيها، وإلا فهو منحول؟!

ونحن نعرف أن الشعر الجاهلي لم يكن يعبأ بغير وصف منظر أو سنحة خاطر أو تفاخر أو منافرة أو غزل أو غير ذلك مما يحوم حول هذه المعاني.

وأكثر ما يمكن أن يمثله من المعاني التي يريدها طه حسين بالنسبة للحياة الاجتماعية مثلاً هي ما يمكن أن يذكره هذا الشعر عرضًا عندما يذكر المربع والمشتى والخيمة وبعر الآرام في العرصات ودارة جلجل والمطر وصبا نجد والخزام والعرار والنخيل والإبل وقعبان اللبن وما إلى ذلك.. فتلك أشياء مشهورة كثيرًا في الشعر الجاهلي وهي حياة القوم الاجتماعية، في الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا.

أما بالنسبة للجانب السياسي في الحياة الجاهلية.. فأعتقد أن الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا حتى ولو كان بعضه منحولا يمثل الحياة السياسية للجاهليين خير تمثيل - وإن كان ولا بد من ذلك، وهل الحياة السياسية للجاهليين إلا غزو قبيلة لأخرى، وحمى مرعى، واغتصاب قافلة مع عزلة شبه كاملة عن العالم (لنا في موضوع العزلة رأي سيأتي بعد)، وذلك ما حفل به

الشعر الجاهلي كثيرًا فإننا نكاد نجد شعرًا جاهليًا في كل يوم من أيام العرب.

ومعروف أنه لم تكن للعرب في جزيرة العرب حكومة مثلاً يمكن أن تقيم علاقات سياسية أو اقتصادية مع الدول الأخرى حتى يكون هناك طابع سياسي أو اقتصادي معين يمكن أن يشير إليه الشعر الجاهلي.

فأما الناحية الدينية التي يركز الدكتور طه حسين عليها كثيرًا.. أو بالأصح يركز على أنها لم تمثل في الشعر الجاهلي بقدر ما مثلت في القرآن الكريم فهذه نقطة مهمة بالفعل، ولكن أود أن أوضح أن الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا لم يدون إلا في عصر التدوين في صدر الإسلام، وكان رجال التدوين من أعلام الإسلام الأجلاء فليس من المعقول أن يدونوا الشعر الخاص بالأصنام والوثنيات أو الديانات إليهودية أو النصرانية أو المجوسية، وقد نجاهم الله من كل ذلك بالديانة الإسلامية.

ولقد كان تدوين الشعر الجاهلي في صدر الإسلام لا لشيء إلا لكونه شاهدًا من شواهد القرآن واللغة أيضًا، وقد اجتهد في ذلك رجال التدوين على قدر ما يريدونه من الشعر الجاهلي لا على قدر ما يريده الدكتور طه حسين منه تبعًا للمفاهيم التي لم يحسب حسابها الشعر الجاهلي نفسه ما دون منه وما لم يدوّن، ولا حسب حسابها أيضًا رجال التدوين في صدر العصر الإسلامي. فأما القرآن الكريم فإنه قد ركز على النواحي الدينية في الجاهلية في معرض الرد عليها وإظهار مساوئها وفسادها.. ولم يكن همه أن يؤرخ الحياة الدينية في الجاهلية أو غيرها.. فالقول إذن بأن الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا منحول كله لأنه لم يمثل الحياة الدينية فيه شيء كثير من الاعتساف للمنطق والضعف في الحجة والخذلان في البرهان.

أما الناحية الاقتصادية في الجاهلية وفي صدر الإسلام أيضًا.. فلم تكن غير زراعة وماشية ومرعى وما شابه.. ومع ذلك فقد كان للعرب في الجاهلية أسواقهم وأشهرها مثلاً سوق عكاظ.. وقد كان أكثر ما يتبادل في هذه الأسواق منتوجات العرب أنفسهم من بر وسمن وأقط أو شراء أسلحة من

خناجر وسيوف ورماح إلخ.

أما الأقمشة فكانت تأتي من اليمن والبرد اليماني مشهور - وكذلك كانت تأتي من الشام أيضًا ومعها الطيب الخ.

ولذلك كانت قريش سادة تجار العرب لعدة اعتبارات، أهمها وجود الكعبة المشرفة في جوارهم وكانت عندهم - أي قريش والعرب كافة - مقدسة وأصنامهم معلقة بها ويحجون إليها.

وكذلك سوق عكاظ وهو على مقربة من مكة المكرمة وضمن ديار قريش، وقد كان سراة العرب من رؤساء قبائل وفرسان وشعراء يفدون إلى هذه السوق للمفاخرة والمنافرة من جهة ولشراء ما يلزم وبيع ما معهم من جهة أخرى، وطبعا لم يكن يلزمهم من بيع وشراء أكثر من بر وسمن وأقط وسيف ورمح وخنجر إلخ. فماذا يريد طه حسين من حياة اقتصادية للجاهليين؟

ولكننا نستثني قبيلة قريش من ذلك فلقد تنبهت هذه القبيلة إلى ما يمكن أن تفيده من تجمع العرب حولها وحجهم إلى الكعبة المشرفة واجتماعاتهم السنوية بسوق عكاظ فكان من الطبيعي أن تفكر في التجارة الخارجية (جلب القماش والطيب ونحو ذلك).

وتم لها فعلاً اتصالات تجارية كبيرة مع الخارج.

وكانت تبذل الأموال بسخاء للقبائل العربية في طرق قوافل تجارتها فسادت بذلك وإلا فإنها كانت أضعف من أن تحمى قوافل تجارتها من سائر القبائل العربية في طريقها.

وعلى كل حال فتجارة قريش مع الخارج وخاصة مع الشام بالذات هي أبرز مظاهر الحياة الاقتصادية الجاهلية.

وهكذا لا نجد ما يبرر رأي طه حسين هذا.. والله أعلم.

البلاد ١/٩/١٣٩٢هـ

تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية

هل صحيح أن الدراسات الأدبية والتاريخية تنشط حيث يخمد الابداع والابتكار؟ سواء كان ذلك صحيحًا أو غير صحيح فإن هنالك من يقول به.. وإنه لينطبق على واقعنا الفكري كل الانطباق تقريبًا.

ففي هذه الفترة التي نعيش فيها الركود الأدبي في مجال الإنتاج الإبداعي المبتكر تنشط عندنا الدراسات الأدبية والتاريخية، ولا شك أن لذلك دلالة أو دلالات، ولكن ما يهمني أن أشير إليه هنا هو إثبات الرأي الآنف عن طريق المقارنة في مجال بذاته هو المجال الصحفي.

لقد استمر النشاط الصحفي منذ العهد العثماني مرورا بالعهد الهاشمي إلى عهدنا السعودي الحاضر وصدرت في مختلف هذه العهود الكثير من الصحف والمجلات والجرائد اليومية والشهرية والأسبوعية.

واستمر إصدار الصحف والإنتاج والكتابة المستمرة فيها دون أن يصدر أي كتاب يختص بدارسة التاريخ الصحفي منذ ذلك العهد حتى الآن حيث نشط بعض كتّابنا في إصدار كتب تاريخ ودراسات لصحافتنا في عهودها المختلفة.

فقد صدر إلى الآن في فترة وجيزة جدًّا ثلاثة كتب دفعة واحدة:

١ ـ كتاب موجز الصحافة في المملكة العربية السعودية للأستاذ محمد بن ناصر بن عباس.

٢ ـ الصحافة في الحجاز للدكتور محمد عبدالرحمن الشامخ.

٣ ـ تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية للأستاذ السيد عثمان حافظ.

وهناك كتاب رهن الطبع للأستاذ عثمان حافظ أيضًا بعنوان (الصحافة في ربع قرن) فعلى ماذا يدل هذا النشاط في دراسة تاريخ صحافتنا؟!

لعل الدراسات من هذا القبيل هي نتيجة حتمية لِوَعْينا دور الماضي في بناء الحاضر وليس من قبيل كم ترك الأول للآخر؟

لقد وجدتني أندفع لكتابة هذه المقدمة وأنا أهم بالكتابة عن كتاب (تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية) للأستاذ عثمان حافظ.

قبل أن اطلع على هذا الكتاب الذي يقع في ٥٠٠ صفحة من الحجم المتوسط وأنا أجزم بأنه لا بد أن يكون كتابًا قيمًا.. ذلك لأن مؤلفه قد عاصر الصحافة وتمرس بها منذ ٣٥ عامًا عندما أصدر بالاشتراك مع أخيه الأستاذ السيد علي حافظ جريدة المدينة المنورة التي لا يزال المؤلف رئيسا لتحريرها[١] إلى الآن، ولم يتخلف عن المشاركة فيها والعمل بها سواء كان رئيسًا لتحريرها أو غير ذلك، فكان لا بد أن أتوقع انعكاس هذه المعاصرة والممارسة بين دفتي الكتاب بشكل لا بد أن يجعل للكتاب قيمة أكبر مما لو كان مجرد دراسة استقرائية من بطون الكتب أو أفواه الرواة!!

ولكن الحقيقة أنني لم أجد في الكتاب ـ كما كنت أتوقعى ـ أثرًا من روح المعاصرة، اللهم إلا فما يختص بجريدة المدينة المنورة، وحتى فيما يختص بجريدة المدينة المنورة لم يكن الشأن فيه كما كنت أتوقع!!

وتوقعي هذا يستند إلى ما كنت قد قرأته للأستاذ عثمان حافظ نفسه قبل حوالي ثماني سنوات في جريدة المدينة المنورة بعنوان (الصحافة في ربع

---

(١) رئيس تحريرها الآن الأستاذ أحمد محمود.

قرن) وهي الحلقات التي كان من المفروض أن يتضمنها هذا الكتاب، إلا أن المؤلف اعتذر بتضخم صفحات الكتاب بشكل لم يكن يقدره فرآى أن تكون تلك الحلقات في كتاب مستقل، وهو الآن بالفعل تحت الطبع في مطابع شركة المدينة ـ كما أخبرني المؤلف نفسه:

وهكذا جاء الكتاب بدون تلك الحلقات التي تتسم بالطابع الشخصي وروح المعاصرة على غير ما كنا نتوقعه من كتاب في تاريخ الصحافة لمثل الأستاذ عثمان حافظ.

جاء الكتاب مجرد سجل تاريخي حافل لا يختلف عن أي كتاب سردي تاريخي لا نبض فيه ولا حرارة وإن كانت لا تنقصه الدقة والاستقراء. وها نحن نستعرض الكتاب ومنهج صاحبه في تأليفه.

يقع الكتاب كما أسلفت في ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط طبع ونشر شركة المدينة للطباعة والنشر الطبعة الأولى وتشتمل على:

١ ـ الإهداء إلى كل العاملين في مهنة المتاعب الذين لا يبرحون مكاتبهم إلا مع ساعات الصباح الأولى إلخ.

٢ ـ التمهيد للكتاب بدراسة عن الصحافة وتاريخها في العهدين العثماني والهاشمي كمدخل للحديث عن تطور الصحافة في العهد السعودي الذي أفرد لدراسته فصلين:

(أولهما ـ كما يقول المؤلف نفسه ـ يتعلق بدراسة مفصلة للصحافة في هذا العهد من خلال دراسة الظواهر الصحفية وتطورها والتي تتمثل في دراسة الصحف السعودية وتطورها حتى وقتنا الحاضر).

(وثانيهما: يتعلق بالمراحل التي مرت بها جريدة المدينة المنورة منذ ٣٥عاما حتى أيامنا هذه).

أما منهج المؤلف فهو في الأغلب الأعم ذكر الصحيفة أو المجلة أو المؤسسة

الصحفية وذكر تاريخ صدورها وتاريخ انتهاء صدورها وذكر رئيس تحريرها العام ورسم اشتراكها إلى أمثال هذه المعلومات التي لا يكاد يعدوها، اللهم إلا بالنسبة لجريدة المدينة التي توسع في الحديث عنها وعن المراحل التي مرت بها.

هوامش وملاحظات

١ ـ أعود فأقول إن الكتاب عبارة عن سرد تاريخي فيه جهد جمع المعلومات وتقصي التاريخ، وليس فيه روح الدارس المتأمل المستنتج.

٢ ـ سرد المؤلف معلومات كثيرة مهمة مثل المعلومات التي أوردها عن أوائل الصحف في مختلف البلدان دون الإشارة إلى المراجع التي استند عليها في هذه المعلومات، وإن كان قد أثبت قائمة بالمراجع إلا أن ذلك لا يكفي، فالإشارة إلى المراجع عند كل نص ضرورة مهمة لأنها تعين أي باحث يريد الاستفادة من الكتاب ومن مراجعه.

أما إثبات قائمة المراجع فالأصل فيه إهداء القارئ إلى مظان البحث بصفة عامة لمن يريد التوسع في المعلومات، أما النصوص فلا بد من الإشارة إلى مراجعها إذ لا يستطيع القارئ أن يبحث في جميع الكتب المشار إليها في قائمة المراجع للتأكد من نص بذاته.

٣ ـ لعل من أهم ما في الكتاب بالإضافة إلى أهميته التاريخية تلك الفهارس المنظمة للأعلام والصحف وإن كنت قد لاحظت مع الأسف عدم دقتها.. فهناك أسماء في الكتاب ليست موجودة في فهرست الأعلام، وأضرب مثلاً لذلك باسم كاتب هذه السطور؛ فقد ورد مرتين في الكتاب ولكنه غير موجود في الفهرست بالإضافة إلى غيره من الأسماء.

ومع ذلك فهي فهارس منظمة ومفيدة جدًّا رغم الأخطاء التي اعتورتها.

وبعد فَتَحِيَّة وتهنئة لأستاذنا المؤلف.. ونرجو أن يتحفنا بالمزيد من ذكرياته الصحفية.

وليعذرني على بعض الملاحظات التي أبديتها فقد صدرت عن نية صافية مخلصة - علم الله - بل صدرت أيضًا عن حب وإكبار وإجلال لأستاذنا المؤلف.. ثم هي في النهاية ملاحظات لا تقلل من قيمة الكتاب، والحمد الله..

البلاد ١٥/٧/١٣٩٢هـ

كتابان جديدان
عن تاريخ الصحافة في المملكة

لا شك أن مما يلفت النظر ويدعو إلى التفاؤل هذا الالتفات نحو الدراسات الأدبية والتاريخية من بعض شبابنا المثقف على الرغم مما يشيعه بعض شبابنا أيضًا ـ مع الأسف ـ من أن الدراسات التاريخية.. إنما هي نبش قبور وتحنيط فكر.. إلخ!!

ولو قد علم هؤلاء القائلون، مدى أهمية هذه الدراسات ومدى ما لا بد أن تتركه من أثر بارز في بناء كياننا الأدبي والفكري لأقلّوا اللوم كما قال الشاعر:

أقلـــــوا عليهـــم لا أبا لأبيكـــم

من اللوم أو ســدوا المكان الذي سدوا

أولئـــك قوم إن بنوا أحســـنوا البنا

وإن عاهـــدوا أوفوا وإن عقدوا شـــدوا

ولكنهم لا يعلمون، وإنهم ليتشدقون بسفاسف من الإنشاء الركيك، والجمل المرصوصة، والعبارة الغامضة، والكلمات الجوفاء، ويسمون ذلك أدبًا مبتكرًا!!

وما هو من الابتكار في شيء.. بل حتى ولو كان ذلك من الابتكار في صميمه.. فإنهم لا يعلمون أن الدراسات إنما هي مخاض الابتكار وغربلته!!

ولو قد علموا أو عانوا مدى صعوبة الدراسات الأدبية والتاريخية ومدى ما تتطلبه من تحصيل وجهد ووقت لأقلّوا اللوم أيضًا.!!

أما سهولة ويسر المقالات الإنشائية والعبارات (البلاستيكية) وتكلف

الإيهام والإبهام والغموض بدعوى الرمز.. فقد عرفوا كل ذلك وطاب لهم بيسره وسهولته!!

قلت إن ما يلفت النظر ويدعو إلى التفاؤل هذا الالتفات من بعض شبابنا المثقف نحو الدراسات الأدبية والتاريخية ولست بسبيل استعراض ذلك.

وإنما أمامي الآن من هذا القبيل كتاب الدكتور محمد الشامخ (الصحافة في الحجاز ١٩٠٨ ـ ١٩٤١ دراسة ونصوص).

وكتاب (موجز تاريخ الصحافة في المملكة العربية السعودية) للصديق العزيز الأستاذ محمد بن عباس وواضح من عنواني الكتابين وحدة موضوعهما تقريبًا وإن اختلفت الفترات الزمنية واختلفت أيضًا طريقة التناول. وها نحن نستعرضهما معًا لوحدة موضوعهما:

١ ـ الصحافة في الحجاز:

يقع الكتاب في ٢٣٢ صفحة من القطع المتوسط طبع دار القلم في بيروت الطبعة الأولى (١٣٩١هـ) تأليف الدكتور محمد الشامخ المدرس بكلية الآداب بجامعة الملك سعود، وقد قسم الدكتور المؤلف كتابه إلى ثلاثة أبواب كل باب من فصلين.

وقد خصص الفصل الأول من كل باب للدراسات المختصة بموضوع الباب، أما الفصل الثاني من كل باب أيضًا فقد خصصه للنصوص، ولئن كانت هذه النصوص المنقولة قد احتلت معظم صفحات الكتاب وهي عبارة عن افتتاحيات ومقالات وأنظمة.. إلا أنها مهمة جدًّا بالنسبة لموضوع البحث ومنهجه حيث تلقي الضوء على جانب أو جوانب مهمة في مسار البحث.. وهي لذلك لا بد منها ليلمس القارئ بنفسه كيف بدأ رواد الصحافة في الحجاز وكيف كانت أساليبهم في ذلك العصر ـ موضوع البحث ـ وطرائق تناولهم،

ومناحي تفكيرهم ومطامحهم واهتماماتهم إلخ!! فأما الدراسات التي قدمها الدكتور المؤلف فمع أنني سبق أن قرأتها أو معظمها في مجلة (العرب).. إلا أنني عدت فقرأتها من جديد لأقدمها للقارئ في عرض موجز وتعليق سريع قدر ما يمكن، بل أقصى ما يمكن أن تطيقه جريدة يومية، رغم أن قارئ الجريدة لا يطيق في الواقع مثل هذه الدراسات.

وقد كانت أبواب الكتاب وفصوله كما يلي:

١ ـ **الباب الأول العهد العثماني** (١٩٠٨ ـ ١٩١٦) ويختص الفصل الأول منه بنشأة الصحافة في الحجاز، ويتناول بالدراسة والعرض جميع الصحف التي صدرت في هذه الفترة، (حجاز، شمس الحقيقة، الإصلاح الحجازي، صفا الحجاز، الرقيب، المدينة المنورة..)، ثم أثر هذه الصحف في حياة الحجاز.

أما الفصل الثاني فيشتمل على بعض النصوص المختارة مما يلائم موضوع البحث ومنهجه.

٢ ـ **الباب الثاني** (**العهد الهاشمي** ١٩١٦ ـ ١٩٢٥) وهو أيضًا من فصلين الفصل الأول للدراسات، والثاني للنصوص المختارة.

٣ ـ **الباب الثالث** (**أوائل العهد السعودي** ١٩٢٤ ـ ١٩٤١) وهو كذلك من فصلين الأول للدراسات والثاني للنصوص المختارة.

ولست أريد أن أتعرض لمنهج البحث في الكتاب فلا شك أن الدكتور قد مارسه وعاناه طيلة دراساته الجامعية وتدريسه في الجامعة أيضًا فإن أبديت بعض الملاحظات في ذلك فانما هي من قبيل (جلب التمر إلى هجر) ـ كما يقول المثل ـ ولا شك أن لي في ثقتي بحسن نيتي وفي سعة صدر المؤلف ما يشفع لي.. ومن ثم فهذه هي ملاحظاتي المتواضعة:

١ ـ وضع المؤلف بين يدي بحثه تمهيدا موجزًا غاية الإيجاز إلى حد أنه لم

يَفِ بغرض التمهيد كما ينبغي.. فهو لم يذكر شيئًا عن الأسباب والدواعي أو التطورات التي دعت إلى وجود المطابع والصحافة ونشاط الحركة الفكرية والأدبية بينما وصل مدى تمهيده إلى عام ١٣٤٣هـ في الوقت الذي أشار فيه في الفصل الأول إلى أن أول مطبعة أسست كانت ١٣٠٠هـ، فكان من الأجدر أن يشير إلى الإرهاصات التي سبقت تأسيس أول مطبعة ودواعيها ودوافعها وكذلك الصحافة أيضًا.

٢ ـ لم يشر إلى مدى تطور الصحافة والطباعة حين ذاك في العالم العربي على الأقل ولو بشكل موجز لكي يتيح للقارئ فرصة المقارنة النسبية بين هذه وتلك. وهذه النقطة لم تَفُتْ على الصديق محمد بن عباس في كتابه عندما أفرد فصلاً خاصًّا بعنوان: (مدخل تاريخي إلى الصحافة العربية) ثم (الصحافة السعودية).

٣ ـ لم يشر الدكتور المؤلف أيضًا إلى مدى انتشار التعليم في الحجاز آنذاك مما يتيسر معه تكوين طبقة قراء لصحيفة أو عدة صحف ولكن في النصوص التي نشرها إشارات إلى ذلك لعله اكتفى بها.

الإشارة الأولى هي ما ورد في جريدة الحجاز (ودوام انتشارها هو متوقف على معاونتها بدفع بدل اشتراكها المتراكم عند مشتركيها الكرام من مأمورين وأهالي).

وهذا يعني أن مشتركي الجريدة في الدرجة الأولى من المأمورين أي الموظفين، وفي الدرجة الثانية من الأهالي ولعلهم قلة من ذوي اليسار يتباهون بذلك.

وأما المأمورون أي الموظفون فلا بد أن اشتراكهم كان وقتئذ من قبيل المباهاة أيضًا!! وأذكر بهذه المناسبة أنني عندما تعينت لأول مرة في وظيفة

حكومية (كاتب ضبط وعدل) في إحدى محاكم جيزان، فوجئت بكمية كبيرة من أعداد مجلة المنهل في دواليب المحكمة مع الدوسيهات ودفاتر الصادر والوارد.

وعندما أردت أخذ بعضها اعترض فضيلة القاضي بشدة محتجًا بأنها عهدة على المحكمة، وقد استطعت بعد ذلك أن أقنع فضيلته بغير قليل من الجهد بأن هذه مجلة ثقافية أدبية تشترك فيها الحكومة لبعض دوائرها المهمة للاطّلاع عليها فقط.. فهي ليست قبل أو بعد ذلك عهدة على الدائرة!!

وهذه الحكاية التي أوردتها تدلنا.. أو تلقي ظلاً على أن المأمورين المشتركين في جريدة الحجاز كانوا من هذا القبيل أو قريبًا منه!!

أما الإشارة الثانية فهي ما ورد في جريدة (شمس الحقيقة) عن سبب احتجاب الجريدة وهو: (قلة رغبة الجمهور هنا في القراءة والاطّلاع لأن الأماكن المقدسة قد حرمت من المدارس، وفي مصر مثلاً يحاول العامل الفقير الذي نال شيئًا من العلم أن يوفر بعضًا من نقود خبزه ليشتري به جريدة تطلعه على أخبار العالم) إلخ.

فليت أن الدكتور المؤلف قد اهتم بهذه الناحية ووضعها على صعيد التمهيد لبحثه القيم.

تلك هي بعض ملاحظاتي المتواضعة التي لا بد من ذكرها في مجال العرض والنقد وإن كانت لا تعتبر شيئًا بجانب أهمية الكتاب ودقة تناوله.

ومما لا شك فيه أن المؤلف قد بذل جهدًا كبيرًا بل هو أكبر بكثير مما يستحقه موضوع الكتاب فهو - أي الدكتور - قد تنقل بين عدد من المكتبات الكبيرة داخل المملكة وخارجها في تركيا وأمريكا وغيرهما بحثًا وتنقيبًا عن أعداد الصحف موضوع بحثه.. ثم هو يعرف جيدًا منهج بحثه. ولا شك أن حماسه قد

(١) كان ذلك في مطلع عام ١٣٧٦هـ.

دفعه إلى أكثر مما يتطلبه منهج البحث من جهد ووقت.

لقد ذهلت حقًّا من الملاحظات الذكية الغالية في الدقة التي أبداها الدكتور في ثنايا بحثه.. إنه يلاحظ ما لا يلاحظ، ويلتفت إلى ما لا يلفت النظر.

إنه يلاحظ مثلاً: اختفاء شعار جريدة (القبلة) وهو الآية الكريمة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾

ثم لا يكتفي بهذه الملاحظة بل يلاحظ أيضًا في أحد أعداد الجريدة بعد اختفاء الشعار أن السبب في ذلك ـ أي حذف الشعار ـ كان الخوف من أن يهان القرآن حين يرمي القراء بالجريدة بعد الفراغ منها!!

أما ما درج عليه عند ذكر كل جريدة أو مجلة.. فهو ذكر سياستها ـ الجريدة أو المجلة ـ واتجاهاتها، وحتى مواردها المالية والجهة التي تسندها وفترات انقطاعها ومحرريها وميولهم وما حققته الجريدة مما أعلنته عن سياستها وما لم تحققه فهو يلاحظ مثلاً أن جريدة الحجاز قد عنيت كثيرًا بالسياسة مع أنها أعلنت أنها سياسية اقتصادية أدبية اجتماعية، أي أنها لم تهتم بالنواحي الأخرى قدر اهتمامها بالسياسة، وكل ذلك وغيره في دراسة دقيقة واستنتاجات نابهة ذكية يتبعها بالنصوص التي تؤيدها وتدعمها ـ كما هو شأن الباحث المدقق.

٢ ـ موجز تاريخ الصحافة في المملكة العربية السعودية:

يقع الكتاب في ٣٥٤ صفحة من القطع المتوسط طبع مطابع مؤسسة الجزيرة بالرياض الطبعة الأولى ١٣٩١هـ تأليف محمد ناصر بن عباس.

يشتمل الكتاب على قسمين القسم الأول (مدخل تاريخي إلى مكانة شبه الجزيرة العربية) والوضع الحالي للمملكة العربية السعودية (ومدخل تاريخي للصحافة

العربية ثم الصحافة السعودية) (والإطار العام لتكوين الصحافة السعودية)

أما القسم الثاني فهو مراحل (الصحافة السعودية) وقد جعلها ثلاث مراحل: المرحلة الأولى من عام ١٣٤٣هـ إلى عام ١٣٧٣هـ، أما المرحلة الثانية فلم يؤرخ لها وإنما أسماها بالصحافة المتخصصة ودرس فيها تخصص الصحافة والفكاهة في الصحافة السعودية وحديث عن المرأة والمطابع.. ولست ادري كيف يسمى ذلك مرحلة ثانية؟!، أما المرحلة الثالثة فهي (الصحافة في عهد المؤسسات).

قبل أن أبدي بعض ملاحظاتي عن كتاب الصديق الكريم محمد بن عباس أود قبل كل شيء أن أشير إلى أنني قرأت لأكثر من واحد من كتّابنا ممن اعتادوا تقريظ الكتب ومجاملات المؤلفين قولهم إن الأستاذ محمد بن عباس قد تواضع عندما أسمى كتابه (موجز تاريخ الصحافة) والحقيقة أنه لم يتواضع أبدا وإن كان التواضع من أبرز مزاياه التي أعرفها عنه فهو على الرغم من حجم كتابه لم يستطع أن يقدم لنا غير نبذة موجزة جدًّا عن كل جريدة أو مجلة أو مؤسسة صحفية، وإن كان قد توسع في فصول أخرى من الدراسات التي لم أرَ لزومًا لها أكثر مما كان يلزم من اعطاء معلومات وافية - كما فعل الدكتور الشامخ - عن كل صحيفة ومجلة؛ تاريخها وسياستها، ميولها، عدد محرريها، مواردها المالية، لغتها، مدى إلخ.

ولا شك أن حجم الكتاب لا يتسع حقًّا مع الفصول التي أوردها المؤلف إلا أن يكون (موجزًا) كاسمه لتاريخ الصحافة في المملكة، ولذلك كان الأستاذ محمد بن عباس أذكى ممن أرادوا مجاملته، ولا شك أنه قد ضحك منهم في سره فجعلهم كالمُنبَتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى!!

ولو لم يقل الأستاذ محمد بن عباس إن كتابه إنما هو (موجز تاريخ

الصحافة في المملكة) لكنت وغيري على استعداد لنقده أشد النقد بأنه لم يشتمل على كذا ولم يحتو على ذاك!!

أما وقد احتاط بكلمة (موجز) فقد برهن على الدقة في التعبير.. إلا أن مما يؤخذ عليه مع ذلك توسعه ـ كما أسلفت ـ في بعض فصول الكتاب مثل (حديث عن المرأة) و(الفكاهة في الصحافة السعودية) وغير ذلك على حساب أشد الإيجاز لتاريخ الصحف السعودية نفسها!!

ويكفي أن يلقي الصديق ابن عباس أو غيره من القراء نظرة على كتاب الدكتور الشامخ ويقارن بين هذا وذاك خاصة بالنسبة لتاريخ كل صحيفة على حدة.

إن الأستاذ ابن عباس قد توسع لا شك في التمهيد لبحثه ولكنه عندما وصل إلى موضوع البحث وهو تاريخ الصحافة نفسها أوجز أشد الإيجاز وهو بلا أدنى شك قد أدرك ذلك عندما أسمى كتابه (موجز تاريخ الصحافة) وتلك هي العقبة التي وضعها بينه وبين النقاد فليكن له ما شاء!!

ولست أدري كيف فات على الصديق ابن عباس مدى الأهمية المطلقة للفهارس.. فهو لم يضع أي فهرس غير فهرس الموضوعات. أين إذن فهرس الأعلام وفهرس الصحف والمجلات وفهرس الكتب والمراجع إلخ؟!

إن مثل هذه الفهارس قد أصبحت من أهم الضرورات كما لا يخفى على المؤلف الكريم ومع ذلك فهو لا شك قد بذل جهدًا مشكورًا، ولكل مجتهد نصيب!!

أرض بــلا مطــر

ترددت كثيرًا قبل أن أحزم أمري.. وأتوكل على الله لأكتب هذه الدراسة المتواضعة عن مجموعة قصص، (أرض بلا مطر) التي صدرت أخيرًا للصديق الأستاذ إبراهيم الناصر.

فقد قدرت أن الكثير من الخبثاء - وما أكثرهم بين أصدقائي وغير أصدقائي - لا بد أن يعلقوا بأنني لم أكتب هذه الدراسة لوجه الأدب.

وإنما لأن الناصر صديقي.. وسيجدون في أي ثناء عليه في هذه الدراسة ما قد يجعلهم يؤكدون وجهة النظر هذه.

أما إذا وجدوا بعض النقد.. فسيقولون إنه مجرد (ذر رماد في العيون).. وإن مثل هذه الأساليب تعمل على ذيوع الكتب وانتشارها.

وقد يستدلون في سبيل ذلك بالحكاية المتداولة عن برنارد شو.. من أنه مرة عند صدور أحد كتبه استأجر حيزًا في صحيفة منتشرة وكتب مقالاً ساحقًا ماحقًا - باسم مستعار - يلعن فيه (سنسفيل)، برنارد شو وكتابه الجديد..

وكانت النتيجة أن نفد الكتاب من الأسواق في أيام قلائل.. ليس ذلك فحسب.. بل ثار النقاد على ذلك (الوغد) الذي يجرؤ على النيل من قمة شامخة كبرنارد شو.. مع أنه هو نفسه..

هذه ناحية..

وأما الثانية - على أسلوب طه حسين - فهي أنني - وهذه ليس تواضعًا - لا أرشح نفسي حقًّا لنقد القصة أو الرواية.. وخاصة من الناحية الفنية.. لأن

ثقافتي عن مقومات القصة وهيكلها الفني، وما يجب فيها وما لا يجب.. ليست إلى هناك..

ولكن يمكنني بالتأكيد ـ وهذا ليس غرورًا ـ أن أقدم عن أي فن قصصي أو روائي عرضًا أدبيًا.. ودراسة جادة عن الأغراض الاجتماعية التي جعل منها العمل الفني هدفا له..

وهكذا فأنا منذ الآن بالرغم من كل العوائق سالفة الذكر ـ سأحاول أن أتناول مجموعة قصص (أرض بلا مطر) من هذه النافذة بالذات.. لأن الرؤية من خلالها ممكنة بالنسبة لي بصورة لا بأس بها..

المجموعة مكونة من ١٤ قصة هي (أرض بلا مطر، نسيج العنكبوت، عروس القرية، شقاوة، خيبة أمل، لعنة الأبد، شروق وغروب، قدر، الزوجة الثانية، ضحية الثأر)..

هناك بعض النقاد ممن قرأت لهم يعيبون على الأدباء ما قد يجدونه في إنتاجهم من ميل إلى الإقليمية.. ويبررون بأنه يجب على الأديب أو الفنان أن يكون إنسانيًّا شامل النظرة.. غير متقيد بإقليمية ضيقة إلخ.. إلخ.

فهل في هذا الرأي الحق كل الحق؟

أم هو الحق يشوبه شيء من الباطل؟

أم هو الباطل فيه شيء من الحق؟

أرسم علامات الاستفهام هذه.. لأثنّي توًّا.. بصفاء نية، وطيب خاطر، واقتناع أكيد على ما لاحظته بصورة واضحة في مجموعة الصديق الناصر من ميل سافر إلى وصف ومعالجة لكثير من أدوائنا الاجتماعية هنا.. مما يمكن أن يدرج في القائمة المسماة بالإقليمية..

فهل ندينه بالإقليمية وضيق الأفق.. وأن نظرته وعمله الفني غير إنساني

شامل؟! وأنه من ثم لا يستحق أن يكون فنّا من وجهة نظر النقاد الذين يتبنون الرأي السالف الذكر؟

أم نصفق له.. ونقول ها هو شاب من شبابنا (أديب) يعيش معنا على أرضنا.. يشعر بشعورنا.. وينفعل بانفعالاتنا.. ويحس ذات الأدواء التي تنخر جسم مجتمعنا.. ومن ثم يسكب كل ذلك في بوتقة فنية؟

الحقيقة أنني لا أشعر بقدرة كافية على أن أنكر على النقاد رأيهم القائل بأن على الأديب أن يكون ـ في عمله الفني ـ إنسانيًّا شامل النظرة غير متقوقع في إقليمية ضيقة.

ولكنني ـ في نفس الوقت ـ أعتقد أن النظرة الأولى.. أول ما تقع على الأشياء القريبة منا.. ثم تمتد، وتمتد حتى تتلاشى في مجاهل الآفاق الواسعة المترامية.

فهل نُصِرُّ حقًّا على مطالبة الأديب بألا ينظر إلا إلى بعيد مقتحما الكثير من الصور والرؤى من حوله.. والتي يمكن للقليل منها أن يشكل هرمًا فنيًا متكاملاً عندما يسكب في القالب الفني الآسر؟

وناحية ثانية.

أعتقد أن مشكلاتنا الاجتماعية هنا قد تشابه الكثير من مشكلات البلدان النامية.. وفي هذا ما فيه من نظرة إنسانية..

وحتى بصرف النظر عن هذا.. فإن مما لا شك فيه أن النقاد على شبه إجماع بأن الأدب يجب أن يكون في خدمة الحياة.

أما (الفن للفن) فزمنه مضى وانقضى إلى غير رجعة وغير مأسوف عليه.. أفليس من خدمة الحياة.. أن يعالج الأديب مشكلات مجتمعه؟

عندما كتب الأستاذ توفيق الحكيم ـ وهو من هو قمة شامخة ـ عودة الروح،

ويوميات نائب في الأرياف، وحمار الحكيم.. وهذه كلها إقليمية بحتة تقريبا.. من قال عنه إنه إقليمي أو ضيق الأفق أو إنه غير شامل النظرة؟

كذلك الأستاذ نجيب محفوظ - وهو أيضًا من هو - في الثلاثية وغيرها.. من قال عنه مثل ذلك؟! وإن كان قد اتجه الآن اتجاهًا يختلف بالمرة شكلاً ومضمونًا عن اتجاهه السابق.

وغيرهما أكثر من الحصر.. عالجوا قضايا إقليمية بحتة.. ومع ذلك دخلت أعمالهم الفنية من أوسع أبواب الخلود..

نخلص من ذلك كله إلى أن النقاد - في مسألة الإقليمية والإنسانية - معهم شيء من الحق، وليس كل الحق؟

وأن الأدباء الذين يتجهون بإنتاجهم إلى وصف ومعالجة مشكلات مجتمعهم وبيئتهم معهم شيء من الحق أيضًا.. فهم والنقاد كالحلقة يلتقي طرفاها من كل جانب.

أرض بلا مطر..

قصة آمال طافحة بالتفاؤل.. ولكنها في النهاية تحترق في أرض بلا مطر، وتتلاشى في الأفق دخانًا مع اللهب المشتعل في أكواخ (رأس مشعاب).. يعود الفتى - بطل القصة - خالي الوفاض، خائب الأمل، مندحر الرجاء.. بعد سنوات قضاها في الكد والجهد والعرق والطين وتكالب المحن.. ويخبر أهله بأنه فقد كل ما ادخره ضمن مصيبة الحريق الآثم الغاشم الذي اجتاح (رأس مشعاب) بصورة ما أنزل الله بها من سلطان.

أما أمه.. فلم تعقب بشيء و.. ولكن دمعة كبيرة تدحرجت بالرغم منها.. وأما والده فبصق على الأرض ونظر إليه شزرًا وقال له: كنت أعلم أنك ولد غير نافع..

وكيف لا، وقد كانت عودته مرتقبة وهو محمل بالهدايا، وكيس نقود عامر.. ولكن يا للأسف.. من أين للأب أن يصدق أو يعي ما حدث حقًّا؟.

لقد تجلى الصديق الناصر في هذه الأقصوصة.. لأنه يبدو ـ بصورة أو بأخرى ـ أنه نفسه بطل القصة مع بعض التعديلات التي لا بد منها فنيًّا!!؟

والذات عند الفنان هي المرآة التي تعكس عليها الملامح والصورة التي يستقي منها الفنان مادته بغزارة!!

لذلك نجد أن أدب المذكرات الشخصية من المتعة الرائعة بمكان عال..

ومع أننا لا نقرأ فيه سوى أشياء شخصية ذاتية.. ولكن أية ذات ـ خاصة ذات الفنان ـ يمكن أن تكون منعزلة عن الذوات الأخرى.. فأنت تجد عبر حديث الأديب عن ذاته، ذوات أخرى رائعة الملامح والسمات. وهكذا كان الصديق الناصر على جانب كبير من التوفيق في قصة (أرض بلا مطر).. لأنها قطعة من ذاته سكبها في قالب فني من غير تكلف ولا زيف.

المرأة في القصة

ناحية ثانية هامة في قصة (أرض بلا مطر)

هناك كثرة من النقاد والأدباء يرون أن (المرأة) ضرورية للغاية، ودورها في الطليعة من عناصر التشويق في القصة، وبناء هيكلها الفني.. حتى إن بعضهم يعزون تخلف القصة عندنا أن ديننا وتقاليدنا لا تسمح بالتوسع في استخدام المرأة كعنصر تشويق إلا في حدود ضيقة جدًّا.

وهذا رأي فيه جانب كبير من الحقيقة.. إلا أنني أعتقد ـ بالرغم من ذلك ـ أن القاص المتمكن من فنه ـ يمكن أن يجذب القارئ بعناصر تشويق ليس منها بالضرورة المرأة!!

فأرض بلا مطر ليس فيها أي دور للمرأة.. اللهم إلا دمعة يتيمة تدحرجت من

عيني أم بطل القصة دون أن تفوه بكلمة واحدة.

ومع ذلك فهي قصة لا يمكنك أن تتركها إذا بدأتها حتى تنتهي منها!!

نسيج العنكبوت

في قصة (نسيج العنكبوت) يعرض علينا الناصر نموذجا رائعا نعيشه، ولكن بأسف ومضض.

ما إن يبلغ منا الشاب سن الحلم حتى يبدأ تفكيره فيمن تشاركه حياته.. متخيلاً بصورة مشبوبة ما عسى أن تكونه من قد ممشوق، ووجه صبوح، ونهد نافر، وأديم أملس ناعم، وأريج عطر فواح يذكي التخيلات الغامضة!!

وينتهي الأمر بشابنا الفاضل (البكر) إلى الزواج.. وربما انقطع عن دراسته.. وبدأ بالحرث والنسل، والتحق بوظيفة مرتبة تاسعة أو ثامنة (إن لم يكن خارج الهيئة فراشًا أو مراسلاً) ليجد نفسه بعد سنوات قليلة تجاه عدد من البنين والبنات.. وكلهم أفواه تطلب اللقمة، وأجساد لا بد لها من كساء و.. إلخ.

ولقاء ذلك كله يجد (البطل) نفسه في النهاية يعاني ذل الدين.. ويتهرب بتمزق من إلحاح الدائنين.. ويعد الأيام على أصابعه متمنيا أن ينصرم الشهر بأقصى ما يمكن - مع انه ينصرم من عمره - حتى يستلم الراتب الذي يذهب توًا إلى جيوب الدائنين.

ومشكلات من هذا النوع لا عدَّ لها ولا حصر.. وهناك يقف به السير عند مفترق طريقين لا ثالث لهما؛ على يمينه طريق الشرف والاستقامة، ولكنها محفوفة بالمصاعب والمتاعب.. لأنه لا يمكن أن يكسب من جراء السير فيها غير مرتبه..

أما الطريق الثاني على اليسار.. فهي طريق الشيطان.. السرقة.. النصب.. الاحتيال.. الرشوة.. دحر الضمير.. ولكن في أي من ذلك بعض المكاسب للأفواه الفاغرة!!.

وهنا يبدأ الصراع: أي الطريقين يسلك؟؟ أما بطل قصة (نسيج العنكبوت) فقد اختار - بالرغم من كل شيء - طريق الشرف والاستقامة.. ولكن، وهو يسير هائمًا مترنحًا دامي القدمين التفت فجأة إلى اليسار.. ليفاجأ بأن زميلاً له قد سلك الطريق اليسرى.. ليس ذلك فحسب.. بل إنه لم يمش غير خطوتين في تلك الطريق حتى عثر فجأة على كنز (رشوة) امتدت به - أو بها - يد لقاء مصلحة.. مجرد مسألة بسيطة!!

تعديل تاريخ في إشعار ما.. يفلت بموجبه صاحب اليد الممدودة من غرامة كبيرة.. هذه اليد نفسها سبق أن امتدت بالكنز نفسه إلى بطل (نسيج العنكبوت) ولكنه رفضها في إباء وكرامة وشرف. وها هو يرى زميله يقوم عنه بالدور الذي رفضه.. وكأن شيئًا لم يكن.. لأن ضميره قد اندحر!!

ببساطة.. يعرض لنا الناصر في هذه القصة نموذجًا رائعًا لمرض اجتماعي.. لا يكاد يخلو منه مجتمع في الواقع.

فما أهون الأمراض في ذاتها ولكن إذا كان الجسم واهنا متداعيا.. استشرى المرض واستفحل ما دام لم يجد بنية صحيحة.. وجسما سليما.. أعني المجتمع.

عروس القرية

هو عنوان إحدى قصص مجموعة (أرض بلا مطر) تدور حوادثها حول زواج سيدة سبق أن تزوجت وأنجبت، ابنًا مات والده في وباء اجتاح القرية.

وصحا الطفل ذات يوم على ضجيج وعجيج.. إنه عرس أمّه.. لم يكد يفهم ذلك.. ولكنه ما لبث أن فهم.

وهنا لا يلبث القارئ أن يشعر هو أيضًا أن الأستاذ الناصر قد بالغ كثيرًا.. بل أسرف جدًّا في تصوير مشاعر الطفل ساعة فهمه لأن أمّه ستزف إلى رجل (صرخ بأعلى صوته):

أحس (أن حادثا فظيعا قد تفجر في سماء حياته) (وعوى غيظه بصرخة

أخرى مدوية) (وأخذ يضرب الهواء بقبضته بجسمه في كل اتجاه) (وأصابه غثيان فظيع) (وأخيرًا مد يده وتشبث بثيابه بعصبية وأخذ يغرز أظفاره فيها وبلحمه.. وشرع في تمزيق ثيابه الواحد تلو الآخر).

لا أدري كم كان يلبس؟ هل يفعل طفل حديث السن كل هذا من أجل أن أمّه تزوجت؟ هل كان يعي حقًا معنى أن تتزوج أمّه؟ وإذا كان على هذه الدرجة من الوعي.. هل يفعل كل هذا حقا؟

وحتى بصرف النظر عن أن يفعل ذلك أو لا يفعل فإن القصة في حد ذاتها لا تنتهي بنا إلى غاية مهمة.. فإن زواج الأمهات الأرامل ليس مشكلة على الإطلاق.. وإلا فهل نمنعهن من الزواج من أجل أن لا يصرخ أطفالهن أو يمزقوا الثياب، إن مصير الطفل أن يصبح رجلاً وأن يعتمد على ذاته.. وليس مشكلة أبدا أن يصرخ ويتألم إذا تزوجت أمّه (وما له يا أخي ما تتزوج؟) حتى لا تتورط في مصيبة أدهى!

ولكن أهم ما شد إعجابي في القصة كلها حكاية ذلك الرجل الغريب الذي جاء إلى القرية بغرض فتح صيدلية بعد أن اجتاح القرية وباء عظيم فكان نصيبه أن تصدى له شيوخ القرية.. ورفضوا أن يؤجروه دكانًا بحجة المحافظة على عذرية قريتهم أن يدنسها الأجانب!!

وظاهرة التزمت هذه حتى ضد الأشياء النافعة موجودة فعلا مع الأسف في معظم قُرانا، ولم يرتكز وجودها إلا على أسس من الجهل وعدم القابلية للانفتاح على أي جديد حتى وإن كان مفيدًا نافعا. لأن الجهل بقيمته يولد الشعور بالعداء له.. فالإنسان عدو لما يجهل. (على فكرة.. بالنسبة لي أنا فأمّي رحمها الله - لم تتزوج غير والدي)!!

شقاوة

قصة قرية يلف أهلها سياج من الخرافات والخزعبلات، والإيمان بالأشباح التي يرفضها العقل.. ولكنها، تجد طريقها سهلة ميسورة إلى عقول أبناء القرية

وإمام جامعهم نتيجة الجهل المطبق الذي يكتنفهم في دياجير من ظلماته.. ويسهم الفراغ وضيق محيط القرية في تغذية الإيمان الأعمى بالأرواح والأشباح، حتى إنه إذا عثر صبي عثرة خفيفة هينة.. هبت الأم فزعة مرعوبة لتكسر عدة بيضات في مكان العثرة حتى لا يصاب فتاها المحبوب بسوء!!

وحتى إنه إذا انطفأ سراج (وغالبًا ما يحدث ذلك بسبب دفقة ريح أو تيبس خزان الوقود، إن لم يكن بسبب احتراق الفتيل، ذلك يعني حسب الاعتقاد العتيد.. أن هنالك جماعة من الجن تريد أن تمرق لزاوية من زوايا البيت).

ويسهب الصديق الناصر كثيرًا في تصوير هذه الخزعبلات في القرية إياها حتى بلغ من ذلك ما شاء، ويصل بالحبكة إلى ذروتها عندما يسرد حكاية الإشاعات التي انتشرت في القرية بأن الجن غير راضين عن جيرة (أبو مصطفى).

وتحولت الإشاعات إلى حقيقة ملموسة عندما أخذت الحجارة تنهال ليليا على منزل (أبو طه) لتهشم ما تندق فيه من زجاج وأوان.. ولتجعل القرية كلها في رعب وفزع شديدين.

وهكذا لم يجد أبو مصطفى بعد استفحال الخطب وتكرار الإنذار المخيف مناصًا من الرحيل بعد أن استشار أخاه وشيخ الجامع في الأمر، فإذا هما يحثّانه على وجوب الانصياع لرغبة الأرواح قبل حلول كارثة مؤكدة وماحقة؟

ويرحل (أبو مصطفى) المغضوب عليه من الجن إلى وجهة غير معلومة.. وبعد رحيله.. عاد الأمن والاطمئنان إلى القرية.. وكسبت رضى الأرواح والأشباح.. ولكن الحقيقة ما تلبث أن تنجلي.. وهي ليست في الواقع سوى صبي صغير ذكي استغل الإيمان الراسخ بالأرواح والأشباح.. لينتقم شر انتقام من عمه أبو مصطفى الذي كان يسومه العذاب.. فكان الصبي يمكن كل ليلة في زاوية ما.. ويقوم بصب وابل من الحجارة على بيت عمه الذي اعتقد أهل القرية جميعا أنها من غضب الأرواح والأشباح.. ولم يساورهم أدنى شك

في ذلك، إنها قصة الجهل الذي نحاربه الآن في كل مكان.

الجهل لا يجر إلى الإيمان بالأشباح والسخافات فحسب، بل يجر إلى مختلف الموبقات والجرائم!!

المعرفة وحدها هي النور الذي تنصهر عليه الخزعبلات وتذوب، وتتاح من خلاله - أي النور - الرؤية بصورة كافية.. إن ثقبًا واحدًا في الحائط يمكن أن ترى من خلاله أكثر مما يجب إذا كان النور كافيًا، فيا صديقي الناصر.. لقد حفرت ثقبًا.. فليحفر الآخرون.

خيبة أمل

قبل الحديث عن هذه القصة أود أن أطرح ملاحظة سريعة عنّت لي أثناء قراءتي لها.. إن معظم أحداثها تبدو مكملة بصورة أو بأخرى لأحداث قصة (أرض بلا مطر).

لقد أحسست حين ارتسمت في ذهني هذه الملاحظة.. أن الصديق الناصر لو عاد وجمع هذه الأحداث في القصتين وخلطها مع بعضها.. ثم عاد إلى سكبها أو صياغتها في قالب فني من جديد على شكل رواية لاكتمل له التوفيق أروع بكثير مما عليه القصتان الآن، في نظري على الأقل.

ليست هاتان القصتان فحسب بل إنك تحس أن الأحداث والصور في معظم مجموعة قصص (أرض بلا مطر) تكاد تكون متجانسة قريبة بعضها إلى بعض.. وإن اختلفت الغايات في كل قصة.

ويبدو لي السر في هذا التلاحم في الأحداث والصور في مجموعة القصص.. هو أن الصديق الناصر قد انتزع هذه الصور والأحداث مع التعديلات الفنية والتزويق - من أعماق ذاته وحياته في سن الطفولة وسن الشباب المبكر.

وبعد هذا نجد أنفسنا بالنسبة لقصة (خيبة أمل) تجاه عدد من العلامات رسمها لنا الناصر في عرض الطريق، كل علامة من هذه العلامات تشكل سمة من سمات

مجتمعنا ـ خاصة في القرية ـ وما هذا السواد الأعظم من شعبنا إلا من القرى!!

هذه السمات التي سلط عليها الصديق الناصر الأضواء هي:

١ ـ نوعية التربية التي يتلقاها الابن في القرية من أب جاهل..

٢ ـ اطّراد الهجرة من القرى إلى المدن طلبا للمعيشة بسبب سوء الحالة في القرية ومن ثم المفارقات الكبيرة التي يلمسها المهاجرعندما يقارن بين أسلوب الحياة ومفاهيمها في المدينة والقرية.. فلا يلبث حتى تتكشف له أشياء أخرى جوهرية خلافًا لاعتقاده السابق بأن حياته في القرية هي الحياة في كل مكان سوى بعض التخيلات الغامضة التي يثيرها في القرية بعض القادمين للزيارة من المهاجرين من أحاديث عجيبة غريبة، والتي لا يكاد يصدقها أي عقل في القرية.. وخاصة إذا كانت عن السينما.. أو النساء اللائي يسرن في الشارع سافرات الخ.. الخ.

٣ ـ طريقة ما يمكن أن يسمى بالحب بين الفتى والفتاة في القرية.. وكيف أن الفتاة تكتفي بإلقاء نظرة متلصصة ـ هذا إذا تجرأت ـ على الخطيب المرتقب من خلال فتحة صغيرة من الباب عند مروره..

٤ ـ الثقة بالنفس التي يعود بها المهاجر إلى قريته عندما تعنّ له رغبة الزيارة بعد اغتراب طويل لأنه يحس في أعماقه ـ وهو في الواقع كذلك ـ أنه الآن غيره بالمرة عما كان.. فقد أصبح ذهنه محشوًّا بأشياء جديدة.

واسمحوا لي أن أعيد التركيز على نقطة واحدة من هذه النقاط السالفة الذكر.

تلك هي نوعية تربية الابن من أب جاهل.. أو حتى من أم جاهلة، إن تربية من هذا النوع لا بد أن تخلف آثارًا عميقة في نفسية الابن.. فإنه لا يكاد يمر أي يوم حتى يسمع لأقل خطأ يرتكبه، أو حتى بدون خطأ سيلاً من النعوت القاسية من أبيه:

حمار!

ثور!

كلب!

ولد غير نافع!

وتظل علامات الاستفهام تترى وترتسم في ذهن الطفل المسكين!!

ولد غير نافع.. حتى ليكاد يرسخ في نفسه أنه فعلاً كذلك، وربما يشب على هذا الاعتقاد. مما يجعله لمدة طويلة فريسة عدم الثقة بالنفس، والخور.. وتشتت العزيمة.. حتى إذا ما واتته الظروف.. واستطاع ببصيص من أمل في أن يكون غير حمار أو ثور.. واستمر يعمل ويعمل حتى يؤكد لنفسه أنه (بني آدم) حقًا..

فإذا استطاع أن يحقق بعض النجاح في هذا السبيل - خاصة إذا هاجر من القرية.. وبدأ يعمل ويرسل لوالده بعض القريشات من مرتبه.. جاءته الرسائل المذيلة باسم أبيه وتبدأ عادة في مثل هذه الأحوال بعبارة: (ولدي العزيز)!!

أصبح أمام عواطف مضطربة فهو قد أصبح الولد العزيز.. بينما كان في السابق ذلك الحمار، أو الثور أو الكلب أو الولد غير النافع.

وتضطرب عواطفه، وأفكاره حتى تسبب في نفسيته عقدًا عميقة الجذور تجاه نوعية تعامل الناس مع بعضهم حتى بين الأب وابنه!!

أما نهاية القصة (خيبة أمل) فهو عودة الفتى بعد غياب ثماني سنوات عن القرية ليتزوج من (خالدة) تلك التي كانت تتلصص عند الباب لرؤيته عند مروره بالزقاق.. والتي كان قد أرسل لأبيه مبلغًا من المال ليدخره له من أجل الزواج بها.

ولكنه يعود ليجد (خالدة) زوجة لأبيه. وقد مهرها بالمبلغ نفسه الذي أرسله له!!

إنها نهاية مفجعة، ولكنها غير غريبة على جلافة الآباء في القرية.. ونظرتهم

إلى أبنائهم؛ كثيران وحمير وكلاب وأولاد غير نافعين!!

أذكر بهذه المناسبة حكاية مماثلة أعرف أنا شخصيًا أبطالها في قرية ما..

ذهب أحد الآباء ليخطب لابنه فتاة ما.. وبينما كان الابن يتلهف لسماع النتيجة من أبيه.. وإذا به يفاجأ بأن الأب الفاضل يقول للابن الثور: لقد رفضتك الفتاة وقَبلَتني أنا!!

طبعًا ليس كل الآباء في القرية على هذه الشاكلة ولكن هذا النموذج الذي عرضه لنا الصديق الناصر يجب أن لا ننظر إلى حرفيته بالضبط. بقدر ما يجب أن ننظر من خلاله إلى عينة من القسوة التي يتصرف بها الآباء مع أبنائهم في القرية.. مما يترك أثرًا عميقًا في نفسية الأجيال تلو الأجيال، ولن يقضي على ذلك إلا انتشار العلم والمعرفة في كل مكان من بلدي في القرية والبادية!!

البلاد ١٣٨٧/٤/٩هـ

١٣٨٧/٥/٥هـ

مع أدباء السجون

إذا سمحنا لأنفسنا باستخدام كلمة (سجن) بمعنى شامل.. أو فلسفي.. ستجبهنا - حتما - حقيقة مريعة.. هي أن الإنسان - أي إنسان - في سجن دائم.. بل إنه قد عرف السجن في بطن أمّه قبل أن يولد.. كأنما كان سجنه في بطن أمّه.. تهيئة لا بد منها لما سيقابله من سجون في حياته الطويلة..أو القصيرة!!

والغريب أن الإنسان.. يسعى بنفسه - وبطيب خاطر - لمراودة السجون على نفسها.. فهو يبني بيته - مثلا - ويخسر الكثير من الأموال ليجد نفسه في النهاية في سجن!!

البيت سجن.. غرف ذات أربعة جدران - أبدا ليست هناك غرف جدرانها أقل من أربعة - يسجن نفسه في واحدة من تلك الغرف.. هي زنزانته المختارة.. اختارها بنفسه.. ودفع ثمنها أيضًا من خالص ماله وعرق جبينه!!

ليس ذلك فحسب.. بل السجون في حياة الإنسان متعددة.. سجن بيئته.. مجتمعه.. عاداته.. تقاليده.. أفكاره.. أخلاقياته.. عمله.. واقعه.. حتى ذاته في الواقع حبيسة داخل جسمه.. كلها سجون في سجون.. والعياذ بالله..!!

ولكنها لا تسمى.. أو لا تعتبر كذلك..إذ أطلقت عليها أسماء لطيفة مختلفة.. وأصبحت موضع رضى.. وسبحان مرضي العباد!!

أما السجن الذي اصطلح الناس على نعته حقًّا بهذا الاسم.. فهو المكان الذي تختاره عادة السلطات الحكومية في كل مكان وزمان.. لتستضيف فيه كل من يتورط في مخالفة التشريعات المرعية!!

وهناك - في المكان إياه - ربما يكبل بالحديد.. وربما يكتفى بفرض الإقامة

الجـبـرية عليه دون أغـلال.. ولكن النتـيـجـة واحدة (اسـمه سجن) كل هذا مفهوم.. وطبيعي!!

ولكن غير المفهوم.. وغير الطبيعي أن الإنسان يضيق ذرعًا بهذا السجن وحده.. بينما هو الخبير والراضي بضروب أخرى من السجون في حياته.. بل - كما أسلفنا - قبل إن يولد.. عرف أضيق (زنزانة).. حتى خروجه إلى الحياة من مضيق لا يسعه إلا بشق الأنفس.. نفسه ونفس أمّه.. وربما نفس الطبيب.. وتفتت أكباد الخالات والعمات!!

ومع ذلك كله.. يضيق هذا الإنسان الذي عانى أنواع السجون بساعات قلائل - فضلا عن الأيام والشهور - إذا قدر عليه أن يقضيها في سجن السلطة!!

لماذا؟ ما هو الفرق؟

تساؤل في محله من وجهة النظر الفلسفية!!

ولكن إذا نظرنا إلى هذا الضيق بسجن السلطات.. وفي الوقت نفسه الإقبال بنفس راضية على السجون الأخرى.. نجد أن مرجع ذلك مجرد تعود الإنسان على تلك السجون حتى انتفى من ذهنه معنى أن تكون سجنًا!!

أما سجن السلطات.. فلم يتعوده، ولا اختاره بنفسه.. فظل في ذهنه سجنًا بمعنى الكلمة.. ولأنه - أي سجن السلطات، وهذا أكبر عيوبه - أنه يعني العقوبة.. وأنه يفرض فرضًا دون مجال للاختيار. والمكوث فيه - لا قدر الله!! - يمنعه من العمل والسعي وراء لقمة العيش.. ويحرمه بالتالي من ممارسة الحياة في السجون الأخرى مع الأشخاص الذين يحبهم ويميل إليهم.. وحتى مع الذين لا يحبهم ولا يميل إليهم!!

ومن هنا كان السجن بهذا المعنى.. مصدر شقاء وكرب عظيمين.. فما إن يجد الإنسان نفسه فيه حتى يضيق به، وبالحياة وبنفسه.. أليس هو للعقوبة؟.

هذا استطراد جرّتنا إليه الرغبة في الحديث عن أدباء وشعراء.. عانوا حياة السجون في مختلف الأزمنة.. فكان ما لاقوه من كرب وعناء.. ولواعج شوق وألم.. مصدر إلهام تمخضت عنه روائع أدبية خالدة ما زالت قرة عين.. ومثار إعجاب واهتمام بين القراء والمتأدبين..

فقد أصدر الأستاذ عبدالعزيز الحلفي كتابًا بعنوان (أدباء السجون) تحدث بين دفتيه عن كثير من مشاهير أدباء السجون.. واختار من أدبهم أروع ما استوحوه من بين الجدران!!

كذلك شاعر العراق الأستاذ أحمد الصافي النجفي.. أصدر ديوانًا كاملاً بعنوان (حصاد السجن) وشارك الفيلسوف المعاصر.. الأستاذ (أنيس زكي حسن) بكتابه (السجين) وغير ذلك من الكتب، التي تعرضت جملة وتفصيلاً لحياة أدباء السجون.. وأدبهم الصادر عن نفوس ممزقة.. وقلوب مكلومة مهيضة.. وخير ما تقرأه في الأدب (نوح باك أو ترنم شادي).. فهو الأدب الخالص ينسكب من النفس مباشرة..

يقص تجربة حية.. ومعاناة ذاتية.. ويعبر بصفاء ونقاء.. وبلا تكلف عن نزعات إنسانية خالصة.. والغريب أو اللاغريب ـ أنه حتى السجن.. تختلف الزوايا التي ينظر منها الناس إليه من شخص لآخر.. كشأنهم أبدًا في كل شيء.. فبعضهم لا يثير فيه السجن غير الأسى والحزن.. وبعضهم بالعكس يثير فيه التحدي والعزة والشموخ.. من ذلك قصة علي بن الجهم في سجن سامراء حيث يقول:

قالوا حبست فقلت ليس بضائري حبس وأي مهند لا يغمد

أو ما رأيت الليث يألف غيله كبرا وأوباش السباع تردد

والشمس لولا أنها محجوبة عن ناظريك لما أضاء الفرقد

وهكذا.. على هذا الروي والمـنوال.. فهو البدر عندما يتجلى.. والغيث يحصره الغمام إلخ..

أي أنه ينظر إلى السجن بروح متحدية.. بل هو يراه المكان الطبيعي لمثله وأمثاله.. فالمهند لا بد أن يغمد خشية خطره.. وحتى يضيء الفرقد لا بد أن تحجب الشمس!!

وعلى النقيض من هذه النظرة المكابرة إلى السجن.. تطالعنا نظرة أخرى من زاوية مختلفة أكثر تواضعًا.. فذلك حيث يقول (عاصم بن محمد الكاتب) وقد عاش السجن وعاناه، والغريب أنه يعارض ابن الجهم نفسه:

من قال إن الحبس بيت كرامة فمكابر في قوله متجلد

ما الحبس إلا بيت كل مهانة ومذلة ومكاره لا تنفد

إن زارني فيه العدو فشامت يبدي التوجع تارة ويفند

أو زارني فيه المحب فموجع يذري الدموع بزفرة تتوقد

ولا شك أن نظرة كل إنسان إلى نقطة بعينها من زاوية مختلفة.. لها دائمًا ما يبررها.. فنظرة علي بن الجهم إلى السجن ناشئة عن احساسه المتدفق بخطورة شأنه.. وأنه لم يسجن إلا للتخلص من خطره.. فأثار ذلك في نفسه كوامن التحدي.. وربما كان ذلك. كما يقول زميله ـ مكابرة وجلدًا.. حتى لا يبدو ضعفه أمام خصومه!!

أما (عاصم الكاتب) فربما لم يكن عنده ما يبرر التحدي أو المكابرة.. فنظر إلى السجن نظرة مجردة.. على أنه بيت مهانة، ومثار شماتة الأعداء وتوجع الأصدقاء!!

أما ثالث.. من أدباء السجون.. هو الأستاذ سليمان العيسى.. فلا يثير السجن في نفسه غير مزيد من الوعي للّحظة الراهنة والتأمل.. والمشاركة الوجدانية

بإزاء المعاني الإنسانية التي يثيرها السجن في خاطره.. فقد استوحى - مثلاً - (من حادثة فتاة فلسطينية باتت إلى جواره في السجن قصيدة تثير الألم.. وتستدر الدمع).. وفيها يقول:

وألقيـــت ســمعي وظل النحيب ۞ وراء جـــداري.. يشـــق الدجـــى

أقبــل رجـــلك دعنـــي هنـــاك ۞ أريــــد بعرضــــك أن أخرجـــا

خـــذوني.. خـذوني لا أســتطيع ۞ وبُـــــحٌ على شـــفتيها - الرجـا

خـــذوني وذابـــت بقـــــايا ۞ الحروف على شفة لم تجد مخرجًا

وهو إلى ذلك ينظر إلى السجن على أنه ليس مأساة في ذاته.. بل هي لحظة الروح الضجر.. والحرية المغلولة حيث يقول:

ليســت المأســاة قيـدًا أخرقًا ۞ إنهـــا لحظـــة روح ضـــجر

إنهـــــا حريــــة مغلولـة ۞ أيــن لاحــت خلف هـذا الجــدر

أما الحـمداني - أبو فـراس - فنظرته إلى السـجـن تكاد أن تكـون مزيجًا من كل ما ذكرنا آنفا.. فهو مهـمـوم الفؤاد معذب الجســم.. ومع ذلك فدمعه في الحـــوادث غال!!

أية نفس كبيرة هذه؟

بـل أي صــفــاء ذهـن ورقـــة شـعـور ألـهـمـه أن يجـد في نــوح حـمـامـة مـصـدر مـقـارنـة بين الحالين.. حـالـه في سجـنـه.. وحـالـهـا طـلـيقـة حرة ترفرف حيث تشاء..

أقـول وقـد نـاحت بقربي حمامة ۞ أيا جــارتا هل تشـعرين بحـالي؟

معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ۞ ولاخطـــرت منك الهمـوم ببــال

أيحمـــل محـــزون الفـؤاد قـوادم ۞ علـــى فنن نـائي المســـافة عالي

أيا جـــارتا ما أنصف الدهر بيننا ۞ تعـــالي أقاســمك الهمـوم تعالي

تعـالي تري روحـًا لدي ضـعيفة　　تـردد في جسـم يعـذب بالـي

ايضـحك مأسـور وتبكي طليقـة　　ويسـكت محزون وينـدب سـالي

لقـد كنت أولى منك بالدمع مقلة　　ولكن دمعـي في الحـوادث غالي

هذه لمحة خاطفة.. وخواطر شتى.. أثارتها في ذهني ساعة من زمن قضيتها بصحبة كتاب (أدباء السجون) وودت أن أشرك معي قراء (اليمامة) في متعة خالصة.. مع أدب رفيع غذته النفس الإنسانية بشحنة من أسرارها وطاقاتها المتفجرة..

اليمامة ١٥/٦/١٣٨٦هـ

ذكرياتي في البادية

بضع ساعات متواصلة قضيتها مع كتاب (ذكرياتي في البادية) للأستاذ حسن نجيله، وهو أحد أدباء السودان الشقيق.

وقد أقبلت على الكتاب أقرأه بدوافع متعددة.. أهمها حبي الشديد لهذا اللون من الأدب.. أدب الذكريات أو المذكرات.. أجد فيه متعة لا تعدلها عندي متعة.. لذلك أحرص كل الحرص على اقتناء هذا النوع من الكتب.. ولا أذيع سرًا إذا قلت إنه حتى مذكرات (شارلي شابلن) موجودة في مكتبتي.. مع أنني لا أهتم بحياة الفن والفنانين.. والممثلين.

ثم إنني أجد في نفسي رغبة عارمة للاطلاع على أدب الأقطار الشقيقة كالسوادان، والمغرب وليبيا وتونس إلى آخر القائمة من دول عربية وإسلامية تفتقر مكتباتنا إلى نتاج الأدباء فيها.

وقلت في نفسي.. هذه فرصة.. كتاب مؤلفه سوداني.. وهو ذكريات أيضًا.. فما أحب الذكريات إلى نفسي.. مع أنني ما زلت شابًّا.. المفروض أن أتطلع للمستقبل.. وكتب المستقبل.

ولكن ماذا يهم.. ما دمت أجد المتعة في النهاية؟

وأنا أقلب الكتاب في يدي.. ثم بعدها قرأت المقدمة.. ثم بضع صفحات استبد بي شوق عارم، إلى بقية الكتاب.. ورحت أصنف في ذهني مقدمًا الموضوعات التي لا بد أن يتناولها الكتاب.. وقلت إن كتابًا هذه مقدمته.. وهذه البضع صفحات التي قرأتها منه.. لا بد أن تكون موضوعاته كذا وكذا انسجامًا مع الاستطراد والسياق..

ولكن مع الأسف.. كلما تقدمت في الكتاب أجد المعلومات تتكرر.. والصور والرؤى تهتز نتيجة لتكرار عرضها بأسلوب وآخر.. في فصل وآخر من الكتاب.. مما عرفت معه أن فصول الكتاب قد نشرت كفصول أو مقالات كل فصل منها على حدة.. ويستمر الزمن فيكتب المؤلف فصلاً آخر عن موضوع بعينه.. ولكن على طريقة (إذا اشتبكت دموع في خدود) تتشابك عليه الموضوعات أو بالأصح الذكريات والمعلومات.. يمسك بعضها برقاب بعض كما يقول الأسلاف.. فكان ما كان من تكرار.. لأن المؤلف عاد فجمع هذه الفصول التي سبق نشرها متفرقة وطبعها جملة في كتابه هذا (ذكرياتي في البادية).. مما فقد معه الكتاب، وحدة الموضوع، وتسلسل الذكريات والأحداث.. فجاءت متنافرة متضاربة.. مكررة في معظم صورها.. تماما كما تضع في السلة، خيار وبندورة، وقثاء، وفجل،.. وربما الخربز.. السلة تلف الجميع.. ولكن أي خليط تجمعه؟..

كان أحرى بالمؤلف.. أن ينفض عنه غبار الكسل ويقبل على هذه الفصول، من ذكرياته اللطيفة.. فينسقها.. ويسلسل أحداثها ويرتب صورها.. تماما، الديكور الآن فن قائم بذاته.. ولا بد أن يكون في الأدب هذا الديكور.. حتى تستريح به العين ويطمئن إليه الذهن..

أما هذه الفوضى.. التي تميز بها عرض الصور والأحداث في هذا الكتاب.. فقد جعلتني أشعر أنني تجاه معرض يعج بالتحف الثمينة ولكنها مكدسة.. بعضها فوق بعض.. ومتناثرة أيضًا واحدة هناك.. وعشرًا هنا.. وأنا أنظر مأخوذًا بجمال التحف.. ولكن لا تكاد عيني تستقر على تحفة بذاتها، لسوء العرض.. وفوضوية الترتيب.

ومع ذلك.. فقد عشت - يعلم الله - بضع ساعات ممتعة أتأمل في هذه التحف

الثمينة من الأحداث والذكريات والنوادر.

لقد خيل إلي أنني أعيش حقيقة مع الأستاذ (حسن نجيلة) أربع سنوات كاملة في بادية الكبابيس..

ولكن الأستاذ (نجيلة).. يتناول موضوعاته بذكاء المدرس.. وليس بعفوية الأديب!!.

ولا غرابة فالأستاذ نجيلة يشتغل بالتدريس.. ومن منا لا يعرف أن المدرس يضع نفسه.. أو تضعه وزارة المعارف في برنامج محدود.. لا يستطيع أن يدرس في مادته إلا ما هو مقرر.. حتى ولو كان يعرف في هذه المادة علوم الدنيا والآخرة.. مما هو غير مقرر.

وهكذا شعرت.. إن الأستاذ نجيلة في كتابه هذا أمام (سبورة) يعرض لنا بعض الصور بأساليب مدرسية وفق نهج مقرر.. ولكن هذه المرة ليست وزارة المعارف هي المسؤولة..

وشعرت في نفس الوقت أن هناك الكثير من الصور والذكريات يختزنها الأستاذ نجيلة في سياق الموضوع نفسه.. ولكن المنهج يأبى عليه عرضها؟.

أي منهج هذا؟

إنه المنهج الذي وضعه الأستاذ نجيلة بنفسه.. لأنه بشعور المدرس.. لا يستطيع أن يفعل غير ذلك..

وبعد.. فللأستاذ نجيلة كل تقدير.. لأنه قد استطاع - على أي حال - أن يفتح لنا نافذة عبر كتابه هذا نطل منها على لون من حياة الإنسان.. في موكب الإنسانية على خط سيرها الطويل..

وكم سعدت بذلك - علم الله..

سنابل الشعر
دراسات ومطالعات

مقدمة

فصول هذا الكتاب عبارة عن نزهات خلوية.. كنت أقوم بها - بين حين وآخر على مدى عدة سنوات - بين رياض الشعر وحقوله ومغانيه وفتونه.. أتنشق عبير الزهور، وربما أتعثر في نبتة برية شائكة.. كما هي (المخالب الحمر) أحد فصول هذا الكتاب!!

جولات ونزهات خلوية قمت بها ضمن فصول هذا الكتاب - مع عدد من الشعراء الفحول ابتداء بأعشى قيس.. ومرورًا بالعتابي.. ثم السنوسي والقصيبي.. وشربت القهوة في أيكة شعراء هجر (الأحساء).. ولم أنس استراحة ممتعة في فينة الشعر الشعبي في الجنوب!

وهي جولات ونزهات.. لم أقم بها في مرة واحدة.. بل اختلستها من الزمن بين حين وآخر.. وكنت في كل مرة أسجل انطباعي أو مشاعري - وهذه لغة الصحافة - في فصل من الفصول.. أنشره على شكل دراسة متواضعة غير مكتملة كما هو الشأن مع أعشى قيس.. أو على شكل مقالات عابرة.. ثم جمعت هذا إلى ذلك فإذا هو قوام كتاب بذاته.. قد لا يكون في عمق الكتب المؤلفة باستفاضة عن الشعر والشعراء.. ولكنه لن يخلو بالتأكيد من معلومة صغيرة هنا.. أو فائدة يسيرة هناك.. كما لا تخلو أية جولة أو نزهة من لفتة متأملة.. أو طرفة نادرة.. أو ملاحظة فاحصة.. ولن يعدم القارئ ما يفيده في كل ذلك!!

أما أنا فحسبي ما قد نعمت به من سعادة ونشوة في تلك الجولات والنزهات.. ثم حسبي الآن جمع انطباعات ومشاعر تلك الجولات والنزهات بين دفتي هذا الكتاب.. وكل أملي هو أن يجد القارئ في هذا الكتاب بعض ما نعمت به من سعادة ونشوة و.. وفائدة!!

١٤٠٢/٦/١٣هـ

نحن والشعر؟!

الشعر العربي منذ العصر الجاهلي إلى الآن هو (ديوان العرب) كما وصفه ابن خلدون - فيما أظن - وهو بحق كذلك.. بل ربما يفوق سائر العلوم والفنون والآداب العربية في تصويره لبيئة ومجتمع كل عصر.. ولربما وجدنا في القصيدة الواحدة، وصفًا لمعركة مثلاً.. أو غزوة من الغزوات.. أو حدث من الأحداث العامة ما لا نجده في كثير من كتب التاريخ والمغازي والسير وأيام العرب إلخ.. إلخ.

ولربما نجد لمحة في بيت أو بيتين من الشعر عن بيئة الشاعر ومجتمعه ما لا نجده في أكداس من الكتب التاريخية أو غيرها من الكتب التي يفرض فيها تصوير البيئات والمجتمعات ونقل صورة حية عنها.

ولسنا في حاجة إلى ضرب الأمثلة على مدى أهمية الشعر العربي لكل باحث ودارس في أي شأن على الإطلاق من شؤون الأمة العربية وتاريخها وأمجادها على مرالعصور وتفاوت الأزمان، ويكفي للدلالة على مدى أهمية وخطورة الشعر العربي أن الشعر الجاهلي كان يمكن أن يندثر بظهور الإسلام.. وقد كاد أن يندثر بالفعل بسبب مجافاة الكثير منه للمفاهيم الإسلامية أو بعضها.. أو لمجرد كونه من لغو القول في المفهوم الإسلامي، وخاصة في صدر الإسلام عندما كان الصراع ما زال على أشده بين رسالة الإسلام.. وبين رجالات الشرك والضلال من عتاة الجاهلية

كانت هناك - على العموم - عوامل كثيرة جدًا تحتم اندثار الشعر الجاهلي وانقراضه.. لولا أنه عند بدء التدوين وجد رجال التفسير - تفسير القرآن

والحديث ـ أنفسهم في حاجة إلى الشواهد على أصالة العربية في ألفاظ القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف.. فكان ـ عندئذ ـ لا بد من الاهتمام بالشعر الجاهلي اهتماما كافيا ليس لرجال التفسير أو لرجال اللغة فحسب.. بل كذلك الشأن بالنسبة لرجال التاريخ ورجال الأدب.. كل يجد في الشعر الجاهلي ضالته وشاهده.

ومن هنا كان الاهتمام بتدوينه.. ولولا ذلك لاندثر وانقرض كما أسلفنا.. ولكنه الشعر، ديوان العرب حقًا.. كان لا بد أن يثبت لأنه الوسيلة الوحيدة لحفظ الماضي تاريخًا ولغة وأدبًا إلخ.. إلخ.

وأجيالنا العربية الآن أمام تراث ضخم جدًّا من الشعر العربي منذ العصر الجاهلي مرورًا بصدر الإسلام والعصر الأموي والعصر العباسي.. وانتهاء بجيل شوقي والبارودي، وقد تحدثت في مقال سابق بعنوان (نحن والتراث) عن كيف أننا لا نستطيع الإفادة من تراثنا الضخم بما في ذلك الشعر بالطبع ما لم نقم بترتيبه وتبويبه وغربلته وتقريبه للمفاهيم الحديثة.. وأشرت بإيجاز ـ ولكن بوضوح ـ إلى عدم جدوى تراثنا الضخم هذا بشكله الراهن.. ومدى ما هو عليه من اختلاف وتنافر بين مناهج التأليف في مختلف العصور.. وما هو عليه من سوء تحقيق ونشر.. وما يحفل به من روايات غير محققة أو مدققة إلى غير ذلك من الأساليب الكثيرة جدا والتي أمكننا الإشارة إلى بعضها في مقالي السابق.. وقلت إننا لا يمكن أن نستفيد من تراثنا مع وجود كل تلك الأسباب المعوقة!!

ولا شك أن ما قلته عن تراثنا بمجمله.. يمكن أن يقال بنصه وفصه عن الشعر العربي على اختلاف عصوره، وتفاوت أزمانه.. فقد كثر فيها الانتحال.. وتناولته مكائد الدس والتشويه من قبل الشعوبيين وغيرهم من أعداء الأمة

العربية والإسلامية.. كما لحقه أيضًا ما لحق سائر تراثنا من ضياع وسلب ونهب وتشتت في مكتبات العالم، وسوء تحقيق ونشر إلى غير ذلك من الأسباب التي توجب على جامعاتنا وهيئاتنا العلمية وعلمائنا البارزين أن يبذلوا أقصى الجهد في لم شتات هذا الديوان العربي، واستخراج كنوزه، وتحقيق مبهمه، وكشف غامضه.. وترتيبه وتبويبه بحسب العصور أو الموضوعات أو أي نحو أو منهج يمكنه أن يقرب هذا التراث الشعري الضخم إلى المفاهيم الحديثة فيسهل على الباحث، ويتيسر على القارئ العادي، ولا يفوتني هنا أن أنوه بالجهود المبرورة المشكورة التي بذلها الأساتذة، مطاع صفدي، وإيليا حاوي، وخليل حاوي، وأحمد قدامه في اخراجهم (موسوعة الشعر العربي) التي صدر منها حتى الآن خمسة مجلدات ضخمة من أصل ثلاثين مجلدًا - كما ذكر في المقدمة.

لقد سعدت حقًّا بالاطّلاع على المجلدات الخمسة المطبوعة.. وكونت منها فكرة عن المنهج الذي اتبعه أولئك الأساتذة في إخراج موسوعتهم الشعرية.. وهو منهج حديث حقًّا.. جعل أقدم الشعر وأصعبه وأكثره شتاتًا في بطون الكتب في متناول القارئ بكل يسر فسهولة

غير أنني لست بصدد الحديث عن هذه الموسوعة ولا أنا ذكرتها لأجعلها مثالاً لما ينبغي أن تكون عليه العناية بتراثنا الشعري أو غيره.. فقد كان الأساتذة أصحاب الموسوعة أنفسهم أكثر تواضعًا وأقل طموحًا من كل ذلك.. وإنما ذكروا - صراحة - في مقدمة الموسوعة أن كل جهودهم تلك إنما هي مجرد نواة لجهود أخرى أوسع وأشمل.. يأملون هم.. ونأمل نحن معهم أن تبذل من قبل الحكومات والجامعات والهيئات العلمية في سبيل إيجاد أفضل المناهج

لجعل تراثنا الشعري في متناول الباحثين والقراء العاديين بأيسر السبل.

ويا ليت أن توجد أو تبذل مثل هذه الجهود بالنسبة لسائر فروع تراثنا فيكون للتاريخ منهج وللأدب آخر.. وهكذا.. إنه مجرد أمل فلعل وعسى..

أعشـــى قيـس

يرجع اهتمامي بالأعشى إلى أيام دراستي الابتدائية في (الكتّاب). ولا زلت أذكر أول مرة حفظت فيها اسم الأعشى.. كان (الفقيه) أستاذنا يحتفظ ببقايا من كتاب (جواهر الأدب) ملزمة من هنا، وثانية من هناك في ورق مهترئ مدعوك، وكان يملي علينا عندما يجيء درس الإملاء من هذا الورق المهترئ المدعوك.

ويومها أملى علينا (الفقيه) عدة أبيات من قصيدة الأعشى المشهورة وكان هذا البيت من ضمنها:

تسمع للحلي وسواسًا إذا انصرفت   كما اســتعان بريح عشرق زجل

ولم أفهم يومها معنى البيت، ولكني فهمت كلمة (عشرق) وهي اسم شجرة أو نبات معروف ينبت بكثرة في قريتنا وحولها بل هو ينبت بجوار بيتنا، وقد عرفته من ضمن أوائل معارف طفولتي، واستغربت أن يوجد ذكره في الكتب!!

ثم عندما كبرت في السن طبعًا، وبدأت أقرأ الكتب شعرًا ونثرًا.. ما إن أصادف ذكر الأعشى حتى أتذكر أنه صاحب البيت إياه.. أو صاحب (العشرق)، ومع الأيام تكثف عندي حب الأعشى لا من أجل ذكر (العشرق) وحده. بل من أجل الغزل، والهجاء، والوصف، والقصص في شعره العظيم الرائع.

وعندما فكرت أن أكتب عنه هذه الدراسة.. لم أكن أظن أنني سأتوسع كل هذا التوسع إذ لم أكن أظن أن للمصادر عنه على هذا القدر من الوفرة، ولم أكن أتوقع أن أجد من الأصدقاء الكرام كل تلك المساعدات التي قدموها لي، وفي طليعتهم الصديق الكبير الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي، والصديق الحبيب الشاب

عبدالكريم الغامدي.. فلهما ولجميع الأصدقاء الذين اهتموا بذلك خالص الشكر وأصدق الود..

نسبه وعصره

هو ميمون بن قيس بن جندل من بني قيس بن ثعلبة، ويكنى أبا بصير لقب بالأعشى لضعف بصره.. ثم عمي في أواخر عمره.

فذلك حيث يقول:

صدت هريرة عنَّا ما تكلمنا جهلاً بأم خليد حبل من تصل

أأن رأت رجلاً أعشى أَضرّبه ريبُ المنون ودهر مفند خبل

ويقول أيضا:

ودعي الذكر من عشائي فما يد ريك ما قوتي وما تصريفي

ويقول أيضًا:

رأت رجلا غائب الوفدين مختلف الخلق أعشى ضريرًا

وسمي كذلك (صناجة العرب) لأنه أول من ذكر الصنج في شعره حيث يقول:

ومستجيب تخال الصنج يسمعه إذا ترجع فيه القينة الفضل

ويقول أيضا:

واذا المسمع أفنى صوته عرف الصنج فنادى صوت من!!

ويقول أيضا:

ترى الصنج يبكي له شجوه مخافة أن سوف يدعى بها

ويقال بل سمي (صناجة) لقوة طبعه، وحيلة شعره، يخيل إليك إذا أنشدته أن آخر ينشد معك[1]

وقد ولد الأعشى ومات بمنفوحة التي تعتبر الآن حيًّا من أحياء الرياض

---

(١) العمدة ج١ ص١٣١.

المترامية بعد أن كانت ـ أي منفوحة ـ بلدة مستقلة بذاتها.

عاش الأعشى في أواخر العصر الجاهلي. وأدرك الإسلام. وكاد أن يسلم لولا أن صدّته قريش.. فذلك حيث قال عنه الرسول ﷺ: (كاد أن ينجو ولمّا).. وقد توفي الأعشى في العام السابع الهجري[1].

مكانته بين الشعراء

قيل إنه ما مدح إلا رفع، وما هجا إلا وضع، وقد سئل الأخطل عن أشعر الناس فقال: (الذي كان إذا مدح رفع، وإذا هجا وضع) قيل له: من هو؟ قال: الأعشى[2].

وقيل للأصمعي من أشعر الناس؟ قال: (الذي يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيرا، أو يأتي إلى المعنى الكبير فيجعله خسيسًا، أو ينقضي كلامه قبل القافية، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى).

فقيل له: نحو من؟ قال: نحو الأعشى.. إذ يقول:

كناطح صخرة يومًا ليفلقها فلم يَضِرْها وأوهى قرنه الوعل

فقد تم المثل بقوله: وأوهى قرنه.. فلما احتاج إلى القافية قال: (الوعل).

قيل له: كيف صار الوعل مفضلاً على كل ما ينطح؟.

قال: لأنه ينحط من قنة الجبل على قرنه فلا يضيره[3].

وقال بعض متقدمي العلماء: الأعشى أشعر الأربعة ـ امرؤ القيس، والنابغة، وزهير ـ قيل له: فأين الخبر عن رسول الله ﷺ أن امرأ القيس بيده لواء الشعر فقال بهذا الخبر صح للأعشى ما قلت، وذلك لأنه ما من حامل لواء إلا على

---

(١) الأعلام ج٨ ص٣٠٠ ط ثانية.

(٢) الأغاني ج٧ ص٣٥٦ ط بيروت.

(٣) العمدة ج٢ ص٥٧.

رأس أمير. فامرؤ القيس حامل اللواء، والأعشى الأمير[1].

وقال راوية بشار: نحن حاكة الشعر في الجاهلية والإسلام، ونحن أعلم الناس به.. أعشى بن قيس بن ثعلبة أستاذ الشعراء في الجاهلية، وجرير بن الخطفي أستاذهم في الإسلام[2].

وقال عبدالملك بن مروان لمؤدب أولاده (أدبهم برواية شعر الأعشى فإن لكلامه عذوبة)[3].

وبعث أبو جعفر أمير المؤمنين إلى حماد الراوية يسأله: من أشعر الناس؟ فأجابه: نعم. ذلك الأعشى صناجها[4].

وعن محمد بن سلام قال: سألت يونس النحوي: من أشعر الناس؟ قال: لا أومي إلى رجل بعينه، ولكني أقول: امرؤ القيس إذا غضب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب[5].

وهاهما، عامر بن الطفيل، وعلقمة بن علاثة.. وقد تنافرا وأقاما عند هرم بن سنان سَنَة لا يقضي لأحدهما على الآخر إلى أن قدم الأعشى فقال:

علقم ما أنت إلى عامر ... الناقض الأوتار والواتر

إلى أن قال:

حكمتموتي فقضى بينكم ... أبلج مثل القمر الباهر

لا يأخذ الرشوة في حكمه ... ولا يبالي غبن الخاسر

لا يرهب المنكر منكم ولا ... يرجوكم الانقى الآصر

فروى الناس شعر الأعشى، وافترقوا.. وقد نفر عامر على علقمة بحكم

---

(١) العمدة ج١ ص١٩٩.

(٢) الأغاني ج٨ ص١٥١ ط بيروت.

(٣) جمهرة أشعار العرب ص٦٣.

(٤) الأغاني ج٨ ص١٥٠ ط بيروت.

(٥) الاغاني ج٨ ص١٤٨ ط بيروت.

الأعشى في شعره[1] وحسبك بمكانة الأعشى شاعرا أن يحكم بين سيدين أقاما عند هرم بن سنان سنة لا يحكم بينهما.. ثم يحكمان الأعشى فيحكم.. ألا وإن مثل هذا التحكيم شرف وأي شرف تشرئب إليه الأعناق.

وما لنا نذهب بعيدا.. حسبنا أن نشير - لنرى مدى مكانة شعر الأعشى - إلى قصة وفوده على رسول الله ﷺ يريد الإسلام.. فبلغ خبره قريشًا فاهتموا للأمر، وقالوا هذا صناجة العرب ما مدح أحدًا قط إلا رفع في قدره.. وكان أن جمعوا له مائة من الإبل نظير أن يعود عامه ذاك ولا يسلم[2]

أتظن أن قريشا كانت تفعل ذلك - بصرف النظر عن صحة الرواية من ناحية أنهم أعطوه مائة ناقة أو أقل أو أكثر فسننظر في أمر صحة الرواية بعد - لو لم تكن قريش على بينة جلية من قدر الأعشى، وتأثير شعره.. ولقد خشوا تأثير شعر الأعشى. أكثر مما كانوا يخشون حينئذ من صحابة النبي ﷺ فلا غرو إذن أن تكون مكانة الأغشى الشعرية في الذرى السامقة.. من شماريخ اليمامة، وغير اليمامة..

مكانة الأعشى في قومه

عرفنا أن الأعشى من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، وهو القائل في الفخر بهم وتعداد مناقبهم.

إنـــي امـرؤ من عصـــبة (قيسـية)   شـــم الأنـــوف غرانـق أحشـاد

---

(١) العمدة ج١ ص٥٣.

(٢) الأغاني ج٨ ص١٦٣ - ١٦٤.

الواطئين علـى صـدور نعالهم   يمشـون في الدفنـي والأبـراد[1]

والضافين بقومهم يوم الوغى   للحمد يوم تنازل وطراد

حجروا على أضيافهم وشووا لهم   من شط منقية ومن أكباد

إلى أن يقول:

إذ لا يرى قيس يكون كقيسنا   حسبا ولا كبنيه في الأولاد[2]

ويقول أيضًا:

فلا توعدني بالفخار فإنني   بنى الله بيتي في الدخيس العرمرم[3]

ونورد هنا للمناسبة رواية عن علي بن شفيع قال:

إني لواقف بسوق حجر إذ أنا برجل من هيئته وحاله عليه مقطعات خز، وهو على نجيب نهري عليه رحل لم أر قط أحسن منه وهو يقول:

من يفاخرني. من ينافرني ببني عامر بن صعصعة فرسانًا وشعراء، وعددًا وفعالاً؟

قلت: أنا

قال: بمن؟

قلت ببني ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل.

فقال: أما بلغك أن رسول الله ﷺ نهى عن المفاخرة؟. ثم ولى هاربًا، فقلت من هذا؟ قيل: عبدالعزيز بن زرارة بن جزء بن سنان الكلابي[4]

وبصرف النظر عن صحة الرواية من عدمها.. فإنها لا شك - إن صدقا وإن كذبا - تلقي ضوءًا على مكانة هذه القبيلة.. وبدون هذه الرواية فإن مكانة بني

---

(١) الدفنى هو الثوب المخطط. والابراد: جمع بردة. وهي الثوب.

(٢) الديوان ص٢١٣ ط بيروت.

(٣) الدخيس العرموم: العدد الكثير.

(٤) الأغاني ج٨ ص١٤٩ ط بيروت.

قيس بين القبائل لا يتسامى إليها جدل أو نزاع.

أما مكانة الأعشى نفسه من قبيلته.. فليس بين يدي مما اطلعت عليه من أخبار وروايات ما يتيح لي حكمًا حاسمًا.

ولكني أتلمس ذلك في ديوانه، ولا شك عندي سلفًا أن الأعشى كان يتمتع بمكانة ممتازة في قومه إن لم يكن إلا أنه شاعرها، يدفع عن أعراضها، ويعيرها لسانًا كمقراض الخفاجي:

وأدفـــع عن أعراضـــكم وأعيركم　　لسانًا كمقراض الخفاجي ملهبًا[1]

وهذا البيت من قصيدة للأعشى هجا فيها عمرو بن منذر، وعاتب فيها بني سعد بن قيس وعمرو بن المنذر هذا من قومه. فذلك حيث يقول الأعشى:

فإن القــريب من يقــرب نفســه　　لعمــر أبيك الخير لا من تنسبا

وهي قصيدة تقطر ألما وعتابا، وغضبا، وذلك بعد أن هجاه عمرو بن منذر هذا، وقد عتب على بني سعد بن قيس أنهم لم ينصروه. فذلك حيث يقول:

فأبلــغ بني سعد بن قيس بأنني　　عتبــت فلما لم أجد لي معتبــا

صــرمت ولم أصرمكم، وكصــارم　　أخ قد طوى كشحا وآب ليذهبــا

إلى أن يقول:

إلى معشــر لا يعرف الود بينهم　　ولا النسب المعروف إلا تحسبًا

ويسترسل بِنَفَسٍ شعري طويل في عتبه العاصف، ولا يكتفي. بل يريهم مدى فضله عليهم، أليس هو الذي يدفع عن أعراضهم، ويعيرهم لسانًا كالمقراض؟

هنــالك لا تجــزونني عنــد ذاكــم　　ولكــن سيجزيني الإله فيعقبــا

ثنــائي عليكم بالمغيــب وإننــي　　أرانــي إذا صــار الولاء تحــزبًــا

أكون امرءا منكم على ما ينوبكم　　ولن يرنــي أعداءكم قرن أعضبا

---

(١) الملهب: القاطع.. أما الخفاجي ومقراضه فلا نعرف عنهما شيئًا.

ثم هو لا يكتفي بذلك وحسب. بل يذكرهم.

علوتكم والشيب لم يعل مفرقي وهاديتموني الشعر كهلاً مجربًا

ومن هذا البيت الأخير نتلمس أن الأعشى كان في المكانة العالية من قومه، ونفهم، من (هاديتموني الشعر) أن عَمْرًا من بني سعد بن قيس قد هجا الأعشى.. وما وصل الينا، من هجاء عمرو وقوله في أبي الأعشى قيس بن جندل:

أبوك قتيل الجوع قيس بن جندل وخالك عبد من خماعة راضع

ويقال إن والد الأعشى قد مات جوعًا.. وذلك لأنه دخل غارًا يستظل فيه من الحر، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل فسدت فم الغار فمات فيه من الجوع[1].

وإذن ـ نكرر القول: مما لا شك فيه أن الأعشى كان يتمتع بمكانة عالية قي قومه، وأن تظلمه وتوجعه في هذه القصيدة، ومما زعمه من إجحاف قومه لم يكن إلا عارضًا طارئا بسبب رعونة ابن المنذر.. وهو فرد، ولا يصح أن تعتبر مناوأته، أو مهاجاته للأعشى دليلاً ينهض على أن الأعشى لم يكن في مكانة عالية من قومه.

غزله وخمرياته

عاش الأعشى عمره في لهو، ولذاذة، خمر ونساء، وتشبيب وغزل، وهو القائل: (أرجع إلى اليمامة فأشبع من الأطيبين: الزنا والخمر).

وسنأتي الآن على بعض من الأخبار والروايات التي تصور ولعه بالخمر والنساء:

١ ـ وفد الأعشى على الرسول ﷺ يريد الإسلام، فبلغ خبره قريشًا.

فلما ورد عليهم قالوا له: أين أردت أبا بصير؟ قال: أردت صاحبكم هذا لأسلم.

(١) الأغاني ج٨ ص١٤٨ ط بيروت.

قالوا إنه ينهاك عن حلال ويحرمها عليك.. وكلها بك رافق ولك موافق. قال: وما هن؟ فقال أبو سفيان بن حرب: الزنا. قال لقد تركني الزنا وما تركته (أي بسبب التقدم في السن) ثم ماذا؟ قال: القمار.

قال: لعلي إن لقيته ـ أي الرسول ﷺ أن أصيب منه عوضا من القمار. ثم ماذا؟ قال: الربا

قال: ما دنت ولا أدنت. ثم ماذا؟

قال: الخمر

قال: أُوّه أرجع إلى صبابة قد بقيت في المهراس فأشربها[1].

فها هو الأعشى، وقد قدم من اليمامة من أجل أن يسلم، ثم يزهد في كل شيء إلا تلك البقية في مهراسه.. يشربها. ثم يسلم!!

٢ ـ ويحدثنا الرواة أن الأعشى كان جالسًا مع عدة من الفتيان قد غداهم بغير لحم وصب لهم فضيخًا فهم يشربون منه، إذ قرع الباب فقال: انظروا من هذا فخرجوا فإذا رسول المحلّق قد جاء الأعشى بناقة وبردين وزق خمر.. فقال الأعشى: ويحكم الذي أرسل إلي لا قدر له، والله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر في جوفي لأقولن فيه شعرًا لم أقل قط مثله!!.

فواثبه الفتيان وقالوا: غبت عنَّا وأطلت الغيبة ثم أتيناك فلم تطعمنا لحما وسقيتنا الفضيخ. واللحم والخمر ببابك. لا نرضى بهذا منك. فقال: ائذنوا له. فدخل، فأدى الرسالة، وقد أناخ الجزور بالباب، ووضع الزق والبردين بين يديه. قال: أقره السلام وقل له: وصلتك رحم، سيأتيك ثناؤنا، وقام الفتيان إلى الجزور فنحروها، وشقوا خاصرتها عن كبدها، وجلدها عن سنامها فأقبلوا يشوون، وصبوا الخمر فشربوا، وأكل معهم وشرب، ولبس البردين، ونظر إلى

---

(١) الأغاني ص١٦٤ ج٨ بيروت.

عطفيه، وأنشأ يقول: (أرقت وما هذا السهاد المؤرق)[1]

٣ ـ ولعل هؤلاء الفتية هم أنفسهم الذين نادموا الأعشى حتى بعد مماته. فقد روي أن الفتيان في منفوحة إذا أرادو أن يشربوا، خرجوا إلى قبر الأعشى. يجعلونه مجلس رجل منهم فإذا صار إليه القدح صبوه عليه[2].

ثم هو بعد ـ أي الأعشى ـ إمام من أئمة شعراء الخمر، والمجون. في الجاهلية والإسلام. فهو يقول مثلاً:

من خمرة عانة قد أتى لختامها حــول تسـل غمـامة المزكوم

وهذا البيت هو الذي ترسمه الأخطل في قوله:

وإذا تعـاورت الأكف ختـامها نفحـت فنال رياحها المزكـوم

وقال الأعشى:

وكـأس شـريت عـلى لـذة وأخـرى، تدوايـت منهـا بـها

فقال أبو نواس بعد:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بـالتي كـانت هي الداء

ومن ذلك ونحوه يتضح لنا بجلاء.. أن شعراء الخمرة من بعد الأعشى تلامذة له وعالة عليه..

٤ ـ وهناك عدد كبير من الأخبار والروايات تصور لنا ولع الأعشى بالخمر والزنا. ولعل من الضروري أن نورد هنا نماذج من شعر الأعشى نفسه تدلنا على هذا الجانب من حياته، بدلا من الروايات التي قد يساورنا فيها الشك.

قال يصف مجلس الشراب:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شـاوٍ مشل شلول شلشل شـول

---

(١) الأغاني ج٨ ص١٥٥ ـ ١٥٦ ط بيروت.

(٢) الأغاني ج٨ ص١٦٤ ط بيروت.

في فتية كسيوف الهند قد علموا أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل
نازعتهم قضب الريحان متكئا وقهوة مزة، راووقها خضل
لا يستفيقون منها وهي راهنة إلا بهات وإن علوا وان نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات له نطف مقلص أسفل السربال معتمل
ومستجيب تخال الصنج يسمعه إذا ترجع فيه القينة الفضل
من كل ذلك يوم قد لهوت به وفي التجارب طول اللهو والغزل

ويقول أيضًا في معلقته الشهيرة:

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعًا أيها الرجل
غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل
كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل
تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل
ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختتل
يكاد يصرعها لولا تشددها إذا تقوم إلى جاراتها الكسل
إذا تعالج قرنًا ساعة فترت واهتز منها ذنوب المتن والكفل
ملّ الوشاح وصفر الدرع بهكنه إذا تأت يكاد الخصر ينخزل

حياته الاجتماعية

خمر، ونساء، وشعر، ورحلات.. وهو تارة غني وأخرى صعلوك. هكذا تصوره لنا الروايات. بل هكذا صور لنا هو نفسه حيث يقول:

على كل أحوال الفتى قد شربتها غنيًّا وصعلوكًا وما إن أقاتها

وقد روي أن (سلامة ذا فائش) أجاز الأعشى بمائة من الإبل، وكساه، وإعطاه كرشًا مدبوغة مملوءة عنبرا، وأنه - أي الأعشى - ورد الحيرة فباعها

بثلاثمائة ناقة[1] كما روي أن قريشًا أعطته مائة ناقة حمراء، وقد سلف ذكر هذه الرواية وأشرنا إلى مصدرها. وروي أيضًا أن الأسود العنسي أعطاه خمسمائة مثقال ذهبًا وبخمسمائة حللاً وعنبرًا[2]، كما أنه قد مدح العشرات من أشراف العرب. فلا شك أنهم قد وصلوه بجوائز ضخمة. فيا ترى ما هو سر إملاقه أحيانا، وقد ذكرنا قصته مع الفتيان الذين لم يستطع أن يطعمهم لحما، ولم يسقهم إلا فضيخا؟.

لا شك أنه أن كان مسرفا متلافا فهو يرحل ويطوف يمدح هذا وذاك، ويعدو إلى اليمامة فينفق ما معه من الخمر، والنساء، والندامى، ويعود إلى التطواف والمديح. وهكذا دواليك ومن ذلك قوله:

وما زلت أبغي المال مذ أنا يافع وليـدًا وكهـلاً حين شبت وأمردًا

وقوله أيضًا:

وأقبلـــن يعرضـــن نحـو امرئ إذا كســب المـــال لم يختـــزن

أما الناحية الخاصة بحياته العائلية.. فإننا لا نعرف عنها شيئًا إلا ما يمكن أن نتوخاه في شعره. فهو يقول:

سأوصي بصيرًا إن دنوت من البلى وصاة امرئ قاس الأمور وجربا

بأن لا تبــغ الود من متباعـــد ولا تنأ عن ذي بغضة إن تقربا

فإن القريب من يقــرب نفسه لعمر أبيك الخير لا من تنسبا

وإذن فبصير هذا الذي يتكنى به الأعشى هو ابنه، ويقول أيضًا في نفس المعنى من قصيدة أخرى:

سأوصى بصيرًا إن دنوت من البلى وكل امرئ يومًا سيصبح فانيا

---

(١) الأغاني ج٨ ص١٦٣ ط بيروت.

(٢) الأغاني ج٨ ص١٥٩ ط بيروت.

بأن لا تـأن الـود من متبــاعد ... ولا تنأ إن أمسى بقربك راضيًا

ويقول أيضًا:

تقـول ابنتـي حين جد الرحيل ... أرانــا ســواء ومــن قـد يتــم

أبانـــا فلا رمت من عندنـــا ... فإنـــا بخـــير إذا لــم تـــرم

أرانا إذا اعتمـــــرتك البـــلاد ... وتخفـــى وتقدع منا الرحـــم

ويقول أيضا:

تقول أبنتي وقد قربت مرتحـلا ... يا رب جنب أبي الأوصـاب والوجعا

واستشفعت من سراة الحي ذا شرف ... فقد عصاها أبوها والذي شفعا

مهلا بني، فـإن المرء يبعثـــه ... هم إذا خالط الحيزوم والضلعا

ويقول أيضًا:

ذو صبية كسب تلك الضاريات لهم ... قد حالفوا الفقر واللأواء أحقابًا

من هذه الطائفة من الأبيات نستطيع أن ندرك أن الأعشى كان صاحب عائلة وأولاد، ولكنه لا يعيش حياة عائلية مستقرة، فهو كثير الترحال.

ألا ترى ابنته وهي تستشفع عنده بالأشراف من سراة الحي بألا يرحل إشفاقا عليه من الأوصاب والوجع.

ويحدثنا الرواة أنه تزوج امرأة من عنزة.. ثم من هزان فلم يرضها ولم يستحسن خلقتها، فطلقها وقال فيها:

بيني حصان الفرج غير ذميمــة ... وموموقـــة فينــا كذاك ووامقــة

وذوقــي فتى قــوم فإني ذائــق ... فتـــاة أنـــاس مثلمــا أنت ذائقة

لقد كــان في فتيان قومك منكح ... وشــبان هــزان الطــوال الغرانقـة

فبيني فإن البين خير من العصا ... وألا تـرى لي فــوق رأسـك بـارقة

وما ذاك عندي أن تكوني دنيئــة ... ولا أن تكوني جئت عندي ببائقة

ويا جـارتا بيني فإنك طـالقـه كـذاك أمور الناس غـاد وطارقه[1]

ولكن هذه المقطوعة كانت عرضة للخلافات واضطراب وتقديم بيت آخر، بل واختلاف معنى عن آخر من كتاب لآخر. فصاحب كتاب الأغاني يقول إنه سمع هذا الشعر يغني فيه هكذا:

أيا جارتا دومي فإنك صادقة وموموقـة فينـا كذاك ووامقة

ولم نفترق إن كنت عندي دنيئة ولا أن تكوني جئت عندي ببائقة[2]

وفي رواية أخرى أن قوم زوجة الأعشى هم الذين جاءوا إليه فضربوه وقالوا: طلقها، فقال:

أيا جـارتا بينـي فإنك طالقـه كذاك أمـور النـاس غاد وطارقه[3]

وفي ديوان الأعشى طبعة بيروت، جاءت المقطوعة بترتيب آخر، فالبيت الأخير هو البيت الأول في مقطوعة الديوان، والبيت الثاني هو البيت الخامس، والبيت الثالث هو البيت الأخير. والبيت الرابع هو البيت الثاني مع اختلاف في المعنى (وألا تزال فوق رأسك بارقة) بدلاً من (وألا ترى لي فوق رأسك بارقة)، والبيت الخامس هو البيت الثالث في الديوان مع اختلاف في اللفظ، فقد ورد في الديوان هكذا:

ومـا ذاك من جـرم عظـيم جنيته ولا أن تكوني جئـت فينا ببائقة

أما البيت الأول فهو البيت الرابع في الديوان، وقد أورد أستاذنا الشيخ العلامة حمد الجاسر في بحث له عن قبيلة هزان ومواطنها ثلاثة أبيات من هذه المقطوعة:

أيا جـارتا بينـي فإنـك طالقـة كـذاك أمور الناس غـاد وطارقة

---

(١) الأغاني ج٨ ص١٥٩ ط بيروت.

(٢) الأغاني ج٨ ص ١٦١ ط بيروت.

(٣) الأغاني ج٨ ص ١٦٠ ط بيروت.

وبيني حصان الفرج غير ذميمة　　وموموقــة فينــا كــذاك ووامقــة

لقد كان في فتيان قومك منكــح　　وشــبان هـزان الطوال الغرانقة

ثم علق بقوله: (ويظهر من شعر الأعشى أنها اختارت الزواج من بني قومها الذين يصفهم الأعشى بكمال الأجسام، وجمال الوجوه (الطوال الغرانقة) أي الصباح الوجوه)[1]

أما رأيي الشخصي في هذه الروايات، وفي أسباب هذا الطلاق، فلا شك عندي أن الأعشى وزوجته أيضًا قد أكرها على هذا الطلاق إكراهًا، وذلك من فهمي لقول الأعشى نفسه، على النحو التالي:

١ ـ واضح جد أن الأعشى يحبها، وأنها تحبه.. فذلك قوله:

وبيني حصان الفرج غير ذميمة　　وموموقــة فينــا كــذاك ووامقــة

محبوبة فينا، وأنت أيضًا محبة لنا. فلماذا الطلاق إذن لو لم يكن هناك إكراه لسبب أو لآخر.

٢ ـ الإكراه على الطلاق أرجح أنه كان من قبل قوم الزوجة نفسها لا من الأعشى.. لأن الأعشى يقول:

وبيني فإن البين خير من العصا　　وألا تــزال فــوق رأســك بارقــة

فلا شك إذن أن قومها كانوا يلوحون لها بالعصا من أجل أن تفرك الأعشى، وتطلب منه الطلاق للتزوج من قومها. فذلك حيث يقول الأعشى:

وذوقــي فتى قــوم فإنــي ذائق　　فتــاة أناس مثـل ما أنت ذائقة

فقد كان في شبان قومك منكح　　وفتيان هــزان الطوال الغرانقة

أي أنه ما دام أهلك يرغبون تزويجك بفتى من قومك، فلا بأس (ذوقي فتى قوم)

---

(١) مجلة العرب سنة ٣ ج ٧ ص٦٦٥.

وأما الثناء على فتيان هزان.. فهو ثناء على نفسه ضمنًا، كأنه يقول لها: لقد كان في فتيان قومك منكح، ومع ذلك قبلت بي زوجًا دونهم وكذلك قبل أهلك!!

أما الأسباب التي بعثت أهل الزوجة لإرغامها على الطلاق، فلا بد أن الأهل قد ندموا بعد على تزويجهم الأعشى، وهو ليس من هزان.. وقد كانت القبائل تمانع وتأنف من تزويج فتياتها لفتيان قبائل اخرى إلا في النادر، أو أن تكون بدرت بادرة من الأعشى نحو أهل الزوجة، أو أن تكون هناك بوادر نزاع بين هزان وبين قيس، وكلها احتمالات ممكنة.

والمهم أنه طلقها.. وانتهى الأمر ولكن أمر شعره فيها لم ينته فها هو خالد منذ أكثر من ١٣٨٢ سنة.. وأنا أيضًا عجبي لم ينته من الأعشى في قوله:

فذوقي فتى قوم فإني ذائق … فتاة أناس مثلما أنت ذائقة

فإن هذا المعنى يأنف أن يقوله من هو أقل فحولة وأنفة من الأعشى، والعجيب الأعجب أنه كرر هذا المعنى الأجرد من الأنفة والغيرة في أكثر من قصيدة.. فهو يقول:

ومنكوحة غير ممهورة … وأخرى يقال له: فادها

ومنزوعة من فناء امرئ … لمبرك آخر مزدادها[1]

ويقول أيضا:

فإذا فارقتني فاستبدليني … فتى يعطي الجزيل ويستفيد[2]

ويقول أيضًا في معلقته الشهيرة:

علقتها عرضا، وعلقت رجلا … غيري، وعلق أخرى غيرها الرجل

وعلقته فتاة ما يحاولها … من أهلها ميت يهذي بها وهل

---

(١) الديوان ص٩٧ ط بيروت.

(٢) الديوان ص ٣٨ ط بيروت.

وعلقتنـــي أخــرى ما تلائمـني　　فأجمـــع الحـــب حبًّـــا كله تبـل

فكلنـــا مغـــرم يهذي بصاحبه　　نـــاء ودان ومحبـــول ومحتبـــل

ومن رأي الدكتور طه حسين[1] أن هذه الأبيات الأخيرة لا شك منحولة قد قصد بها إلى العبث والدعابة.

فهل تكون الأبيات الأخرى، وهي أكثر قصيدة للأعشى منحولة أيضًا قصد بها العبث والدعابة؟

إنني شخصيًّا أعتقد أنها ليست منحولة لأن جميع هذه الأبيات تكررت في معنى واحد في أكثر من قصيدة.. فلا يعقل أن يتتبع الناحل كل هذه القصائد لينحل فيها هذه الأبيات بهذا المعنى بالذات وإنما أعتقد أن هذه الناحية من (لا مبالاة) في خلق الأعشى، فهو يكررها هنا وهناك لأنها صادرة عن طبعه..

ولنا بعد لقاء- إن شاء الله[2]

ملف اليمامة الثقافي
عدد ٢ تاريخ ذو القعدة ١٣٩٢هـ

---

(١) الشعر الجاهلي ص ٢٤٠ ط دار المعارف بمصر.

(٢) توقف ملف اليمامة عن الصدور.. ولم أكن قد أكملت هذه الدراسة التي كانت مخصصة له فبقيت كما هي الآن.. فمعذرة.

القهوة في الشعر الأحسائي

(أهدي هذا البحث المتواضع عن قهوة البن في الشعر الأحسائي إلى أصحاب الكيف.. وأرباب القهوة في الغلس.. وعند الاشراق.. وحيثما كان اللهو والأنس.. كانت عندهم الدلة والكأس.. يرتشفون من رحيقها.. كما يرتشف النحل حبات الندى على أوراق الزهور!!)

كيف القهوة

القهوة.. هذا المشروب المتداول الآن.. أصبح من ضروريات الحياة لدى أغلبية ساحقة من الناس وخاصة من وخطه المشيب.. وهدته الشيخوخة.. فهي سلوته. وهي بهجته.. هذه القهوة كانت حرامًا في عداد المسكرات.. وكان متعاطيها يتستر عليها في شعاف الجبال.. وأغوارها وقنانها.. كانوا في مكة.. وفي المدينة يؤمون بها الشعاب.. ويشربونها في أبعد مكان عن عيون الرقباء.. وكانت.. وكانوا.. أدوار وأطوار مرت بها هذه القهوة.. وأدخلت عليها تحسينات كثيرة منها الزعفران.. ومنها حب الهان (الهيل).. لا بل الهيل من ضرورياتها.. ألم تسمع الشاعر النبطي القائل؟.

الدلة اللي ما تبهر من الهيل　　　مثل العجوز اللي خبيث نسمها

وأنا وإن كنت من غير مدمني القهوة.. ومتذوقيها.. فقد لفت نظري وأنا أطالع كتاب (شعراء هجر) ذكر (قهوة البن) بكثرة.. وبإطراء مبالغ زائد مفرط!!

فهي جالبة الأفراح.. ومطفئة لواعج الوجد.. وهي الرضاب كالضرب: (العسل) وهي كأس التهاني تشبه حمرة الصبح.. وخد الظبي.. وهي أيضًا لو تعاطاها (مادر) المشهور ببخله لسحّت أنامله جودًا وكرمًا، ولو شمّ عرف

شذاها (باقل) وهو المشهور بعيه وحصره لأفصح وأجاد!!

وهي أيضًا شفاء الهموم المدلهمات.. وهي البدر في الكأس.. والمشعشعة التي يطيب شذاها وتمد العقل بالنباهة.. كما يمد ذبالة النبراس الزيت!!

وهي تذكي البليد، وتنطقه نطق قس. وهي.. وهي.. وهي.. أوصاف ونعوت وإطراء.. ولا ابن هانئ مع خمره وكأسه.. وهذا ما استوقفني وجعلني أهيم بكتابة بحث كهذا!!

فهذا الشيخ عبدالله الكردي البيتوشي يبعث إلى الشيخ أحمد آل عبدالقادر بمقطوعة يشتكي فيها عدم وجود البن في بيته.. وكيف أن له أكثر من شهر قد فارق لذة الفنجان.. وقد ساء خلقه.. وكان ذا سجايا حسان.. أما حيث تنعدم قهوة البن فقد ضاق به المكان.. وضاق صدره عن احتمال الجنان!!

لي شهر إن لم يكن شهران ... منذ فارقت لذة الفنجان

ساء خلقي من بعده ولقد ... كنت كما كنت ذا سجايا حسان

ولقد ضاق بي مكاني حتى ... ضاق صدري عن احتمال جناني

رب ليل أطار نومي هواء ... في بيوت الكرى قبيل الأذان

إن هم يرضيهم معيشتي النكراء ... فلا خير في بقايا الزمان

فيجيبه الشيخ: أحمد آل عبدالقادر بعد أن بعث له - كما يبدو - بنصيب من البن:

اشرب الكأس دائمًا بالتهاني ... آمن العدم ما جرى الملوان

واصطبح قهوة كحمرة صبح ... بعد هزم الكرى قبيل الأذان

بنت بن لا بنت كرم حرام ... لم تذلل بعصرها في الدنان

فاسع في طبخها وقف لحلاها ... ثم طف للوداع نحو الحسان

وهذا الشيخ عبدالله بن علي آل عبدالقادر قد أكثر في شعره.. وأسرف في ذكر

القهوة وأترع لها الكأس من إطراء ومدح ولا يفتأ في كل مناسبة يعطرها بذكر القهوة.. فهو حتى إذا استبدت به لواعج الشوق والهيام والحب والغرام.. استغاث بالساقي:

أغثني أيها الساقي لعلي ... إذا أظـمتك نـازلة سـقيت
بكأس من جنى البن اليماني ... بنفسي أنت من ساق فديت
أهذا البدر في كأس التهاني ... مع الإشراق أم شفقًا حسيت
سلاف سلسل راح رحيق ... شفاء الهم حمراء كميت
مشعشعة يطيب لنا شذها ... متى آنست رياها انتشيت
شراب يبعث الأشباح حتى ... لو اني مقعد عمري مشيت
تمد نباهة عقلي كما قد ... يمد ذبالة النبراس زيت

وهذا هو.. وقد اجتمعوا وكانوا جماعة من العلماء والأدباء للنزهة في محل يعرف بـ (ناظرة) ودعوه للاجتماع معهم فكتب لهم:

يا نازلين على اتقاء ناظرة ... إنا نزلنا على كثبان يبرينا
لسنا سواء نظرتم والهوى قذف ... وقد جنينا ثمار الوصل دانينا
فإن شربتم على نار يمانية ... فقد شربنا على نور أمانينا
وإن تناولتم بالكأس لذتها ... فقد كرعنا فيهنيكم ويهنينا

وقال أيضًا من قصيدة له:

تولى كأسنا يوم التقينا ... كريم الطبع ذو ظرف موفق
يعاطينا كؤوسا صافيات ... كلون الزعفران إذا تدفق

وله أيضًا في تناوله قهوة البن قبل الصباح:

أدرها علي قبيل الصباح ... يمانية واسقنيها صراح
سلاف من البن تذكي البليد ... وتنطقه نطق قس الفصاح

مشعشـــعة مثـــل نـار الـهـــوى قد اقتبســت من خدود المـلاح

وهذا غيره.. الشـيخ الداعية الجـليل عبدالعزيز بن حمد يـقـول في قصيدة له طويلة:

لســت أنسى إذ أتـاني حــاملا كـأس بن فاق كاســات الـعنب

جالــب الأفــراح قـان لونــــه مطفئا من لاعج الوجـــد اللـهب

قال تـهوى الكأس صرفًا قلت بل مزجــه إن كـان بـالريق أحـــب

قـال: خـذه كيـف أحببـــت فما أنا في الحب مطيـع من عتـب

وهذا أيضًا الشيخ عبدالعزيز بن عبداللطيف آل مبارك.. يصف اجتماع أنس في عين (أم السبع) وكيف أن تلك الجـلســة كانت من فرص الدهر.. أخذوا في انتهابها خلسة منه مع عصــبـة خزرجية شمائلهم كالراح.. وكيف عززت الـنشـــوة وأدارتـهـا في الـرؤوس قـهـــوة البن الـتـي هـي شـفـاء الـهـمـوم المدلـهمات!!

تطوف علينا من جنى البن أكؤس شفاء الهموم المدلـهمات في الصدر

وفي وصف لاجتماع أنس ثان يقول:

ثــم دارت عـلى الندامــى قـــداح من جنـــى البن في لجين الأواني

قرقـف. تذهـب الـهمـوم وتحبـو بـأقل الـعي من ذكـاء ابن هـــاني

وهذا هو الشاعر نفسه.. يهنئ خاله بالزواج ويمدحه فلا يجد ما يتغزل فيه على العادة في مطلع القصيدة إلا قهوة البن فهو يقول:

قم فاسقني البن صرفا وامل لي القدحا فإن زند الـهنا والسـعد قد قدحـا

وعـاطنيـها سلافا سلسـلا عطـرا كخد ظبي بمسكي الندى رشـحـا

لـو ذاقهــا (مـادر) ســحّت أنـامله أو شم عرف شذاها بِاقِلٌ فصـحـًا

وبعد.. فهذه نماذج استطعت أن أجمعها أثناء قراءاتي لكتاب (شعراء هجر)

وهي كما ترى تدل على ولع بالقهوة شديد وتدل على أن قدحها كان من بين أقداح المشروبات معلى.. وتدل أيضًا على أن بين أوساط علماء وأدباء الأحساء لطفا وظرفا وخفة دم!!

ولعلي أوفق - إن شاء الله - لكتابة بحث جديد عن اللطف والظرف في الشعر الأحسائي...، وختامًا أرجو أن يكون هذا البحث المتواضع مدعاة للترفيه والتسلية.. في جلسة يعبق فيها شذى القهوة والزعفران!!

مجلة المنهل ربيع الثاني ١٣٨٣هـ

العتابي الفيلسوف الشاعر!!

أعتقد أن الكتابة عن الأعلام في الشعر أو النثر أو أي فن من الفنون.. لا تقل بحال في جديتها ونتائجها عن الكتابة في موضوعات الساعة التي أصبحت مطروقة بشكل مبتذل!!

أو قل إن الكتابة عن الأعلام، ودراسة آثارهم، واستنباط معانيهم، وتقصي مناحي تفكيرهم.. ضرب من الكتابة قائم بذاته.. وإن كنت ـ شخصيًا ـ لا أميل إلى هذا النوع من الكتابة.. أو أنني لا أجد نفسي مؤهلاً له لأسباب عدة.. أهمها أن باعي أقصر من أن يخوض هذه الغمار!!

وبنفس القدر من الأهمية أيضًا.. أنني أشتغل بالصحافة!!

الصحافة.. هذه الطاحونة التي تسحق الوقت، وتمحق كل فرصة للاطّلاع، والاضطلاع والتزود.. وقد يقال: فما شأنك بالعتابي إذن ما دمت تبدي كل هذا القدر من التنصل؟

ولكنني أبادر فأجيب أنني كنت ـ عرضًا ـ أقرأ في كتاب (قصص العرب) فعثرت في طريقي على خبر رائع من أخبار (العتابي)

شاقني الخبر كثيرا، ولم أكن قد قرأت عن هذا العتابي.. فاستنجدت فورا بكتاب الأغاني الذي تضمه مكتبتي لحسن الحظ.. فوجدت فيه بغيتي.. وجدت الكثير من أخبار العتابي المتناثرة هنا وهناك.. شاقتني في جملتها.. كما شاقني مفردها الذي عثرت عليه في كتاب (قصص العرب)!!

وأخشى أن يكون سوء حظ العتابي نفسه، هو الذي دفعني للكتابة عنه!!

بل أخشى أن يكون ـ أيضًا ـ سوء حظ القراء سببا ثانيا!!

وعلى أية حال، ومهما يكن من أمر، فإن (العتابي) وحده.. هو موضوع هذا المقال.. هو كلثوم بن عمرو العتابي.. قال عنه صاحب الأغاني: (شاعر مترسل مطبوع متصرف في فنون الشعر مقدم من شعراء الدولة العباسية).

وقد بلغ من شهرته وذيوع صيته، ورسوخ قدمه، ورواج أدبه وشعره ـ أن قال عنه يحيى بن خالد البرمكي لأولاده:

(إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمر العتابي فضلاً عن رسائله وشعره فافعلوا.. فلن تروا أبدًا مثله)

وهذا وحده يدل على مكانة الرجل وشهرته.. حتى في أرقى طبقات عهده.. ولا غرابة في ذلك فصاحبنا ـ كما يروى عنه ـ كان مبلغ همه الأدب وتحصيله لا يكاد يمل!! مر به أحد جيرانه يوما، وهو مكب على كتاب له فقال: أيش ينفع العلم والأدب من لا مال له؟

فأنشد العتابي لفوره:

يا قاتل الله أقواما إذا ثقفوا ... ذا اللب ينظر في الآداب والحكم

قالوا وليس بهم إلا نفاسته ... أنافع ذا من الإقتار والعدم؟

وليس يدرون أن الحظ ما حرموا ... لحاهم الله من علم ومن فهم!!

أي والله يا سيدي.. إن الحظ ما حرموا.. ولكنهم لا يفهمون.. أو هكذا على الأقل يجب أن يقال.. فالأدب والمال لا يجتمعان.. وهذه كما يبدو سنة الله في عباده من الأدباء!! وقد بلغ أيضًا من شهرته وذيوع صيته، وجبروته في معاني الشعر واستنباطها.. أن كان بيتان له.. سببا في حرمان كثير من الشعراء بباب المأمون.. فقد خرج لهم علي بن صالح وقال: هل فيكم من

يحسن أن يقول كما قال العتابي؟

ماذا عسى مادح يثني عليك وقد ... ناداك في الوحي تقديس وتطهير

فـت المدائـح إلا أن ألسـننا ... مسـتنطقات بما تحوي الضمائير

قالو: لا والله ما منا من يحسن أن يقول مثل هذا.. قال فانصرفوا.. فانصرفوا جميعًا!!

وبالرغم من أن غرض الشعر في هذين البيتين هو المديح، وهو من الأغراض الشعرية المستهجنة.. إلا أنه كان في ذلك الوقت بمثابة العمود الفقري للشعر.. ثم إن قوله:

فـت المـدائح إلا أن ألسـننا ... مستنطقات بما تحوي الضمائير

لفتة شعرية.. بل سجدة من سجدات الشعر.. إن كان للشعر سجدات!!

اتجاهه الفلسفي

الفلسفة هي - في عرفي - البحث عن الحقيقة.. أو هي النظر في الأشياء.. لا إلى شكلها الخارجي.. بل إلى أعماقها وأبعادها وما تنطوي عليه هذه أو تلك من معان لا تتفق.. أو لا تنسجم مع الشكل أو الهيكل وإن خدع بذلك من خدع!!

وشاعرنا العتابي ميال بطبعه إلى هذا النوع من النظر في الأعماق والأبعاد، ومقارنتها بالشكل أو الهيكل ومن ثم استخلاص أي شيء يؤمن به كشكل بما فيه أعماقه وأبعاده!!

اسمعه يقول:

إني بلـوت النـاس في حالاتهم ... وخبرت ما وصلوا من الأسـباب

فإذا القـرابة لا تقـرب قاطعـا ... وإذا المـودة أقـرب الأنسـاب!!

أرأيت؟.. لقد أمعن العتابي.. النظر في هذا الشيء الذي نسميه (صلة القرابة).. والذي تواطأنا.. أو تواطأ الناس على أنه كاف وحده لمحو القطيعة والطعن وتقريب أسباب المودة في حماية اختلاط الدم.. وتواطؤ الناس على ذلك.. إنما هو

ناجم عن قصر نظرهم.. فقد اكتفوا بالنظر، فحسب، إلى القرابة كشكل دون أدنى تمحيص.. بينما نفذ نظر العتابي إلى الأعماق.. فاكتشف لسوء الحظ أن الشكل لا يدل على المضمون، وإذا بالقرابة.. لا تقرب قاطعًا.. وإذا المودة أقرب الأسباب!!

أي بصرف النظر تماما عما إذا كان هذا الذي يوده قلبك من غير قرابتك أو قبيلتك.. فالمودة وحدها هي الأقرب والألصق بالقلب دائمًا وأبدا، وقد قيل أيضًا (رب أخ لك لم تلده أمك).

وقول العتابي:

لو كان للشكر شخص يبين — إذا ما تأمله الناظر

لمثلته لك حتى تراه — لتعلم أني امرؤ شاكر!!

وقد كان يكفي - لو لم يكن العتابي فيلسوفا شاعرا - أن يقول لهذا الذي أراد أن يشكره بكلمة واحدة معروفة معلومة (شكرا).. ولكن هذه الكلمة أصبحت لكثرة ما تداولها الناس ذات شكل لا أبعاد له.. وما كان العتابي الفيلسوف ليقنع بالأشكال فهو يتمنى لو كان للشكر شخص يبين.. أي حقيقة مجسمة.. تبدو ممثلة في شخصه.. ليراها ممدوحه ويلمسها كحقيقة.. فيقتنع ويؤمن بأن صاحبها يقول ما يعني.. أو يعني ما يقول.. فهو - أي العتابي - يحسب الآخرين على شاكلته شكًا في الأقوال والأشكال وولعا بالبحث عن حقيقتها..

وقد قلت: إن العتابي ميال بطبعه إلى البحث عن الحقيقة والنظر في أعماق الأمور، واستكناه أغوار عامة الناس من خلال أحوالهم وتصرفاتهم وأقوالهم.. فيستخلص من كل ذلك فلسفة مفعمة بالدعابة والضحك من الآخرين!!

هاكم هذه القصة دليلاً على ذلك؛ قال أحدهم: (رأيت العتابي يأكل خبزا على الطريق بالشام فقلت له: ويحك أما تستحي؟ فقال لي: أرأيت لو كنا في دار فيها بقر أكنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟

قال: لا..

قال: فاصبر حتى اعلمك انهم بقر.. فقام فوعظ وقص حتى كثر الزحام عليه.. ثم قال لهم.. روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار.. فما بقي أحد إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو أنفه ويقدره حتى ينظر أيبلغها أم لا؟!)

أما وقد أوردت هذه القصة من كتاب الأغاني.. كدليل على فلسفة العتابي المفعمة بالدعابة، والضحك، فإنني أبادر لأقرر أنه فيما لو كانت هذه القصة صحيحة مائة في المائة.. فإن أهل الشام أو غيرهم ما كانوا ليفعلوا ذلك بألسنتهم لو لم يكن الجهل - أيامئذ - مقرونا بالإيمان العميق الساذج، والتسليم والتأمين على كل ما يقوله واعظ أو خطيب باسم الدين.. وقد انتحل العتابي هذه الصفة ليثبت لصاحبه أنهم بقر - على حد وصفه - وهذا ضرب من الاحتيال.. ولكنه في ذاته فلسفة مع غض النظر عما في ذلك من أمور أخرى؟!!

العتابي الشاعر

الشعر.. غرره ودرره إلهامات تومض كوميض البرق في أحلك الظلم.. وميض البرق يسطع في ظلمة حالكة ينير للساري الطريق، ويوقع الاطمئنان في نفسه.. ووميض الإلهام يفجر ينابيع الفكر لتنساب أو تتدفق شلالات.. ومناهل عذبة يوقع خريرها في النفس الشاعرية النشوة والبهجة ومذاقها الحلاوة والعذوبة..

والعتابي شاعر من هذا الطراز ملهم.

عتب عليه الرشيد مرة فقطع عنه أشياء عوده إياها.. فأتاه متنصلاً - بهذه القصيدة:

ماذا شجاك بحوارين من طلل ... ودمنة كشفت عنها الأعاصير

شجاك حتى ضمير القلب مشترك والعين إنسانها بالماء مغمور

إلى أن قال:

مستنبط عزمات القلب من فكر ما بينهن وبين الله معمور

فت المدائح إلا أن ألسننا مستنطقات بما تحوي الضمائير

ماذا عسى مادح يثني عليك وقد ناداك في الوحي تقديس وتطهير

الله.. الله.. أية شحنة من الشاعرية هذه؟.

وأي ضرب من المبالغة هذا.. ما كان ليرقى إلى ذلك خيال شاعر لو لم يكن مُلهمًا بسخاء.. ومع هذا كله فقد اتهمه الناس بالتكلف.. وفي رأيي أنه لم يكن متكلفًا قط، وإن كان في بعض أشعاره ما لعله يوحي بذلك!!

إلا أن الرجل يخوض الغمار في خضم يعجز عامة الناس عن مقاومة جزره ومده.. ويستنير بهالة من ضوء الإلهام تعشي أعين الناس.. فلا أقل - قط - من أن يرموه بتهمة التكلف.. لأن غير المتكلف في رأيهم هو من يأتي بالشيء في مستوى تفكيرهم وفهمهم!! أما العتابي وأضرابه فلا..

ولكن لم يعدم العتابي في عصره من ينصفه ويقدر له أدبه وفضله.. فقد روي أن المأمون كتب في أشخاصه إليه.. فلما وفد عليه.. قال له: (كلثوم يا كلثوم بلغتني وفاتك فساءتني.. ثم بلغتني وفادتك فسرتني).

وكان هذا القول أو مثله هو أرفع وسام في ذلك العصر.

فرد عليه العتابي قائلاً: (يا أمير المؤمنين.. لو قسمت هاتان الكلمتان على أهل الأرض لوسعتاهما فضلا وإنعاما، وقد خصصتني منهما بما لا تتسع له أمنية!!)

وروي أيضًا أن جماعة تذاكروا شعر العتابي.. فقال بعضهم فيه تكلف.. ونصره البعض الآخر.. فقال شيخ حاضر: ويحكم.. أيقال إن في شعره تكلفا

وهو القائل:

رســـــل الضـــــمير إليك تترى	بالشـــوق طـــــالعة وحســـــرى
متزجيـــــــات ما بنين عــــلى	الوجـــــى من بعـــــد مســــــرى
ما جـــف للعينــــــين بعـــدك	يا قـــــرير العــــــين مجـــرى
فاســــــلم ســــــلمت مبـــرءًا	مـن صـــــبوتي أبـــدًا معـــــرى
إن الصــــــبابة لـــم تـــــدع	منــــي ســــوى عظـــم مبـرى
ومدامــــع عبـــرى علـــــــى	كبـــــــد عليك الدهـــــر حـــرى

قلت: وقد آن لي أنهي حديثي عن العتابي كفيلسوف شاعر.. لأنني إن زدت عن هذا الحد كنت مفرط الأنانية باقتطاع صفحات من هذه المجلة.. هناك من هو أحق بها مني!!

مجلة المنهل - رمضان ١٣٨٣هـ

قصيدة وشاعر

الأستاذ السيد محمد السنوسي من الشعراء الذائعي الصيت النابهي الذكر، ولست هنا بسبيل الحديث عنه أو الترجمة له فهو والقراء في غنى عن ذلك، ولكنني هنا بصدد الحديث عن قصيدة له. سأحاول أن أستعرضها وأقارنها بالواقع الذي أعرفه شخصيًّا. وقد يتساءل القارئ لماذا اخترت هذه القصيدة بالذات من بين عشرات القصائد التي حفل بها ديوانه (القلائد)؟ فأقول إنها القصيدة التي لها في نفسي أصداء خاصة وأنا لا أكتب إلا عما يتجاوب في جنبات نفسي، ويضطرم. فيتمخض عنه ما أكتب - على قلّته - لأنني هاوٍ، ولست بمحترف، وإن كنت الآن شبه محترف. بحكم عملي أخيرًا في بلاط صاحبة الجلالة (الصحافة).

أقول سأعرض لهذه القصيدة وأقرن كل بيت منها بواقعه، وإن كان في إخضاع الشعر للواقع المحض المجرد ما يفقده رواءه وبهجته، والقصيدة هي (الجنوب الخصيب) هذه القصيدة قرأتها مرات قليلة فاستظهرتها غيبًا. ومطلعها:

أهبت بها فلبتنى طرابًا   قواف كالسلاف صفًا وذابًا

واسترسل الشاعر في هذا الروي والمعنى إلى أن قال:

عصارة مهجة وجنى يراع   خصيب كالجنوب زكى وطابًا

ولعل من تحصيل الحاصل وفضول القول أن نتحدث عن خصب (الجنوب) - مقاطعة جازان - حديثا والمخلاف السليماني قديمًا، وأوديته ومعاميله الزراعية المترامية الأطراف وتربته الخصبة وطبيعته الرائعة الجذابة وموقعه (الاستراتيجي) الهام، و.. ونجي الشعر!!

ويا وطنـــي وأنـــت ولا أغـالي نجـــي الشـــعر شطآنا وغابا
قـــرأت على شـــواطئك القوافي محبـــرة تفيـــض بها عبـــابا

فأما الشواطئ فللقارئ الكريم أن يعرف أن هناك جنوب مدينة جازان العامرة الرابضة على شاطئ البحر الأحمر سلسلة كثبان رملية ناصعة البياض ناعمة الملمس تتكسر عليها أمواج البحر تردد (صدى حلوًا وأنغامًا عذابًا).

تنـــام عـلى جوانبـــه الروابي معطـــرة مخـــدرة كعـــــابًا

وهذه الروابي المعطرة المخدرة هي منتدى الطبقة المترفة في جازان، تمامًا كالعقيق في المدينة المنورة بزمانه هناك بين الروابي القوز الشهيرة: (قوز الشويعر) يرتاده من ضمن من يرتاده عقب كل صلاة عصر، الشاعر السنوسي نفسه وسواه من الشخصيات البارزة في جازان، وغالبا ما يكون وجودهم هنالك حين يكون الوقت أصيلا تتهيأ فيه الشمس للوجوب أو الغروب، وتنعكس أشعة (أخت يوشع) على صفحة البحر فيجتمع من منظرها كذلك ومن منظر البحر والشجر والروابي المعطرة والهواء الطلق صورة شاعرية رائعة تتجلى فيها الطبيعة كأروع ما يمكن أن يكون في سحرها وجاذبيتها. ثم كيف لا يكون السنوسي شاعرا مع كل هذا؟. ونعود إلى البحر والرواسي التي تغفو فوق ضفته:

وتغفـــو فوق ضـفته الرواسي نواهـــد عز خاطبهـــا وغابـــا

أما إنها تغفو فلا أعرف.. ولكنني أعلم أن هناك فوق الضفة الجبال الرواسي في ثبات خالد بالرغم من اعتداء المواطنين عليها للبناء بالحجر، وأما إنها (نواهد عز خاطبها وغابا). فلله در السنوسي أي شاعر هو..

تضـــم صـــدورها أغلى الأماني وأحـــلاها وأكرمهـــا رغـــابًا
عـــذارى لم يفـض لهـــن ختـــم ولا كشـــف النقـــاب لها نقـــابًا

أي أن هذه الرواسي الشامخة الخالدة (النواهد) تضم في صدورها أغلى

وأكرم الأماني، أن تشهد نفسها يوما وقد غلفها دخان المصانع يتصاعد إلى عنان السماء ليراها الشاعر تحقيقًا لأمنيته..

فهل لي أن أراك وقد تجلت … بك الأحلام رائعة عجابًا
وقد شغلت مصانعك العطإلى … وقد ملئت مزارعك العيابا

ولكن يبدو أن السنوسي قد أسرف كثيرًا في هذه الأماني متأثرًا بأسلوب الشعراء ولكنها على أية حال:

منى إن تكن حقًّا تكن أحسن المنى … وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

وبعد أن يسمح الشاعر لنفسه بكل هذه الأحلام والأماني دون الاستئذان من واقع الأمر يناجي بلاده أو وهو يخاطب الرواسي (النواهد):

رأيتك والوفود عليك تترى … بأجنحة تزف بها اصطخابا
حوائم كالطيور وردن نبعا … فأسرع سربها وجرى غلابا
تدافع بالقوادم والخوافي … وتقتحم الشوامخ والهضابا
ترنق تارة وتسف أخرى … يكاد يمس جؤجؤها الترابا

يا لله.. إن العزف على هذا الوتر الرنان لا يجيده أدعياء الشعر. إنها الشاعرية الحقة والخيال المجنح والأسلوب السلس والاطلاع الواسع هيأت لنا هذه المعاني في حلة (سنوسية) قشيبة وشنفت آذاننا بهذه الأنغام المنسابة في إيقاع موسيقي

محكم رنان.

ونعود لذكر الوفود:

وحق لها وقد وردت ورادت … ثرى خصبا وأودية رحابا
إذا لمع البريق على سماها … جرى الوادي وسال بها شعابا
وإن رعد السحاب على ذراه … سرى الحادي يهز بها الركابا

وكأني بالمواطن (الجازاني) المزارع قد وقف ينظر شرقا إلى قنن الجبال والرعد يقصف والمطر ينهمر ويصب في الشعاب التي ستتضافر بدورها وتصب في مسيل واحد هو (الوادي) فيندفع بسرعة جارفة وارتفاع هائل أذهل خبراء السيول فقرروا أن أودية (جازان) تسجل رقما قياسيا في ارتفاع ماء السيول في العالم.

وكأني بالمزارعين وقد وقفوا خارج القرى يحملون (المساحي) ويتشممون رائحة السيل: (امخبان) ويصغون لخريره فإذا ما تأكدوا من قدومه اندفعوا سراعا إلى السد (العقم) العمومي يحمونه ما أمكن، من جبروت المسيل وطغيانه حتى إذا ما أخذ الماء في الاتجاه الذي أرادوه له تبعوه وصرفوه كما شاءوا إلى (المساقاة) من أرض لأرض في مساحات شاسعة. ومتى سقيت وحرثوها وبذروها بطرقهم البدائية جدًّا (يغل الفصل أربعة نصابا) أي أربع مرات.

حقـــول خصــبة وثـــرى غني	**يغـــل الفصـــل أربعة نصـــابا**
يـــدا للـــه خص بهـــا بلادي	**فســـبحان الذي أعطـى وحابى**
فكيـــف إذا أقيم الســـد حصنا	**يصـــد الجـــدب عنهـــا والخـــرابا**

ولكن السد أيها الشاعر في واد واحد لا يكفي والأودية غيره كثيرة وكبيرة. ونراك قد اقتصدت في الأماني لست أدري لماذا؟ لعلك قد اقتنعت بأن الأماني الممعنة عرضة للوأد، أو أنك أدركت أن وزارة الزراعة تضيق ذرعا بأحلام الشعراء وأمانيهم فخففت الوطأة (يا ضيعة المنى؟).

وبعد فهذا عرض لقصيدة وطنية رائعة حاولت جهدي بين أن أوجز وبين أن أبرزها في الإطار اللائق بها فضعت بين ذلك، وأرجو أن أكون قد وفقت بجهد المقل وتحية للشاعر السلفي المجدد!!

مجلة المنهل شهر ذي القعدة ١٣٨١هـ

قصيدة.. وشاعر!

أذكر أنني نشرت مقالا بهذا العنوان نفسه (قصيدة.. وشاعر) عن قصيدة رائعة للأستاذ الشاعر محمد بن علي السنوسي.. وكان عنوانها (الجنوب الخصيب) وقد نشرت مقالي ذاك في مجلة المنهل عام١٣٨١هـ.

ويعلم الله أنني في مساء الأمس فقط، فكرت في كتابة سلسلة مقالات تحت هذا العنوان نفسه (قصيدة.. وشاعر).. بحيث أختار القصائد التي تعجبني.. وأكتب عنها لهذه المجلة بالذات استجابة للدعوة الكريمة التي تلقيتها من معالي الشيخ حسن آل الشيخ، المشرف على هذه المجلة[1].

واليوم.. وقد دخلت مكتبي وأنا أهم بالبحث عن قصيدة يمكن أن تعجبني فأكتب عنها وعن صاحبها..

جلست إلى مكتبي.. وقلت في نفسي:

أشرب قهوتي أولاً.. ثم أقوم بالبحث في مكتبي عن القصيدة المطلوبة.. وكانت تقبع على مكتبي بعض المجلات التي لم أقرأها بعد، وهي عادة اعتدت عليها.. أن أترك على مكتبي. أقصد مكتبي في المنزل ـ المجلات التي لم أقرأها تمهيدًا لقراءتها في الوقت المناسب.. وكان من بين تلك المجلات المكدسة على مكتبي في انتظار القراءة (المجلة العربية) العدد العاشر من السنة الخامسة.. فتناولته لمجرد تزجية الوقت أثناء شرب قهوتي.. وإذا بي.. وأنا أتصفحه، أفاجأ بقصيدة الصديق الدكتور غازي القصيبي، وأنا هنا أذكره مجردًا من لقبه الرسمي.. ذلك لأنني هنا لا يعنيني غير الصديق الشاعر الدكتور غازي القصيبي..

---

(١) المجلة العربية.

أما (معالي وزير الصناعة والكهرباء) وهو نفسه القصيبي أيضًا.. فهو لا يعنيني ولا يهمني إذ ليست عندي أية معاملة تتعلق بالصناعة والكهرباء!!

وأما القصيبي الشاعر فهو صديقي وحبيبي وشاعري.. ولا يمكن أن تأخذه مني أو من قرائه، الوزارة!!

قلت: (إنني فوجئت) بقصيدة الدكتور القصيبي في المجلة العربية.. وليس في وجود قصيدة القصيبي في مجلة سعودية ما يمكن أن يكون مفاجأة.. ومعنى هذا أن تعبيري غير دقيق!!

ولكنه دقيق جدًا - إذا عرفتم السبب - حيث كنت أبحث عن هذه القصيدة بالذات منذ سنة تقريبًا دون جدوى.

لقد سمعتها - منذ عام تقريبًا - بصوت القصيبي نفسه في سهرة خليجية من تلفزيون البحرين.. فكانت قصيدة رائعة بكل معنى الكلمة سواء من ناحية المعنى أو المبنى.. أو من ناحية الإلقاء.. حيث كان الشاعر يلقي قصيدته وهو ينزف تقريبًا.. أو من ناحية الإخراج والمناظر الصادقة الأصيلة المصاحبة لإلقاء القصيدة بحسب كل معنى من معانيها تقريبا.. وقد بذل تلفزيون البحرين جهدا رائعا في كل ذلك.. جهدا لا يكاد يبذل في إخراج معظم الأفلام العربية.. فما بالك بمجرد قصيدة؟!

ويعلم الله أنني شعرت ليلتها بغيرة شديدة من تلفزيون البحرين وسبقه لتلفزيوننا بمثل هذا الإخراج الرائع للقصائد الشعرية.. مما يدل على عنايتهم الفائقة هناك بالشعر والشعراء.

المهم أنني من ليلتها وأنا أبحث وأتمنى أن أقرأ هذه القصيدة فأنا أستمتع بالقراءة أكثر مما أستمتع بالسماع!!

وها هي القصيدة - الآن - أمامي في المجلة العربية.. المجلة التي أريد أن أكتب

لها.. وأن أكتب لها مقالات تحت عنوان (قصيدة.. وشاعر).. فيا للصدفة!!

ووالله الذي لا إله غيره.. أن ذلك الذي ذكرته في مقدمتي الطويلة هذه.. هو ما حدث لي بحذافيره.. فما أعجب المصادفات!!

وإذن فهذه القصيدة أعجبتني.. وهذا شاعر يعجبني أيضًا في كثير من الأحيان فماذا يمنع.. بل ما أحراني بعد كل هذه المصادفات اللطيفة أن يكون موضوعي الأول (قصيدة وشاعر) هو هذه القصيدة نفسها.. وهذا الشاعر بذاته!!

القصيدة عنوانها (العودة إلى الأماكن القديمة).. وقصتها.. أو خلاصة قصتها ومعناها ومضمونها أن شاعرنا قد نشأ في طفولته وصباه الباكر في مراتع البحرين.. أو بالأصح في حي من أحياء البحرين وعلى الشاطئ بالذات..

كان يغفو في أذرع البحر بيتي   حوله الماء رقصة ولحون

كنت أصحو والجزر خل وفي   كنت أغفو والمدجار أمين

والأماسي على الضفاف نعيم   والهواري لهو وصيد سمين

قضى شاعرنا طفولته في هذا الحي من أحياء البحرين (المنامة) يلعب ويمرح ويلهو.. وما أكثر أسباب اللهو المرح لطفل صغير حتى ولو كان يعيش في بيئة بسيطة ساذجة.. ثم عرف شاعرنا في حيه ذاك حب (نجلاء) عندما أصبح في سن مناسبة للشعور بالحب.. فكان أول حب في حياته..

ألف حب ولكن أول حب   هو في مهجتي الأثير المصون

ثم بعد ذلك قذفت بشاعرنا رياح الترحال فانتقل إلى المملكة العربية.. ثم ارتحل كثيرا إلى العالم الخارجي طلبا للعلم والدراسة حتى حصل على الدكتوراه فعاد إلى وطنه (المملكة العربية السعودية) ليشارك ـ كغيره من أبنائها المخلصين ـ في بناء نهضتها.. وليتدرج في المناصب الرسمية حتى أصبح وزيرا يشار إليه بالبنان.

ولكن ما قيمة كل ذلك.. وهو على حساب الأيام والسنين من عمره؟

وما قيمة كل ذلك إلى جانب البراءة والملاهي والفتون التي عاشها في طفولته وصباه؟!

واليوم عاد!!

رجع (وما أحلى الرجوع إليه)!!

قام بزيارة للبحرين.. عاد إليها.. ولكن ما قيمة العودة وقد انسلخ من طفولته البريئة، وصباه الفتان!

عـــدت كهـــلاً تجره الأربعون   فأجيبـــي أين الصـبا والفتون

عـــدت بحـــرين لا الفؤاد فؤاد   مثـل أمس ولا الحنيـن حنـين

عـدت والشيب بارق عبر فودي   وعـلى مقلتـي غيـم هتـــون

بمثل هذه الروح المليئة بالشجن والأسى والمرارة وصدى الذكريات عاد شاعرنا إلى البحرين.. فوجد الدنيا قد تغيرت.. وهو قد تغير أيضًا.. حتى حيه الذي كان يسكن فيه قد غيرته لمسات التطوير الذي طرأ على حياة البحرين كما طرأ التطور على الشاعر نفسه..

غيـــرت لمســـة التطـور حيي   فهو شـــكل فخم ولا مضـــمون

أيهـــا الحـــي إن عتبت فقل لي   داس قلبي وداســـك التمـــدين

وهذه صرخة عاطفية من الشاعر ضد التمدين الذي يمسح الذكريات.. ويمسخ ملاهي الصبا والفتون..

ويذهب الشاعر يتمشى في فرضة المنامة فيجد المسح والمسخ قد كنسا كل شيء من مواطن لهوه.. وملاعب صباه فيجتر ذكرياته عن معالم حيه.. وعن أشياء كثيرة ألفها وعشقها فذهبت على يد التمدين!!

ولكن إذا كان كل شيء قد ذهب على يد التمدين.. فأين (نجلاء)؟؟

أيـــن نجـلاء بيتـهـا كان قرب الـ ـعين يا بيتـهـا فدتـك الـعيـون

نظـــرة فابتســـامة فمكـــاتيـ ـب عليها تنفـــس الياســمين

فاشـــتياق فصـــبوة فســـهاد فهيـــام فلوعـــة فجنـــون

فقصـــيد تشـــكو الدفـــاتر منه قـــل فيـــه الفصـيح والموزون

ولكن شاعرنا يبرر قلة الفصيح والموزون في شعر الصبا والشباب خير تبرير.. حيث يقول:

خيـــر شـعر ما قيل والقلب طفل خيـــر حب ما مـات وهو جنين

وبعد فهي قصيدة رائعة حقًّا، ومضمونها الإنساني الممعن في أساه ولوعته لا يمكن إلا أن يشدك شدًّا إلى هذه القصيدة.

تلك هي ملامح عن القصيدة.. وأما الشاعر فهو أشهر من أن يعرف.. وبذلك لا لزوم للشطر الثاني من العنوان.. فاحذفوه إن شئتم!!

المجلة العربية رجب ١٤٠٢هـ

الوفاء المزعوم.. عند السموأل

قصة طريفة ومؤسفة حدثت لفقيد الأدب العربي شاعر فلسطين الأكبر المرحوم إبراهيم طوقان بسبب السموأل.. أو الوفاء الذي خلدته القصيدة الشهيرة:

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه   فكـــل رداء يرتديــــه جميــــــل

كان المرحوم (طوقان) يعمل في دار الإذاعة الفلسطينية أيام الاستعمار البريطاني وكان شديد اليقظة لبوادر الغدر والدسائس التي يحيكها الاستعمار الانجليزي لتمكين إليهود من فلسطين.. ولذلك لم يكن ـ رحمه الله ـ يترك مناسبة إلا ويفجر من شعره الحمم، ومن نثره الشواظ.

وفي أمسية من أمسيات عام ١٩٣٧م أذاع الشاعر الكبير حديثًا له عن الوفاء المزعوم عند السموأل بعنوان (حقيقة وفاء السموأل) قال فيه:

(إن السموأل افتدى الأدرع بابنه حرصا منه على المال الذي آثره على وحيده.

أَوَلَيْس السموأل يهوديًّا؟ أوليس حب المال صفة تميز بها إليهود منذ القديم؟)

يوســـــف باعـه أبوكم يهوذا   إن حـــب الدينـــار فيكـم قديم

فكان الحديث (صفعة) قوية ضج لها ومنها إليهود.. وقامت الأوساط إليهودية وصحافتها بحملة عنيفة على الشاعر الكبير وشكوه بإلحاح ولوّم زائدين لدى السلطات البريطانية.. مما اضطر معه الشاعر أن يذيع بحثا علميّا ضافيا عن (حقيقة وفاء السموأل) أثبت فيه بالأدلة والبراهين ما نلخصه فيما يلي:

١ ـ أن السموأل كان تاجرًا مرابيًا، وأن امرأ القيس لم يترك عنده الدروع وديعة، وإنما تركها رهنًا لقاء المال الذي أخذه من السموأل لأن الدروع كانت

من أثمن مقتنيات ذلك العهد وان السموأل ـ وهو التاجر المرابي ـ لا يمكن أن يعطي المال لامرئ القيس بدون ضمان.. لذلك كان الضمان هو الدروع التي تركها امرؤ القيس عند السموأل. فلما طالب الحارث بن ظالم بالدروع امتنع السموأل عن تسليمه واحتمى بحصنه المنيع في تيماء.. ولكن الحارث بن ظالم حاصر القصر في الوقت الذي عاد فيه ولد السموأل من رحلة صيده فأسره الحارث ونادى على والده. أما السموأل فقد أصم أذنيه ورفض تسليم الدروع. وضحى بولده على مذبح حبه للمال.. لأنه لو سلم الدروع ضاع ماله، ولو أراد أن يفتدي ولده بالمال لاستطاع.. بل كان يمكنه تسليم الدروع نفسها وأن يشتري بدلاً منها أثمن منها وأحسن، أو أن يدفع قيمتها مضاعفة ولكنه وهو اليهودي طغى عنده حب المال على حب ولده!!

٢ ـ أثبت الشاعر الكبير في بحثه أن حكاية امرئ القيس مع السموأل انفرد بها راوية اسمه دارم بن عقال، وأن دارمًا هذا هو من ولد السموأل، وأنه هو الذي نحل قصيدة امرئ القيس في السموأل.

طرقتك هند بعد طول تجنب وهنا ولم تك قبل ذلك تطرق

وأورد الباحث الكبير قول صاحب الأغاني الذي علق فيه على الرواية والقصيدة (.... وهي قصيدة طويلة وأظنها منحولة لأنها لا تشاكل كلام امرئ القيس، والتوليد فيها بين، وما دونها في ديوانه أحد من الثقات، وأحسبها مما صنعه دارم لأنه من ولد السموأل...)

٣ ـ أشار الشاعر الباحث إلى أن دارم بن عقال ما دام هو من ولد السموأل، وأنه الوحيد الذي انفرد برواية امرئ القيس مع السموأل ونحل قصيدة امرئ القيس فلا يبعد أن يكون قد نحل قصيدة السموأل نفسها، خاصة وأنه (ليس فيها ما يدل على جاهليتها لا لغة ولا تفكيرا) وانظروا إلى الصناعة في قوله:

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

فما أغرب أن يكون هذا القول من السموأل؟!

وما أبعد أن يكون للجاهليين المعاصرين لامرئ القيس مثل هذا الاسلوب...)

هذا هو ملخص البحث.. بل هذا هو ملخص القضية.. وإنما القصة لها بقية أو تتمه إن شئتم.. فإنه بالرغم من منطق المرحوم طوقان في دفاعه عن نفسه، وعن بحثه إلا أن السلطة البريطانية فصلته من عمله في الإذاعة لمجرد حديثه عن حقيقة وفاء السموأل... فيا لديمقراطية الاستعمار البريطاني؟..

ملحوظة: من شاء التوسع في الاطلاع على القصة بكاملها، وعلى البحث بكامله فليراجع كتاب البدوي الملثم (إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانه) من ص٩٣ إلى ١٠٢ ط بيروت - منشورات المكتبه الأهلية.

أما هذه المقالة فلم تكن سوى التلخيص الموجز للقصة والبحث بمناسبة ما أثاره الزميل راضي صدوق في يومياته منذ مدة بجريدة البلاد عن قصيدة السموأل أردت أن أشرك القراء في الموضوع لعل منهم من يضيف جديدًا وليرحم الله شاعر فلسطين الأكبر رحمة سابغة فلقد أثار هذا الموضوع منذ أكثر من ثلاثين عامًا..

الأدب الشعبي في الجنوب

هذا العنوان بالذات.. كنت اقترحته شخصيًّا على أستاذنا المؤرخ النابه (محمد بن أحمد عيسى العقيلي) ليكتب تحته بحثًا يسهم به في العدد الممتاز في مجلة الجزيرة التي ـ كنت ـ أتشرف بإدارة تحريرها.. فاستجاب مشكورا.. وأرفق ببحثه الممتع قصيدة مطولة للشاعر الشعبي المبدع (علي بن فارس النعمي) وأخرى أو ثانية لـ (الزويكي).. قرأتها.. وأعدت.. وأعدت حتى كدت استظهرهما وقد تأثرت بهما بشدة.. وأهاجتا في نفسي ذكريات(!!) أقل ما يقال عنها قول الشاعر:

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وقد احتفظت بالقصيدتين.. واكتفيت بنشر نماذج منهما.. لأنني لو نشرتهما لاستغرقتا صفحات من المجلة.

قلت إنني تأثرت بهاتين القصيدتين.. وما زلت أرددهما.. وأردد مما زادني شوقًا وهيامًا إلى المزيد من قراءة أو سماع الأدب الشعبي.. ونغمته المحببة في وطني الحبيب (جازان)..

ولكن لا سبيل إلى ذلك.. لا سبيل إلى المزيد.. فهذا النوع من الأدب غير مدون مع الأسف.. ولا سبيل إليه إلا من أفواه الرواة.. وهم الآن في مقاطعة جازان نفسها قلة نادرة.. أندر من شعرة بيضاء في جلد ثور أسود.. فكيف بي.. نعم كيف بي هنا في الرياض؟.

ولكن اليوم ـ ويا للصدف ـ طرق بابي قادم من جازان يحمل إلي رسالة من

والدي المقيم هناك.. وبعد أن استقر به الجلوس بدأت أسأله الأسئلة التقليدية إياها عن الأحوال والأخبار.. والأسعار!!

ولست أدري كيف انتقل بنا الحديث فجأة من أخبار وأسعار إلى طرائف وأشعار.. فوقعت من الرجل على باقعة ـ كما يقولون ـ لقد اكتشفت أنه راوية للشعر الشعبي.. فاستكتبته الكثير من القصائد الشعبية.. فكان ينهال أو ينثال.. لا يكاد يكف من إنشاده بطريقته الخاصة.. وحركاته المعبرة.. ونغماته المحببة.. والتي لا أستطيع للأسف أن أنقلها للقارئ.

وبعد أن ذهب الرجل لشأنه. استعدت ما استكتبته منه.. فاستوقفتني قصيدة فيها الكثير من الواقعية.. والبراعة في التصوير.. وفيها الكثير من الهزل والمفعم بالجد.. والدعابة الساخرة المشحونة بالأسى والمرارة!!

والأدب الشعبي في كل مكان وزمان على ما فيه من عامية وعناد لأوزان الخليل، وحرب لا هوادة فيها لقواعد (الشيخ) سيبويه.. على الرغم من كل ذلك تجده يزخر بالصور الجميلة المعبرة.. وبالمعاني العميقة، يستمدها أو ينتزعها من محيطه وبيئته بلغته البسيطة.. وفطرته السليمة.. فيرسمها بريشته البارعة المفعمة بروح النكتة والدعابة والهزل.. كما سنرى بعد.

مقاطعة جازان تعيش منذ القدم وإلى الآن[1] على محصولها الزراعي من ذرة ودخن.. يطحنونه ويخبزونه بطرقهم البدائية المتوارثة.. ويقتاتون منه.. ويأتدمون باللبن ومشتقاته.. وبعض الخضروات، القليلة في نادر الأحيان.. وغالبًا ما تكون بقولاً لا أكثر ومنها خضروات أُخرى!!

فإذا تتابع المحل والجدب انقطع بالمواطنين ما ادخروه من حبوب. وهلكت الماشية. وجف الضرع.. وتفشت المجاعة.

---

(١) كان هذا في تاريخ كتابة الموضوع ونشره.. أما الآن فقد تغير الحال بعض الشيء..

وفي مثل هذه الأحوال والظروف الكئيبة ينشط تجار مدينة (جازان).. وأكثرهم من إخواننا.. (الحضارمة) ينشطون في استيراد نوع رخيص من الحبوب.. يسمى هنالك (البحرية).. وإنما سمي بهذا الاسم الكريم لا لشيء.. إلا لأنه يأتي عن طريق البحر في السفن (السواعي).. يستورد التجار هذا النوع الرخيص من الحبوب، ويصدرونه للقرى، ومضارب البادية.. وأكثر ما يكون بيعه (نسيئة) أي مؤجلاً.. ولكن في هذه الحالة بأثمان باهظة رغم رخصه وعدم جدواه إلا في المجاعة كَشَرٍّ لا بد منه!!.

ومثل هذه الظروف القاتمة كثيرًا ما تعرضت لها مقاطعة جازان في أزمان متفاوتة القدم.. فكان لا بد من الأدب الشعبي أن يصورها.. ويتغنى.. أو بالأصح يئن بها!! وأعتقد أن أظرف... وأعمق قصيدة تناولت هذا الموضوع.. هي القصيدة التي نحن بصددها توًّا.. لقد أراد الشاعر أن يعبر عن البؤس.. والفاقة التي يعاني منها الأمرَّين هو وقومه.. فلم يجد خيرًا من الأسلوب الهازل الساخر.. الضاحك عن بكاء.. ينفس به عن نفسه.. وذلك حيث يقول:

لابتنـــي فالبحـــرية ردت علينا وتقـــول غيبت وانتم في ســـنينا

رب قدكــــــم في المليــــــــح

وإلا فـــانا أمكــم وأنتـــم ولادي والله ما حكلكم على حب البلاد

حتى ياجي سيل يبحر كل وادي يطلــــــب الوالــــي ســــــماح

والشاعر إنما أراد أن يقول: (يا قومي أو عشيرتي (لابتي) لقد تتابع علينا الجدب حتى لقد مكن هذه (البحرية) الرخيصة أن تشمت بنا وتقول: لقد تغيبت سنينًا وأنتم في (المليح).. في الرخاء والنعيم لكثرة ووفرة حبوبكم وألبانكم.. وماشيتكم.. أما وأنتم الآن بدون ذلك فإني لكم كالأم الشفيقة(!!)، والله لن (أحكلكم) أترككم لحب البلاد القليل النادر.. لن أترككم حتى يأتيكم الخير

ويسيل كل واد من أوديتكم.. لن أترككم:

حيث واني من ذوي القعدة معاكم من بحـــور الـهند يرموني قداكم

لو حكلتم عالدفين كانت فناكم وانعـــــــدم ذكــر الطعــــام

تقول هذه (البحرية).. أو على الأصح يقول الشاعر بلسانها: لن أترككم.. وأنا من شهر ذي القعدة معكم (ويقصد الشاعر هنا أنه لم يعد هناك أمل في نزول المطر - حيث انتهى موسمه - وهذه البحرية هي زادنا من شهر ذي القعدة من العام المنصرم) وتقول (البحرية) لو تركتكم للقليل المدفون من حبوبكم لهلكتم وانعدم ذكر الطعام وتستطرد فتقول:

إلا أنا في البحر كالأم الشـــفيقة والله ما تلقون جزاية في الحقيقة

لا أبيت قاموا (الحضارم) بالفريقة ويهـــــــــدوني البـــــــــرور

إن الشاعر هنا يسخر سخرية لاذعة مؤثرة.. إنه يقول:

(ما دمنا في حال كهذا الحال البائس.. فلا أقلّ من أن تكون لنا هذه (البحرية) كالأم الشفيقة.. ولا أسوأ من حال تكون فيه هذه امًّا!! وتكون منّانة أيضًا.. فهي تردد: (والله ما تلقون جزاية في الحقيقة) أي والله لا تستطيعون أن تكافئوني بقدر ما أسديت إليكم.. ومع كل ذلك فأنا أعرف أنكم لا ترغبون فيّ.. ولكن ماذا أفعل؟ (لا أبيت قاموا الحضارم بالفريقة.. ويهدوني البرور..) أي إذا أنا أبيت المجيء إليكم.. قام الحضارمة بالإتيان بي قوة وقسرًا - أراد الشاعر هنا أن يسخر بتجار مدينة جازان الذين يستغلون مثل هذه الظروف استغلالاً بشعًا فاحشًا.

وهنا أو عند ذلك الحد من كلام (البحرية) انبرى لها حب الدخن البلدي:

قال يا حـــب الذرة روحي بلادك لا تهدين من بحور النيل عادك

يا (دوينة) ما أنت للصبيان زادك وإلا للماشـــــي متـــــوع

ومعنى هذا أن حب الدخن انبرى لهذه الذرة البحرية مزمجرًا غاضبًا من هذه المنافسة الدنيئة الوقحة.. ويقول لها: اذهبي إلى بلادك، لا أراك مرة أخرى تعودين من البحور.. فأنت مبذولة (دوينة) إنما أنت طعام البغال والحمير في بلدك.. فكيف تكونين هنا زادًا للصبيان أو متاعًا للرجال؟؟

ولا بد هنا للبحرية أن تدافع عن نفسها:

قالـت إني جيـت والأمّـة جـراره الصـبي يحيا إلى شـم الغراره

كنت في جيزان يرموني البحارة والقــــــوافل بي تـــــروح

أي إنها تقول لحب الدخن الغاضب المزمجر: (هون عليك فإنما جئت والأمّة في النزع الأخير، (جراره) حتى لينتعش الصبي لمجرد رائحتي في الكيس (الغراره) ولا ذنب لي في الوصول إلى هنا فقد كنت في جيزان (يرميني البحارة).. تأتي بي اليكم القوافل!!

قال حب الدخن قدنا في المعاده هيا نمشي عند من ساكن سواده

والطميحــي لا تميل في وســـاده تســـمع إلا الزمر هو والمـــداده

يقول حب الدخن (صرنا أنا وأنت أيتها البحرية منذ الآن نتناصب العداء (المعاده) فأنا أتحداك أن تذهبي معي إلى قرية (سواده) حيث أنا هناك سيد البلاد.. عندما أتمايل في سنبلتي على جوانب السدود.. لا تسمعين أهل قريتي إلا في طرب وحبور بين مزمار وغناء (الزمر والمداده)..

قالت إنه صدق لا أرضك مخيرة وأنا شيعي من عدن حتى النغيرة

إلا جاني العلم وأنا في الجزيرة إن ما عـــــاد لـــــك بـــــروق

أنت تسعى بالريال عند الشياطه قل ناموســك إلى قديهم لقاطــه

حتـــى في المتعـــة ثقيـــل

وأنا سعري صاع من فوق السقاله يفرحون بي المشتري هو الشياطه

واغتنــــي راعـــي الجمـــل

وهنا ـ كما ترى ـ لجأت البحرية إلى بعض المنطق في الدفاع عن نفسها مع شيء من التطاول والتهكم.. والشماتة أيضًا!!

فهي تقول: (صدقت أيها الدخن فيما قلت وأنك سيد البلاد.. ولكن في حالة تكون قد أغدقها المطر.. وسقاها السيل.

أما الآن فقد أتاني الخبر وأنا في بلادي عن الجدب والمجاعة في بلادك.. وبالتالي عن تقلص نفوذك.. وأنك قد أصبحت لقلّتك يتداولك الناس بسعر الريال.. حيث لا يجدون منك مزيدًا في السوق يشترونه بالريالات.. أما أنا فأباع بالصاع والكيس لمجرد نزولي في الميناء (السقالة)

وإذن فقد أصبحت أنا سيدة البلاد!!

قال حـب الدخن نخرج للبدايا عند شيخ امسرحى أو في المضايا

وأنا عود مزهــره عز القرايـــا يعرفــــون غــــالي الطعــام

إنه يقول لها في تبرم.. وفي انكسار أيضا: (ما دام الأمير كذلك.. وما دام أن أهل هذه المدينة يستوردونك بالرغم مني.. فإني أتحداك أن تذهبي معي إلى شيخ المسرحي الذي يحتفظ بالكثير من حبوب الدخن.. وحيث لا تكون لك قيمة عنده أو هيّا معي إلى (مزهره) حيث يعرفني أهلها كأغلى طعام.. فيحفظون لي قدري.. وهناك.. نعم هناك سأغلبك على أمرك)!!

لقد أراد الشاعر هنا أن يشير من طرف خفي إلى أمثال شيخ المسرحي.. وبعض أهالي قرية (مزهره) الذين يحتكرون حبوب الدخن.. ولا يخرجونها للسوق بتاتا إلا حيث تكون أغلى الأسعار وأفحشها.. وكيف أنهم بهذا الاحتكار قد اضطروا الناس لشراء وأكل هذه البحرية التي لا تستسيغها أنفسهم.. ولا

يأكلونها إلا في أحلك الظروف، لقد أراد الشاعر ذلك وأكثر منه.. وهذا نوع من الأدب رمزي رفيع.. وإن كان شعبيًا!!

وهكذا استرسل الشاعر بنفس طويل على طريقة الحوار هذه.. وقد أشاد فيها وأجاد.. وقال ما شاء أن يقول على لسان الذرة الأجنبية.. والدخن البلدي.

لقد وصف هول الظروف التي يعيشها هو وقومه (لابته) من خلال هذا الحوار الساخر الطريف، واستطاع أخيرًا أن يخلص من ذلك ليدخل في حوار آخر متبرم مع زوجته بالذات.. فقد أتى لها بقليل من الحبوب.. يبدو أنه لم يحصل عليه إلا بعد لأي وعنت فقال لزوجته بغيظ وحنق: (قومي اطحينه واخبزيه، وحذار أن تخرجي منه حبة واحدة(!!) حتى الذباب إذا حام حوله اقتليه!!)

قال لها قومي اطحني كبي الروايا　　　واتركي عنا التجمال والشرايا

والمساس لاتزقرين به للحمايا　　　وان أجا الذبي اعقريه..

ولكن الزوجة قالت له: (لا خوف عليه من الذباب.. وإنما المصيبة (القعموص) - هو حشرة صغيرة تنقل الحبوب للأرض وإن كانت لا تستطيع أن تنقل في يومها ما يمكن أن يضير - قالت: وإنما المصيبة هذه الحشرة التي تأخذ بقوة ولكثرة نوعها لا أستطيع فيها قتلاً.. وقد أحرقتني قرصًا وشوت ركابي!!

قالت الذبي يمص إلا المروة　　　غشني القعموص يأخذها بقوة

عينني ركبتي مني مشوه　　　زادني غلب وضيم!!

وبالرغم من حرص الزوجة ولطف اعتذارها.. وشدة معاناتها.. يدخل معها الزوج بلا سبب إلا الغيظ من واقع الحال في خصام حاد فيقول لها: أنت السبب فيما أعاني من هم وغم لأنك ولدت لي سبعة أولاد.. وكيف أستطيع في هذه المجاعة أن أعولهم وأعولك.. فلا سقى الله يوما تزوجتك.. إنني لو لم أفعل..

وكنت الآن وحدي لاكتفيت بالقليل أسد به الرمق ـ أراد الشاعر هنا أن يبالغ في وصف المجاعة.. حتى ليتمنى المرء أن يتخلص من أولاده وزوجته فهو يعتبرهم مصدر كل بلاء.

ولكن الزوجة الطيبة الوفية تطمن خاطره وتقول له: اصبر حتى يأتي الله بالفرج

قالت اصبر حتى يرضى الله علينا ويكثر خير تملا به الدنيا

ولكن الزوج المتبرم المقهور لا يجد متنفسًا إلا في لوم زوجته وتقريعها من غير ذنب جنته، وأنت ترى أن الشاعر هنا يؤكد أن الفقر مصدر كل بلاء في محيط الأسرة ذاتها والمجتمع بكامله!!

وهكذا.. وهكذا يسترسل الشاعر في قصيدته المفعمة بالسخرية والتهكم، وشكوى الزمان.. وإنما اقتطفت القليل جدًّا من قصيدته.. وإلا فهي لوحة إنسانية رائعة مفعمة.. وإنها.. وإنها.. وإنه الأدب الشعبي في الجنوب!!

المنهل شهر ذي الحجة ١٣٨٢هـ

المعارك الحربية
في الشعر الشعبي في الجنوب

كان للشعر منذ عصر الجاهلية الموغل في القدم.. أكبر الأثر وأعمقه في إذكاء روح النخوة والحماسة والشجاعة بين صفوف المقاتلين قبل وأثناء المعارك التي تقع بين القبائل العربية بعضها البعض.. أو بينها وبين سواها من الشعوب الأخرى.

ثم كان للشعر بعد أكبر وأوفى فضل في تصوير وتسجيل وحفظ تواريخ الكثير من تلك المعارك.. ولولا الشعر لضاع الكثير من أيام العرب في معاركهم وغزواتهم ومجال حروبهم. كان ذلك في عصور الجاهلية.. أما في صدر الإسلام فلم يكن ليفوت الرسول ﷺ مدى أثر الشعر في المنافحة والمكافحة وإذكاء الحماسة وبث روح الشجاعة والنخوة ثم ما له من أثر ووقع في نفوس المشركين من قريش أو غيرهم حتى لقد قال ﷺ لشاعره حسان بن ثابت أو كعب بن مالك - لا أذكره - ما معناه: (**والله لشعرك أوقع في نفوسهم من كذا وكذا**) - لا أذكر النص - وأنا هنا أكتب من الذاكرة.. ولكن الحديث مشهور ويمكن الرجوع إليه بيسر لو كان الرجوع إليه من ضرورات هذا البحث المتواضع. وإنما أردت مجرد الإشارة إلى ذلك مع ما تتضمنه من تبرك بذكر الرسول ﷺ.

وأما العصور اللاحقة فقد ظل للشعر الأثر وربما الأكثر.. وكان لكل خليفة شاعره.. أو ربما أكثر من شاعر، هم بمثابة وزراء الإعلام في تلك العصور.. بل إن أثرهم في الحقيقة أكثر بكثير من أثر وزراء الإعلام هذه الأيام، سواء على المستوى الشعبي أو الرسمي!!

إن التأثير الذي كان يتركه شعر أولئك الشعراء وما يثيره في النفوس من

حمية ونخوة وحماسة سواء بين أوساط الشعب.. أو بين صفوف المقاتلين أو في نفس الخليفة نفسه لهو أقوى أثرًا وأبعد تأثيرًا من كل ما (يفبركه) رجال الإعلام اليوم من أخبار أو تعليقات في الصحف أو الإذاعة أو التلفاز!!

وربما لم يكن للشعر كل هذا الأثر أو التأثير لدى سائر الأمم كما كان لدى العرب..

وبخاصة في الجزيرة العربية فإنه كان وما زال يتمتع بنفس القدر ـ تقريبا ـ من الأثر أو التأثير.

كان ذلك حتى في عصور انحطاط اللغة العربية الفصحى في القرون الأخيرة.. ووجود ما يسمى بالشعر الشعبي أو العامي في كل منطقة أو في كل موقع قبيلة من القبائل المنتشرة على طول امتداد جزيرة العرب.

وأصبح لشعر كل جهة اسم يختص به فهو في نجد الشعر النبطي.. وهو في اليمن الشعر الحميني إلى غير ذلك من التسميات في مختلف أنحاء الجزيرة.. بل إن لكل نوع من هذا الشعر الشعبي تسميته الخاصة به.. وهي أسماء كثيرة جدًّا بكثرة تعدد وتنوع هذا الشعر في كل منطقة!!

وإنني لأعرف شخصيًّا الكثير من التسميات ـ التي لا ضرورة لذكرها هنا ـ لأنواع الشعر الشعبي في الجنوب وحده، وهو موضع بحثنا هذا.. وأنا أقصد بالجنوب هنا: منطقة جيزان وحدها وليس منطقة عسير أو نجران أو اليمن أيضًا.. ذلك أن لكل من هذه المناطق الكثير من صنوف الشعر الشعبي.. ومن ثم الكثير من التسميات الخاصة بكل صنف أو نوع منه.

وقد قام الشعر الشعبي على اختلاف لهجاته وفنونه بالدور نفسه الذي كان يضطلع به الشعر الفصيح في مختلف المجالات تقريبًا.. وكل ما هنالك هو اضطراب اللغة وعاميتها في الشعر الأخير.. أي الشعر الشعبي.

أما الصور والأخيلة والإبداع.. فقد ظل ابن الجزيرة البار على درجة كبيرة من الاحتفاظ بها!!

كذلك ظل نفس الأثر أو التأثير كما هو على مر عصور الشعر الفصيح.. بل أصبح للشعر الشعبي - بعد انحسار اللغة العربية الفصحى عن موقعها المتميز - من الأثر أكبر بكثير مما للشعر الفصيح لأن الشعر الفصيح - مع الأسف الشديد - لم يعد يخاطب غير قلة قليلة من المثقفين وقلة أقلّ من المثقفين المتذوقين ليس إلا!!

أما الشعر الشعبي.. فهو يخاطب القاعدة الشعبية العريضة.. أو الغالبية العظمى من عامة الناس!!

يشهد على ذلك ما نشاهده في المواسم والمناسبات التي ينقلها التلفاز، فنرى ونسمع كيف أن الشاعر الفصيح المبدع لا يقابل بغير هز بعض الرؤوس القليلة كدليل على الاستحسان والتفهم.

أما إذا اعتلى المنبر أحد الشعراء الشعبيين فتلتهب الأكف بالتصفيق، وتعلو همهمات القوم كبيرهم وصغيرهم، سريهم وحقيرهم، غنيهم وفقيرهم في حين لا يحظى بأدنى ذلك شاعر الفصحى المصقع المبدع!!

وإنني لا أقول كل ذلك تأييدًا للشعر الشعبي.. بل أقوله تقريرًا وتأكيدًا لأمر واقع - وإن كان مؤسفًا!!

والغريب حقًّا أن انتشار التعليم لم يقض على الشعر الشعبي في بلادنا أو في البلدان العربية التي سبقتها في مجال التعليم.. بل هناك الكثير من شعراء الفصحى المجيدين ينظمون الشعر الشعبي ويكثرون منه.. وهذا مناقض تمامًا لما يأمله دعاة الفصحى ورعاتها من أن انتشار التعليم هو الكفيل بالقضاء على الشعر الشعبي وازدهار الشعر الفصيح. ولكن الواقع غير ذلك فالشعر

الفصيح ما زال ينحدر ويتدحرج ويتفرنج.. بينما الشعر الشعبي راسخ القدم قوي الأثر والتأثير.. والأرجح أن الشعر الشعبي سيبقى كذلك ما بقيت العامية في لغة القوم ولهجاتهم.

على أنني - رغم ذلك كله - لا أرى رأي الداعين إلى نبذ الشعر الشعبي وعدم تدوينه أو تسجيله أو دراسته.. فإن هذا الشعر الشعبي - وخاصة في الجزيرة العربية - قد احتفظ بالكثير جدًّا من خصائص وأغراض الشعر القديم فيما عدا فصاحة اللغة!!

وقام هذا الشعر - أي الشعر الشعبي في الجزيرة - بالدور نفسه الذي كان يقوم به الشعر الفصيح في كافة المجالات على وجه التقريب، وبخاصة في مجال تصوير وتسجيل وحفظ تواريخ الأيام والمعارك التي كانت تدور بين القبائل العربية في جزيرتها.. أو بينها وبين الشعوب الأخرى.

وهذا وحده من الجوانب التي لا يستهان بها.. والتي تستدعي - بالضرورة - كل عناية بتدوين ودراسة هذا الشعر الشعبي.. وذلك فضلاً عن الجوانب الأخرى الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية التي يمكن للباحثين استخراج ملامحها مما تركه لنا هذا التراث الضخم من الشعر الشعبي مما لم ينهض به غيره من الشعر أو النثر!!

وكلنا نعرف أنه عند التدوين في اللغة العربية وآدابها وتاريخها وأنسابها.. بل وحتى في تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لم يجد رجال التدوين والتفسير ما هو أغزر مادة متاحة بين أيديهم من الشعر الجاهلي.. فاستعانوا به خير استعانة في كل مجال.. فهو من الشواهد في التفسير، وفي التاريخ، وفي النحو، وفي البلاغة، وفي الأنساب إلخ.. إلخ!!

ومن الغريب أن التاريخ يعيد نفسه بالنسبة للشعر الشعبي، فهو الآن يحتفظ

في الواقع ـ أقصد ما وصلنا منه عن طريق الرواية أو التدوين ـ بما لم يحتفظ به رجال التاريخ أو شعراء الفصحى، فإذا لم نعتن بالشعر الشعبي ـ لهذا السبب وحده ـ ذهب كل ذلك بددا.. أو هدرا مدرا كما يقال!!

ومما يدل دلالة أكيدة قاطعة على ما للشعر الشعبي من أثر بالغ في النفوس أن الكثير من الأحداث التاريخية القريبة أو البعيدة منذ وجد الشعر الشعبي إلى الآن.. يحفظها الناس ـ عامة الناس تقريبًا ـ عن طريق هذا الشعر.. أكثر بكثير مما يحفظونها عن طريق الكتب المدونة ـ إن وجدت ـ حتى الذين على جانب كبير أو يسير من الثقافة تمكنهم من الاستفادة من الكتب المدونة، يشاركون العامة من الناس في حفظ تراثهم عن طريق الشعر الشعبي أكثر مما يحفظونه عن طريق الكتب التي يمكنهم الاستفادة منها.

وهذا ما حصل ويحصل إلى الآن في مختلف مناطق المملكة.. بل وفي سائر أنحاء الجزيرة العربية والخليج العربي.

وإنني شخصيا كواحد من المنسوبين إلى الأدب والثقافة ـ حقًا أو زورًا ـ وكواحد أيضًا من أبناء منطقة جيزان.. تسنى لي ـ منذ صباي الباكر ـ أن أعرف الكثير من الأحداث والوقائع والمعارك التاريخية التي حدثت في المنطقة عن طريق الشعر الشعبي أكثر مما تسنى لي أن أعرف ـ قبل أو بعد ـ من قراءاتي غير القليلة في مختلف الكتب!!

وإذا كان لا بد من الأمثلة على ذلك فإنني قد جعلت عنوان بحثي أو مقالي هذا: (المعارك الحربية في الشعر الشعبي في الجنوب).. وكان يمكنني أن أتوسع في هذا البحث وأتتبع الكثير من قصائد الشعر الشعبي في هذا الباب، وهي كثيرة جدًّا منها ما هو مدون.. ومنها ما لا يزال محفوظا في صدور الرواة من كبار السن في المنطقة.

ولكن ما دام بعض القليل يغني عن الكثير فإنني أكتفي هنا بالإشارة إلى

قصيدة واحدة بذاتها لها شهرة كبيرة جدًّا في المنطقة.. وهي قصيدة اقتطف محمد بن أحمد عيسى العقيلي غير القليل منها في كتابه (الأدب الشعبي في الجنوب) وقدم لها وشرحها.. وكان لا بد أن يفعل كل ذلك لأنه لا يستطيع تجاهل شهرة هذه القصيدة، وهو بصدد الأدب الشعبي في الجنوب.

وأنا هنا ـ وقد اتخذت من هذه القصيدة ذاتها مثالاً على صدى المعارك الحربية في الشعر الشعبي في الجنوب ـ أجد من الواجب إعادة نشر هذه القصيدة مع شرح اللازم لمعانيها حيث لا يمكن الإفادة منها ـ لغير أبناء منطقة جيزان ـ دون هذا الشرح.. وإن كانت الطريقة التي سأتبعها في الشرح ، وهي شرح كل بيت أو أبيات على حدة أولاً بأول ، ستحول دون التمتع بالاسترسال في قراءة القصيدة مستقلة وخاصة بالنسبة لأهالي منطقة جيزان.

ولا بد من التنبيه ـ قبل كل ذلك ـ إلى أنني قد عمدت إلى الاختصار الشديد ـ وأرجو أن لا يكون مُخِلاً ـ سواء في المقدمة التي سأضعها بين يدي القصيدة أو في الشروحات.. فالمقصود هو اللمحة أو الدلالة العابرة.. وليس البحث المستقصي.

وسنبدأ بتلخيص ظروف المعركة التي قيلت فيها القصيدة[1].. ثم نتحدث عن الشاعر وقصيدته الشهيرة وذلك على النحو التالي:

كانت الدولة العثمانية تبسط نفوذها على كثير من الأقطار الإسلامية.. وكانت منطقة جيزان ـ كما هو مفروض ـ خاضعة للحكم العثماني.. ولكن هنا وهناك حركات للاستقلال بالحكم في مناطق مختلفة من مناطق نفوذ الدولة العثمانية، ومن هذه الحركات حركة الإدريسي في المخلاف السليماني (منطقة جيزان).

ولكن الدولة العثمانية لم تسكت عن الإدريسي أو لم تغض عنه حيث أرسلت

---

(١) قصة هذه المعركة والقصيدة والشاعر على جانب كبير من الشهرة في المنطقة إلى الآن.. وقد أوردها الأستاذ العقيلي في كتابه (تاريخ المخلاف السليماني).

جيشًا لَجِبًا مزوّدًا بعدة وعتاد على جانب كبير من التطور والقدرة على التدمير بالقياس إلى ما يملكه الإدريسي أو رجال القبائل في المنطقة من أسلحة فردية متواضعة.

وصل الجيش التركي عبر البحر إلى ميناء مدينة جيزان، ودخل مدينة جيزان نفسها.. في الوقت الذي استثار الإدريسي نخوة كافة القبائل في المنطقة.. ودقت طبول الحرب فاستجابت جميع القبائل للإدريسي وتجمعت في منطقة تكثر فيها أقواز الرمال وأشجار الحمض، وتفصل بينها وبين مدينة جيزان التي يعسكر فيها الجيش الأتراك سبخة عريضة مكشوفة عارية من الشجر أو غيره.

وكان لا بد للجيش التركي أن يتقدم لحرب القبائل عبر هذه السبخة المكشوفة، خاصة وقد احتل رجال القبائل مصادر مياه جيزان (الآبار).. فتقدم الجيش التركي بقضّه وقضيضه وعدده وعدّته حتى وصل أو شارف على موقع يسمى (الحفاير) بالقرب من مواقع وتجمعات القبائل الذين انهالت عليهم قذائف المدفعية ونيران الرصاص المنطلق بغزارة.. ولكن رجال القبائل لم يردوا على النار بالمثل مما غرر بالجيش التركي وجعله يقترب من القبائل أكثر فأكثر حتى أصبحوا بالنسبة لرجال القبائل على المرمى المناسب، وهناك انهال الرصاص من الجانبين وحمي وطيس المعركة حتى التحم الكل بالكل.. فكان السلاح الأبيض، ورجال القبائل أخبر به ففتكوا فتكًا ذريعًا جدًّا بالجيش التركي.. وكانت مذبحة هائلة وهزيمة ساحقة ماحقة للجيش التركي الذي تاهت فلوله في السباخ.. ولم يبق منه غير من أراد له الله النجاة.

وهكذا كانت نتيجة المعركة نصرًا عزيزًا مؤزرًا لرجال القبائل في منطقة جيزان (وهذه هي قصة المعركة باختصار شديد).

وهنا كان لا بد من لسان حالهم وشاعرهم الشعبي الشهير (عبدالله امسلامي)[1] أن يعبر بجدارة واقتدار عما خالج نفوسهم من زهو واعتزاز بما أحرزوه من نصر ومجد وسؤدد على الدولة العلية.

يقول الشاعر:

١ ـ بلغ السلطان وقل له طحت في الردى قام لها السيد محمد صحب الهدى

ونجمكـــــم غـــــرب

المعنى: يستهل الشاعر مخاطبًا المجهول بقوله: (بلغ السلطان) ـ يقصد السلطان التركي ـ وبقية المعنى واضح.. أما (السيد محمد).. فهو محمد الإدريسي.. وانظر تنبؤ الشاعر بغروب نجم الدولة العثمانية.

٢ ـ طعت هـرج الوزراء واللي مجالس وأنت في اسطنبول متفسر وجالس

وتبنـي في قصورك والمجالس يا هـــلاك الســـلطنة

المعنى: (طعت) طاوعت (هرج) كلام الوزراء والمجالسين لك في اسطنبول (متفسر) منشرح البال (جالس) قاعد الهمة عن مواقع نفوذ سلطنتك لا يهمك غير بناء القصور و(المجالس).. وكل ذلك لا يجر بالضرورة إلا إلى (هلاك السلطنة).

وقد حدث ذلك كله بالفعل فالترف واللهو والبذخ قد جر إلى انتهاء الدولة العثمانية بالفعل.. كما أشار الشاعر!!

٣ ـ أنت عالم بالتواريخ في الكتايب حيث يظهر شخص من نسل النجايب

يمـلك الكفـار شـرقا والمغارب شـخص في صـبيا صـبا

المعنى: يخاطب السلطان بأنه ـ أي السلطان ـ على علم بما ورد في التاريخ والكتب (الكتايب) وما تشير إليه من أنه يظهر شخص من آل بيت الرسول ﷺ

---

(١) أرجو أن يلاحظ القراء أن (أم) في أية كلمة أو اسم يرد في هذا البحث هي بدلا من (أل) على طريقة: أمصيام في أمسفر!!

(نسل النجايب) يملك البلدان شرقًا وغربًا - يقصد المهدي المنتظر - وأن هذا الشخص قد ظهر في (صبيا) البلدة المعروفة إلى الآن في منطقة جيزان.

٤ - كلهـــا الدنيــــا بشـفه ما حــــــد يقدم بصـــــفه

ذي الفقــــــار مقبـــــوض بكفه أفرق السنين أخضر لون وصفه

نســــل سـيدنا علــي

المعنى: (كلها الدنيا بشفه) أي كل الدنيا تسير برأيه ورغبته.. (ما حد يقدم بصفه) لا يستطيع أي أحد أن يعارضه (ذي الفقار مقبوض بكفه) أي أن سيفه هو السيف المهدى من الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - والمسمى (ذو الفقار).. (أفرق السنين اخضر لون وصفه) أي ذلك هو وصف السيد محمد الإدريسي (نسل سيدنا علي).. الأدارسة - كما هو معروف - من السادة!!

٥ - دق والي السلك من والي الحديدة ودمشـق الشام من أرض بعيـدة

وخـــرج مشـرم يدلي السـيف بيده ويقـــــول أين البـــــوش

المعنى: (دق والي السلك من والي الحديدة) أي أن والي الحديدة قد بعث برقية إلى والي دمشق ليبلغها من ثم إلى اسطنبول (وخرج مشرم يدلي السيف بيده).. (مشرم) هو اسم قائد الجيش التركي القائم بالحملة في جيزان.. (ويقول: أين البوش) (البوش) الهمج أو الرعاع.. أي أن (مشرم) خرج مدليا السيف بيده شاتما ومتحديا أبناء القبائل ومعتبرا لهم مجرد رعاع (بوش)!!

٦ - جهز السلطان يشا بر ميماني بـالعســاكر وصحيح الشيشخاني

النبابيت والمــوازر صف ثاني يحسب أنه يأخذ الشافة عياني

طــاح في ســود الكعــاش

المعنى: أن جيش السلطان خرج يريد (براميماني) البر اليماني، وأنه أي الجيش مجهز بكل عدة وعتاد الحرب (صحيح الشيشخاني) و(النبابيت)

و(الموازر).. ويظن ـ أي الجيش التركي ـ أنه بذلك (يأخذ الشافة عياني) أي يأخذ الراية أو النصر عنوة واقتدارًا.. ولكنه فوجئ وبوغت بالهزيمة المنكرة (طاح في سود الكعاش) يقصد رجال القبائل.. والمعروف أن الشباب بصفة خاصة.. أي الذين يعتمد عليهم في القتال اعتادوا على تربية شعر الرأس حتى يبلغ طوله الكتفين و(الكعشة) مفرد (كعاش) هي شعر الرأس الكثيف الأجعد!!

٧ ـ وردوا امزفة يشون ماء امفضايا والتقى من دونها قرع الغوايا
والسقاية بالعطش ظلوا دعايا رب عين المسلمين

المعنى: أن رجال القبائل قد احتلوا مصادر مياه جيزان (ماء امفضايا) وأن زفة الجيش التركي كانت تقصد هذا الماء (امفضايا) ولكن كان من دونه (قرع الغوايا) رجال القبائل.. وأنه حتى السقاة الذين يجلبون الماء لجيزان ـ رغم عطشهم وقطع مصدر رزقهم ـ يدعون لرجال القبائل بالنصر (رب عين المسلمين)!!.

٨ ـ صاح صايح في العساكر يقلمنها   الذخاير كم عتالة ينقلنها
بحر جيزان والجبل ارتاع منها   قل لهم بكره هجوم

المعنى: أن استعداد الجيش التركي كان على أشده (صاح صايح) وأنهم قد حصروا الجيش والذخائر (يقلمنها) أي كتبوا حصرها بالقلم.. وأن عدد الذين كانوا ينقلون الذخائر كان ضخما جدًا (كم عتالة ينقلنها).. وأنه قد بلغ ضخامتها أن (بحر جيزان والجبل ارتاع منها).. وكل ذلك استعدادًا للهجوم (قل لهم بكره هجوم)!!

٩ ـ لانشا سلم ولا نقبل مساعي   لا حكم والي الحديدة والشراعي
لهنى نجعل يوم في القاع داعي   وأن تغير بندقي وفي ذراعي
واحنا ضارين الصباح

المعنى: (لانشا سلم) يقول القائد التركي (لا نريد سلمًا) ولا نقبل المساعي ما

دام قد أمر بذلك والي (الحديدة) و(الشراعي) ويهدد بأن يجعل ذلك اليوم ترتج له الأرض (له في القاع داعي) ويقول إننا - أي الأتراك - قد تعودنا هجوم الصباح.. (احنا ضارين الصباح)!!

١٠ - برهت الترك في قوة وسلطنة ومن على امسطاح قد هدوا مراطنة
مواجهة بالروس وبالكفين ملازمة متوادعـــــة الســـــماح

المعنى: (برهت الترك).. هجمت صباحا.. و(من على امسطاح قد هدوا مراطنة).. امسطاح مكان مرتفع بجيزان.. و(هدوا) نزلوا.. و(مراطنة) يرطنون باللغة التركية وأنهم كانوا مصممين على الاستماتة حتى النصر.. تلازموا بالأكف وتوادعوا السماح!!

١١ - وضرب مزمار ياعسكار غارة طنش امشـــرم وولع له شـــقارة
ويقول اليـوم ندعـــر به (امناره) ونمســـــي (امواصـــــلي)!

المعنى: دقت طبول الحرب أو الضرب المزمار كأمر بالغارة.. و(طنش امشرم) تاه القائد التركي زهوًا وخيلاء بجيشه (طنش) وزاد في خيلائه أن ولع (شقارة) سيجارة.. ثم قال: نحتل أو نتجه (ندعر) صباح اليوم (امناره) موقع حربي وفي المساء نصل (امواصلي) موقع أيضًا.. وكان ذلك مستحيلاً من حيث تباعد الموقعين على الأقل.. ولكنه غرور القائد التركي و(تطنيشه)!!

١٢ - لفهم (مشرم) طابور بعد طابور ويقـــول للمـــولي لازم صـــابور
حتى تقدم خلينا حافور بحافور والذخـــــاخير والجليـــــل

المعنى: (لفهم مشرم) أي جمعهم قائدهم التركي (مشرم) وقال للأوائل منهم (للمولى) لا بد أن تصبروا (لازم صابور حتى تقدم خلينا حافور بحافور) يسخر الشاعر من لغة الترك العربية المكسرة (صابور) و(حافور) أي الصبر، والحافر.. وهي سخرية لاذعة!!

١٣ ـ حيث وان الحرب مغلوب وغالب ضاريين بالسوء شبان وشايب

حين ترى حمر الطرابيش والمقاصب كالجـــــــراد المنتشـــــــر

المعنى: يواصل القائد التركي حديثه لجنده ويثير نخوتهم بأنهم قد اعتادوا (ضاريين السوء).. شيبهم وشبانهم (حين ترى حمر الطرابيش والمقاصب).. المقاصب هي الأحزمة التي يضعون فيها الذخيرة على بطونهم.. وأن كثرتهم (كالجراد المنتشر).

١٤ ـ شل بمناظور من فوق امطلع كل باشه قد خرج بالخمر طلع

ويقـــول اليوم ما عد به توقع الســما ترمج بنا والأرض ترزع

نازلـــين بـــه يا عــــرب

المعنى: (شل بمناظور) رفع القائد التركي ناظوره وأخذ ينظر منه (من فوق امطلع) ـ مكان مرتفع في جيزان ـ وأنه قد بلغ من صلف الجيش التركي أن خرج (كل باشا) منتشيا بالخمر (ويقول له ما عد به توقع) أي لم يعد في الإمكان أن يقول أحدهم لزميله (توقع أي تريث).. فالسماء ترمج والأرض ترزع من هول الحرب الوشيكة النازلة بالعرب!!.

١٥ ـ وضرب مدفع من البابور لصاعد السـما والأرض رجت بالصواعق

مــد في امسـبخه صفوف

المعنى: أن الجيش التركي قد مهد لتقدمه بقصف مدفعي شديد.. ارتجت من صواعقه السما والأرض.. وكان مصدر الضرب المدفعي (البابور) الباخرة (لصاعد) أي كان الضرب لجهة الشرق (صاعد) حيث تجمع القبائل.. وأن صفوف الجيش التركي قد امتدت وتقدمت في (السبخة) الفاصلة بين مدينة جيزان وبين موقع تجمع القبائل شرقًا في (امحفاير)!!

١٦ ـ حين سمع وحي المكاين والمدافع قــال لهم زلوا بنا هــذي المرافع

ما دري دون (امحفاير) عقم رافع   واذرعاته مقوية كامضبع شاجع

يشـــــربون امعنقلـــــيز

المعنى: أن القائد التركي قد اطمأن تحت ظل القصف المدفعي وهدير المكائن إلى قوته فأمر جيشه بالتقدم إلى المرتفعات (قال لهم زلوا بنا هذي المرافع) ولكنه لجهله وغروره لم يعلم أن دون الموقع الذي يريده (امحفاير) سدًّا منيعًا (عقم رافع) وأن وراء هذا العقم رجال القبائل الأقوياء الشجعان (يشربون امعنقلين) يصبرون على مرارة الحرب!!

١٧ ـ يوم لتنين حث له في امقاع دبكي   كل باشه في امسباخ قد بات متكى

من سلم منهم دخل جيزان يبكي   يشـــرع امباحـــة عـــوام

المعنى: يذكر الشاعر أن الحرب كانت يوم الاثنين وأنه قد تجاوب لذلك اليوم (حث له) ارتجاج الأرض (في امقاع دبكي) وأن الهزيمة التي لحقت بالأتراك في ذلك كانت إلى حد أن (الباشوات) أنفسهم وليس عامة الجند فقط أضحوا مجندلين في السباخ.. ويهزأ الشاعر بأوضاع مصارع الباشوات فيصفهم صرعى قتلى بأنهم كانوا متكئين (متكي) كالعهد بهم في الاتكاء.. وأن من سلم منهم في ذلك هو الذي اندحر على عقبه و(رجع جيزان يبكي).. وأن بعضهم لذهوله وفزعه (يشرع امباحه عوام) دخل يعوم في عمق البحر وهو يحسب نفسه على اليابسة!!

١٨ ـ كان ريت الترك يوم ظلوا هرابه   والعــــرب متقفية فيهم ضرابه

غالي امنبــوت واميزر ســلابه   كســـب خيــل والبغــــال

المعنى: يقول الشاعر: ليتك رأيت الترك (كان ريت يوم ظلوا هرابه) والعرب - رجال قبائل المنطقة - يتقفونهم ويمعنون فيهم ضربًا (والعرب متقفية فيهم ضرابة) كما يمعنون فيهم سلبًا لأغلى بنادقهم (امنبابيت واميزر) وخيلهم وبغالهم!!

١٩ - طلعت لخبار لاسطنبول عشية   نكس السلطان والدولة العلية
قال لهم هات الحقائق والدعية   ألف مقتول من زخيف الجامكيه
في امسباخ ظلوا عطين

المعنى: تطايرت البرقيات عشية ذلك اليوم بأخبار الهزيمة المنكرة.. فلم يكن من السلطان إلا أن نكس رأسه هو ودولته العلية - كما كانت توصف - ثم أفاق السلطان من ذهوله وتنكيسه وزمجر في قادة جيشه قائلاً: (هات الحقائق والدعية) أي هات الأخبار الحقيقية وليس الدعاوي!!

ثم يتساءل السلطان في استنكار شديد: (ألف مقتول من زخيف الجامكية).. أي هل يعقل أن يقتل ألف ضابط وجندي تركي بأسلحة العرب (زخيف الجامكية) وأن هذا الألف من الضباط والجنود قد تركوا في السباخ للعطن والعفن!!

وبعد فالقصيدة طويلة جدًا.. وتحتاج مع الشروحات اللازمة لها ربما إلى مجلد بأكمله.. وإنما هدفنا هنا هو إعطاء القارئ لمحة عابرة تكفيه لتكوين فكرة عن دور الشعر الشعبي في الجنوب في مثل هذه المواقف.. وهو دور لا يستهان به أبدًا.. بل هو جليل الشأن عميق الأثر في نفوس القوم.

ولعل في ما ألمحنا ما يكفي لإعطاء فكرة موجزة للقارئ الكريم.. ولنا بعون الله لقاء عن الغزل في الشعر الشعبي في الجنوب.

مجلة الفيصل رجب ١٤٠٢هـ

كتب للمؤلف

* لفح اللهب في النقد والأدب
* مناوشات أدبية
* أدب وأدباء
* معركتان أدبيتان مع العقيلي وطبانة
* حصاد الكتب - عرض وتحليل ونقد
* سنابل الشعر - دراسات ومطالعات وتحليل
* مناقرات صحفية - في السيرة الذاتية والنقد والأدب
* بداياتي في الصحافة والأدب
* ركض الخاطر - لذعات وتفشات
* تحت الشمس
* على الماشي
* الوخزات - من الأدب الساخر
* كارثة المخدرات
* رياح الخريف وعواصف النقد الأدبي
* شعر وشعراء - لمسات ونقد أدبي مهادن
* همسات ومجاهدات من الأدب الذاتي الساخر
* مناهجنا التراثية بين الجهل والجحود
* كارثة صدام
* عاصفة الصحراء

سلسلة مكتبتي الصغيرة
وتشمل كثيرًا من الكتب قيد الطبع

مشروع النشر التوعوي
مكتبة التوعية

سلسلة كتب توعية، دينية، اجتماعية، تربوية، تنويرية
مع اهتمام خاص بالقضايا المعاصرة، الإرهاب، المخدرات، الانحراف

تصدر تباعا عن الناشر: علي محمد العُمير

هدفنا الأساسي الدافع لإصدار هذه السلسلة بهذا الحجم الصغير هو - بكل بساطة - نشر، وتسهيل القراءة لموضوعات نحرص ونتوخى أن تكون على جانب كبير من الأهمية في شتى المجالات العلمية، والفقهية والدينية والاجتماعية إلى غير ذلك مما يجب الوعي به بالضرورة.

ولا شك أن حجم كتب السلسلة - مع الاختصار، والدقة - يجعل القراءة سهلة ميسورة، والاستفادة العظيمة منها متاحة لكل قارئ بأيسر السبل؛ ليس في موضوع أو جانب بذاته بل نراعي كثيرًا في اختيار موضوعات كتب هذه السلسلة كثرة التنوع، وتعدد الجوانب، ومدى الأهمية والحرص على كل مفيد لنا في ديننا ودنيانا، والله وحده الموفق، والهادي إلى سواء السبيل.

صدور الدفعة الأولى وبيانها فيما يلي

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	نصيحة المسلمين بأحاديث خاتم المرسلين	للإمام محمد بن عبدالوهاب
٢	يسر الإسلام وأصول التشريع العام	للعلامة محمد رشيد رضا
٣	إعداد الشباب لتحديات المستقبل	معالي الدكتور محمد أحمد الرشيد
٤	رسائل في إصلاح المجتمع	محمد الخضر حسين - شيخ الأزهر الأسبق
٥	القاتية - مساجلة شعرية وفتوى رسمية	للعلامة حافظ بن أحمد الحكمي
٦	عوامل تحصين الأمة	د. أحمد محمد الخراط
٧	السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية	للإمام تقي الدين ابن تيمية
٨	وقاية المجتمع من تعاطي المسكرات والمخدرات	أ.د. عبدالله الأهدل - أستاذ دراسات عليا
٩	حياة الأمة	محمد الخضر حسين - شيخ الأزهر الأسبق
١٠	المخدرات - توثيق علمي ورسمي ودولي	علي محمد العمير

علما بأن الدفعة الثانية (١٠ كتب) أيضًا تحت الطبع، كما نأمل في صدور الدفعات الأخرى تباعًا - إن شاء الله.

الفهرس

بيان بمطبوعات النادي الأدبي في جازان منذ تأسيسه عام ١٣٩٥هـ

م	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة الطبع
١	التقرير السنوي للنادي	النادي	١٣٩٦هـ
٢	قصص من الجنوب	مجموعة من الشباب	١٣٩٧هـ
٣	مسابقة الشعر	مجموعة من الشباب	١٣٩٧هـ
٤	الينابيع (شعر)	محمد بن علي السنوسي	١٣٩٨هـ
٥	الأدب الشعبي	محمد أحمد العقيلي	١٣٩٨هـ
٦	أبو سفيان بن حرب	يحيى محمد الحارثي	١٣٩٩هـ
٧	الأرض والحب (شعر)	أحمد يحيى البهكلي	١٣٩٩هـ
٨	مع الشعراء	محمد بن علي السنوسي	١٣٩٩هـ
٩	المعجم الجغرافي	محمد أحمد العقيلي	١٣٩٩هـ
١٠	محاضرات النادي	مجموعة من الأساتذة	١٤٠٠/١٤٠١هـ
١١	مع الشباب في تنمية القدرات	د. زاهر عواض الألمعي	١٤٠١هـ
١٢	الآثار التاريخية	محمد أحمد العقيلي	١٤٠١هـ
١٣	طيفان على نقطة الصفر (شعر)	أحمد يحيى البهكلي	١٤٠١هـ
١٤	نفحات من الجنوب (شعر)	محمد بن علي السنوسي	١٤٠١هـ
١٥	ليلة في الظلام (قصة)	محمد زارع عقيل	١٤٠١هـ
١٦	الصندوق المدفون (قصة)	طاهر عوض سلام	١٤٠١هـ
١٧	أمسية فلسطينية (شعر)	إعداد النادي	١٤٠١هـ
١٨	وجوه من الريف (قصة)	حجاب بن يحيى الحازمي	١٤٠١هـ
١٩	الملك أبو الفداء	ياسر فتوي	١٤٠١هـ

م	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة الطبع
٢٠	بين جيلين (قصة)	محمد زارع عقيل	١٤٠١هـ
٢١	مطولة علي أحمد باكثير	د. حلمي محمد القاعود	١٤٠١هـ
٢٢	الأدب وموقفه من الحدث (محاضرة)	علوي طه الصافي	١٤٠٢هـ
٢٣	الحلقة المفقودة بين الموشح والحميني	عبدالرحمن محمد الرفاعي	١٤٠٢هـ
٢٤	حبيبتي والبحر (شعر)	إبراهيم عمر صعابي	١٤٠٢هـ
٢٥	الأعمال الشعرية الكاملة	محمد بن علي السنوسي	١٤٠٣هـ
٢٦	من ثمرات الكتب	عبدالسلام هاشم حافظ	١٤٠٤هـ
٢٧	السنة ومعرفة علوم الحديث	عبدالحميد إبراهيم سرحان	١٤٠٤هـ
٢٨	العكوتان والجيولوجيا	راشد قاسم الشيخ	١٤٠٤هـ
٢٩	دور الإعلام في بناء الإنسان	محمد كامل الخجا	١٤٠٤هـ
٣٠	نظرات في العلم والأدب	مجموعة أعضاء النادي	١٤٠٥هـ
٣١	عن الحب ومنى الحلم (شعر)	علي أحمد النعمي	١٤٠٥هـ
٣٢	الوحي والقرآن	عبدالحميد إبراهيم سرحان	١٤٠٥هـ
٣٣	أبجديات في النقد والأدب	حجاب يحيى الحازمي	١٤٠٥هـ
٣٤	في حكم الجهر بالبسملة والإسرار	تأليف: الحسن بن خالد الحازمي تحقيق: علي أبو زيد الحازمي	١٤٠٥هـ
٣٥	الرحيل إلى الأعماق (شعر)	علي أحمد النعمي	١٤٠٦هـ
٣٦	إطلالة على الشعر السعودي	فوزي خضر	١٤٠٦هـ
٣٧	الحفلة (قصة)	عبدالله باخشوين	١٤٠٦هـ
٣٨	دموع الندم (رواية)	أحمد علي محمود	١٤٠٦هـ
٣٩	ترانيم على الشاطئ (شعر)	علي محمد صيقل	١٤٠٦هـ

م	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة الطبع
٤٠	تقرير الجمعية الخيرية	تقرير أعضاء اللجنة	١٤٠٦هـ
٤١	أحلامي (فن تشكيلي)	خليل حسن خليل	١٤٠٦هـ
٤٢	الحياة في ظل العقيدة الإسلامية	زيد محمد المدخلي	١٤٠٧هـ
٤٣	الكتابة خارج الأقواس	سعيد السريحي	١٤٠٧هـ
٤٤	حوار على بوابة الأرض	عبده خال	١٤٠٧هـ
٤٥	حمدونة (قصة)	عبدالله الشباط	١٤٠٨هـ
٤٦	الزهور تبحث عن آنية (قصة)	عبدالعزيز مشري	١٤٠٨هـ
٤٧	نبذة تاريخية عن التعليم في تهامة وعسير	حجاب بن يحيى الحازمي	١٤٠٨هـ
٤٨	الأجوبة على المسائل التي الاختلاف فيها من الاختلاف المباح	تأليف: عبدالرحمن أحمد البهكلي تحقيق: علي أبو زيد الحازمي	١٤٠٩هـ
٤٩	الأواني الخشبية التقليدية عند العرب	د. سليمان حمود حسن	١٤٠٩هـ
٥٠	الأفنان الندية ج١	زيد محمد المدخلي	١٤٠٩هـ
٥١	جراح قلب (شعر)	علي أحمد النعمي	١٤٠٩هـ
٥٢	رواد علم الجغرافيا	د. علي عبدالله الدفاع	١٤٠٩هـ
٥٣	طائر الليل (قصة)	عمرو العامري	١٤٠٩هـ
٥٤	أغنية للوطن (شعر)	علي محمد صيقل	١٤٠٩هـ
٥٥	فرَسان الناس والبحر والتاريخ	إبراهيم عبدالله مفتاح	١٤١٠هـ
٥٦	ألسنة البحر (قصة)	أحمد إبراهيم يوسف	١٤١٠هـ
٥٧	أمير الحب (رواية)	محمد زارع عقيل	١٤١٠هـ
٥٨	أشرعة الصمت (شعر)	حسين محمد سهيل	١٤١١هـ

م	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة الطبع
٥٩	عرس القرية (قصة)	محمد منصور مدخلي	١٤١٠هـ
٦٠	من أحاديث السنوسي	عبدالعزيز علي الهويدي	١٤١٠هـ
٦١	دراسات في شعر محمد علي السنوسي	مجموعة مؤلفين	١٤١٠هـ
٦٢	فن الرواية في الأدب السعودي	د.محمد صالح الشنطي	١٤١١هـ
٦٣	التاريخ الأدبي لمنطقة جازان جـ١	محمد أحمد العقيلي	١٤١١هـ
٦٤	قراءات نقدية تحليلية للقصة	د. محمدين يوسف	١٤١٢هـ
٦٥	عقبات في طريق الدعوة	د. إبراهيم عباس	١٤١٢هـ
٦٦	ما اتفق لفظه واختلف معناه	تأليف: ابن العميثل تحقيق: د. محمود شاكر سعيد	١٤١٢هـ
٦٧	أوصاف الشعر عند العرب	د. عبدالله باقازي	١٤١٢هـ
٦٨	من شعر علي بن محمد السنوسي	د. عبدالله أبو داهش	١٤١٢هـ
٦٩	سليمان عليه السلام بين حقائق التلفزة وعلم التقنية	عبدالرحمن محمد الرفاعي	١٤١٢هـ
٧٠	مقامات فرسانية	إبراهيم عبدالله مفتاح	١٤١٢هـ
٧١	لعيني لؤلؤة الخليج (شعر)	علي أحمد النعمي	١٤١٢هـ
٧٢	التاريخ الأدبي لمنطقة جازان جـ ٢	محمد أحمد العقيلي	١٤١٣هـ
٧٣	التاريخ الأدبي لمنطقة جازان جـ٣	محمد أحمد العقيلي	١٤١٤هـ
٧٤	رواد العلوم الرياضية في الحضارة العربية الإسلامية	د. علي عبدالله الدفاع	١٤١٤هـ
٧٥	عشرون عامًا من مسيرة نادي جازان الأدبي	دليل النادي	١٤١٤هـ
٧٦	مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص	تأليف: رولان بارت ترجمة: د. منذر عياشي	١٤١٤هـ

م	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة الطبع
٧٧	الآخرون مازالوا يمرون (قصة)	زكية راشد نجم	١٤١٥هـ
٧٨	بوصلة واحدة لا تكفي (شعر)	علي محمد الأمير	١٤١٥هـ
٧٩	يا ساهر البرق	تأليف: أبي العلاء المعري تحقيق أبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري	١٤١٦هـ
٨٠	تداعيات الرجل الرمادي (قصة)	جبريل أبودية	١٤١٦هـ
٨١	وردة في فم الحزن (شعر)	حسن حجاب الحازمي	١٤١٦هـ
٨٢	رحلة الأمس (شعر)	أحمد إبراهيم الحربي	١٤١٦هـ
٨٣	رائحة التراب (شعر)	إبراهيم عبدالله مفتاح	١٤١٦هـ
٨٤	مناقرات صحفية	علي العمير	١٤١٧هـ
٨٥	محمد أحمد العقيلي (العالم الموسوعي)	د. محمد الصادق عفيفي	١٤١٧هـ
٨٦	النقد الأدبي في آثار الشريف المرتضى	د. أحمد عبدالواحد	١٤١٧هـ
٨٧	قبل أن ينضب الأمل (شعر)	جلوي يحيى حكمي	١٤١٧هـ
٨٨	وكالة الأنباء	عبدالرحمن محمد الرفاعي	١٤١٨هـ
٨٩	التفكير الإبداعي بين النظرية والتطبيق	د. عبدالله الصافي	١٤١٨هـ
٩٠	الزكاة وأحكامها في الرسالات السماوية	يحيى زاهر الحارثي	١٤١٨هـ
٩١	مساء الحب أيتها الشمس	إبراهيم عمر صعابي	١٤١٨هـ
٩٢	جمجمة في ضوء الشمس	محمد عبدالواحد	١٤١٩هـ
٩٣	حوليات سوق حباشة	د. عبدالله أبو داهش	١٤١٩هـ
٩٤	الآنسة أولين (مجموعة قصصية)	فهد أحمد المصبح	١٤١٩هـ
٩٥	الملف الدوري «مرافئ»	العدد الأول	١٤١٩هـ
٩٦	الرواية الإسلامية المعاصرة	د. حلمي محمد القاعود	١٤١٩هـ

م	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة الطبع
٩٧	لا تسلني عن جراحي «شعر»	مهدي أحمد حكمي	١٤١٩هـ
٩٨	أول الرؤيا «شعر»	إبراهيم زولي	١٤١٩هـ
٩٩	وللأقمار باب «شعر»	حسين محمد سهيل	١٤١٩هـ
١٠٠	العيون في ديوان العرب	إعداد: ناصر زمل	١٤٢٠هـ
١٠١	الخصومة بين النحاة والشعراء	د. محمد غالب وراق	١٤٢٠هـ
١٠٢	شعر تميم بن أُبيّ بن مقبل العجلاني	د. عبدالله الفيفي	١٤٢٠هـ
١٠٣	في الأدب السعودي ـ بحوث ومقالات	د. حمد بن ناصر الدخيل	١٤٢٠هـ
١٠٤	الأعمال الشعرية الكاملة	محمد بن علي السنوسي	١٤٢٠هـ
١٠٥	شعر قبيلة مذحج	محمد عبدالله منور	١٤٢٠هـ
١٠٦	عبدالكريم والسلطان (قصة أطفال)	إبراهيم مغفوري	١٤٢٠هـ
١٠٧	ستذكرون ما أقول لكم (شعر)	د. صالح بن سعيد الزهراني	١٤٢٠هـ
١٠٨	قصص الأطفال (ثلاث مجموعات)	مسابقة النادي	١٤٢٠هـ
١٠٩	مقالات رصينة وتحقيقات أمينة	محمد أحمد العقيلي	١٤٢٠هـ
١١٠	الملف الدوري (مرافئ)	العدد الثاني	١٤٢٠هـ
١١١	الحميني الحلقة المفقودة في امتداد عربية الموشح الأندلسي (ط٢)	عبدالرحمن محمد الرفاعي	١٤٢١هـ
١١٢	البطل في الرواية السعودية	حسن حجاب الحازمي	١٤٢١هـ
١١٣	دم البراءة (رواية)	إبراهيم الناصر الحميدان	١٤٢١هـ
١١٤	من مشاهير الحكميين	حسين بن صديق حكمي	١٤٢١هـ
١١٥	الملف الدوري (مرافئ)	العدد الثالث	١٤٢١هـ
١١٦	منحة الصمد في الميسور عن حديث ضمد	القاضي الحسن بن أحمد عاكش	١٤٢١هـ

م	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة الطبع
١١٧	لمحات عن الشعر والشعراء في منطقة جازان خلال العهد السعودي	حجاب بن يحيى الحازمي	١٤٢٢هـ
١١٨	رهبة الظل (شعر)	محمد إبراهيم يعقوب	١٤٢٢هـ
١١٩	حمّى الأحلام (شعر)	أيمن عبدالحق	١٤٢٢هـ
١٢٠	اقرأ باسم ربك	للشيخ/ محمد بن ناصر الحربي	١٤٢٢هـ
١٢١	مفهوم الصدق في النقد العربي القديم	د. حمود الصميلي	١٤٢٢هـ
١٢٢	باقة من فل جازان (شعر)	حسين أحمد النجمي	١٤٢٢هـ
١٢٣	القشور (قصة)	عمر طاهر زيلع	١٤٢٢هـ
١٢٤	عزف على أوتار مهترئة (شعر)	حسن أحمد الصلهبي	١٤٢٢هـ
١٢٥	من شظايا الماء (شعر)	إبراهيم عمر صعابي	١٤٢٢هـ
١٢٦	وطني.. الفجر الباسم (شعر)	عيسى بن علي جرابا	١٤٢٢هـ
١٢٧	حسن النية (قصة)	إبراهيم شيخ مغفوري	١٤٢٢هـ
١٢٨	الوطن ولاء وانتماء (شعر)	أحمد سالم باعطب	١٤٢٢هـ
١٢٩	قسمات وملامح (شعر)	علي بن أحمد النعمي	١٤٢٢هـ
١٣٠	أوراق الربيع	د. يوسف حسن العارف	١٤٢٣هـ
١٣١	المجموعة الشعرية الكاملة (طبعة ثانية)	محمد بن علي السنوسي	١٤٢٣هـ
١٣٢	ملف: (أصوات) العدد الأول	النادي	١٤٢٣هـ
١٣٣	الحملة (مجموعة قصصية)	محمد المنصور الشقحاء	١٤٢٣هـ
١٣٤	فرسان بين الجيولوجيا والتاريخ	إبراهيم مفتاح	١٤٢٤هـ
١٣٥	أغصان تتلظى (شعر)	يحيى صديق حكمي	١٤٢٤هـ
١٣٦	رجّع (شعر)	منصور دماس	١٤٢٤هـ

م	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة الطبع
١٣٧	ملف أصوات (العدد الثاني)	النادي	١٤٢٤هـ
١٣٨	مرافئ (العدد الخامس)	النادي	١٤٢٤هـ
١٤٠	شعر محمد أحمد العقيلي (دراسة تحليلية)	خالد ربيع الشافعي	١٤٢٤هـ
١٤١	الخروج من بوابة الفل (شعر)	أحمد الحربي	١٤٢٤هـ
١٤٢	صلة النحو العربي بعلوم الشريعة الإسلامية	د. عبدالله جاد الكريم	١٤٢٤هـ
١٤٣	دراسات في الأدب والترجمة	د. عبدالوهاب حكمي	١٤٢٤هـ
١٤٤	في دائرة الغبار	د. محمد العيد الخطراوي	١٤٢٤هـ

***


وآخر دعواهم
أن الحمد لله
رب العالمين

طبع بمطابع مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم) بجدة

إخراج : عبدالحليم عبدالكريم
تنفيذ : سيد عبدالفتاح علي